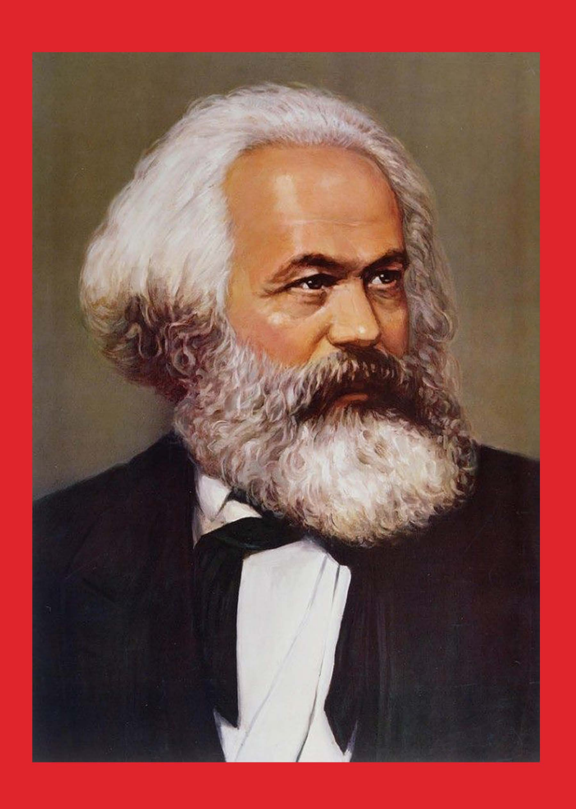
فرانز مهرنغ

كارل ماركس

تاريخ حياته ونضاله





دار الطليعة - بيروت

فرانز مهرنغ

كارل ماركس

تاريخ حياته ونضاله

ترجمة :

خليل الهندي

دار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت

KARL MARX

The Story of His Life

By Franz Mehring

عن المؤلف والكتاب [1]

ولد مؤلف هذه السيرة عام ١٨٤٦ في بوميرانيا ابنا لعائلة المانيـــة ميسورة . ودرس في جامعتي برلين وليبزيغ وحصل على شهادة الدكتوراه فــي الفلسفة . وكانت ميوله في البداية ديمقراطية وليبرالية ، فقد انضم وهــو في الخامســة والعشرين من عمره الى جماعة صغيرة من الديمقراطيين بقيادة غيدو فايس وجوهان جاكوبي ، وكان لهذه الجماعة من الشجاعة ما جعلها تحتج علانية على اقتطاع بسمارك للألزاس واللورين بعد الحرب الفرنسية ـ البروسية .

كانت نشاطات مهرنغ الرئيسية صحافية وادبية ، فظل سنوات عدة يساهم في الصحف الديمقراطية والليبرالية البارزة . وعندما بلغ الثلاثين مــن العمر ، اصبح اشتراكيا من المدرسة اللاسالية (٢) . وكان ما حداه الى اتخاذ هذه الخطوة رغبة كتلك التي تحدو بعض افراد الطبقات المالكة اذ يقتربون من الطبقة العاملــة مزودين بمبادىء ليبرالية وديمقراطية ورغبة في مساعدة العمال ، ولكنه عانى من الفشل الذي لا بد أن ينتهي اليه هذا المنحى . غير انه خلافا لكثيرين لم ينسحب ليهدهد خيبة امله وكرامته المجروحة وينعي على الطبقة العاملة جحودها ونكرانها، ولكنه مضى ليواجه المسألة بشجاعة ، وليخرج من التجربة ماركسيا .

كان لمهرنغ عند ذاك من العمر اربعة واربعين عاما ، وبرغم ذلك اكمل تحولــه الذاتي في عمر يصعب فيه مثل هذا التحول . وعندئذ بدات ألمع فترة في حياته . فنشرت صحيفة «نيوزايت» العديد من المقالات الرائعة له ظهرت فيما بعد عام ١٨٩٣ على هيئة كتاب بعنوان «اسطورة لسنغ» ، فكانت هذه المقالات تأريخا كلاسيكيــا للفترة الفريدريكية في التاريخ البروسي ، ودفعت انغلز الى الكتابة الى كاوتسكي ، الذي كان يرئس تحرير الصحيفة ، معلنا ان المقالات جعلته يتطلع بنفاد صبر الى كل عدد من اعداد الصحيفة . وخلال السنوات التالية ، ظل قلم مهرنغ يسطر عددا لا يحصى من المقالات الفلسفية والتاريخية والعسكرية والادبية والسياسية ، ممــا اكسبه مكانة بارزة في الحركة الاشتراكية العالمية .

---

(١) تعتمد هذه النبذة على مقدمة المترجم الانجليزي وعلى مقدمة المؤلف نفسه .

(٢) نسبة الى لاسال ، الاشتراكي الالماني المعروف .

وفي نهاية القرن الماضي ، وعندما تعاظمت الموجة التحريفية بقيادة برنشتاين، برز مهرنغ في الصفوف الاولى مدافعا عن الماركسية الاصيلة ومناضلا ضد سياسة ادت الى انهيار حركة الطبقة العاملة الالمانية عام ١٩١٤ . وخلال سنوات الحرب ، ظل مهرنغ وفيا لمبادىء الاشتراكية الاممية ، وقضى في السجن شهورا عدة رغم تقدمه في السن . واشترك مهرنغ مع كلارا زيتكين وروزا لوكسمبورغ (الرجلين الوحيدين في الحزب كما كان يسميهما) في تأسيس عصبة سبارتاكوس . وعاش سنوات ما بعد الحرب ليرى هزيمة حركة الطبقة العاملة الالمانية . ثم توفي عام ١٩١٩ عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عاما ، ولا شك في ان نبأ مصرع صديقيه ورفيقيه روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنشت على ايدي الثورة المضادة ، ذلك النبأ الاليم الذي وافاه قبل وفاته بيوم او اثنين ، عجل في نهاية حياته الحافلة .

كانت مزية مهرنغ البارزة والخدمة الجليلة التي اداها لحركة الطبقة العاملة هي تطبيقه للطريقة الماركسية المادية الجدلية على المسائل الثقافية والادبية . ولن نجد ما نصف به انجازات مهرنغ اروع مما وصفتها به روزا لوكسمبورغ في رسالة بعثت بها اليه في عيد ميلاده السبعين : «لقد احتللت عقودا عدة موقعا خاصا في حركتنا ، موقعا ما كان غيرك ليستطيع الارتقاء اليه . انك انت ممثل الثقافة الحقيقية بكل روعتها . ذلك انه اذا كانت البروليتاريا الالمانية هي الوريث التاريخي للفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، كما اعلن ماركس وانغلز ، فانك انت منفذ الوصية . لقد انقذت كل ما له قيمة مما بقي من ثقافة البورجوازية التي كانت يوما رائعة وحملته الينا ، حملته الى معسكر المحرومين اجتماعيا . وبفضل مقالاتك وكتبك ، لم تتعرف البروليتاريا الالمانية على الفلسفة الالمانية الكلاسيكية فحسب ، بل وعلى الادب الالماني الكلاسيكي ايضا ، ليس على كانط وهيغل فقط ، بل كذلك على لسنغ وشيلر وغوته . لقد علم كل سطر من سطور كتاباتك اللامعة البروليتاريا الالمانية ان الاشتراكية ليست مسألة خبز وزبدة بل انها حركة ثقافية ، ايديولوجية عظيمة وفخورة ... واليوم ، والمثقفون ذوو الاصل البورجوازي يديرون ظهورهم لنا ليعودوا الى موائد الطبقة الحاكمة ، نستطيع ان نضحك باحتقار وندعهم يذهبون : لقد كسبنا افضل وآخر ما تبقى لدى البورجوازية من روحية وموهبة ــ لقد كسبنا فرانز مهرنغ » .

لا يزال هذا الكتاب الذي كتب عام ١٩١٨ افضل واكمل سيرة لماركس . فقد اغنته معرفة المؤلف الوثيقة بالتراث الماركسي وبتاريخ الفترة التي عايشها ماركس . وبالاضافة الى ذلك تجمعت لديه ثروة من المعلومات عن حياة ماركس ، فقد كان احد من قاموا بتحقيق ونشر مراسلات ماركس الشخصية والسياسية .

ولا شك في ان الكتاب يشكل ، الى جانب كونه تأريخا لحياة ماركس ، عرضا موجزا ودقيقا وموهوبا لكتابات ماركس ، رغم ان المؤلف رفض ان يسميه « قصة حياة ماركس واعماله» متعللا بأن ضيق المجال لم يسمح له بعرض كتابات ماركس بما يفيها حقها .

الناشر

الفصل الأول

السنوات الاولى

١ ـ البيت والمدرسة

ولد كارل هينريخ ماركس في ٥ ايار ١٨١٨ في ترير . ولا يعرف عن اسلافه الا القليل ، وذلك بسبب الفوضى والدمار اللذين لحقا بالسجلات الرسمية في الراينلاند خلال الاوقات العصيبة التي سادت تلك البلاد في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . فمثلا لا تزال السنة التي ولد فيها هينريخ هاينه موضع خلاف .

غير ان الحال بالنسبة لكارل ماركس ليس بهذا السوء ، فهو قد ولد في زمن ساده قدر اكبر من السلام ، ولكن ، مع ذلك ، عندما توفيت احدى عماته في اواخر القرن الماضي مخلفة وصية غير قانونية، لم تستطع كل التحقيقات القضائية التي اجريت للتحقق من الورثة الشرعيين ان تكتشف تاريخ ولادة ووفاة ابويها ، اي جد وجدة كارل ماركس . كان جد كارل ماركس يدعى ماركس ليفي ، ولكن اسم ليفي اسقط فيما بعد ، وكان هذا الرجل حاخاما في ترير ويعتقد انه توفي عام ١٧٩٨ ، وعلى كل حال لم يكن حيا في عام ١٨١٠ ، ولكن زوجته ايفا ماركس كانت حية اذ ذاك ويعتقد انها توفيت عام ١٨٢٥ .

كان لهذين الزوجين اولاد عدة ، وقد كرس اثنان منهم هما صموئيل وهرشل نفسيهما للعمل الاكاديمي . وخلف صموئيل ، الذي ولد في ١٧٨١ وتوفي في ١٨٢٩ ، والده كحاخام في ترير . اما هرشل والد كارل ماركس فقد ولد عام ١٧٨٢ ، ودرس الحقوق ليصبح محاميا في ترير ، واصبح فيما بعد قاضيا ، وتبنى المسيحية في عام ١٨٢٤ متخذا لنفسه اسم هينريخ ماركس ، وقد توفي في عام ١٨٣٨ .

تزوج هينريخ ماركس من يهودية هولندية اسمها هنريتا برسبرغ ، ويتبين من شجرة عائلتها ان أجدادها كانوا حاخامات لمدة قرن من الزمن ، على حد قول حفيدتها اليانور ماركس . توفيت هنريتا برسبرغ في ١٨٦٣ . وخلف هينريخ ماركس وزوجته هنريتا وراءهما عائلة كبيرة ، ولكن في الوقت الذي جرت فيه التحقيقات القضائية التي اشرنا اليها ، والتي زودتنا بهذه المعلومات عن أصول وفروع العائلة ، كان هناك فقط اربعة ابناء على قيد الحياة هم : كارل ماركس ، وصوفيا ارملة محام يدعى شمالهاوزن في ماسترخت ، واميلي زوجة مهندس يسمى كونرادي في ترير ، ولويز زوجة تاجر يدعى يوتا في كيب تاون .

تمتع كارل ماركس بطفولة مرحة خلو من الهموم ، بفضل السعادة الزوجية القصوى التي كانت تظلل ابويه ، وبفضل اخته صوفي الابنة الكبرى للعائلة . وقد بعثت «مواهب ماركس الرائعة» في نفس ابيه املا في ان تستخدم هذه المواهب يوما في خدمة الانسانية ، اما والدته فقد اعلنت ان ماركس ابن حظ ستسير كل اموره على ما يرام . غير ان ماركس لم يكن ابن امه مثلما كان غوته ، ولا كان ابن ابيه كما كان ليسنغ وشيلر . فقد كانت أم ماركس ، مع كل الحنان والرعاية اللذين اسبغتهما على زوجها وأولادها ، منغمسة تماما في الشؤون المنزلية ، وظلت طوال عمرها تتكلم الالمانية بلغةغير سليمة، ولمتشارك في نضالاتابنها الفكرية، بغير التساؤل الذي يشوبه أسى الأم عما كان سيؤول اليه حال الابن لو انه سلك السبيل القويم. ويبدو ان ماركس صار في وقت لاحق على علاقة جيدة بأقاربه من جهة امه في هولندا ، وعلى الاخص مع خاله فيليبس ، فهو يشير باستمرار اشارات ملؤها الصداقة الودود لـ «هذا الولد الكبير الطيب» الذي مد له يد العون فيما بعد عندما واجه في حياته مصاعب مادية .

وعلى الرغم من ان والد كارل ماركس توفي بعد بضعة ايام من بلوغ ولده سن العشرين ، الا انه لاحظ من طرف خفي «الشيطان» الذي يركب ابنه المفضل . ولم يكن ما يزعج والد ماركس القلق المسرف الذي يعتور الآباء في العادة تجاه حياة ابنائهم العملية ، بل الاحساس الغامض بأن في شخصية ولده شيئا صلبا كالغرانيت، شيئا غريبا تماما عن طبيعته هو ، تلك الطبيعة اللينة المطواعة . يتوقع المرء ان تكون لدى والد ماركس كيهودي وكواحد من سكان الراينلاند وكمحام مناعة مثلثة ضد غوايات «يونكر» شرقي الالب ، لكن هينريخ ماركس كان في الواقع وطنيا بروسيا ، وان ليس بالمعنى المعتاد الذي يرتبط بهذه الصفة اليوم ، فقد كان وطنيا بروسيا من طراز فالديك و زيغلر مشبعا بالثقافة البرجوازية ويؤمن ايمانا صادقا بالاستنارة على طريقة «فريتز الشيخ» (١) . لقد كان «ايديولوجيا» من النوع الذي كان نابليون يكرهه وعن حق . وعلى الرغم من ان نابليون منح ليهود الراين مساواة في الحقوق المدنية ، واعطى الراينلاند ذاتها القانون النابليوني ، ذلك الكنز الثمين الذي تعرض لهجمات مستمرة من الرجعية البروسية ، الا ان والد ماركس كان يكره نابليون .

---

(١) «فريتز الشيخ» اسم للتحبب كان يطلق على فريدريك الكبير ملك بروسيا .

ولم يهتز ايمان هينريخ ماركس «بعبقرية» الملكية البروسية ، على الرغم من أن الحكومة البروسية كان يمكن ان تجبره على تغيير دينه ليستطيع الحفاظ على موقعه البرجوازي . وكثيرا ما قال اشخاص على معرفة بالامور في العادة ، ان هذا هو الحال فعلا ، وأن هينريخ ماركس اضطر لهذا السبب بالذات الى تبني المسيحية . ومن الواضح ان هؤلاء يقولون ذلك كي يجدوا تبريرا او على الاقل عذرا لعمل لا يحتاج في الواقع الى عذر او تبرير . ذلك اننا لو نظرنا الى الامر حتى من وجهة النظر الدينية ، لوجدنا ان رجلا يعترف مع لوك وليبنتز وليسنغ ب «الايمان المحض بالله» ليس له مكان في الكنيس ، بل هو ينتمي الى الكنيسة الرسمية البروسية التي كانت تسودها في ذلك الحين عقلانية سمحة هي ما يسمى بدين العقل الذي ترك اثره حتى على «مرسوم الرقابة البروسية» الذي صدر عام ١٨١٩ .

لم يكن التنكر لليهودية في ذلك الحين ينطوي على مجرد التحرر الديني ، بل كان يشتمل اكثر من ذلك على التحرر الاجتماعي . ذلك ان الجالية اليهودية كجالية لم تسهم بشيء على الاطلاق في المخاضات الفكرية الكبرى التي كانت تأخذ بالمفكرين والشعراء الالمان . وكان الضوء المتواضع الذي أشعه موسى مندلسون يحاول عبثا قيادة «أمته» الى الحياة الفكرية لالمانيا ، وفي الوقت الذي قرر فيه هينريخ ماركس تبني المسيحية بعثت حلقة من اليهود الشباب الحياة في مجهودات مندلسون لتواجه الفشل ذاته ، على الرغم من ان رجالا كادوار غانز وهينريخ هاينه كانوا في صفوفها. وكان غانز الذي قاد المغامرة اول من القى الراية طرح العلم وانتقل الى المسيحية ، فشتمه هينريخ هاينه شتيمة مقذعة اذ قال «نعم بطل ولكـــن بالأمس ، اما اليوم فوغد» ، ولكن لم يمض طويل زمن حتى اضطر هاينه ذاته الى الاقتداء بالمثل الذي ضربه غانز والحصول على «بطاقة دخول الى مجتمع الثقافة الاوروبية» . فكان ان اسهم كل من غانز وهاينه بقسط في المجهودات الفكرية لالمانيا في ذلك القرن ، بينما اتى النسيان على اسماء صحبهما الذين ظلوا اوفياء للتطور الثقافي لليهودية .

هكذا كان تبني المسيحية يشكل تقدما حضاريا بالنسبة للمتحررين من اليهود، وبهذا المعنى فقط يجب ان يفهم تغيير هينريخ ماركس لدينه ودين عائلته عام ١٨٢٤ . وقد تكون ظروف خارجية حددت اللحظة التي تم فيها هذا التغيير ، ولكن هذه الظروف لم تكن بالتأكيد هي السبب . لقد تزايد تفتيت الملكيات العقارية والمزارع من جانب المرابين اليهود خلال الازمة الزراعية في العشرينات فاندلعت نتيجة لذلك موجة من العداء للسامية في الراينلاند . وفي هذا الوضع لم يكن من واجب رجل لا يطال الشك أمانيه كوالد ماركس ان يتحمل اي قسط من هذه الكراهية ، بل لم يكن من حقه ان يفعل ذلك بالنظر الى اعتباره لاولاده . ولربما ادت وفاة والدته في ذلك الحين الى تحرره من اعتبارات طاعة الوالدين ، تلك الاعتبارات التي تتفق مع جماع شخصيته ، ولربما لعب تخرج ابنه الكبير من المدرسة في السنة التي غيَّر فيها دينه دورا في اتخاذه لقراره النهائي .

ولكن سواء أكان الامر كذلك ام لم يكن ، فليس هناك من شك في أن هينريخ ماركس قد حاز على ثقافة انسانية حررته تماما من كل التحيزات اليهودية ، وقد

منح هذه الحرية لابنه كارل كتراث ثمين . وليس هناك في الرسائل العديدة التي كتبها هينريخ ماركس الى ابنه التلميذ ما يدل على اي اثر للسمات اليهودية المخصوصة ، سواء الجيدة منها او الرديئة . وهذه الرسائل مكتوبة بالطريقة الابوية العاطفية المفصلة وبالاسلوب الذي كان يسود مراسلات القرن الثامن عشر عندما كان الالماني الحقيقي يتفجر حبا ويتمزق غيظا . وتعالج هذه الرسائل عن طيب خاطر الاهتمامات الفكرية للابن دون اي اثر لضيق الافق البرجوازي الصغير ، بينما تبدي اعتراضا حاسما ومبررا تماما على لهاث الابن خلف الشهرة كما يفعل «اي شويعر». ولكن وعلى الرغم من كل السرور الذي كان ينتاب الرجل العجوز عندما يفكر في مستقبل ابنه الا انه «بشعره الذي وخطه الشيب وروحه التي اصابها بعض الركود»، لم يكن يستطيع ان يتخلص من فكرة ان قلب ابنه قد لا يكون كبيرا كعقله وانه ربما لا يجد فسحة كافية لتلك المشاعر الدنيوية الرقيقة التي يستمد منها الانسان اعظم العزاء في وادي الدموع .

ولربما كانت شكوكه مبررة بهذا المعنى . فالحب الحقيقي الذي كان يحمله في اعماق قلبه لابنه لم يجعله اعمى البصيرة بل جعله متنبئا الى حد ما . ولكن ما من انسان يستطيع ان يتنبأ بالنتائج النهائية لاعماله ، ولذا لم يدرك هينريخ ماركس ولا كان بمقدوره ان يدرك ان كنز الثقافة البرجوازية الفني الذي اعطاه لابنه كارل كتراث ثمين ينهل منه طيلة الحياة ، لم يفعل شيئا غير مساعدة «الشيطان» الذي كان يخشاه على الانطلاق، ذلك الشيطان الذي لم يكن هينريخ ماركس يعرف ما اذا كان شيطانا «سماويا» ام «فاوستيا» . فعندما كان كارل ماركس لا يزال في بيت ابويه كان يحكم قبضته بسهولة بالغة على أمور كلفت هاينه ولاسال النضالات الاولى العظيمة في حياتيهما وتركتهما مثخنين بجراح لم يشفيا منها شفاء تاما ابدا .

ليس من السهل ان نرى ماذا اسهمت الحياة المدرسية في تطور ماركس الصبي. اذ ان كارل ماركس لم يتحدث قط عن رفاقه في المدرسة كما ان احدا منهم لم يترك لنا اي معلومات عنه . سرعان ما انهى ماركس دراسته في كليته في ترير ، وتحمل شهادة تخرجه تاريخ ٢٥ آب ١٨٣٥ . وهي كالعادة مصحوبة بالتمنيات الطيبة للشاب اليافع وبالملاحظات المعتادة فيما يتعلق بتحصيله في المواضيع المختلفة . غير انها تؤكد على وجه الخصوص ان كارل ماركس كثيرا ما كان قادرا على فهم وتفسير اكثر الفقرات صعوبة في المواد الكلاسيكية ، وخاصة تلك الفقرات التي تكمن صعوبتها لا في غرابة لغتها بل في موضوعها وعلاقات الافكار فيها . وتعلن الشهادة ان موضوعات ماركس اللاتينية تبدي غنى في الفكر والفة عميقة بالموضوع ولكنها كثيرا ما تكون مثقلة بمادة غير مناسبة .

وفي الامتحانات النهائية واجه ماركس بعض الصعوبات في مادتي الدين والتاريخ، ولكن الاساتذة المتحنين في مادة الانشاء الالماني وجدوا في مقاله فكرة «ملفتة للنظر» ، فكرة سنجد انها في الواقع هامة جدا . كان موضوع المقال «افكار شاب قبل اختياره مهنته» ، وكان حكم المتحنين على المقال انه يظهر غنى في الافكار وبناء متناسقا جيدا ، ولكنه ايضا يبين بوضوح الخطأ الذي يقع فيه كاتبه على

الدوام ، خطأ المبالغة في السعي وراء التعابير الغريبة الجميلة . ثم يورد المتحنون في حكمهم المقتطف التالي حرفيا «اننا لا نستطيع دائما ان نتخذ لانفسنا المهنة التي نشعر انها تناسبنا ، فعلاقاتنا في المجتمع تبدأ في التبلور بهذا القدر او ذاك قبل ان نكون في موقف يمكننا من تقرير هذه العلاقات» . هكذا تبدو اللمحة الاولى لهذه الفكرة في ذهن ماركس الشاب وكأنها البرق في ليلة صيف ، هذه الفكرة التي كان تطويرها واتمامها خدمة ابدية أداها ماركس للانسانية .

٢ ـ ينى فون فستفالن

التحق كارل ماركس عام ١٨٣٥ بجامعة بون ، وظل هناك سنة كاملة ، ولكن دراسته للحقوق ابان تلك السنة لم تكن واسعة ولا عميقة .

وليست هناك معلومات مباشرة عن هذه الفترة ، ولكن يمكننا القول استنادا الى رسائل والده اليه ان قدرا من البذور البرية انفرس في ماركس في ذلك الحين . ففي البداية نجد والده يشكو فحسب من «الفواتير على طريقة كارل ، دون علاقة ودون نتيجة» (يصح القول في ماركس ان المنظّر الكلاسيكي للنقود لا يستطيع ان يخرج من حساباته المالية بشيء) ، ولكننا فيما بعد نجد والد ماركس يشكو بمرارة من «مزحات كارل الجامحة» .

كانت السنة التي قضاها ماركس في بون تبدو مغامرة طلابية نموذجية تتوجب عندما بلغ النضوج في سن الثامنة عشره وخطب رفيقة طفولته . كانت هذه صديقة لأخته الكبرى صوفي التي ساعدت على تمهيد السبيل امام اتحاد القلبين الشابين. كانت هذه الخطبة في الواقع اول انتصار واعظم فرصة لهذا الذي ولد سيدا للرجال ، انتصارا بدا لأبيه «مستعصيا تماما على الفهم» ، الى ان اكتشف الاب ان في الفتاة ايضا «بعضا من العبقرية» وانها قادرة على القيام بتضحيات يستحيل على فتاة عادية ان تأتي مثلها .

كانت يني فون فستفالن فتاة ذات جمال أخاذ غير معتاد ، وليس ذلك فحسب، بل كانت ايضا تتمتع بروح وسلوك غير عاديين ايضا . كانت تكبر كارل ماركس بأربع سنوات ، ولكنها كانت لا تزال في اوائل العشرينات من عمرها . وكان جمالها النضر يتفتح عن ايناعته الاولى ، فيحيط بها الكثير من الاعجاب والكثير من الغزل . وكابنة لموظف رفيع المركز ، كان بامكانها ان تجد لنفسها زوجا مناسبا . لكن يني ضحت بكل الآفاق المفتوحة أمامها في سبيل «مستقبل خطر غير مأمون» على حد تعبير والد ماركس ، الذي كان يحدس فيها من حين لآخر ذلك الحس الداخلي القلق الـذي يزعجه كثيرا ، ولكنه أضحى في ذلك الوقت مقتنعا تماما «بالفتاة الملائكية الساحرة»، حتى انه اقسم لابنه انه يجب ان لا يخسرها حتى لأمير .

تفتق المستقبل عن قدر من الخطر والافتقار الى الطمأنينة اكبر مما كان يخشاه هينريخ ماركس حتى في أسوأ تصوراته . لكن يني فون فستفالن بجمالها الذي يشع سحرا خلابا طفوليا لازمت الرجل الذي اختارته لنفسها بشجاعة ثابتة بطولية

رغم كل المعاناة والعذاب . وقد لا تكون يني استطاعت ان تخفف عن كارل عبء الحياة بالمعنى المألوف ، ذلك انها كانت ابنة نعمة ولم تكن على الدوام قادرة على معالجة مصائب الحياة قدرة امرأة من الشعب معتادة على المصاعب . ولكن يني بتفهمها العميق للعمل الذي نذر ماركس نفسه له كانت شريكة جديرة لحياته .

تنم رسائل يني الباقية عن نفس انثوي حق . فقد كانت تتحلى بطبع كالذي وصفه غوته : يوحي بالصدق في كل حالة وكل مزاج سواء انعكس في الترثرة المرحة في الايام السعيدة او انعكس في القلق المستبد بامرأة سلبها الفقر والحرمان طفلها فلم تستطع حتى ان تؤمن له مستوى متواضعا . وكان جمال يني فخر زوجها على الدوام ، فبعد ان ارتبط مصيره بمصيرها بعشرين عاما نجده في عام ١٨٦٣ يكتب من ترير حينما ذهب ليحضر جنازه أمه : «كل يوم احج الى بيت وستفالن القديم ، انه يثير اهتمامي اكثر مما تفعل كل الآثار الرومانية ، فهو يذكرني بأيام صباي السعيدة وهو قد احتوى يوما بين جدرانه كنزي الغالي . وكل يوم يسالونني ذات اليمين وذات اليسار عن شريكتي اجمل فتاة في ترير ، و«ملكة حفلات الرقص» . لا شك ان مما يثلج قلب الرجل ان يجد ان زوجته تحيا في ذاكرة بلده كاملة كالاميرة الساحرة»‌. وعندما كان ماركس على فراش الموت، متجردا كما كان من كل عاطفية مفرطة ، تحدث بلهجة حزينة مؤثرة عن اجمل فترة من فترات حياته ممثلة بييني وستفالن .

ارتبط الشابان بالخطبة قبل ان يحصلا اولا على اذن من والدي الفتاة ، فاذا بذلك يبعث الضيق في نفس والد كارل ماركس . ولكن لما يمض طويل زمن حتى تم الحصول على الموافقة . فعلى الرغم مناسم المستشار لودفيغ فون وستفالن ولقبه ، الا انه لم يكن من «يونكر» شرقي الالب ولا كان من البيروقراطية البروسية القديمة . كان والده فيليب وستفالن واحدا من ابرز الشخصيات في التاريخ العسكري ، ففد كان سكرتير الدوق فرديناند ، دون برونشفايغ ، الذي قاد جيشا مختلطا تموله انجلترا ، وحمى به غرب المانيا ، خلال حرب السنين السبع ، من ميول لويس الخامس عشر ومدام دو بومبادور التوسعية . وقد اصبح فيليب وستفالن رئيس الاركان الحقيقي لجيش الدوق في مواجهة كل الجنرالات الالمان والانجليز . وقد قوبلت خدماته بالعرفان حتى ان ملك انجلترا عرض عليه ان يجعله مساعدا لقائد الجيش ، غير ان فيليب وستفالن رفض هذا الشرف ، غير انه أجبر على ترويض روح الاستقلال لديه الى الحد الذي قبل به لقبا ، وكانت الاسباب التي حدته الى ذلك هي الاسباب ذاتها التي حدت هيردر وشيلر الى قبول المهانة ذاتها : كي يستطيع الزواج من ابنة عائلة بارونات اسكتلندية اتت الى معسكر الدوق فرديناند لتزور اختا لهامتزوجةمنالجنرالالذييتولىقيادة القواتالانجليزيةالمساعدة.

كان لودفيغ فون وستفالن واحدا من ابناء هذين الزوجين . فورث عن والده اسما تاريخيا في حين كان اجداده لأمه يبعثون ذكريات تاريخية عظيمة ، فقد قضى احد اجدادها في المحرقة خلال النضال من اجل الاصلاح الديني في سكوتلندا ، بينما أعدم آخر في سوق ادنبره لكونه قد ثار على جيمس الثاني . ونتيجة لهذا

التقليد العائلي كان لودفيغ فون وستفالن في مرتبة اعلى بكثير من ضيق النظر الكريه الذي يتسم به اليونكر ذوي الكبرياء الشبيه بكبرياء الشحاذين والذي تتسم به ايضا البيروقراطية الجاهلة . كان لودفيغ في البداية موظفا في برونشفايغ ، لكنه لم يتردد فيالاستمرار في الخدمة عندما ضم نابليون دوقية برونشفايغالصغيرة الى مملكة وستفاليا ، ذلك ان لودفيغ كان أقل اهتماما بالتقاليد الموروثة من اهتمامه بالاصلاحات التي عالج بها الغزاة الفرنسيون الاوضاع المتردية في وطنه الصغير . غير ان معارضته للسيطرة الاجنبية لم تكن ضعيفة بأي حال .

ولدت ابنته ييني في سالزوديل في الثاني عشر من شباط عام ١٨١٤ حيث كان يعمل حاكما اداريا ، وبعد سنتين نقل الى ترير ليعمل كمستشار للحكومة . فقد كان رئيس الوزراء البروسي هاردنبرغ لا يزال في خضم حماسته الاولى ، وكان لا يزال يتمتع بحكمة كافية جعلته يدرك ان عليه ان يرسل الى الراينلاند ، التي احتلت حديثا والتي كانت لا تزال تميل بمشاعرها الى فرنسا ، اقدر الرجال واقلهم تأثرا بالمفارقات اليونكرية المعهودة .

ظل كارل ماركس الى آخر يوم في حياته يشير الى لودفيغفون وستفالن بالعرفان وبأعظم التقدير . وعندما خاطبه بلقب «صديقي الابوي العزيز» واكد له « حبه البنوي» ، فقد كان في ذلك في الواقع اكثر من واجب عائلي يقوم به زوج الابنة تجاه والدها . فلقد كان باستطاعة وستفالن أن يلقي مقطوعات كاملة من قصائد هومر ، وكان يعرف عن ظهر قلب معظم مسرحيات شكسبير بالانجليزية وبالالمانية ايضا . فوجد كارل ماركس في «بيت وستفالن القديم» كثيرا من الحوافز ما كان ليجدها في بيته وما كانت مدرسته لتقدمها له . وكان ماركس منذ السنوات الاولى واحدا من القريبين الى قلب وستفالن . وليس بعيدا ان يكون وستفالن قد منح موافقته للخطبة بسبب الزواج السعيد الذي كان والداه هو يتمتعان به ، ففي نظر الناس اختارت أم وستفالن ، بنت العائلة البارونية الارستقراطية ، زيجة غير مناسبة عندما اقترنت برجل من العامة فقير ولا يعدو كونه موظفا حكوميا .

لم تعش روح الوالد في ابنه الاكبر الذي اتخذ لنفسه حياة بيروقراطي . بل أسوأ من ذلك ، اصبح خلال فترة الرجعية في الخمسينات وزيرا لداخلية بروسيا، ودافع عن المطالب الاقطاعية التي رفعها اكثر اليونكر جهلا وفظاظة حتى ضد رئيس الوزراء مانيتوفل ، الذي كان على الاقل بيروقراطيا ذكيا . ولم تكن هناك في اي وقت من الاوقات علاقة حميمة بين هذا الابن ، فرديناند فون وستفالن ، وبين اخته، التي كانت في الحقيقة اخته غير الشقيقة . فقد كان يكبرها بخمسة عشر عاما وكان ابنا لابيها من زيجة سابقة .

اما ادغار فون وستفالن فقد كان الاخ الشقيق لييني . وقد ابتعد هذا الى اليسار عن الطريق التي انتهجها والده بقدر ما ابتعد اخوه غير الشقيق الى اليمين. وقد ذهب احيانا الى حد التوقيع على البيانات الشيوعية التي كان يصدرها صهره كارل ماركس ، ولكنه لم يصبح يوما نصيرا موثوقا . وقد ارتحل الى ما وراء البحار وتقلبت حظوظه ، ثم عاد ليظهر هنا وهناك شخصا جامحا طائشا ، ولكنه احتفظ لييني وكارل ماركس بركن دافيء في قلبه اما هما فقد سميا ابنهما الاول باسمه .

الفصل الثاني

تلميذ هيغـل

١ ــ السنة الاولى في برلين

قرر والد ماركس انه يجب ان يكمل دراسته في برلين ، حتى قبل ان يخطب يبني فون وستفالن . ولا تزال هناك وثيقة مؤرخة في الاول من تموز عام ١٨٣٦ يسمح فيها هينريخ ماركس لابنه كارل ان يلتحق بجامعة برلين ليتابع فيها دراسة الحقوق والاقتصاد السياسي التي بدأها في بون ، لا بل هو يعلن ان ذلك هو ما يرغب فيه .

وقد تكون الخطبة ذاتها قد عززت شعوره بأن عليه ان يتخذ هذا القرار ، ذلك ان طبيعة والد ماركس الحذرة جعلته يشعر ان افتراق الحبيبين على الاقل لفترة من الوقت امر مرغوب فيه . وقد تكون وطنية الاب البروسية سببا في اختياره لبرلين ، ولربما وقع اختياره عليها لان جامعتها لم تكن تحمل تقليد «ايام الكليـــة الرائعة» التي كان والد ماركس المتعقل يعتقد ان ابنه قد نهل منها الكفاية في بون . لقد قال لودفيغ فويرباخ مشيرا الى برلين «لا شك ان الجامعات الاخرى باخوسية بالمقارنة مع هذا المشغل» .

لم يختر الطالب الشاب برلين بنفسه . فقد كان يحب بلاد الراينلاند المشمسة، وظلت العاصمة البروسية ، برلين ، بغيضة الى قلبه مدى العمر . ولا يمكن ان تكون فلسفة هيغل قد اجتذبته الى برلين ، اذ انه لم يكن يعرف عنها شيئا ، على الرغم من انها بسطت سيادتها علىجامعة برلين بعد وفاة صاحبها اكثر مما فعلت وهو على قيد الحياة . ثم كان هناك ما صاحب انتقاله الى برلين من بعاد عن حبيبة قلبه . صحيح انه آلى على نفسه ان يقنع بموافقتها على الاقتران به في المستقبل وأن يتخلى عن كل مظاهر الحب والحنان في الوقت الحاضر ، ولكن وعود المحبين

من هذا القبيل شهيرة بكونها حبرا على ورق . وفيما بعد كان ماركس يقول لابنائه ان هيامه بوالدتهم قد جعل منه في تلك الايام مجنون هوى ، وفي الحقيقة لم يخلد قلبه الشاب المتقد الى الراحة الا بعد ان حصل على اذن بان يكتب لها على الاقل .

غير ان اول رسالة منها وصلته بعد ان كان قضى في برلين سنة كاملة . ونحن على معرفة بهذه السنة من حياة ماركس اوثق من معرفتنا باي سنة سبقتها او لحقتها من حياته ، وذلك بفضل رسالة كتبها الى والديه ليعطيهما «فكرة ما عن السنة المنصرمة هنا» . وتكشف هذه الرسالة الممتعة عن الرجل كله ضمن الشاب الصغير السن ، الرجل الذي يكافح من اجل الوصول الى الحقيقة حتى يصل به الامر حد الانهاك الجسدي والعقلي ، كما تكشف عن ظمأه الذي لا يرتوي الى المعرفة، وقدرته التي لا حدود لها على العمل المتواصل ، ونقده القاسي لنفسه ، وتلك الروح المقاتلة الشرسة التي ربما تطغى على القلب والمشاعر ولكن فقط عندما تبدو المشاعر على خطأ .

حصل كارل ماركس على الشهادة الاولى في ٢٢ تشرين الاول ١٨٣٦ . ولم يكن يهتم كثيرا بالمحاضرات الاكاديمية . ففي تسعة فصول استغرق كل منها نصف سنة ، وقع على اثنتي عشرة محاضرة فقط ، معظمها من المحاضرات الالزامية في الحقوق ، وربما لا يكون سمع غير القليل من هذه المحاضرات الاثنتي عشرة . وكان ادوار غانز المحاضر الرسمي الوحيد في الجامعة الذي ترك اثرا على تطور ماركس العقلي ، فقد استمع ماركس الى محاضرات غانز في قانون العقوبات والقانون المدني البروسي، وقد شهد غانز نفسه بالكد الفائق الذي أبداه ماركس فيهاتين المادتين. غير ان السجال القاسي الذي يشنه ماركس في كتاباته الاولى على المدرسة التاريخية في القانون اهم بكثير من اي شهادة من هذا النوع (تكون دائما متأثرة باعتبارات شخصية) ، ذلك ان المحامي ذي العقل المدرب فلسفيا ، غانز ، هو الذي رفع عقيرته بفصاحة وقوة ضد ضيق افق هذه المدرسة وتحللها وتأثيرها الضار على التشريع وتطور القانون .

لقد درس ماركس ، كما يقول هو ، الحقوق كمجرد مادة مساعدة مع التاريخ والفلسفة . وفيما يتعلق بهاتين المادتين الاخيرتين ، لم يكن ماركس يبدي الكثير من الاهتمام بالمحاضرات على الاطلاق ، ولم يفعل اكثر من ان سجل اسمه للمحاضرات الالزامية المعتادة في المنطق التي كان يلقيها غابلر ، الخليفة الرسمي لهيغل الذي كان اكثر اتباع هيغل العاديين عادية . لقد كان كارل ماركس مفكرا في الاساس ، وحتى في الجامعة كان يعمل مستقلا ، فاكتسب في سنة واحدة غنى في المعرفة ما كانت المحاضرات التي تلقن ببطء لتقدمها له في عشر سنين او يزيد .

عند وصول ماركس الى برلين ، صرخ به «عالم الحب الجديد» مسترعيا اهتمامه . فسكبت مشاعره «الممكنة شوقا وتحرقا بلا أمل» نفسها في ثلاثة كراسات ممتلئة بالقصائد المهداة جميعا «الى عزيزتي وحبيبتي على الدوام ييني فون وستفالن» . ووصلت الكراسات الى يدي ييني في كانون الاول عام ١٨٣٦ ، فاستقبلتها «بدموع الفرح والحزن» ، كما ابلغت صوفي اخت ماركس اخاها في

برلين . وبعد ذلك بسنة يصدر الشاعر ذاته في رسالة طويلة الى والديه حكمـا بالادانة على بنات افكاره هذه : «انها مشاعر مسطحة لا شكل لها ولا هيئة ؛ ليست طبيعية في شيء ، كل شيء تذروه الرياح ، تناقض كامل بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ، إفكار خطابية بدلا من ان تكون تأملات شعرية» . وبعد كل هذه اللائحة الطويلة من الخطايا ، يبدي الشاعر الحدث ، كظرف مخفّف ، استعداده «ربما لمنح بعض من دفء المشاعر والمعاناة الى النار الشعرية» .

تتكشف هذه القصائد الشابة ، بشكل عام ، عن نفس من الرومانسية التافهة، ونادرا ما يتخللها نفس شعري حقيقي . وبالاضافة الى ذلك فانها كانت من الناحية الفنية خرقاء وبائسة الى حد لا يجوز بعد ان غنى كل من هاينه وبلاتن ما غنيا . هكذا بدات الموهبة الفنية التي كان ماركس يحوز على قدر كبير منها ، والتي عبرت عن نفسها فيما بعد في كتاباته العلمية ، تتطور في مسالك جانبية غريبة . لقد ارتفع ماركس بالقدرة الرمزية التي تتمتع بها لغته الى مصاف اعظم الادباء الذين كتبوا بالالمانية ، وكان يعلق اهمية كبيرة على التناسق الجمالي في كتابتـه ، على عكس اولئك المساكين الذين يعتبرون ان الاسلوب الجاف جفاف الغبار شرط اول للكتابة الجدية ، ولكن ورغم ذلك لم تكن موهبة الشعر واحدة من تلك المواهب التي وضعتها في مهده آلهة الفنون والعلوم .

لم يكن الشعر ، كما كتب لوالديه ، اكثر من اهتمام ثانوي ممتع . فقد كان يدرس الحقوق دراسة شاملة ، وكان يشعر فوق كل شيء بالرغبة في مصارعـة الفلسفة . فقرأ هينيكوس وثيبوت وغيرهما من الثقاة ، وترجم الى الالمانية الكتابين الاولين من كتب جوستينيان القانونية ، وسعى الى وضع فلسفة للقانون . وقـد استهلكت «هذه المعزوفة المشؤومة» ، كما يقول ، ما يقرب من ٣٠٠ دفتر ، ولكن هذه ربما كانت شطحة قلم . فقد رأى في النهاية «خطل الامر كله» فرمى بنفسه الى احضان الفلسفة ليضع نظاما ميتافيزيقيا جديدا ، لكنه انتهى مرة اخرى الى ادراك عبثية جهوده . وخلال دراسته ، تبنى ماركس عادة تلخيص الكتب التـي يقرأها ، وفي الوقت ذاته تسجيل افكاره حولها ، فمثلا قرأ لاوكون بقلم لسنـغ وايرفن بقلم سولجر ، وتاريخ الفن لوينكلمان والتاريخ الالماني للودن وكان في الوقت ذاته يسطر خواطره حولها . كذلك ترجم جرمانيا لتاسيتس ، وبدأ تعلم الانجليزية والايطالية بمفرده ولكنه لم يحقق في ذلك سوى القليل من التقدم . ثم قرأ القانون الجنائي لكلاين ، وكذلك الحوليات ، كما قرأ كل الانتاج الادبي الحديث ، ولكن ذلك كان عرضا وخلال اوقات فراغه فحسب .

ومرة ثانية كرس ماركس نهاية الفصل لقراءة الشعر ، وعندئذ تفتحت امامـه آفاق الشعر الحقيقي وكأنها ارض حوريات تخلب الالباب ، وتهاوى أمام عينيه كل ما صنع من الشعر .

طبقا لكل هذا ، كانت نتيجة الفصل الاول «كثيرا من ليالي الأرق ، ومعـارك كثيرة ضيفت وكثيرا من الحوافز الداخلية والخارجية » ، ولكن مع ذلك لم يربح ماركس الكثير ، بل انه اهمل الطبيعة والفن والعالم وخسر الاصدقاء . وبالاضافة

الى ذلك عانت صحته من الاجهاد ، فكان ان انتقل الى سترالو ، التي كانت حينئذ قرية صيد هادئة صغيرة ، بناء على نصيحة الاطباء . وفي سترالو أبلّ ماركس بسرعة واستعاد روحيته المصارعة مرة اخرى .

وفي الفصل الثاني ، التهم ماركس كثيرا من صنوف المعرفة ، ولكنه بالتدريج ايقن ان فلسفة هيغل هي العمود الثابت الوحيد في فيض الاشياء الدافق . كانت اول معرفة لماركس بهذه الفلسفة مفتتة ، فلم يرق له «لحنها الغريب المتنافر» ، ولكنه خلال نوبة ثانية من المرض درسها من البداية حتى النهاية ، وسرعان ما انضم الى ناد للهيغليين الشباب ، وهناك في خضم صراع الآراء ، اصبح يشعر انه اكثر ارتباطا «بفلسفة العالم الراهن» .

يشرح كارل ماركس كل هذا لوالديه ، ويختتم رسالته سائلا اياهما ان يسمحا له بالعودة حالا بدلا من العودة في فصح السنة القادمة ، كما سبق ان وعد والده . ويعلن انه يريد ان يبحث مع والده «التقلبات الكثيرة» التي تعرضت لها شخصيته خلال عملية تكوينها ، وانه لن يستطيع ان يطرح جانبا «الاشباح القلقة» الا في حضور والديه العزيزين . ان هذه الرسالة عظيمة الاهمية بالنسبة لنا اليوم ، فهي مرآة نستطيع ان نرى فيها ماركس الشاب بوضوح ، ولكن والديه لم يستقبلاها بسرور . فقد رأى والده ، الذي كان قد اصبح يعاني المرض ، فيها «الشيطان» الذي طالما خشيه والذي اصبح الان يخشاه بصورة مضاعفة لان ابنه وقع في حب «شخص معيَّن» كان الاب الشيخ يحبه كابن له ، ولأن عائلة محترمة قد أقنعت ان توافق على علاقة كان من الواضح طبقا لمجريات الامور انها ستكون حبلى بالمخاطر والاحتمالات الكئيبة لابنتها المحبوبة . لم يكن والد ماركس انانيا الى درجة يملي معها على ابنه طريقا معينا في الحياة اذا كانت الطرق الاخرى تؤدي كذلك الى الوفاء بـ «التزامات مقدسة» ، ولكن ما اصبح الوالد الشيخ يراه أمامه لم يكن غير بحر هائج مائج لا يبدو فيه مرسى امين .

ولذا ، قرر الاب على الرغم من «ضعفه» الذي كان يعرفه افضل من اي شخص اخر ان يكون «قاسيا مرة واحدة» ، فكان في جوابه على رسالة ابنه قاسيا على طريقته الخاصة فاختلطت في الرسالة الجوابية المبالغات التي تفتقر الى الحذر بالتأوهات الحزينة . ويسأل الاب ابنه كيف استطاع القيام بواجباته ويجيب عنه : «ليعنا الله !!! افتقار الى النظام ، وتجول حائر في كل حقول العلم ، وتمعن طويل في الامور تحت قنديل شاحب ، واتجاه نحو الشيخوخة في ثوب اكاديمي وشعر غير مصفف بدلا من الاتجاه نحوها وكأس بيرة في اليد . انعزال عن المجتمع ووضع كل ما هو شريف ، بما في ذلك حفظ اعتبار الاب ، في منزلة ثانوية . حصر الحياة الاجتماعية في غرفة حقيرة تستخدم فيها رسائل ييني الغرامية وعظات الاب لاشعال الفليون ، وهذا بالمناسبة افضل من وقوعها بسبب الفوضى والاهمال في ايدي اشخاص آخرين » .

وبعد ذلك يغلب على الاب الاسى ، ولكي يبقى قاسيا دون رحمة يحصن نفسه ببعض الادوية التي وصفها له الطبيب. وينتقل ليعالج بحزم سوء ادارة كارل «ان

ابني العزيز ينفق ٧٠٠ ثالر في السنة كما لو اننا قد قددنا من ذهب . كل ذلك رغم النصائح ورغم ان اغنى الاغنياء لا يحتاج اكثر من ٥٠٠ ثالر» . وهو بالطبع يعترف ان ابنه ليس مسرفا ، ولكن كيف يمكن للمرء ان يتوقع ممن يخترع كل اسبوع نظاما جديدا ليمحوه في الاسبوع التالي ان يتعب رأسه بتفائه الامور ؟ فالكل يمد يده الى جيب كارل والكل يحتال عليه يمينا وشمالا .

وتمضي الرسالة على هذا النحو بعضا من الوقت ، وفي النهاية يرفض الاب بحزم ان يسمح لابنه بالعودة الى البيت «العودة الى البيت الان غباء . انني اعلم جيدا انك لا تهتم بالمحاضرات كثيرا ــ حتى تلك التي تدفع رسومها ــ ولكنني على الاقل أصر على التمسك باللياقة . انني لست عبدا لآراء الآخرين ، ولكنني لا احب الثرثرة على حسابي» . وعلى اية حال ، يستطيع كارل ان يعود في الفصح ، كما جرى ترتيب الامور من قبل ، او حتى قبل ذلك بعشرة ايام ، فوالده ليس متزمتا .

وخلال كل هذه الشكاوى نستطيع انلمس تأنيبا للابن لانه لا قلب له . وما دامت هذه التهمة قد وجهت الى كارل ماركس مرارا وتكرارا فقد يكون من المناسب هنا ، اذ ترد هذه التهمة للمرة الاولى ولربما بقدر اكبر من الصحة ، ان نقول عنها ما يجب ان يقال . وبالطبع لن نردد الجملة الرائجة عن «الحق في التمتع بالحياة»، فهذه جملة اخترعتها حضارة براقة لتغطي بها انانيتها الجبانة ، وكذلك لن نورد الجملة الاقدم عن «حق العبقري» في السماح لنفسه باكثر مما يسمح به للانسان العادي . لقد انبثق النضال المتواصل من أجل الحقيقة وقدر اكبر من الحقيقة الذي وسم ماركس على الدوام من اعماق قلبه . وكما قال مرة ، لم يكن مخبأه حصينا الى درجة تمكنه من ان يدير ظهره «لآلام البشرية» ، او كما قال هتن ، معبرا عن الفكرة ذاتها ، أثقله الله بقلب جعل احزان البشرية المعتادة تؤثر فيه بحدة اكبر مما تؤثر في الاخرين . ولم يفعل رجل ابدا اكثر مما فعل ماركس لتدمير الاسباب الجذرية «لشقاء البشرية» . ولقد شقت سفينته طريقها في بحار الحياة الهائجة عبر العواصف والاعاصير وتحت نيران متواصلة من الاعداء . وكان علمه يرفرف دائما على الصاري ، ولكن الحياة على السفينة ذاتها لم تكن مريحة لا للقبطان ولا للبحارة.

لم يكن ماركس بالتأكيد خلواً من المشاعر نحو من كانوا قريبين له . وصحيح ان روحية الصراع لديه كانت تتغلب على مشاعره عندما يكون ذلك ضروريا ، ولكنها لم تكن قادرة البتة على القضاء عليها تماما ، وكثيرا ما كان الرجل حين نضج يشكو بمرارة من ان اولئك القريبين منه كانوا يقاسون من حظه السيء في الحياة اكثر مما كان يقاسي هو ذاته .

سرعان ما بيّن الطالب الشاب انه يأبه للضيق الذي يعاني منه والده ، فتخلى في الحال عن رغبته في العودة الى البيت ، حتى في عيد الفصح ، فسبب ذلك كثيرا من خيبة الامل لوالدته ولكنه في الوقت ذاته أفعم قلب ابيه بالرضى ، وبدأ غضب الاب يتبدد سريعا . غير ان الوالد تمسك بشكاواه وان يكن قد تخلى عن مبالغاته ، فكتب انه بالتأكيد لا يستطيع مجاراة ابنهفي فن التفكير المنطقي المجرد . وكان في ذلك الحين قد تقدم به العمر لدرجة انه لم يكن يستطيع دراسة المصطلحات

الضرورية للدخول في قدس الاقداس . ولكن كانت هناك مسألة واحدة لا ينفع فيها التفكير المجرد، وفي صدر هذهالمسألة بالذات التزم الابن صمتا مشوبا بالكبرياء، تلك هي مسألة النقود التي يبدو انه فشل في فهم اهميتها لرب عائلة كأبيه . وعلى اية حال ، اعلن الاب ان الاجهاد يجبره على الالقاء باسلحته جانبا .

لسوء الحظ ، كان لهذه الجملة الاخيرة معنى اكثر جدية بكثير مما تشير اليه الفكاهة المستترة التي بدأت تظهر في الرسالة مرة اخرى . فقد كانت الرسالة مؤرخة في ١٠ شباط عام ١٨٣٨ وكان هينريخ ماركس قد نهض لتوه من فراش المرض الذي كان قد لازمه اسابيع خمسة . لكن التحسن الذي طرأ على صحته ومكنه من النهوض لم يستمر ، فعاد اليه المرض ، الذي يبدو انه اصابه في كبده ، وساء ، الى ان توفي بعد ذلك بثلاثة اشهر بالضبط في ١٠ ايار عام ١٨٣٨ . ولقد واتته المنية في وقت مناسب وفر عليه خيبات امل كانت ستفتت قلبه شيئا فشيئا.

كان كارل ماركس يدرك دوما بامتنان ما كان ابوه له ، وكما كان الوالد يحمل ابنه في اعماق قلبه ، كذلك حمل الابن صورة ابيه في قلبه الى ان اخذها معه الى القبر .

٢ ـ الهيغليون الشباب

قضى كارل ماركس ، بعد ربيع عام ١٨٣٨ عندما فقد اباه ، ثلاث سنوات في برلين ، فتحت خلالها الحياة الفكرية في حلقة الهيغليين الشباب امامه اسراره الفلسفية الهيغلية .

كانت الفلسفة الهيغلية تعتبر في ذلك الحين الفلسفة الرسمية للدولة البروسية ، وكان التنشتاين وزير الثقافة وجوهانز شولز مستشاره الخاص قد احاطاها بعنايتهما . عظّم هيغل الدولة بوصفها حقيقة الفكرة الاخلاقية ، بوصفها العقل المطلق والهدف المطلق بذاتها ، ولذا فقد كان لها بالنسبة له الحق الاعلى تجاه الفرد الذي كان واجبه الاسمى ان يكون عضوا في الدولة . وكان من الطبيعي ان تلقى هذه التعاليم بصدد الدولة ترحيب البيروقراطية البروسية ، ذلك انها كانت تدافع عن تعقب الديماغوجيين (١) .

لم تكن فلسفة هيغل فلسفة مرائية . وتطور هيغل السياسي يفسر لماذا اعتبر الشكل الملكي ، الذي يحتضن افضل مجهودات عبيد الدولة ، افضل شكل للدولة. وعلى اقصى حد كان هيغل يعتبر ان من الضروري ان تتمتع الطبقات المسيطرة بقدر غير مباشر من المشاركة في الحكومة ، ولكن حتى هذا القدر يجب ان يكون محدودا

---

(١) الديماغوجي هو الاسم الذي أطلق على كل الراديكاليين والليبراليين في عصر مترنيخ في طول القارة الاوروبية وعرضها . فلما منعت كل اشكال التحريف الديمقراطي بموجب قرارات كارلسباد عام ١٨١٩ ، اصبح الديماغوجيون يعتبرون خارجين على القانون . اما «تعقب الديماغوجيين» فقد كان الاسم الذي اطلق على حملة الاضطهاد الشرس الذي سلط عليهم .

بطريقة اتحادية ، ولم يكن مستعدا لاعتبار التمثيل العام للشعب بالمعنى الدستوري الحديث اكثر مما كان ملك بروسيا او مهبط وحيد متيرنيخ مستعدا لذلك .

غير ان النظام الذي وضعه هيغل لنفسه كان على تناقض عدائي مع الطريقة الجدلية (الديالكتيكية) التي تبناها كفيلسوف . فمع مفهوم الكينونة ، يعطى مفهوم اللاكينونة ، ومن التناقض العدائي بين المفهومين ينتج المفهوم الاعلى ، مفهوم الصيرورة . وكل شيء كائن وغير كائن في الوقت ذاته ، ذلك ان كل شيء في حالة تغير مستمر ، في تطور صاعد او هابط مستمر . ولذا فان التاريخ عملية تطور صاعد من الادنى الى الاعلى في تحول لا ينقطع . وقد انطلق هيغل بمعرفته الشاملة ليبرهن على ذلك في اكثر فروع علم التاريخ تنوعا ، على الرغم من انه فعل ذلك فحسب في شكل يتطابق مع مفهومه المثالي الخاص للفكرة المطلقة التي تعبر عن نفسها في كل الاحداث التاريخية . وقد اعلن هيغل ان هذه الفكرة المطلقة هي الروح الجوهرية للعالم كله ، رغم انه لم يعط اي معلومات اخرى عنها .

لذا ، لم يكن الزواج بين فلسفة هيغل ودولة فريدريك ــ وليامز اكثر من زواج مصلحة يدوم ما دام كل من الزوجين مستعدا لتكييف نفسه مع الاخر . وقد تم ذلك بشكل ممتاز ايام تعقب الديماغوجيين . لكن ثورة ١٨٣٠ اعطت التطور الاوروبي دفعة قوية جعلت الناس يعتبرون ان طريقة هيغل اكثر جدارة من النظام الذي وضعه . وعندما تبددت آثار ثورة يوليو ، التي كانت ضعيفة على اية حال فيما يتعلق بالمانيا ، وخيم صمت القبور مرة اخرى على ارض المفكرين والشعراء، سارعت اليونكرية البروسية الى نبش رومانسية القرون الوسطى المتعفنة لتواجه بها الفلسفة الحديثة . وقد كان ذلك سهلا على اليونكرية لان اعجاب هيغل كان موجها الى البيروقراطية المستنيرة اكثر مما كان موجها الى اليونكرية ، كما ان هيغل رغم كل تعظيمه للدولة البيروقراطية لم يفعل شيئا للحفاظ على الدين بين صفوف الشعب، وهذا المجهود هو لب كل التقاليد الاقطاعية وفي نهاية المطاف تقاليد كل الطبقات المستغِلة .

ولذا حصل الصدام الاول في حقل الدين . فقد اعلن هيغل ان القصص التوراتية يجب ان ينظر اليها بالطريقة ذاتها التي ينظر بها الى القصص الدنيوية ، ذلك انه ليست هناك علاقة بين الايمان ومعرفة الامور الحقيقية والعامة . ثم جاء دافيد شتراوس ليأخذ كلمة المعلم على عواهنها وبنشاط بالغ . فطالب بأن يخضع التاريخ التوراتي للنقد التاريخي المعتاد ، ونفذ طلبه هذا في كتابه «حياة يسوع» الذي ظهر عام ١٨٣٥ وأحدث ضجة بالغة . وفي هذا الكتاب التقط شتراوس خيوط حركة الاستنارة البورجوازية في القرن الثامن عشر ، بينما كان هيغل قد تحدث عن «الاستنارة الزائفة» باحتقار بالغ . وقد مكنت شتراوس طريقته الجدلية من ان يخوض في المسألة ابعد مما فعل رايماروس القديم من قبله . ولم يعتبر شتراوس الدين المسيحي خدعة ، كما لم يعتبر الحواريين مجموعة من الاوغاد ، ولكنه فسر المكونات الخرافية لقصة الانجيل بالمنتجات الواعية للمجتمعات المسيحية الاولى . واعتبر الكثير من العهد الجديد تقريرا تاريخيا بصدد حياة يسوع ، كما اعتبر يسوعا

ذاته شخصية تاريخية ، بينما افترض اساسا تاريخيا لكل الحوادث الاكثر اهمية التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس .

كان شتراوس من ناحية سياسية غير مؤذ على الاطلاق ، وبقي كذلك طيلة ايام حياته ، ولكن الصوت السياسي انطلق بحدة اكبر في «هاليش ياربشر» (١) التي اسسها عام ١٨٣٨ كل من ارنولد روغه وثيودور ايشترماير لتكون ناطقة باسم الهيغليين الشباب . وكانت هذه الصحيفة تعنى ايضا بشؤون الادب والفلسفة ، وكان المقصود في البداية ان تكون مجرد صفعة لـ «برلينر ياربشر» التي كانت تنطق باسم الهيغليين القدامى . كان روغه قد شارك في حركة «بورشن شافت» (٢) وقضى ست سنوات في سجون كوبينك وكولبرج ضحية لحملة تعقب الديماغوجيين المجنونة ، وسرعان ما اصبح لروغه اليد الطولى في الشراكة مع ايشترماير الذي توفي شابا . لم ينظر روغه الى مصيره السابق نظره مأسوية ، وفيما بعد ادت به زيجة موفقة الى ان يصبح محاضرا في جامعة هال . فعاش حياة مريحة رغم مصائبه السابقة ، وسمح له ذلك ان يعلن ان نظام الدولة البروسية حر وعادل . وكان بالفعل يود ان يجعل من شخصه مصداقا لقول الموظفين البروسيين الكبار من ان احدا لا يستطيع النجاح اكثر من ديماغوجي مرتد . ولكن كانت هذه هي المشكلة.

لم يكن روغه مفكرا مستقلا ، ولا كان يتمتع بروحية ثورية ، ولكن كان له من الثقافة والجلد والعزم ما يكفيه ليكون محررا لصحيفة علمية ، وقد قال عن نفسه، في احدى المناسبات ، دون مجانبة الصواب ، انه متاجر بالمواد الفكرية بالجملة . فكان ان اصبحت «هاليش ياربشر» تحت قيادته ملتقى كل الارواح الشاردة ، ملتقى كل الرجال الذين يتمتعون بالمزية السيئة الحظ من وجهة نظر الحكومة ، مزية حقن الصحافة بقدر اكبر من الحيوية . فمثلا ، ساهم دافيد شتراوس في اجتذاب انتباه القراء اكثر مما فعل كل علماء اللاهوت الارثوذكسيين الذين كانوا يقاتلون بانيابهم واظفارهم ليبرهنوا على عصمة الكتاب المقدس . صحيح أن روغه تعمد ان يطمئن السلطات الى ان صحيفته تروج لـ «المسيحية الهيغلية ولبروسيا الهيغلية» ، ولكن التنشتاين وزير الثقافة ، الذي كان قد بدأ يتعرض لضغط الرومانتيكيين الرجعيين، لم يثق بهذا التأكيد ورفض أن يستجيب لالحاح روغه في الحصول على وظيفة حكومية لقاء خدماته . فكانت النتيجة ان بدأت «هاليش ياربشر» تدرك ان شيئا ما يجب ان يفعل لتحطيم القبور التي تثقل كاهل الحرية والعدالة البروسية .

كان الهيغليون الشباب في برلين ، الذين قضى كارل ماركس في وسطهم ثلاث سنوات ، يساهمون جميعهم تقريبا في «هاليش ياربشر» . وكانت عضوية النادي

---

(١) حوليات هال ، كانت العادة في المانيا في ذلك الحين اصدار ما يسمى بالحوليات ، التي لم تكن في الحقيقة غير مجموعة من المقالات ، وكان ذلك يعود الى الرغبة في تفادي الرقابة ، التي كانت تطبق بشدة على المنشورات الاصغر حجما ، ولكنها لم تكن تطبق على المنشورات التي تتعدى ٣٢٠ صفحة .

(٢) حركة بورشن شافت تأسست في يينا عام ١٨١٥ كحركة طلابية ديمقراطية بورجوازية ، وحظرت بموجب قرارات كارلسباد .

تتكون بصورة رئيسية من محاضرين جامعيين واساتذة وكتّاب . ومن بين هؤلاء كان روتنبرغ الذي يصفه كارل ماركس في احدى رسائله الاولى لابيه بأنه «اقرب الاصدقاء اليه» يعلّم الجغرافيا في مدرسة برلين للضباط ، ولكنه طرد بدعوى انه وجد ذات صباح ثملا في احدى الثكنات ، ولكن الحقيقة انه طرد شكا في انه كتب «مقالات حقودا» في صحف ليبزيغ وهامبورغ . اما ادوارد ماين فقد كان على صلة بمجلة قصيرة العمر نشرت قصيدتين من قصائد ماركس ، كانتا لسوء الحظ القصيدتين الوحيدتين اللتين نشرتا له . وكان ماكس ستيرنر يعلّم في احدى مدارس الفتيات في برلين ، ولكن من الصعب القول انه كان ينتمي الى النادي في الوقت ذاته الذي كان ينتمي فيه ماركس اليه ، وليس هناك ما يدل على انه وماركس عرفا بعضهما شخصيا . وعلى اية حال فان المسألة ليست على جانب من الاهمية ، فليس هناك ارتباط فكري بين الاثنين . ومن جهة اخرى ، كان برونو باور ، وهو محاضر في جامعة برلين ، وكارل فريدريك كوبن ، وهو استاذ في مدرسة دوروثين الثانوية للمواضيع الحديثة ، أبرز عضوين في النادي ، كما كان لهما اثر عظيم على ماركس.

كان ماركس في حوالي العشرين من عمره عندما انضم الى نادي الهيغليين الشباب ، ولكنه ، وكما حدث كثيرا في السنوات اللاحقة كلما دخل حلقة جديدة ، سرعان ما اصبح مركز النادي . وقد ادرك كل من باور وكوبن ، اللذين كانا يكبرانه بحوالي عشر سنوات ، ملكته المتفوقة ، فاصبحا يريان في هذا الشاب ، الذي لا يزال أمامه الكثير ليتعلمه منهما ، خير رفيق . فحمل الكتاب الذي اثار سجالا حادا والذي نشره كوبن عام ١٨٤٠ في الذكرى المئوية لولادة فريدريك الاكبر ملك بروسيا اهداء الى «صديقي كارل ماركس» .

كان كوبن يملك قدرا كبيرا من موهبة التأريخ ، ولا تزال مساهماته في «هاليش ياربشر» شاهدا على ذلك . ونحن مدينون لكوبن بأول معالجة تاريخية حقا لسيادة الارهاب خلال الثورة الفرنسية الكبرى . وقد أخضع كوبن ممثلي الكتابة التاريخية المعاصرين ، ليو ورانك ورومر وشلوسر ، الى افضل وأصلب النقد واكثره حيوية ، كما انه ساهم هو نفسه في مختلف حقول البحث التاريخي : من مقدمة ادبية للميثولوجيا النوردية ، تستأهل مكانا الى جانب اعمال جاكوب غريم ولودفيغ اوهلاند ، الى عمل طويل عن بوذا ، اكتسب اعجاب شوبنهاور الذي لم يكن ميالا للهيغليين القدامي . ولا شك في ان توق رجل مثل كوبن الى «البعث الروحي» لاسوأ طاغية في التاريخ البروسي (فريدريك الاكبر) كي «يقضي بالنار والحديد على كل اولئك الذين يحولون بيننا وبين الارض الموعودة» يكفي لاعطائنا صورة عن الوضع الغريب الذي كان يعيش فيه هؤلاء الهيغليون الشباب .

غير ان هناك عاملين يجب ان لا يصرف النظر عنهما : اولا حاولت الرجعية الرومانتيكية وكل ما يتصل بها كل ما في وسعها لتسويد ذكرى «فريتز القديم» (فريدريك الاكبر) . وقد وصف كوبن ذاته هذه الجهود بأنها «مواء رهيب» . وثانيا لم يكن هناك بعد تفحص نقدي وعلمي يوفي حياة الملك البروسي حقها ، ولم يكن ممكنا ظهور مثل هذا التفحص لان المصادر الحاسمة الضرورية لعمل كهذا لم تكن

قد فتحت بعد . لقد كان فريدريك الاكبر يتمتع بسمعة جعلت منه ممثلا للاستنارة، وكان هذا كافيا كي يعجب به البعض ويكرهه البعض الاخر .

كذلك استهدف كتاب كوبن التقاط خيوط حركة الاستنارة البورجوازية في القرن الثامن عشر ، وفي الواقع لاحظ روغه مرة ان بوير وكوبن وماركس يشتركون في انهم جميعا ينطلقون من هذه الحركة . وقد دحض كوبن «الخطب المصطنعة» ضد فلسفة القرن الثامن عشر . وقال انه على الرغم من ان رواد حركة الاستنارة البورجوازية الالمان يميلون الى الاطالة المملة ، الا اننا مدينون لهم بالكثير ، وقد كان عيبهم الوحيد انهم لم يكونوا مستنيرين كفاية . وهنا كان كوبن يغمز من قناة مقلدي هيغل الذين يفتقرون الى التفكير .

وكان ان اصابت الرمية هدفها ، فقد شجب فارنهاغن الكتاب في الحال في صحيفة الهيغليين القدامى ووصفه بأنه «مثير للتقزز» ، ولربما كان يشعر بألم عميق على وجه الخصوص لكلام كوبن الصريح عن «ضفادع طين المستنقعات» ، تلك الثعابين التي لا دين لها ولا وطن ، ولا معتقدات ولا ضمير ولا قلب ، والتي لا تشعر لا بالبرودة ولا بالحرارة ولا بالفرح ولا بالالم ولا بالحب ولا بالكراهية ، التي لا اله لها ولا شيطان ، تلك المخلوقات التعيسةالتي تتردد على باب الجحيم فلا يسمح لها بالدخول لفرط دناءتها .

عظّم كوبن «الملك العظيم كفيلسوف عظيم» فحسب ، ولكنه ذهب في دفاعه عنه أبعد مما يسمح به حتى مقدار المعرفة التي كانت سائدة عن فريدريك في ذلك الحين . فقد اعلن «ان فريدريك ، خلافا لكانط ، لم يلتزم بشكلين من اشكال العقل: احدهما نظري يقدم شكوكه واعتراضاته بنزاهة وتماسك ، والاخر عملي ينوء تحت وصاية الرأي العام ويصلح ما افسده الاول . وليس هناك غير الفكر البدائي الفج من يعتقد ان فكر (فريتز القديم) النظري يبدو ما ورائيا بالمقارنة مع فكره العملي على وجه الخصوص . على العكس من ذلك ، لم يتخلف الملك في فريتز عن الفيلسوف ابدا » .

لا شك في ان من يجرؤ اليوم على ترداد ما قاله كوبن يجعل نفسه غرضة لتأنيب اكثر الناس فجاجة وبدائية حتى ولو كانوا من المدرسة التاريخية البروسية القديمة ، وحتى في العام ١٨٤٠ ، كان من الافراط وضع اعمال الاستنارة التي وضعها فيلسوف مثل كانط في منزلة واحدة مع نكات الاستنارة المزيفة التي كان يلعبها الطاغية البروسي على الفرنسيين اللامعين الذين قنعوا بانيكونوا مهرجي بلاطه.

لقد عانى كوبن من فقر وفراغ حياة برلين التي اصابت من الهيغليين الشباب الذين كانوا يعيشون هناك مقتلا ، وعلى الرغم من انه كان يجب ان يكون اكثر قدرة على حماية نفسه من ذلك اكثر من الاخرين ، الا انها اثرت عليه اكثر مما اثرت عليهم ، وعبرت عن نفسها في سجال لا شك في انه كتبه بجماع قلبه . لقد كانت برلين تفتقر الى العمود الفقري الصلب الذي منحته الصناعة النامية في الراينلاند للوعي البورجوازي هناك . فكانت النتيجة انه عندما اتخذت المسائل الراهنة شكلا عمليا ، تخلفت العاصمة البروسية عن كولون وحتى عن ليبزيغ وكونينفسبرغ . وقد

كتب البروسي الشرقي والسرود عن اهل برلين يقول : «انهم يظنون انفسهم احرارا وجريئين عندما يهزأون بكيرف وهاغن وبالملك والاحداث الجارية ، وهم يجلسون بسلام في مقاهيهم يتمازحون بطريقتهم المعهودة» . وفي الواقع لم تكن برلين اكثر من ثكنة عسكرية ومدينة سكنية ، وكان سكانها البورجوازيون الصغار يعوضون عن الخضوع الجبان الذي يبدونه امام كل أداة من ادوات البلاط . وكان الملتقى المنتظم لهذا النوع من المعارضة صالون فضائح يديره فارهاغن الذي ارتجف هلعا لفكرة الاستنارة على الطريقة الفريدريكية كما فهمها كوبن .

وليس هناك ما يدعو للشك في ان ماركس لم يكن يشاطر الآراء التي يعبر عنها الكتاب الذي حمل اسمه الى الجمهور للمرة الاولى . فقد كان صديقا حميما لكوبن وتبنى اسلوبه الى حد بعيد . وعلى الرغم من ان طريقيهما افترقا بعد ذلك بفترة قصيرة ، الا انهما ظلا صديقين على الدوام ، وعندما عاد ماركس ليزور برلين بعد ذلك بعشرين عاما وجد كوبن «تماما كما كان دوما» واحتفى الاثنان بلقائهما وامضيا معا كثيرا من الساعات الممتعة . ولم يمض طويل وقت بعد ذلك حتى توفي كوبن في ١٨٦٣ .

٣ ـ فلسفة وعي الذات

غير ان كوبن لم يكن القائد الحقيقي للهيغليين الشباب في برلين ، بل كان القائد برونو باور الذي كان متعارفا على انه التلميذ المخلص للمعلم ، خاصة وانه قد ابدى قدرا كبيرا من الغطرسة في هجومه على كتاب شتراوس «حياة يسوع» ، ذلك الهجوم الذي قارعه شتراوس بنشاط . وكان بوير يتمتع بحماية وزير الثقافة ، التنشتاين ، الذي كان يعتبره شابا موهوبا يعد بمستقبل باهر .

غير ان برونو باور لم يكن ممن يبحثون عن مهنة ، وباءت نبوءة شتراوس بالفشل عندما اعلن ان باور سينهي أيامه في «الاكاديمية المحنطة» ، اكاديمية هنفستنبرغ . على العكس من ذلك ، امسك باور عام ١٨٣٩ بخناق هنفستنبرغ الذي اراد ان يصور اله العهد القديم ، اله الغضب والانتقام ، الها للمسيحية . وقد بقيت السجالات الادبية التي نجمت عن ذلك ضمن حدود السجال الاكاديمي ، ولكنها كانت حادة الى درجة جعلت التنشتاين العاجز المصاب بالفزع ربيبه المفضل من وسط الاورثوذكسيين المثيرين للشك ، الذين كانوا حقودين بقدر ما كانوا اصيلين . فارسل باور في خريف ١٨٣٩ الى جامعة بون كمحاضر ، وفي نيته ان يعينه استاذا قبل نهاية العام .

لكن برونو باور ، كما تدل رسائله الى ماركس ، كان يمر في فترة تطور عقلي كانت ستنقله ابعد من شتراوس . فبدأ نقدا للاناجيل حطم في النهاية اخر الحطام الذي تركه شتراوس قائما . وأكد انه ليست هناك ذرة من الصحة التاريخية في قصة الانجيل ، وأن كل ما فيه نتاج الخيال وأن المسيحية لم تفرض كدين عالمي على العالم الروماني ـ الاغريقي القديم ولكنها كانت نتاج هذا العالم . وبهذا التطور اتخذ باور الطريق الوحيد الذي يطرح امكانية الاستقصاء العلمي للمسيحية ، فلا

غرابة اذن في ان يسخف علماء اللاهوت المعاصرون ، الذين يشغلون انفسهم بتجميل صورة الاناجيل خدمة للطبقات الحاكمة ، اي محاولة للتقدم على الطريق الذي شقه برونو باور .

وبينما كانت هذه الافكار تنضج في راس برونو باور ، كان ماركس صديقه الذي لا يفارقه ، وكان يرى فيه أقدر رفيق سلاح . وما ان حط الرحال في بون ، حتى بدأ يحاول اقناع ماركس باللحاق به . وكان يقول ان ناديا للاساتذة في بون لا يعدو كونه نادي بلهاء بالمقارنة مع النادي الهيغلي في برلين ، فقد كان هذا الاخير على الاقل مركز اهتمامات فكرية . وكذلك كان هناك الكثير من التسلية في بون ، او على الاصح ما يسمونه تسلية ، ولكنه لم يضحك في بون يوما مثلما كان يضحك في برلين عندما كان لا يفعل غير اجتياز الطريق مع ماركس . وما على ماركس الا ان ينهي «امتحانه التافه» (فكل ما يحتاجه الامر دراسة ارسطو وسبينوزا وليبنتز) ، ويكف عن اخذ هذا الهراء بجدية . ولا شك في ان ماركس سيجد فلاسفة بون لعبة سهلة . وفوق كل شيء ، فان من الضروري اصدار صحيفة جديدة ، لاسيما وأن تخريف «هاليش ياربشر» لم يعد محتملا . وبرونو باور يشعر بالاسى لروغه ، ولكن بحق السماء ، لماذا لا يطرد روغه الهوام من صحيفته ؟

تبدو رسائل باور ثورية احيانا ، ولكن ما يفكر فيه على الدوام ليس الا ثورية فلسفية ، وهو يميل الى الاعتماد على دعم الدولة اكثر مما يميل الى الاعتماد على عدائها . فلم يكد يكتب لماركس في كانون الاول ١٨٣٩ انه يبدو مقدرا لبروسيا ان لا تتقدم الا على حساب هزائمها في المعارك ، على الرغم من ان ذلك بالطبع لا يعني خوض هذه المعارك على جثث المئات ، حتى الزم نفسه بعد ذلك ببضعة اشهر وعقب وفاة حاميه التنشتاين والملك العجوز «بأرفع فكرة في حياة دولتنا» ، بروح آل هوهنزلرن الذين كرسوا اربعة قرون من الجهد السامي لتسوية العلاقات بين الكنيسة والدولة . وفي الوقت ذاته وعد بأن العلم لن يحجم عن الدفاع عن فكرة الدولة ضد اغتصاب الكنيسة . فالدولة يمكن ان تخطىء ، ويمكن ان يعتريها الشك بالعلم فتستخدم ضده سلاح التهديد ، ولكن العقل ينتمي الى الدولة باصالة لا يمكنها معها ان تخطىء طويلا . اجاب الملك على هذا الولاء بتعيين الرجعي ايشهورن خليفة لالتنشتاين ، ومضى ايشهورن حالا الى التضحية بحرية العلم لصالح اغتصاب الكنيسة ، وذلك بقدر ما كانت هذه الحرية مرتبطة بفكرة الدولة ، اي بحرية التعليم الاكاديمي .

كان باور ، سياسيا ، أقل جدارة من كوبن ، فقد اقترف كوبن خطأ فيما يتعلق بأحد آل هوهنزلرن الذي ارتفع فوق المستوى العام للعائلة ، ولكنه ما كان ليقترف خطأ في ما يتعلق «بروح البيت المالك» . ولم يكن كوبن ابدا يشعر بالالفة تجاه الايديولوجية الهيغلية مثلما كان باور ، ولكننا يجب ان لا نغفل عن كون قصر النظر السياسي الذي لازم باور لم يكن غير الوجه الاخر لحكمته الفلسفية . فقد اكتشف في الاناجيل الترسبات الفكرية للعصر الذي وضعت فيه ، وكان من رأيه — وذلك منطقي من وجهة النظر الايديولوجية المحضة — انه اذا كان الدين المسيحي بترسباته

الفلسفية الاغريقية ــ الرومانية المضطربة قد نجح في التغلب على فلسفة العالم الكلاسيكي ، فان النقد الحازم الواضح الذي تقدمه الجدليات الحديثة سيكـــون قادرا بسهولة اكبر على ازاحة كابوس الثقافة المسيحية ــ الجرمانية .

لقد كانت فلسفة وعي الذات هي التي اعطت لباور هذه الثقة الملهمة . فقد كانت المدارس الفلسفية الاغريقية قد تطورت من التحلل القومي للحياة الاغريقية وفعلت كل ما بوسعها لاخصاب الدين المسيحي . ولكنها لم تكن لتقارن بافلاطون في العمق التأملي ولا بارسطو في المعرفة الشاملة ، وقد عاملها هيغل بنوع من الاحتقار . فقد كان الهدف المشترك لهذه المدارس جعل الفرد مفصولا بطوفان جائح رهيب عن كل ما ترسب فيه وشكل حاميا له ، جعله مستقلا عن كل ما هو خارج ذاته وسوقه ثانية الى حياته الداخلية بحثا عن السعادة الحقيقية في سلام الروح ، ذلك السلام الذي يمكن ان يظل ثابتا بينما العالم كله ينهار من حوله .

لكن باور قال ان الأنا النحيلة ، في وسط انقاض عالم يختفي ، تخشى نفسها بوصفها القوة الوحيدة . فهي تُسلب وعيها نفسه بأن تصور قوتها العامة نفسها على انها قوة غريبة خارج ذاتها . فهي في إله الانجيل الذي يتغلب على كـــل قوانين الطبيعة ويخضع كل الاعداء ويعلن‌من نفسه حتى على الارض سيد العالم وحكم كل الاشياء ، تخلق اخا معاديا ولكن اخا للحاكم الدنيوي في روما ، ذلك الذي يستولي على كل الحقوق ويتمتع بسلطة على الموت وعلى الحياة . غير ان الانسانية قد تدربت في ظل العبودية للمسيحية على اعداد نفسها بشكل اكثر كمالا للحرية ، ولذا فهي تستطيع ان تحيط بها تماما عندما تكسبها . والوعي الابدي للذات ، عندما يحقق ذاته ويفهم ذاته ويستوعب كنهها ، يملك قوة تخضع منتجات استلابه هو ذاته .

اذا وضعنا جانبا طريقة الكلام التي كانت سائدة في الحديث الفلسفي في تلك الايام ، فاننا نستطيع ان نشرح بكلام ابسط واقرب الى الفهم الامر الذي اجتذب باور وكوبن وماركس الى فلسفة وعي الذات الاغريقية . فهنا ايضا كانوا في الحقيقة يلتقطون خيوط حركة الاستنارة البورجوازية . لم تنتج مدارس وعي الذات الفلسفية الاغريقية القديمة عبقريا واحدا تمكن مقارنته بعباقرة الفلسفة الطبيعية القديمة من امثال ديمقريط وهرقليط ، ولا بعباقرة الفلسفة المجردة من امثال افلاطون وارسطو، ولكنها مع ذلك لعبت دورا تاريخيا عظيما . فهي قد فتحت امام العقل البشري آفاقا رحبة جديدة وكسرت الحدود القومية للهيلنستية كما كسرت الحدود الاجتماعية للعبودية ، تلك الحدود التي لم يحلم افلاطون ولا ارسطو باجتيازها . وهي كذلك اخصبت الى حد بعيد المسيحية البدائية التي كانت دين المضطهَدين والمعذَّبين ، ولم تنتقل المسيحية الى افلاطون وارسطو الا فيما بعد عندما اصبحت دين القوة المضطهِدة والمستغلة . وعلى الرغم من ان هيغل عامل فلسفة وعي الذات بـــلا اكتراث بشكل عام ، الا انه اشار صراحة الى الاهمية القصوى للحرية الداخليـــة للفرد في خضم مأساة الامبراطورية الرومانية التي محت بيد من حديد نبل وجمال الفردية الروحية . وقد بعثت حركة الاستنارة البورجوازية في القرن الثامن عشر فلسفات وعي الذات الاغريقية : بعثت شك الشكوكيين Scepties وكراهيـــة

الابيقوريين للدين وكذلك المشاعر الجمهورية للرواقيين .
وقد فعل كوبن الشيء ذاته في كتابه عن فريدريك الاكبر ، الذي كان يعتبره واحدا من ابطال حركة الاستنارة ، حين قال «تمثل الابيقورية والرواقية والشكوكية اعصاب الجسم العضوي الذي حددت وحدته الطبيعية المباشرة جمال واخلاقية العصور القديمة الكلاسيكية والذي انهار عندما ماتت هذه العصور . وقد تبنى فريدريك الاكبر كل هذه الفلسفات الثلاثة ومزجها بقوة عظيمة ، فاصبحت العوامل الرئيسية في نظرته للعالم وفي شخصيته وفي حياته كلها» . ولقد كان ماركس مستعدا للموافقة على ان ما قاله كوبن عن علاقة هذه الفلسفات الثلاث بالحياة الاغريقية له «اهمية اكثر عمقا» .
شغلت ماركس ايضا المسألة التي اهتم بها رفيقاه، ولكنه عالجها بطريقة مختلفة. فقد سعى الى «وعي انساني للذات بوصفه الاله الاسمى» ولم يتسامح أمامه تجاه اي اله ، سواء أكان هذا الاله منعكسا في مرآة الدين المشوهة او في الهواية الفلسفية لطاغية ، ولكنه كان يسعى الى ذلك بالعودة الى الاصول التاريخية لهذه الفلسفة التي كانت نظمها تمثل بالنسبة له مفتاح التاريخ الحقيقي للروح الاغريقية .

٤ ــ رسالة الدكتوراه .

كان برونو باور محقا في نفاد صبره عندما حث ماركس على الانتهاء من «امتحانه السخيف» ، فقد كان ماركس حينذاك في خريف ١٨٣٩ قد درس ثمانية فصول ، ولكن باور بالتأكيد لم يفترض ان ماركس يعاني من حمى الامتحان بالمعنى المعتاد والا ما كان اكد له انه يستطيع التغلب على اساتذة الفلسفة في بون في اول لقاء .
كان من صفات ماركس التي لازمته حتى آخر ايامه ان نهمه الذي لا يشبع للمعرفة يمكنه من استيعاب المسائل الصعبة بسهولة ، وفي الوقت نفسه كان حس النقد الذاتي الذي لا يرحم لديه يمنعه من الانتهاء منها بالسرعة ذاتها . ولا بد ان ماركس تبعا لذلك غاص في أعمق اعماق الفلسفة اليونانية ، ولا شك في ان دراسة نظم فلسفة وعي الذات الثلاثة فحسب لم يكن مسألة تمكن تسويتها بسهولة . وكان من الطبيعي ان لا يفهم باور ، الذي ينتج أعماله بسرعة كبيرة لا تضمن لها البقاء ، ذلك فانغلز ذاته ابدى احيانا فيما بعد بعض نفاد الصبر تجاه ماركس الذي لم يكن يعرف للنقد الذاتي حدودا ولا نهاية .
غير ان «الامتحان السخيف» واجهماركس، وان لم يكن باور، بصعوبات اخرى. فحينما كان والده حيا ، قرر ماركس ان يختار لنفسه حياة اكاديمية دون ان يتخلى نهائيا عن احتمال اللجوء الى حياة عملية مهنية . ولكن ومع موت التنشتاين ، اختطى اكثر مظاهر الحياة الاكاديمية جاذبية ، ذلك المظهر الذي كان يعوض عن نقائصها العديدة ، وهو بالتحديد الحرية النسبية التي كانت ممنوحة للفلاسفة في مقاعدهم الاكاديمية . ولم يكن باور ذاته يمل تكرار الاشارة الى ان هذه هي الفائدة الوحيدة للثوب الاكاديمي .

وفي الواقع ، سرعان ما اكتشف باور انه حتى الابحاث العلمية لاستاذ بروسي لا يمكن القيام بها دون عوائق . فبعد وفاة التنشتاين في ايار ١٨٤٠ شغل مستشاره الخاص لاندنبرغ الوزارة وأبدى وفاء لذكرى رئيسه الراحل جعله يريد الوفـــاء بالوعد الذي قطعه لباور بتعيينه تعيينا دائما في بون . غير انه ما ان عين ايشهورن وزيرا للثقافة ، حتى رفضت كلية اللاهوت في بون تعيين باور استاذا على اساس ان ذلك سيشوش تناسق الكلية . وبذلك نجحت الكلية في البرهنة على الشجاعة النادرة التي يتحلى بها الاساتذة الالمان عندما يكونون واثقين من ان رؤساءهـــم يدعمونهم سرا .

كان باور قد امضى عطلة الخريف في بون ، وكان على اهبة العودة الى بون عندما بلغته الانباء . وفي الحال جرت نقاشات في دائرة اصدقائه حول ما اذا كان قد حدث انفصال لا صلاح له بين المدرستين العلمية والدينية ، وما اذا كان مـــن يدعم المدرسة العلمية يستطيع ان يوفق بين ضميره العلمي وبين العمل في كليـــة للاهوت . حافظ باور ذاته على وجهة نظره المتفائلة بشأن الدولة البروسية ورفض عرضا شبه رسمي بأن يعمل في حقل الكتابة الادبية ويتلقى منحة تفرغ من الدولة. وعاد الى بون مليئا بالعزم على مواصلة المعركة ، آملا ان يستطيع مع ماركس الذي سيلحق به حل الازمة .

ولم يكن اي منهما قد تخلى عن فكرة اصدار مجلة راديكالية معا ، ولكن آمال ماركس في الحصول على وظيفة اكاديمية في احدى جامعات الراين بدت ضئيلة على وجه التأكيد . فهو كصديق ومساعد لباور سيتلقى استقبالا عدائيا من طغمة الاساتذة في بون ، وهو الى ذلك ليس مستعدا للعمل بنصيحة باور والسعي الى رضى ايشهورن او لاندنبرغ كي يصبح كل شيء في بون «مناسبا» . فلقد كانت آراء ماركس بصدد مثل هذه القضايا حازمة جدا ، ولكن حتى لو كان ميالا للمضي على هذا الطريق الزلق فانه ما كان ليستطيع الحفاظ على توازنه طويلا ، لان الأمد لم يطل بايشهورن حتى بدأ يفصح عن لونه الحقيقي . فكي ينتهي من غوغاء الهيغليين المحنطين في جامعة برلين مرة واحدة والى الأبد ، عين استاذا يدعى شيلنغ عميدا. وكان شيلنغ هذا عجوزا انتهى في اواخر ايامه الى الايمان بالكشف ، فقام بوضع حد لطلبة جامعة هال الذين رفعوا استرحاما مهذبا الى الملك بوصفه عميد الجامعة الاعلى يطلبون فيها تعيين شتراوس استاذا في هال .

وفي ظل هذه الظروف ، قرر ماركس كهيغلي شاب ان لا يقدم امتحانه فـــي بروسيا ابدا . ذلك انه لم يكن راغبا في اعطاء من يدورون في فلك ايشهورن فرصة الايقاع به ، رغم انه لم يكن ينوي اطلاقا التهرب من النزال . على العكس من ذلك، قرر ان يتقدم برسالة الدكتوراه الى احدى الجامعات الصغيرة ثم ينشرها كبرهان على معرفته وقدراته ، مصدرا اياها بمقدمة متحدية ، ثم يذهب بعد ذلك الى بون للاقامة فيها واصدار المجلة الموعودة مع باور . وبهذه الطريقة لن تكون جامعة بون مغلقة أمامه تماما ، فهو يستطيع كحامل دكتوراه من احدى «الجامعات الاجنبية» ان يلتزم ببعض الشكليات فحسب ليحصل على الحرية في الجامعة كمحاضر مستقل.

كانت هذه هي الخطة التي نفذها ماركس فعلا . ففي ١٥ نيسان تلقى درجة الدكتوراه في الفلسفة غيابيا من جامعة يينا على اساس اطروحة مكتوبة تعالج الفروق بين الفلسفة الطبيعية لابيقور ولديمقريط . وكانت هذه الاطروحة جزءا من عمل أكبر كان ماركس ينوي ان يعالج فيه الفلسفات الشكوكية والابيقورية والرواقية بعلاقتها مع الفلسفة الاغريقية التأملية ككل . اما في الاطروحة ذاتها فقد اكتفى بالاشارة الى هذه العلاقة على اساس مثال واحد فقط وبالعلاقة مع الفلسفة التأملية الاقدم فحسب .

كان ديمقريط هو الفيلسوف الذي ألتزم بين الفلاسفة الطبيعيين الاغريقيين الاقدم بالمادية . فمن لا شيء لا يمكن ان ينجم شيء ، ولا شيء كائن يمكن ان يفنى ، وكل تغير ليس الا اتحاد او انفصال جزئيات . ولا شيء يحدث عرضا ، بل كل شيء يحصل بسبب وبالضرورة . ولا شيء كائن غير الذرات والفراغ ، وكل ما عدا ذلك رأي . والذرات موجودة بعدد غير محدود وبتنوع في الاشكال غير محدود كذلك . والذرات جميعا تسقط في الفراغ اللامتناهي ، فتصطدم الذرات الاكبر التي تسقط بسرعة اكبر بالذرات الاصغر ، فتنجم عن ذلك الركات المادية والدورانات التي تشكل بداية تكوين العوالم . وعدد لا يحصى من العوالم يتشكل ويمضي بتعايش وتتابع .

اخذ ابيقور هذا المفهوم للطبيعة عن ديمقريط، ولكنه ادخل عليه بعض التعديلات، واشهر هذه التعديلات هو ما يسمى « انحراف الذرات » . فقد اكد ابقراط ان الذرات تنحرف في سقوطها ، اي انها لا تسقط في خط عمودي مستقيم بل بانحراف عن هذا الخط . ومن سيسرو الى بلوتارش الى ليبنتز وكانط ، اتهم ابيقور بالسخف لاعتقاده بهذه الاستحالة الفيزيائية ، ووصف بانه مجرد مقلد لديمقريط اخذ عنه نظامه وشوهه . غير ان هذا الاتجاه نحو شجب السخف الفيزيائي الذي وقع فيه ابيقور كان احيانا مصحوبا بميل الى اعتبار الفلسفة الابيقورية اكثر نظام فلسفي مادي رقيا وتطورا في العالم الكلاسيكي ، وذلك يعود بدرجة كبيرة الى ان قصيدة لوقريط التعليمية خلّدت فلسفة ابيقور ، بينما لم تستطع البقاء في وجه عواصف القرون والايام غير بقايا لا اهمية لها من فلسفة ديمقريط . وقد سخّف كانط انحراف الذرات بوصفه « اختراعا احمقا » ، ولكنه مع ذلك اعتبر ابيقور انبل فيلسوف للحواس بالمقارنة مع افلاطون انبل فلاسفةالعقل.

وبالطبع ، لم ينكر ماركس وقوع الفلسفة الابيقورية في اللامعقولية الفيزيائية، كما انه شجب « لا مسؤولية ابيقور في تفسيره للظواهر الفيزيائية » ، ولكنه بين ان محك الحقيقة الوحيد كان بالنسبة لابيقور شواهد حواسه : اعتقد ابيقور أن قطر الشمس قدمان لانها كانت تبدو هكذا لعينيه . غير ان ماركس لم يقنع بدحض هذه السخافات الواضحة بجملة او اثنتين ، ولكنه انطلق ليبحث عن العقل الفلسفي في اللاعقل الفيزيائي . ففعل ذلك طبقا للكلمات الجميلة التي استخدمها في تشريف معلمه هيغل في احدى هوامش الاطروحة حين قال ان مدرسة فلسفية ارتكب معلمها خطيئة التوفيقية يجب ان لا تلومه على ذلك ، بل يجب ان تسعى الى تفسير

التوفيقية بنقص المبدأ الذي لا بد ان تكون جذورها ضاربة فيه ، وبذلك تحول الى تقدم للعلم ما يجب ان يبدو تقدما للضمير .

ان ما كان نهايته بذاته بالنسبة لديمقريط ، لم يكن غير وسيلة في سبيل غاية بالنسبة لابيقور . فأبيقور لم يهدف الى فهم الطبيعة ، ولكن الى الوصول الى نظرة للطبيعة يمكن لها ان تدعم نظامه الفلسفي . وقد انقسمت فلسفة وعي الذات كما عرفها العالم الكلاسيكي الى ثلاثة مدارس ، فمثل الابيقوريون طبقا لهيغل الوعي المجرد للذات المفردة ، بينما مثل الرواقيون الوعي العام المجرد للذات ، وكلاهما عقيدتان احاديتا الجانب ، تتعارضان مباشرة ، بسبب من احاديثهما مع الشكوكيين. او كما عبر مؤرخ لاحق للفلسفة اليونانية عن العلاقة ذاتها حين قال : في الرواقية والابيقورية واجهت المناحي الفردية والعامة للروح الذاتية الانعزال الذري للفرد واستسلامه النابع من وحدة الوجود للذات الكلية بالدعاوى ذاتها ، بينما استطاعت الشكوكية توفيق هذا التناقض العدائي .

وعلى الرغم من الاهداف المشتركة التي كانت تحدو الابيقوريين والرواقيين ، ان المدرستين سارتا على طريقين مفترقين لاختلاف نقطتي بدئهما . فقد جعل استسلام الرواقيين للذات الكلية منهم جبريين فلسفيا ، فضرورة كل حدث أمر بدهي بالنسبة لهم ، وجعلهم ذلك ايضا مقتنعين بالجمهورية سياسيا اما في حقل الدين فلم يستطيعوا التحرر من صوفية خرافية محدودة . وقد تطلعوا الى العون من هرقليط ، الذي اتخذ الاستسلام للذات الكلية لديه اقسى شكل متصلب لوعي الذات ، على الرغم من انهم لم يبدوا نحوه سوى القليل من الاحترام كما فعل الابيقوريين تجاه ديمقريط . ومن جهة اخرى، جعل مبدأ الفردية المنعزلة الابيقوريين قدريين فلسفيا ، جعلهم دعاة للارادة الحرة لكل فرد ، كما جعلهم ذلك سياسيا يقاسون بصبر ــ والنصيحة التوراتية: اطيعوا اولي الامر منكم ، موروثة عن ابيقور ــ بينما جعلهم متحررين من كل رابطة دينية .

ثم يبين ماركس في سلسلة من الابحاث العميقة كيف يمكن تفسير « الفرد بين الفلسفة الطبيعية لديمقريط ولابيقور . فقد شغل ديمقريط نفسه بالوجود المادي للذرة ، بينما اهتم ابيقور كذلك بالذرة كمفهوم ، بشكلها وكذلك بمادتها ، بوجودها وكذلك بجوهرها . فاعتبر ابيقور الذرة الاساس المادي لعالم الظواهر ، وليس ذلك فحسب ، بل اعتبرها ايضا رمز الفرد المنعزل والمبدأ الشكلي لوعي الذات الفردي المجرد . وقد استنتج ديمقريط من السقوط العمودي للذرات ضرورة كل الحادثات، بينما جعل ابيقور ذراته تنحرف عن الخط المستقيم في سقوطها ، والا فكيف يمكن ــ كما يتساءل لوقريط ، افضل شارح لابيقور ، قصيدته التعليمية ــ للارادة الحرة ان توجد ؟ كيف يمكن ان تنتزع ارادة الكائن الانساني الحي من قبضة القدر العنيدة؟ وهذا التناقض بين الذرة كظاهرة والذرة كمفهوم واضح عبر الفلسفة الابيقورية كلها، وهو يجبرها على تبني تفسير اعتباطي تماما للظواهر الفيزيائية ، تفسير ووجه بالكثير من التسخيف حتى في العالم الكلاسيكي . ولا تزول تناقضات الفلسفة الابيقورية الطبيعية الا في حركات الاجرام السماوية ، ولكن في الوقت ذاته يقضي

على مبدأ وعي الذات الفردي المجرد في وجه الوجود العام الابدي . وهكذا تتخلى الفلسفة الابيقورية الطبيعية عن كل المراسم المادية ، وينطلق ابيقور ليحارب بوصفه « اعظم مستنير اغريقي » ـ كما يسميه ماركس ـ ضد طغيان الدين الذي يرهب الانسان بنظرات شؤم ينزلها عليه من اعالي السماء .

يتكشف ماركس في اول عمل له عن مفكر بناء ، حتى ولو كان المرء يعارض تفسيره للفلسفة الابيقورية . وفي الواقع يتبدى تفكيره المستقل بصورة اوضح ، اذ ان الاعتراض الوحيد الممكن على تفسيره لابيقور هو انه طور المبادىء الاساسية للفلسفة الابيقورية واستخلص منها نتائج اوضح من تلك التي استخلصها ابيقور ذاته . لقد اعلن هيغل ان الابيقورية هي الانصراف عن التفكير عن مبدأ ، ومن المؤكد ان واضع هذه الفلسفة الذي علّق ، كرجل ـ علّم نفسه بنفسه ـ اهمية كبرى على لغة الناس العاديين ، لم يغلف افكار بطريقة الكلام التأملية الخاصة بفلسفة هيغل والتي فسر بها ماركس هذه الفلسفة (الابيقورية) . ان تلميذ هيغل ، ماركس ، يشهد بهذه الاطروحة على نضوجه هو ذاته . فهو يستخدم الطريقة الجدلية استخداما محكما ، واسلوبه يتمتع بقوة التعبير التي ميزت على الدوام لغة معلمه هيغل ، والتي كان يفتقر اليها اتباعه بشكل محزن .

غير ان ماركس في عمله هذا لا يزال يقف كلية على الاسس الايديولوجية للفلسفة الهيغلية ، ولعل اكثر ما يدهش القارىء المعاصر في هذا العمل هو الحكم السلبي الذي اصدره على ديمقريط . فهو يعلن ان كل ما فعله ديمقريط هو وضع فرضية تمثل نتيجة التجربة وليس مبداها المحرك ، ولذا فان هذه الفرضية لم تتحقق ابدا ولم تؤثر ماديا على الاستقصاء العملي للظواهر الطبيعية . وهو من ناحية اخرى يمتدح ابيقور بوصفه واضع علم الذرة . على الرغم من تفسير هذا الاخير الاعتباطي للظواهر الفيزيائية وعلى الرغم من انه يبشر بالوعي الفردي المجرد للذات ، مع ان ذلك كما يعترف ماركس يلغي كل علم حقيقي موثوق لان العلم يسود في طبيعته الاشياء لا في الوحدة المفردة .

لم تعد هذه المسألة مطروحة للبحث اليوم . فبقدر ما يوجد اليوم اي علم للذرة ، وبقدر ما اصبحت نظرية الجزيئات الاولية وتطور كل الظواهر نتيجة الحركة اساسا لكل الابحاث المعاصرة في الظواهر الطبيعية وفي تفسير كل قوانين الصوت والضوء والحرارة والتغيرات الكيميائية والفيزيائية في الاجسام المادية ، فان ديمقريط وليس ابيقور هو الرائد . غير ان فلسفة الفترة التي عايشها ماركس ، او على الاصح الفلسفة المجردة التي عايشها ، كانت هي العلم لدرجة جعلته يصل نتيجة يصعب علينا اليوم ان نفهمها لولا انها تبدي جوهر شخصيته ذاته .

ففيما يتعلق بماركس ، كان العيش يعني العمل على الدوام ، والعمل يعني الصراع . ولذا فان ما جعله معاديا لديمقريط هو افتقار هذا الاخير الى «مبدأ محرك» او ، كما قال ماركس ذاته فيما بعد ، وقوع ديمقريط في « العيب الرئيسي لكل الماديات السابقة » : تقدير الشيء والحقيقة والحس على شكل موضوع او فكرة فقط وليس ذاتيا ، ليس في الممارسة ، ليس في النشاط الانساني الحسي . ومن

جهة اخرى فان ما جعله ينجذب الى ابيقور هو « المبدأ المحرك » الذي سمح لهـذا الفيلسوف ان يثور على الدين ووطأته الثقيلة .

تبدي المقدمة التي كان ماركس ينوي نشرها معاطروحته والتي اهداها الى حمية روحية قتالية شرسة . « ما دامت قطرة مـن دم تنبض في قلب الفلسفة القاهرة للعالم ، فان الفلسفة ستناهض على الدوام اعداءها بكلمات أبيقور : « ليس شريرا من يحتقر آلهة الجموع ، ولكن الشرير من يتقبل راي المجمـوع في الآلهة . ان الفلسفة لا ترفض ما قاله بروميثيوس (انني في الحقيقة اشتعل كراهية لكل الآلهة)». وعلى اولئك الذين يشكون سوء احوالهم ، يجيب ماركس كما اجاب بروميثيوس هيرميز خادم الآلهة : «كونوا على ثقة من انني لن استبدل مصيري التعيس بعبوديتكم المستكينة » .

بروميثيوس هو انبل قديس وشهيد في تاريخ الفلسفة . بهذه الجملة ، اختتم ماركس مقدمته الجريئة ، التي افزعت حتى صديقه باور ، ولكن ما بدا لهذا الاخير «تهورا لا ضرورة له» لم يكن في الواقع غير كلام بسيط تفوه به رجل كان مقدرا له ان يعيش بروميثيوس اخر في النضال وفي المعاناة كذلك .

٥ ـ الانيكدوتا و«راينيخه تزايتونغ» .

لم يكد ماركس يحصل على دبلوم الكرامة المكتسبة حديثا حتى انهارت كـل الخطط التي وضعها للمستقبل نتيجة ضربات اخرى سددتها الرجعية الرومانتيكية.

ففي صيف عام ١٨٤١ ، عبأ ايشهورن كل كليات اللاهوت في حملة مشينة على برونو باور بسبب من انتقادات باور للاناجيل ، وفي الحال خانت كل الجامعات ، عدا جامعتي هال وكونيغسبرغ ، مبدأ الحرية الاكاديمية البروتستنتي ، وكان على باور أن يستسلم . وهنا تبخرت كل آمال ماركس في الحصول على موطىء قدم له في جامعة بون .

وفي الوقت ذاته انهارت خطة اصدار مجلة فلسفية راديكالية . فقد اعتبر الملك الجديد نفسه دعما لحرية الصحافة ، وبناء على اصراره تم اعداد قانون جديد محكم للرقابة . وفي نهاية عام ١٨٤١ رأى هذا القانون النور ، ولكن في ذلك الحين ساد الاعتقاد بأن تقييد حرية الصحافة لم يكن سوى نزوة رومانتيكية . لكن الملك اوضح ثانية حقيقة فهمه لحرية الصحافة في صيف ١٨٤١ عندما صدر امر يدعو روغه الى وضع صحيفته ، التي كان يطبعها وينشرها ويغاند في ليبزيغ ، تحت تصرف الرقابة البروسية او تمنع في كل الولايات البروسية . فكان ان ادى هذا الحادث بروغه الى فهم «بروسيا الحرة العادلة» على حقيقتها ، مما جعله ينتقل الى دويسدن ، حيث بدأ هناك اعتبارا من اول تموز عام ١٨٤١ اصدار مجلته تحت اسم «دويتشه ياربشر» . وفي الوقت ذاته ، بادر الى تبني لهجة اكثر حدة ، كان ماركس وباور قد افتقداها في كتاباته السابقة ، فجعلهما ذلك يقرران المساهمة في مجلته ، بدلا من تأسيس مجلة خاصة بهما .

لم ينشر ماركس في النهاية اطروحة الدكتوراة . اذ لم يعد هدفها المباشر امرا ملحا ، وفيما بعد قال مؤلفها أنها وضعت جانبا بانتظار ان تبعث كجزء من دراسة اكبر عن الفلسفة الابيقورية والرواقية والشكوكية ككل . لكن «مسائل فلسفية وسياسية من نوع مختلف» لم تسمح لماركس بتنفيذ نيته الاصلية .

كان احد اهم هذه المسائل البرهنة على انه ليس ابيقور فحسب ، بل وهيغل ايضا ، كانا ملحدين تماما . ففي تشرين الثاني ١٨٤١ نشر ويغاند «انذارا» بعنوان «الورقة الاخيرة في الحكم على هيغل والملحدين والمعادين للمسيحية» . وفي هذا المنشور عمد المؤلف المجهول ، تحت قناع من الايمان الاورثوذكسي ، الى النواح على إلحاد هيغل بلهجة النبوءة التوراتية ، وبرهن على إلحاد هيغل بشكل مقنع جدا من خلال اعمال هيغل ذاته . فاثار المنشور اصداء واسعة ، خاصة وان القناع الاورثوذكسي خدع جمهور القراء في البداية ، حتى ان روغه ذاته انخدع به . وفي الواقع لم يكن مؤلف المنشور غير برونو باور ، وكان ينوي اتمام العمل مع ماركس والبرهنة من خلال جماليات هيغل وفلسفة الحق لديه على ان الهيغليين الشباب ، لا الهيغليين القدامى ، هم ورثة المعلم الحقيقيون .

غير ان المنشور منع في هذه الاثناء ، وبدأ ويغاند يضع عراقيل في وجه نشر اية اجزاء اخرى منه . وبالاضافة الى ذلك ، سقط ماركس مريضا ، كما مرض حموه الذي ظل طريح الفراش الى ان توفي في ٣ آذار ١٨٤٢ . وفي ظل هذه الظروف وجد ماركس ان «من المستحيل عمل شيء ذي قيمة» ، ولكنه ارسل للمجلة «مساهمة صغرى» في ١٠ شباط . وفي الوقت ذاته وعد روغه انه سيضع نفسه بكل قواه تحت تصرف المجلة . كانت «المساهمة الصغرى» مقالة عن تعليمات الرقابة الاخيرة التي صدرت بمبادرة من الملك، وكانت هذه المقالة بداية حياة ماركس السياسية . وفي هذه المقالة يعري ماركس نقطة نقطة بنقده العميق السخافات المنطقية المختبئة وراء ستار من الرومانتيكية الضبابية . وكان موقفه معارضا بصلابة لفرح «الليبراليين المزيفين» وحتى بعض الهيغليين الشباب ، الذين ظنوا ان عليهم ان يمجدوا «الشمس المرتفعة في السماء» بسبب «الروح الملكية» التي تتخلل تعليمات الرقابة .

يطلب ماركس في الرسالة التي أرفقها للمقالة طبع المقالة باسرع ما يمكن « الا اذا راقب الرقيب نقدي» . ولم يكن تشاؤم ماركس في غير محله ، ففي ٢٥ شباط كتب له روغه يقول ان «دويتشه ياربشر» تعاني عظيم المعاناة من الرقابة ، وان نشر «مقالتكم قد اصبح مستحيلا» . كما انبأ روغه ماركس انه قد اختار «نخبة من الاعمال الرائعة» من بين المواد التي رفضتها الرقابة ، وأنه ينوي نشرها في سويسرا على هيئة «انيكدوتا (مجموعة اعمال نادرة) فلسفية» . وفي ٥ اذار كتب ماركس معبرا عن حماسة عظيمة للمشروع . وكان نشر مقالة ماركس عن الفن المسيحي ، التي كان ينوي اصدارها كجزء ثان من «الورقة الاخيرة» قد اصبح مستحيلا بسبب «انبعاث الرقابة» في ساكسونيا . فأعاد ماركس كتابتها وعرض على روغه ان يضمنها للانيكدوتا ، بالاضافة الى دراسة نقدية لفلسفة الحق الطبيعي لدى هيغل.

وابلغه ان هذه الدراسة النقدية تبدي ميلا الى الهجوم على الملكية الدستورية بوصفها هجينا متناقضا تماما في ذاته . قبل روغه المقالتين ، ولكنه لم يتسلم شيئا غير المقالة التي تعالج تعليمات الرقابة .

وفي ٢٠ آذار اعلن ماركس انه ينوي تخليص مقالته في الفن المسيحي من اسلوب «الورقة الاخيرة» ومن الحدود الضيقة التي تفرضها طريقة الكلام الهيغلية ، ليخصها في الوقت ذاته بمعالجة اكثر كمالا وأكثر تحررا . ووعد ان ينهي ذلك في منتصف نيسان . وفي ٢٧ نيسان كانت المقالة قد «قاربت على الانتهاء» وتسلم روغه رسالة من ماركس يطلب منه فيها ان «يمهله بضعة ايام اخرى» ، ويخبره انه سيحصل على ملخص للعمل فحسب ؛ لان المقالة نمت وكبرت فأصبحت كتابا . ووعد ماركس انه سيكون مستعدا للتخلي عن كل محاولة لايجاد عذر الا اذا كانت «عوامل خارجية غير سارة» تشكل عذرا كافيا . ووعد كذلك ان لا يمس اعمالا اخرى قبل ان تنتهي مساهمته في الانيكدوتا . وفي ٢١ تشرين الاول ارسل روغه لماركس يقول له ان الانيكدوتا جاهزة للنشر في زيوريخ ، وانه لا يزال يحتفظ لماركس بمكان فيها ، على الرغم من أن ماركس كان حتى الان كريما في وعوده اكثر منه في عمله ؛ ومع ذلك فروغه يعرف ما الذي يستطيع ان يعمله ماركس حين يقرر العمل .

كان روغه يكبر ماركس بستة عشر عاما ، ولكنه مثل كوبن وباور كان يكن احتراما عظيما لقدرات ماركس الشاب ، رغم ان ماركس افقده صبره . اذ لم يكن ماركس ابدا كاتبا يرتاح للتعامل معه ناشروه او مساعدوه ، ولكن احدا من هؤلاء لم يفكر ابدا في ان يعزو التأخير الناجم عن غنى الافكار وعن ميل الى النقد الذاتي لا يرحم الى الكسل او الاهمال .

وفي هذه الحالة الخاصة التي نحن بصددها ، كان هناك عامل اخر اعطاه مزيدا من العذر في نظر روغه ، ذلك ان اهتماما أقوى بكثير من الاهتمام الفلسفي بدأ يشغل ماركس . فهو قد دخل بمقالته عن تعليمات الرقابة الحلبة السياسية ، واستمر في نشاطه هذا على اعمدة «راينيخه تزايتونغ» بدلا من ان يحيك خيوط الفلسفة للانيكدوتا .

تأسست «راينيخه تزايتونغ» في كولون في ١ كانون الثاني ١٨٤٢ ، ولم تكن في البداية صحيفة معارضة اطلاقا ، بل كانت مؤيدة للحكومة . ومنذ بدء المشاكل مع المطارنة في الثلاثينات اصبحت «كولونيخه تزايتونغ» بمشتركيها الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف لسان حال حزب الالترامونتين الذي كان يسيطر على الراين بلا منازع ويسبب لسياسة الحكومة متاعب جمة . ولم يكن موقف «كولونيخه تزايتونغ» نابعا من اي حماسة حقيقية القضية الكاثوليكية بقدر ما كان ناجما عن اعتبارات تجارية ، فقد كانت تعي تمام الوعي ان قراءها ابعد ما يكونون عن الافتتان بشريعة برلين . وقد كان احتكار «كولونيخه تزايتونغ» قويا لدرجة ان اصحابها كانوا ينجحون باستمرار في شراء اي صحيفة منافسة حتى ولو كانت تتمتع بدعم من برلين . وفي كانون الاول ١٨٣٩ منح امتياز لصحيفة «راينيخه الغماينه تزايتونغ» املا في ان تستطيع كسر احتكار «كولونيخه تزايتونغ» ، ولكن لم يمض طويل وقت

حتى كانت «راينيخه تزايتونغ» مهددة بالمصير الذي لحق سابقاتها . وفي اللحظة الاخيرة ، تدخلت مجموعة من الاثرياء واشترت اسهم الصحيفة لتطلقها من جديد على أسس جديدة . فحبذت الحكومة المشروع ، وسمحت للصحيفة التي اعيد تنظيمها تحت اسم «راينيخه تزايتونغ» باستخدام امتياز سابقتها .

لم تكن بورجوازية كولون تنوي التسبب في متاعب للنظام البروسي ، على الرغم من ان عامة الشعب في الراينلاند كانت تكره النظام بوصفه استعبادا اجنبيا . وكانت التجارة تتطور في الراينلاند بشكل مرض جعل البورجوازية تتخلى عن عواطفها الموالية للفرنسيين ، وبعد انشاء الزولفرين (الاتحاد الجمركي) اصبحت البورجوازية تطالب عمليا بسيادة بروسيا على المانيا كلها . وكانت مطالب البورجوازية في الراينلاند متواضعة جدا بالمقارنة مع مطالبها الاقتصادية التي كانت تهدف الى تحقيق سيادة نمط الانتاج الرأسمالي في الراينلاند ، حيث كان هذا النمط قد حقق تقدما عظيما . فرفعت المطالب التالية : الادارة الاقتصادية لاموال الدولة ، وتوسيع خدمات السكك الحديدية ، وتخفيض رسوم المحاكم والطوابع ، وادخال علم مشترك وقناصل مشتركين الزولفرين ، وباختصار كل المسائل التي تظهر على لائحة الرغبات البورجوازية .

غير أنه تبين ان الرجلين اللذين انيطت بهما مهمة اعادة تنظيم هيئة تحرير الصحيفة ، وهما جورج يونغ وداغبورت اوبنهايم ، هما من الهيغليين الشباب المتحمسين ، وأنهما متأثران الى حد بعيد بموسى هس ، الذي كان ابن رجل اعمال من الراين والذي لم يدرس الفلسفة الهيغلية فحسب ، بل درس الاشتراكية الفرنسية كذلك . فقام هذان الرجلان باستخدام كتاب من حلقتهما الثقافية وعلى الاخص من الهيغليين الشباب ، حتى انهما بناء على نصيحة من ماركس أناطا بروتنبرغ مهمة تحرير المقالة المنتظمة الخاصة بالشؤون الالمانية ، مع ان هذه النصيحة التي قدمها ماركس لم تكن فكرة سديدة كما تبين في ما بعد .

لا بد ان ماركس كان مرتبطا بالمشروع منذ البداية . فقد نوى الانتقال من ترير الى كولون في نهاية اذار ، ولكنه وجد ان الحياة في كولون صاخبة الى حد لا يتحمله ، فحط رحاله مؤقتا في بون التي كان برونو باور قد اختفى منها ملاحظا «ان من المؤسف ان لا يبقى احد ليضايق الاورثوذكسيين» . وبدأ ماركس في بون مساهماته في «راينيخه تزايتونغ» ، تلك المساهمات التي جعلته يتخطى بكثير غيره ممن كانوا يساهمون في الكتابة في تلك الصحيفة .

وعلى الرغم من ان الارتباطات الشخصية ليونغ واوبنهايم كانت الوسيلة الاولى لجعل الصحيفة ملتقى للهيغليين الشباب ، الا ان من الصعب الافتراض ان هذا التغير في طابع الصحيفة كان ممكنا دون موافقة او علم اصحابها . ولربما كان هؤلاء اذكياء لدرجة ادركوا معها انهم لن يستطيعوا ان يجدوا في المانيا كلها أدمغة أحدّ وأمضى من تلك التي تساهم في صحيفتهم . ولقد كان الهيغليون الشباب موالين لبروسيا ، ولربما كانت بورجوازية كولون تعتبر كل ما عدا ذلك مما يكتبه هؤلاء ولا تستطيع فهمه مجرد مفارقات غير ضارة . ومهما كان التفسير الصحيح لهذا

الامر ، فان اصحاب الجريدة لم يتدخلوا في شؤونها ، على الرغم من ان الشكاوى من «الميل التخريبي» للصحيفة بدأت ترد من برلين في الاسابيع الاولى لنشوء الصحيفة ، حتى ان برلين هددت في نهاية الربع الاول من العام بمنع الصحيفة كلية . وكان ما أثار الادارة الحكومية في برلين بصورة رئيسية تعيين روتنبرغ الذي كان في نظرها ثوريا رهيبا والذي كان موضوعا تحت رقابة سياسية صارمة . وحتى في ايام اذار ١٨٤٨ ، كان فريدريك وليم الرابع يرتعد امام روتنبرغ معتقدا انه المحرض الحقيقي للثورة . ولكن على الرغم من الاستياء الذي عم برلين من الصحيفة، لم توجه لها الضربة القاضية ، ويعود ذلك بصورة رئيسية الى ان ايشهورن ، وزير الثقافة ، كان برغم رجعيته الكاملة ، يشعر بضرورة وجود ما يعادل الاتجاهات الالترامونتينية (١) في «كولونيخه تزايتونغ». وعلى الرغم من ان «راينيخهتزايتونغ» تكاد «تكون اكثر خطورة» ، الا انها مع ذلك كانت تلعب بافكار لا يمكن ان تجتذب العناصر الصلبة والموثوقة في المجتمع .

لم يكن هذا بالتاكيد خطأ المساهمين الذين ارسلهم ماركس ، وفي الواقع عملت الطريقة العملية التي عالج بها ماركس المسائل الراهنة اكثر مما عملت حتى مساهمات برونو باور وماكس ستيرنر للتوفيق بين اصحاب الصحيفة وبين الهيغلية الشابة . والا فان من المستحيل فهم كيف عين ماركس محررا للصحيفة في تشرين الاول١٨٤٢ بعد بضعة اشهر من ارسال اول مقالة له .

للمرة الاولى ، اتيحت لماركس فرصة اظهار مقدرته الفائقة على اخذ الامور كما هي وعلى جعل الظروف المتحجرة ترقص بأن يعزف لها اغانيها .

٦ ــ مجلس مقاطعة الراين .

خلال السنة المنصرمة ، انعقد المجلس المحلي لمقاطعة الراين تسعة اسابيع في دسلدورف ، فمضى ماركس في سلسلة من خمس رسالات طويلة لايضاح نشاطاته. فبين ان مجالس المقاطعات عاجزة ، وانها هيئات تمثيلية مزيفة اقامها العرش البروسي ليخفي بها نكثه للوعد الذي قطعه عام ١٨١٥ بمنح دستور للبلاد . فهذه المجالس تعقد جلساتها مغلقة ولم يكن يسمح لها في احسن الاحوال بابداء رأيها الا في مسائل محلية تافهة . ومع ذلك لم تجتمع هذه المجالس اطلاقا بعد نشوب المشاكل مع الكنيسة الكاثوليكية في كولون وبوسن عام ١٨٣٧ ، ولم تكن المعارضة للحكومة لتأتي ، ان أتت ، من غير مجلسي الراين وبوسن ، ولكنها حتى حينذاك لا يمكن ان تكون غير معارضة الترامونتينية .

كانت هذه الهيئات الثمينة محمية بفعالية كبيرة من اية انحرافات ليبرالية باشتراط ان تكون ملكية الارض شرطا لازما للعضوية . وان يكون نصف الاعضاء من

---

(١) نزعة كاثوليكية متعصبة تنادي بالسيادة المطلقة للبابا .

ارستقراطية الريف وثلثهم من ملاك الاراضي المدينيين وسدسهم من ملاك الارض الفلاحين . غير انه لم يمكن وضع هذا المبدأ الرفيع موضع التنفيذ بكل عظمته في كل مكان ، فمثلا كان من الضروري القيام بتنازل او اثنين للروحية العصرية في الرانيلاند ؛ لكن ارستقراطية الارض كانت تشكل على الدوام اكثر من ثلث الاعضاء، ولما كانت كافة القرارات تتخذ باغلبية ثلثي الاصوات ، لم يكن ممكنا تمرير اي قرار دون موافقة الارستقراطية . اما ملاك الاراضي المدينيون فقد كانوا خاضعين لتحديد هو انه يجب ان تكون قد مرت عشر سنوات متواصلة على ملكيتهم للارض قبل ان يصبحوا اهلا للترشيح للمجالس . وكاحتياط احترازي اخر ، احتفظت الحكومة بحقها في الاعتراض على انتخاب اي موظف رسمي مديني .

وعلى الرغم من ان مجالس المقاطعات كانت موضع احتقار عام ، الا ان فريدريك وليم الرابع اعاد عقدها عام ١٨٤١ بعد اعتلائه العرش ، وذهب ابعد من ذلك فوسع صلاحياتها نوعا ، ولكن ذلك لم يكن الا لخداع دائني الدولة الذين وعدهم العرش عام ١٨٢٠ بعدم تعويم قروض جديدة الا بموافقة الجمعية السامة للرايخ التي ستنشأ في المستقبل . وقد قام جوهان جاكوبي باصدار كتيب شهير يدعو فيه مجالس المقاطعات ان تطلب من العرش الوفاء بوعده ، ولكنه لم يلق سوى آذان صماء .

وحتى مجلس الراين استسلم بشكل مخز ، وفعل ذلك في المسائل السياسية المتعلقة بالكنيسة ، تلك المسائل ذاتها التي كانت الحكومة تخشاه بسببها . فقد رفض المجلس باغلبية ثلثي الاصوات طلبا يقضي بمحاكمة مطران كولون الذي القي القبض عليه بصورة غير قانونية او اعادته الى منصبه ، على الرغم من ان عدالة هذا المطلب لم يكن يرقى اليها الشك سواء من وجهة النظر الليبرالية او الالترامونتينية . ولم يأت المجلس اطلاقا على ذكر الدستور وعالج بطريقة جد جبانة التماسا وقعه اكثر من الف من مواطني كولون يطالبون فيه بالسماح للجمهور بحضور جلسات المجلس ونشر تقرير يومي كامل عن اعماله ، كما طالبوا بحق بحث أمور المجلس وغير ذلك من امور المقاطعة في الصحافة واصدار قانون صحافة محدد بدلا من الرقابة . فكان كل ما فعله المجلس ان طلب من الملك السماح له بنشر قائمة باسماء المتحدثين في جلساته ، وبدلا من طلب اصدار قانون صحافة محدد ، طالب المجلس باصدار قانون رقابة يمنع التطبيق الاحتياطي للرقابة على الصحف . فكانت مكافاة العرش للمجلس على هذا الجبن الرفض الحازم حتى لهذه المطالب المتواضعة .

ولم يبد المجلس أمائر الحياة الا عندما انتفض مدافعا عن مصالح ملاكي الارض . ولقد كانت اعادة القوانين الاقطاعية القديمة امرا غير ممكن (حتى ان الرسميين الذين ارسلوا الى الرانيلاند أرسلوا الى برلين تقارير بهذا المعنى) ، ذلك ان اي محاولة لفعل شيء من هذا القبيل ستواجه معارضة شرسة من قبل اهالي الرانيلاند . فهؤلاء ليسوا مستعدين على وجه الخصوص للتسامح تجاه اي تدخل في حق تقسيم ملكية الارض تقسيما اراديا ، سواء أكان ذلك في مصلحة ارستقراطية الريف او مصلحة الفلاحين، على الرغم من ان التقسيم غير المتناهي للملكيات الزراعية قد ادى فعلا الى تفتيت الملكيات ، كما بينت الحكومة عن حق . ولذا فقد رفض

المجلس باغلبية ٤٩ صوتا ضد ثمانية اصوات اقتراحا بوضع قيود مغينة على تقسيم الاراضي «لمصلحة الحفاظ على طبقة فلاحية قوية» ، وكان ذلك لان المجلس متفق مع المقاطعة التي يمثلها حول هذه النقطة بالذات . ولكن بعد ذلك غاص المجلس في التشريع على هواه وأقر عددا من القوانين اقترحتها الحكومة ضد جمع العيدان او انتهاك الاراضي الخاصة والغابات . لقد عن ملاك الارض في المجلس بلا حياء ولا وازع سلطاتهم التشريعية واستخدموها لمصالحهم الخاصة .

وضع ماركس خطة شاملة لمقارعة المجلس . ففي الرسالة الاولى ، التي كانت مؤلفة من ست مقالات طويلة ، عالج مناقشات المجلس حول حرية الصحافة ونشر تقرير عن اعمال المجلس . وقد كان السماح للمجالس بنشر تقرير عن اعمالها دون نشر اسماء المتكلمين احد الاصلاحات التي حاول الملك ان يشجع بها المجالس ، ولكنه واجه في ذلك معارضة عنيفة من المجالس ذاتها . ولم يذهب مجلس الراين مذهب مجلسي بوميرا وبرانبدرغ اللذين رفضا رفضا قاطعا نشر اي تقارير عن اعمالهما ، ولكن الغطرسة الغبية ، التي تجعل الممثلين المنتخبين كائنات عليا غير خاضعة لنقد من يدلون بأصواتهم ، كشفت عن نفسها ايضا في سلوك مجلس الراين. «لا يستطيع المجلس ان يتحمل ضوء النهار . فسرية دائرته الخاصة به توافقه اكثر بكثير . واذا كانت مقاطعة قد حبت جماعة من الافراد بثقة كافية الى حد انها اناطت بهم تمثيل حقوقها ، فان من الطبيعي ان يكون هؤلاء الافراد متواضعين بما فيه الكفاية ليقبلوا هذا الشرف ، ولكن من المبالغة ان يطلب منهم ان يخضعوا انفسهم ونمط حياتهم وسلوكهم لحكم المقاطعة التي لم تكد تعطيهم ثقتها» . بهذه السخرية الجميلة ، يتهكم ماركس على اول ظهور لتلك الظاهرة التي اسماها فيما بعد «القماءة البرلمانية» ، تلك الظاهرة التي كرهها طوال عمره .

ولم يكن سيف ماركس اكثر حدة وقسوة فيما مضى منه فيما يتعلق بحرية الصحافة . ولقد اعترف روغه دون حسد «بأن من المستحيل ان يقال شيء اكثر عمقا او ابعد كمالا» مما قاله ماركس «في صالح حرية الصحافة . واننا لنستطيع ان نهنىء انفسنا لان هذا التمكن العبقري الناضج من الافكار التي طالما عانت من التشوش المبتذل قد وجد طريقه الى صحافتنا» . وفي احدى المقاطع يشير ماركس الى الطقس الجميل السعيد لبلاده ، وحتى اليوم يتبدى في تلك المقالات دفء واشعاع الصيف يداعب كروم العنب على ضفاف الراين . تحدث هيغل مدة عن «الذاتية التعيسة لصحافة سيئة يمكن لها ان تصفي كل شيء» . لكن ماركس عاد الى حركة الاستنارة البورجوازية ، فتعرف في «راينيخه تزايتونغ» على الكانطية بوصفها النظرية الالمانية للثورة الفرنسية . غير انه عاد اليها بكل اتساع الافق السياسي والاجتماعي الذي فتحته امامه جدليات هيغل . ويكفي المرء ان يقارن مقالات كارل ماركس في «راينيخه تزايتونغ» بمقالات جاكوبي «اربع اسئلة» ليتيقن من عظم تفوق ماركس . فقد ناشد جاكوبي المرة تلو الاخرى الوعد الملكي باصدار الدستور وكأنه لب المسألة وجوهرها ، بينما لم يعتبر ماركس هذا الوعد حريا حتى بالذكر .

ومع كل مديح ماركس للصحافة الحرة بصفتها العين اليقظة للشعب بالمقارنة مع الصحافة الخاضعة للرقابة التي تعاني من رذيلة اساسية هي الرياء ، تلك الرذيلة التي تولد كل الرذائل الاخرى بما فيها نقيصة السلبية ، المثيرة للتقزز حتى من وجهة النظر الجمالية ، الا انه لم يغفل الاخطار التي تتهدد الصحافة الحرة . لقد طالب احد ممثلي الملاك بحرية الصحافه كجزء لا يتجزا من حرية التجارة، اما ماركس فقد تساءل «هل يمكن اعتبار صحافة تمتهن نفسها لتصبح تجارة صحافة حرة ؟ لا شك في ان على الكاتب ان يكسب مالا ليتمكن من العيش والكتابة ... ان اول حرية للصحافة يجب ان تكون تحريرها من التجارة . والكاتب الذي يحط من قدر الصحافة ليجعل منها وسيلة ماديه يستحق عقابا على هذه العبوديه الداخليه عبودية خارجية هي الرقابة ، او لربما كان وجوده ذاته عقابا له» . لقد التزم ماركس طيلة حياته بهذه المبادىء وعاش بالمعيار ذاته الذي كان يطالب الاخرين بالالتزام به : يجب ان تكون الكتابة غاية بذاتها ، ويجب ان لا تكون وسيلة له وللاخرين الا باقل قدر ، حتى انه يتوجب عليه اذا دعت الضرورة ان يضحي بوجوده ذاته في سبيل كتاباته.

كانت الرسالة الثانية حول اعمال مجلس الراين تعالج «مسألة المطران» كما كتب ماركس ليونغ . لكن الرقابة منعت هذه الرسالة فلم تر النور ، على الرغم من ان روغه عرض ان ينشرها في الانيكدوتا . وكتب ماركس لروغه في ٩ تموز ١٨٤٢ قائلا «لا تظن اننا نعيش هنا في الراينلاند في جنة سياسية . فادارة جريدة مثل راينيخه تزايتونغ امر يحتاج الى اصرار وتصميم عظيمين . لقد رفضت الرقابة مقالتي الثانية عن المجلس التي تعالج مشاكل الكنيسة ، والتي بينت فيها ان المدافعين عن الدولة قد اتخذوا لانفسهم موقفا دينيا ، بينما اتخذ المدافعون عن الكنيسة موقفا سياسيا . ولا شك في ان رفض مقالتي امر مؤسف لان كاثوليكيي كولون الاغبياء كانوا سيقعون في الفخ فيجذب الدفاع عن المطران عددا متزايدا من الناس . وبالمناسبة ، انك بالكاد تستطيع تخيل غباء الطريقة التي عامل بها الطغاة المقاطعة الاورثوذكسية . ولكن المسألة تتوجت بالنجاح ، فقد قبلت بروسيا اقدام البابا امام العالم كله ، ولكن حكومتنا مع ذلك لا تزال تظهر في العلن دون ان تحمر خجلا» . تشير الكلمات الاخيرة الى ان فريدريك وليم غامر تبعا لميوله الرومانتيكية بالتفاوض مع الادارة البابوية ، فما كان من هذه الاخيرة الا ان اظهرت عرفانها بتخطيه شمالا ويمينا طبقا لاعرق التقاليد البابوية .

ان ما يكتبه ماركس في هذه الرسالة الى روغه لا يعني ان ماركس كان يريد حقا بدفاعه عن المطران ان يوقع الكاثوليك المغفلين في مصيدة . على العكس من ذلك، ظل ماركس مخلصا تمام الاخلاص لمبادئه ومنطقيا تماما عندما اعلن انه بالقاء القبض بصورة غير قانونية على المطران لانه قام بواجباته الدينية ، ومطالبة الكاثوليكيين بمحاكمة قانونية للرجل الذي القي القبض عليه خلافا للقانون ، اتخذ المدافعون عن الدولة موقفا دينيا واتخذ المدافعون عن الكنيسة موقفا سياسيا . ولا شك في انه كان امرا حاسما جدا ان تتخذ «راينيخه تزايتونغ» موقفا صحيحا في عالم مضطرب، وذلك بالضبط للاسباب التي يذكرها ماركس في الرسالة ذاتها الى روغه : لأن

الحزب الالترامونتيني الذي كانت الصحيفة تعارضه بنشاط كان اخطر قوة سياسية في الراينيلاند ولأن المعارضة اعتادت ان تشن نضالها من داخل الكنيسة ومن داخلها فقط .

عالجت الرسالة الثالثة ، التي كانت مكونة من خمس مقالات طويلة ، اعمال المجلس بصدد قانون ضد جمع العيدان في الغابات . وفي هذا المجال اضطر ماركس ان «يهبط من عليائه الى الارض» ، او انه كما فسر الامر في مجال اخر ، شعر بالاحراج اذ وجد انه يتعين عليه ان يتحدث عن مصالح مادية لم يجعل هيغل لها مكانا في نظامه الايديولوجي . وفي الواقع لم يتمكن ماركس من معالجة المشكلة بالدقة التي كان سيعالجها بها لو فعل ذلك في السنين اللاحقة . كانت المسألة موضع الخلاف نزاعا بين الحقبة الراسمالية النامية وبين آخر بقايا الملكية العامة للارض ، كانت صراعا قاسيا بهدف نزع ملكية جماهير الشعب . فمن ٢٠٧٤٧٨ حكما جنائيا بدأت في بروسيا عام ١٨٣٦ كان ما لا يقل عن ١٥٠ الفا ، اي ما يقارب الثلاثة ارباع ، يتعلق بجمع العيدان في الغابات وانتهاك اراضي الغير الخ .

استطاعت المصالح الاستغلالية لملاك الاراضي ، خلال مناقشات المجلس ، ان تفرض بلا خجل دعاواها ، حتى انها ذهبت في ذلك ابعد من نصوص مشروع القانون الذي قدمته الحكومة . فدخل ماركس الحلبة بنقد لاذع نيابة عن «الجماهير التي لا تملك والتي لا حقوق سياسية واجتماعية لها» . غير ان تفكيره كان لا يزال قائما على اعتبارات العدالة وليس بعد على اعتبارات الاقتصاد . فطالب بأن لا تخرق الحقوق المعتادة للفقراء ، ووجد اساس هذه الحقوق في شكل غامض الى حد ما من اشكال الملكية لم يكن طابعه طابع ملكية خاصة بشكل محدد ولا طابع ملكية عامة، ولكن مزيجا من كليهما معا ، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات القرون الوسطى . وقد قضي على هذه الاشكال الهجينة الغامضة من الملكية بتطبيق نصوص القانون المدني المجرد المأخوذ من القانون الروماني ، ولكن الحس الغريزي بالعدالة متضمن في الحقوق المعتادة للطبقات الافقر ، وجذور هذه الحقوق ايجابية ومشروعة .

وعلى الرغم من ان المنظور التاريخي لهذه المقالة يحمل «طابعا متذبذبا» ، الا انها تبين لنا ما الذي حفز المدافع العظيم عن «الطبقات الافقر» الى العمل . فوصفه للنذالات التي اقترفها ملاك الارض وللطريقة التي داسوا بها على المنطق والعقل والقانون والعدالة وفي النهاية على مصالح الدولة ، كي يشبعوا مصالحهم الذاتية على حساب الفقراء والمعوزين يكشف لنا الغضب المشبوب ضد الظلم الذي دفعه الى العمل . «ان المجلس ، كي يدمر جامع العيدان ومن يطأ ارض الغير ، لم يكسر اطراف القانون فحسب ، بل اصاب منهالقلب كذلك» . وكان ماركس يرغب على اساس هذا المثال المحدد ان يبين ما الذي يمكن توقعه من جمعية للمصالح الطبقية الخاصة عندما تضع لنفسها جديا مهمة التشريع .

في الوقت ذاته ، كان ماركس لا يزال ملتزما بالفلسفة الهيغلية في القانون والدولة ، على الرغم من انه لم يفعل ذلك على طريقة حواريي هيغل الاورثوذكسيين الذين امتدحوا الدولة البروسية على انها مثالية . على العكس من ذلك قارن ماركس

الدولة البروسية بالدولة المثالية الناجمة عن الفرضية الفلسفية الهيغلية . فاعتبر الدولة المثالية الجسم العضوي الذي يجب ان تجد فيه الحرية السياسية والاخلاقية والقانونية تحققها ، بينما يطيع الفرد قوانين الدولة فقط لانها القوانين الطبيعية لعقله هو ، القوانين الطبيعية للعقل الانساني . نجح ماركس من وجهة النظر هذه في معالجة مناقشات المجلس في القانون ضد جمع العيدان ، وكان ممكنا ان ينجح في الرسالة الرابعة التي تعالج قانونا ضد انتهاك اراضي الغير ، ولكنه لم ينجح في الرسالة الخامسة التي كان ينوي ان يتوج بها هذه الرسائل جميعا ويبحث فيها مسألة تقسيم الارض .

كان ماركس متفقا مع بورجوازية الراينلاند في الوقوف الى جانب الحريـــة الكاملة لتقسيم الملكية الزراعية . وكان موقفه يتلخص في ان عدم اعطاء الفلاح الحق في تقسيم ملكيته كما يشاء يعني اضافة افقار قانوني الى الافقار المادي . غير ان هذا الاعتبار القانوني لم يكن واسعا بما يكفي لتقديم حل للمشكلة . الاشتراكيون الفرنسيون قد اوضحوا ان الحرية غير المحدودة لتقسيم الملكية الزراعية تؤدي الى خلق بروليتاريا لا حول لها ولا قوة ، ووضعوا ذلك على المستوى ذاته مع الانعزال التفتيتي الذي يصيب الحرفي . ولذا كان على ماركس اذا اراد معالجة المشكلة ان يجرب اولا النتائج التي توصلت اليها الاشتراكية .

لا شك في ان ماركس ادرك ضرورة ذلك ، واكيد ايضا انه ما كان ليتهرب من المسألة لو انه اكمل سلسلة الكتابات التي بدأها . غير انه لم يصل الى هذا الحد ، فما ان نشرت رسالته الثالثة حتى اصبح محررا لراينيخه تزايتونغ ، ووجد نفسه امام اللغز الاشتراكي قبل ان يكون في وضع يستطيع معه حله .

٧ ـ خمسة اشهر من النضال .

خلال اشهر الصيف ، قامت «راينيخه تزايتونغ» برحلة صغيرة او اثنتين في الحقل الاجتماعي . ويبدو ان مولس هس كان وراءهما . ففي احدى المناسبات اعادت طباعة مقالة عن احوال السكن في برلين مأخوذة من منشورات ويتلنغ بعنوان «مساهمة في مسألة معاصرة هامة» ، وفي مناسبة اخرى نشرت تقريرا عن مؤتمر عقده الخدم في ستراسبورغ . واضافت اليه ملاحظة مسالمة فحواها انه اذا كانت الطبقات غير المالكة توجه اليوم انظارها الى ثروات الطبقات الوسطى ، فان هذا يمكن ان يقارن بنضال الطبقات الوسطى ضد الارستقراطية الاقطاعية في عام ١٧٨٩ ، مع فارق واحد هو ان المشكلة ستلاقي هذه المرة حلا سلميا .

على الرغم من صغر الملاحظة ، الا انها كانت كافية لدفع «الغماينه تزايتونغ» في اوغسبرغ الى اتهام «راينيخه تزايتونغ» بمغازلة الشيوعية . وفي الواقع ، لم يكن ضمير «الغماينه تزايتونغ» صافيا في هذا المجال ، ذلك انها سبق ونشرت مقالات اكثر حدة بقلم هينريخ هاينه عن الاشتراكية الفرنسية والشيوعية ، ولكنها كانت

الصحيفة الوطنية وربما العالمية المهمة الوحيدة التي تشعر ان «راينيخه تزايتونغ» تتهدد مركزها . وعلى الرغم من ان الهجوم العنيف الذي شنته «الغماينه تزايتونغ» لم يكن ذا باعث رفيع ، الا انه لم يكن كذلك يخلو من حذق خبيث . فقد اوردت «الغماينه تزايتونغ» في مقالها عدة تلميحات الى ابناء التجار الاغنياء الذين يلعبون بالافكار الاشتراكية ببساطة وبراءة دون ان يكون لديهم ادنى نية لاقتسام ممتلكاتهم مع عمال أحواض السفن او مع الرجال العاملين في كاتدرائية كولون ، واضافت تقول ان من الطفولية تهديد الطبقات الوسطى في بلد متخلف اقتصاديا كالمانيا بالمصير الذي آلت اليه الارستقراطية الاقطاعية في فرنسا عام ١٧٨٩ ، خاصة وأن الطبقات الوسطى الالمانية لا تكاد تجد فسحة تتنفس فيها بحرية .

كان من واجب ماركس ان يرد على هذا الهجوم المقذع ، ولكنه وجد ذلك امرا مزعجا . فهو لم يكن راغبا في الدفاع عن اشياء كان هو نفسه يعتقد انها تتسم بسذاجة الهواة ، ولكنه لم يكن كذلك في موضع يسمح له ان يبدي رايه الواضح في الشيوعية . ولذا فقد حاول ما وسعه من جهد ان ينقل المعركة الى ارض العدو، باتهام «الغماينه تزايتونغ» بالميول الشيوعية ، ولكنه في الوقت ذاته اعترف بأنه ليس من حق «راينيخه تزايتونغ» ان تتخلص بجملة او اثنتين من مسألة يعكف على حلها شعبان عظيمان . ولذا فان «راينيخه تزايتونغ» ستخضع الافكار الشيوعية لنقد شامل «بعد دراسة عميقة مطولة» ذلك ان كتابات ككتابات ليروكس وكونسيديراه ، وفوق كل شيء كتابات برودون المتينة لا يمكن معالجتها بافكار مصطنعة عرضية هي بنت لحظتها . غير ان «راينيخه تزايتونغ» ليست مستعدة للاعتراف بهذه الافكار في شكلها الحالي بأنها حقيقة نظرية ، وهي بالتالي لا ترغب ابدا في تحققها ولا تظن ان تحققها امر ممكن .

فيما بعد ، اعلن ماركس ان هذا السجال افسد حماسته للعمل في «راينيخه تزايتونغ» ولذا فقد انتهز «بشغف» الفرصة للانسحاب . غير انه كثيرا ما يختلط السبب بالنتيجة عندما يستعيد المرء الاحداث السابقة . فقد استمر ماركس بجماع روحه وقلبه في العمل في «راينيخه تزايتونغ» ، وبدا انها مهمة لديه لدرجة انه كان على استعداد للمخاطرة بالافتراق عن زملائه القدامى في برلين من اجلها . ولم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله لهؤلاء الاصدقاء القدامى ، فقد حولت تعليمات الرقابة النادي الهيغلي الذي «كان على الاقل مركزا للاهتمامات الفكرية» الى جمعية لمن يدعون بـ«الاحرار» كادت تضم كل نجوم الادب في فترة ما قبل اذار في العاصمة البروسية . وهم يجتمعون الان ليلعبوا لعبة التظاهر بأنهم ثوريون سياسيون واجتماعيون . وقد ازعجت هذه التطورات ماركس حتى خلال اشهر الصيف ، فأعلن انه اذا اعلن المرء انعتاقه ، فان في ذلك اخلاصا للضمير ، اما الانغماس سلفا في الدعاية للنفس والتزلف لها فأمر اخر . ومضى قائلا ان برونو باور موجود على كل حال في برلين ، وهو لا شك سيمنع حدوث «حماقات» .

كان ماركس مخطئا لسوء الحظ في افتراضه هذا . فقد ظل كوبن مترفعا عن تهريجات «الاحرار»، ولكن برونو باور لم يفعل ذلك بالتأكيد، بل لعب الدور الرئيسي

في هزلهم : المسيرات الصاخبة عبر الشوارع ، والمشاهد الفضائحية في بيـوت الدعارة والمشارب ، المضايقة المؤسفة لرجل دين مسالم في حفل زواج ستيرنـر عندما اخذ باور خواتم نحاسية من حقيبة كانت في يده واعطاها لرجل الدين قائلا انها مناسبة لتكون خواتم زواج . وقد جعلت كل هذه الاعمال «الاحرار» موضع نصف اعجاب ونصف فزع من جانب كل بلداء العقول ، ولكنهم بذلك اساءوا الى القضية التي يفترض انهم كانوا يمثلونها .

وبالطبع ، كان لهذه التهريجات البهلوانية اثرا مدمرا على الانتاج الفكـري لـ«الاحرار» ، فواجه ماركس صعوبات جمة في التعامل مع مساهماتهم فـي «راينيخه تزايتونغ» . فقد كانت الرقابة تمنع الكثير من مساهماتهم ، لكن ماركس قال لزوغه في احدى الرسائل «لقد سمحت لنفسي بالتخلص من الكثير منها . فقد ارسل لنا ماين ومن يدورون في فلكه رزما من الخربشات ، خالية من الافكـار ومكتوبة باسلوب متحلل ، وجميعها مطعمة بقليل من الالحاد والشيوعية (التي لم يكلف اي منهم نفسه عناء دراستها) . وبسبب من افتقار روتنبرغ الكامل الى اي حس نقدي او استقلال او مقدرة ، اعتاد هؤلاء على اعتبار «راينيخه تزايتونغ» اداة طيعة في ايديهم ، ولكنني لا انوي البتة السماح باستمرار هذا» . وكان هذا هو السبب الاول الذي «جعل افق برلين متلبدا بالغيوم» ، على حد تعبير ماركس .

حدث الشقاق في تشرين الثاني ١٨٤٢ ، عندما زار هيرويغ وروغه برلين . وفي ذلك الحين كان هيرويغ في اوج شهرته في المانيا كلها ، وفي كولون استطاع ان يحظى بصداقة ماركس . وقد قابل روغه في دريسدن ، وذهب معه الى برلين، حيث لم يجد كلاهما بالطبع اي فضيلة في تهريجات «الاحرار» . وتشاجر روغه مع برونو باور ، لان هذا كما اوضح روغه اراده ان يوافق «على اسخف الامور» مثل ان الدولة والملكية الخاصة والعائلة يجب ان تحل كمفاهيم دون الاهتمام بالجانب العملي من المسألة اطلاقا . كذلك امتعض هيرويغ من الاحرار «بشدة» ، فثار هـؤلاء لامتعاضه منهم بتوبيخه بطريقتهم المعهودة على مقابلته للملك وخطبته لفتاة غنية .

احتكم الفريقان لراينيخه تزايتونغ . فطلب هيرويغ بالاتفاق مع روغه نشر بيان فحواه انه على الرغم من ان «الاحرار» أناس ممتازون كأفراد الا ان رومانتيكيتهم السياسية وجنون العظمة لديهم ، واهتمامهم البالغ بالاعلان عن انفسهم تضر قضية الحرية ، كما قال لهم روغه وهيرويغ صراحة . نشر ماركس هذا البيان ، فما كان من ماين ، الذي نصب نفسه ناطقا باسم الاحرار ، الا ان أمطره بوابل من الرسائل التي تفتقر الى التهذيب .

اجاب ماركس في البداية على هذه الرسائل ببرود وبصورة موضوعية فـي محاولة لضمان تعاون مثمر مع «الاحرار» : «طلبت التقليل من الشكاوى الغامضة والجمل النارية والاعجاب بالذات ، والمزيد من العيانية ومعالجة اكثر تفصيـلا للظروف الواقعية وعرضا لمعرفة عملية اكبر فيما يتعلق بالمواضيـع التي يتعدون لمعالجتها . وقلت لهم انني اعتقد انه ليس صحيحا بل ليس اخلاقيـا ان تسرّب العقائد الاشتراكية والشيوعية ، اي طريقة جديدة كليا للنظر الى العالم ، فـي

الانتقادات الدراماتيكية العرضية الخ . وقلت انه اذا كان لا بد من بحث الشيوعية فان ذلك يجب ان يتم بطريقة جد مختلفة وشاملة . كذلك طلبت منهم ان ينتقدوا الدين بانتقاد الظروف السياسية وليس العكس ، لان ذلك يتفق اكثر مع طبيعة الصحيفة وضرورة تثقيف الجمهور ، ولأن الدين ، الفارغ بحد ذاته ، يعيش من الارض وليس من السماء ، وهو سيختفي وحده عندما تحلّ الحقيقة المقلوبة التي يمثل نظريتها . وفي النهاية قلت لهم انهم اذا ارادوا ان يعالجوا الفلسفة فان عليهم ان يقللوا من التغزل بفكرة الالحاد (ذلك التغزل الذي يذكر باولئك الاطفال الذين يخبرون ايا كان وبصوت عال انهم لا يخافون البعبع) ويحاولوا ان يعرفوا الناس على معناها» . ان هذه الملاحظات تعطينا لمحة عن المبادىء التي كان ماركس يحرر «راينيخه تزايتونغ» على هديها .

غير ان ماركس تلقى ، قبل ان تصل هذه النصيحة مسامع من كان يجب ان تصل مسامعهم ، «رسالة وقحة» من ماين لا يطلب فيها امرا اقل من ان تكف الصحيفة عن «المسايرة» وان «تتخطى الحدود» ، وبكلمات اخرى ان تتحدى الصحيفة احتمال منع صدورها من اجل «الاحرار» . وهنا نفد صبر ماركس ، وكتب لروغه قائلا «ان هذا كله يدل على درجة رهيبة من الغرور . انهم لا يدركون اننا من اجل الحفاظ على صحيفة سياسية يجب ان نكون مستعدين للتخلي عن بعض تفاهات برلين التي لا تعالج شيئا غير مصالح هذه الطغمة ....

اننا يوما اثر آخر نتحمل مغالطات الرقابة والرسائل الوزارية وشكاوى حاكم المقاطعة وانذارات مجلس المقاطعة واحتجاجات اصحاب الصحيفة الخ الخ . انني لا اتمسك بمنصبي الا لانني اشعر ان من واجبي الوقوف في وجه نوايا الطغاة قدر الامكان ، ومن هنا تستطيع ان تتخيل المضايقة التي سببتها لي هذه الرسالة ، ولقد ارسلت الى ماين ردا حادا حاسما» .

كان هذا في الواقع الشقاق النهائي بين ماركس و«الاحرار» الذين انتهوا جميعا نهاية محزنة سياسيا ، من برونو باور الذي عمل فيما بعد في «كروز تزايتونغ» و«بوست» الى ادوار ماين الذي انهى ايامه محررا لـ «دانزيفر تزايتونغ» ووصف حياته الضائعة عبثا بنكتة حزينة تقول انه لم يعد يسمح له بتسخيف احد غير البروتستنت الاورثوذكس لان مالك الصحيفة الليبرالي منعه من انتقاد المنهج البابوي آخذا بعين الاعتبار جمهور القراء الكاثوليك . ووجد آخرون من حلقة «الاحرار» ملجأ في الصحافة شبه الرسمية وحتى الرسمية . فمات روتنبرغ مثلا بعد ذلك بعدة عقود محررا لـ «بروسيشر ستاتس انزيغر» .

غير ان روتنبرغ كان في ذلك الحين ، في خريف عام ١٨٤٢ ، رجلا يخشاه الكثيرون ، وطالبت الحكومة بفصله من «راينيخه تزايتونغ» . فخلال الصيف كله، عملت الحكومة كل ما وسعها من جهد لتجعل حياة الصحيفة لا تطاق ، ولكنها لم تمنعها املا في ان تموت بذاتها . ففي ٨ آب بعث فون شرابر ، حاكم الراينلاند ، بتقرير الى برلين يقول فيه ان عدد مشتركي الصحيفة يبلغ ٨٨٥ مشتركا فقط ، ولكن ماركس تسلم تحرير الجريدة في ١٥ تشرين الاول ، وفي ١٠ تشرين الثاني

وجد فون شرابر لزاما عليه ابلاغ برلين ان عدد المشتركين زاد من ٨٨٥ الى ١٨٢٠ ، وان ميول الصحيفة اخذت تصبح وقحة وعدائية اكثر فأكثر . ولكي تزيد «راينيخه تزايتونغ» الامور سوءاً ، حصلت على نسخة من قانون مقترح للزواج ذي طبيعة رجعية جدا ، ونشرت محتوياته قبل ان تكون السلطات مستعدة لذلك . فاغضب ذلك الملك لان القانون كان يهدف الى جعل الطلاق اكثر صعوبة ، مما سيجعله يلاقي بالتأكيد معارضة عنيفة من جمهور الشعب ، ولذا طلب الملك ان تهدد الصحيفة بالاغلاق اذا لم تفصح عن اسم من زودها بمشروع القانون . غير ان وزراء الملك لم يكونوا راغبين في وضع تاج الشهادة على رأس «راينيخه تزايتونغ» ، لانهم كانوا يعلمون جيدا ان اقتراحا مهينا كهذا سيرفض في اللحظة ذاتها التي يقترح فيها ، ولذا فقد قنعوا بالمطالبة باقصاء روتنبرغ وتعيين محرر مسؤول يوقع الصحيفة عوضا عن ناشرها ، رينان . وفي الوقت ذاته عين رقيب جديد يدعى ويتاس بدلا من الرقيب القديم دوليشال الذي فاحت رائحة غبانه .

وفي ٣٠ تشرين الثاني ، كتب ماركس الى روغه يقول «بفضل الغباء الهائل للادارة الحكومية يعتبر روتنبرغ ، الذي سبق ان حرم من تحرير المقالة الالمانية (التي يقتصر عمله الان على تصحيح تنقيطها) ولم يعط المقالة الفرنسية الا بعد تدخلي ، يعتبر خطيرا ، مع انه ليس خطيرا ، الا على الصحيفة وعلى نفسه . ومع ذلك ، طالبت الحكومة حازمة باقصائه . لقد وفرت الادارة البروسية على الناشر (رينان) تجربة مؤلمة ، اما الشهيد الجديد ، البارع في حمل دوره الجديد والتكلم بلغته ، فانه يستغل الفرصة الى ابعد الحدود . فهو يكتب في كل مكان ، بما في ذلك برلين ، انه يمثل مبدأ راينيخه تزايتونغ الذي تعرض للنفي ، وان الصحيفة على وشك ان تراجع موقفها من الحكومة» . ان مارك يذكر الحادث لانه صعد من نزاعه مع «احرار» برلين ، ولكن يبدو انه ذهب ابعد مما يجب في الهزء بـ«الشهيد» روتنبرغ .

لا يمكن ان تعني ملاحظة ماركس ان الحكومة طلبت اقصاء روتنبرغ «بحزم» وان الناشر رينان قد وفر على نفسه بذلك تجربة غير سارة الا ان «راينيخه تزايتونغ» استسلمت لضغط الحكومة ولم تحاول الاحتفاظ بروتنبرغ . وعلى اية حال ، كان مصير محاولة كهذه ، لو بذلت ، الفشل . وبالاضافة الى ذلك ، كان هناك من الاسباب ما يدعو الى تجنيب الناشر رينان تجربة غير سارة اي استجوابه لدى البوليس ووضع لائحة اتهامية ضده ، فهذا امر ما كان الرجل المسكين غير المسيس ليحتمله . على ان رينان وقع احتجاجا مكتوبا ضد التهديد بمنع صحيفته ، ولكن كتابة الاحتجاج (الموجود الان في ملفات مدينة كولون) يبين ان ماركس هو الذي كتبه.

يعلن الاحتجاج ان «راينيخه تزايتونغ» اذ «تستسلم للقوة» توافق على اقصاء روتنبرغ وتعيين محرر مسؤول . كما يؤكد للسلطات ايضا ان «راينيخه تزايتونغ» ستفعل بسرور كل ما من شأنه ان يتفق مع طبيعة صحيفة مستقلة لتتفادى منعها، وانها مستعدة لجعل مقالاتها معتدلة بالقدر الذي تسمح به موضوعاتها . ان هذه الوثيقة مكتوبة بحذر دبلوماسي لم يظهر مثيله ابدا في حياة كاتبها اللاحقة ، ولكن

من غير العدل وزن كل كلمة من كلماتها ، كما ان من غير العدل القول ان ماركس قد خرق معتقداته بأي شكل ملحوظ ، حتى عندما تكلم عن الموقف البروسي للصحيفة. وقال ان العواطف البروسية للصحيفة قد ابدت نفسها في السجال ضد مواقف «الغماينة تزايتونغ» المعادية للبروسية وفي تحريفها لمصلحة توسيع الزولفرين ليشمل المانيا الشمالية ــ الغربية وكذلك في الاشارات المتعددة الى العلم الالماني الشمالي مقابل النظريات الفرنسية والالمانية الجنوبية الضحلة . وكذلك يبين ماركس في هذه الوثيقة ان «راينيخه تزايتونغ» كانت الصحيفة «الراينية والالمانية الجنوبية» الاولى التي ادخلت الروح الالمانية الشمالية الى الجنوب ، فساهمت بذلك في التوحيد الفكري للفروع المتشعبة للشعب الالماني .

كان رد فون شرابر حاكم الراينلاند على هذا الخطاب يفتقر الى الاحترام : حتى ولو أقصي روتنبرغ في الحال وعين بدلا منه محرر مسؤول ، فان مسألة منح الصحيفة امتيازا قاطعا تعتمد مع ذلك على سلوك الصحيفة في المستقبل . على ايه حال ، اعطيت الصحيفة مهلة حتى ١٢ كانون الاول لتعيين محرر مسؤول ، على الرغم من ان الامور لم تسر الى هذا الحد، اذ نشب في منتصف كانون الاول سبب آخر للخلاف . فقد نشرت الصحيفة مقالتين لمراسلها في برنكاسل تتعلقان بالحالة التعيسة لفلاحي موسل ، فأدى ذلك بفون شرابر الى ارسال تصحيحين كانا فارغين في المحتوى وناشزين في الاسلوب . فما كان من «راينيخه تزايتونغ» الا ان امتدحت «الكبرياء الهادئة» البادية في تصحيحات فون شرابر ، معلنة ان هذه التصحيحات قد اخجلت عملاء البوليس ، وأنها كانت تقصد «الى القضاء على الشك بقدر ما كانت تهدف الى اعادة الثقة» . ولكن ما ان تجمع لدى الصحيفة مواد كافية حتى بدأت في منتصف كانون الثاني نشر مقالات خمس مليئة بالوثائق التي تدل على ان الحكومة قد قمعت شكاوى فلاحي موسل بقسوة وشراسة . وهكذا تعرض اكبر مسؤول حكومي في الراين للهزء به امام الجمهور ، ولكنه وجد ما يعزيه اذ علم ان الحكومة قررت في ٢١ كانون الثاني ١٨٤٣ وبحضور الملك ان تحظر صدور الجريدة.

كان عدد من الاحداث حصل نحو نهاية السنة المنصرمة قد اغضب الملك : رسالة تحد عاطفية كان هيرويغ قد ارسلها من كونيغسبرغ ونشرتها «الغماين تزايتونغ» في ليبزيغ دون معرفة كاتبها ، تبرئة المحكمة العليا لجوهان جاكوبي من تهمة الخيانة العظمى والطعن في الذات الملكية ، واخيرا اعلان «دويتشه ياربشر» في رأس السنة تأييدها «للديمقراطية بكل مشاكلها العملية» . حظرت «دوتيشه ياربشر» في الحال وكذلك «الغماينه تزايتونغ» في الاراضي البروسية ، وكان لا بد من حظر «شقيقتهما الداعرة» في سياق التطهير الشامل ، خاصة وان هذه الاخيرة ازعجت السلطات بنشرها احتجاجا قاسيا على حظر الصحيفتين الاوليين .

كان العذر الرسمي الذي قدم لحظر «راينيخ تزايتونغ» هو افتقارها الى امتياز رسمي ، «كما لو انه كان بامكانها ان تظهر يوما واحدا في بروسيا دون موافقة رسمية في حين ان كلبا لا يستطيع ان يتنفس دون رخصة حكومية» ، على حد تعبير ماركس . اما السبب المكمل «الموضوعي» لحظر الصحيفة فكان الحديث المعتاد

عن موقفها الشائن ــ «الهراء القديم عن سوء نيتها وارتجاجها وتنظيرها الفارغ» ، كما اعلن ماركس بلهجة احتقار . وسمح للصحيفة ان تصدر حتى نهاية الفصل آخذا لمصالح اصحابها بعين الاعتبار . فكتب ماركس الى روغه يقول : «خلال فترة تأجيل الحكم باعدامنا ، نخضع لرقابة مضاعفة. فرقيبنا الحقيقي، وهو رجل شريف جدا ، خاضع لرقابة فون جيرالخ ، حاكم المقاطعة وهو ابله سلبي مطيع . وعندما تكون الصحيفة جاهزة للطبع ، فانها يجب ان توضع تحت انف الشرطة ، فاذا ما ظنوا انهم يشمون فيها اي شيء مناهض للمسيحية او البروسية ، فانها لا ترى النــور » .

ابدى القاضي ويثاس من الشرف ما يكفي للاستقالة من منصبه كرقيب ، فارسل السكرتير الوزاري سان بول من برلين ليحل محله ، فصار هذا يقوم بواجب الرقابة بشكل بلغ حد الكمال ، حتى ان الرقابة المزدوجة سحبت في ١٨ شباط .

شعر كل سكان الراينلاند ان حظر الصحيفة اهانة شخصية موجهة لهم جميعا، فقفز عدد المشتركين الى ٣٢٠٠ مشترك ، بينما رفعت عرائض عليها آلاف التواقيع الى برلين في محاولة للحيلولة دون الضربة القاضية . وذهب وفد من مالكي اسهم الصحيفة الى برلين لمقابلة الملك ، فلم يسمح لهم بمقابلته ، اما العرائض التي ارسلها الناس فقد القيت في سلال المهملات وتعرض الموظفون الحكوميون الذين وقعوها الى تأنيب قاس . غير ان أسوأ ما في الامر هو ان مالكي الاسهم صاروا يميلون الــى التخفيف من حدة لهجة الصحيفة ، أملا في ان ينجح ذلك،حيث فشلت مناشداتهم. فكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي حدا بماركس الى الاستقالة من منصبه كمحرر، على الرغم من انه بالطبع عمل ما في وسعه لمضايقة الرقابة قدر ما يمكن وحتــى اللحظة الاخيرة .

كان الرقيب الجديد ، سان بول ، بوهيميا شابا . وكان قد شارك في احتفالات السكر والعربدة التي كان يقيمها «الاحرار» في برلين ، وسرعان ما وجد نفســه منغمسا في شجارات مع الحراس الليليين على ابواب بيوت الدعارة في كولون . غير انه كان رجلا خبيثا ، وسرعان ما اكتشف «المركز العقائدي» لـ «راينيخ ترايتونغ» «والمصدر الحي» لنظرياتها . وهو يتحدث في تقاريره الى برلين باحترام اضطراري عن ماركس الذي يبدو انه احدث في نفسه اثرا بالغا على الرغم من «الاخطاء التأملية» التي ظن انه وجدها في وجهات نظر ماركس . وفي ٢ اذار كان باستطاعة سان‌بول ان يكتب الى برلين قائلا انه بالنظر «الى الظروف الراهنة» فقد قرر ماركس أن يقطع علاقته براينيخه تزايتونغ ويغادر بروسيا . وقد جعل هذا التقرير مغروري برلين يلاحظون في سجلاتهم انه ما من خسارة اذا هاجر ماركس من بروسيا لان «آراءه الديمقراطية المغالية تناقض مبادىء الدولة البروسية» ، وفي ٨ اذار ارسل سان بول تقريرا مشوبا بلهجة الانتصار الى برلين يقول : «لقد استقال الدكتــور ماركس ، الروح المحركة للصحيفة كلها ، امس ، وخلفه في رئاسة التحرير اوبنهايم وهو رجل معتدل وان يكن غير هام ... انني مسرور جدا بذلك ، فقد انفقت على مراقبة الصحيفة اليوم ربع الوقت الذي كنت انفقه عادة» . ثم يطــري الرقيب

ماركس اذ يقترح على برلين السماح باستمرار صدور الصحيفة ما دام ماركس قد تركها . لكن سادته ابدوا من الجبن قدرا اكثر مما ابدى هو ، فقد اعطوه تعليمات بأن يرشو محرر «كولونيخه تزايتونغ» وأن يتهدد ناشرها الذي كان قد اصبح ، بعد تجربة «راينيخه تزايتونغ» يدرك ان المنافسة الخطرة لصحيفته ممكنة . ونجحت الحيلة المشينة .

في وقت مبكر وفي ٢٥ كانون الثاني ، وهو اليوم الذي عرف فيه في كولون بقرار حظر «راينيخه تزايتونغ» كتب ماركس الى روغه يقول : «لم ادهش . فأنت تعلم وجهة نظري في تعليمات الرقابة منذ البداية . وانني اعتبر ان ما حدث الان ليس الا نتيجة منطقية . انني اعتبر حظر راينيخه تزايتونغ دلالة على تقدم الوعي السياسي ، ولذا فانني استقيل . وعلى اية حال كان الجو قد اصبح خانقا لدرجة لم اعد احتملها . انه لأمر سيء ان تعمل بعبودية وان تقاتل بالوخزات بدلا من ان تقاتل بالسيف حتى ولو كان القتال قتالا في سبيل الحرية . لقد تعبت من رياء السلطات وغبائها وفظاظتها وتعبت من خضوعنا لها والتزامنا بأوامرها ومحاولتنا التهرب منها . والآن اعادت لي الحكومة حريتي ... ليس هناك ما استطيع ان افعله في المانيا . ان المرء يحقر نفسه بالبقاء هنا» .

٨ ـ لودفيغ فويرباخ

وفي الرسالة ذاتها يشعر ماركس روغه بتسلمه المجموعة (الانيكدوتا) التي ساهم فيها بمولوده السياسي الاول . ظهرت هذه المجموعة في مجلدين ونشرتها في زيوريخ في بداية اذار ١٨٤٣ دار ليترارشي كونتور التي جعلها يوليوس فوبل ملجأ للكتّاب الذين اضطروا الى الهرب من الرقابة الالمانية .

وفي هذه المجموعة نزل الحرس القديم من الهيغليين الشباب الى الساحة ، ولكن صفوفهم كانت قد بدأت تتذبذب . وفي هذه المجموعة ايضا كان لودفيغ فويرباخ ، المفكر الجريء الذي القى بكل فلسفة هيغل الى كومة النفايات واعلن ان «الفكرة المطلقة» ليست غير الروح الميتة للاهوت وهي بذلك ليست الا ايمانا بالاشباح ، المفكر الذي وجد كل اسرار الفلسفة في تأمل الانسانية والطبيعة . ولقد كانت مقالته «موضوعات اولية في اصلاح الفلسفة» التي نشرت في الانيكدوتا كشفا بالنسبة لماركس ايضا .

في السنين اللاحقة ، ارّخ انغلز للتأثير الكبير الذي مارسه فويرباخ على تطور ماركس الفكري بظهور «جوهر المسيحية» ، اشهر كتاب لفويرباخ ، في ١٨٤١ . اذ يعلن انغلز مشيرا الى «الاثر المحرِّر» لهذا الكتاب ان المرء لا يمكن ان يتخيل الاثر الذي احدثه دون ان يقرأه : «كانت الحماسة عامة شاملة ، واصبحنا جميعا اتباعا لفويرباخ في الحال» . غير ان كتابات ماركس في «راينيخه تزايتونغ» لا تبدي اي اثر لتأثير فويرباخ . وعلى الرغم من ان ماركس «رحب بحماسة» بالافكار الجديدة

مبدئيا تحفظا نقديا او اثنين ، الا ان ذلك لم يكن الا في شباط عام ١٨٤٤ عندمـــا ظهرت «دويتشه فرانزوشيش ياربشر» واشارت حتى في اسمها ذاته الى علاقة ما بافكار فويرباخ .

كانت افكار «الموضوعات الاولية» موجودة بشكل جنيني في «جوهر المسيحية»، ولذا فان الخطأ الذي وقعت فيه ذاكرة انغلز قد يبدو غير هام ، ولكنه في الواقع ليس كذلك لانه قد يؤدي الى اعطاء فكرة خاطئة عن العلاقة الفكرية بين فويرباخ وماركس . لقد كان فويرباخ لا يرتاح الا للعزلة مع الطبيعة ، ولكنه لم يكن رغم ذلك يفتقر الى الروح القتالية . فقد كان مع غاليليو يعتبر المدينة سجن العقول التأملية، اما في حرية الحياة الريفية فان كتاب الطبيعة مفتوح لكل من يتمتع بقدر من الذكاء يمكنه من قراءته . كان هذا هو دفاع فويرباخ عن نفسه في وجه كل الانتقادات التي وجهت له بسبب الحياة الانعزالية التي يحياها في بركبرغ . كان فويرباخ يحب العزلة في الريف ، لا لانه يؤمن بالحكمة القديمة القائلة ان السعيد هو من يعيش مغمورا ، بل لانه كان يجد في العزلة العزم الذي يمكنه من مواصلة النزال . لقد كان انعزاله نتيجة شعوره بالحاجة الى وضع افكاره بهدوء بعيدا عن ضجيج المدينة وضوضائها الذي يمكن ان يحول بينه وبين تأمل الطبيعة التي كان يعتبرها مصدر كل حياة وكل اسرار الحياة .

كان فويرباخ رغم العزلة التي يحياها في مقدمة الصراعات العظيمة التي كانت رحاها تدور في زمنه . فقد اعطت مساهماته لمنشورات روج مكانتها وسمعتها . كما انه بيّن في «جوهر المسيحية» ان الانسان هو الذي يصنع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الانسان وان الكائن الاعلى الذي تخلقه مخيلـــة الانسان ليس الا الانعكاس التخيلي لوجود الانسان ذاته . غير انه في الوقت الذي ظهر فيه كتاب فويرباخ ، كان ماركس قد حول انتباهه الى النضال السياسي فقاده ذلك الى خضم الحياة العامة ، بقدر ما كانت الحياة العامة موجودة في المانيا اذ ذاك ، ولم تكن الاسلحة التي شحذها فويرباخ في كتاباته مناسبة لامور كهذه . كانت الفلسفـــة الهيغلية قد اثبتت عجزها عن حل المسائل المادية التي نشأت خلال عمل ماركس في «راينيخه تزايتونغ» عندما ظهرت «الموضوعات الاولية في اصلاح الفلسفة» ووجهت ضربة قاضية الى الفلسفة الهيغلية بوصفها الملجأ الاخير للاهوت وعموده العقلاني الاخير . ولذا فقد اثر الكتاب في ماركس تأثيرا بالغا ، على الرغم من انه ابدى تجاهه في الحال بعض التحفظات النقدية .

كتب ماركس الى روغه في ١٣ اذار يقول : «ان حكم فويرباخ لا تبدو مستساغة لي من ناحية واحدة فقط هي بالتحديد انها تشغل نفسها كثيرا بالطبيعة ولا تبدي الا القليل من الاهتمام بالسياسة . على الرغم من ان التحالف مع السياسة هـــو الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها الفلسفة المعاصرة ان تصبح حقيقة. لكنني افترض ان الامر سيكون على ما كان عليه في القرن السادس عشر عندما واجهت مجموعة المتحمسين للطبيعة مجموعة من المتحمسين للدولة» . كان اعتراض ماركس معقولا تماما ، ذلك ان فويرباخ لا يذكر السياسة في «الموضوعات الاولية» الا مرة واحدة ،

وحتى في هذه المرة يمثل موقفه رجعة على موقف هيغل لا تقدما عليه . لكن المهم في الامر هو ان ماركس قرر انيتفحص فلسفة القانون والدولة عند هيغل مثلما تفحص فويرباخ فلسفته في الطبيعة والدين .

ونجد في رسالة ماركس الى روغه فقرة اخرى تكشف لنا عن مدى تأثر ماركس بفويرباخ في ذلك الحين . فحالما ادرك ماركس انه لا يستطيع الاستمرار في الكتابة تحت وطأة الرقابة البروسية ، وأن الجو في بروسيا قمعي بما لا يطاق ، قرر ان يغادر المانيا ، ولكن مع زوجته المقبلة. وكان قد كتب الى روغه في ٢٥ كانون الثاني يتساءل عما اذا كان يستطيع ان يعمل في «دويتشر بوت» التي كان هيرويغ ينوي اصدارها في زيوريخ . لكن هيرويغ لم يستطع تنفيذ خطته اذ انه طرد من زيوريخ. وعندئذ تقدم روغه باقتراحات منها ان يشتركا معا في تحرير «ياربشر» بعد اعادة تسميتها ، مقترحا ان يأتي ماركس الى ليبزيغ لبحث «مكان لعبتنا» .

وفي رسالته بتاريخ ١٣ اذار ، وافق ماركس مبدئيا ، ولكنه ابدى رأيا أوليا في «خطتنا المشتركة» كما يلي : «بعد سقوط باريس اقترح البعض ابن نابليون وصيا على العرش . بينما اقترح آخرون برنادوت حاكما لفرنسا . وكان البعض الاخر يحبذ لوي فيليب . لكن تيليران اجاب : اما لوي الثامن عشر او نابليون . فتلك مسألة مبدأ ، اما ما عداها فمؤامرة . وانا اقول ان كل ما عدا ستراسبورغ (وربما سويسرا) مؤامرة وليس مسألة مبدأ . ان الكتب الضخمة ليست لعامة الشعب ، وأفضل ما نستطيع فعله هو اصدار مجلة شهرية. فحتى لو سمح لدويتشه ياربشر بالظهور ثانية فانها لن تعدو كونها تقليدا للفقيدة المأسوف على ذكراها ، وذلك ليس بكاف اليوم . من جهة اخرى فان «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر (الحوليات الالمانية ـ الفرنسية) مسألة مبدأ ، وأمر مثمر ومشروع يبعث على الحماسة» .

يستطيع المرء ان يسمع في هذه الرسالة صدى «الموضوعات الاولية» لفويرباخ التي يعلن فيها ان فلسفة حقيقية متناغمة مع الحياة والانسانية يجب ان تكون ذات اصل غالي ـ جرماني . اذ يجب ان يكون القلب فرنسيا والراس المانيا ، فالراس يصلح والقلب يثوّر . ففقط حيث كانت هناك حركة وعاطفة وانفعال ودم واحساس ، كانت الروح ، فلم ينقذ الالمان من مدرستيهم غير روح ليبنتز بمبدئه المادي ـ المثالي .

أجاب روغه على رسالة ماركس في ١٩ اذار معلنا انه يوافق تماما على «المبدأ الغالي ـ الجرماني» ، لكن تسوية الجانب العملي من المشروع استغرقت بضعة اشهر اخرى .

٩ ـ الزواج والابعاد

كان على ماركس خلال سنوات نضالاته العامة الاولى ان يواجه كذلك عددا من المصاعب المنزلية . ولم يكن يشير الى هذه المصاعب الا مضطرا وعندما تجبره على

ذلك ضرورة مزعجة . فقد كان من حسن حظ ماركس انه وهب القدرة على الترفع عن صغائر المشاكل في سبيل «الامور العظيمة للانسانية» . ولكن حياته وفرت له، لسوء الحظ ، فرصا كثيرة يمارس فيها هذه المقدرة .

نجد موقف ماركس هذا تجاه مشاكل كهذه واضحا بطريقة مميزة في اول كلام له يتعلق «بمشاكله الخاصة الحقيرة» وصل الينا . فهو يكتب الى روغه في ٩ تموز ١٨٤٢ ، معتذرا عن تأخره في ارسال المساهمة التي وعد بها للانيكدوتا ، فيذكر عددا من هذه المصاعب ، ثم يقول : «ضاع ما تبقى من الوقت في خلافات عائليـــة مزعجة . فعلى الرغم من ان عائلتي ميسورة ، الا انها وضعت في طريقي مصاعب جعلتني اواجه مؤقتا ظروفا محرجة للغاية . وانا لا استطيع بالطبع ازعاجك بوصف مشاكلي الخاصة الحقيرة ، ولعل من حسن الحظ ان المشاكل العامة تجعل مـــن المستحيل على اي رجل ذي سلوك قويم ان يسمح لمشاكله الخاصة بازعاجه» . ان هذه واحدة من الاشارات الكثيرة الى الصلابة الفائقة في شخصية ماركس ، والتي طالما اثارت على الرجل «الذي لا قلب له» غضب ضعاف العقول الذين «تزعجهم المشاكل الخاصة» .

لم تعرف اية تفاصيل عن هذه «الخلافات العائلية المزعجة جدا» ، ولم يشـر ماركس اليها الا مرة واحدة وبطريقة عرضية، عندما كانت «دويتشه ــ فرانزوسيش ياربشر» على وشك الصدور . فقد كتب الى روغه قائلا انه حين تتخذ خططهما شكلا اوضح ، سيذهب الى كروزناش ، حيث ذهبت أم زوجته المقبلة لتعيش بعد وفاة زوجها ، ليتزوج هناك ويمضي بعض الوقت في بيت حماته «لانه يتعين علينا ان نعد بعض المواد قبل ان نبدأ . . . انني استطيع ان اؤكد لك دون اية رومانتيكية انني غارق في الحب من راسي حتى أخمص قدمي وبكل جدية . لقد مر على خطبتنا اكثر من سبع سنوات ، كان على زوجتي المقبلة فيها ان تقاتل لاجلي قتالا مريرا ، جزئيا ضد اقاربها الارستقراطيين الذين يعتبرون « ابانـــا الذي في السموات » والحكومة في برلين اهلا لاحترام متساو ، وجزئيا ضد عائلتي ذاتها التي يسيطر عليها بعض الكهنة وغيرهم من اعدائي» . وقد احدثت هذه الصراعات اثرا سيئا على صحتها . لذا فقد اضطررنا ، انا وزوجتي المقبلة ، طيلة سنوات الى خوض صراعات لا ضرورة لها ، اكثر في الواقع من أناس كثيرين لهم من العمر ثلاثة اضعاف عمرنا ويتحدثون على الدوام عن (تجربتهم في الحياة) » . عدا عن هذه الاشارات الغامضة نوعا ما ، لا نعرف شيئا عن مصاعب فترة الخطوبة .

اتخذت ترتيبات اصدار المجلة الجديدة سريعا وبدون ان يضطر ماركس الى الذهاب الى ليبزيغ . فقد وافق فروبل على نشر المجلة ، بعد ان تعهد روغه الذي كان ميسورا بالمساهمة بـ ٦٠٠٠ ثالر في «لينرارسيش كونتور» . ووعد ماركس براتب قدره ٥٠٠ ثالر في الشهر كمحرر ، فتزوج يني في ١٩ حزيران ١٨٤٣ .

بعد ذلك ، بقي ان يتقرر المكان الذي ستصـــدر فيه «دويتشر فرانزوسيش ياربشر» ، وكانت الاختيارات مطروحة بين بروكسل وباريس وستراسبورغ . ولا شك في ان الشابين كانا يفضلان عاصمة الالزاس ، ولكن في النهاية اتخذ قرار

باصدار المجلة في باريس ، بعد ان زار فروبل وروغه باريس وبروكسل وقاما باستقصاءات مفصلة هناك . ووجدا ان الصحافة تتمتع في بروكسل بقدر اكبر من الحرية بعد صدور قوانين ايلول والنص على ايداع ضمانات مالية ، ولكن العاصمة الفرنسية اقرب اتصالا بالحياة الالمانية . وكتب روغه لماركس يقول انه سيعيش حياة مرتاحة بمبلغ ٣٠٠٠ فرنك او اكثر من ذلك بقليل .

امضى ماركس ، طبقا لخطته ، بضعة اشهر من حياته الزوجية في بيت حماته، وفي تشرين الثاني نقل بيته الزوجي الى باريس . وآخر اشارة وثائقية الى حياة ماركس المبكرة في المانيا هي رسالة الى فويرباخ بتاريخ ٢٣ تشرين الاول ١٨٤٣ يسأله فيها المساهمة في العدد الاول من «باريشر» ، والافضل ان تكون نقدا لشيلنغ ، ويقول : «اشعر انني محق في الافتراض انطلاقا من مقدمتك للطبعة الثانية . من (جوهر المسيحية) ان لديك ما تقوله في هذا المجال . سيكون ذلك فاتحة جيدة . الا تعتقد ذلك ؟ كم نجح السيد شيلنغ في خداع الفرنسيين بذكاء : اولا كوزن الضعيف الانتقائي ثم ليروكس الذكي اللامع . ولا يزال بيير ليروكس ورفاقه يعتبرون شيلنغ الرجل الذي وضع واقعية معقولة موضع المثالية الماورائية، وضع افكارا من لحم ودم موضع الافكار المجردة ، وضع فلسفة للعالم موضع الفلسفة الشكلية ... ولذا فانك لا شك تقدم خدمة جليلة لمجلتنا وخدمة اكثر جلالا لقضية الحقيقة اذا قدمت لنا نقدا لشيلنغ يظهر في العدد الاول . فانت الرجل المناسب لانك النقيض المباشر لشيلنغ . لم تكن افكار شيلنغ الامنية في شبابه ، تلك الافكار التي لم يكن يملك وسيلة لتحقيقها غير الخيال ، ولا طاقة غير الغرور ، ولا قوة دافعة غير الافيون ، لم تكن تلك اكثر من حلم شباب خيالي ، ولكنها اصبحت فيك حقيقة وواقعا واتخذت فيك وزنا رجوليا ... ولذلك فانني اعتبرك النقيض الطبيعي والضروري لشيلنغ ، نقيضا حددته قوتا الطبيعة والتاريخ التوأمين» . كم هي ودودة لهجة هذه الرسالة ، وفي الوقت ذاته كم من الفرح يعتمل في قلب كاتبها توقعا لصراع عظيم !

لكن فويرباخ تردد . وكان قد امتدح المشروع لروغه ولكنه رفض ان يساهم فيه . حتى ان مناشدة مبدئه الغالي ــ الجرماني لم تحركه . لقد كانت كتاباته هي التي اخرجت السلطات عن طورها ودفعتها الى القضاء ما كان تبقى من الحرية الفلسفية في المانيا ، وبذلك اجبرت المعارضة الفلسفية على مغادرة البلاد ، الا اذا كانت مستعدة للاستسلام استسلاما تعيسا .

لم يكن فويرباخ ذاته بالرجل الذي يستسلم ، ولكنه لم يكن في الوقت ذاته قادرا على استجماع شجاعة كافية للاندفاع الى خضم الامواج التي كانت تتلاطم من حول ارض المانيا الميتة . فكان رد فويرباخ على الكلمات النارية التي حاول ماركس ان يكسبه بها ردا ودودا ، ولكنه مع ذلك كان ردا بالرفض . لقد كان ذلك يوما اسود في حياة فويرباخ ، ومنذ ذلك الحين بدأت عزلته تصبح عزلة فكرية كذلك .

الفصل الثالث

المنفى في فرنسا

١ ـ « دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر » .

لم تولد المجلة الجديدة ولادة محظوظة . فقد صدر منها عدد مزدوج في نهاية شباط عام ١٨٤٤ . فكان العدد الاول والاخير .

فقد ثبت ان من المستحيل تحقيق «المبدأ الغالي ــ الجرماني» او كما اعاد روغه تسميته «التحالف الفكري بين فرنسا والمانيا» . ذلك ان «المبدأ السياسي لفرنسا» لم يبد اي شوق الى قبول مساهمة المانيا ، الى قبول «الحكمة المنطقية» للفلسفة الهيغلية ، التي كان يفترض فيها ان تكون البوصلة التي تهدي الفرنسيين الذين كان روغه يرى انهم تائهون في الميتافيزيقية .

كان روغه ينوي ان يتصل اولا بلامارتين ولامينيه ولويبلان وليروكس وبرودون، ولكن حتى هذه القائمة الاولية كانت مشوشة بما فيه الكفاية . فلم يكن لدى احد منهم سوى ليروكس وبرودون اية فكرة عن الفلسفة الالمانية ، ومن هذين كان واحد يعيش في الريف بينما كان الاخر قد تخلى عن الكتابة مؤقتا ليشغل عقله باختراع آلة للطباعة . اما الاخرون ، بمن فيهم لوي بلان الذي كان يعتبر الفوضوية في السياسة امتدادا للالحاد في الفلسفة ، فقد رفضوا جميعا ان يتعاونوا ، مقدمين هذا الاعتراض او ذاك .

من جهة اخرى ، كان العدد الاول يضم عددا مرموقا من المساهمين الالمان : فعدا عن المحررين كان هناك هاينه وهيرويغ وجوهان جاكوبي ، وكلها اسماء من الصف الاول ، اما في الصف الثاني فكان موسى هس بالاضافة الى محام شاب اسمه بيرينز ، وكل ذلك بالاضافة الى اصغر المساهمين سنا ، فريدريك انغلز ، الذي ظهر للمرة الاولى على المسرح ، بعد جولات متعددة في مجال التأليف ، في كامل استعداده وقوته . ولكن حتى هذه المجموعة الالمانية كانت مشوشة . فقد كان بعضهم لا يفهم الا القليل من الفلسفة الهيغلية والاقل من «الحكمة المنطقية» ، وفوق

كل ذلك سرعان ما نشب بين المحررين خلاف جعل استمرار التعاون بينهما مستحيلا.
افتتح العدد المزدوج ، الذي قدر له ان يكون العدد الوحيد ، بمراسلات بين ماركس وروغه وفويرباخ وباكونين ، وهو روسي شاب ارتبط بروغه في دريسدن وقدم الى «دويتشه ياربشر» مساهمة اثارت الكثير من النقاش . وكانت هذه المراسلات تتكون من ثمانية رسائل ، كل منها موقع بالحروف الاولى لاسم مؤلفه ؛ وتوضح هذه التوقيعات ان ماركس كتب منها ثلاثا وكذلك روغه ، بينما كتب كل من فويرباخ وباكونين رسالة واحدة . وفيما بعد اعلن روغه ان المراسلات كانت من وضعه ، وانه كان قد «استخدم مقتطفات من رسائل حقيقية هنا وهناك» . وقد ضم هذه الرسائل الى مجموعة اعماله الكاملة ، ولكن من الملاحظ ان المراسلات شوهت في هذه المجموعة تشويها كبيرا ، وأن الرسالة الاخيرة الموقعة باحرف اسم ماركس الاولى ، والتي تشكل لب المراسلات جميعا ، قد حذفت . ولا يترك محتوى هذه الرسائل اي شك في ان كاتبيها هم من تظهر الاحرف الاولى لاسمائهم عليها . وبالقدر الذي تشكل فيه هذه الرسائل تأليفا منتظما ، فان ماركس يلعب الدور الاساسي فيها . ولكن ليس من الضروري انكار احتمال ان يكون روغه قد ساهم دونما براعة في رسائله وفي رسالتي باكونين وفويرباخ .

افتتح ماركس واختتم المراسلات ، وتشبه المقدمة التي وضعها لحنا ملهما . فهو يقول ان الرجعية الرومانتيكية تؤدي الى الثورة ، وأن الدولة مسألة جدية لدرجة لا يمكن معها النزول بها الى مستوى مسرحية تهريجية ، وأن سفينة محملة بالحمقى يمكن ان تتقاذفها الرياح دون ان يصيبها ضرّ ، ولكنها في النهاية ستواجه حتفها لمجرد ان الحمقى ابوا ان يصدقوا ذلك . فيجيب روغه بنواح طويل حول صبر الفلستيين (١) الالمان الذي لا ينفد والذي يشبه صبر النعاج . وقد كانت مساهمته «ساذجة وبائسة» كما اعترف هو نفسه في ما بعد ، او كما اجاب ماركس في الحال وبقدر اكبر من التهذيب : «ان رسالتك مرثاة جيدة ، ترنيمة جنائزية تبهر الانفاس ، ولكنها ليست سياسية على الاطلاق» . ذلك انه اذا كان العالم ملكا للفلستيين فان من المفيد دراسة سادة العالم هؤلاء ، على الرغم من ان الفلستي سيد للعالم فقط لانه يملأ العالم بمجتمعه هو ، كما تملأ الديدان جثة منخورة . وما دام الفلستي هو الاساس المادي الملكية ، فان الملك ذاته لا يمكن ان يكون الا ملكا الفلستيين . ولقد حاول الملك الجديد ، الذي يفوق والده وعيا وحيوية ، ان يحلّ دولة الفلستيين ، ولكن ما دام الفلستي فلستيا ، فانه لن يستطيع ان يجعل من نفسه رجلا حرا ولا من رعاياه أحرارا .

هكذا فان دولة العبودية والخنوع المحنطة قد عادت الى الحياة ، ولكن حتى في هذا الوضع اليائس هناك امل جديد . وهنا اشار ماركس الى افتقار السادة الى الكفاءة والى خمول خدمهم ورعاياهم الذين يتركون الامور لمشيئة الله ، وهذان

---

(١) الفلستي Philistine هو من يتمسك بمثل ومبادىء الطبقة الوسطى دون ان يعير الامر قدرا كبيرا من التفكير ، وهو خاصة المثقف المعادي للتقدم .

الامران معا كافيان للتسبب في كارثة . ثم اشار الى اعداء الفلستية ، الى كل الرجال الذين يفكرون ويقاسون ، اولئك الذين توصلوا الى فهم الامور . كما انه اشار الى تكرس نظام العبودية القديم ، الذي يدفع كل يوم بمقاتلين جدد الى ساحة النضال من اجل قضية الانسانية ، بينما نظام الارباح والتجارة ، نظام الملكية واستغلال الانسانية يؤدي اسرع فأسرع الى انقسام داخل المجتمع ، انقسام لا يستطيع النظام القديم ان يصلحه لانه لم يخلق ولم يشف ، بل وجد وتمتع فحسب . ولذا فان المهمة المطروحة هي جر العالم القديم الى ضوء النهار ، وتطوير العالم الجديد بطريقة ايجابية .

كتب كل من باكونين وفويرباخ الى روغه مشجعين ، كل على طريقته الخاصة. بينما اعلن هذا الاخير انه تحول على يد «الفوضويين والفلاسفة الجدد» . وكتب فويرباخ مقارنا نهاية «دويتشه ياربشر» بنهاية بولندا ، معلنا ان جهود بضعة رجال لا بد ان يثبت عدم فاعليتها في مستنقع مجتمع متفسخ ، ومن ثم كتب روغه الى ماركس يقول : «كما فشلت الحرية الارستقراطية والايمان الكاثوليكي في انقاذ بولندا ، كذلك فشل العلم المحترم والفلسفة اللاهوتية في انقاذنا . اننا لن نستطيع الاستمرار في حياتنا العملية الا اذا افترقنا عنهما افتراقا حاسما . لقد ماتت «ياربشر» والفلسفة الهيغلية ملك للماضي . فلنناضل من اجل صحيفة في باريس نستطيع فيها ان ننتقد انفسنا والمانيا ككل بحرية تامة وأمانة لا تتزحزح » .

كانت لماركس الكلمة الاولى كما كانت له الكلمة الاخيرة : من الواضح ، انه يتوجب ايجاد نقطة التقاء جديدة للعقول المفكرة المستقلة . فعلى الرغم من ان الشك لا يطال الماضي ، الا ان هناك الكثير من التشوش فيما يتعلق بالمستقبل . «لقد حدثت فوضى عامة في صفوف المصلحين ، ولا شك في انهم جميعا مضطرون الى الاعتراف بأنه ليست لديهم افكار دقيقة حول المستقبل . غير ان ميزة الحركة الجديدة تكمن بالضبط في اننا لا نريد ان نتوقع العالم الجديد دوغماتيا ، بل نريد ان نستكشفه عبر نقد العالم القديم . حتى الان كان حل الاحجية يقبع على الدوام في أدراج الفلاسفة ، وكان كل ما يتعين على العالم الخارجي الغبي القيام به هو ان يغمض عينيه ويفتح فمه ليتلقى كعكة العلم المطلق . لقد علمنت الفلسفة نفسها ، وأبلغ دليل على ذلك هو ان الوعي الفلسفي ذاته اندفع الى وسط الاحداث ، لا بصورة مصطنعة وانما كليا . وليس من مهمتنا بالتأكيد بناء المستقبل مسبقا وحل كل المشاكل مرة واحدة والى الابد ، ولكن من مهمتنا بالقدر ذاته من التأكيد ان ننتقد العالم القائم بلا رحمة . واعني بلا رحمة إنه يتعين علينا ان لا نخاف النتائج التي نتوصل اليها ، ولا نخاف الاصطدام بالقوى السائدة» .

لم يكن ماركس يرغب في نشر اي معيار دوغماتي ، وكان يعتبر الشيوعية كما يبشر بها كابت وديزامي وويتلنغ تجريدا دوغماتيا . ان اهتمام المانيا المعاصرة الرئيسي ينصب على الدين وفي المكان الثاني فحسب على السياسة ، سواء رضي المرء عن ذلك ام لم يرض . ولذا لم يكن مفيدا ابدا تقديم نظام جاهز كما في «الرحلة

الى ايكارا» (١) ، بل يجب على المرء ان يبدأ بالامور من حيث هي .

شجب ماركس موقف «الاشتراكيين» الذين كانوا يشعرون انهم ارفع من ان يهتموا بالمسائل السياسية . فالحقيقة الاجتماعية يمكن التوصل اليها في اي مكان من التناقض في الدولة السياسية ، من الصدام بين رسالتها المثالية وبين فرضيتها العملية . «ولذا فليس هناك ما يمنعنا من بدء نقدنا بنقد السياسة ، وبالاشتراك في السياسة ، اي في النضال الحقيقي . وبذلك يجب علينا ان نتجنب تقديم انفسنا للعالم في صورة دوغماتية وبمبدأ جديد يعلن : هذه هي الحقيقة ، فلتنحنوا لها ولتعبدوها . علينا ان نطور للعالم مبادىء جديدة انطلاقا من مبادئه القديمة . يجب علينا ان لا نقول للعالم : اوقف صراعاتك ، فهي حمقاء ، واصغ لنا فنحن نملك الحقيقة . بدلا من ذلك ، يجب علينا ان نبين للعالم السبب في صراعاته ، وهذا وعي يجب على العالم ان يصل اليه سواء أكان يحب ذلك ام لا» . ويلخص ماركس برنامج الصحيفة الجديدة كما يلي : مساعدة العصر على ادراك (فلسفة نقدية) صراعاته ورغباته .

توصل ماركس الى هذا الادراك ، ولكن روغه لم يفعل ، حتى ان المراسلات ذاتها تبدي ان ماركس كان القائد ، وأن روغه كان المقود . كذلك كان هناك عامل مكمل هو ان روغه سقط مريضا بعد وصوله الى باريس فلم يستطع ان يقوم بالكثير في تحرير المجلة . وهكذا لم يستطع ممارسة قدرته الرئيسية بشكل كامل ، وكان ماركس يبدو له «عرضيا جدا» بما لا يسمح له بالقيام بمهمة التحرير . ولم يستطع روغه ، كذلك ، ان يعطي للصحيفة الشكل والمضمون اللذين كان يعتبر انهما يناسبانها ، كما انه لم يستطع حتى ان ينشر مساهمة له فيها . ومع ذلك ، لم يكن مستاء كثيرا من العدد الاول ، فقد وجد فيه «بعض الاشياء الممتازة التي ستثير أصداء واسعة في المانيا» على الرغم من انه اشتكى من ان «عددا من الاشياء غير المصقولة» قد نشر في عجلة ، وانه كان يستطيع ان يدخل عليها بعض التحسينات . ولربما كان المشروع قد استمر ، لولا ان حالت بعض العوائق الخارجية دون ذلك .

اولا ، سرعان ما استنفدت الاموال المرصودة لمجلة «ليتراريسيش كونتور» وأعلن فروبل انه لن يستطيع الاستمرار دون المزيد من الاموال ، وثانيا سارعت الحكومة البروسية الى اتخاذ اجراءات حالما اعلن عن صدور «دويتشه-فرانزوسيش ياربشر» فلم تكن الصحيفة لتلاقي تعاطفا من ميترينخ ولا من غيزوت ، ولم يكن أمام الحكومة غير ان تقنع بالتعميم على كل حكام المقاطعات البروسية ان «ياربشر» تمثل خيانة عظمى وطعنا في الذات الملكية ، وهذا ما فعلته في ١٨ نيسان ١٨٤٤ . وفي الوقت ذاته اعطيت لحكام المقاطعات تعليمات بالقاء القبض على روغه وماركس وهاينه وبيرنز ومصادرة اوراقهم بأقل ما يمكن من الضجة اذا وطئوا التراب البروسي . ولما كان يتعين اقتناص الدب قبل سلخه ، كان هذا الاجراء دونما ضرر نسبيا ، ولكن ضمير ملك بروسيا اصبح اكثر خطرا عندما اعطى تعليماته بزيادة الرقابة على

---

(١) يوتوبيا كتبها اتيان كابت .

الحدود . فنجحت الشرطة في مصادرة ١٠٠ نسخة من المجلة كانت مخبأة في قارب في الراين ، و٢٠٠ عدد على الحدود الفرنسية قرب برغزابرن . وبالنظر الى صغر حجم توزيع المجلة ، كانت هذه ضربة قاصمة .

وعندما تكون الخلافات الداخلية محتدمة ، فان المصاعب الخارجية تفلح في جعلها اكثر مرارة واحتدادا . يقول روغه ان هذه الظروف سرعت افتراقه عن ماركس ، بل كانت السبب فيه ، ولربما كان هناك بعض من الحقيقة في هذا القول، فبينما لم يكن ماركس يعير للمسائل المالية ادنى اهتمام ، كان روغه على العكس من ذلك يبدي تجاهها حذرا اشبه بحذر البقال . ولم يتردد روغه في ان يقدم لماركس نسخا من الصحيفة بدلا من النقود كجزء من الراتب المتفق عليه مع ماركس ، ولكنه يدعي انه غضب أيما غضب عندما اقترح ماركس عليه ان يخاطر بأمواله ويحاول الاستمرار في اصدار المجلة ، وهو يشير الى ان ماركس لم يكن يعرف اي شيء فيما يختص بتجارة الكتب . ولا شك في ان ماركس خاطر بأمواله في مناسبات كهذه ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون قد اقترح على روغه المخاطرة بامواله هو . ولربما كان قد نصح روغه بأن لا يلقي السلاح لدى اول هزيمة ، ومن الممكن ان يكون روغه قد اعتبر ذلك هجوما خطيرا على جيبه ، خاصة وانه كان قد غضب من قبل لاقتراح ماركس انه يجب ان يقدم بعض الاموال لنشر اعمال ويتلينغ .

غير ان روغه يشير في ما بعد الى السبب الحقيقي لافتراقه عن ماركس ، عندما يعترف بان السبب المباشر كان خصاما حول هيرويغ ، الذي وصفه بأنه «وغد ... ربما بحدة اكثر مما يجب» ، بينما اكد ماركس على «المستقبل العظيم» الذي ينتظر هيرويغ . وفي الحقيقة كان روغه على حق ، فلم يكن لهيرويغ اي «مستقبل عظيم»، كما كانت الحياة التي كان يعيشها اذ ذاك في باريس عرضة حقا للانتقاد . حتى ان هاينه شجبه بحدة ، بينما يعترف روغه نفسه ان ماركس لم يكن ايضا مسرورا جدا بالرجل . على اية حال كان الخطأ الذي وقع فيه ماركس «المر الحقود» مشرفا له ، اكثر مما شرفت روج «الامين الذي لا يرقى اليه الشك» غريزته المصيبة ، ذلك ان ماركس كان مهتما بالشاعر الثوري ، بينما كان روج مهتما بالاخلاقية البورجوازية الصغيرة .

كانت هذه هي الاهمية الكامنة في الحادث الصغير الذي فصل ما بين الرجلين الى الابد . ولم يكن لافتراق ماركس عن روغه الاهمية السياسية التي كانت لسجالات ماركس مع برونو باور وبرودون فيما بعد . ولربما كان ماركس كثوري قد أصيب بالضيق من روغه قبل ان تجعل حادثة هيرويغ علاقتهما امرا لا يطاق ، حتى ولو افترضنا ان الحادث وقع كما يصفه روغه .

واذا كان المرء يرغب في رؤية روغه من جانبه الافضل ، فان عليه ان يقرأ المذكرات التي نشرها بعد ذلك بنحو عشرين سنة . تعالج مجلدات المذكرات الاربعة حياة روغه الى حين توقف «دويتشه ياربشر» عن الصدور ، اي طوال الفترة التي كان فيها روغه المثال الناصع لتلك الطليعة الادبية من الاساتذة والطلبة الذين كانوا يتكلمون نيابة عن بورجوازية كانت تعيش على تجارة صغيرة واوهام كبار . وهي

تحتوي ثروة من الصور الساحرة لطفولة روغه في اراضي روغن الواطئة وبومارانيا، كما تصف وصفا فريدا في اللغة الالمانية اوقات الاضطراب زمن تعقب الديماغوجيين. لكن كارثة روغه كانت ان مذكراته ظهرت حين بدات البورجوازية الالمانية تتخلى عن اوهامها الكبيرة لمصلحة التجارة الكبيرة ، ولذا مرت المذكرات دون ان يأبه لها احد، بينما استقبلت مذكرات رويتر ، وهي كتاب لا يقارن بمذكرات روغه سواء من الناحية التاريخية او الناحية الادبية ، بعاصفة من التصفيق . كان روغه فعلا عضوا نشيطا في حركة «بورشن شافتن» ، بينما اشترك رويتر في الحركة اشتراكا عرضيا جدا . غير ان البورجوازية الالمانية كانت قد بدأت تغازل الرماح البروسية، ففضلت «فكاهة رويتر الذهبية» وطريقته المازحة في وصف امتهان العدالة ايام تعقب الديماغوجيين ، على «الفكاهة الجزيئة» التي وصف بها روغه فشل سجانيه في تحطيم روحه ، وكيف حصل على حريته الداخلية اثناء سجنه .

ولكن حتى في وصف روغه ، يشعر المرء ان ليبرالية ما قبل اذار لم تكن في التحليل الاخير غير فلستية رغم كل الكلمات الجميلة ، وأن الناطقين باسمها لم يكونوا غير فلستيين ، وانهم ظلوا كذلك حتى النهاية . كان روغه اكثر هؤلاء حماسة، وقد قاتل بشجاعة كافية ضمن حدوده الايديولوجية ، ولكن المزاج الفلستي ذاته جعل ارتداده امرا سهلا ، عندما اصطدم في باريس بتناقضات الحياة الحديثة وجها لوجه .

كان روغه قد اتخذ الاشتراكية على انها هواية المحسنين الفلسفيين ، ولكن شيوعية حرفيي باريس جعلته يرتعد هلعا وملأته بخوف ، لا لخشيته على سلامته الشخصية ، بل لخشيته على جيبه . ولقد وقع روغه في «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» صك الموت على الفلسفة الهيغلية بقدر عظيم من الزهو والخيلاء ، ولكن ما انتهى العام حتى رحب بفلسفة ستيرنر ، اكثر خلفاء الفلسفة الهيغلية سوقية وابتذالا ، بوصفها الدرع الواقي من الشيوعية التي اعتبرها اغبى الغباوات ، ووصفها بأنها مسيحية جديدة يبشر بها السذج ونظام يعني تحقيقه انحطاط البشرية الى الدرك الاسفل .

وهنا اصبح الافتراق بين ماركس وروغه نهائيا لا صلاح له .

٢ ـ منظورفلسفي

لذا كانت «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» مولودا طرحا . فما ان اصبح واضحا ان محرريها لا يستطيعان العمل سوية ، حتى اصبح افتراقهما امرا لا اهمية له ، وفي الواقع كان من الافضل ان يفترقا في وقت ابكر . وكان يكفي ان ماركس قد قفز قفزة عظيمة نحو رؤية اوضح للأمور .

نشر ماركس في «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» مساهمتين : «مقدمة لنقد فلسفة الحق عند هيغل» ، وملاحظات عن كتابين في المسألة اليهودية اصدرهما برونو باور . وعلى الرغم من اختلاف المساهمتين اختلافا بينا في موضوعيهما ، الا

انهما كانتا مرتبطين ارتباطا وثيقا فيمحتواهما الايديولوجي. وفيما بعد لخصماركس نقده لفلسفة الحق لدى هيغل بالقول ان مفتاح فهم التطور التاريخي يكمن في دراسة المجتمع ، الذي يحتقره هيغل ، وليس في دراسة الدولة التي يمجدها . وفي المساهمة الثانية يعالج ماركس وجهة النظر هذه بقدر اكبر من التفصيل الذي عالجها به في المساهمة الاولى .

من جهة اخرى ترتبط المساهمتان ببعضهما ارتباط الوسيلة بالهدف . فالاولى تقدم هيكلا فلسفيا الصراع الطبقي البروليتاري ، بينما تقدم الثانية هيكلا فلسفيا للمجتمع الاشتراكي . غير ان ايا منهما لم تهبط من السماء ، بل انهما كليهما تشيران الى التطور الفكري لكاتبهما تطورا منطقيا تماما . فقد انطلقت المساهمة الاولى مباشرة من فويرباخ ، الذي اتم في الجوهر نقد الدين ، الذي هو الفرضية الكامنة وراء كل نقد : الانسان يصنع الدين ، وليس الدين هو الذي يصنع الانسان .

يبدأ ماركس بالقول لكن الانسان ليس كائنا مجردا يوجد خارج العالم . الانسان هو عالم البشر ، هو الدولة وهو المجتمع ، انه عالم انتج الدين وعيا مقلوبا للعالم لان العالم ذاته مقلوب . ولذا فان النضال ضد الدين نضال غير مباشر ضد ذلك العالم الذي يشكل الدين شذاه الروحي . هكذا يصبح الوصول الى حقيقة الواقع المعاصر، بعد ان اختفت سماوية الحقيقة ، مهمة التاريخ . وهكذا يتحول نقد السماء الى نقد للارض ، ونقد الدين الى نقد للقانون ونقد اللاهوت الى نقد للسياسة .

غير ان الفلسفة وحدها هي التي تستطيع ان تقوم بهذه المهمة التاريخية لالمانيا . ذلك انه اذا نظر المرء الى المانيا في عام ١٨٤٣ ، لوجد انها لا تكاد تكون في سنة١٧٨٩ الفرنسية ، واقل من ذلك لا تكاد تكون في بؤرة المشاكل المعاصرة . فاذا أخضع الواقع الاجتماعي ــ السياسي المعاصر للنقد ، فان النقد يجد نفسه خارج الواقع الالماني او انه سيفشل في الوصول الى هدفه الحقيقي . وكمثال على انه يتوجب على التاريخ الالماني ان يقوم بالتمارين المتعبة القديمة ، تماما كمجند خامل ، يذكر ماركس «واحدة من المسائل الرئيسية المعاصرة»، مسألة علاقة الصناعة، او بالاحرى علاقة عالم المال ككل ، بعالم السياسة .

فهذه المسألة تشغل الالمان على شكل تعرفة حماية وعائدات ضخمة ونظام الاقتصاد الوطني . وهكذا يبدأ الالمان حيث انتهى الانجليز والفرنسيون . فالاوضاع القديمة المهترئة التي يثور عليها هذان البلدان نظريا والتي لا يتسامحون تجاهها الا كما يتسامح المرء تجاه قيوده ، يجري الترحيب بها في المانيا على انها شمس المستقبل المشرق الصاعدة . وبينما المسألة في انجلترا وفرنسا مسألة «الاقتصاد السياسي او سيادة المجتمع على الثروة» ، فان المسألة في المانيا هي مسألة «الاقتصاد الوطني او سيادة الملكية الخاصة على الجنسية الوطنية» . ومن هنا فان المسألة في الحالة الاولى تكمن في حل العقدة ، بينما هي في الحالة الثانية مسألة عقدها اولا .

وعلى الرغم من ان الالمان ليسوا معاصرين لغيرهم من الامم تاريخيا ، الا انهم معاصرون لها فلسفيا . فنقد الفلسفة الالمانية في القانون والدولة ، الذي اتخذ اكثر شكل منطقي له على يد هيغل ، يؤدي مباشرة الى مركز المسائل المعاصرة الملحة.

ثم يحدد ماركس بوضوح موقفه من الاتجاهين اللذين وجدا جنبا الى جنب في «راينيخه تزايتونغ» وبالنسبة لفويرباخ . لقد القى فويرباخ بالفلسفـة الى سلة المهملات ، ولكن ماركس يبين انه اذا كان على المرء ان يعالج المسائل الحيوية حقا ، فان عليه ان لا ينسى ان الحياة الحيوية للشعب الالماني لم تزدهر حتى الان الا في عقل هذا الشعب فقط . وهو يخاطب «بارونات القطن وعمالقة الحديد» قائلا : «انكم على حق اذ تطالبون بتصفية الفلسفة ، ولكنكم لا تستطيعون انتصفوها قبل ان توجدوها» . وهو على العكس من ذلك يخاطب برونو باور واتباعه قائلا : انكم على حق اذ تطالبون بايجاد الفلسفة ، ولكنكم لا تستطيعون ايجادهـا قبل ان تصفوها اولا .

يتمخض نقد فلسفة القانون عن مهام لا سبيل الى حلها الا بالممارسة . فكيف يمكن لالمانيا ان ترفع نفسها الى مستوى في ارتفاع المبدأ ، اي الى ثورة لن ترفعها الى مصاف الشعوب الحديثة فحسب ، بل وايضا الى المستوى الانساني الـذي سيكون المستقبل القريب لهذه الشعوب ؟ كيف يمكنها ان تتخطى بقفزة مصيرية لا نقائصها الذاتية فحسب ، بل وفي الوقت ذاته نقائص الشعوب الحديثة ايضا ، تلك النقائص التي يجب في الواقع ان تشعر انها تحرير لها من نقائصها الذاتية ، والتي يجب ان تسعى للوصول اليها ؟

أن سلاح النقد لا يستطيع بالتأكيد ان يحل محل نقد الاسلحة . فالقوة المادية يجب ان يطاح بها بالقوة المادية ، ولكن النظرية ذاتها تصبح قوة مادية عندما تتملك الجماهير ، وعندما تفعل فانها تصبح في الحال راديكالية جذرية . غير ان ثورة جذرية تحتاج الى عنصر سلبي ، الى اساس مادي . والنظرية تتحقق في شعب ما بقدر ما هي ادراك لحاجات هذا الشعب . ولا يكفي ان تندفع الفكرة نحو التحقق ، بل يجب ان يفرض الواقع نفسه على الفكرة . بيد ان هذا امر تفتقر اليه المانيا ، حيث حقول المجتمع المختلفة مرتبطة ببعضها ملحميا وليس دراماتيكيا ، حيث ثقة الطبقات الوسطى الاخلاقية قائمة فحسب على الوعي بأنها الممثل العام لكل ما هو مبتذل في الطبقات الاخرى جميعا ، حيث كل حقل من حقول المجتمع البورجوازي يعاني من هزيمته قبل ان يحتفل بانتصاره ويبدي ضيق أفقه قبل ان تتاح له فرصة ابداء سعة افقه ، فتكون كل طبقة منغمسـة في صراع مع الطبقة الادنى منها قبل ان تستطيع خوض صراع مع الطبقة الاعلى .

لكن هذا لا يعني ان الثورة الجذرية ، وهي الانعتاق الانساني العام ، مستحيلة في المانيا ، ولكنه يعني فحسب ان الثورة السياسية فقط ، تلك الثورة التي تبقي على اعمدة البيت ، هي المستحيلة . فالشروط الاولية لثورة سياسية كهذه مفقودة في المانيا : من جهة طبقة تأخذ على عاتقها تحرير المجتمع من وضعها المحدد الخاص بها ، ولكن بشرط واحد هو ان يجد المجتمع كله نفسه في الوضع ذاته الذي تعيشه هذه الطبقة ، اي انه مثلا يملك النقود والتعليم او يستطيع الحصول عليها بسهولة. ومن جهة اخرى طبقة تتركز فيها عيوب المجتمع ، حقل اجتماعي محدد يكون مسؤولا عن جريمة المجتمع كله ، حتى يبدو التحرر من هذه الطبقة انعتاقا ذاتيا للمجتمع

كله . فلقد قولب الطابع السلبي العام للارستقراطية الفرنسية ورجال الدين الفرنسيين الطابع الايجابي العام للطبقة الملامسة لهما مباشرة والمعادية لهما وهي البورجوازية .

ويستنتج ماركس من استحالة نصف الثورة امكانية الثورة الجذرية . ويتساءل اين تكمن هذه الامكانية ، ويجيب : «في تكوّن طبقة قيودها جذرية ، طبقة من المجتمع البورجوازي ليست من المجتمع البورجوازي ، طبقة هي انحلال كل الطبقات، حقل من حقول المجتمع له طابع شامل نتيجة معاناته الشاملة ، حقل لا يطالب بحق مخصوص لان ظلما مخصوصا لم يقع به بل وقع به الظلم كله ، حقل لم يعد يستطيع الطموح الى لقب تاريخي بل الى لقب انساني ، حقل لا يقف على تناقض احادي الجانب مع النتائج ، بل على تناقض شامل وكامل مع فرضيات الدولة الالمانية ذاتها ، واخيرا حقل لا يستطيع ان يحرر نفسه دون ان يحرر كل حقول المجتمع كذلك ، وباختصار طبقة تمثل الفقدان الكامل للانسانية ولذا فهي لا تستطيع ان تربح ذاتها الا عبر اعادة كسب كاملة للانسانية . انحلال المجتمع هذا هو البروليتاريا» . وقد بدأت هذه الطبقة في النمو في المانيا نتيجة للحركة الصناعية التي اجتاحت البلاد ، ذلك انها لم تتكوّن بفعل فقر اساسه طبيعي بل بفعل فقر انتج اصطناعيا ، لا بفعل جمهرة من البشر ينوءون ميكانيكيا تحت ثقل المجتمع ، ولكن بفعل جمهرة من البشر ناجمة عن الانحلال الحاد للمجتمع ، وبصورة رئيسية عن انحلال الطبقات الوسطى ، على الرغم من ان الفقر الطبيعي والعبودية الالمانية ــ المسيحية دخلت صفوفها بالطبع وتدريجيا .

وكما ان الفلسفة تجد اسلحتها المادية في البروليتاريا ، كذلك فان البروليتاريا تجد اسلحتها الفكرية في الفلسفة . وحالما يغرس الفكر جذوره بعمق في عامة الجماهير ، يحدث انعتاق الالمان وتحولهم الى بشر . ان انعتاق الالماني هو انعتاق الانسان . والفلسفة لا يمكن ان تتحقق دون تصفية البروليتاريا ، والبروليتاريا لا تستطيع ان تصفي نفسها دون ان تدرك الفلسفة . وعندما تتحقق كل الشروط الداخلية ، يعلن يوم البعث الالماني .

تقف هذه المقالة ، من حيث الشكل والمحتوى ، في مقدمة مقالات ماركس الشابة التي وصلت الينا . ولا شك في ان تلخيصا موجزا للافكار الرئيسية التي احتوتها لا يستطيع ان يعطي ولو فكرة تقريبية عن غنى الفكر الذي ينظمه ماركس في شكل دقيق محكم . اما اولئك الاساتذة الالمان الذين وجدوا اسلوبها مبتذلا وطريقتها مفتقرة الى الذوق بشكل مرعب ، فلا شك في انهم قدموا دليلا غير مشرف ضدهم هم . غير ان روغه هو الاخر وجد «حكمها البارعة ... مصطنعة جدا» ، وانتقد «افتقارها الى الشكل» ولكنه اكتشف فيها «موهبة نقدية تتطور الى الجدل ، ولكنها احيانا تنحط الى الغطرسة» . ولم يكن هذا نقدا متجنيا ، ذلك ان ماركس كان احيانا يتهلل ابتهاجا لصوت ضربات سيفه ، رغم ان هذا السيف اثبت انه حاد وقاطع . ان الغطرسة آفة كل الشباب الموهوب .

بيد ان المنظور الفلسفي الذي تفتح هذه المقالة ابوابه لا يزال بعيدا . فما من احد

استطاع ان يبرهن بشمول اكثر مما فعل ماركس في ما بعد انه ما من امة تستطيع ان تقفز قفزة مصيرية فوق مراحل تطورها التاريخي الضرورية ، ولكن المنظورات الغائمة التي رسمها في مقالته هذه لم تكن خاطئة . ففي التفاصيل حدثت الامور على نحو مختلف ، اما في الشكل العام فقد حدثت كما تنبأ ماركس . وتاريخ البورجوازية الالمانية وكذلك تاريخ البروليتاريا الالمانية هما معا شاهده .

٣ ـ في المسألة اليهودية

ليست المساهمة الثانية التي نشرها ماركس في «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» ساحرة الى هذا الحد في شكلها ، ولكنها تكاد تكون في قوة تحليلها النقدي متفوقة على الاولى . وفي هذه المساهمة يتفحص ماركس الفرق بين الانعتاق الانساني والانعتاق السياسي على اساس رسالتين في المسألة اليهودية كتبهما برونو باور .

لم تكن هذه المسألة قد غاصت بعد في ذلك الحين في أوحال السامية والعداء للسامية . فقد كانت طبقة من طبقات المجتمع ، تمثل تناميا مطردا كواحدة من ابرز ممثلي راس المال التجاري والاقراضي ، محرومة من كل حقوقها المدنية بسبب دينها ، عدا عن الامتيازات التي كانت تتمتع بها نتيجة ممارساتها الربوية . وقد اعطى اشهر ممثل «للحكم المستبد المستنير» ، فيلسوف سان سوسي فريدريك الاكبر ، العالم، درسا رفيعا بمنح «حرية الصيارفة المسيحيين» لليهود المتمولين الذين ساعدوه في تزييفه للعملات وغير ذلك العمليات المالية المريبة ، بينما سمح للفيلسوف موسى مندلسون بالبقاء على الارض التي يحكمها ، لا لان هذا كان يناضل لقيادة «شعبه» وادخاله في الحياة الفكرية لالمانيا ، بل لانه كان يحتل منصب ماسك دفاتر واحد من المتمولين اليهود ذوي الامتيازات . ولو فصله رب عمله من العمل ، لاصبح محروما من كل حقوقه .

وحتى رواد حركة الاستنارة البورجوازية ، عدا واحد منهم او اثنين ، لم يبدوا اي اعتراض على الحرمان القانوني لقطاع كامل من السكان بسبب الدين لا غير . فقد كان الدين اليهودي كريها بالنسبة لهم لانه كان مثالا على التعصب الديني الذي تعلمت المسيحية منه «تزمتها الانساني» ، بينما لم يبد اليهود من جهة اخرى اي اهتمام كان بحركة الاستنارة البورجوازية . وقد سر اليهود عندما بدأ النقد المستنير يأخذ برقبة الدين المسيحي ، ولكنهم ملأوا الدنيا ضجيجا ، كما لو ان خيانة للانسانية قد وقعت ، عندما حول هذا النقد ذاته انتباهه الى الدين اليهودي . وقد طالب اليهود بالتحرر السياسي لليهودية ، ولكن ليس بمعنى اعطاء حقوق متساوية للجميع ولا بنية التخلي عن موقعهم الخاص ، بل بنية تعزيز موقعهم الخاص ، وكانوا على استعداد طيلة الوقت للتخلي عن المبادىء الليبرالية لحظة تصطدم هذه المبادىء بأية مصلحة يهودية مخصوصة .

كان من الطبيعي ان يمتد نقد الدين الذي شنه الهيغليون الشباب الى الدين اليهودي ، الذي اعتبروه مرحلة بدائية من المسيحية . وقد حلل فويرباخ اليهودية

على انها دين الانانية : «لقد حافظ اليهود على خصوصياتهم الخاصة حتى يومنا هذا . ومبدأهم والههم هو المبدأ العملي للعالم ــ الانانية على شكل دين . تركز الانانية الانسان على ذاته ، ولكنها في الوقت ذاته تحدٍّ من رؤيته النظرية لانه يفقد اهتمامه بكل ما لا يرتبط مباشرة برفاهه الفردي الخاص» . وقال برونو باور الشيء ذاته تقريبا ، معلنا ان اليهود قد تسللوا الى شقوق المجتمع البورجوازي وصدوعه ليستغلوا عناصره كما فعلت آلهة ابيقور التي عاشت في صدوع العالم متحررة من اي عمل محدد . ودين اليهود هو الخديعة والخبث الحيوانيين ، وبه اشبع اليهود حاجاتهم الحسية . وقد عارض اليهود على الدوام التقدم التاريخي ، وبسبب من كراهيتهم لكل الشعوب الاخرى انعزلوا عن العالم وعاشوا حياة عقيمة خصيا .

فسر فويرباخ سلوك الدين اليهودي من سلوك اليهود ، ولكن باور رغم شمول مقالته في المسألة اليهودية وجرأتها وعمقها ، التي قابلها ماركس جميعا بالمديح ، رأى المسألة من خلال منظور لاهوتي فحسب . فأعلن ان اليهود كالمسيحيين لا يستطيعون ان يكسبوا حريتهم الا بالتغلب على الدين . اما الدولة المسيحية فهي لطابعها الديني ذاته لا تستطيع تحرير اليهود ، بينما لا يمكن تحرير اليهود بسبب طابعهم الديني . ولذا فان على المسيحيين واليهود ان يكفوا عن كونهم مسيحيين ويهودا اذا كانوا يرغبون في ان يصبحوا احرارا . ولكن بما ان المسيحية قد نسخت اليهودية كدين فان أمام اليهودي طريقا أطول يتعين عليه قطعها قبل ان يستطيع كسب حريته . وفي رأي باور ان على اليهودي ان يتعلم اولا المسيحية والفلسفة الهيغلية قبل ان يستطيع تحرير نفسه .

وهنا تدخل ماركس ليقول انه لا يكفي التساؤل عمن سيحرّر وعمن سيتحرر. بل يجب على النقد ان يذهب ابعد من ذلك ، فيتساءل اي نوع من التحرر ، أهو تحرر سياسي ام تحرر انساني. ففي بعض الدول تحرر المسيحيون واليهود سياسيا تحررا تاما دون ان يكونوا بذلك قد تحرروا انسانيا . ولذا فلا بد ان هناك فرقا بين التحرر السياسي والتحرر الانساني .

كان جوهر التحرر السياسي هو الدولة الحديثة المتطورة جدا ، وكانت هذه الدولة كذلك دولة مسيحية تماما ، ذلك ان الدولة المسيحية ــ الجرمانية ، دولة الامتيازات ، لم تكن غير الدولة الناقصة ، الدولة التي لا تزال لاهوتية لم تتطور بعد في وضوحها السياسي . غير ان الدولة السياسية في مراحلها العليا لم تطالب اليهود بالتخلي عن اليهودية او تطالب الانسانية بشكل عام بالتخلي عن الدين كله. بل حررت اليهود ودفعها طابعها ذاته الى ذلك . ولكن حتى في الدول التي ينص فيها دستور الدولة صراحة على ان ممارسة الحقوق السياسية مستقلة تماما عن المعتقدات الدينية ، رفض مواطنو الدولة رغم ذلك الاعتقاد بأن رجلا لا دين له يمكن ان يكون رجلا شريفا ومواطنا صالحا . هكذا فان وجود الدين لم يتناقض اطلاقا مع التطور الكامل للدولة . وقد كان التحرر السياسي لليهودي والمسيحي وللرجل المتدين بشكل عام هو تحرر الدولة من اليهودية والمسيحية والدين بشكل عام . فالدولة تستطيع ان تحرر نفسها من عائق دون ان يتحرر من هذا العائق حقا الكائن

الانساني في الدولة ، وهنا حدود التحرر السياسي .

ثم يطور ماركس هذه الفكرة ابعد من ذلك . فيقول ان الدولـة كدولة سلبت الملكية الخاصة . وصفى الكائن الانساني الملكية الخاصة بطريقة سياسية حالما الغى الامتيازات السلبية والايجابية التي تمنحها الملكية ، كما حدث في كثير من الدول الاميركية الشمالية . وصفت الدولة الفروق في المولد والمركز الاجتماعي والثقافة والمهنة بطريقتها الخاصة عندما اعلنت ان فروق المولد والمركز الاجتماعي والثقافة والمهنة فروق غير سياسية ، وعندما اعلنت انه بغض النظر عن هذه الفروق فان كل عضو في الجسم السياسي يشترك بالتساوي في سيادة الشعب . ومع ذلك ، سمحت الدولة للملكية الخاصة والثقافة والمهنة ان تعمل بطريقتها الخاصة وانتجعل تأثيرها الخاص بها محسوسا ، اي كملكية خاصة وثقافة ومهنة . وهكذا فان وجود الدولة لم يلغ هذه الفروقات ، بل انه افترض وجودها مسبقا . وقد اعتبرت الدولة نفسها دولة سياسية صرفة وجعلت شموليتها محسوسة في مواجهة عناصرهـــا المكونة هذه .

ان الدولة السياسية المتطورة تماما هي في الجوهر الحياة الاجتماعية للانسانية مقابل حياتها المادية . وقد بقيت كل فرضيات هذه الحياة الانانية موجودة خارج نطاق الدولة في المجتمع البورجوازي كصفات مميزة لهذا المجتمع . وكانت العلاقه بين الدولة السياسية وبين فرضياتها الخاصة بها ، سواء أكانت عناصر مادية مثل الملكية الخاصة او عناصر ايديولوجية مثل الدين ، علاقة التناقـــض العدائي بين المصالح الخاصة والمصالح العامة . وقد تكشف الصدام الذي وجد الكائن الانساني ، كتابع لدين معين ، نفسه فيه مع مواطنيته في الدولة ومع الرجال الاخرين كاعضاء في المجتمع ، تكشف على شكل شرخ بين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازي .

ان المجتمع البورجوازي اساس الدولة الحديثة كما كانت العبودية الكلاسيكية اساس الدولة الكلاسيكية . وقد اعترفت الدولة الحديثة بأصولها باعلانها للحقوق العامة للانسان ، التي يسمح لليهود بالاستمتاع بها قدر ما يسمح لهم بممارســـة الحقوق السياسية . ان الحقوق العامة للانسان تعترف بالفرد البورجوازي الاناني وبالحركة الحرة للعناصر الفكرية والمادية التي تشكل محتوى حياته ومحتوى الحياة البورجوازية المعاصرة . وهي لا تحرر الانسان من الدين ، بل تعطيه حرية الدين . ولا تحرزه من الملكية الخاصة ، بل تعطيه حرية الملكية . ولا تحرره من خزي التجارة، بل تعطيه حرية التجارة . اقد خلقت الثورة السياسية المجتمع البورجوازي بتحطيم نظام الرقع الاقطاعي وكل مؤسساته من الروابط التي كانت تعبر عن انفصال الناس عن الدولة ، وخلقت الدولة كمؤسسة للجميع ، كدولة حقييقة .

ثم يخلص ماركس الى القول : «التحرر السياسي هو تقليص الانسان الى عضو في المجتمع البورجوازي ، الى فرد مستقل اناني ، من جهة ، والى مواطن فـــي الدولة ، الى كائن اخلاقي ، من جهة اخرى . وفقط عندما يستعيد الانسان الفردي الحقيقي المواطن المجرد في الدولة ذاته ويصبح كائنا اجتماعيا كانسان فرد في حياته التجريبية وفي عمله الفردي وظروفه الفردية ، فقط عندما يدرك الانسان قواه

الذاتية وينظمها كقوة اجتماعية ، وبالتالي لا يعود يفصل القوة الاجتماعية عن نفسه على شكل قوة سياسية ، عندئذ وعندئذ فقط يكتمل انعتاق الانسانية » .

ويظل القول بأن المسيحي كمسيحي اقدر على التحرر من اليهودي ، ذلك القول الذي سعى باور الى اثباته انطلاقا من الدين اليهودي ، يظل هذا القول خاضعا للنقاش . وينطلق ماركس من فويرباخ الذي فسر الدين اليهودي انطلاقا من الانسان اليهودي وليس الانسان اليهودي انطلاقا من الدين اليهودي ، ولكنه يذهب ابعد من فويرباخ اذ يكشف عن الصغر الاجتماعي المخصوص الذي يعكس نفسه في الدين اليهودي . ماذا كان الاساس العلماني لليهودي ؟ الضرورة العملية ، المصلحة الذاتية. وماذا كانت العبادة العلمانية لليهودي ؟ البيع والشراء . وماذا كان الهه العلماني ؟ النقود . «وإذن : سيكون التحرر من البيع والشراء ومن النقود ، اي من اليهودية العملية الحقيقية ، هو التحرر الذاتي لعصرنا . فأي تنظيم للمجتمع يلغي الشروط الضرورية للبيع والشراء ، اي يلغي امكانية البيع والشراء ، يجعل اليهودي مستحيلا. ذلك ان وعيه الديني سينحل اذ ذاك مثل الروائح الكريهة في جو المجتمع الصافي والحيوي . من جهة اخرى ، عندما يدرك اليهودي ذلك ، عندما يدرك ان سلوكه العملي عبث لا طائل تحته ، ويعمل على الغائه ، فانه حينئذ يعمل ، منطلقا من تطوره السابق الخاص به ، على تحريرالانسانية ذاتها ، وينقلب ضد اعلى تعبير عملي عن الاستلاب الذاتي الانساني» . ويعتبر ماركس اليهودية عنصرا عاما معاصرا ضد اجتماعي ، دفعه الى علوه الراهن التطور التاريخي والتعاون الحماسي بين اليهود انفسهم ، دفعه ذلك الى علو لا بد معه ان يحل ذاته .

حقق ماركس بهذه الرسالة كسبا مزدوجا . فقد غاص الى جذور الارتباط بين المجتمع والدولة . وقال ان الدولة ليست كما تخيل هيغل واقع الفكرة الاخلاقية والعقل المطلق والهدف المطلق بذاته . وعلى الدولة ان ترتضي لنفسها مهمة أدنى بما لا يقارن ، هي مهمة الاشراف على فوضى المجتمع البورجوازي الذي اناط بالدولة مهمة حراسته ، فوضى الصراع العام بين الانسان والانسان وبين الفرد والفرد ، حرب كل الافراد ، الذين لا يفصلهم عن بعضهم البعض سوى فرديتهم ، ضد كل الافراد ، الحركة العامة غير المعاقة لكل القوى الاولية التي اطلقت من قيودها الاقطاعية ، العبودية الواقعية على الرغم من ان الفرد الحر المستقل ظاهريا يعتبر خطأ ان الحركة غير المعاقة لعناصره المستلبة كالملكية والصناعة والدين هي حريته الخاصة ، بينما هي لا تمثل في واقع الامر غير استعباده التام واغترابه عن الانسانية.

ثم ادرك ماركس ان المسائل الدينية المعاصرة ليس لها سوى اهمية اجتماعية . فأوضح تطور اليهودية لا في النظرية الدينية بل في الممارسة الصناعية والتجارية ، التي وجدت لها انعكاسا مذهلا في الدين اليهودي . فاليهودية العملية ليست غير العالم المسيحي المتطور تماما . وبما ان سلوك المجتمع البورجوازي سلوك يهودي تجاري كامل ، فان اليهودي ينتمي الى هذا المجتمع بالضرورة ، وهو يستطيع ان يطالب بالتحرر السياسي مثلما يستطيع المطالبة بالحقوق العامة للانسان . غير ان تحرر الانسانية هو التنظيم الجديد للقوى الاجتماعية ، تنظيما يجعل الانسان سيد

تلك المصادر التي تعطيه الحياة . وهكذا نرى في المعالم الضبابية لهذه المقالة هيكل المجتمع الاشتراكي وقد بدأ في التكون .

كان ماركس في «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» لا يزال يحرث الحقل الفلسفي ، ولكن في الاثلام التي قلبها محراثه النقدي بدأت الأنوية الاولى للمفهوم المادي للتاريخ تمتلىء بالحياة ، وسرعان ما ازهرت في شمس الحضارة الفرنسية الدافئة .

٤ ـ الحضارة الفرنسية

لربما كان ماركس قد انهى مساهمته في «دويتشه ـ فرانزوسيش ياربشر» ، على الاقل في نقاطهما الاساسية ، عندما كان لا يزال في المانيا ، ومن المحتمل ان يكون ذلك خلال الاشهر الاولى لزواجه السعيد . ولما كانت الافكار التي تتضمنها هاتان المساهمتان تتجه نحو الثورة الفرنسية الكبرى ، فقد كان من الطبيعي ان يندفع ماركس الى دراسة تاريخ هذه الثورة حالما اعطاه وجوده في باريس فرصة استكشاف مصادر هذا التاريخ ، وكذلك مصادر سابقة هذه الثورة ، المادية الفرنسية ، ولاحقتها ، الاشتراكية الفرنسية .

كانت باريس تستطيع في ذلك الحين ان تزعم عن حق انها تقع في مركز الحضارة البورجوازية. فبعد سلسلة من الاوهام والكوارث، استطاعت البورجوازية الفرنسية في النهاية ان تحقق في ثورة تموز ١٨٣٠ ما كانت قد بدأته في ثورة ١٧٨٩ الكبرى . وانتهت قوى البورجوازية الى التمطي بارتياح ، على الرغم من ان القوى القديمة لم تتحطم تماما بأي شكل من الاشكال ، وفي الوقت ذاته كانت القوى الجديدة قد بدأت تجعل تأثيرها محسوسا . فكانت النتيجة اندلاع معركة لا تنتهي بين الافكار ، تارة هنا وطورا هناك ، كما لم يكن في اي مكان اخر في اوروبا ، وبالتأكيد كما لم يكن في المانيا القابعة في صمت تحت وطأة الموت الفكري .

اندفع ماركس الى هذا الطوفان الذي يدفع الحياة في الاوحال من جديد . وفي ١٨٤٤ كتب روغه الى فويرباخ يعلمه ان ماركس يقرأ كميات هائلة ويعمل بحماسة غير عادية ، لكنه لم يكن ينهي شيئا ، بل كان ينقطع عن عمله باستمرار ، ليقفز في بحر لا نهاية له من الكتب . ويعلمه كذلك ان ماركس اصبح عنيفا يثور بسرعة ، خاصة عندما يعمل ثلاث او اربع ليال بلا انقطاع . وقد وضع ماركس جانبا نقده للفلسفة الهيغلية كي يستطيع الاستفادة من اقامته في باريس لكتابة تاريخ «المؤتمر» بعد ان جمع المادة الضرورية وتبنى عددا من وجهات النظر المثمرة . ولعل شهادة هذه الرسالة تكتسب قيمة اكبر لانها لم تكتب على الاطلاق بلهجة المديح .

لم يكتب ماركس تاريخ «المؤتمر» ، ولكن هذه الحقيقة لا تثير شكا في معلومات روغه ، بل هي على العكس من ذلك تشهد بصحتها . فكلما غاص ماركس اعمق في الاهمية التاريخية لثورة عام ١٧٨٩ ، كلما اصبح من السهل عليه اكثر ان يتخلى عن نقد الفلسفة الهيغلية كوسيلة للوصول الى نظرة اوضح لمطالب العصر وصراعاته .

غير أن تاريخ «المؤتمر» وحده لم يكن ليشبع ماركس ، فعلى الرغم من ان «المؤتمر» ابدى حدا اقصى من الطاقة السياسية الفعالية السياسية والفهم السياسي ، الا انه وقف عاجزا في وجه الفوضى الاجتماعية .

ليس هناك لسوء الحظ ، عدا اشارات روغه القليلة ، ما يساعدنا على تتبع تفصيلي لمسار الدراسة التي قام بها ماركس في ربيع وصيف ١٨٤٤ . غير اننا ، مع ذلك ، نستطيع رؤية كيف تطورت دراساته بشكل عام . فقد قادته دراسة الثورة الفرنسية الى الادب التاريخي للطبقة الوسطى ، ذلك الادب الذي نشأ خلال فترة عودة آل بوربون ، والذي طوره رجال كانوا يتمتعون بموهبة تاريخية يسرت لهم تتبع الوجود التاريخي لطبقتهم منذ القرن الحادي عشر وتصوير التاريخ الفرنسي على انه سلسلة متصلة من الصراعات الطبقية . يدين ماركس لهؤلاء المؤرخين ـ وهو يذكر منهم بالتحديد غيزوت وتيري ـ بمعرفته للطبيعة التاريخية للطبقات وصراعاتها، ثم ينتقل لدراسة التركيب الاقتصادي للطبقات اعتمادا على الاقتصاديين البورجوازيين ، وهو يذكر منهم ريكاردو على وجه التخصيص . لقد انكر ماركس على الدوام ان يكون قد وضع نظرية الصراع الطبقي ، وحدد مساهمته بأنها تقديم البرهان على ان وجود الطبقات مرتبط بصراعات تاريخية محددة في تطور الانتاج ، وأن الصراع الطبقي يقود بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا ، وأن هذه الديكتاتورية ليست الا مرحلة انتقالية تؤدي الى الغاء الطبقات واقامة المجتمع اللاطبقي . ولقد تطورت هذه السلسلة من الافكار خلال اقامة ماركس في باريس .

كانت الفلسفة المادية أحدّ والمع سلاح استخدمته الطبقة الوسطى في صراعها ضد الطبقات الحاكمة . وقد درس ماركس خلال اقامته في باريس هذه الفلسفة بحماسة معطيا قدرا أقل من الاهتمام للفرع الذي مثله ديكارت ، والذي تطور الى العلم الطبيعي ، وقدرا اكبر من الاهتمام للفرع الذي نشأ مع لوك وتطور الى العلم الاجتماعي . ومن بين النجوم التي لمعت في دراسات ماركس تلك الايام نجمي هيلفيتيوس وهولباخ ، اللذين حملا المادية الى الحياة الاجتماعية ، وجعلا المساواة الطبيعية بين العقول البشرية والوحدة الجوهرية بين تقدم العقل وتقدم الصناعة ، الفضيلة الطبيعية للانسانية ، كما جعلا القوة الحاضرة ابدا للتربية النقطة الرئيسية في النظام الذي وضعاه . وقد اطلق ماركس على تعاليمهما لقب «النزعة الانسانية الحقيقية» كما كان قد أسمى فلسفة فويرباخ ، اما الفارق في نظره فهو ان مادية هيلفيتيوس وهولباخ قد اصبحت «الاساس الاجتماعي للشيوعية» .

قدمت باريس لماركس كل الفرص التي كان يحتاجها لدراسة الشيوعية والاشتراكية ، كما كان قد وعد في «راينيخه تزايتونغ» . وكان العالم الفكري الذي دخله ماركس في باريس باهرا ، ويكاد يكون باعثا على التشوش ، في خصوبة افكاره واشكاله . وكان الجو الفكري لباريس يحبل بأنوية الاشتراكية . حتى أن «جورنال دي ديبا» ، وهي الناطقة التقليدية باسم الاوليغاركية المالية الحاكمة ، لم تستطع ان تظل مترفعة تماما عن روح العصر ، رغم انها لم تفعل اكثر من نشر قصص يوجين سو الاشتراكية . وكان المعسكر المعارض يضم مفكرين لامعين مثل

ليروكس، رجالا اصبحت البروليتاريا هي التي تنتجهم . وبين المعسكرين المتعارضين، كانت تقف بقايا السان سيمونية وشيعة فورييه بقيادة كونسيديرات الذي كانت الصحيفة الناطقة باسمه تدعى «ديمقراطي باسيفيك» ، والمسيحيين الاشتراكيين مثل الكاهن الكاثوليكي لامينيه والاشتراكيين البورجوازيين الصغار مثل سيسموندي وبوريه وبيكير وفيدال . اما في الادب ، فقد كانت اغاني بيرانجيه وروايات جورج صاند العظيمة تعكس الافكار والمسائل الاشتراكية .

كانت الصفة المشتركة التي تجمع بين كل هذه النظم الاشتراكية هي انها جميعا تعتمد على حسن نية الطبقات الحاكمة ، التي كانت هذه النظم تأمل في اقناعها بالدعاية السلمية بضرورة الاصلاحات الاجتماعية او الثورة . وكانت هذه النظم جميعا وليدة خيبات الامل بالثورة الكبرى ، كما كانت تزدري الطريق السياسي الذي ادى الى خيبات الامل هذه ، وتريد مساعدة الطبقات المقاسية لان هذه الطبقات لا تستطيع مساعدة نفسها . فقد فشلت انتفاضة العمال في الثلاثينات ، وكان اكثر قادتهم ، حتى الاكثر تصميما منهم مثل باربيه وبلانكي ، لا يعرفون عن الاشتراكية شيئا ولا عن اي وسيلة عملية لتحقيق ثورة اجتماعية .

ولكن حركة الطبقة العاملة نمت مع ذلك بسرعة كبيرة ، ووصف الشاعر هينريخ هاينه برؤيا نبوية المشكلة التي نجمت قائلا «يمثل الشيوعيون الحزب الوحيد الذي يستأهل الاحترام في فرنسا . ولعله يتوجب علي ان اشعر بالاحترام ايضا للسان سيمونيين الذين لا يزالوا موجودين تحت رايات غريبة او للفوريين الذين ما زالوا احياء ونشيطين ، ولكن هؤلاء الطيبين تحركهم الكلمة وحدها ، تحركهم المشكلة الاجتماعية بوصفها مسألة مفاهيم تقليدية ولا تحركهم ضرورة شيطانية . وهم ليسوا العبيد الذين قدرت لهم الروح العليا للوجود أن يفوا بقراراتها الهائلة . ان جيش السان سيمونيين وهيئة اركان الفوريين كلها ستنضم عاجلا او آجلا الى جيش الشيوعية المتنامي ، ليلعبوا هناك دور آباء الكنيسة فيعطوا للضرورة القاسية الكلمة الخلاقة» . هذا ما قاله هاينه في ١٥ حزيران ١٨٤٣ ، وخلال سنة من ذلك التاريخ وصل الى باريس الرجل الذي قدر له ان يلعب الدور الذي ظن هاينه ان السان سيمونيين والفوريين سيلعبوه : لقد اعطى للضرورة القاسية الكلمة الخلاقة.

عندما كان ماركس في المانيا ، وعندما كانت وجهة نظره فلسفية بشكل غالب، اعلن انه ضد النظم المستقبلية الجافة المفصلة تفصيلا دقيقا ، ضد اية محاولة لحل مشاكل كل العصور ، ضد نشر اي معيار دوغماتي ، وضد فكرة «الاشتراكيين السذج» القائلين ان الاهتمام بالمسائل السياسية يحط من قدرهم . وعندما اعلن ماركس انه لا يكفي ان تدفع الفكرة بالواقع الى الامام ، ولكن يجب ان يصبح الواقع هو الفكرة ، تحقق ذلك امام عينيه، فقد بدأت حركة الطبقة العاملة والاشتراكية تتقاربان منذ انتفاضة العمال عام ١٨٣٩ بطرق ثلاثة .

كان هناك اولا الحزب الاشتراكي الديمقراطي . ولم تكن اشتراكيته هامة كثيرا لانها كانت تتألف من عناصر بروليتارية وعناصر تنتمي الى الشرائح الدنيا من الطبقات الوسطى معا ، كما ان الشعارات التي نقشها على راياته ـ تنظيم العمل

والحق في العمل ـ لم تكن غير يوتوبيا طبقة وسطى يستحيل تحقيقها في المجتمع الراسمالي . فهذا المجتمع ينظم العمل كما يجب ان ينظم ، وبالتحديد كعمل مأجور، وهذا يفترض مسبقا وجود رأس المال ، ولا يمكن الغاؤه الا بالغاء رأس المال . ولم تكن الحالة بالنسبة للحق في العمل لتختلف عن ذلك ، فهذا الحق لا يمكن الوفاء به الا في الملكية المشتركة لوسائل الانتاج ، اي بالغاء المجتمع البورجوازي . لكن قادة هذا الحزب ، لوي بلانك وليدرو ـ رولان وفرديناند فولكون رفضوا برزانة متناهية ان يضربوا بالفأس على جذور المجتمع البورجوازي ، معلنين انهم ليسوا اشتراكيين ولا شيوعيين .

ولكن على الرغم من ان الاهداف الاجتماعية لهذا الحزب كانت طوباوية تماما ، الا انها مثلت قفزة هائلة الى الامام ، لان الحزب اختار الطريق السياسي لتحقيقها. فأعلن ان الاصلاح الاجتماعي غير ممكن دون اصلاح سياسي ، وأن الاستيلاء على السلطة السياسية هو الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الطبقات المظلومة تخليص نفسها ، ولذا فقد طالب الحزب بحق الاقتراع العام . ووجد هذا المطلب صدى واسعا في صفوف البروليتاريا ، التي كانت قد تعبت من المؤامرات والمكائد وصارت تسعى الى اسلحة اكثر فعالية لمتابعة الصراع الطبقي .

وكانت جماهير أوسع قد انضوت تحت لواء الشيوعية البروليتارية الذي نشره كابت . وكان هذا في الاصل يعقوبيا تحول فيما بعد الى الشيوعية عبر القراءة وخاصة قراءة يوتوبيا السير توماس مور . وقد تبنى كابت الشيوعية بالعلن ذاته الذي رفضها به الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكنه كان يوافق الحزب على ان الديمقراطية السياسية مرحلة انتقالية ضرورية . هكذا اصبحت «الرحلة الى ايكاريا» التي حاول كابت ان يصف فيها مجتمع المستقبل كتابا اكثر شعبية بكثير من خياليات فورييه الرائعة ، على الرغم من ان حدود كتاب كابت الضيقة جعلته متخلفا كثيرا عن عبقرية فورييه .

وفي النهاية بدأت الاصوات ترتفع واضحة جلية في صفوف البروليتاريا ذاتها، مشيرة بما لا يطاله شك الى انها تستعد لتحطيم قيودها . كان ماركس على الفته ، منذ ايام «راينيخه تزايتونغ» مع ليروكس وبرودون ، اللذين كانا كليهما طابعين ومن الطبقة العاملة ، وكان قد وعد من قبل بدراسة اعمالهما دراسة شاملة . وقد لقيت هذه الاعمال استجابة لدى ماركس لانهما كليهما سعيا الى تسخير قياد الفلسفة الالمانية لاهدافهما الخاصة ، على الرغم من انهما وقعا ضحية اخطاء خطيرة في فهم هذه الفلسفة . ويخبرنا ماركس نفسه انه أمضى ليالي طويلة يحاول ان يشرح الفلسفة الهيغلية لبرودون . وقد التقى الرجلان فترة من الوقت ليفترقا بعد ذلك بوقت قصير ، ولكن ماركس كتب بعد وفاة برودون يشهد بالقوة الدافعة العظيمة التي اعطاها برودون لحركة الطبقة العاملة ، تلك القوة الدافعة التي لا شك في انها اثرت على ماركس كذلك . وقد اعتبر ماركس اول عمل لبرودون (الذي تخلى فيه عن كل طوباوية واخضع الملكية الخاصة لنقد قاس وشامل بوصفها اساس كل الشرور) البيان العلمي الاول للبروليتاريا الحديثة .

ساعدت كل هذه الاتجاهات على تعبيد الطريق امام اتحاد حركة الطبقة العاملة بالاشتراكية ، ولكن هاتين كانتا على تناقض مع بعضهما ، وسرعان ما نشأت بينهما تناقضات جديدة بعد خطواتهما الاولى المشتركة . درس ماركس الاشتراكية ، وبدأ الان يدرس البروليتاريا . وفي تموز ١٨٤٤ كتب روغه الى صديق له : «لقد غاص ماركس هنا في الشيوعية الالمانية ـ اقصد غاص اجتماعيا ، لانه بالكاد يستطيع ان يدعي ان لهذا الامر المؤسف اي قيمة سياسية . ان المانيا تستطيع تحمل الخراب الجزئي الذي يحتمل ان يلحقه بها الحرفيون دون كثير علاج» . ولكن سرعان ما اكتشف روغه لماذا اخذ ماركس الحرفيين واعمالهم بجدية .

٥ ـ «فوروارتز» (١) وطرد ماركس

ليس لدينا سجل تفصيلي لحياة ماركس الشخصية في منفاه في باريس . غير اننا نعرف ان زوجته انجبت مولودهما الاول ، وكان فتاة ، ثم عادت بعد ذلك الى المانيا لتريه لاقاربهما بفخر . وظل ماركس على وفاق تام مع اصدقائه في كولون ، وساعدته هدية منهم مقدارها ١٠٠٠ تالر على جعل السنة في باريس سنة مثمرة .

كان ماركس على اتصال وثيق مع هينريخ هاينه ، وفعل الكثير ليجعل عام١٨٤٤ عاما بارزا في حياة هذا الشاعر ، اذ ساعده على وضع «اساطير الشتاء» و«اغنية الناسجات» والقصص التهكمية الخالدة عن الطغاة الالمان . ولم يظل الصديقان قريبين مدة طويلة ، لكن ماركس ظل وفيا لهاينه حتى عندما اصبحت ضجة ال .Ph حوله اكثر حدة من الضجة التي اثاروها حول هيرويغ ، وظل ماركس ملتزما الصمت عندما استشهد به هاينه عن غير حق قائلا انه يوافق على ان المنحة السنوية التي يتلقاها الشاعر من وزارة غيزوت ليست امرا معيبا . وكما نعلم ، حاول ماركس في شبابه عبثا ان يصادق آلهة الشعر ، وظل طوال حياته يتعاطف مع الشعراء ، مبديا باستمرار تسامحا كبيرا تجاه نقاط ضعفهم الصغيرة . فقد كان يشعر ان الشعراء قوم غرباء يجب ان يسمح لهم بأن يحيوا كما يريدون ، كما يجب أن لا يقاسوا بمعايير البشر العاديين أو حتى المتفوقين . واذا اريد للشعراء ان يصدحوا ، فلا بد من اطرائهم ، اما قض مضاجعهم بالنقد العنيف فلا يجدي فتيلا .

لكن ماركس كان يعتبر هاينه اكثر من مجرد شاعر ، كان يعتبره مناضلا كذلك. وعندما نشب النزاع بين بورن وهاينه ، سارع الى دعم هاينه معلنا ان المعاملة الغبية التي تلقاها كتاب هاينه عن بورن على ايدي الحمير المسيحيين الالمان لا سابق لها في اي فترة من فترات التاريخ الالماني ، الذي لم يكن يفتقر اطلاقا الى الاغبياء. ولم يخدع ماركس بما قيل عن خيانةهاينه المزعومة ، مع ان هذه التهمة اثرت على انفلز ولاسال ، ولكن لهذين عذرا في انهما كانا صغيري السن . كتب هاينه الى ماركس في احدى المناسبات معتذرا عن «احاجيه المشوشة» قائلا «اننا لا نحتاج

---

(١) الى الامام .

سوى القليل من الاشارات لنفهم بعضنا» ، وكان لهذه الجملة اهمية أعمق من الاهمية المباشرة التي دعت اليها .

كان ماركس لا يزال طالبا عندما اعلن هاينه عام ١٨٤٣ : «ان روح الحرية التي تنفسها ادبنا الكلاسيكي أقل فعالية بين العلماء والشعراء ورجالات الادب منها بين الحرفيين والعمال» . وبعد ذلك بسنوات عشر ، عندما كان ماركس يعيش في باريس ، اعلن هاينه : «ان البروليتاريين في نضالهم ضد الوضع الراهن يستطيعون ان يدّعوا ان الارواح التقدمية والفلاسفة العظماء هم قادتهم» . ولا شك في ان تحرر هذا الحكم ودقته تبدوان اكثر وضوحا عندما يتذكر المرء ان هاينه كان في الوقت ذاته يصب جام احتقاره على السياسة القميئة التي كانت تتلهى بها جماعات المنفيين والتي كان بورن يلعب فيها الدور الرئيسي . وقد ادرك هاينه ان هناك فارقا بين ان يشغل بحفنة من الحرفيين وبين ان يفعل بورن الامر ذاته .

كان هاينه وماركس مشدودين الى بعضهما برباط روح الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية ، وبكراهية مشتركة عميقة للكسل المسيحي ــ الجرماني ، لتلك التوتونية المزيفة ، التي سعت الى تحديث الثوب القديم للحماقة الالمانية بالجمل الثورية . فكان ماسمان وفينيدي اللذين عاشا في قصص هاينه الساخرة يقتفيان آثار بورن ، على الرغم من ان بورن ربما كان متفوقا عليهما حذقا وذكاء . لكن بورن لم يكن يقدر لا الفن ولا الفلسفة ، كما بدا واضحا من اعلانه ان غوته عبد موزون مقفى وأن هيغل عبد غير موزون ولا مقفى ، وعندما انفصل بورن عن التقاليد العظيمة للتاريخ الالماني لم يقم رابطا فكريا مع القوى الجديدة في الثقافة الاوروبية الغربية . اما هاينه ، من جهة اخرى ، فلم يكن يستطيع التخلي عن غوته وهيغل دون ان يتخلى عن نفسه ، ولذا فقد غاص في الاشتراكية الفرنسية بنشاط وحمية كمصدر جديد للحياة الفكرية . ولا تزال اعمال هاينه حية تثير غضب الاحفاد كما اثارت غضب الاجداد اما كتابات بورن فقد اتى عليها النسيان ، لا لاسلوبها السيء فحسب ، ولكن ايضا لعقم محتواها .

اعلن ماركس مشيرا الى الاقاويل التي اثارها بورن من وراء ظهر هاينه ، حتى عندما كانا يقفان جنبا الى جنب ، والتي نشرها القيمون على تركة بورن الادبية في ما بعد مدللين على افتقارهم المحكمة ، اعلن انه لم يكن يتصور اطلاقا ان بورن سخيف ومزيف وحقير الى هذه الدرجة . غير ان ماركس لم يكن ليشكك في اعانة بورن الشخصية بسبب هذا الحادث لو انه استطاع ان ينفذ نيته في الكتابة حول النزاع. ان من الصعب دائما ان يجد المرء اسوأ من اولئك الراديكاليين الاورثوذكسيين الضيقي الافق الذين يلفون انفسهم بثوب فضيلتهم المزق ولا يقفون عند حد في هجومهم مع من هم اكثر تحررا وذكاء ممن يتمتعون بملكة ادراك العلاقات التاريخية الاكثر عمقا . ولقد كان ماركس على الدوام الى جانب هؤلاء الاخيرين لا الى جانب الاوائل ، خاصة وأنه كان صديقا للفاضلين .

اشار ماركس في السنوات اللاحقة الى «الارستقراطيين الروس» الذين رفعوه على الاكف خلال نفيه الى باريس ، وأضاف ان ذلك امر قليل الاهمية : لقد تعلمت

الارستقراطية الروسية في الجامعات الالمانية وقضت شبابها في باريس . وكان اعضاؤها يتلقفون اكثر ما يقدمه الغرب تطرفا ، ولكن ذلك لم يمنعهم من ان يصيروا حماة للرجعية السوداء حالما يدخلون في خدمة الدولة . ويبدو ان ماركس كان يشير الى الكونت تولستوي ، احد عملاء الحكومة الروسية السريين ، او الى آخرين ممن يشبهونه . ولكنه لم يكن بالتأكيد يشير الى ذلك الارستقراطي الروسي الذي كان ماركس يمارس على تطوره الفكري في تلك الايام اعظم الاثر ، ميخائيل باكونين . وحتى بعد ان افترقت الطرق بالرجلين ، ظل باكونين يشهد بهذا الاثر ، وفي النزاع بين ماركس وروغه ، وقف باكونين الى جانب ماركس ، على الرغم من ان روغه كان لا يزال يتبناه .

اندلع الخلاف ثانية في صيف عام ١٨٤٤ ، ولكنه كان هذه المرة علنيا . كانت جريدة تسمى «فورواِرتز» تظهر في باريس مرتين في الاسبوع منذ بداية العام . ولم يكن منشؤها بعيدا عن اثارة الانتقادات حولها . فقد اسسها رجل يدعى هينريخ بورنشتاين ، وكان هذا يدير مؤسسة للاعلان والمسرح ، واراد بالجريدة ان ينمي اعماله هذه . اما الاموال اللازمة للجريدة فقد تقدم بها قائد الاوركسترا البروسي الملكي ميربير . ونحن نعلم من هاينه ان هذا الموسيقي كان يحب الحصول على اكبر قدر ممكن من الدعاية له ، ولربما كان بحاجة الى ذلك . وكان بورنشتاين رجل اعمال خبيث حقا، فالبس جريدته ثوب الوطنية، وعين محررا لها أدالبرت فون بورنستدت وهو ضابط بروسي سابق . وكان هذا شخصا حقيرا تماما يلعب دور «خليص» ميترنيخ وفي الوقت ذاته يتلقى الاموال من حكومة برلين . وعندما ظهرت «دويتشه فرانزوسيش ياربشر» تلقتها «فورواِرتز» بسيل من الشتائم ، يصعب القول ما اذا كان الطابع الغالب له طابع الغباء ام طابع الابتذال والسوقية .

غير ان الجريدة لم تزدهر ولم تنجح . فنظم بورنشتاين مؤسسة تترجم بانتظام آخر المسرحيات التي تعرض في باريس لبيعها باسرع ما يمكن للمسرحيين الالمان ، وقد سعى الى ضرب المسرحيين الشباب وكسب الفلستيين الالمان ، الذين بدأوا يبدون بعض المقاومة ، بالتحدث عن «التقدم المعتدل» وشجب «التطرف» سواء اتى من اليسار ام من اليمين . وكان محرره بورنشتدت يركب القارب ذاته ، اذ كان يتوجب عليه ان يهدىء من ثائرة شكوك المهاجرين اذا اراد ان يظل على اتصال بهم، وهذا امر ضروري جدا اذا كان يريد ان يستمر في كسب الاموال التي تغدق عليه. لكن الحكومة البروسية كانت عمياء حتى عن مصالحها في الحفاظ على النفس ، ومنعت بيع «فورواِرتز» على اراضيها ، وحذت حذوها الحكومات الالمانية الاخرى.

القى بورنشتدت أسلحته في بداية ايار ، واعتبر اللعبة كلها لعبة خاسرة . ولكن بورنشتاين لم يفعل ، فقد كان يريد المتاجرة ولم يكن يهتم بالطريقة التي تمكنه من ذلك . وبسرعة اجرى بورنشتاين حساباته بدقة وبرودة المضارب الخبيث ، وقرر انه اذا كانت «فورواِرتز» قد منعت في بروسيا ، فانها على اية حال تستطيع ان تلبس ثوب الشهادة ، وتستفيد من الاهتمام الذي تثيره الجرائد المحظورة ، ولا شك ان الفلستيين الالمان سيعتبرون الحصول على جريدة محظورة امرا يستحق

التضحية ببعض المال . ولذا فقد كان من المناسب لبورنشتاين ان يقبل مقالة نارية قدمها له بيرينز الشاب ، وبعد بعض المناورات الاولية عين بيرينز مكان بورنشتدت. ولما كان المنفيون الالمان في باريس يفتقدون جريدة تنشر لهم ، فقد بدأوا يساهمون في «فوروارتز» ، كل على مسؤوليته الخاصة ودون اي ارتباط بهيئة التحرير .

وكان روغه من اوائل من فعلوا ذلك ، عندما تقدم باسمه الخاص ليدافع عن مساهمات ماركس في «دويتشه ــ فرانزوسيش ياربشر» ، كما لو انه كان متفقا معها . غير انه عاد بعد بضعة اشهر فنشر في «فوروارتز» مقالتين غير موقتعتين : بضع ملاحظات قصيرة تتعلق بالسياسة البروسية ، ومقالة طويلة لا تحوي شيئا غير بضعة اقاويل عن العائلة البروسية الحاكمة ، تربط بينها بضعة ملاحظات عن «الملك السكير» و«الملكة العرجاء» و«زواجهما الروحي الخالص» . وكانت المقالات موقعة بتوقيع «بروسي» فبدا ان ماركس هو كاتبها ، ذلك ان روغه كان ينتمي الى مجلس مدينة دريسدن ومسجلا في السفارة الساكسونية في باريس ، وكان بيرينز بافاريا من راينلاند ــ وستفاليا ، بينما كان بورنشتاين من هامبورغ ، وعلى الرغم من انه عاش وقتا طويلا في النمسا ، الا انه لم يعش في بروسيا .

من المستحيل ان يكتشف المرء الان ما الذي قصده روغه باختياره لهذا الاسم ، ولكن رسائله الى اصدقائه واقاربه تبين انه كان يغلي غضبا على ماركس الذي اشار اليه بأنه «رجل حقير تماما» و«يهودي وقح» . كما ان احدا لا ينكر ان روغه عمد بعد ذلك بسنوات الى ارسال استرحام توبة الى وزير الداخلية البروسي يخون فيها رفاقه في المنفى في باريس ويحمّل هؤلاء «الشبان» مسؤولية الخطايا التي اقترفها في «فوروارتز» . ومن الممكن بالطبع ان يكون قد اختار اسم «بروسي» ليعطي لمقالاته وزنا اكبر ، اذ انها كانت تعالج امورا بروسية . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فلا شك ان روغه تصرف بلا مسؤولية ودون تفكير ، كما لا شك في ان موقف ماركس الذي سارع الى رد حيلة «البروسي» الى صدره ، موقف مفهوم تماما .

كان جواب ماركس موضوعا بلهجة رصينة : فقد عالج ماركس ملاحظة موضوعية او اثنتين لاحظهما روغه حول السياسة البروسية ، وعمد الى التخلص من كل الاقاويل حول العائلة المالكة البروسية بهامش قصير : «ان هناك اسبابا خاصة تدعوني لان أشير الى ان مساهمتي هذه هي المساهمة الاولى التي قدمتها لفوروارتز» . وفي الواقع كانت هذه المساهمة هي الاخيرة ايضا .

كانت المسألة موضع الخلاف ثورة عمال النسيج في سيليسيا عام ١٨٤٤ ، تلك الثورة التي عاملها روغه على انها غير مهمة ، معلنا انها تفتقد الى الروح السياسية، وبدون الروح السياسية لا تمكن الثورة الاجتماعية . فرد ماركس ردا كان قد وضع جوهره في مقالته «في المسألة اليهودية» . لا يمكن للقوة السياسية ان تشفي اي شر اجتماعي لان الدولة لا تستطيع الغاء الظروف التي كانت هي ذاتها ثمرة لها . وهاجم ماركس بحدة الطوباوية ، معلنا ان الاشتراكية غير ممكنة دون ثورة ، ولكنه كذلك هاجم بلانكي واتباعه بالحدة ذاتها ، معلنا ان الفهم السياسي يخدع الغريزة الاجتماعية عندما يسعى الى تحقيق التقدم بواسطة مؤامرات صغيرة لا جدوى لها.

ثم حدد ماركس طبيعة الثورة بايجاز بليغ : «ان كل ثورة تحل المجتمع القديم ، وهي ثورة اجتماعية بقدر ما تفعل ذلك . ان كل ثورة تطيح بالقوة القديمة ، وهي ثورة سياسية بقدر ما تفعل ذلك» . ان ثورة اجتماعية لها روح سياسية ، كما يطالب بها روغه ، هراء ، اما ثورة سياسية لها روح اجتماعية فأمر معقول . فالثورة بشكل عام ــ الاطاحة بالقوة القائمة وحل العلاقات القديمة ــ عمل سياسي . وبقدر ما تحتاج الاشتراكية اولا الى التدمير والحل فانها بحاجة الى هذا العمل السياسي ، ولكن عندما يبدأ نشاط الثورة التنظيمي ، عندما تظهر روح الاشتراكية وتظهر غايتها الاصيلة ، فانها تخلع عنها الثوب السياسي .

طور ماركس هذه الافكار من رسالته «في المسألة اليهودية» ، وسرعان ما اكدت ثورة عمال النسيج في سيليسيا ما قاله عن ضعف الصراع الطبقي في المانيا . فكتب يونغ ، صديق ماركس ، من كولون يقول انه لم يعد يظهر على صفحات «كولونيخ تزايتونغ» شيء من الشيوعية اكثر مما كان يوجد سابقا على صفحات «راينيخه تزايتونغ» ، وأن الصحيفة الاولى قد افتتحت قائمة اشتراكات لمصلحة عائلات عمال النسيج الذين اعتقلوا او سقطوا صرعى . وفي حفلة وداع لحاكم المقاطعة الذي أحيل على التقاعد جمع مئة شالر من بين كبار الموظفين واغنياء كولون ، كما ان التعاطف مع الثائرين الخطرين يبدو في كل مكان . «وما كان قبل بضعة اشهر موقفا جديدا تماما وجريئا قد اصبح اليوم امرا طبيعيا» .

استخدم ماركس التعاطف العام الذي بدا نحو عمال النسيج ليدحض تقليل روغه من اهمية ثورتهم ، ولكنه لم ينخدع لحظة واحدة «بعدم المقاومة الذي تبديه البورجوازية نحو الاتجاهات والآراء الاجتماعية الجديدة» . فقد ادرك انه ما ان يصبح لدى حركة الطبقة العاملة اي قوة حقيقية ، حتى تكون النتيجة توقف الصراعات والتناقضات السياسية داخل معسكر الطبقات الحاكمة لتوجه هذه جميعا كل قوتها ضد العمال . واوضح ماركس الفارق الكبير العميق بين التحرر البورجوازي والتحرر البروليتاري ، عندما اشار الى أن احدهما ينبثق عن الرفاه الاجتماعي بينما ينبثق الاخر عن التعاسة الاجتماعية . فالثورة البورجوازية تنجم عن الانعزال عن الكومونويلث السياسي والدولة ، بينما تنجم الثورة البروليتارية عن الانسانية وعن الكومونويلث الحقيقي للانسانية . والانعزال عن هذا الاخير اكمل بما لا يقارن ، وأكثر فظاعة واكثر تناقضا جذريا من الانعزال عن الكومونويلث السياسي ، ولذا فان القضاء على هذا الانعزال ، حتى في الظاهرة الجزئية التي مثلتها ثورة عمال النسيج في سيليسيا ، مسألة اكبر بكثير ، تماما ، كما ان الكائن الانساني اكثر من المواطن والحياة الانسانية اكثر من الحياة السياسية .

هكذا كانت وجهة نظر ماركس في ثورة عمال النسيج في سيليسيا مختلفة اختلافا اساسيا عن وجهة نظر روغه : «لننظر فحسب الى اغنية عمال النسيج ، لننظر الطريقة العميقة المدهشة القاسية القوية التي تطرح بها البروليتاريا شعارات تناقضها العدائي مع مجتمع الملكية الخاصة . لقد بدأت الثورة في سيليسيا حيث انتهت الانتفاضات الانجليزية والفرنسية ، بدأت بوعي البروليتاريا كطبقة . وكل

العمل الذي قام به عمال سيليسيا يحمل هذا الطابع . فلم يحطم هذا العمل الآلات التي تنافس العامل فحسب ، بل حطم ايضا سجلات التجار التي تمثل شهادات ملكية هؤلاء . لقد كانت كل الحركات الاخرى موجهة ، في البداية على الاقل ، ضد الصناعيين وحدهم ، ضد العدو المنظور ، ولكن هذه الحركة كانت موجهة ايضا ضد الصيرفي ، ضد العدو غير المنظور . وفي النهاية ، لم تنفذ اي انتفاضة انجليزية بالشجاعة ذاتها ، بالتخطيط ذاته ، وبالاصرار ذاته» .

ويشير ماركس في هذا المجال ايضا الى الكتابات اللامعة التي كتبها ويتلنغ ، الذي كثيرا ما فاق برودون في نظرياته ، على الرغم من انه تخلف عنه في الممارسة: «اتستطيع البورجوازية ـ بفلاسفتها وكذلك كتابها ان تدلنا على عمل واحد يبحث تحررها ، يمكن ان يقارن بكتاب ويتلنغ ، ضمانات التناسق والحرية ؟ عندما يقارن المرء المستوى المنخفض للأدب السياسي الالماني بالظهور البديع للعامل الالماني على المسرح ، وعندما يقارن الاحذية السياسية الضيقة التي تنتعلها البورجوازية الالمانية بالاحذية العملاقة التي تنتعلها البروليتاريا ، فانه يحق له ان يتنبأ بالدور العظيم الذي سيلعبه هذا الابن المهمل لالمانيا (البروليتاريـــــا) » . واعلن ماركس ان البروليتاريا الالمانية هي المنظرة بين البروليتاريا الاوروبية ، تماما كما ان البروليتاريا الانجليزية هي الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية هي رجل السياسة .

لقد اكد حكم الاجيال القادمة الحكم الذي اصدره ماركس على كتابات ويتلنغ . فقد كانت هذه الكتابات بالنسبة لزمنها انجازا عبقريا ، وتعززت عبقريتها بكـــون الخياط الالماني (ويتلنغ) مهد الطريق للتفاهم بين حركة الطبقة العاملة والاشتراكية قبل لوي بلانك وكابت وبرودون ، وبطريقة اكثر فعالية بكثير .

غير ان حكم ماركس التاريخي على ثورة عمال النسيج في سيليسيا يبدو لنا اليوم غريبا . فقد قرأ فيها اتجاهات لم تكن بالتأكيد موجودة ، ويبدو ان روغه قد قدر هذه الثورة تقديرا اكثر صحة عندما اعلن انها ليست اكثر من ثورة جوع ليس لها اية اهمية اعمق من ذلك . لكننا في هذه الحالة ، كما في حالة نزاع روغـــه وماركس حول هيرويغ ، نرى ان خطأ الفلستي الكامل يكمن في اتخاذ موقف صحيح ضد العبقرية ، كما اننا نرى ان القلوب الكبيرة تنتصر في التحليل الاخير علـــى الفهم الضيق .

كانت «حفنة حرفيي المخابز» ، التي اشار لها روغه باحتقار ودرسها ماركس بحماس ، منظمة في «رابطة العادلين» ، التي تطورت في الثلاثينات عن الجمعيات الفرنسية السرية بعد هزيمتها النهائية في ١٨٣٩ . وقد كانت هذه الهزيمة مفيدة المنظمة ، ذلك انها ادت الى انتشار العناصر واعادة تجمعها ، لا في مركزها القديم في باريس فحسب ، بل وأيضا في انجلترا وسويسرا حيث تسمح حرية الاجتماع والانتظام بقدر اكبر من حرية الحركة ، فكانت النتيجة ان بدأت فروع الشجرة هذه تنمو بقوة اكبر من الشجرة الام . كانت منظمة باريس بقيادة هيرمان ايوربيك الذي كان اسير طوباوية كابت الاخلاقية والذي ترجم يوتوبيا كابت الى الالمانية . لكـــن ويتلنغ ، الذي كان يقود منظمة سويسرا ، اثبت انه متفوق فكريا على ايوربيك ،

بينما اثبت قادة العصبة في لندن ، الساعاتي جوزيف مول والاسكاف هينريخ باور وكارل شابر تلميذ علم الغابات السابق الذي كان يكسب عيشه بالعمل مدرســا للغات ، انهم كذلك يتفوقون على اويربيك ، على الاقل فيما يتعلق بالتصميم الثوري.

ربما كان ماركس قد سمع اول مرة عن هؤلاء «الرجال الثلاثة الحقيقيين» من انغلز ، الذي تحدث لماركس عندما زاره في ايلول ١٨٤٤ وهو يمر من باريس ، عن «الانطباع العميق» الذي تركه هؤلاء عليه . وخلال الايام العشرة التي قضاها انغلز في باريس ، امضى معظم الوقت بصحبة ماركس ، فكان ان وجدا فرصة لتعميق التوافق البعيد المدى في افكارهما ، ذلك التوافق الذي كان قد بدأ يعبر عن نفسه في مساهماتهما لـ «دويتشه ــ فرانزوسيشه ياربشر» . وفي هذه الاثناء كــان صديقهما القديم ، برونو باور ، قد ارتد على هذه الآراء ونشر نقدا لها في مجلة ادبية اسسها . علم ماركس وانغلز بهذا الهجوم وهما معا في باريس ، وقررا في الحال التصدي له . فجلس انغلز ووضع على الورق كل ما كان لديه حول الموضوع، لكن ماركس طبقا لعادته غاص في المسألة أعمق بكثير مما كانا قد قررا ، وخلال ثلاثة اشهر من العمل الشاق المتواصل كتب كتابا ينوف علـــى ثلاثمائة صفحة . وبانتهاء كتابه هذا في كانون الثاني ١٨٤٥ ، انتهت ايضا اقامته في باريس .

استمر بيرنيز بنشاط ، بعد تسلمه رئاسة تحرير «فوروارتز» في شن هجومه على «السذج المسيحيين ــ الجرمانيين في برلين» ، ولم تكن الصحيفة لتخلو من الطعن في الذات الملكية ، اما هاينه فقد استمر في اطلاق السهام على «الاسكندر الجديد» في قصر برلين . ولم يمض وقت طويل حتى طلبت الملكية الشرعية فــي المانيا من الملكية البورجوازية غير الشرعية في فرنسا استخدام البوليس ضــــد «فوروارتز» . لكن غيزوت اثبت انه ثقيل السمع ، فقد كان على الرغم من آرائه الرجعية رجلا يتمتع ببعض الثقافة ، وبالاضافة الى ذلك لم يكن يرغب في لعب دور تابع الحكم المطلق البروسي مثيرا احتقار واحتجاج المعارضة في فرنسا ، لكنه اصبح اكثر تصلبا عندما نشرت «فوروارتز» «مقالة شنيعة» حول محاولة رئيس بلدية ستوركوو في بروسيا قتل فريدريك وليم الرابع (١) . وبعد مشاورات مع مجلس وزرائه ، قرر غيزوت اتخاذ اجراء ضد «فوروارتز» على اساس اعتبارين : ملاحقة المحرر المسؤول لانه لم يودع السلطات مبلغا كافيا من المال ، وملاحقته كذلك بتهمة التحريض على قتل ملك .

وافقت حكومة برلين على الاقتراح الاول ، ولكن تبين ان هذا الاقتراح غير فعال عندما نفذ . فقد حكم على بيرنز بالسجن شهرين وبغرامة قدرها ٢٠٠ فرنك لانه لم يلتزم بقوانين الايداع. لكن «فوروارتز» اعلنت في الحال انها ستظهر في المستقبل شهرية ، وبذلك تفادت تماما قوانين الايداع . ولم تكن حكومة برلين تريد الموافقة على الاقتراح الثاني ، ربما خشية ان لا يبدي محلفو باريس ميلا الى اتعاب ضمائرهم

---

(١) في تموز عام ١٨٤٤ حاول هينريخ تشيش قتل فريدريك وليم الرابع ، ولم ينجح ، فأعدم في السنة ذاتها .

نيابة عن ملك بروسيا ، لكنها مع ذلك استمرت في ارسال الاحتجاجات احتجاجا اثر آخر ، وفي النهاية طلبت طرد المحررين والكتّاب من فرنسا . وبعد مفاوضات طويلة وافق غيزوت .

افترض في ذلك الوقت ان غيزوت اتخذ قراره نتيجة وساطة قام بها الكسندر فون همبولدت ، الذي كان يمت بصلة قربى الى وزير الخارجية البروسي ، وقد ردد انغلز هذه التهمة في خطابه على قبر زوجة ماركس . وفيما بعد جرت محاولات لتبرئة همبولدت بعد وفاته على اساس ان الملفات البروسية لا تحتوي اي ذكر لوساطة كهذه . ولكن ذلك ليس كافيا لتبرئته . اولا لان من المعروف ان الملفات ناقصة ، وثانيا لان مسائل كهذه لا توضع على الورق في العادة . وكل ما تثبته هذه الملفات هو ان احد العوامل الحاسمة في هذه القضية جرى في الخفاء .

كانت حكومة برلين منزعجة بصورة خاصة من هاينه ، الذي نشر احدى عشرة من قصصه الساخرة عن الوضع في بروسيا وخاصة عن الملك في «فوروارتز» ، ولكن هاينه كان يمثل اكثر النقاط حساسية بالنسبة لغيزوت . فهو شاعر له شهرة اوروبية ، والشعب الفرنسي يكاد يعتبره شاعرا وطنيا . وبالطبع ، لم يكن غيزوت يستطيع تفسير هذه الصعوبات لبرلين مباشرة ، ولذا يبدو ان احدا ذكرها للسفير البروسي في باريس . ذلك ان هذا ارسل الى برلين فجأة في ٤ تشرين الاول يقول ان من المشكوك فيه ان يكون هاينه الذي لم ينشر في «فوروارتز» غير اثنتين من قصائده ، عضوا في هيئة تحريرها ، وفي النهاية فهمت سلطات برلين .

لذا لم يعترض سبيل هاينه ، ولكن عددا من اللاجئين الالمان الذين كتبوا في «فوروارتز» او اشتبه في انهم فعلوا ، تلقى في ١١ كانون الثاني ١٨٤٥ اوامر بالطرد، ومن بين هؤلاء ماركس وروغه وباكونين وبورنشتاين وبيرينز . لكن بعض هؤلاء حافظ على نفسه ، فقد تعهد بورنشتاين بالكف عن اصدار «فوروارتز»، وطفق روغه ينتقل جيئة وذهابا بين سفير ساكسونيا وعدد من النواب الفرنسيين ليؤكد للجميع انه مواطن مخلص . وبالطبع لم يكن ماركس مستعدا لفعل شيء من هذا القبيل ، ولذا اعد نفسه لمغادرة باريس الى بروكسل .

لقد امضى ماركس في منفاه في باريس ما يزيد على السنة ، ولكنها ربما كانت اهم سنة في سنوات تجواله وتدربه . فقد كانت غنية بالتجارب والحوافز ، ولكنها كانت اغنى من ذلك بكثير حين اعطته فرصة كسب رفيق في السلاح ظل وفيا له حتى النهاية .

الفصل الرابع

فريدريك انغلز

١ ـ مكتب وعنبر

ولد فريدريك انغلز في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٣٠ في بارمن . ولم يكتسب انغلز ، مثله في ذلك مثل ماركس ، آراءه الثورية في بيت والديه ، ولكنه اندفع الى الطريق الثوري عبر ذكاء بالغ لا عبر فقر شخصي. فقد كان والده صناعيا غنيا، ومحافظا ذا آراء اورثوذكسية ، وكان على انغلز ان يتغلب من الناحية الدينية على اكثر مما فعل ماركس .

درس انغلز في كلية ايبرفيلد ، ولكنه غادرها قبل انتهاء دراسته بسنة واحدة ليبدأ حياته العملية . فأصبح رجل اعمال ناجح ، دون ان يشعر بالمتعة اطلاقا في اداء «هذا العمل الملعون» كما كان يسميه . نتعرف على انغلز اول ما نتعرف عليه ، في رسائله ، عندما كان له من العمر ثمانية عشر عاما ويعمل متدربا في احد المكاتب ، الى الاخوين غاربر ، وهما صديقان له منذ ايام المدرسة وكانا حينئذ يدرسان اللاهوت . وليس في هذه الرسائل كثير من الحديث عن التجارة والاعمال، عدا بضع ملاحظات كهذه : «عندما نغادر المكتب ، نشعر للمرة الاولى بالارتياح» . وكان انغلز الشاب ، مثل انغلز فيما بعد ، يميل الى الشراب ، وعلى الرغم من انه لم يكن يسلم قياده للاحلام مثل هوف او يفتي مثل هاينه ، الا انه يخبرنا بفكاهة حلوة عن جلسات الشراب التي كان يحضرها في بريمين .

جرب انغلز ، مثل ماركس ، الشعر ، ولكنه ادرك ، بالسرعة التي ادرك بها ماركس ، انه لم يكن يتمتع بمحبة آلهة الشعر . وفي احدى الرسائل بتاريخ ١٧ ايلول ١٨٣٨ اي قبل ان يكمل سنته الثامنة عشرة يعلن ان نصيحة غوته «للشعراء الشباب» قد شفته من اي وهم ساوره بصدد اي رسالة شعرية يحملها . وهو هنا يشير الى مقالتين قصيرتين بيّن فيهما سيد الشعر الالماني ان اللغة الالمانية قد وصلت

درجة عالية من التطور تمكن ايا كان من التعبير عن نفسه شعرا ، ولذا فان احدا لا يستطيع ان يهنىء نفسه على امتلاك ملكة الشعر .

وجد انغلز الشاب وضعا دقيقا له في نصيحة غوته ، وادرك ان قوله للشعر لن ينتج ما يحدث أثرا بالنسبة لقضية الشعر ، ومع ذلك فقد قرر الاحتفاظ بالشعر «كمسألة مكملة مناسبة» ، كما قال غوته ، وقدم قصيدة للنشر « لأن آخرين هم حمير مثلي او اكبر فعلوا ذلك ، وأيضا لانني لن ارفع بقصيدتي من مستوى الشعر الالماني ولن احط منه» .

لم تكن اللهجة المازحة التي تبناها انغلز دائما تخفي وراءها ميلا الى الطيش حتى عندما كان شابا ، فنحن نجده في الرسالة ذاتها يطلب من صديقيه ان يرسلا له كتبا كلاسيكية شعبية من كولون ، ويخبرهما انه يدرس جاكوب بوهيم «ان روحه شاردة ولكنها عميقة . وعلى المرء ان يدرس معظم كتاباته اذا كان يريد فهم اي منها» .

ولم يمض وقت طويل حتى غاص انغلز الى الاعماق ، وفقـــد كل تذوق لأدب «المانيا الفتاة» المصطنع (١) . فنحن نجده في رسالة بتاريخ ١٠ كانون الثاني١٨٣٩ ، يهاجم «هذه الجماعة» لانها دفعت الى العالم باشياء ليست موجودة في الواقع . «هذا الرجل تيودور مندت يخربش كثيرا حول ديموزيل تاغليون ، الذي يعطـــي تفسيرات راقصة لشعر غوته ، ويزين نفسه بريش اقترضه من غوته وهاينه وراهل وستيفلتز ، ويكتب هراء قيما جدا عن بتينا . ولكن هذا كله حديث ، حديث جدا لدرجة انه لا بد ان يسر اي باحث عن التوافه او اية فتاة مغرورة ... وهينريخ لوب ! هذا الرجل يخلق شخصية لم توجد اثر اخرى ، ويكتب قصص اسفار ليست بقصص اسفار ، هراء فوق هراء . ان هذا فظيع» .

وجد انغلز ان «الروح الجديدة» في الادب تعود الى ثورة يوليو ، التي اعلن انها «اول تعبير دقيق عن ارادة الشعب منذ حروب الاستقلال» ، وأن ابرز ممثلي الروح الجديدة هم بيك وغرون ولينو وايمرمان وبلاتن وبورن وهاينه وغتزكوف ، واضعا الاخير في مستوى ارفع من مستوى الاخرين . ويذكر انغلز في رسالـــة كتبها بتاريخ ١ ايار انه نشر مقالة في صحيفة «تلغراف» التي يصدرها هذا «الرجل الممتاز» (غتزكوف) ، ولكنه طلب من محرر الصحيفة ان يحتفظ باسمه سرا لانه كان يخشى ان يقع في «ورطة جهنمية» .

لم تخدع خطابات «المانيا الفتاة» المسهبة حول الحرية انغلز ، فيما يتعلـــق بانخفاض مستواها الجمالي ، ولكنه لم يكن مستعدا للتسامح تجاه الهجمات التي يشنها عليها الرجعيون والاورثوذكسيون . فانضم الى حزب المضطهَدين بلا قيد او شرط ، ولربما كان يسمي نفسه «المانيا شابا» ، وفي احدى الرسائل نجده يهدد صديقه قائلا : «استطيع ان اقول لك شيئا واحدا ، اذا كنت ستصبح قسا فانك تستطيع ان تكون اورثوذكسيا بالقدر الذي تشاء ، اما اذا كنت ستصبح تقيا فان عليك ان تتعامل معي» . ربما كان تفضيل انغلز لبورن على وجه الخصوص نتيجة

---

(١) المانيا الفتاة جماعة من الكتاب الشبان تأسست بعد ثورة تموز ١٨٣٠ الفرنسية .

خواطر مشابهة ، وكان انغلز الشاب يرى ان هجوم بورن على المخبر مينزل هـــو افضل انتاج في المانيا من حيث الاسلوب ، اما هاين فقد كان عليه ان يقنع باشارات عابرة مثل «شخص قذر» . وكانت المشاعر مستثارة ضد هاينه في تلك الايام حتى ان لاسال الشاب كتب في مفكرته : «لقد تخلى هذا الرجل عن قضية الحرية ! لقد انتزع هذا الرجل قبعة الحرية اليعقوبية عن راسه ووضع على راسه النبيل قبعة مزركشـــة ! » .

غير انه لا بورن ولا هاينه ولا اي شاعر اخر ، هو الذي قاد انغلز في الطريق التي اتخذها لنفسه في النهاية ، فلقد جعل منه قدره الرجل الذي كان . فقد ولد انغلز في بارمن وهي احدى قلاع التقوىالالمانية وعاش في بريمين ، وهي قلعة اخرى لهذه التقوى . ولقد مثل تحرره من هذه القيود بداية النضال العظيم من اجـــل الانعتاق ، ذلك النضال الذي ملأ حياته كلها . نجد انغلز ، عندما كان لا يزال يناضل ضد معتقدات طفولته ، ليتحدث برقة غير عادية «انني أصلي كل يوم ، في الواقع كل اليوم تقريبا ، من اجل الحقيقة . ولقد فعلت ذلك باستمرار منذ ان بدأ الشك يساورني . ومع ذلك لم استطع ان اعود الى معتقداتي ... دموعي تتدفق وانـــا اكتب . مشاعري مضطربة عميقة ، ولكنني اشعر انني لست تائها ، وانني سأجد طريقي الى الله الذي اتوق له بكل قلبي . وهذا ايضا تجل للشبح المقدس ، اقسم على ذلك بحياتي ، حتى ولو قال الكتاب المقدس العكس آلاف المرات» .

انتقل انغلز بهذه الصراعات العقلية من قادة الاورثوذكسية المعاصرة الى دافيد شتراوس ، ماراً لفترة من الزمن بشليرماشر ، ولكنه لم يكن يسعى لدى هذا الاخير الى اساس دائم بل الى دعم مؤقت . وفي النهاية اعترف لصديقيه اللاهوتيين انه لن تكون له عودة . ان عقلانيا يمينيا قد يستطيع التخلي عن تفسيره الطبيعـــي للمعجزات وعن اخلاقيته الضحلة ليزحف ثانية الى حفرة الاورثوذكسية ، ولكـن التأمل الفلسفي لا يستطيع اطلاقا النزول من «القمم المغطاة بالثلج المغمورة بروعة شمس الصباح» الى «وهاد الاورثوذكسية الضبابية» . «لقد اصبحت فيما يتعلق بهذه المسألة هيغليا . ولكنني لا اعرف ما اذا كنت سأصبح هيغليا تماما اولا . غير ان شتراوس القى لي بالضوء على هيغل ، ويبدو لي انه جدير بالتصديق . وفي اية حال فان فلسفة التاريخ لدى هيغل تجد صدى تاما في نفسي» .

بعدئذ ، ادى انفصال انغلز عن الكنيسة به الى الهرطقة السياسية . فجعلته احدى الخطب التي تمتدح ملك بروسيا ، ذلك الرجل الذي كان مسؤولا عن تعقب الديماغوجيين ، الى القول : «لا اتوقع شيئا جيدا من امير ، الا ذاك الذي شجت ضربات الشعب راسه وتحطمت نوافذ قصره بحجارة الثورة» .

وبهذه الآراء ، كان انغلز قد تخطى بالطبع غتزكوف وصحيفة «تلغراف» وأصبح يدور في فلك «دويتشه ياربشر» و«راينيخه تزايتونغ» . وبينما كان انغلز في برلين يؤدي الخدمة الاجبارية في سلاح المدفعية من تشرين الاول ١٨٤١ الى تشرين الاول ١٨٤٢ ، كان يعيش في عنابر قريبة من البيت الذي عاش فيه هيغل ومات ، وكان بين الحين والاخر يرسل بمقالاته الى «دويتشه ياربشر» و«راينيخـه تزايتونغ» .

وقد تبنى انغلز اسما مستعارا هو فريدريك اوزوالد ، ربما حرصا على مشاعر عائلته المحافظة الاورثوذكسية ، وكان مجبرا على الاحتفاظ بهذا الاسم عندما كان يلبس بزة الجندية ، وذلك بالطبع لاسباب اكثر حدة . في ٦ كانون الاول ١٨٤٢ ، كتب غتزكوف رسالة يعزي فيها كاتبا انتقده انغلز بحدة في «دويتشه ياربشر» : «لسوء الحظ كنت اول من قدم فريدريك اوزوالد الى عالم الادب . فقبل سنوات ارسل لي رجل اعمال شاب يدعى انغلز رسائل من بريمين عن الحالة في وبرتال . فكنت أصحح ما يرسله وانشره . وبعد ذلك استمر يرسل لي مواد اخرى ، ولكنني كنت اجد دائما انه يتوجب علي ان اعيد كتابتها . وفجأة منعني من تصحيح ما يكتبه ، وبدأ يدرس هيغل وانتقل الى صحف اخرى . وقبل ان يظهر نقده لك بقليل ارسلت له ١٥ تالر الى برلين . على اية حال ، هذا هو الوضع بالنسبة لهؤلاء الشباب : انهم مدينون لنا لاننا علمناهم ان يفكروا ويكتبوا . ثم يكون اول عمل مستقل لهم هو اقتراف جريمة طعن الاب الادبي لهم . وبالطبع لم يكن لهذا الشر ان يستفحل لو لم ترعه «راينيخه تزايتونغ» وصحيفة «روغه» . ليست هذه بالتأكيد صرخات المغربي القديم في برج الجوع ، ولكنها صرخة الدجاجة العجوز عندما ترى ابناءها الصغار يبتعدون عنها مرحين .

كان انغلز خادما قادرا للتجارة في مكتبه ، مثلما اصبح جنديا قادرا في العنبر. ومنذ ايام خدمته الاجبارية حتى نهاية حياته ، ظل العلم العسكري واحدا من العلوم المفضلة لديه . وكان اتصاله الوثيق الدائب بالحياة العملية يعوض ما يفتقر اليه وعيه الفلسفي من عمق تأملي . وخلال سنة الخدمة العسكرية ، اندمج انغلز بشغف مع «الاحرار» وساهم بمقالة او اثنتين في نزاعاتهم ، لكن ذلك كان في وقت لما تنحط اعمالهم فيه بعد . وفي نيسان ١٨٤٢ نشرت كراسة من خمسة وخمسين صفحة كتبها انغلز دون ان تحمل اسما بعنوان «شيلنغ والكشف» ، وفيها ينتقد «آخر الهجمات الرجعية على الفلسفة الحرة» او محاولة شيلنغ لطرد الفلسفة الهيغلية في جامعة برلين بواسطة عقيدته في الكشف . وقد رحب روغه ، الذي ظن ان الكراس من تأليف باكونين ، بهذا العمل واطراه قائلا : «ان هذا الشاب يتفوق على كل الحمير المسنين في برلين» . وكان هذا العمل في الواقع يمثل فلسفة الهيغليين الشباب في اقصى نتائجها ، ولكن نقادا آخرين لم يكونوا على خطأ عندما اعلنوا ان الكراس يتسم بالحيوية الفلسفية ــ الشاعرة اكثر مما يتسم بالعمق النقدي .

وفي الوقت ذاته تقريبا ، وتحت تأثير طرد برونو باور ، نشر انغلز «ملحمة مسيحية» في اربع قصائد تتهكم على «انتصار الايمان» على «الشيطان الاكبر» ، مما افزع باور وسبب له خيبة امل . وفي هذه الملحمة التي نشرت في نيومنستر قرب زيوريخ استفاد انغلز من ميزة الشباب ليصب جام احتقاره على النقد الذي لا موجب لـه .

وعندما انتهت سنة الخدمة العسكرية في ايلول ١٨٤٢ ، عاد انغلز الى بلده ، وبعد ذلك بشهرين سافر الى انجلترا ليصبح كاتبا في مكتب تابع لشركة غزل «ايرمين وانغلز» التي كان والده شريكا في ملكيتها . وفي طريقه الى انجلترا ، مر

بكولون وتعرف الى ماركس في مكاتب تحرير «راينيخه تزايتونغ» . لكن هـذه المقابلة الاولى كانت باردة ، لأن ماركس كان على وشك ان يقطع علاقاته بـ «الاحرار»، وكان يعتبر انغلز واحدا من مؤيديهم ، بينما كان انغلز متحيزا ضد ماركس بفعل رسائل تلقاها من الاخوة باور .

٢ ـ الحضارة الانجليزية

كان للاشهر الواحدة والعشرين التي قضاها انغلز في انجلترا الاهمية ذاتها التي ارتدتها السنة التي قضاها ماركس في باريس . اذ ان كليهما كان قد خبر المدرسة الفلسفية الالمانية ، وبينما كانا في الخارج توصلا الى النتائج ذاتها . ولكن بينما توصل ماركس الى فهم صراعات العصر ومطالبه على اساس الثورة الفرنسية، توصل انغلز اليها على اساس الصناعة الانجليزية .

كانت انجلترا هي الاخرى قد اجتازت ثورتها البورجوازية ، قبل قرن من فرنسا في الواقع . ولكن لهذا السبب بالذات نشبت الثورة البورجوازية الانجليزية في ظل ظروف اقل تطورا، وفي النهاية انحلت الى اتفاق بين الارستقراطية والبورجوازية تمخض عن اقامة ملكية مشتركة . ولم تكن «الطبقة الوسطى» الانجليزية مضطرة الى خوض نضال طويل مرير مع الملكية والارستقراطية كذلك الذي كان على «الطبقة الوسطى» في فرنسا ان تخوضه . ولكن بينما لم يتوصل المؤرخون الى ان نضال «الطبقة الوسطى الفرنسية» كان صراعا طبقيا الا بعد التفكير في ذلك مرتين ، اندلع الصراع الطبقي في انجلترا ، من مصدر جديد اذا صح التعبير ، عندما تسلمت البروليتاريا النضال ضد الطبقات الحاكمة وقت قانون الاصلاح في ١٨٣٢ .

يكمن هذا الفرق في ان الصناعة الكبيرة نمت وتطورت في انجلترا اكثر مما في فرنسا بكثير . وقامت الصناعة الانجليزية ، بعملية تطورية تكاد تكون منظورة ، بتدمير الطبقات القديمة وخلق طبقات جديدة . وكانت البنية الداخلية للمجتمع البورجوازي الحديث مرئية بوضوح في انجلترا اكثر مما في فرنسا . درس انغلز تاريخ وطابع الصناعة الانجليزية ، وتوصل عبر هذه الدراسة الى انه على الرغم من ان الحقائق الاقتصادية لا تلعب دورا في البحث التاريخي ، او تلعب دورا صغيرا جدا في احسن الاحوال ، الا انها تمثل قوة تاريخية حاسمة ، على الاقل في العالم الحديث ، وأن هذه الحقائق تكون اساس تطور التناقضات الطبقية العدائية القائمة . وبينما نشأت هذه التناقضات كلية نتيجة تطور الصناعة الكبيرة ، فانها تمثل اساس تطور الاحزاب السياسية والصراعات السياسية ، وبالتالي تمثل اساس التاريخ السياسي كله .

كان السبب في ان انغلز وجه انتباهه اساسا نحو الحقل الاقتصادي يعود الى مهنته . وقد كانت مساهمته في «دويتشه ــ فرانزوسيشه ياربشر» نقدا للاقتصاد الوطني بينما كانت مساهمة ماركس نقدا لفلسفة القانون . ومساهمة انغلز مكتوبة بكل حدة الشباب ، ولكنها تبدي نضجا غير عادي . لكن الاساتذة الفلستيين الالمان

وصفوها بأنها «عمل مشوش تماما» بينما وصفها ماركس بأنها «هيكل تخطيطي لامع» . وفي الواقع لم تكن هذه المساهمة اكثر من هيكل تخطيطي ، ذلك ان ما قاله انغلز عن ريكاردو وآدم سميث لم يكن شاملا البتة ولم يكن كذلك صحيحا على الدوام ، بينما كانت الاعتراضات التي اوردها قد وردت من قبل في اعمال الاشتراكيين الانجليز والفرنسيين . غير ان محاولته تفسير كل تناقضات علم الاقتصاد البورجوازي اعتمادا على مصدرها الحقيقي ، الملكية الخاصة ، كانت امرا عبقريا ، جعل انغلز يتخطى برودون الذي لم يتعد مقارعة الملكية الخاصة على ارضها هي. ولقد احتوت ملاحظات انغلز فيما يتعلق بالآثار غير الانسانية للتنافس الراسمالي وبصدد نظرية مالتوس السكانية وزخم الانتاج الرأسمالي المتزايد دوما والازمات التجارية وقانون الاجور وتقدم العلوم ، الذي اعلن انه انحط تحت حكم الملكية الخاصة ليصبح وسيلة لتعزيز عبودية الانسانية بدلا من ان يكون وسيلة لتحرير الانسانية الخ ، كل هذه الملاحظات احتوت على بذور الشيوعية العلمية في الحقل الاقتصادي ، ولقد كان انغلز بالفعل هو الرائد في هذا المجال .

كان انغلز متواضعا جدا فيما يتعلق بمساهماته الشخصية . فقد اعلن مرة ان ماركس هو الذي اعطى لكتاباته الاقتصادية «شكلها النهائي» ، واعلن في مرة ثانية ان «ماركس كان اعظم منا جميعا ، كان يرى ابعد منا واكثر منا واسرع منا» ، وفي مناسبة ثالثة قال ان ماركس كان على اية حال سيكتشف ما اكتشفه هو (انغلز) . لكن الحقيقة هي ان انغلز كان في البداية هو الذي يعطي وماركس هو الذي يتلقى فيما يتعلق بذلك الحقل الذي يجب في النهاية ان تخاض عليه النضالات الحاسمة (حقل الاقتصاد) .

لا شك في ان ماركس كان اعظم الرجلين فلسفيا ، وأن عقله كان اكثر دربة ، ولكن اذا كان للمرء ان يتسلى بلعبة «اذا وماذا لو» دونما علاقة بالبحث التاريخي ، فانه يستطيع ان يطلق العنان لمخيلته متسائلا ما اذا كان انغلز يستطيع ان يحل وحده المشكلة التي حلها الرجلان معا ، وما اذا كان يستطيع حلها في شكلها الفرنسي الاكثر تعقيدا كما فعل ماركس . غير ان الحقيقة التي تغاضى عنها البعض ظلما هي ان انغلز حل المشكلة في شكلها الانجليزي الابسط بسهولة . اذا نظر المرء الى نقد انغلز للاقتصاد السياسي من وجهة النظر الاقتصادية فحسب، فانه يجد ان هذا النقد قابل للاعتراض عليه ، ولكن ما يعطي لهذا النقد طابعه الجوهري ويجعل منه تقدما في العلم الاقتصادي هو طريقة المعالجة التي يدين بها الكاتب الى مدرسة الجدل في الفلسفة الهيغلية .

ويمكن للمرء ان يرى نقطة البداية الفلسفية بوضوح اكثر في مساهمة انغلز الثانية في «دويتشه ـ فرانزوسيشه ياربشر» ، التي يصف فيها الحالة في انجلترا على اساس واحد من كتب كارليل ، معلنا ان هذا الكتاب هو الوحيد الذي يستحق القراءة من بين الحصاد الادبي في تلك السنة كلها ، ومشيرا الى ان الفقر الادبي في انجلترا لا يضاهيه سوى الثراء الادبي في فرنسا . ويضيف انغلز ملاحظة يشير فيها الى ما يصفه بأنه استنزاف الارستقراطية والبورجوازية الانجليزية لنفسها

فكريا . ويقول ان الانجليزي المثقف ، الذي كان يعتبر في القارة الاوروبية مقياسا للشخصية الوطنية الانجليزية ، ليس الا أحقر عبد تحت الشمس ، فهو عبد تحيزه ذي الطبيعة الدينية في الغالب : «القطاع الشريف الوحيد في المجتمع الانجليزي هو القطاعالذي لا تعرفه القارة الاوروبية» قطاعالعمال والفقراء ومنبوذي انجلترا — على الرغم من خشونتهم وافتقارهم الى المعنويات المرتفعة . ان امل انجلترا في الخلاص يكمن فيهم . انهم ليسوا مثقفين ، ولكنهم متحررين من كل التحيزات ، ولا زال لديهم من الحيوية ما يجعلهم مادة جيدة للتثقيف . ان المستقبل لهم» . ثم اوضح انغلز مستخدما تعابير ماركس ان الفلسفة بدات تغوص في اعماق «جماهير الشعب الساذجة» . اذ لم يجرؤ اي مترجم انجليزي محترم على ترجمة كتاب شتراوس «حياة يسوع» الى الانجليزية ولم يجرؤ اي ناشر مشهور على نشره ، ولكن محاضرا اشتراكيا ترجمه وهو يباع الان من العمال في لندن وبرمنغهام ومانشستر على شكل نشرة رخيصة الثمن .

ترجم انغلز «المقطوعات الجميلة بل واحيانا البديعة» التي يصف بها كارليل الوضع في انجلترا وصفا قاتما . ولكنه استشهد ببرونو باور وفريدريك فويرباخ ضد اقتراحات كارليل لمعالجة الوضع : دين جديد وعبادة البطل القائمة على وحدة الوجود وما الى ذلك . فأوضح ان كل امكانيات الدين قد استنفدت بما فيها مذهب وحدة الوجود الذي دحضه فويرباخ في الانيكدوتا الى الابد . «حتى الان ، كان سؤال يثور على الدوام : ما هو الله ؟» واعطت الفلسفة الالمانية الجواب : «الله هو الانسان . فما على الانسان الا ان يدرك ذاته ويقيس كل ظروف الحياة طبقا له ويحكم عليها طبقا لطابعه هو ويخلق العالم بطريقة انسانية تماما طبقا لما تمليه طبيعته هو ذاته ، وبذلك يكون الانسان قد حل احجية عصرنا» . وفي الحال فسر ماركس «انسان» فويرباخ بأنه سلوك الانسان والدولة والمجتمع ، بينما فسر انغلز طابع الانسان بأنه تاريخه ، الذي يجب ان نرفعه اعلى مما رفعته اية مدرسة فلسفية سابقا ، حتى اعلى مما رفعه هيغل ، الذي لم يعتبره في التحليل الاخير اكثر من اختبار لصحة استنتاجاته المنطقية .

ان من المتع حقا ان يدرس المرء بالتفصيل مساهمات ماركس وانغلز في «دويتشه — فرانزوسيشه ياربشر» ليرى كيف تطورت الافكار ذاتها ، تلونها في احدى الحالتين الثورة الفرنسية وفي الحالة الاخرى الصناعة الانجليزية ، وهما التحولان التاريخيان العظيمان اللذانيعود اليهما تاريخ المجتمعالبورجوازي الحديث. فقد توصل ماركس الى الطابع الفوضوي للمجتمع انطلاقا من حقوق الانسان ، بينما اعلن انغلز ان المنافسة هي «الابنة المدللة لعالم الاقتصاد» : «ما الذي يفترض فينا ان نعتبر قانونا لا يمكن ان يعمل الا نتيجة الاندلاع الدوري للأزمات الاقتصادية ؟ انه ببساطة قانون طبيعي قائم على عدم وعي الاطراف المعنية» . وتوصل ماركس الى ان انعتاق الانسانية لا يمكن ان يحصل الا عندما يصبح الانسان كائنا اجتماعيا عبر تنظيم قواه الذاتية كقوى اجتماعية ، بينما اعلن انغلز : انتجوا بوعي كبشر لا كأفراد مفتتين لا يتمتعون بوعي اجتماعي ، وعندئذ تتغلبون على كل التناقضات المصطنعة

الصعبة » .

وهكذا يلاحظ المرء ان الاتفاق بين النتائج التي توصل اليها ماركس وتلك التي توصل اليها انغلز يتخطى المضمون حتى ليكاد يصبح اتفاقا في النص .

٣ ـ العائلة المقدسة

كان اول عمل قام به ماركس وانغلز معا هو تجديد ضميريهما الفلسفيين ، وقد اتخذ هذا العمل شكل سجال ضد «الغماينه ليتيراتور تزايتونغ» التي نشرها في كانون الاول عام ١٨٤٣ في برلين برونو باور واخواه ادغار واغبرت .

حاول «احرار» برلين ان يبرروا على صفحات هذه الجريدة نظرتهم للعالم ، او ما كانوا يسمونه كذلك . وكان فروبل قد دعى برونو باور الى المساهمة في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» ، ولكنه بعد قليل من التردد لم يفعل ذلك . فلقد تلقى غروره الشخصي ضربة موجعة من ماركس وروغه ، رغم ان هذا لم يكن السبب الحقيقي لتمسكه بفلسفته القديمة في وعي الذات . ذلك ان كل ملاحظاته المريرة حول «راينيخه تزايتونغ المأسوف على ذكراها» وحول «الراديكاليين» و«اذكياء العام ١٨٤٢ بعد الميلاد» كان لها اساس في الواقع . فقد اقنعه الهجوم الشرس الماحق الذي شنته الرجعية الرومانسية على «دويتشه ياربشر» و«راينيخ تزايتونغ» حالما تحولتا من الفلسفة الى السياسة ، واللامبالاة التامة التي قابلت بها «الجماهير» هذه «المذبحة الفكرية» ، اقنعه ذلك ان التقدم على هذا الطريق غير ممكن . فمضى الى الاستنتاج ان الخلاص الوحيد يكمن في العودة الى الفلسفة النقية والنظرية النقية والنقد النقي ، وبالطبع حالما يتحقق اللجوء الى الغيوم الايديولوجية، يصبح من السهل خلق حاكم كلي القوة للعالم من هذه المواد .

لخص برونو باور برنامج «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» ، بقدر ما يمكن الحديث عن برنامج كهذا ، كما يلي : «حتى الان ، ضلت كل الحركات الكبرى في التاريخ طريقها وانتهت الى الفشل منذ البداية لان الجماهير اهتمت بها او وقفت الى جانبها ، او انها انتهت نهاية تعيسة لان الفكرة التي كانت تتركز حولها لم تكن سوى فكرة لا تتطلب اكثر من فهم مصطنع لانها كانت تتوجه الى استدرار تصفيق الجماهير» . كان هذا التناقض العدائي بين «الفكرة» و«الجماهير» هو المحور الذي تدور حوله كل مقالات «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» التي اعلنت ان «الفكرة» عرفت في النهاية اين تسعى الى خصمها الحقيقي الوحيد: خداع الجماهير لذاتها وتذبذبها.

ولذا ، كانت صحيفة باور تعامل كل الحركات «الجماهيرية» بالاحتقار الذي تستأهله : المسيحية واليهودية ، الاملاقية والاشتراكية ، الثورة الفرنسية والصناعة الانجليزية . ولقد كان انغلز مؤدبا جدا عندما قال عن هذه الصحيفة «ان فلسفتها الهيغلية المتحللة المتفسخة تشبه عجوزا طاعنة في السن هزل جسمها فأصبح كاريكاتورا مثيرا للتقزز ، ولكنها مع ذلك لا تزال تتبرج وتتزين وتجوب الشوارع املا

في ان تصطاد لنفسها عاشقا ، ذلك ان الفلسفة الهيغلية تحولت على يد «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» الى مجرد سخافة . فعندما اعلن هيغل ان الفكرة المطلقة بوصفها روح العالم الخلاقة لم تع ذاتها الا بصورة ثانوية في الفيلسوف ، فانه كان يعني فحسب ان الفكرة المطلقة تصنع التاريخ ظاهريا في المخيلة ، كما انه احتاط سلفا وصراحة ضد الخطأ ممكن الوقوع ، خطأ اعتبار الفرد الفلسفي ذاته الفكرة المطلقة. لكن الاخوة باور واتباعهم اعتبروا انفسهم التجسيد الشخصي للنقد وللفكرة المطلقة التي تعيش فيهم كروح للعالم ضد كل ما تبقى من الانسانية . كان لا بد لهذه الابخرة من ان تنقشع سريعا ، حتى في الجو الفلسفي لالمانيا ، وفي الواقع لم تلق «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» سوى ترحيب خجول حتى بين «الاحرار» . فلم يتعاون معها كوبن ، الذي اتخذ موقفا متحفظا ، ولاشتيرنر الذي كان يعد في الخفاء هجوما عليها. كذلك ترفع ماين وروتنبرغ عن الامر ، وعدا فوشر كان على الاخوة باور ان يقنعوا بكتاب من الدرجة الثالثة من بين «الاحرار» : رجل يسمى يونفنتز ، وآخر ذو اسم مستعار هو زيلغا ، وملازم بروسي اسمه فون زيخلنسكي عاش عمرا طويلا وقضى جنرالا للمشاة . وخلال سنة واحدة ، كانت الضجة كلها قد هدأت تماما ، وحين نزل ماركس وانغلز الى الساحة ليهاجما «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» ، كانت هذه الصحيفة قد ماتت بل انها كانت قد طواها النسيان تماما .

ولم يكن ذلك مؤاتيا لعمل ماركس وانغلز المشترك الاول ، ذلك العمل الـــذي اسمياه نقد النقد النقدي او العائلة المقدسة كما سمي بناء على اقتراح ناشرهم . وفي الخال انبهما خصومهما لانهما كانا يضربان جثة هامدة . وعندما تسلم انغلز النسخة الاولى من الكتاب المطبوع اعلن انه على الرغم من ان الكتاب يمثل عملا جيدا الا ان الاحتقار المتعالي الذي يعامل به النقد النقدي كان على تناقص مؤسف مـــع محتواه الذي غطى ما ينوف على ثلاثمائة صفحة وقد اعتقد انغلز ان الجمهور العام لن يطلع على الكتاب وانه لن يواجه باهتمام من قبل القراء . لا شك في ان هذا الحكم صحيح اليوم حتى اكثر مما كان عندما صدر ، لكن للكتاب جاذبية اضافية اليوم لم تكن له حينذاك . فلقد عالج احد النقاد الكتاب فيما بعد شاجبا مماحكاته وحطـــه للافكار بصورة مرعبة ، ولكنه اعلن ان الكتاب رغم ذلك يحوي بعضا من اروع الادلة على عبقرية كاتبيه وانه في كمال شكله ودقة وايجاز لغته يمكن ان يعتبر من بين اروع ما كتب ماركس وانغلز طيلة حياتهما .

في الفقرات التي يشير فيها هذا الناقد يكشف ماركس عن تمكنه من ذلك النقد البنّاء الذي يهزم التخيلات الايديولوجية بالحقائق الايجابية ، ذلك النقد الذي يخلق وهو يدمر ويبني وهو يحطم . يجيب ماركس على ملاحظات برونو باور النقدية تجاه المادية الفرنسية والثورة الفرنسية بعرض موجز رائع لهاتين الظاهرتين التاريخيتين. ويجيب ماركس ببرود على حديث باور عن التناقض بين «العقل» و«الجماهير» وبين «الفكرة» و«المصلحة» قائلا : «لقد انتهت الفكرة على الدوام نهاية سيئة بقدر مـــا كانت متميزة عن المصلحة» . وكل مصلحة جماهيرية وجدت لها تعبيرا تاريخيـــا ودخلت ساحة العالم كفكرة كانت تتخطى بلا استثناء حدودها الحقيقية وتتحـــد

بمصالح الانسانية جمعاء . لقد كانت الفكرة هي الوهم الذي دعاه فورييه نغمة كل حقبة في التاريخ. «لم تكن مصالح البرجوازية قد ضللت بل هي على العكس من ذلك كسبت كل شيء في ثورة ١٧٨٩ وواجهت فيها نجاحا حقيقيا ، على الرغم من ان الرثاء قد اختفى وذبلت اكاليل الزهور التي زينت بها هذه المصالح مهدها . لقد كانت هذه المصالح في الواقع قوية جدا ، لدرجة انها قهرت بنجاح قلم مارا ومقصلة الارهابيين وسيف نابليون وصليب الكنيسة ودم آل البوربون الازرق» . وقد حققت البرجوازية الرغبات التي كانت تعتمل في صدرها في سنة ١٧٨٩ و١٨٣٠ مع فارق واحد هو ان استنارتها السياسية كانت قد وصلت نهايتها في ذلك الحين . فلم تعد تستطيع تحقيق الدولة المثالية ولم تعد تعمل من اجل العالم ومن اجل المصالح العامة للانسانية في دولتها الدستورية التمثيلية ، بل اصبحت ترى في هذه الدولة التعبير الرسمي عن سلطتها المقتصرة عليها والتعبير السياسي عن مصالحها الخاصة بها . لم تكن الثورة فاشلة الا فيما يتعلق بالجماهير ذلك ان فكرة هذه الجماهير السياسية لم تكن تتطابق مع مصالحها الحقيقية، ولذا لم يكن مبدؤها الحيوي متماثلا مع المبدأ الحيوي للثورة ، وكانت الشروط الحقيقية الضرورية لانعتاق الجماهير مختلفة جوهريا عن تلك الشروط التي تستطيع البرجوازية ان تحرر بها نفسها والمجتمع .

واعلن ماركس ردا على ادعاء باور بأن الدولة تشد ذرات المجتمع البرجوازي بعضها الى بعض بأن هذه الذرات مشدودة الى بعضها البعض لكونها ذرات تخيلية فحسب ، لكونها ذرات في سماء الخيال فقط بينما هي في الواقع تختلف اختلافا كليا عن الذرات لانها بالتحديد ليست ذوات مقدسة بل كائنات انسانية ذاتية انانية. «اليوم لا يتخيل احد ، سوى الجهلة سياسيا ، ان الحياة البرجوازية تتماسك بفعل الدولة ، فالحقيقة ان الدولة تتماسك بفعل الحياة البرجوازية» . ويجيب ماركس على تقليل باور من اهمية الصناعة والطبيعة للمعرفة التاريخية بأن يتساءل عما اذا كان يمكن القول ان النقد النقدي قد توصل حتى الى بدايات المعرفة التاريخية ، ما دام مستمرا في طرح الموقف النظري والعملي للانسان تجاه الطبيعة جانبا وكذلك عزل العلم الطبيعي والصناعة عن الحركة التاريخية : «وكما تفصل (هذه الفلسفة) التفكير عن الشعور ، والروح عن الجسد ، فانها كذلك تفصل التاريخ عن العلم الطبيعي والصناعة ، وتعتبر ان التاريخ يولد في غيوم السماء بدلا من ان يولد في انتاج المواد الخام على الارض» . وكما دافع ماركس عن الثورة الفرنسية ضد النقد النقدي ، دافع انغلز عن التاريخ الانجليزي . وكان خصمه في ذلك فوشر الشاب الذي اعطى للواقع الارضي اهتماما اكثر من اي ممن ساهموا في «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» . ومن الممتع ان نلاحظ كيف فسر انغلز قانون الاجور الرأسمالي الذي ارسله بعد ذلك بعشرين عاما ، عندما تبناه لاسال ، الى اعماق الجحيم بصفته «قانونا ريكارديا متفسخا» . اثبت انغلز ان فوشر اقترف اخطاء فاحشة ــ لم يكن الرجل يعرف في عام ١٨٤٤ ان القوانين الانجليزية التي تحظر الانتظام قد نقضت في عام ١٨٢٤ ــ لكن حججه كانت كثيرا ما تقترب من المماحكة ، كما انه اخطأ

بالنسبة لنقطة هامة واحدة وان يكن خطؤه مختلفا عن خطأ فوشر . شجب فوشر قانون الساعات العشر بوصفه «اجراء مصطنعا باليا» لن يضع الفأس على جذور المسألة بينما قال انغلز ان القانون تعبير ، وان يكن ألطف تعبير ممكن ، عن مبدأ جذري تماما ، لا لانه يضع الفأس على جذور التجارة الخارجية وبالتالي نظـــام المصانع فحسب ، بل لانه سيضرب هذه الجذور في الاعماق . كان انغلز في ذلك الوقت وكذلك ماركس يعتبران قانون الساعات العشر محاولة لوضع قيود رجعية على الصناعة الكبيرة ، على الرغم من انهما كانا يشعران ان ظروف المجتمع الرأسمالي ستحطم هذه القيود مرة اثر اخرى .

لم يتغلب ماركس ولا انغلز في «العائلة المقدسة» على ماضيهما الفلسفي تماما ، فهما في بداية المقدمة يستشهدان بانسانية فويرباخ الحقيقية ضد مثالية برونو باور التأملية . ويعترف ماركس وانغلز بلا قيد ولا شرط بالتقدم الذي احرزه فويرباخ والخدمات العظيمة التي أداها ، اذ قدم الاسس العبقرية لنقد الميتافيزيقيا كلها ، وأحل «الكائن الانساني محل سقط المتاع ومحل وعي الذات الفلسفي الخالد» ولكنهما يتخطيان المرة تلو الاخرى انسانية فويرباخ نحو الاشتراكية — من المجرد الى الكائن الانساني التاريخي — وفي عالم الاشتراكية المشوش يتحسسان طريقهما بحنكـــة بالغة ، فيكشفان عن سر الهوية الاشتراكية التي تفتخر بها البرجوازية المتخمة . ويقولان ان التعاسة الانسانية ، ذلك الانحطاط الكامل الذي يجبر الانسان على تقبل الصدقات كي يعيش ، يخدم ارستقراطية الثروة والثقافة كوسيلة للتسلية ، كوسيلة لاشباع غرورها وغطرستها . وكل جمعيات الرفاه المختلفة في المانيا ، ومنظمات الاحسان في فرنسا والاعمال الدونكيشوتية في انجلترا والحفلات الموسيقيـــــة والحفلات الراقصة الخيرية وحملات جمع الصدقات للفقراء وحتى جمع التبرعات لضحايا حوادث العمل والصناعة ، كل هذه لا تملك اي اهمية اعمق اطلاقا .

كان فورييه من بين كل الطوباويين العظماء هو الذي اسهم اكثر من غيره فـــي المحتوى الايديولوجي «للعائلة المقدسة» ، ولكن انغلز ميز بين فورييه والفورييَن معلنا ان الفوريية الخصي التي تبشر بها «ديمقراتيك باسيفيك» (اسم صحيفـــة باريسية) ليست غير التعاليم الاجتماعية لقطاع من البورجوازية المحسنة . وهــو مثل ماركس يؤكد المرة تلو الاخرى على اهمية التطور التاريخي والحركة المستقلة للطبقة العاملة ، وهي امور فشل اعظم الطوباويين في فهمها . ويعلن انغلز مجيبا على ادغار باور : «لا يخلق النقد النقدي شيئا . بينما يخلق العامل كل شيء ، حتى انمخلوقاته الفكرية تخجل النقد كله. والعمال الانجليز والفرنسيون شاهد على ذلك» .

ويدحض ماركس التناقض المزعوم بين «العقل» و«الجماهير» ، بأن يوضح ان النقد الشيوعي الذي مارسه الطوباويون كان في الحقيقة طبقا لحركة الجماهـــير الغفيرة . ولكي يكوّن المرء فكرة ما عن نبل هذه الحركة فان عليه ان يتعرف الــى الظمأ الذي لا يرتوي للمعرفة والطاقة الاخلاقية والحافز الدائب الى الامام التي تسم جميعا العامل الانجليزي والعامل الفرنسي . وليس من الصعب ان يفهم المرء الحدة البالغة التي هاجم بها ماركس ادغار باور بسبب ترجمته السيئة لبرودون وتعليقاته

السخيفة عليه في «الغماينه ليتراتور تزايتونغ» . والاعتراض بأن ماركس ما مجد برودون في «العائلة المقدسة» الا ليهاجمه بعد ذلك بسنوات ليس غير حيلة اكاديمية جبانة . فماركس في «العائلة المقدسة» يدافع عن انجازات برودون الحقيقية ضد محاولات طمسها وتشويهها بالجمل الفارغة التي يلوكها ادغار باور . وقد رأى ماركس في عمل برودون انجازا رائدا في الحقل الاقتصادي تماما كانجاز برونو باور ذاته في حقل اللاهوت ، ولكن كما هاجم ماركس نقائص برونو باور فيما يتعلق باللاهوت كذلك هاجم نقائص برودون فيما يتعلق بالاقتصاد .

يعالج برودون الملكية على اساس النظام الاقتصادي البورجوازي بوصفها تناقضا داخليا ، لكن ماركس يعلن : «ان الملكية الخاصة بحد ذاتها ، كثروة ، مجبرة في الوقت ذاته على الحفاظ على قيد البقاء على ذاتها وعلى نقيضها الذي هو البروليتاريا. والجانب الايجابي من هذا التناقض هو الملكية الخاصة مكتفية بذاتها. اما البروليتاريا فهي من جهة اخرى مجبرة على الغاء نفسها وفي الوقت ذاته الغاء نقيضها الشرطي الذي يجعلها بروليتاريا . انها الجانب السلبي من التناقض ، انها جانبه المتحلل ، انها الملكية الخاصة وقد انحلت . ولذا ففي داخل النقيض الشرطي يكون المالك هو الطرف المحافظ وتكون البروليتاريا هي الطرف المدمر . فمن احدهما ينبثق العمل لابقاء التناقض ومن الثاني ينبثق العمل لتدميره . ان الملكية الخاصة تتجه في حركتها الاقتصادية نحو انحلالها الذاتي ، ولكن بواسطة تطور مستقل عنها وبدون وعي منها وضد رغبتها ، تطور تحكمه طبيعة المشكلة من حيث انها تنتج البروليتاريا كبروليتاريا ، تنتج التعاسة الفكرية والجسدية الواعية لتعاستها ، تنتج اللاانسانية الواعية للاانسانيتها ، ولذا فهي تصفي نفسها بنفسها . والبروليتاريا بذلك تنفذ الحكم الذي اصدرته الملكية الخاصة على نفسها بخلقها للبروليتاريا ، تماما كما تنفذ الحكم الذي يصدره العمل المأجور على نفسه حينما ينتج الثراء للبعض والتعاسة للبعض الاخر . وعندما تنتصر البروليتاريا فانها بذلك لا تصبح الجانب المطلق للمجتمع لانها لا يمكن ان تصبح منتصرة الا بحل نفسها وحل نقيضها . وبهذا لا تختفي البروليتاريا وحدها ، ولكن يختفي ايضا نقيضها الشرطي ، الملكية الخاصة».

ويشير ماركس صراحة الى انه لا يجعل من البروليتاريين آلهة عندما ينسب اليهم هذا الدور التاريخي : «العكس هو الصحيح ، لان تجريد الانسانية كلها بل ومظهر الانسانية كلها كامل عمليا في البروليتاريا التامة النمو ، لان ظروف حياة البروليتاريا تمثل بؤرة كل الظروف اللاانسانية في المجتمع المعاصر ، لان الكائن الانساني فقد في البروليتاريا ، ولكنه اكتسب وعيا نظريا لهذا الفقدان ، وأصبح مضطرا بفعل حاجة ماسة تماما ــ التعبير العملي عن الضرورة ــ الى الثورة على هذه اللاانسانية . ان البروليتاريا تستطيع ويجب ان تحرر نفسها . لكنها لا تستطيع تحرير نفسها دون الغاء الشروط التي اعطتها الحياة ، وهي لا تستطيع الغاء هذه الشروط دون الغاء كل ظروف الحياة الاجتماعية اللاانسانية التي تتلخص في وضع البروليتاريا ذاتها .

«ان البروليتاريا لا تجتاز مدرسة العمل القاسية التي تورث الصلابة عبثا .

وليست المسألة ما يمكن لهذا البروليتاري او ذاك ، او حتى للبروليتاريا كلها ، ان تتخيل اللحظة انه هدفها . انها مسألة ما هي البروليتاريا فعلا وما الذي ستكون مضطرة لفعله تاريخيا نتيجة لهذه الكينونة . ان هدف البروليتاريا وعملها التاريخي مقرران سلفا،بشكل واضح‌لا عودة عنه،في وضعها الخاص في الحياةوفي‌تنظيم المجتمع البورجوازي المعاصر كله» . ويؤكد ماركس المرة تلو الاخرى ان قطاعات من البروليتاريا الانجليزية والفرنسية قد وعت هذا الدور التاريخي للبروليتاريا ، وانها تناضل بدأب لتطوير هذا الوعي الى حد الوضوح الكامل .

لا شك في ان الجداول تحمل ماءها العذب الى الحقول عبر مساحات شاسعة من الارض القفر ، وبالمثل فان فصلين على وجه الخصوص في «العائلة المقدسة» ، يعالجان الحكمة البالغة لطيب الذكر زيلغا ، يضعان صبر القارىء موضع امتحان عصيب . على‌ان حكما عادلا يمكن ان يصدر على الكتاب ، اذا افترضنا انه مرتجل، والاغلب انه كذلك . اذ انه ما كاد ماركس وانغلز يتعرفان الى بعضهما شخصيا حتى وصل العدد الثامن من «الغمأينه ليتراتور تزايتونغ» الى باريس حاملا هجوما مقنعا، وان يكن حادا ، شنه برونو باور على النتائج التي توصل اليها ماركس وانغلز في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» ، ولربما كان الرجلان قد قررا الرد على صديقهما القديم بطريقة ساخرة هازئة وبأسرع ما يمكن في كتيّب صغير . على اية حال ، جلس انغلز في الحال وكتب مساهمته في الكتاب، ولم تتعد هذه المساهمة ست‌عشرة صفحة ، ولقد اخذت الدهشة انغلز عندما سمع ان ماركس قد وسع الرد لينوف على ثلاثمائة صفحة . كذلك شعر بأن من «الغريب» ، بالنظر الى الدور الصغير الذي لعبه في كتابة الكتاب ، ان يظهر اسمه عليه جنبا الى جنب مع اسم ماركس ، بل وحتى متقدما عليه .

ربما كان ماركس قد بدأ العمل بطريقته الشاملة المعهودة ، ليكتشف طبقا للقول المأثور انه يفتقر الى الوقت الكافي ليكتب بايجاز ، او لعله وسّع الكتاب ليستفيد من النص الذي يعفي الكتب التي تربو على ٣٢٠ صفحة من الرقابة .

اعلن مؤلفا الكتاب السجالي أن هذا الكتاب ليس الا مقدمة لنشر اعمال مستقلة يبحث فيها كل منهما على حدة موقفه من احدث العقائد الاجتماعية والفلسفية . ولا شك في انهما كانا جادين تماما في هذا القول ، والدليل على ذلك انه ما ان تسلم انغلز النسخة المطبوعة الاولى من «العائلة المقدسة» حتى كان قد انجز مخطوطة اول عمل من سلسلة هذه الاعمال .

٤ ـ عمل اشتراكي اساسي

كانت المخطوطة التي انجزها انغلز هي «حالة الطبقة العاملة في انجلترا في ١٨٤٤» ، وقد نشرت في صيف ١٨٤٥ في ليبزيغ ، وكان الناشر ويغاند الذي كان من قبل ناشر «دويتشه ياربشر» والذي كان قد نشر كتاب شتيرنر «الأنا» قبل ذلك ببضعة شهور . انزلق شتيرنر بوصفه آخر مولود للفلسفة الهيغلية الى حكمة

التنافس الرأسمالي الضحلة ، بينما وضع انغلز في كتابه الاساس لاولئك المنظرين الالمان الذين كانوا قد تطوروا نحو الشيوعية والاشتراكية نتيجة للانحلال الذي اوقعه فويرباخ بالفلسفة الهيغلية التأملية ، والذين كانوا يمثلون الاغلبية . وقد وصف انغلز حالة الطبقة العاملة الانجليزية بكل واقعها المرعب، ذلك الواقع النموذجي لحكم البورجوازية .

عندما اعاد انغلز اصدار كتابه هذا بعد ذلك بحوالي عشرين سنة تقريبا وصفه بأنه مرحلة في التطور الجنيني للاشتراكية العالمية واضاف : «وكما ان الجنين الانساني يبدي في المراحل الاولى لتطوره الخياشيم التي تعود الى اجدادنا من الاسماك ، كذلك فان هذا الكتاب يبدي في كل المواضع العلامات التي يحملها اصل الاشتراكية الحديثة من واحد من أجدادها هو الفلسفة الالمانية الكلاسيكية» . هذا صحيح ، مع تعديل واحد هو ان الكتاب يبدي هذه العلامات أقل مما تبديها مساهمات انغلز في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» . وفي هذه المرة لا يذكر انغلز لا برونو باور ولا فويرباخ ، كما انه لا يذكر «الصديق شتيرنر» الا لماما وكي يجعله أضحوكة. على اية حال يجب اعتبار تأثير الفلسفة الالمانية على هذا الكتاب تأثيرا تقدميا وليس رجعيا كما كان على الاعمال الاولى .

لا تنبع قيمة الكتاب من الوصف الذي يورده للتعاسة البروليتارية التي حدثت نتيجة لنمط الانتاج الرأسمالي ، ذلك انه كان هناك من سبق انغلز في ذلك ، مثل بيرت وغاسكل وغيرهما ممن يستشهد بهم انغلز كثيرا . كذلك ليس ما يعطي الكتاب شخصيته المميزة ذلك الغضب الحارق الذي يوجهه ضد النظام الاجتماعي الذي يخضع الجماهير العاملة لتلك الآلام المبرحة ، ولا تلك الاوصاف المؤثرة التي يصف بها هذه الآلام ، ولا ذلك التعاطف القلبي الذي يبديه تجاه ضحايا هذه الآلام . فالسمة التي تثير الاعجاب والتي تجدر ملاحظتها هي ذلك الشمول الذي يفهم به المؤلف ذي الاربعة وعشرين ربيعا روح نمط الانتاج الرأسمالي ، ونجاحه انطلاقا من هذا النمط في تفسير صعود البورجوازية وكذلك انحطاطها ، وفي تفسير تعاسة البروليتاريا وكذلك خلاصها . كان هدف الكتاب ان يبين كيف ان الصناعة الكبيرة خلقت الطبقة العاملة الحديثة كعرق منزوع عن انسانيته ومحطم جسديا ومنحل فكريا واخلاقيا الى حد الحيوانية ، وكيف ان هذه الصناعة تتطور ، ولا يمكن لها الا ان تتطور ، بفعل الجدل التاريخي ، الذي يبين قوانينه بالتفصيل ، الى حد انها تطيح بخالقتها (البورجوازية) . ويعلن الكتاب ان حكم البروليتاريا في انجلترا سينشأ نتيجة اتحاد حركة الطبقة العاملة بالاشتراكية .

لم يكن ممكنا ان يقوم بهذا الانجاز ، الذي مثله الكتاب ، غير شخص تمكن من الجدل الهيغلي حتى اصبح طبيعة ثانية لديه ، وتمكن من ايقافه على قدميه بدلا من ان يتركه واقفا على رأسه. ولذا صار الكتاب واحدا من حجارة الاساس للاشتراكية، تماما كما اراد له كاتبه ان يكون . غير ان الاهتمام الذي قوبل به الكتاب عند صدوره لم يكن عائدا لهذا السبب ، بل كان نتيجة للمسألة التي عالجها . علّق احد الرؤوس الاكاديمية الكبيرة بغرور ساخر على الكتاب قائلا انه جعل الاشتراكية «مناسبة

للتدريس في الجامعة» ، وكان هذا قولا صحيحا بمعنى ان كثيرا من الاساتـــذة الجامعيين كسروا سيوفهم الصدئة وهم يقارعونه . وفوق كل شيء ، انتفخت اوداج هذا النقاد العليم زهوا وفخارا ، عندما لم تتحقق الثورة التي تنبأ انغلز بأنها كانت على الاعتاب ، ولكنه بعد ذلك بخمسين عاما اعلن ان المدهش في الامر ليس ان هذه النبوءة او تلك لم تتحقق ، بل المدهش ان الكثير من هذه النبوءات ، التي يوردها صاحبها «بحماسة الشباب» تحقق على الرغم من ان صاحبها تنبأ بأنها ستقع «في مستقبل أقرب» .

واليوم لا تعود الجاذبية التي يمارسها هذا الكتاب الرائد الى تلك «الحماسة الشابة» التي رأت كثيرا من الامور «في المستقبل الاقرب» مما يجب . فبدون الظلال التي يرسمها هذا الكتاب ، لا تبدو روعة الضوء الذي يلقيه . ان عين العبقري التي تصف شكل المستقبل انطلاقا من الحاضر ترى الامور التي ستأتي اوضح وبالتالي اقرب مما تراه عين الحس البدهي ، التي تجد صعوبة في ان تعتاد على فكرة ان الحساء لا يظهر بالضرورة على مائدة الطعام . بيد انه كان هناك فـــي انجلترا ، بالاضافة الى انغلز ، من رأوا ان الثورة تقترب ، ومنهم جريدة التايمز لسان حال البورجوازية الانجليزية الرئيسي ، ولكن في هذه الحالة لم ير الضمير المثقـــل للصحيفة في الثورة غير الخراب والدمار ، بينما رأت عين إنغلز الحياة الجديـدة تنبثق من بين الحطام .

وجدت «حماسة انغلز الشابة» تعبيرا آخر لها عدا عن هذا الكتاب . ففي شتاء ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ ، كان انغلز يطرق قضبانا اخرى من الحديد في حين كان القضيب الاول لا يزال محمرا . فعدا عن اكمال الكتاب ، الذي اراد له انغلز ان يكون فحسب القسم الاول من عمل اكبر يدرس التاريخ الاجتماعي لانجلترا ، اقترح اصدار مجلة اشتراكية شهرية بالاشتراك مع موسى هس وانشاء مكتبـــة للكتاب الاشتراكيين الاجانب ونقدا لليست ، وغير ذلك . وكثيرا ما كانت خطط انغلز تتفق مع خطط ماركس الذي كان انغلز يحثه باستمرار قائلا « انه عملك الاقتصادي ، حتى ولو لم تكن راضيا عنه تماما . فهذا ليس امرا هاما . ان عقول الناس ناضجة الان وعلينا ان نطرق الحديد قبل ان يبرد ... الوقت يمر بسرعة ، اعمل على الانتهاء فـــي نيسان . اعمل مثلما اعمل : حدد موعدا للانتهاء من العمل ، ثم اعمل على طباعته باسرع ما يمكن . واذا كنت لا تستطيع طباعته هنا ، فجرب مانهايم او دارمشتادت او غيرها ، لكن المهم أن يظهر هذا الكتاب» . ووصل الامر بانغلز الى حد تعزيـــة نفسه على طول العائلة المقدسة «المدهش» بالقول ان الكتاب ليس سيئا على كل حال: «وبهذه الطريقة رأى الكثير النور بدلا من ان يظل ملقى على طاولتك ردحا من الزمن لا تعلمه الا السماء» . وكم كان على انغلز ان يرفع عقيرته محتجا على امور شبيهة في السنوات اللاحقة .

كان انغلز نافد الصبر عندما كان يحث ماركس على انهاء عمله ، ولكنه كان معينا بالغ الصبر عندما يتعين على العبقرية ، التي تخوض نضالا قاسيا مع نفسها ، ان تواجه تعاسات الحياة العملية . فما ان وصلته انباء طرد ماركس من باريس ، حتى

سارع الى افتتاح اكتتاب «لنقتسم بيننا بطريقة شيوعية كل النفقات الاضافية التي كان عليك ان تتكبدها» . ويخبر انغلز ماركس بالتقدم الذي يحرزه الاكتتاب ويضيف : «لست ادري ما اذا كان المبلغ سيكفيك للاقامة في بروكسل ، ولكنني ارغب في ان اشير الى ان المبلغ الذي سأتلقاه لقاء ذلك العمل الانجليزي سيكون بالطبع تحت تصرفك بكل سرور . على اية حال ، لست بحاجة الى هذا المبلغ لان الرجل العجوز سيقرضني ما احتاج اذا اضطررت الى ذلك . وهكذا على الاقل لن تكون للاوغاد فرصة التمتع بمضايقتك ماليا نتيجة تصرفهم المخزي» . وطيلة جيل كامل ، كان انغلز لا يمل في جهوده الرامية الى الحيلولة دون الاوغاد والمتعة .

كان انغلز ، الذي يبدو في رسائله ايام الشباب خفيف الظل ، ابعد ما يكون عن الطيش . ولقد اثبت «ذلك العمل الانجليزي» الذي يشير اليه انغلز بلا اكتراث قيمته الاصيلة طيلة سبعين عاما . فلقد كان من تلك الكتب التي تصنع حقبة تاريخية ، وكان الوثيقة الاولى للاشتراكية العلمية . وعندما كتب انغلز هذا الكتاب، كان عمره لا يتجاوز الاربعة وعشرين عاما ، وكان ذلك بحد ذاته كافيا ليثير الغبار في أعين الرؤوس الاكاديمية الكبيرة ، لكن موهبة انغلز لم تكن موهبة نمت بسرعة في غرفة مقفلة لتتبخر عندما تتعرض للهواء الطلق . لقد نجمت «حماسته الشابة» عن نار الفكرة العظيمة اللاهبة التي ادفأت ايام شيخوخته مثلما الهمت شبابه .

خلال ذلك ، عاش انغلز «حياة هادئة بكل وقار واحترام» في بيت والديه ، حياة لا بد وانها كانت سترضي اكثر الفلستيين مواظبة . ولكنه سرعان ما ملّها ، ولم يجبره على تجربة التجارة مرة اخرى سوى «وجهي والديه الحزينين» . وفي الربيع قرر ان يترك البيت ويسافر الى بروكسل اولا . وقد اشتدت حدة «متاعبه العائلية» نتيجة الدعاية الشيوعية في البرفلد ــ بارمن التي لعب فيها دورا نشيطا. وفي احدى رسائله الى ماركس يبلغه ان ثلاثة اجتماعات شيوعية عقدت ، حضر اولها اربعون شخصا وحضر الثاني مئة وثلاثون وحضر الثالث مئتان : «يمارس الامر جاذبية كبيرة . وليس هناك من حديث للناس غير الشيوعية ، ونحن نكسب انصارا جددا كل يوم . الشيوعية حقيقة في وبرتال ، بل انها قد اصبحت قوة فعلية» لكن هذه القوة انهارت فيما بعد بناء على طلب بسيط من الشرطة . لقد كان الوضع غريبا بالفعل ، ويقر انغلز ذاته ان البروليتاريا هي وحدها التي ترفعت عن هذه الحركة الشيوعية ، بينما بدأ يتحمس لها أبله الناس وأكسلهم ، اولئك الذين لا يهتمون في العادة الا بأمورهم الشخصية .

لا يكاد كل هذا ينسجم مع ما كتبه انغلز في الوقت ذاته عن آفاق البروليتاريا الانجليزية ، ولكن ذلك هو الرجل : فتى رائع من رأسه الى اخمص قدميه ، متأهب دائما نشيط وبعيد النظر ودؤوب ، ومع ذلك فهو لا يكاد يخلو من لمسة من الطيش المحبب الذي يناسب اكثر ما يناسب الشباب الشجاع المتحمس .

الفصل الخامس

المنفى في بروكسل

١ ـ الايديولوجية الالمانية

ذهب ماركس وعائلته بعد طرده من فرنسا الى بروكسل . وخشي انغلز ان تعمد السلطات في النهاية الى اثارة المتاعب لماركس في بلجيكا ايضا . وفي الواقع جاءت المتاعب في الحال .

يكتب ماركس الى هاينه رسالة بعد وصوله الى بروكسل مباشرة ويخبره ان ادارة الامن العام استدعته لتوقيع تعهد بان لا ينشر اي شيء يتعلق بالسياسة البلجيكية الراهنة . ووافق ماركس على ذلك بضمير مرتاح ، اذ لم يكن لديه لا نية ولا امكانية عمل شيء من هذا القبيل . لكن ماركس تخلى رسميا عن الجنسية البروسية في السنة ذاتها ، وبالتحديد في اول كانون الاول عام ١٨٤٥ ، وذلك بعد ان استمرت الحكومة البروسية في حث السلطات البلجيكية على طرده .

لم يطلب ماركس في ذلك الحين ولا في اي فترة لاحقة جنسية اي بلد اخر، على الرغم من ان الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية منحته في ربيع عام ١٨٤٨ الجنسية الفرنسية بطريقة كان فيها له الشرف كله . لم يكن ماركس مثلما لم يكن هاينه يستطيع ان يفعل شيئا من هذا القبيل ، مع ان فريغارث الذي كان كثيرا ما يوضع قبالتهما كألماني حتى العظم ونقيض لامع لهذين «المتشردين بلا وطن» لم ير ما يحول دونه ودون التجنس بالجنسية الانجليزية عندما نفي الى انجلترا .

وصل انجلز الى بروكسل في ربيع ١٨٤٥ ، وذهب الصديقان معا الى انجلترا ليمكثا هناك ستة اسابيع قضياها في الدراسة . وكان ماركس خلال اقامته في باريس قد بدأ يهتم بماكلوخ وريكاردو ، واستطاع خلال زيارته لانجلترا ان يتمعن بشكل أعمق في الكتابات الاقتصادية في الجزيرة الانجليزية ، على الرغم من انه لم ير في ذلك الحين «غير تلك الكتب المتوفرة في مانشستر» بالاضافة الى المقتطفات والكتابات التي كانت في حوزة انغلز . وكان انغلز خلال اقامته الاولى في انجلترا

قد اسهم في «ذي نيو مورال وورلد» ، صحيفة اوين . وفي «ذي نورثرن ستار»، صحيفة الميثاقيين (الشارطيين) ، فعمد خلال زيارته هذه الى تجديد صداقاته القديمة، وقام مع ماركس باجراء اتصالات كثيرة جديدة مع الميثاقيين والاشتراكيين.

وعندما عاد الصديقان من رحلتهما ، بدآ عملا جديدا مشتركا . يذكر ماركس ذلك قائلا بايجاز «قررنا ان نضع موقفنا المشترك سوية ضد آراء وايديولوجية الفلسفة الالمانية ، وكان ذلك في الواقع محاولة منا لتسوية حساباتنا مع ضميرنا الفلسفي السابق . ففعلنا ذلك على شكل نقد للفلسفة ما بعد الهيغلية . وكانت المخطوطة المكونة من مجلدين كبيرين في يد ناشر من وستفاليا ، عندما اخبرنا بان ظروفا طارئة جعلت نشر المخطوطة مستحيلا ، وحينئذ تخلينا عن مخطوطتنا وتركناها نهبا لنقد الفئران القارص . فعلنا ذلك دون كبير اسف ، فقد حققنا هدفنا الرئيسي ـ لقد توصلنا الى فهم انفسنا» . وفي الواقع وصلت الفئران الى المخطوطة لكن بقاياها تكفي كي تفسر لنا لماذا لم يشعر كاتباها بالأسى للمصيبة التي حلت بها.

لقد اثبتت تسوية حساباتهما الشاملة ، بل والشاملة اكثر مما يجب ، مع برونو باور انها جوزة صلبة يصعب على قرائهما كسرها ، واتى المجلدان الضخمان اللذان يقعان سوية في قرابة ثمانمائة صفحة ليثبتا انهما اكثر صلابة . كان عنوان الكتاب «الايديولوجية الالمانية ، نقد للفلسفة الالمانية الحديثة وممثليها : فويرباخ وبرونو باور وشتيرنر ، ونقد للاشتراكية الالمانية وانبيائها المختلفين» . وقد تحدث انغلز فيما بعد من الذاكرة فقال ان نقد شتيرنر لم يكن اصغر من كتاب شتيرنر الضخم ذاته ولا شك في ان الامثلة التي نشرت منذ ذلك الحين تثبت ان ذاكرة انغلز كانت قوية تماما . ولا يزال هذا الكتاب اكثر سجالية واستطرادا من «العائلة المقدسة» حتى في اكثر فصول هذا الاخير جفافا ، والواحات في صحرائه لا تزال اكثر ندرة ، مع انها ليست مفقودة كلية ، بينما ينحط العمق الجدلي ، عندما يبدي نفسه ، سريعا الى المماحكة ، التي يتسم بعضها بطابع صبياني نوعا ما .

صحيح ان ذوقنا فيما يتعلق بهذه المسائل قد اصبح اليوم اكثر حساسية ، لكن ذلك وحده ليس تفسيرا كافيا ، خاصة وأن ماركس وانغلز اثبتا من قبل واثبتا من بعد ، بل واثبتا في الوقت نفسه انهما قادران على النقد العميق المكثف وأن أسلوبهما يخلو من الاسهاب . لقد كان العامل الحاسم هو ان هذه الصراعات الفكرية حدثت في دائرة ضيقة جدا وأن معظم المتصارعين كانوا صغار السن ، وهذه هي الظاهرة ذاتها التي شهدها التاريخ الادبي في شكسبير ومعاصريه من الدراماتيين : ميل الى ركوب أمواج الكلام حتى الموت ، واعطاء ما يقوله الخصوم معنى غبيا اكثر ما يمكن بالتفسير الادبي او باساءته ، ميل الى المبالغة والتهور في التعبير ـ كل ذلك لم يكن موجها الى عموم الجمهور بل موجها الى الخبراء العارفين . ولا شك في ان الكثير مما لا يمكن هضمه او حتى فهمه اليوم في فكاهة شكسبير ، يمكن تفسيره بان شكسبير كان يتأثر في عمله بوعي او بدون وعي بما سيقوله جرين ومارلو وبن جونسون وفلتشر عنه .

ولربما كان شيء من هذا القبيل هو ما يفسر اللهجة التي تبناها ماركس وانغلز

بوعي أو بدون وعي عندما كانا يتعاملان مع باور وشتيرنر وغيرهما من الرفاق القدماء في فن الرياضة الفكرية المحضة . ولا شك في ان ما كان ماركس وانغلز سيقولانه عن فويرباخ ربما تمخض عن شيء اكثر امتاعا لانه سيكون اكثر من مجرد نقد سلبي محض ، ولكن هذا الجزء من العمل لم يتم لسوء الحظ . ولقد كانت هناك اشارات واضحة الى موقفهما في قول مأثور او اثنين كتبهما ماركس عام ١٨٤٥ ونشرهما انغلز بعد ذلك ببضعة عقود . اذ يشكو ماركس من ان مادية فويرباخ تفتقر الى «مبدأ محرك» تماما مثلما اشتكى ايام دراسته الجامعية من ديمقريط . واعلن ان هذا هو «الضعف الرئيسي في كل الماديات السابقة» : ادراك الاشياء والواقع والحسية على شكل موضوع او فكرة فحسب وليس ذاتيا ، ليس في الممارسة ، ليس في النشاط الانساني الحسي . وبالتالي تطور الجانب الايجابي بفعل المثالية ضد المادية ، ولكن بصورة مجردة فقط لان المثالية بالطبع لم تعرف اي نشاط حسي حقيقي . وبكلمات اخرى عندما تخلى فويرباخ عن هيغل ، فانه انما تخلى عن اكثر مما يجب ، بينما كان من الضروري في الواقع نقل جدليات هيغل الثورية من حيز الفكر الى حيز الحقيقة والواقع .

عندما كان انغلز لا يزال في بارمن ، كتب بجراة الى فويرباخ ليكسبه الى جانب الشيوعية ، فرد هذا بلهجة ودية ولكن بالسلب . وكان فويرباخ يتوقع ان يذهب الى الراينلاند في الصيف ، فقرر انغلز ان يحثه على الذهاب الى بروكسل ، وخلال ذلك ارسل انغلز هيرمن كريغ احد تلامذة فويرباخ الى ماركس واصفا اياه بانه «محرض رائع» .

غير ان فويرباخ لم يذهب الى الراينلاند ، وتبين اعماله اللاحقة ان الاوان قد فات ليتخلص من «قوقعته القديمة» . كذلك فشل تلميذه كريغ ، فقد قام هذا بدعاية شيوعية عبر الاطلنطي ولكنه احدث في نيويورك اذى بالغا انعكست آثاره على الجماعة الشيوعية التي كان ماركس قد بدأ يجمعها حوله في بروكسل .

٢ ـ « الاشتراكية الحقة »

كان القسم الثاني من العمل الذي خطط له ماركس وانغلز سيعالج الاشتراكية الالمانية وانبيائها المختلفين ويحل «ادب الاشتراكية الالمانية العقيم كله» .

كان هذا الهجوم موجها ضد أناس مثل موسى هس وكارل غرون واوتو لونينغ وهيرمان بوتمان وغيرهم ممن خلقوا ادبا محترما خاصة في المجلات . كان هناك «غيلشافتسشبيغل» التي ظهرت شهريا من صيف ١٨٤٥ الى صيف ١٨٤٦ ، و«راينيخه ياربشر» و«دويتشه بورغربوش» اللتين ظهرتا في ١٨٤٥ و١٨٤٦ ، و«وستفالشه دامبغبوت» وهي مجلة شهرية ظهرت اولا في ١٨٤٥ واستمرت خلال الثورة الالمانية . واخيرا كان هناك صحيفة او اثنتان يوميتان مثل « تريرشه تزايتونغ » .

كانت الظاهرة الغريبة التي اسماها كارل غرون «الاشتراكية الحقة» ، وهو تعبير

تبناه ماركس وانغلز فيما بعد بسخرية ، قصيرة العمر . فما ان اتى عام ١٨٤٨ ، حتى لم يبق من آثارها شيء عمليا ، واختفى ما تبقى منها تماما حالما انطلقت اول رصاصة في الثورة . ولم تمارس هذه الاشتراكية اي اثر على تطور ماركس ، الذي كان ناقدها منذ البداية ، لكن الحكم القاسي الذي يصدره عليها في « البيان الشيوعي» لا يلخص موقفه تجاهها . فقد كان في الوقت الذي نحن بصدده يعتبرها خليطا ، يمكن ان ينجم عنه رغم كل سخافاته شيء له قيمته ، بل ان انغلز كان يعتنق هذا الراي بقدر اكبر من الصلابة .

تعاون انغلز مع موسى هس في اصدار «غيلسافتشبيغل» ، كما ان ماركس قدم لها مساهمة واحدة . كذلك تعاون كل من ماركس وانغلز مع هس في مناسبات عديدة خلال فترة بروكسل ، وبدا في وقت ما ان هس قد تبنى افكارهما كليا . وحاول ماركس بلا كلل ان يقنع هاينه بالكتابة في «راينيخه ياربشر» ، في حين نشرت هذه الصحيفة وكذلك «دويتشه بيرغربش» ، اللتين كان يصدرهما بوتمان ، مقالات لانغلز . كما ان ماركس وانغلز قدما مساهمات لـ «وستفاليشه دامبغبوت»، التي نشرت جزءا من القسم الثاني من «الايديولوجية الالمانية» . وكان هذا الجزء نقدا حادا وشاملا لكتاب اصدره كارل غرون وعالج فيه الحركة الاشتراكية في فرنسا وبلجيكا .

لقد ادى كون «الاشتراكية الحقة» نجمت عن انحلال الفلسفة الهيغلية ، الى القول بان ماركس وانغلز كانا في البداية من اتباعها ، وانهما لهذا السبب انتقداها بقدر كبير من الحدة فيما بعد ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد كان الفرق بين ماركس وانغلز من جهة وانصار «الاشتراكية الحقة» من جهة اخرى يكمن في انه على الرغم من ان الجانبين وصلا الى الاشتراكية انطلاقا من هيغل وفويرباخ ، الا ان ماركس وانغلز درسا طبيعة الاشتراكية انطلاقا من الثورة الفرنسية والصناعة الانجليزية ، بينما قنع انصار «الاشتراكية الحقة» بترجمة معادلات وشعارات اشتراكية الى «الالمانية الهيغلية المنحلّة» . وقد حاول ماركس وانغلز ما وسعهما من جهد لرفع «الاشتراكية الحقة» فوق هذا المستوى ، وكانا في الوقت ذاته عادلين بما فيه الكفاية ليدركا ان هذا الاتجاه كله ليس الا نتاجا للتاريخ الالماني . وكان مما يدغدغ غرور غرون واصدقائه ان يقارن تفسيرهم للاشتراكية كتأمل خامل في ادراك السلوك الانساني بان كانط لم يفهم التعبير عن ارادة الثورة الفرنسية الكبرى الا على انه قانون الارادة الانسانية حقا .

لم يكن ماركس وانغلز يفتقران الى الصبر والجلد في جهودهما التعليمية الرامية الى تحسين «الاشتراكية الحقة» . فقد تغاضى انغلز خلال تعاونه مع هس في «غيشافتشبيغل» عن كثير من الامور ، مع ان ذلك لم يكن ليمر بسهولة ، اما في «دويتشه بيرغربش» فقد جعل الامور صعبة لـ «الاشتراكيين الحقين» : «بعض من الانسانية ، كما بدأوا يسمون الامر ، وقليل من الادراك لهذه الانسانية ، او بالاحرى الوحشية ، وقليل عن الملكية ـ بغير الكثير من الاكتراث ـ وبعض النواح البروليتاري، وتنظيم العمل ، وتشكيل جمعيات حقيرة ارفع الطبقات الدنيا ، بالاضافة الى جهل

كامل بالاقتصاد والطبيعة الحقيقية للمجتمع ـ هذا كل ما في الامر ، وحتى عندئذ يفقد الامر كل ما فيه من الحياة وكل اثر بقي لديه من الطاقة والحيوية ، بفضل الحياد النظري و«هدوء الفكر المطلق ، وبهذه المادة المتعبة ، يريدون ان يثوروا المانيا، ويحركوا البروليتاريا ويجعلوا الجماهير تفكر وتعمل !» . كان التقدير للبروليتاريا والجماهير هو ما حدد موقف ماركس وانغلز من «الاشتراكية الحقة» . فهاجما كارل غرون بعنف اكثر مما هاجما ممثلي هذه «الاشتراكية» الاخرين ، لا لانه كان يعطيهما افضل الفرص لذلك فحسب ، بل لانه كان يعيش في باريس مسببا تشوشا بالغا بين العمال وممارسا اثرا مدمرا على برودون . وعندما فصل ماركس وانغلز نفسيهما بحدة عن «الاشتراكية الحقة» في «البيان الشيوعي» ، حتى انهما اشارا بوضوح الى صديقهما السابق موسى هس ، فانهما انما فعلا ذلك لانهما كانا به يفتحان الطريق امام التحريض العملي للبروليتاريا العالمية .

ولربما كان ماركس وانغلز على استعداد لان يصفحا «للاشتراكية الحقـــــة» «سذاجتها المدرسية» ، التي مارست بها «اعمالها البدائية بهذا الجد وذاك الوقار، واخرجتها الى العالم بكثير من الضجيج» ، ولكنهما بالتأكيد لم يكونا ليصفحا عن استعدادها المدّعى لدعم الحكومة . فقد ادعت ان نضال البورجوازية ضد الحكم المطلق والاقطاع قبل اذار يعطيها «الفرصة المبتغاة» لمهاجمة المعارضة الليبرالية في الظهر . «لقد خدمت الحكومات المطلقة الالمانية ، وخدمت اتباعها من الكهنة ومديري المدارس والبيروقراطيين الاجلاف ، اذ لعبت دور غراب ناعق ضد الخطر الذي يمثله تقدم البرجوازية . وشكلت السكر الذي حلّى الصوت المر والطلقات التي اخضعت بها تلك الحكومات ذاتها انتفاضة العمال الالمان» . كان هذا مبالغة كبيرة في الواقع واجحافا بحق الاشخاص المعنيين .

فقد اوضح ماركس ذاته في «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» ان خصوصية الظروف في المانيا جعلت من المستحيل على البرجوازية ان تنتفض ضد الحكومة دون ان تتعرض هي ذاتها الى الهجوم على مؤخرتها من البروليتاريا ، معلنا ان واجب الاشتراكية يصبح لذلك دعم الليبرالية حيث كانت لا تزال ثورية ومعارضتها حيث اصبحت رجعية . غير ان هذا الواجب لم يكن من السهل القيام به بتفاصيله حتى ان ماركس وانغلز نفسهما دافعا احيانا عن الليبرالية على انها لا تزال ثورية بينما كانت قد اصبحت في الواقع رجعية ، بينما اخطأ «الاشتراكيون الحقون» في الاتجـاه المعاكس وشجبوا الليبرالية بكاملها، وكان ذلك بالطبع عملا يتفق مع مصالح الحكومات الالمانية . وكان المخطىء الاكبر في هذا المجال هو كارل غرون ، لكن موسى هس لم يكن مصيبا ، بينما كان اوتو لونينغ الذي كان يحرر «وستفاليشه دامبفبوت» أقلهم خطأ . وعلى اية حال كانت اخطاؤهم بهذا الخصوص نتيجة الغباء والافتقار الـى الحكم الصائب ، ولم تكن ناجمة عن اي رغبة في دعم الحكومات . وفي الثورة التي اصدرت حكم الاعدام على كل اوهامهم ، كانوا جميعا وبلا استثناء علـــى يســـار البرجوازية ، هذا اذا لم نذكر موسى هس الذي قاتل في صفوف الاشتراكيـــة الديمقراطية الالمانية . ولم ينتقل اي من «الاشتراكيين الحقين» الى معسكر الاعداء

وفي هذا المجال سجلوا أنصع سجل من بين كل الاتجاهات الاشتراكية البرجوازية في تلك الايام .

بالاضافة الى ذلك كانوا يكنون عظيم الاحترام لماركس وانغلز ويضعون نشراتهم عن طيب خاطر تحت تصرف الصديقين ، حتى عندما هزمت «الاشتراكية الحقة» شر هزيمة . ومن الواضح انهم لم يخلعوا عنهم جلودهم القديمة نتيجة حقد دفين بل نتيجة افتقار الى الفهم . لكنهم لسوء الحظ كانوا يؤمنون بان الامور يجب ان تسير بهدوء ودونما ضجة ، وكانوا يشعرون ان حزبا شابا لا يستطيع ان يعمد الى الانتقاء وان النقاشات عندما تصبح محتمة يجب ان تجري بكل لياقـــة وذوق . وشعروا على وجه الخصوص ان أناسا مثل باور وروغه وشتيرنر يجب ان يعاملوا باحترام . ولذا كان من الطبيعي ان يثيروا حفيظة ماركس الذي قال مرة : «ان من السمات المميزةلتلك النســوة العجائز انهن يقاتلن علىالدوام لتزيين وتحسين صورةكل الخلافات الحزبية الحقيقية» . غير ان افكار ماركس الصلبة في هذا الموضوع لاقت تفهما هنا وهناك حتى في صفوف «الاشتراكية الحقة» فمثلا اصبح جوزف وايدماير الذي كان قريبا للونينغ بالمصاهرة والذي ساعده في تحرير صحيفته احد أخلص انصار ماركس وانغلز .

كان وايدماير ملازما في سلاح المدفعية البروسي ولكنه ترك العسكرية بسبب معتقداته السياسية . وعمل محررا مساعدا في «تريرشه تزايتونـغ» التي كانت واقعة تحت تأثير كارل غرون ، فوقع في شراك «الاشتراكيين الحقين» . وفي ربيع عام ١٨٤٦ ذهب الى بروكسل . ونحن لا نعلم ما اذا كان قد فعل ذلك كي يقابل ماركس وانغلز . ولكنه على اية حال قابلهما وأصبح بسرعة صديقا لهما ، ووقف بصلابة في وجه جوقة الاحتجاج الذي نشب في صفوف «الاشتراكيين الحقين» على عدم صدق النقد الذي مارسه ماركس وانغلز ، على الرغم من ان عديله لونينغ ساهم في هذا الاحتجاج . ولد وايد ماير في وستفاليا ، فكان له بعض من ذلك السلوك الهادىء بل البطيء ولكن المخلص والجريء الذي يعزوه الناس لابناء بلاده. ولم يصبح ابدا كاتبا ذا موهبة بارزة ، وعندما عاد الى المانيا عمل كمساح في بناء سكة حديد كولون ــ مندن ، في الوقت الذي كان يساعد فيه على تحريـــــر «وستفاليشه دامبفبوت» في أوقات فراغه . وصار وايدماير الان يسعى بشخصيته العملية لمساعدة ماركس وانغلز في مواجهة صعوبة كانت تزداد صعوبتها باستمرار، تلك هي صعوبة الحصول على ناشر .

كانت «لتراليشي كونتور» في زيوريخ مقفلة الابواب امام ماركس وانغلز بسبب الضغينة الذي كان يحملها روغه لهما . وكان هذا الاخير يعرف جيدا ان ماركس لا يكتب شيئا يفتقر الى الجودة ، ولكنه عمليا استخدم التهديد لمنع شريكه فروبل من التعامل مع ماركس . هذا في الوقت الذي كان فيه ويفاند في لايبزيغ ، وهـــو الناشر الرئيسي للهيغليين الشباب ، قد رفض نشر نقد لباور وفويرباخ وشتيرنر. ولذا فتحوايدماير مجالا رحبا عندما اقنع شيوعيين غنيين فيوستفاليا هما يوليوس ماير ورنبل بالموافقة على رصد الاموال اللازمة لتأسيس دار نشر تبدا نشاطاتها بثلاثة

مشاريع : الايديولوجية الالمانية وسلسلة من الكتب للكتّاب الاشتراكيين ومجلة فصلية يحررها ماركس وانغلز وهس .

لكن عندما جد الجد تراجع الراسماليان عن وعدهما على الرغم من انهما كانا في هذه الاثناء قد اكده لموسى هس ، اذ نشأت «صعوبات مالية» في اللحظة المناسبة تماما لشل روح التضحية الذاتية الشيوعية لديهما . كانت النتيجة خيبة امل مريرة لماركس وانغلز زاد من حدتها ان وايدماير فشل في جهوده لنشر الايديولوجية الالمانية في اي مكان اخر ، فتم التخلي عن هذا الكتاب الى الابد ليذهب ضحية لنقد الفئران القارص .

٣ ـ ويتلينغ وبرودون

كانت النقاشات التي ثارت الان بين ماركس والمنظرين البروليتاريين اللامعين ، اللذين كان لهما ابلغ الاثر على تطور ماركس المبكر ، اكثر تأثيرا بما لا يقارن من وجهة النظر الانسانية وأكبر اهمية بكثير من وجهة النظر السياسية من الانتقادات التي وجهها ماركس الى فلاسفة ما بعد هيغل والى «الاشتراكيين الحقيين» .

ولد كل من ويتلينغ وبرودون في صفوف البروليتاريا . وكانا كلاهما يتمتعان بشخصية قوية صحيحة ، كما كانا موهوبين . وبالاضافة الى ذلك واتتهما الظروف الخارجية بشكل كان يمكنهما من ان يكونا من بين تلك الاستثناءات التي تطري ما يردده الجهلة المدّعون من ان الباب الى صفوف الطبقات المالكة مفتوح لمن كان يملك موهبة حقيقية من ابناء الطبقة العاملة . ولكن الرجلين رفضا باحتقار ان يسلكا هذا الطريق ، واختارا الفقر طواعية وكرسا نفسيهما للنضال من اجل طبقتهما والمضطهَدين من رفاقهما .

كان كل منهما ذا بنية قوية صحيحة مملوءة بالحياة ، وكأنهما قد خلقا ليتمتعا بما في الحياة من اشياء جميلة ، لكنهما عوضا عن ذلك اختارا معاناة اقسى صنوف الحرمان بسرور كي يتمكنا من متابعة طريقهما . «سرير متواضع ، واحيانا كثيرة ثلاثة اشخاص في الغرفة ذاتها ، وقطعة مسطحة من الخشب تستخدم كطاولة للكتابة ، وكوب من القهوة السوداء بين الحين والآخر» . كانت هذه هي الحياة التي يعيشها ويتلينغ في وقت كان فيه ذكر اسمه كافيا لبث الهلع في نفوس العظماء في الارض . وكان برودون يعيش في ظروف مشابهة في عليّة في باريس «يلبس معطفا من الصوف وقدماه في قبقاب خشبي» في وقت كان فيه يتمتع بشهرة تعم القارة الاوروبية .

ساهمت الثقافتان الفرنسية والالمانية في تكوين كل من الرجلين . فقد كان ويتلينغ ابنا لضابط فرنسي ، وعندما شب عن الطوق سارع بالذهاب الى باريس ليدرس الاشتراكية الفرنسية من منبعها . اما برودون فكان من مقاطعة بيرغندي الحرة التي ضمتها فرنسا ايام لويس الرابع عشر . وقد اعلن شركاؤه على الدوام

ان لديه رأس المالي ــ واحيانا رأس المالي قاس . ولكن ، وبطريقة او بأخرى ، ما ان استفاق برودون على النشاط الفكري حتى وجد نفسه ينجذب الى الفلسفة الالمانية، التي لم يكن ويتلينغ يعتبر ممثليها اكثر من «مشوشين» ، بينما شجب برودون بقسوة الطوباويين العظام الذين كانوا يعنون الكثير لويتلينغ .

اقتسم الرجلان الشهرة ذاتها والمصير ذاته . فقد كانا اول ابنين من ابناء البروليتاريا الحديثة قدما برهانا تاريخيا على رجاحة فكر البروليتاريا وقوته ، وبرهنا على ان البروليتاريا تستطيع ان تحرر نفسها ، وكانا اول من حطم الدائرة المفرغة التي وجدت البروليتاريا والاشتراكية نفسيهما يدوران فيها . ولذا ، فقد افتتحا ، الى حد ما ، حقبة جديدة ، وكانت اعمالهما نموذجية مارست تأثيرا مثمرا على تطور الاشتراكية العلمية . ولم يمتدح احد بدايات ويتلينغ وبرودون بأكرم مما امتدحها ماركس . فقد رأى ما اعطاه اياه التحليل النقدي للفلسفة الهيغلية وما توصل اليه عبر التفكير التأملي مجسدا في الحياة الحقيقية ببرودون وويتلينغ .

ولكن وعلى الرغم من كل ألمعيتهما وبعد نظرهما ، لم يستطع ويتلينغ ان يتخطى الحرفي الالماني ، كما لم يستطع برودون ان يتخطى البورجوازية الصغيرة الفرنسية، وهكذا سرعان ما افترقا عن الرجل الذي أتم بصورة رائعة ما بدآه . ولم يكن ذلك نتيجة غرور شخصي او دغماتية متصلبة من جانب برودون وويتلينغ ، على الرغم من ان هذين العاملين لعبا بعض الدور عندما اصبحا يشعران ان دفق التطور التاريخي يدفعهما هنا وهناك . ومناقشاتهما مع ماركس تشهد انهما بكل بساطة لم يستطيعا تبين ما كان ماركس يحاول الوصول اليه . لقد كانا ضحية الوعي الطبقي المحدود الذي كان له على الرجلين اكبر الاثر ، خاصة وانه أثر عليهما دون وعي منهما .

وصل ويتلينغ الى بروكسل في بداية عام ١٨٤٦ . فبعد ان وصل التحريض الذي مارسه في سويسرا الى طريق مسدود ، جزئيا بسبب الخلافات الداخلية وجزئيا بسبب القمع الوحشي الذي مارسته السلطات ، غادر ويتلينغ الى لندن ، ولكنه هناك ايضا لم يستطع التوافق مع اعضاء «عصبة العادلين» . وقد ادت جهوده ليخلص نفسه من مصير قاس باللجوء الى الغطرسة النبوية الى زيادة الحال سوءاً على سوء بدلا من ان تؤدي به الى التحسن . وعلى الرغم من ان امواج التحريض الميثاقي (الشارتي) كانت ترتفع صاخبة في انجلترا في ذلك الحين ، الا انه لم يندفع الى خضم حركة الطبقة العاملة الانجليزية ، بل عمد بدلا من ذلك الى تركيز اهتمامه على وضع نظام جديد في الفكر والكلام هادفا الى تأسيس لغة عالمية . وهكذا اندفع دون تقدير للعواقب الى محاولة القيام بمهام لم تكن قدراته ومعرفته تؤهله لها ، ونتيجة لذلك وقع في عزلة فكرية فصلته اكثر فاكثر عن المصدر الحقيقي لقوته ، عن حياة البروليتاريا .

كانت رحلة ويتلينغ الى بروكسل افضل ما كان يستطيع ان يأتيه ، ذلك انه اذا كان هنالك من يستطيع ان ينقذه فكريا فهو ماركس . وقد استقبل ماركس ويتلينغ بحفاوة ، وهذا ما لا يشهد به انغلز وحده بل يشهد به ويتلينغ نفسه ايضا . غير ان اي اتفاق فكري بين الرجلين كان مستحيلا ، وفي اجتماع عقده الشيوعيون في

بروكسل في ٣٠ اذار ١٨٤٦ نشب بينهما خلاف عنيف . ولا شك في ان ويتلينغ ضايق ماركس كثيرا ، كما تشهد على ذلك رسالة ارسلها ماركس الى موسى هس . فقد كانت المفاوضات تجري لتأسيس دار نشر جديدة ، فما كان من ويتلينغ الا ان ألح الى ان ماركس واصدقاءه كانوا يحاولون قطع الصلة بينه وبين «المصدر المالي» لكي يستأثروا لانفسهم «بالترجمات ذات السعر المرتفع» ، لكن ماركس ، حتى بعد ان وقع ما وقع ، فعل كل ما يستطيع لمساعدة ويتلينغ . وقد اعلن موسى هس في رسالة ارسلها لماركس في ٦ ايار ، بناء على ما قاله له ويتلينغ نفسه : «لقد كان من المتوقع ان لا يبلغ بك اعداؤك نحوه حد اقفال حافظة نقودك في وجهه ما دام فيها شيء» . وفي الواقع لم يكن في الحافظة غير القليل .

بعد ذلك ببضعة ايام ، دفع ويتلينغ الامور نحو الشقاق الكامل . فقد كانت الدعاية التي يقوم بها كريغ في اميركا مخيبة لآمال ماركس وانغلز . اذ ان «فولكس تريبون» الاسبوعية التي كان يصدرها كريغ في نيويورك عمدت الى نشر دعاية عاطفية دافقة بطريقة صبيانية ومتعجرفة ، ولم تكن هذه الدعاية تمت بصلة الى المبادىء الشيوعية ، وكانت تميل الى الحط من معنويات الطبقة العاملة . والاسوأ من ذلك ان كريغ بدأ يرسل رسائل غريبة الى اثرياء اميركيين يسألهم فيها مد يد المعونة المالية الى الصحيفة . ولما كان كريغ يقدم نفسه على انه ممثل الشيوعية الالمانية في اميركا ، صار لدى ممثلي هذه الشيوعية الحقيقيين ما يدعوهما الى الاحتجاج على هذا الارتباط الضار .

وفي ١٦ ايار قرر ماركس وانغلز وانصارهما كتابة احتجاج مفصل وارساله الى صحيفة كريغ لنشره ، وفي الوقت ذاته ارساله الى كل المتعاطفين معهم . وكان ويتلينغ هو الوحيد الذي رفض ان يشارك في الاحتجاج ، وسعى الى تبرير موقفه بحجج واهية : «فولكس تريبون» هي في النهاية صحيفة شيوعية وهي مناسبة للظروف الاميركية ، والشيوعيون مجابهون في اوروبا باعداء اقوياء يغنونهم عن البحث عن المتاعب في اميركا وخاصة مع رفاقهم بالذات الخ . لكن ويتلينغ لم يكتف برفضه فحسب ، بل كتب رسالة الى كريغ يحذره من اولئك الذين وقعوا الاحتجاج ويصفهم بأنهم «متآمرون خبثاء» . «ليس للعصبة التي تتمرغ في النقود والتي تتكون من بضعة اشخاص ، من عمل سوى مقارعتي ، انا الرجعي . فعلي ان انقّى اولا ثم ينقى الاخرون ثم اصدقاؤهم ، وفي النهاية لن يجدوا ما يفعلون سوى ان يجزوا رقابهم هم انفسهم ... والآن تتدفق النقود لعمل من هذا النوع ، في حين انني لا اجد حتى ناشرا . وانا وهس وحدنا في هذا الجانب ، ولكن هس يعاني ايضا من المقاطعة» . وبعد ذلك قاطع هس ايضا الرجل المخدوع .

نشر كريغ احتجاج شيوعيي بروكسل ، كما نشره ويدماير في «وستفاليشه دامبفبوت» . لكنه نشر ايضا رسالة ويتلينغ او على الاقل اسوأ اجزائها ، ثم اقنع رابطة الاصلاح الاجتماعي ، وهي منظمة للعمال الالمان في ويتلينغ اختارت صحيفة كريغ ناطقة باسمها ، ان تعين ويتلينغ رئيسا للتحرير وأن ترسل له تكاليف السفر . وافق ويتلينغ واختفى من اوروبا .

وفي الشهر ذاته ، ايار ، اقترب الشقاق بين ماركس وبرودون . فقد كان ماركس واصدقاؤه يعوضون عن افتقارهم الى صحيفة ناطقة باسمهم بطباعة وتوزيع عدد من التعاميم ، كما في حادثة كريغ ، وكانوا في الوقت ذاته يسعون الى اقامة اتصالات دائمة بالمراسلة بين المدن الكبيرة المختلفة التي يوجد فيها جماعات شيوعية. وكان هناك مكتبان للمراسلة ، احدهما في بروكسل والاخر في لندن ، واستقر الراي على انشاء مكتب ثالث في باريس ، ولذا كتب ماركس الى برودون يسأله ان يتعاون في ذلك . وفي ١٧ ايار ١٨٤٦ ارسل برودون رسالة من ليون يوافق فيها على ذلك ، ويوضح في الوقت ذاته انه لن يستطيع الكتابة كثيرا . وفي الرسالة ذاتها القى برودون على ماركس موعظة اخلاقية كشفت لماركس عمق الفجوة التي تفصل بينهما .

تبنى برودون موقفا «معاديا للدغماتية بصورة مطلقة» فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ، ونصح ماركس ان لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه مواطنه لوثر ، الذي بادر بعد الاطاحة باللاهوت الكاثوليكي الى تأسيس لاهوت بروتستانتي مصحوبا بعدد ضخم من قرارات الحرمان . «علينا ان لا نشغل الانسانية من جديد بخلق تشوش جديد . ولنعمد بدلا من ذلك الى ضرب مثل في التسامح الحكيم بعيد النظر . علينا ان لا نلعب دور حواريي دين جديد حتى ولو كان هذا الدين دين العقل والمنطق» . وبكلمات اخرى ، كان برودون ، مثل «الاشتراكيين الحقين» يريد الابقاء على التشوش السار الذي اعتبر ماركس ان الغاءه شرط اولي لاي دعاية شيوعية حقيقية .

كذلك تخلى برودون عن الثورة التي طالما آمن بها : «افضل ان احرق الملكية بنار بطيئة عوضا عن اعطائها قوة جديدة بمذبحة للملاك» . وأعلن انه اعطى تفسيرا مفصلا لكيفية حل هذه المسألة في كتاب يجري طبعه ووعد ان يضع هذا الكتاب بسرور في متناول نقد ماركس كي يعطيه فرصة الانتقام. «وبالمناسبة اود ان ابدي ملاحظة هي ان الوضع في رأيي كالتالي : عطش البروليتاريين في فرنسا للمعرفة عظيم ، ولا شك في ان استقبالنا من جانبهم سيكون سيئا اذا لم نقدم لهم ما يشربون سوى الدم» . ثم ينتقل برودون الى الدفاع عن كارل غرون الذي كان ماركس قد حذره من هيغليته المشوهة . وقد كان برودون لجهله باللغة الالمانية يعتمد على غرون وايوربك في دراساته لهيغل وفويرباخ وماركس وانغلز . وأخبر برودون ماركس ان غرون ينوي ترجمة كتاب برودون الاخير الى الالمانية ، وطلب من ماركس ان يساعد في توزيعه ، مضيفا ان ذلك سيكون مشرفا لكل من له علاقة بالامر .

تكاد نهاية رسالة برودون تبدو هزءاً وسخرية على الرغم من انها ربما لم تكن مقصودة ، لكن ماركس على اية حال لم يكن ليجد ما يسره في ان يوصف بأنه متعطش للدماء بالكلام المزدهي الذي وصفه به برودون ، وبالتالي اثارت فيه اعمال غرون قدرا اكبر من الشك . كان هذا احد الاسباب التي دعت انغلز الى اتخاذ قرار بالذهاب الى باريس في آب ١٨٤٦ ، ذلك ان باريس كانت لا تزال اهم مركز للدعاية الشيوعية . وكان من الضروري اخبار شيوعيي باريس مباشرة بالشقاق مع ويتلينغ وبمهزلة دار النشر في وستفاليا وغير ذلك من المسائل التي اثارت غبار الشك ،

خاصة وأن ايوربك كان غير موثوق وبيرنز أقل جدارة بالثقة .

كانت التقارير التي ارسلها انغلز من باريس ، بعضها الى مكتب المراسلة في بروكسل وبعضها الاخر الى ماركس شخصيا ، تبدو متفائلة في البداية ، ولكنه تدريجيا وصل الى نتيجة هي ان غرون قد أفسد الوضع كله .

ظهر العمل الذي يذكره برودون في رسالته في خريف السنة ذاتها ، وأدى في الواقع ببرودون الى المستنقع ، كما كانت تشير الى ذلك رسالته . فما كان من ماركس الا ان باشر بشحذ سيف نقده تماما كما دعاه برودون ، لكن كل الانتقام الذي تلقاه برودون كان الى حد ما سبابا مباشرا .

٤ ـ المادية التاريخية

وضع برودون عنوانا لكتابه «نظام التناقضات الاقتصادية» ، ووضع له عنوانا فرعيا هو «فلسفة البؤس» ، ولذا وضع ماركس عنوانا لرده هو «بؤس الفلسفة» وكتبه بالفرنسية ليصيب خصمه اصابة محققة . لكن ماركس في الواقع لم ينجح . ذلك ان تأثير برودون على الطبقة العاملة الفرنسية وعلى بروليتاريي البلدان اللاتينية الجديدة ارتفع بدلا من ان يهبط ، فكان على ماركس ان يقوم لعدة عقود قادمة بمناهضة البرودونية .

لكن ذلك لم يقلل بشيء لا من القيمة المباشرة لرد ماركس ولا من اهميته التاريخية . فقد شكل الرد علامة بارزة في حياة مؤلفه وفي تاريخ العلم الاجتماعي. ففي هذا الكتاب ، طورت لاول مرة علميا العوامل الحاسمة في المادية التاريخية ، ففي كتابات ماركس قبل ذلك نجد هذه الافكار تلمع هنا وهناك كشهب معزولة ، وفي كتاباته بعد ذلك جمع ماركس هذه الافكار في شكل مكثف موجز ، ولكنه في رده على برودون طورها منهجيا بكل الوضوح المقنع الذي يتطلبه السجال المنتصر . لقد كانت اعظم خدمة أداها ماركس هي تطوير المادية التاريخية ، فقد كانت هذه بالنسبة للعلوم التاريخية ما كانته نظريات داروين بالنسبة للعلوم الطبيعية .

كانت لانغلز حصة في هذا العمل . وكانت هذه الحصة إكبر مما يسمح له تواضعه ان يعترف به ، ولكنه يعزو وضع الفكرة الاساسية في صورتها الكلاسيكية الى ماركس وماركس وحده ، ولربما كان على حق في ذلك . وهو يصف كيف ذهب الى بروكسل في ربيع ١٨٤٥ ، وكيف وضع ماركس حينذاك الفكرة الاساسية للمادية التاريخية أمامه بشكلها النهائي المطور ، بالتحديد ان الانتاج الاقتصادي في كل فترة تاريخية والبنية الاجتماعية التي تنمو عنه بالضرورة هما ما يشكل اساس التاريخ السياسي والفكري لتلك الفترة ، ونتيجة لذلك ، فان التاريخ كله انما كان تاريخ صراعات طبقية، صراعات بين المستغِلين والمستغَلين، بين المحكومين والطبقات الحاكمة في المراحل المختلفة عن التطور الاجتماعي ، وأن هذه الصراعات قد وصلت الان مرحلة لم تعد فيها الطبقة المستغَلة والمضطهدة ، وهي البروليتاريا ، تستطيع

تحرير نفسها من الطبقة المستغِلة والمضطهدة ، البورجوازية ، الا بتحرير المجتمع كله في الوقت ذاته من الاستغلال والاضطهاد .

هذه هي الفكرة الاساسية في رد ماركس على برودون ، والبؤرة التي تشع منها آلاف من خيوط الضوء . وأسلوب الرد واضح وقاطع بشكل رائع ، يناقض بقوة الاستطراد الذي يرهق قارىء المساجلات مع برونو باور وماكس شتيرنر . فهذه المرة ، لا يدفع المركب ويجر عبر مستنقع موحل ، بل يسير حثيثا في بحر مفتوح والنسمات الفتية تملأ أشرعته .

يقسم الكتاب الى قسمين . ويقول لاسال ان ماركس يبدو في اولهما ريكاردو وقد تحول الى اشتراكي ، ويبدو في ثانيهما هيغل وقد تحول الى شيوعي . كان ريكاردو قد اثبت ان تبادل السلع يتم في المجتمع الراسمالي على اساس وقت العمل الذي استهلك في صناعة هذه السلع . وطالب برودون بأن «تشكل هذه القيمة» بحيث يتم تبادل نتاج منتج ما مع نتاج منتج اخر يحتوي على الكمية ذاتها من وقت العمل ، ويتم اصلاح المجتمع بأن يتحول كل افراده الى عمال يتبادلون كميات متماثلة من العمل . وكان الاشتراكيون الانجليز قد استخلصوا هذه النتيجة «المساواتية» من نظرية ريكاردو ، وحاولوا وضعها موضع الممارسة ، لكن «المصارف التبادلية» التي اقاموها سرعان ما اندثرت .

وهنا اوضح ماركس ان «النظرية الثورية» التي ظن برودون انه اكتشفها لتحرير البروليتاريا ، ليست في الواقع سوى معادلة عبودية الطبقة العاملة الحديثة . ذلك ان ريكاردو طور منطقيا قانونه في الاجور على اساس قانونه في القيمة : ان قيمة قوة العمل في سلعة ما يتحدد بكمية الوقت الضروري للحصول على المنتجات التي يحتاجها العامل ليحيا هو ذاته وليخلد نوعه . انه لوهم بورجوازي ان يتخيل المرء تبادلا فرديا دون تناقضات طبقية ، او ان يفترض في المجتمع البورجوازي امكانية نشوء حالة من العدالة الابدية والانسجام لا تمكن احدا من الاثراء على حساب الاخرين .

ويصف ماركس التطور الحقيقي للأمور بالكلمات التالية : «مع بداية الحضارة ، يبدأ الانتاج في اقامة نفسه على نقيض الوظيفة والوضع الاجتماعي والطبقة ، وفي النهاية على نقيض العمل المتراكم والمباشر . وبدون النقيض لا يمكن ان يكون هناك تقدم ، ولقد ادركت الحضارة هذا القانون حتى يومنا هذا . وحتى الان ، طورت قوى الانتاج على اساس سيطرة التناقضات الطبقية هذه» . ظن برودون بنظريته في «القيمة المكوّنة» انه يؤمن للعامل النتاج المتزايد للعمل اليومي الناجم عن تقدم العمل الاجتماعي ، لكن ماركس اوضح ان تطور قوى الانتاج ، الذي سمح للعمال الانجليز ان ينتجوا في ١٨٤٠ ما يعادل سبعة وعشرين مرة اكثر مما كانوا ينتجون في ١٧٧٠ ، اعتمد على ظروف تاريخية قائمة على التناقضات الطبقية : تراكم رأس المال الخاص والتقسيم الحديث للعمل والتنافس الفوضوي ونظام الاجر . ولانتاج العمل الفائض ، لا بد ان تكون هناك طبقة تربح واخرى تخسر .

وقدم برودون الذهب والفضة كأول مثلين على «القيمة المكونة» ، معلنا انهما اصبحا نقودا نتيجة تكريسهما الحر على ايدي رجال احرار . فأجاب ماركس ،

كلا اطلاقا . ليست النقود شيئا بحد ذاتها ، بل هي علاقة اجتماعية وهي كالتبادل الفردي تعكس نمطا معينا محددا من الانتاج . «في الواقع ، انه لا بد من جهل مطبق بالتاريخ كي لا يعرف المرء ان الحكام ذوي السيادة كانوا مجبرين في كل الاوقات على الخضوع للشروط الاقتصادية ، وأنهم لم يستطيعوا ابدا املاء قوانين على هذه الشروط ولا يفعل التشريع المدني والسياسي شيئا غير ادراك وترسيم ارادة الشروط الاقتصادية ... ان القانون ليس الا ادراك الحقيقة» . والخاتم الرسمي على النقود يعطيها وزنها ، ولا يعطيها قيمتها . والذهب والفضة ، بسبب من الدور الذي يلعبانه كعلامة للقيمة ، هما الوحيدان من بين كل السلع اللذان لا يتحددان بكلفة انتاجهما ، واللذان أمكن استبدالهما في التبادل بالعملة الورقية ، كما اوضح ريكاردو منذ زمن بعيد .

وأشار ماركس اشارة طفيفة الى الهدف النهائي للشيوعية عندما اوضح ان «التوازن الصحيح بين العرض والطلب» الذي يبحث عنه برودون لم يكن ممكنا الا في الاوقات التي كانت فيها وسائل الانتاج محدودة ، عندما كان التبادل يحدث ضمن حدود ضيقة ، عندما كان الطلب يحكم العرض والاستهلاك يحكم الانتاج . ومع تطور الصناعة الكبيرة اصبح ذلك مستحيلا ، لان هذه الصناعة مضطرة بحكم ادواتها وحدها الى ان تنتج بكميات متزايدة باطراد دون انتظار الطلب ، ولذا فانها لا بد ان تتعرض بالضرورة المحتومة وبتتابع دائم لمراحل من الازدهار والهبوط ، الازمات والركود ، ثم الازدهار من جديد وهكذا . «في مجتمع اليوم ، في الصناعة القائمة على التبادل الفردي ، تشكل الفوضى الانتاجية ، التي هي مصدر الكثير من الشرور ، في الوقت ذاته سبب كل تقدم . لذا فان الاختيارات المتاحة هي : ان يناضل المرء للحصول على النسب الصحيحة التي حصلت في القرون الماضية بوسائل الانتاج الموجودة في عصرنا ، وفي هذه الحالة يكون المرء رجعيا وطوباويا في آن معا ، او ان يناضل المرء من اجل التقدم دون الفوضى ، وفي هذه الحالة يتعين عليه ان يتخلى عن التبادل الفردي للحفاظ على القوى الانتاجية » .

يرتدي الفصل الثاني من رد ماركس على برودون اهمية اكبر من الفصل الاول. فهو في الفصل الاول يعالج ريكاردو دون أن يصل الى حد الموضوعية العلمية الكاملة تجاهه ، فهو مثلا لا يزال يقبل قانون ريكاردو في الاجور دون تحفظ . ولكنه في الفصل الثاني يعالج هيغل ، وهنا يتخذ موقفا مستقلا تماما . كان برودون قد أساء فهم طريقة هيغل الجدلية تماما . فتمسك بتلك المناحي فيها التي اصبحت رجعية تماما ، مثل ان عالم الحقيقة مشتق من عالم الافكار ، بينما رفض المنحى الثوري : النشاط الذاتي للفكرة الذي يكون الموضوعة والنقيض معا لكي يكوّن بالصراع تلك الوحدة الاعلى التي تحافظ على المحتوى الحقيقي لكليهما بحل شكلها المتناقض . وهو يميز بين جانب حسن وجانب سيء في كل مقولة اقتصادية ، ثم يسعى الى تأليف ، الى معادلة علمية تحتوي الجانب الحسن وتدمر الجانب السيء. ويلاحظ أن الجانب الحسن هو ما يؤكد عليه الاقتصاديون البورجوازيون والجانب السيء هو ما يشجبه الاشتراكيون . وكان يظن انه بمعادلاته وتآليفه يرفع نفسه

فوق الاقتصاديين البورجوازيين وفوق الاشتراكيين معا .

يجيب ماركس على هذا الادعاء بالكلمات التالية : « يطري السيد برودون نفسه على أساس انه إنتقد علم الاقتصاد والشيوعية معا ، ولكنه في الواقع بقي أدنى من كليهما بكثير : أدنى من الاقتصادي لانه كفيلسوف في جيبه معادلة سحرية يتخيل انه اغنى نفسه عناء ضرورة الخوض في التفاصيل الاقتصادية ، وأدنى من الاشتراكي، لانه لا يملك لا البصيرة الكافية ولا الشجاعة الكافية ليرفع نفسه ، حتى تأمليا ، فوق الافق البورجوازي . انه يطمح الى أن يكون التأليف ولكنه في الواقع ليس غير خطأ مركبا . انه يرغب في الارتفاع فوق البروليتاري والبورجوازي معا كرجل علم ، ولكنه في الواقع ليس الا بورجوازيا صغيرا يتقاذف تارة هنا وطورا هناك بين العمل وراس المال ، بين علم الاقتصاد وبين الاشتراكية » . غير ان المرء يجب ان لا يخلط هنا بين البورجوازي الصغير وبين الجاهل المدعي ، ذلك ان ماركس كان دوما يعتبر برودون رجلا قادرا ، لا يستطيع لسوء الحظ ان يتخطى حدود المجتمع البورجوازي الصغير .

لم يكن صعبا على ماركس ان يكشف عن عيب الطرق التي تبناها برودون : اذا فصل المرء العملية الجدلية الى جانب حسن وجانب سيء ، ووضع المقولة الاولى كضد للثانية ، فان الفكرة تصبح اذ ذاك مفتقرة الى أية حياة : انها لا تعود حينئذ قادرة على العمل ، لا تعود قادرة على تأليف الموضوعة والنقيض . وكان ماركس كتلميذ لهيغل ثقة واعيا كل الوعي لكون الجانب السيء الذي كان برودون يتحرق رغبة في ا لقضاء عليه ، هو بالتحديد الجانب الذي يصنع التاريخ بانتاج الصراع . فلو جرب المرء ان يبقي على المناحي الافضل في الاقطاعية : الحياة الابوية في البلدان وازدهار الصناعة البيتية الريفية وتطور الحرف اليدوية المدينية ، وسعى في الوقت ذاته الى القضاء على كل ما يلقي على الصورة بظل : القنانة والامتيازات والفوضى ، لأدى ذلك الى محو كل ما من شأنه ان ينتج الصراع ، ولاختنقت البورجوازية في مهدها . وبذلك يكون المرء قد اتخذ لنفسه دورا غريبا ، ذلك هو دور خصي التاريخ .

واعطى ماركس الصياغة الصحيحة للمسألة بالكلمات التالية : « اذا اراد المرء أن يقيم الانتاج الاقطاعي تقييما صحيحا ، لوجب عليه أن يعتبره نمطا من انماط الإنتاج قائما على التناقض . وعليه أن يبين كيف تنتج الثروات ضمن هذا التناقض ، وكيف تطورت قوى الانتاج مع صراع الطبقات في الوقت ذاته ، وكيف ان واحدة من هذه الطبقات ، هي الجانب السيء والشر الاجتماعي ، نمت بلا توقف حتى نضجت الشروط المادية لتحررها » . ثم أوضح ماركس عملية التطور التاريخية ذاتها فيما يتعلق بالبرجوازية . فقال ان علاقات الانتاج التي تتحرك البرجوازية ضمنها ليس لها طابع بسيط ومنتظم ، بل طابع مزدوج : فالتعاسة تنتج في ظل الظروف ذاتها التي تنتج ضمنها الثروات ، وكما تتطور البرجوازية كذلك تتطور البروليتاريا الى الدرجة ذاتها ، ونتيجة لذلك ينشأ الصراع بين الطبقتين . والاقتصاديون هم منظرو البرجوازية ، بينما الشيوعيون والاشتراكيون هم منظرو البروليتاريا . وهؤلاء

الاخيرون طوباويون ، يضعون نظما ويسعون الى علم شاف يفي بحاجات الطبقات المضطهدة ، وذلك طالما لم تتطور البروليتاريا بما فيه الكفاية لتشكل من نفسها طبقة، وطالما ان قوى الانتاج في المجتمع البرجوازي لم تتطور بما فيه الكفاية لتكشف الشروط المادية الضرورية لانعتاق البروليتاريا وبناء مجتمع جديد . « ولكن الى الحد الذي يتقدم به التاريخ ، ومعه صراع البروليتاريا ، لا يعود من الضروري لهم أن يسعوا الى العلم في رؤوسهم . فكل ما يحتاجونه هو أن يتبينوا لانفسهم ما الذي يجري أمام اعينهم ، ويجعلوا من انفسهم ادواته . وما داموا يسعون الى العلم في رؤوسهم ويضعون نظما ، فسيبقون في بداية صراعهم الطبقي فقط ، فلا يرون في التعاسة غير التعاسة ويفشلون في ادراك الجانب الثوري للتعاسة ، ذلك الجانب الذي سيطيح بالنظام القديم . من هذه اللحظة ، يصبح العلم النتاج الواعي للحركة التاريخية ، ويكف عن ان يكون عقديا دوغماتيا ويصبح ثوريا » .

ويعتبر ماركس ان المقولات الاقتصادية ليست الا التعبير الاقتصادي عن العلاقات الاجتماعية وتجريدا لها : « ان العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بقوى الانتاج . فعندما يتوصل الجنس البشري الى قوى انتاج جديدة ، فانه يبدل نمط انتاجه ، ومع تبديله للطريقة التي يحصل بها على عيشه ، يبدل كل علاقاته الاجتماعية ... ولكن الناس ذاتهم الذين يشكلون علاقاتهم الاجتماعية طبقا لنمط انتاجهم المادي ، يشكلون ايضا مبادئهم وافكارهم ومقولاتهم طبقا لعلاقاتهم الاجتماعية » . ويقارن ماركس الاقتصاديين البرجوازيين الذين يتحدثون عن « المؤسسات الابدية والطبيعية » للمجتمع البرجوازي باولئك الاورثوذكسيين من علماء اللاهوت الذين يعتبرون دينهم كشفا من الله ويعتبرون كل الاديان الاخرى اختراعات من صنع البشر .

كشف ماركس عطل طرائق برودون على أساس عدد من الانماط الاقتصادية التي جرب برودون طرائقه عليها : تقسيم العمل والآلات ، التنافس والاحتكار ، ملكية الارض والاجارة ، الاضرابات ومنظمات العمال ، فقال ان تقسيم العمل لم يكن مقولة اقتصادية ، كما افترض برودون ، بل مقولة تاريخية اتخذت اشكالا مختلفة في فترات مختلفة من التاريخ . والاقتصاد البرجوازي يقول أن المصنع هو شرط وجود تقسيم العمل ، لكن المصنع لم ينشأ ، كما افترض برودون ، نتيجة اتفاق ودي بين العمال ، ولم ينشأ في حضن نقابات اصحاب العمل القديمة . فقد أصبح التاجر ، وليس رئيس النقابة ، رئيسا للمشغل الحديث .

وهكذا فان التنافس والاحتكار ليسا مقولتين طبيعيتين بل تاريخيتين . والتنافس ليس الحماسة الصناعية بل الحماسة التجارية . وهو لا يهتم بالسلعة بل بالربح ، كما انه ليس صفة ضرورية ملازمة للروح الانسانية ، كما افترض برودون ، بل هو نتيجة لضرورة تاريخية نشأت في القرن الثامن عشر ويمكن لها ان تختفي في القرن التاسع عشر لاسباب تاريخية .

وفكرة برودون أنه ليس للملكية العقارية اصل تاريخي ، وانها تقوم على اعتبارات سيكولوجية وخلقية لا تمت الى انتاج الثروة الا بصلة بعيدة ، وان ايجار

الارض يجب ان يربط الانسان ربطا اوثق بالطبيعة ، لا تقل خطأ عن سابقاتها . « لقد تطورت الملكية تطورا مختلفا في كل فترة وفي ظل علاقات اجتماعية مختلفة تماما . ولذا فان تفسير الملكية البرجوازية لا يعني اكثر من تفسير كل العلاقات الاجتماعية للانتاج البرجوازي . اما تفسير الملكية كعلاقة مستقلة فليس اكثر من وهم ميتافيزيقي أو حقوقي » . وقد نشأت أجرة الارض ـ فائض ثمن الناتج الزراعي عن كلفة الانتاج، بما في ذلك الوتيرة السائدة للربح على راس المال وكذلك الفائدة على راس المال ـ في ظل علاقات اجتماعية محددة ، ولم يكن ممكنا ان تنشأ الا في ظل هذه العلاقات المحددة . انها ملكية الارض في شكلها البرجوازي ، انها الملكية الاقطاعية وقد خضعت لشروط الانتاج البرجوازي .

وفي النهاية يفسر ماركس الاهمية التاريخية للاضرابات والنقابات ، وكلاهما قد رفضه برودون . فقال انه على الرغم من ان الاقتصاديين والاشتراكيين قد يحذرون العمال ، ربما لاسباب متعارضة ، من استعمال اسلحة كهذه ، الا ان الاضرابات والنقابات ستتطور بموازاة تطور الصناعة الكبيرة . فمع ان العمال منقسمون في مصالحهم بفعل التنافس ، الا أن لهم مع ذلك مصلحة مشتركة في الحفاظ على اجورهم . وقد أدت بهم فكرة المقاومة التي يشتركون فيها جميعا ، الى اتحادهم في نقابات تحتوي كل عناصر نضال مقبل ، تماما كما بدأت البرجوازية باتحادات قطاعية ضد اللوردات الاقطاعيين ، ثم شكلت نفسها فيما بعد كطبقة ، وحولت كطبقة مكتملة المجتمع الاقطاعي الى مجتمع برجوازي .

والتناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا هو صراع طبقة ضد أخرى ، صراع يعني ، اذا رفع الى تعبيره الاعلى ، ثورة كاملة . والحركة الاجتماعية لا تستثني الحركة السياسية لانه ليست هناك حركة سياسية ليست هي في الوقت ذاته حركة اجتماعية . ولن يكف التطور الاجتماعي عن كونه ثورة سياسية الا في مجتمع ليست فيه طبقات ، ولكن حتى ذلك الحين ، ستكون الكلمة الاخيرة للعلم الاجتماعي عشية كل التحولات الاجتماعية العامة هي : « النصر او الموت ! حرب دامية او لا شيء ! هذا هو الشكل القاسي الذي تطرح المسألة نفسها فيه » . وقد استخدم ماركس هذا المقتطف من جورج صاند لينهي به رده على برودون .

في هذا الكتاب ، طور ماركس المادية التاريخية من عدة زوايا عظيمة الاهمية . وفي الوقت ذاته سوى حساباته بصورة نهائية مع الفلسفة الالمانية . فقد تخطى فويرباخ بالعودة الى هيغل . ولا شك في أن المدرسة الهيغلية الرسمية كانت قد افلست تماما . فقد حطت من قدر الطريقة الديالكتيكية (الجدلية) التي وضعها معلمها لتصبح مجرد معادلة تطبق على كل شيء وعلى كل الناس ، وكثيرا ما يكون تطبيقها فظا . حتى ان المرء أصبح يستطيع القول ان هؤلاء الهيغليين لا يعرفون شيئا ويكتبون عن كل شيء ، وقد قيل هذا فيهم بالفعل .

وقد حانت ساعة هؤلاء عندما تحدى فويرباخ مفهوم التأمل ، فتغلب المحتوى الايجابي للعلم مرة أخرى على جانبه الشكلي . ولكن مادية فويرباخ كانت تفتقر الى « مبدأ محرك » فظلت علما طبيعيا نقيا واستثنت كل العملية التاريخية . ولم يكن

هذا كافيا بالنسبة لماركس . وقد بان كم كان ماركس على حق عندما ظهر دعاة هذه المادية المشائين ، بوشنر وفوخت ، على المسرح . فقد دفعت طرقهم الضيقة الافق فويرباخ نفسه الى الاحتجاج ، مع انه ربما كان يوافق على مادية كهذه من خلف ستار ، ولكنه لم يكن ليوافق عليها مواجهة . او لنستعمل مقارنة قام بها انغلز : « ان عربة الحس البرجوازي تتجنب في العادة الهوة التي تفصل الجوهر عن المظهر والسبب عن الاثر ، ولكن اذا كان المرء يريد الخروج للصيد في أرض الفكر المجرد الوعرة ، فان عليه ان لا يستعمل عربة تجرها الخيل » .

لكن الهيغليين لم يكونوا هيغل . وهم قد يبدون جهلهم ، ولكن هيغل كان من أفضل العقول في كل الاوقات . فقد كان لطريقته في التفكير اهمية تاريخية اكبر من الاهمية التي يتمتع بها فكر اي من الفلاسفة الآخرين ، وهذه الاهمية هي التي سمحت له بالوصول الى تصور رائع للتاريخ ، على الرغم من ان هذا التصور كان تصورا ايديولوجيا تماما يرى الاشياء في مرآة مقعرة ، اذا صح القول ، وينظر الى التاريخ العالمي على أنه ليس اكثر من المثال العملي على تطور الفكر . ولم ينجح فويرباخ في التصدي لهذا المحتوى الحقيقي للفلسفة الهيغلية ، اما الهيغليون الاورثوذكسيون فقد تخلوا عنه .

أخذ ماركس هذا المحتوى عن جديد ، ولكنه قلبه ، فلم يعد يبدأ من « الفكرة المحض » ، ولكن من حقائق الواقع القاسية . فاعطى بذلك للمادية الطريقة الجدلية التاريخية ، كما اعطاها « مبدأ محركا » لم يسع فحسب الى تفسير المجتمع بل وايضا الى تحويله .

٥ ـ « دويتشه بروسلر تزايتونغ »

وجد ماركس ناشرين لرده على برودون في بروكسل وفي باريس ، ولكن على الرغم من ان الرد لم يكن طويلا ، الا انه كان على ماركس ان يدفع تكاليف الطباعة . وعندما ظهر الكتاب في منتصف صيف ١٨٤٧ ، كان لماركس في « دوتيشه بروسلر تزايتونغ » صحيفة اعطته فرصة وضع آرائه امام الجمهور .

كان ادالبرت فون بورنشتدت قد بدأ ينشر هذه الصحيفة مرتين في الاسبوع منذ بداية العام . وكان بورنشتدت يحرر سابقا صحيفة « فوروارتز » في باريس ، تلك الصحيفة التي كانت تتلقى اموالا من كل من الحكومتين النمسوية والبروسية، وهذه حقيقة أثبتتها بما لا يقبل الدحض وثائق في ملفات برلين وفينا ، لكن النقطة الوحيدة التي ليست واضحة هي ما اذا كان بورنشتدت قد استمر في عمله التجسسي في بروكسل . وقد كان هناك قدر معين من الشك فيه ، ولكن هذا الشك تبخر عندما شجب السفير البروسي الصحيفة للسلطات البلجيكية . وبالطبع، يمكن ان لا يكون هذا الشجب اكثر من ذر للرماد في عيون العناصر الثورية التي تجمعت في بروكسل ، ومحاولة لاعلاء سمعة برونشتدت في صفوفها ، وعلى أية

حال . لم يكن حماة العرش والمذبح ليتورعون في أي وقت من الاوقات عن اختيار أي وسيلة للوصول الى أهدافهم الرفيعة .

على أية حال ، لم يعتقد ماركس أن برونشتدت خائن . فقد كان يقول ان « دوتيشه بروسلر تزايتونغ » تقوم رغم كل نقاط ضعفها بعمل جيد ، أما اولئك الذين يعتقدون انها ليست جيدة كفاية ، فان عليهم ان يعملوا لتحسينها ، لا ان يختبئوا وراء عذر واه هو ان الشك يحوم حول اسم برونشتدت . ونجد ماركس يكتب الى هيرويغ في ٨ آب قائلا : «اما ان الرجل ليس جيدا ، او ربما هي المرأة ، او الاتجاه او الاسلوب او الحجم ، او ان التوزيع يتضمن قدرا من الخطر ... ان في جيوب المانيا آلافا من الكلمات الحكيمة يستطيعون في كل وقت ان يخرجوها ليبرهنوا على انه يتعين عليهم مرة اخرى ان يدعوا فرصة تمر دون ان يستثمروها . فالفرصة لعمل شيء لا تعدو كونها بالنسبة لهم مصدر احراج » . ثم يتنهد ماركس من أن مخطوطاته تعاني المصير ذاته الذي تعانيه « دويتشه بروسلر تزايتونغ » وينتهي الى كيل اللعنات الحادة على الحمير الذين انبوه لانه فضل ان يكتب بالفرنسية على ان لا يكتب اطلاقا .

وحتى لو افترضنا ان ماركس استخف بالشك الذي يحوم حول برونشتدت كي لا « يدع فرصة تمر دون ان يستثمرها » ، فان من الصعب لومه على ذلك ، لان الفرصة كانت مواتية حقا ، ولانه كان من الغباء ان تترك لتمر لمجرد الشبهة . في ربيع ١٨٤٧ ، اجبرت حاجات مالية ملحة ملك بروسيا على دعوة المجلس الموحد ، وهو تجمع لمجالس المقاطعات ، اي هيئة اقطاعية منظمة على أسس مركزية تشاركية كتلك التي دعاها لويس السادس عشر للانعقاد في ربيع ١٧٨٩ في ظل ظروف قاهرة خارجية مشابهة . ولم تكن المسائل قد تطورت في بروسيا بالسرعة التي كانت قد تطورت بها سابقا في فرنسا ، ولكن المجلس الموحد احتفظ بخزائنه مقفلة اقفالا محكما وابلغ الحكومة بصراحة انه لن يصوت على اية نقود حتى تتسع سلطاته وعلى الاخص حتى يصدر ضمان بأنه سيدعى الى الانعقاد دوريا . وبهذا بدأت الامور تتحرك ، ذلك أن ضائقة الحكومة المالية كانت ملحة حقا . وكان لا بد ان تبدأ الرقصة من جديد عاجلا أم آجلا ، ولذا فكلما بدأت الموسيقى بالعزف في وقت اقرب كلما كان ذلك افضل .

كانت هذه هي الفكرة التي تخللت مساهمات ماركس وانغلز في « دويتشه بروسلر تزايتونغ » . عالجت مقالة نشرت دون توقيع ، ولكن اسلوبها يدل على أن انغلز هو كاتبها ، مناقشات المجلس الموحد حول التجارة الحرة وتعرفة الحماية . وفي ذلك الحين ، كان انغلز مقتنعا تمام الاقتناع ان البرجوازية الالمانية بحاجة الى تعرفة الحماية لتحمي نفسها ضد منافسة الصناعة الاجنبية ، ولتعطي نفسها فرصة توليد قوة كافية للتغلب على الاقطاع والحكم المطلق . ولهذا السبب ، وله وحده ، أشار انغلز على البروليتاريا أن تعضد التحريض من اجل تعرفة الحماية . وفي رأي انغلز ، ان ليست ، منظر تعرفة الحماية ، انتج افضل كتابات اقتصادية المانية ، على الرغم من انه أعلن أن أفضل كتابات ليست قد كتبه في الحقيقة فيرييه الفرنسي،

منظّر النظام القاري للتجارة . كذلك حذر انغلز العمال من ان ينخدعوا بالجمل التي يطلقها دعاة الحماية ودعاة التجارة الحرة حـول « رفاه الطبقات العاملة » معلنا أن هذه الجمل ليست الا ستارا واهيا يستخدمه هؤلاء لتغطية التحريض الذي يهدف الى حماية مصالحهم ، وقال ان اجور العمال ستظل على ما هي ، في ظـل الحماية وفي ظل التجارة الحرة . ودافع انغلز عن الحماية لانهـا ببساطة ووضوح « اجراء برجوازي تقدمي » . وكانت هذه ايضا وجهة نظر ماركس .

كانت مساهمة أطـول ظهرت في « دويتشه بروسلر تزايتونغ » عملا مشتركا لماركس وانغلز، وكانت هذه المساهمة ردا على هجوم الاشتراكية الاقطاعية المسيحية. وكان هذا الهجوم قد انطلق من « راينيجز بيوباختر » ، وهي صحيفة كانت الحكومة قد اسستها حديثا في كولون لتحريض العمال في الرانيلاند ضد البرجوازية . وعلى صفحات هذه الصحيفة اكتسب هيرمان واغنر الشاب شهرته ، كما شهد هـو في ما بعد في مذكراته . وكان ماركس وانغلز يحتفظان بصلات وثيقة مع كومون ، ومن الواضح أنهما كانا علـى عـلم بنشاطات واغنر ، ذلـك أن اشارات الى « مفوضين اكليركيين انيقين » شكلت نوعا مـن العبارة اللازمـة في ملاحظاتهما ، وفي ذلـك الوقت كان واغنر مساعدا أكليركيا في ماغدبرغ .

حاولت « راينيخر بيوباختر » أن تستخدم فشل الحكومة في الحصـول على ما تريده من المجلس الموحد لتضليل العمال ، قائلة ان البرجوازية برفضها التصويت على الاموال الضرورية انما كشفت أن كل ما يهمها هو الاستيلاء على سلطة الدولة من أجل مصالحها الذاتية . فهي لا تهتم اطلاقا برفاه الشعب ، ولكنها تدفع الجماهير لترهب بها الحكومة فحسب . وبذلك فان الجماهير تستخدم فحسب وقودا للمدافع في هجوم تشنه البرجوازية على الحكومة . اجاب ماركس وانغلز على ذلك بطريقـة واضحة لنا تماما اليوم ليس لدى البروليتاريا أية أوهام حول البرجوازية ولا حول الحكومة ، والاعتبارات الوحيـدة التي تضعها البروليتاريا في الحسبان هـي الاعتبارات التي تخدم مصلحتها هي فقط . والمسألة هي أحكم البرجوازية ام حكم الحكومة . والجواب على ذلك يمكن الحصول عليه بمقارنة بسيطة بين وضع العمال الالمان ووضع العمال الانجليز والفرنسيين .

قالت « راينيخر بيوباختر » : « ايها الشعب السعيد ، لقد ربحت معركتك من اجل حقوقك الاساسية ، واذا كنت لا تعرف ما هي هذه الحقوق ، فاسأل ممثليك ليشرحوا لك ذلك ، ولربما نسيت خلال خطبهم الطويلـة جوعك المضني » . فاجاب ماركس وانغلز على هذا الكلام الديماغوجي بسخرية لاذعة : من السهل ان يرى المرء كيف ان الصحافة الالمانية حرة حقا لدرجة ان تحريضا كهذا مر دون عقاب . وأعلنا ان البروليتاريا الالمانية فهمت في الواقـع الحقوق الاساسية التـي يجري الصراع حولها ، حتى انها انبت المجلس الموحد لا لانه كسب هذه الحقوق بل لانه في الواقع خسرها . ولو لم يكتف المجلس الموحد بالمطالبة بتوسيع حقوقه ، وعمد بدلا من ذلك الى المطالبة باقرار المحاكمة بواسطة المحلفين والتساوي امام القانـون والغاء العمل الاجباري وحرية الصحافة وحرية الانتظام وعقد هيئة تمثيلية حقيقية ، اذا لتلقى

من البروليتاريا دعما كاملا .

ودحض ماركس وانغلز همهمات « راينيخر بيوباختر » حول المبادىء الاجتماعية للمسيحية التي تجعل الشيوعية لا ضرورة لها : «لقد منحت المبادىء الاجتماعية للمسيحية الفا وثمانمائة عام لتتطور خلالها ، وهي ليست بحاجة الى المزيد من التطور على يد المفوضين الاكليركيين البروسيين . لقد بررت المبادىء الاجتماعية للمسيحية العبودية في العالم الكلاسيكي ، ثم مجدت القنانة في العصور الوسطى ، واذا كان من الضروري ان تعمد هذه المبادىء الى الدفاع عن اضطهاد البروليتاريا ، فانها على استعداد تام لذلك حتى ولو ادى بها ذلك الى الظهور بعض الوقت بمظهر مخجل . وهذه المبادىء ذاتها تبشر بضرورة وجود طبقة حاكمة واخرى مضطهدة ، وكل ما تقدمه المسيحية للمضطهَدين رغبة تقية ورعة في ان يكون الحاكمون محسنين . وهي تنقل التعويض عن كل صنوف الحيف الى مملكة السماء ، وبذلك تبرر تكريس هذا الحيف على الارض . والمبادىء الاجتماعية للمسيحية تعلن أن كل جرائم المضطهَدين ضد المضطهدين انما هي اما عقاب عادل لخطيئة اصلية او غيرها من الخطايا ، أو مصائب اراد الله في حكمته البالغة ان يوقعها بالمختارين من رعاياه. ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية تبشر بالجبن والاستسلام والخضوع والضعة وتحقير الذات ـ وباختصار تبشر بكل السمات المميزة «للنعاج» ، ولكن البروليتاريا ليست مستعدة لان تعامل كالنعاج ، فهي بحاجة الى شجاعتها وثقتها بنفسها وكبريائها واستقلالها حتى أكثر من حاجتها الى خبزها اليومي. والمبادىء الاجتماعية للمسيحية مرائية منافقة بينما البروليتاريا ثورية » .

كانت هذه هي البروليتاريا التي قادها ماركس وانغلز في المعركة ضد مشعوذي الاصلاح الملكي . فالشعب المستعد ليشكر حكامه والدموع تملأ عينيه لانهم يركلونه وفي الوقت ذاته يلقون له بقرش لم يوجد يوما الا في مخيلة الملوك . أما الشعب الحقيقي ، البروليتاريا ، فهو كما يقول هوبز ، شبيبة قوية خطرة ، ويمكن للمرء أن يرى طريقة الشعب في التعامل مع الملوك الذين حاولوا الاساءة اليه في المصير الذي انتهى اليه شارل الاول ملك انجلترا ولويس السادس عشر ملك فرنسا .

حطم هذا الجواب الحصيلة الاشتراكية ـ الاقطاعية، وكأنه عاصفة من الصقيع، ولكن بعض الحجارة تناثرت أبعد مما يجب . كان ماركس وانغلز على حق في دفاعهما عن قرار المجلس الموحد برفض منح الاموال لحكومة رجعية مهملة ، ولكنهما أعطيا للمجلس الموحد شرفا لا يستحقه عندما وقفا الى جانبه في رفض اقتراح تقدمت به الحكومة لاقرار ضريبة دخل . وقد كان هذا الاقتراح في الحقيقة فخا نصبته الحكومة للبرجوازية . وكان الاقتراح بالغاء الضرائب الباهظة التي كان يقع عبئها بصورة رئيسية على العمال في المدن الكبيرة على أن يغطى العجز عن طريق ضريبة دخل تفرض على الطبقات المالكة ، كان هذا الاقتراح قد جاء من جانب البرجوازية في الراينلاند ، وقد دفعتها اليه اعتبارات كتلك التي دفعت البرجوازية الانجليزية في صراعها من أجل نقض « قوانين الذرة » . وقد عارضت الحكومة ذاتها هذا الاقتراح بشدة لانه يصيب ملاك الارض الكبار ، الذين لم يكونوا يتوقعون

انخفاضا في اجور العاملين لديهم نتيجة الغاء الضرائب ، لان هـذه الضرائب كانت تفرض في المدن الكبيرة فقط. ولكنها رغم ذلك تقدمت بالمشروع الى المجلس الموحد، وهي تعرف ان هيئة اقطاعية كالمجلس الموحد لن توافق أبدا عـلى اصـلاح ضريبي تستفيد منه الطبقة العاملة ولو مؤقتا على حساب الطبقات الموحدة ، وكانت الحكومة تأمل بذلك أن تجعل نفسها شعبية وتجعل المجلس الموحد غير شعبـي . وكانت الحكومة على حق في تقديراتها ، فما ان وضـع المشروع أمـام المجلس حتى صوت ضده كل الامراء وكل اليونكر وكل الرسميين . وبالاضافة الى ذلك ، كان من حسن حظ الحكومة أن قطاعا من البرجوازية غير موقفه بسرعة عندما وصل الامـر الى الاصلاح الضريبي .

عندئذ استغلت كل الاقلام الحكومية رفض اقتراح ضريبة الدخل استغلالا كاملا بوصفه برهانا ساطعا على اللعبة المرائية المخادعة التي تلعبها البرجوازيـة ، ولعبت «راينيخر بيوباختر» دورا بارزا في ذلك . وقد كان ماركس وانغلز محقين عندما اجابا « المفوض الاكليركي » بأنه « أكثر الناس جهلا بالمسائـل الاقتصاديـة » عندما يدعي أن ادخال ضريبة الدخل سيغير من التعاسة الاجتماعية ولو قيد شعـرة ، ولكنهما لم يكونا محقين عندما دافعا عن رفض البرجوازية للاقتراح بوصفه ضربـة مبررة ضد الحكومة . اذ لم يكن رفض البرجوازية هذا ضربة ضد الحكومة ، بل هو على العكس من ذلك أدى الى تقوية موقفها المالي ، اذ أنها احتفظت بالضرائب الباهظة بدلا من أن تجرب ضرائب دخل جديدة ، كان تطبيقها سيواجه بالتأكيـد مصاعب جمة ، كما يدل على ذلك تاريخ كل الضرائب من هذا النوع . ولـذا فان ماركس وانغلز في هذه الحالة اعتبرا أن البرجوازية لا زالت ثورية ، في حين أنها كانت قـد أصبحت رجعية .

من جهة أخرى ، كثيرا ما اقترف « الاشتراكيون الحقون » الخطأ المقابل . وقد شن ماركس وانغلز هجوما آخر عليهم ، في سلسلة من المقالات نشرها ماركس في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» بعنوان «ضد الاشتراكية الالمانية شعرا ونثرا» ، وفي مقالة لم تنشر مكتوبة بخط يد انغلز، ولكنها ربما كانت عملا مشتركا . هاجم ماركس وانغلز « الاشتراكية الحقة » هذه المرة من جانبها الجمالي ــ الادبي ، الـذي كان اضعف جانب فيها ، أو ربما أقوى جانب لدى بعض الاذواق . ولم يحترم ماركس وانغلز في هجومهما هذا على الشذوذ الفني حقوق الفن والادب ، فمثلا يعامل انغلز في مقالته غير المنشورة رائعة لفريليغارث بقسوة لا تستحقها ، بينما عامل ماركس «اغاني الفقراء» لكارل بيك بشراسة في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» علـى اساس «الاوهام البرجوازية الصغيرة» التي تبثها . لكن ماركس تنبأ في الوقت ذاته بالمصير المؤسف الذي انتهت اليه النزعة الطبيعية المدعية بعد ذلك بخمسين عاما ، عندمـا قال : « يمجد بيك هذه التعاسة البرجوازية الصغيرة الجبانة . فبطله هو « الرجل الفقير » بأشواقه التقية الصغيرة التي لا تنتهي الى شيء ، بدلا مـن أن يمجـد البروليتاري الثوري الفخور » . وبعد ذلك تعرض غرون سيء الحظ لتأنيب قاس شامل على أساس كتاب منسي أساء فيه معاملة غوته « من وجهـة نظر انسانيـة »

ورسم له بعناء صورة ادعى أنها صورة « الرجل الحقيقي » جمعت من الصور المملة الحقيرة التي تمثله شاعرا عظيما .

وأهم من هذه المناوشات الصغيرة ، كان عمل أطول عالج فيه ماركس بقسوة الكلام الراديكالي المعتاد للبرجوازية وكذلك الكلام الاشتراكي المزيف للحكومة . فقد سعى كارل هاينزين في سجال ضد انغلز الى تفسير الافتقار الى العدالة في توزيع الملكية على أنه ناجم عن سلطة الدولة ، وأعلن ان من يهاجم البرجوازية لمراكمتها الثروة تاركا الملك يراكم السلطة في يديه بسلام انما هو جبان ومجنون . وكان هاينزين ذاته عاديا جدا لا يستحق أي اهتمام خاص ، لكن حججه كانت تناسب الجهلة المدعين تماما : الملكية مدينة بوجودها لافتقار الانسانية على مدى قرون طويلة للحس السليم والكرامة الانسانية،أما الآن وقد استعادت الانسانية هاتين الخاصتين القيمتين ، فان كل المسائل الاجتماعية أصبحت شاحبة أمام المسألة الكبرى : الجمهورية أم الملكية . وكانت هذه الحجة الرائعة تكمل حجة الامراء من أن الثورات لا يسببها شيء غير شرور الديماغوجيين .

فأوضح ماركس ، على أساس التاريخ الالماني بصورة رئيسية ، أن التاريخ هو الذي يصنع الامراء وليس العكس . كما بين بوضوح الاسباب الاقتصادية للحكم المطلق الملكي ، مشيرا الى أن هذا الحكم تطور في المرحلة الانتقالية عندما كانت الطبقات الاقطاعية القديمة تنحدر بينما كانت الطبقة البرجوازية الحديثة لا تزال في طور التكوين . ولم تتطور الملكية المطلقة في المانيا في وقت متأخر ولم تدم فيها وقتا اطول الا لان تطور البرجوازية الالمانية مشلول ومقعد . وهكذا فان الدور الرجعي الشرس الذي يلعبه الامراء عائد الى اسباب اقتصادية . وبينما كانت الملكية المطلقة تشجع سابقا التجارة والصناعة وما يرافقها من صعود للبرجوازية كشروط ضرورية للقوة القومية ولازدهار الملكية ذاتها ، فانها الآن تسعى الى اعاقة تطور التجارة والصناعة في كل مكان لان هاتين أصبحتا سلاحا خطرا في يد برجوازية أصبحت اقوى مما يجب . وأصبحت الآن تشيح بنظرها الثقيل عن المدينة ، مصدر صعودها الى السلطة ، الى الريف الذي يمتلىء أديمه بجثث خصومها الاقطاعيين القدماء .

يحتوي هذا العمل على الكثير من الافكار المثمرة، ولكن « الحس السليم » للجهلة المدعين كان برهانا ضده . فالنظرية التي ناهض بها ماركس ، نيابة عن انغلز ، هاينزين ، كان عليها بعد جيل كامل أن تتصدى لدوهرنغ ، على يد انغلز ، نيابة عن ماركس .

٦ ـ العصبة الشيوعية

نمت الجماعة الشيوعية في بروكسل خلال عام ١٨٤٧ الى حدود ضخمة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك في المجموعة كلها من يرتفع الى مقام قدرات ماركس أو انغلز . واحيانا بدا أن موسى هس أو فيلهلم ولف ، وكلاهما كان يقدم مساهمات في « دوتيشه بروسلرتزايتونغ » ، سليعب دور الثالث في التحالف ، ولكن أيهما في

النهاية لم يفعل . فلم يستطع هس أن يتخلص من قيوده الفلسفية القديمة ، وفي النهاية أدى الهجوم المقذع الذي شنه البيان الشيوعي على كتاباته الى القطيعة الكاملة بينه وبين ماركس وانغلز .

توطدت صداقة ماركس وانغلز بفيلهلم ولف في وقت لاحق ، اذ لم يأت ولف الى بروكسل الا في عام ١٨٤٧ ، ولكن هذه الصداقة اثبتت قوتها ، ولم تنته الا بموت ولف ، الذي توفي لسوء الحظ في وقت مبكر جدا . ولم يكن ولف مفكرا مستقلا ، ولكنه كان يملك ككاتب «الاسلوب الشعبي». وقد تحدر من عائلة فلاحية سيليسية، واستطاع في ظل ظروف صعبة جدا أن يشق طريقه الى الجامعة حيث نمى لـدى نفسه كراهية عميقة لاهبة ضد مضطهدي طبقته من خلال شعراء وكتاب العالم الكلاسيكي القديم . وقد نقل ولف كديماغوجي من قلعة في سيليسيا الى اخرى لبضعة سنوات ، وبعد خروجه من السجن صار يتدبر أمره كمعلم خاص ويشن في الوقت ذاته حرب غوار على البيروقراطية والرقابة ، الى أن أوشكت الحكومة على مقاضاته ، ففضل الفرار الى الخارج على التعفن في سجن بروسي .

كان ولف قد تعرف الى لاسال خلال اقامته في برسلو . وقد وضع لاسال وماركس وانغلز على قبر ولف اكاليلا من الغار لا تفنى . وكان ولف من تلك الشخصيات النبيلة التي وصفها الشاعر بأنها تشق طريقها في الحياة بما هي عليه . وقد جعله سلوكه الجريء واخلاصه وضميره اليقظ وايثاره للغير وتواضعه الدائب مثالا للمقاتل الثوري ، واكسبه ذلك احترام اعدائه واصدقائه على السواء بغض النظر عما اذا كانوا يؤيدون آراءه السياسية او لا يؤيدونها .

كذلك كان فرديناندولف ، عضوا آخر في الحلقة المحيطة بماركس وانغلز ، ولكن لم يكن قريبا جدا منهما . أما ارنست درونكه الذي كتب كتابا ممتازا عن برلين ما قبل آذار والذي حكم عليه بالسجن سنتين في احدى القلاع بتهمة الطعن في الذات الملكية ، فقد انضم الى الحلقة في اللحظة الاخيرة ، بعد أن فر من قلعة ويسيل . كذلك ضمت الحلقة أيضا جورج ويرت الذي كان قد تعرف الى انغلز منذ الايام التي قضاها في مانشستر والذي عاش في برادفورد كموظف في شركة المانية اخرى . وكان ويرث شاعرا حقيقيا ، وبذلك كان خلوا من أي من ادعاءات الشويعر . وقد مات هو أيضا شابا ، ولسوء الحظ لم تمتد يد حانية لتجمع القصائد التي غناها بروح البروليتاريا المقاتلة والتي بعثرها باهمال . وقد تعززت حلقة المثقفين هذه بعدد من الحرفيين القادرين ، امثال كارل والو وستيفان بورن وهما منضدا احرف « دويتشه بروسلر تزايتونغ » .

كانت بروكسل ، بوصفها عاصمة دولة كانت تفتخر بأنها ملكية برجوازية مثالية، أفضل مكان للقيام باتصالات عالمية ، ما دامت باريس ، التي كانت لا تزال تعتبر مركز الثورة ، مقيدة بقوانين أيلول سيئة الذكر . اقام ماركس وانغلز علاقات جيدة بالمشتركين في ثورة ١٨٣٠ في بلجيكا . وفي المانيا ، وعلى الاخص في كولون ، كان لهما اصدقاء قدماء وجدد ، وعلى رأسهم جورج يونغ والطبيبان ديستر ودانيال . وفي باريس اقام انغلز اتصالات مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعلى الاخص مع

ممثليه الادبيين لوي بلانك وفرديناند فلوكون اللذين كانا يحرران صحيفة الحزب « رفورم » . وكانت هناك صلات اوثق مع الجناح الثوري للميثاقيين (الشارتيين) ، مع جوليان هارني ، محرر « ذي نورثرن ستار » وارنست جونز اللذين تلقيا تعليمهما في المانيا . وكان « الاخوة الديمقراطيون » وهم منظمة عالمية كان يمثل عصبة العادلين فيها كل من كارل شابر وجوزيف مول ، واقعين تحت التأثير الفكري لهؤلاء القادة الميثاقيين .

وفي كانون الثاني ١٨٤٧ ، اتخذت العصبة خطوة هامة جدا . وكان للعصبة بوصفها « لجنة المراسلات الشيوعية » في لندن علاقات مع « لجنة المراسلات » في بروكسل ، ولكن هذه العلاقات كانت باردة نوعا ما من الجانبين . فمن جانب كان هناك شك بالمثقفين الذين لا يمكن أن يعرفوا أين يركل الحذاء العامل ، ومن الجانب الآخر كان هناك شك بضيق الافق الحرفي الذي كان لا يزال يمارس تأثيرا قويا على العمال الالمان في ذلك الحين . وكان انفلز منشغلا بابقاء « الحرفيين » في باريس بعيدين عن تأثير برودون ووتيلنغ ، ولكنه كان يشعر أن « الحرفيين » في لندن أفضل منهم في باريس ، رغم انه وصف بيانا اصدرته رابطة العادلين في خريف عام ١٨٤٦ حول مسألة سليزويغ ـ هولشتاين بأنه « هراء محض » معلنا ان «الحرفيين» في انجلترا واقعون ضحية حماقة تجاهل كل الظروف الواقعية القائمة والفشل في فهم عملية التطور التاريخي .

وبعد ذلك بعقد من الزمن ، وصف ماركس موقفه في ذلك الوقت من رابطة العادلين بالكلمات التالية : « اصدرنا سلسلة من المنشورات ، بعضها مطبوع ، ننتقد فيها بقسوة خليط الاشتراكية الانجلو ـ فرنسية او الشيوعية والفلسفة الالمانية الذي كان يمثل التعاليم السرية للرابطة ، مقدمين بدلا من ذلك نظرة علمية الى البنية الاقتصادية للمجتمع البورجوازي ، مفسرين ذلك بصورة مبسطة مبينين ان المهمة الملحة ليست وضع نظام طوباوي بل المشاركة الواعية في عملية التحويل الاجتماعي التاريخية التي تجري امام أعيننا » . وفي كانون الثاني عام ١٨٤٧ ارسلت الرابطة عضوا من لجنتها المركزية، هو الساعاتي جوزيف مول ، الى بروكسل ليطلب من ماركس وانغلز الانضمام الى المنظمة لانها تعتزم تبني وجهات نظرهما ، فعزى ماركس ذلك الى فعالية النشرات .

لسوء الطالع ، لم تحفظ اي من النشرات التي يشير لها ماركس ، باستثناء تعميم واحد موجه ضد كريغ الذي يسخف فيه بوصفه ، بين امور أخرى ، ممثل « رابطة العادلين » . كذلك يتهم التعميم كريغ بانه يسعى الى طمس التطور التاريخي الحقيقي للشيوعية على امتداد العالم بأن يعزو أصوله وتقدمه الى مؤامرات رومانتيكية خيالية مختلفة قامت بها هذه الرابطة التي نشر عن قوتها السرية أسخف الروايات .

أحدث هذا التعميم أثرا بالغا على اعضاء الرابطة ، وذلك برهان على ان هؤلاء كانوا أكثر من مجرد «حرفيين» وأنهم تعلموا من التاريخ الانجليزي أكثر مما افترض انغلز . فعلى الرغم من الهجوم الذي يشنه التعميم على الرابطة ، الا ان اعضاءها

تلقوا الامر بهدوء اكبر مما فعل ويتلنغ ، الذي لم يذكر في التعميم اطلاقا ولكنه مع ذلك وقف الى جانب كريغ . والواقع ان رابطة العادلين ظلت اكثر حيوية ونشاطا في الجو الكوسمو بوليتيالمنشط للندن أكثر من شقيقاتها في زيوريخ وحتى في باريس. كانت الرابطة قد انشئت للقيام بأعمال الدعاية بين العمال الالمان . ولكنها اكتسبت طابعا أمميا في لندن . واحتفظت بصلات وثيقة مع اللاجئين السياسيين من كل بقاع الارض ، وحذا قادتها حذو الحركة الميثاقية (الشارتية) التي كانت تنمو وتزداد نشاطا ، فوسعوا أفقهم وتقدموا متخطين المفاهيم الحرفية التي بدأوا بها . فعدا عن القادة القدامى شابر وباور ومول ، امتاز عدد من الشبان ايضا بينهم كارل فاندر وجورج ايكاريوس بالمقدرة النظرية .

كان التفويض الذي ابرزه مول لماركس في بروكسل وفيما بعد لانغلز في باريس مؤرخا بتاريخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٨٤٧ ، وكان شابر هو الذي كتبه . صيغ التفويض بلهجة حذرة مخولا حامله اعطاء صورة عن وضع الرابطة وتقديم معلومات مفصلة عن كل النقاط الهامة ، ولكن مول كان اقل تحفظا بكثير خلال الحديث . فطلب من ماركس الانضمام الى الرابطة واخبره ان مؤتمرا للرابطة سيدعى للانعقاد في لندن بهدف تبني الانتقادات التي عبر عنها ماركس وانغلز وتضمينها بيانا علنيا بوصفها مبادىء الرابطة . واضاف ان من الضروري أن ينضم ماركس وانغلز الى الرابطة للمساعدة على التغلب على بعض العناصر العتيقة المحجمة .

سمح ماركس وانغلز لنفسيهما أن يقتنعا بذلك وانضما الى الرابطة . غير أن مؤتمر الرابطة الذي انعقد في صيف عام ١٨٤٧ لم يتمخض سوى عن اعادة تنظيم ديمقراطية بما يتناسب وحاجات منظمة دعائية تعمل سرا .[فنظمت الرابطة في خلايا وحلقات وحلقات قيادية وسلطة مركزية ومؤتمر]. واعلن ان هدفها هو الاطاحة بالبورجوازية واقامة حكم البروليتاريا والغاء المجتمعالقديم الذي يقوم على تناقضات طبقية وبناء مجتمع اشتراكي جديد لا طبقات فيه ولا ملكية فردية .

وطبقا للطابع الديمقراطي للرابطة ، التي أصبحت تسمي نفسها العصبة الشيوعية وضعت القوانين الاساسية امام الخلايا لنقاشها على ان يترك البت في الامر الى مؤتمر قادم يعقد قبل نهاية العام ويبحث فيه ايضا البرنامج الجديد . ولم يحضر ماركس هذا المؤتمر ، ولكن انغلز حضره ممثلا للشيوعيين في باريس وفيلهلم ولف ممثلا لحلقة بروكسل .

٧ ـ الدعاية في بروكسل

بدات العصبة بتأسيس روابط تثقيفية للعمال الالمان تتيح فرصة القيام بدعاية علنية وتشكل في الوقت ذاته احتياطيا تستطيع العصبة أن تستخدمه لتقوية صفوفها .

وكانت طريقة عمل هذه الروابط هي ذاتها في كل مكان : يوم في الاسبوع يخصص للمناقشات ويوم آخر للنشاط الاجتماعي (الغناء والقاء الشعر ... الخ) ،

واسست مكتبات مرتبطة بهذه الروابط ، كما افتتحت صفوف ، حيث أمكن ، لتعليم العمال المبادىء الاولية للشيوعية .

كانت هذه هي الخطة التي اسست بموجبها في بروكسل رابطة العمال الالمان في نهاية آب . وكان رئيسا الرابطة موسى هس ووالو ، وكان فيلهلم ولف سكرتيرا لها . وجرت العادة أن يجتمع اعضاء الرابطة ، الذين سرعان ما فاق عددهم المئة ، مساء كل اربعاء وسبت . ففي مساء الاربعاء تبحث المسائل الهامة المرتبطة بمصالح البروليتاريا ، أما في أمسيات السبت ، فكان ولف يقدم مراجعة سياسية لاحداث الاسبوع ثم يصبح الاجتماع مناسبة اجتماعية يحضرها الاطفال والنساء كذلك .

وفي ٢٧ ايلول عقدت هذه الرابطة مأدبة أممية لتعبر عن المشاعر الاخوية التي يكنها عمال كل بلد لعمال كل البلدان الاخرى . وكان من العادة أن تستخدم المآدب اطارا للدعاية السياسية وذلك لتجنب تدخل البوليس الذي لا بد منه في الاجتماعات العامة . غير أنه كان وراء هذه المأدبة هدف خاص . فقد كتب انغلز الذي كان موجودا حينذاك في بروكسل الى ماركس ، الذي كان غائبا ، يخبره أن برونشتدت وغيره من العناصر المستاءة في الجماعة الالمانية نظموا هذه المأدبة « كي يدفعوا بنا الى دور ثانوي بالعلاقة مع الديمقراطيين البلجيكيين ، وكي يشكلوا منظمة أشمل واعظم بكثير من رابطة العمال الصغيرة التعيسة التي نعمل فيها » . لكن انغلز نجح في افشال هذه المؤامرة في الوقت المناسب ، وانتخب واحدا من نائبي الرئيس رغم عدم رغبته في ذلك لانه كان يبدو « صغير السن الى حد مخيف » ، وانتخب الفرنسي أمبرت نائبا آخر للرئيس ، بينما انتخب الجنرال ميلينيت رئيسا فخريا والمحامي يوتراند رئيسا عاملا ، وكلا الرجلين من مقاتلي الثورة البلجيكية عام ١٨٣٠ .

كان عدد المدعوين الذين حضروا المأدبة مئة وعشرين بينهم بلجيكيون والمان وسويسريون وفرنسيون وبولنديون وايطاليون وروسي واحد . وبعد عدد من الخطب ، استقر الرأي على تأسيس « رابطة اصدقاء الاصلاح في بلجيكا » على غرار « الاخوة الديمقراطيين » وانتخب انغلز عضوا في الهيئة التحضيرية ، ولكن سرعان ما اضطر الى مغادرة بروكسل ، فكتب الى يوتراند موصيا بأن يقبل ماركس بدلا منه ، مشيرا الى أنه لو كان ماركس حاضرا في اجتماع ٢٧ أيلول لانتخب بلا شك : « ولذا فالواقع أن ماركس لن يأخذ مكاني في الهيئة ، على العكس من ذلك ، لقد كنت انا ممثلا له في الاجتماع». وهكذا ، عندما تأسست « الرابطة الديمقراطية لتوحيد كل البلدان » في ٧ و ١٥ تشرين الثاني ، انتخب ماركس وامبرت نائبين للرئيس ، بينما ثبت الجنرال ميلينيت رئيسا فخريا ويوتراند رئيسا عاملا . ووقع البيان التأسيسي للرابطة ستون شخصا من الديمقراطيين البولنديين والفرنسيين والالمان والبلجيكيين . وكان من بين الالمان الذين وقعوا ماركس وهس وجورج ويرث والاخوان ولف وستيفان بورن وبورنشتدت .

انعقد الاجتماع الكبير الاول الذي نظمته الرابطة في ٢٩ نوفمبر للاحتفال بذكرى الثورة البولندية . وتكلم ستيفان بورن نيابة عن الالمان وقوبلت كلمته بالتصفيق الحاد . ولم يكن ماركس حاضرا في الاجتماع ، فقد كان يمثل الرابطة الديمقراطية

في اجتماع عقده « الديمقراطيون الاخويون » في لندن في اليوم ذاته للغرض نفسه. وكانت الكلمة التي القاها ماركس في هذا الاجتماع مليئة بالروح الثورية والبروليتارية : « لقد اختفت بولندا القديمة ، ونحن اخر من يتمنى بعثها من جديد. وفي الواقع ، لم تختف بولندا القديمة وحدها ، بل اختفت معها المانيا القديمة وفرنسا القديمة وانجلترا القديمة ، وباختصار المجتمع القديم كله . لكن خسارة المجتمع القديم ليست خسارة لاولئك الذين ليس لديهم ما يخسرون ، واليوم هذا هو الوضع بالنسبة لغالبية الشعب في كل البلدان » . واوضح ماركس في الخطاب أنه يرى أن انتصار البروليتاريا على البرجوازية سيؤدي الى تحرير كل الامم المضطهدة ، وأن انتصار البروليتاريا الانجليزية على البرجوازية الانجليزية سيكون انتصارا لكل المضطهَدين على المضطهدين . ولن تتحرر بولندا في بولندا ، بل في انجلترا . واذا ما استطاع الميثاقيون (الشارتيون) هزيمة اعدائهم في الداخل ، فانهم بذلك سيهزمون المجتمع كله .

تبنى «الديمقراطيون الاخويون» اللهجة ذاتها في ردهم على الخطاب الذي سلمه لهم ماركس نيابة عن الرابطة الديمقراطية : « ان ممثلكم ، صديقنا واخانا ماركس ، سيخبركم بالحماسة التي رافقت ظهوره بيننا وقراءته لخطابكم علينا . لقد لمعت كل الاعين بالفرح ، وانطلقت كل الاصوات مرحبة بممثلكم ... اننا نقبل بأحر مشاعر الرضى التحالف الذي عرضتموه علينا . لقد تأسست رابطتنا منذ أكثر من عامين وشعارها : كل البشر اخوة . وفي آخر احتفال تذكاري بتأسيس الرابطة أوصينا بتشكيل مجلس ديمقراطي لكل الامم ، ونحن سعداء اذ سمعنا انكم اقترحتم الشيء ذاته علنا . ان تآمر الملوك يجب أن يقابل بتآمر الشعوب ... اننا مقتنعون تمام الاقتناع أنه اذا اردنا الوصول الى الاخوة العامة الشاملة ، فان علينا أن نخاطب الشعب الحقيقي ، نخاطب البروليتاريين الذين ينقطون عرقا وينزفون دما تحت ضغط النظام الاجتماعي القائم ... اننا لن نلبث ان نرى حملة الاخوة وفرسان الانسانية المختارين يتقدمون على الطريق ذاته من الكوخ والمحراث والسندان والمصنع » . وبعد ذلك اقترح الديمقراطيون الاخويون عقد مؤتمر ديمقراطي عام في بروكسل في أيلول ١٨٤٨ كضربة مضادة لمؤتمر التجارة الحرة الذي عقد في بروكسل في ايلول ١٨٤٧ .

غير أن ماركس ذهب الى لندن لاسباب أخرى عدا القاء خطاب في اجتماع الديمقراطيين الاخويين . فبعد انتهاء هذا الاجتماع مباشرة وفي الغرف ذاتها ، التي كانت مقر قيادة العصبة التثقيفية للعمال الشيوعيين التي أسسها في ١٨٤٠ شابر وباور ومول، انعقد المؤتمر الثاني للعصبة الشيوعية لتبني نظام أساسي جديد وبحث برنامج جديد لها . وكان انغلز حاضرا ايضا في المؤتمر . فقد غادر باريس في ٢٧ تشرين الثاني وقابل ماركس في اوستنده كي يذهبا معا الى انجلترا . وبعد نقاشات استمرت عشرة أيام ، انيطت بماركس وانغلز مهمة وضع المبادىء الاساسية للشيوعية في بيان عام علني .

وفي منتصف كانون الاول ، عاد ماركس الى بروكسل وعاد انغلز الى باريس

بطريق بروكسل . ويبدو أن أيا منهما لم يكن متعجلا القيام بالمهمة التي القيت على عاتقهما . وفي ٢٤ كانون الثاني ١٨٤٨ ارسلت اللجنة المركزية للعصبة الشيوعية تحذيرا صارما الى لجنة منطقة بروكسل تهدد فيها المواطن ماركس باتخاذ اجراءات ضده ، اذا لم يكن بيان الحزب الشيوعي الذي وافق على وضعه ، قد وصل الى اللجنة المركزية في أول شباط . ومن الصعب اكتشاف سبب هذا التأخير ، فهو ربما كان عائدا الى الطريقة الكاملة الدقيقة التي اعتادها ماركس في قيامه بالاعمال التي يأخذها على عاتقه ، وربما كان السبب هو انفصاله عن انغلز ، أو ربما كان صبر اللندنيون قد نفد عندما سمعوا أن ماركس مستمر بحماس في دعايته في بروكسل.

ففي ٩ كانون الثاني ١٨٤٨ القى ماركس خطابا حول التجارة الحرة الى الرابطة الديمقراطية . وكان في الواقع ينوي أن يلقي هذا الخطاب في مؤتمر التجارة الحرة في بروكسل ، ولكنه لم يستطع أخذ الكلمة في المؤتمر . عرى ماركس في هذا الخطاب زيف دعاة التجارة الحرة الذين يتظاهرون بأن « رفاه العمال » هو الدافع الاول لتحريضهم ، وأضاف أنه على الرغم من أن التجارة الحرة في مصلحة الرأسماليين ضد مصلحة العمال ، الا أنها تتفق مع المبادىء الاساسية للاقتصاد السياسي البرجوازي . واعلن أن التجارة الحرة هي حرية راس المال الذي يقوم بتحطيم القيود القومية التي لا تزال تعيقه ، وذلك كي يطلق كل قواه . والتجارة الحرة تفسخ الامم وتزيد من تفاقم التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية ، وهي بالتالي تسارع الثورة الاجتماعية . وماركس الى جانب حرية التجارة بهذا المعنى الثوري .

وفي الوقت ذاته دافع ماركس عن نفسه ضد الشكوك بأنه يحمل ميولا تفضل الحماية الجمركية ، ولم يكن وقوف ماركس الى جانب التجارة الحرة يتناقض مع دعمه لاجراءات الحماية في المانيا بوصفها « اجراءات برجوازية تقدمية » . فقد كان ماركس ، مثلما كان انغلز ، ينظر الى كل مسائل التجارة الحرة مقابل الحماية الجمركية من زاوية ثورية . فقد كانت البرجوازية الالمانية تحتاج تعرفة الحماية كسلاح ضد الاقطاع والحكم المطلق وكوسيلة لتنمية الصناعة الكبيرة ، التي ستصبح عاجلا أم آجلا معتمدة على السوق العالمي ، أي على التجارة الحرة . قوبلت كلمة ماركس بالتصفيق الحاد من اعضاء الرابطة الديمقراطية ، التي قررت أن تطبعها بالفرنسية والفلامية على نفقتها الخاصة .

غير أن المحاضرات التي القاها ماركس على رابطة العمال الالمان حول العمل المأجور ورأس المال ، كانت أهم بكثير . فقد انطلق في هذه المحاضرات من أن الاجور ليست نصيب العامل في السلعة التي ينتجها هي ، ولكنها نصيبه من سلعة موجودة مسبقا اشترى الرأسمالي بها قدرا معينا من قوة العمل المنتجة . وقال أن سعر قوة العمل يتحدد كسعر أي سلعة أخرى باكلاف الانتاج . واكلاف انتاج قوة العمل البسيطة هي نفقات تزويد العامل بالوسائل التي تمكنه من البقاء حيا وتخليد نوعه . وسعر هذه الاكلاف يتمثل بالاجور ، وهذا السعر كأسعار كل السلع الاخرى يكون احيانا أعلى من أكلاف الانتاج وأحيانا أخفض منها ، وتبعا لتذبذبات المنافسة ، ولكن

ضمن حدود هذه التذبذبات يقترب السعر من الحد الادنى للاجر .

ثم تفحص ماركس رأس المال . فأجاب على ما يقوله الاقتصاديون البرجوازيون من أن راس المال هو عمل متراكم متسائلا : « ما هو العبد الزنجي ؟ كائن انساني من عرق ملون . الزنجي زنجي ، ولكنه في ظل ظروف معينة يصبح عبدا . وآلة غزل القطن آلة لغزل القطن ، وهي لا تصبح راسمالا الا في ظل ظروف معينة . وبدون هذه الظروف لا تكون الآلة راسمالا أكثر مما يكون الذهب نقدا او السكر سعرا للسكر » . ان رأس المال علاقة انتاجية اجتماعية ، علاقة انتاجية للمجتمع البرجوازي . ويصبح مجموع السلع ، أي مجموع القيم التبادلية ، رأسمالا عندما يظهر كقوة اجتماعية مستقلة ، اي كقوة لقطاع من المجتمع ، ويزيد راس المال نفسه بالمبادلة مع قوة العمل الحية المباشرة . « ان وجود طبقة لا تملك شيئا سوى قدرتها على العمل شرط ضروري لوجود راس المال . وسلطة العمل الماضي المتراكم على قوة العمل الحية المباشرة هي التي تجعل العمل المتراكم راسمالا . وراس المال لا يتكون بفعل ان العمل المتراكم يخدم قوة العمل الحية كوسيلة للمزيد من الانتاج ، انه يتكون بفعل ان قوة العمل الحية تخدم العمل المتراكم كوسيلة للحفاظ على قيمته التبادلية وزيادتها » . وبذلك فان رأس المال وقوة العمل يشترطان بعضهما البعض بصورة متبادلة ، وينتج الواحد منهما الآخر بصورة متبادلة كذلك .

وعندما يستنتج الاقتصادي البرجوازي من هذا أن مصالح الرأسماليين ومصالح العمال متماثلة ، فان هذا صحيح بمعنى أن العامل سيقضي جوعا ما لم يوظفه رأس المال وان رأس المال سيهلك ما لم يستغل العامل . وكلما ازداد رأس المال الانتاجي بسرعة ، أي كلما ازدهرت الصناعة ، كلما أصبحت حاجة الرأسمالي الى العمال أكثر وكلما صار العامل يبيع قوة عمله بثمن أعلى . ولذا فان الشرط الذي لا غنى عنه لتحقيق وضع للطبقة العاملة يمكن احتماله هو تحقيق أسرع نمو ممكن لرأس المال الانتاجي .

ويوضح ماركس ان اي زيادة كبيرة في الاجور في هذه الحالة تفترض مسبقا زيادة أسرع في رأس المال الانتاجي . فعندما ينمو رأس المال ، يمكن للاجور ان تزداد كذلك، ولكن أرباح رأس المال تزيد بسرعة أكثر بكثير . وبذلك يتحسن الوضع المادي للعامل ، ولكن على حساب وضعه الاجتماعي اذ أن الهوة الاجتماعية بينه وبين الرأسمالي تزداد اتساعا . ولذا فان القول ان أفضل حالة للعمل المأجور هي أسرع نمو لرأس المال يعني فحسب انه كلما سارعت الطبقة العاملة في تقوية القوة المعادية، أي الثروات المستلبة التي تحكمها ، فان الشروط التي يسمح لها بالعمل من جديد على تقوية رأس المال تصبح أفضل ، وتصبح الطبقة العاملة راضية بصنع السلاسل الذهبية التي تجرها في أعقاب البرجوازية .

ويضيف ماركس ان نمو راس المال وزيادة الاجور ليسا مرتبطين ارتباطا لا فكاك منه كما يزعم الاقتصاديون البرجوازيون . وليس صحيحا القول انه كلما أصبح رأس المال أسمن كلما تحسنت تغذية عبده . فنمو رأس المال الانتاجي يتضمن مراكمة وتركيز رأس المال . ويتضمن تركز رأس المال قدرا أكبر من تقسيم العمل وقدرا

اكبر من استخدام الآلات . وازدياد تقسيم العمل يؤدي الى تدمير المهارة الخاصة للعامل ، وعندما تستبدل هذه المهارة بشكل من العمل يستطيع أي من العمال القيام به ، يزداد التنافس بين العمال .

ويزداد هذا التنافس أكثر كلما اصبح تقسيم العمل يسمح لعامل واحد بالقيام بالعمل الذي كان يؤديه في السابق ثلاثة . والآلات تؤدي الى هذه النتيجة بدرجة اكبر . ونمو رأس المال الانتاجي يجبر الرأسماليين الصناعيين على العمل بوسائل تنمو باستمرار ، مدمرا بذلك الصناعيين الاصغر ملقيا بهم الى صفوف البروليتاريا. أكثر من ذلك ، عندما ينخفض معدل الفائدة مع تراكم رأس المال ، لا يعود باستطاعة الصغار من حملة الاسهم العيش على الفوائد التي يجنونها ويجبرون على الاتجاه صوب الصناعة للعمل ، مما يزيد في حجم صفوف البروليتاريا .

وفي النهاية ، كلما نما رأس المال الانتاجي ، كلما أصبح مجبرا على العمل لسوق لا يعرف احتياجاته . ويسبق الانتاج الطلب ، ويجهد العرض في اجبار الطلب ، وتتضح النتيجة في الازمة : تلك الهزات الصناعية التي لا يستطيع عالم التجارة الاحتفاظ بحياته فيها الا بالتضحية بقسم من ثرواته ، بقسم من انتاجه ، وحتى بقسم من القوى الانتاجية ذاتها، لآلهة العالم السفلي السوداء ، وتصبح هذه الازمات اكثر عنفا وتحدث بوتيرة اسرع . ان رأس المال لا يعيش على العمل فحسب ، بل انه كرئيس قبيلة بربري نبيل يجر جثث عبيده معه الى القبر ، فتنشأ قبور جماعية للعمال الذين يهلكون في ازماته . ثم يلخص ماركس المسألة كما يلي : اذا نما راس المال بسرعة ، ينمو التنافس بين العمال أسرع ، أي تنخفض وسائل توظيف ومعيشة العمال اكثر ، ولكن النمو السريع لراس المال هو مع ذلك أكثر الشروط مواتاة للعمل المأجور .

هذه النتف هي ، لسوء الحظ ، كل ما بقي من المحاضرات التي القاها ماركس على العمال الالمان في بروكسل ، ولكنها كافية لتبين لنا مدى الجدية والشمول اللذين كان يشن دعايته بهما . وكان لباكونين رأي آخر في ذلك . فقد وصل باكونين الى بروكسل في حوالي هذا الوقت بعد أن طرد من فرنسا بسبب خطاب القاه في ذكرى الثورة البولندية . وفي ٢٨ كانون الاول ١٨٤٧ نجده يكتب الى صديق روسي قائلا : « ان ماركس لا يزال يقوم بالنشاطات العتيقة ذاتها التي لا طائل تحتها ، مفسدا العمال بتحويلهم الى مناطقة . انه التنظير المجنون القديم ذاته » . ونجده أكثر شراسة في رسالة كتبها الى هيرويغ عن انغلز وماركس ، فهو يقول : « وباختصار ، أكاذيب وغباء ، غباء وأكاذيب . من المستحيل أن يتنفس المرء بحرية بصحبتهما . انني أظل بعيدا عنهما ، وقد قلت لهما بصورة قاطعة انني لن انضم الى جماعتهم من الحرفيين الشيوعيين ولن تكون لي بها صلة » .

ان ملاحظات باكونين هذه جديرة بالاهتمام ، لا لانها تكشف عن انزعاج شخصي، فقد أصدر باكونين حكما مختلفا على ماركس قبل ذلك وبعد ذلك ، ولكن لانها تكشف تناقضا عدائيا أدى فيما بعد الى صراعات عنيفة بين هذين الثوريين .

٨ ـ البيان الشيوعي

اثناء ذلك أرسلت مخطوطة ما أصبح يعرف فيما بعد بالبيان الشيوعي الى لندن . وقد كان هناك الكثير من العمل التحضيري بعد المؤتمر الاول مباشرة ، فقد ترك هذا المؤتمر نقاش البرنامج الى المؤتمر الثاني . وكان من الطبيعي أن يشغل منظرو الحركة أنفسهم بالمهمة ، فوضع ماركس وانغلز وموسى هس مسودات للبرنامج .

غير أن المسودة الوحيدة من هذه المسودات الاولية التي لا تزال موجودة هي تلك التي يشير اليها انغلز في رسالة لماركس بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، أي قبل انعقاد المؤتمر الثاني بقليل : « فكر قليلا مرة ثانية . اعتقد أن من الافضل أن نتخلى عن الشكل التعليمي لما نكتب ونسميه بيانا شيوعيا . وانا اعتقد انه ما دام لا بد من ايراد شيء من التاريخ ، فان الشكل الحالي غير مناسب . وسأحضر معي ما عملت هنا . وهو موضوع في شكل قصصي بسيط ، ولكنه غير منظم الى درجة تعيسة وتبدو عليه علائم التسرع » . ثم يضيف انغلز أنه لم يعرض مسودته على فروع باريس ، ولكنه يأمل أن يحصل على الموافقة عليها ، عدا ربما نقطة فرعية او اثنتين .

كانت هذه المسودة موضوعة في شكل تعليمي تماما ، ولربما كان هذا الشكل قد ساعد لو تم الاحتفاظ به على سهولة فهمه أكثر ، ولكان مناسبا أكثر لاغراض التحريض المباشر من البيان اللاحق الذي كان يتفق على أية حال في محتواه الايديولوجي مع محتوى المسودة هذه . ضحى انغلز على الفور بالمسودة التعليمية المكونة من خمسة وعشرين سؤالا وجوابا لمصلحة الطريقة التأريخية في العرض ، فقدم بذلك برهانا آخر على يقظة ضميره ، ذلك انه ادرك أن بيانا تقدم فيه الشيوعية نفسها للعالم ، يجب أن يكون كما قال مؤرخ يوناني عملا له أهمية خالدة لا سجالا يعنى به القارىء العرضي .

وفي الواقع ، كان الشكل الكلاسيكي هو الذي كسب للبيان الشيوعي مكانة خالدة في الادب العالمي ، على الرغم من أنني لا أقصد بهذا القول أن أقدم أي تنازل لاولئك الذين يجهدون بانتزاع هذه الفقرة او تلك من النص في البرهنة على ان كاتبي البيان سرقا كارليل أو غيبون أو سيسموندي أو غيرهم . فهذا الادعاء هراء محض ، والبيان الشيوعي بلا شك عمل مستقل وأصيل لا يتفوق عليه في أصالته أي كتاب آخر . بيد أن البيان لم يحتو أي فكرة لم يكن ماركس وانغلز قد عالجاها في كتاباتهما السابقة . ولذا لم يكن البيان كشفا جديدا ، بل كان عرضا لنظرة مؤلفيه الى العالم في مرآة زجاجها أوضح ما يكون واطارها أصغر ما يكون . ونحن بقدر ما يسمح لنا أسلوب البيان بالحكم ، نستطيع القول انه كان لماركس اليد الطولى في وضع الكتاب بشكله النهائي . ولكن المسودة التي وضعها انغلز تبين أنه لم يكن متخلفا عن ماركس في فهم المسائل المثارة في البيان ، وأنه يقف مع ماركس على قدم المساواة كمؤلف له .

لقد مر" ثلثا قرن على المرة الاولى التي نشر فيها البيان ، وكانت العقود الستة أو السبعة التي مضت مليئة بتغيرات اقتصادية وسياسية كبيرة لم تترك البيان على حاله . فقد تقدم التطور التاريخي في بعض المناحي بصورة مختلفة ، وفوق كل شيء تقدم بسرعة أقل بكثير من السرعة التي توقعها مؤلفا البيان . فكلما كان نظرهما يتغلغل في المستقبل البعيد، كلما كانا يريانه أقرب . وعلى أية حال يمكن للمرء القول أنه بدون هذا الظل لم يكن الضوء ممكنا . لقد كانت ظاهرة سيكولوجية تلك التي لاحظها ليسنغ في أولئك البشر « الذين يلقون على المستقبل نظرات صائبة » : « ان ما تطلب الطبيعة لتحقيقه آلافا من السنين ، يجب بالنسبة لهم أن يتحقق لحظة وجودهم » . ولم يكن ماركس وانغلز بالتأكيد على خطأ يبلغ آلافا من السنين ، ولكنهما أخطآ بعشرات السنين . فعندما وضعا البيان الشيوعي كانا يعتبران أن الرأسمالية وصلت مستوى لا تكاد تصله في يومنا هذا . ويقول انغلز في مسودته بوضوح أكبر مما في الصيغة النهائية للبيان أن فروع الانتاج كلها تقريبا في الاقطار المتمدنة تجري في المصانع وأن الحرف اليدوية والمانيفاكتورة قد انضغطت بفعل الصناعة الكبيرة في كل فروع الانتاج تقريبا .

تختلف الصورة التي رسمها البيان لبدايات الاحزاب العمالية حينذاك اختلافا بينا عن وصفه لحالة الانتاج . فهو يقول أن الميثاقية (الشارتية) وهي أهم حركة للطبقة العاملة حينذاك متأثرة بقوة بالعناصر البرجوازية الصغيرة ، هذا عدا عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي في فرنسا . أما الراديكاليون في سويسرا والثوريون البولنديون الذين كانوا يعتبرون تحرير الفلاحين شرطا أوليا للتحرر الوطني فلم يكونوا أكثر من ظلال على الحائط . وفيما بعد أشار مؤلفا البيان ذاتهما الى ضيق المجال الذي احتلته حركة الطبقة العاملة في ذلك الحين ، وأكدا على وجه الخصوص غياب روسيا والولايات المتحدة : « كانت روسيا تمثل في تلك الفترة الاحتياطي الضخم للرجعية الاوروبية ، وكانت الهجرة الى الولايات المتحدة تمتص فائض قوة البروليتاريا الاوروبية . وكان البلدان يزودان اوروبا بالمواد الخام ، وفي الوقت ذاته يشكلان سوقا للانتاج الصناعي الاوروبي . ولذا فقد كان البلدان بصورة أو بأخرى قلعتين للنظام الاجتماعي الاوروبي » . كم تغير الوضع بعد ذلك بجيل ! وكم تغير في يومنا هذا !

وعندما نعترف بأن « الدور الثوري الرفيع » الذي عزاه مؤلفا البيان الى نمط الانتاج الرأسمالي قد استغرق ليجعل نفسه محسوسا وقتا أطول بكثير مما توقع المؤلفان ، فهل يمكن اعتبار ذلك دحضا للبيان ؟ ان الوصف الرائع القوي الذي يحتويه القسم الاول من البيان للصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازي يبقى كما هو أساسا حتى اليوم ، على الرغم من أن البيان يعالج مسار صراع الطبقات بايجاز بالغ . واليوم لا يستطيع المرء أن يطلق تعميما كذلك الذي اطلقه البيان ويقول أن العامل الحديث ــ بعكس اعضاء الطبقات المضطهدة السابقة ، الذين كانوا على الاقل واثقين من الظروف التي يستطيعون في ظلها أن يستمروا في عيشهم الخانع ينحدر أكثر فأكثر تحت ظروف طبقته بدلا من أن يرفع نفسه بتقدم الصناعة . ذلك

انه اذا كان صحيحا أن نمط الانتاج الرأسمالي يملك قطعا هذا الميل العام ، الا ان قطاعات واسعة من الطبقة العاملة نجحت مع ذلك في الحصول لنفسها، وعلى أساس المجتمع الرأسمالي ، على عيش يرفعها حتى فوق مستوى عيش بعض شرائح البرجوازية الصغيرة .

وبالطبع ، يجدر بالمرء أن لا يقع في الخطأ الذي يقع فيه النقاد البرجوازيون للبيان الذين يستنتجون من هذا خطأ « نظرية التعاسة المطردة » التي يدعون أن البيان يطرحها . فقد وضعت النظرية ، التي تقول أن نمط الانتاج الرأسمالي يفقر الجماهير أينما حل ، قبل أن ينشر البيان الشيوعي بوقت طويل ، بل وقبل أن يضع ماركس أو انغلز القلم على الورق. وقد نادى بها مفكرون اشتراكيون وسياسيون راديكاليون ، وفي الواقع كان أول من قدمها اقتصاديون برجوازيون . وكانت «مقالة في السكان» التي كتبها مالتوس محاولة لصقل «نظرية التعاسة المطردة» وتحويلها الى قانون طبيعي خالد. لقد كانت هذه الظاهرة عقبة طالما اصطدم بها التشريع الذي تسنه الطبقات الحاكمة. فسنت قوانين الفقر واقيمت الباستيلات للمعوزين، واعتبر العوز جريمة اقترفها المعوزون ويستحقون عليها العقاب. هكذا لم يخترع ماركس وانغلز «نظرية التعاسة المطردة» هذه، بل على العكس من ذلك، عارضاها منذ البداية، ليس بمعنى انهما حاولا أن ينكرا حقيقة تعاسة الجماهير التي لا تنازع ، ولكن بمعنى انهما أثبتا أن هذه الظاهرة ليست قانونا طبيعيا خالدا بل ظاهرة تاريخية يمكن أن تزول ، وستزول ، بفعل نمط الانتاج ذاته الذي سببها .

واذا كان هناك من هجوم يمكن أن يوجه الى البيان الشيوعي من هذه الزاوية ، فهو فقط أن المؤلفين لم يتحررا تماما من تأثير « نظرية التعاسة المطردة » البرجوازية هذه . فقد تبنى البيان نظرية الاجر التي طورها ريكاردو على أساس نظرية مالتوس السكانية ، ونتيجة لذلك قلل من أهمية نضالات الاجور والمنظمات النقابية للعمال، التي اعتبرها أساسا مدارس تدريب تعد العمال للصراع الطبقي السياسي . وفي ذلك الحين ، لم يعتبر ماركس وانغلز قانون الساعات العشر الانجليزي « انتصارا لمبدأ » ، بل اعتبرا انه ضمن الظروف الرأسمالية قيد رجعي يقيد الصناعة الكبيرة. ولم يعترف البيان بقوانين المصانع والمنظمات النقابية كمراحل في النضال البروليتاري من أجل الانعتاق ، ذلك النضال الذي يجب أن يحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي والذي يجب ان يخاض حتى النهاية الا اذا اريد للمكتسبات الاولى التي أحرزت بصعوبة أن تخسر مرة أخرى .

لذا نظر البيان الى ردود فعل البروليتاريا تجاه الافقار الذي يؤدي اليه نمط الانتاج الرأسمالي نظرة واحدية الجانب وفي ضوء الثورة السياسية فحسب . وأقام استنتاجاته على أساس الثورتين الفرنسية والانجليزية ، وتوقع عقودا عدة من الحروب الاهلية والقومية تصل البروليتاريا في جوها المحموم الى النضج السياسي. ويمكن للمرء أن يرى بوضوح آراء مؤلفي البيان في تلك الفقرات التي تعالج مهام الحزب الشيوعي في المانيا . فهي تحبذ التعاون بين البروليتاريا والبرجوازية عندما تعمل البرجوازية بطريقة ثورية ضد الملكية المطلقة وضد ملكية الارض الاقطاعية وضد

النزعات البرجوازية الصغيرة ، ولكنها تؤكد بوضـــوح أن الشيوعيين يجب ان لا يفشلوا في جعل العمال يفهمون فهما كاملا التناقض العدائي الاساسي بين البرجوازية والبروليتاريا ، ثم يعلن : « ان الاهتمام الرئيسي للشيوعيين يتجه نحو المانيا ، لان المانيا تقف على عشية ثورة برجوازية ، ولانها ستمارس هذه الثورة في ظل ظروف من الحضارة الاوروبية أعلى تطورا بكثير ، وبوجود بروليتاريا أكثر تطورا بكثير مما في حالة انجلترا في القرن السابع عشر وفرنسا في القرن الثامن عشر ، ولذا فان ثورة برجوازية المانية لا يمكن الا أن تكون فاتحة مباشرة لثورة بروليتارية ». وسرعان ما حدثت الثورة البرجوازية التي أشار اليها البيان، ولكن الظروف التي حدثت فيها كان لها اثر معاكس بالضبط : جعلت البرجوازية تصمت مترددة والمهام الملقاة عـلى عاتقها لما تزل نصف مكملة الى ما بعد بضعة أشهر عندما وقع قتال حزيـــران في باريس فشفى البرجوازية بشكل عام والبرجوازية الالمانية بشكل خاص من كل الميول الثوريـــة .

هكذا نلاحظ ان مرور الوقت لم يترك البيان ، على وضوح معالمه ، دون أن يلحق به أذى . ففي عام ١٨٧٢ ، وفي مقدمة لطبعة جديدة ، أشار المؤلفان نفسيهما الى أن البيان قد عفا عليه الزمن هنا وهناك ، ولكنهما بالصدق ذاته أضافا أن المبـادىء التي وضعها قد أثبتت صحتها بشكل عام ، ولا شك في أن هذا القـول سيظـــل صحيحا الى أن ينتهي الصراع التاريخي العالمي الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية. فالقسم الاول من البيان يرسم المبادىء الاساسية لهذا الصراع بوضوح لا مثيل له ، بينما يعالج القسم الثاني الافكار الاساسية للشيوعية العلمية الحديثة . وعلى الرغم من أن القسم الثالث الذي ينتقد الادب الاشتراكي والشيوعي لا يعالج هذا الادب الا الى عام ١٨٤٧ ، الا أن يقوم بمهمته بشمول بالغ حتى أنه ما من اتجـاه اشتراكي أو شيوعي نما منذ ذلك الحين الا وكان هذا القسم من البيان قد انتقده مسبقا . وحتى النبوءة التي ترد في القسم الرابع والاخير والتي تتعلق بتطور المانيـــا تحققت وان بشكل آخر غير ذلك الذي قصده المؤلفان : لم تكن الثورة الالمانية ، وقـــد صمتت مترددة والمهام الملقاة على عاتقها لم تكمل بعد ، أكثر من فاتحة للتطور القوي للصراع الطبقي البروليتاري .

لقد أصبح البيان الشيوعي ، الذي لا يطال صحة حقائقه الاساسية شك والذي يمكن القول انه بالغ الدلالة حتى في اخطائه ، أصبح وثيقة تاريخية لها أهمية عالمية، وصيحة الحرب التي يختتم بها البيان كلماته لا يزال صداها يتردد عبر التاريخ : «يا عمال العالم اتحدوا ! » .

الفصل السادس

الثورة والثورة المضادة

١ ـ ايام شباط وآذار

في ٢٤ شباط عام ١٨٤٨ أطاحت ثورة بالملكية البرجوازية في فرنسا . ولم تمر هذه الحركة دون أن تترك اصداء في بروكسل ، ولكن الملك ليوبولد ، ذلك الثعلب الشيخ ، نجح في تخليص نفسه بذكاء أكبر من ذكاء حماه في باريس . فأعلن لوزرائه الليبراليين وللنواب ورؤساء البلديات أنه اذا كانت الامة تريد تخليه عن العرش فانه سيفعل ذلك في الحال . فكان أن مست هذه البادرة الكريمة شغاف قلوب الساسة البرجوازيين العاطفيين الى درجة جعلتهم يعمدون الى كبت كل مشاعرهم التمردية في الحال .

لكن الملك بعد ذلك جعل جنوده يفرقون كل الاجتماعات الجماهيرية واطلق شرطته لاصطياد اللاجئين الاجانب . وتلقى ماركس معاملة قاسية على وجه الخصوص . فلم تكتف الشرطة باعتقاله بل اعتقلت كذلك زوجته ووضعتها في السجن الى جانب عاهرات عاديات . وفيما بعد أقيل موظف الشرطة المسؤول عن هذه الفظاعة من منصبه وسحب أمر القبض . ولكن أمر الابعاد لم يسحب على الرغم من انه لم تكن لهذه المغالطة اية ضرورة ، فقد كان ماركس على وشك ان يغادر بروكسل الى باريس على اية حال .

بعد اندلاع الثورة مباشرة ، اتخذت السلطات المركزية للعصبة الشيوعية في لندن قرارا بنقل السلطة التنفيذية الى ممثلي المنطقة في بروكسل ، ولكن هذه الاخيرة قررت بالنظر الى الوضع في بروكسل ، التي كانت عمليا تحت الحكم العسكري ، ان تسلم هذه السلطة الى ماركس ، واعطته تعليمات بأن يشكل قيادة مركزية جديدة في باريس ، التي كان قد دعي اليها برسالة موقعة من فلوكون نيابة عن الحكومة المؤقتة . وكان هذا الاستدعاء شرفا عظيما لماركس .

وفي ٦ اذار سنحت لماركس فرصة أخرى لامتحان فهمه المتفوق للوضع السياسي ، عندما عارض بشدة في اجتماع كبير للاجئين الالمان في باريس خطة مغامرة لغزو المانيا بالقوة المسلحة لتثوير البلاد . وكان برونشتدت المشبوه قد وضع هذه الخطة ، ونجح لسوء الحظ في كسب هيرويغ الى جانبها . وكذلك كان باكونين يحبذ هذه الخطة ، رغم أنه أبدى أسفه لذلك فيما بعد . كما أن الحكومة المؤقتة كانت على استعداد لدعم هذه الخطة ، ليس بفعل اي حماسة ثورية بل على أساس أنه سيكون من المفيد بالنظر الى البطالة المرتفعة السائدة التخلص من كثير من العمال الاجانب . فوضعت الحكومة المؤقتة عنابر بتصرف الثوريين وجعلت لكل رجل منهم منحة قدرها خمسون سنتيما في اليوم من أجل الزحف على الحدود . ولم يكن لدى هيرويغ أية أوهام حول الاسباب التي دفعت الحكومة المؤقتة الى دعم الخطة ، فقد أشار هو ذاته الى « الدافع الاناني » والرغبة « في التخلص من آلاف الحرفيين الاجانب الذين ينافسون الفرنسيين» ، ولكن افتقاره الى الرؤية السياسية جعله يتابع المغامرة حتى نهايتها المؤسفة قرب نيدر دوسنباخ .

وفي حين كان ماركس يعارض بنشاط هذا الغباء الثوري ، الذي فقد كل مبرر له بانتصار الثورة في فيينا في ١٣ اذار وفي برلين في ١٨ اذار ، كان في الوقت ذاته منغمسا في شحذ الاسلحة لدفع الثورة الالمانية بفعالية ، وكانت تلك مهمة ركز عليها الشيوعيون انتباههم . قام ماركس بانشاء قيادة مركزية جديدة في باريس تتألف منه ومن انغلز وولف من بروكسل وباور ومول وشابر من لندن . ثم قامت هذه القيادة الجديدة باصدار نداء يتضمن سبعة عشر مطلبا « لصالح البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة والفلاحين في المانيا » ، منها مطلب بأن تعلن المانيا جمهورية واحدة موحدة ، ومنها تسليح الشعب وتأميم ملكيات الامراء والاقطاعيين والمناجم ووسائل النقل وتأسيس مشاغل وطنية وتحقيق نظام التعليم الاجباري على نفقة الدولة الخ. وبالطبع ، كان يقصد بهذه المطالب أن تضع الخطوط العامة للدعاية الشيوعية ، فما من أحد يعلم أفضل من ماركس أن هذه المطالب لا يمكن أن تنفذ بين يوم وآخر ، بل نتيجة لعملية طويلة من التطور الثوري .

كانت العصبة الشيوعية أضعف من أن تعمل وحدها على تسريع الحركة الثورية، وسرعان ما تبين أن تنظيمها في القارة لا يزال في مرحلة الطفولة . غير أن ذلك لم يعد هاما ، ذلك أن الطبقة العاملة كسبت لنفسها وسائل وامكانية شن دعايتها علنا ولذا فقد انتفى السبب الرئيسي لوجود العصبة .

وفي ظل هذه الظروف أسس ماركس وانغلز ناديا شيوعيا المانيا في باريس ، ونصحا اعضاءه بالابتعاد عن مجموعات العصابات التي ينظمها هيرويغ ، وأن يتسللوا فرادى الى المانيا لدعم الحركة الثورية هناك . ونجح النادي في ارسال بضع مئات من العمال الالمان الى المانيا ، وبفضل وساطة فلوكون استطاع النادي أن يحصل لهؤلاء العمال على الدعم ذاته الذي منحته الحكومة المؤقتة لهيرويغ ومتطوعيه .

نتيجة لهذه الجهود ، نجحت أغلبية اعضاء العصبة الشيوعية في العودة الى المانيا ، وبرهنت نشاطاتهم هناك أن العصبة كانت مدرسة تدريب ثوري ممتازة .

فحيثما كانت الحركة الثورية في المانيا تبدي علائم النمو القوي ، كان اعضاء العصبة هم القوة الدافعة وراءها : شابر في ناسو ، ولف في برسلو ، ستيفان بورن في برلين ، وغيرهم من الاعضاء في أماكن أخرى . ولقد أصاب بورن الحقيقة عندما كتب الى ماركس يقول : « لم تعد العصبة موجودة ، ولكنها مع ذلك موجودة في كل مكان » . فقد كفت العصبة كمنظمة عن الوجود ، ولكن دعايتها كانت ملموسة في كل مكان توجد فيه ظروف الصراع البروليتاري من أجل الحرية ، رغم أن ذلك كان يصح على منطقة صغيرة نسبية من المانيا .

ذهب ماركس وأقرب اصدقائه الى الراينلاند، التي كانت أكثر اجزاء المانيا تقدما وحيث كان القانون النابليوني يمنح قدرا أكبر من الحرية للحركة اكثر مما يمنح القانون البروسي في برلين . وهناك نجح ماركس واصدقاؤه في احراز قصب السبق في الاعدادات التي كان يقوم بها في كولون عدد من العناصر الديمقراطية والشيوعية لتأسيس جريدة . غير أن الامور لم تكن بهذه البساطة ، فقد عانى انغلز على وجه الخصوص من خيبة الامل عندما اكتشف أن شيوعيته في وبرتال لم تكن حتى حقيقة ولم يكن لها اي قوة ، وانه ما أن بدأت الثورة تبدي بعض أمائر الحياة حتى صارت شيوعية وبرتال ظلا من الماضي . وكتب انغلز الى ماركس الذي كان في كولون يقول : « لا فائدة البتة في الاعتماد على اية اسهم هنا ... انهم جميعا يتجنبون بعث اي مسائل اجتماعية وكأنها الطاعون ، انهم يسمون ذلك تحريضا ... لن نستطيع الحصول على شيء من والدي الشيخ . فهو يعتبر «كولونيخه تزايتونغ» الكلمة الاخيرة في عالم التحريض ، ولعله سيرسل لنا قريبا الف طلقة لينهينا بدلا من ان يرسل الف ثالر ليساعدنا » . لكن انغلز نجح في تعويم اربعة عشر سهما ، وفي الاول من حزيران ١٨٤٨ ظهر العدد الاول من « نيو راينيخه تزايتونغ » ، وعليه توقيع ماركس بوصفه رئيس التحرير ، وانغلز وويرث والاخوان ولف كأعضاء في هيئة التحرير .

٢ ـ أيام حزيران

وصفت « نيو راينيخه تزايتونغ » نفسها بأنها « صحيفة الديمقراطية »، ولكنها لم تكن تعني الديمقراطية البرلمانية اليسارية . فلم تكن تهدهد طموحات كهذه ، بل كانت تعتبر ان من الضروري مراقبة الديمقراطية الرسمية مراقبة وثيقة . وأعلنت ان مثلها الاعلى ليس جمهورية سوداء ولا حمراء ولا ذهبية ، وان عملها المعارض الحقيقي سيبدأ فقط بعد تأسيس الجمهورية .

وكانت الصحيفة انسجاما مع روح البيان الشيوعي تسعى الى تنمية الحركة الثورية على اساس الظروف القائمة . وصارت هذه المهمة أكثر الحاحا ، اذ ان الارض الثورية التي اكتسبت في آذار خسر نصفها ثانية في حزيران . ففي فيينا ، حيث كانت التناقضات الطبقية العدائية غير نامية ، سادت فوضى مستحكمة ،

بينما كانت البرجوازية في برلين تمسك بمقاليد الامور في يديها ، ولكنهـا كانت تحدوها رغبة جامحة في اعطائها في أول فرصة لقوى ما قبل آذار المقهورة . وفي الولايات المانية ، كان الوزراء الليبراليون يتيهون خيلاء ، ولكنهم لم يميزوا انفسهم عن سابقيهم من الاقطاعيين بأي مسلك رجولي تجاه عروش الملوك ، بل بقدر أكبر من الخنوع تجاهها . وتتوجت الامور بانعقاد جمعية فرانكفورت الوطنية في ١٨ أيار وكان الاجتماع يهدف الى تحقيق الوحدة الالمانية ، ولكن الجمعية أثبتت أنها ليست أكثر من ناد للكلام .

عالجت «نيو راينيخه تزايتونغ» في عددها الاول هذا الواقع المظلم بحدة جعلت نصف حملة أسهمها القلائل يتراجعون . ولم يكن ذلك لان الصحيفة تقدمت بمطالب مبالغ فيها اعتمادا على الرؤية السياسية للابطال البرلمانيين وشجاعتهم . فقد انتقدت الصحيفة النزعة الجمهورية الفيدرالية للجناح اليساري في برلمان فرانكفورت ، واعلنت ان فيدرالية مكونة من الملكيات الدستورية والامارات الصغيرة والجمهوريات وعلى رأسها حكومة جمهورية لا يمكن قبولها كترتيب نهائي لالمانيا موحدة ، ولكنها ما لبثت أن اضافت :

« اننا لا نتقدم بأي مطلب طوباوي لانشاء جمهورية المانية واحدة وموحدة فورا ، ولكننا نطلب ان لا يخلط ما يسمى بالحزب الديمقراطي الراديكالي المرحلة الاولى للنضال والحركة الثورية بالهدف النهائي لهما . فالوحدة الالمانية والدستور الالماني لا يمكن انجازهما الا نتيجة لحركة ستضطر الى اتخاذ قراراتها نتيجة للنزاعات الداخلية ولحرب ضد الشرق في وقت واحد . ولا يمكن أن يصدر دستور قاطع بقرار ، فهو سيكون نتيجة حركة لما نشهدها بعد . ولذا فان المسألة ليست تحقيق هذه الفكرة السياسية أو تلك أو اعتناق هذا الراي او ذاك ، بل هي التقاط الوجهة العامة للتطور . وما على الجمعية الوطنية الا أن تتخذ الخطوات العملية الممكنة مباشرة » .

غير أن الجمعية الوطنية عملت ما يمكن اعتباره غير عملي اطلاقا طبقا لكل قوانين المنطق : لقد انتخبت الدوق الاكبر النمسوي يوهان وصيا على الرايخ ، واضعة الحركة كلها في أيدي الامراء .

وكانت الاحداث في برلين أكثر اهمية منها في فرانكفورت . فقد كانت الدولة البروسية أخطر عدو للثورة داخل المانيا . وفي ١٨ آذار أطاحت الثورة بالحكومة البروسية ، ولكن ثمار هذا الانتصار كان لا بد لها ، في الظرف التاريخي آنذاك ، أن تقع في حضن البرجوازية ، التي سارعت الى خيانة الثورة . فقد عمدت وزارة كامفوزن ــ هانزمان البرجوازية الى دعوة المجلس الموحد الى الانعقاد بحجة ضرورة ضمان « استمرار العلاقات القانونية » ، وبذلك انكرت هذه الوزارة أصلها الثوري . وأعطت الوزارة للمجلس الموحد ، تلك الهيئة الاقطاعية ، مهمة وضع دستور برجوازي . وفي ٦ و ٨ نيسان أقر قانونان باحقاق الحقوق البرجوازية المختلفة كأساس للدستور الجديد ، ونص القانونان على اجراء انتخابات عامة سرية غير مباشرة لانتخاب جمعية جديدة تصنع الدستور بالاتفاق مع العرش .

وبهذا المبدأ الرائع ، مبدأ « الاتفاق مع العرش ».، ضاع الانتصار الذي أحرزته بروليتاريا برلين في ١٨ آذار ضد الحرس البروسي ، ذلك انه اذا كانت قرارات الجمعية الجديدة المقترحة تتطلب موافقة العرش ، فان من الواضح أن هذا الاخير قد استعاد مركزه القوي ثانية . واصبح يستطيع مرة أخرى أن يملي ارادته ما لم تطرحه ارضا ثورة أخرى ، وتلك امكانية كانت وزارة كامفوزن ـ هانزمان تفعل كل ما في وسعها لمنعها . فقد خادعت الجمعية التي انعقدت في ٢٢ أيار ، وجعلت من نفسها « درعا » للعائلة المالكة ، وأعطت للثورة المضادة التي لم تكن لتجد لها قائدا هذا القائد باستدعائها لامير بروسيا من انجلترا ، التي كان ولي العهد الرجعي هذا قد فر اليها هربا من غضب الجماهير في ١٨ آذار .

لم تكن جمعية برلين بالتأكيد هيئة ثورية ، ولكنها على الاقل لم تستطع أن تحتفظ برأسها باستمرار في الغيوم كما فعلت مثيلتها في فرانكفورت . فقد استسلمت في مسألة « الاتفاق مع العرش » ، ذلك المبدأ الذي امتص النخاع من عظامها هي ذاتها . ولكن بعد أن لفظت جماهير برلين كلمتها مرة أخرى بالهجوم على زيفهاوس (أحد المباني العسكرية) في ١٤ حزيران ، اشتد عضد جمعية برلين مرة ثانية، واتخذت موقفا حازما نوعا ما تجاه العرش . ونتيجة لذلك استقال كامفاوزن، بينما تمسك هانزمان بمنصبه . وكان الفارق بين الاثنين هو أن كامفاوزن كانت لا تزال تقض مضجعه بقايا من الايديولوجية البرجوازية التقدمية، بينما كرس هانزمان نفسه بلا خجل ولا وازع لخدمة المصالح البرجوازية المحصن ، وكان يعتقد أنه يدعم هذه المصالح أفضل دعم بالارتباط بحماسة بالملك واليونكر وبافساد الجمعية واضطهاد الجماهير اضطهادا لم يسبق لها ان تعرضت له . وقد سمحت له الثورة المضادة ، لاسباب خاصة بها ، أن يحتفظ براسه في هذه المرحلة .

فعلت « نيو راينيخه تزايتونغ » كل ما بوسعها للوقوف في وجه هذا التطور القاتل . فأوضحت أن كامفاوزن كان يزرع بذور الرجعية لمصلحة البرجوازية ، ولكن المحصول سيكون في النهاية لمصلحة الحزب الاقطاعي . وفعلت كل ما تستطيع لتصليب مقاومة جمعية برلين وعلى الاخص جناحها اليساري ، وقاتلت ضد الغضب الذي اثاره تدمير عدد من الاعلام والاسلحة القديمة في الهجوم على زيفهاوس معلنة أن الشعب قد أبدى غريزة لا تخطىء لا في مهاجمة مضطهديه فحسب ، بل وايضا في تدمير أوهام ماضيه ذاته . وفوق كل شيء ، حذرت الصحيفة الجناح اليساري من أن يقنع بالمظاهر الخداعة للانتصارات البرلمانية ، موضحة أن الرجعية على استعداد لان تقدم للجناح اليساري هذه المظاهر بسرور ما دامت مواقع القوة الحقيقية لا تزال في يد القوى القديمة .

وتنبأت الصحيفة بنهاية تعيسة لوزارة هانزمان ، التي كانت تسعى الى وضع اسس السيطرة البرجوازية بالحلول الوسط مع الدولة الاقطاعية البوليسية القديمة. ان الوزارة « في مهمتها الغامضة المتناقضة، تضع لنفسها هدفا هو تحقيق السيطرة البرجوازية ، ولكنها ترى نفسها في كل لحظة وقد خدعتها الرجعية لمصلحة الاقطاع والحكم المطلق ، وفي النهاية ستكون الوزارة هي الخاسرة . فالبرجوازية لا تستطيع

تحقيق سيطرتها دون أن تكسب الشعب كله حليفا مؤقتا لها ودون أن تتخذ موقفا ديمقراطيا الى هذا الحد او ذاك » . وصبت الصحيفة نقدا لاذعا على محاولات البرجوازية جعل تحرير الفلاحين ، وهو المهمة المشروعة للثورة البرجوازية ، ضربا من الشعوذة : « ان برجوازية عام ١٨٤٨ الالمانية تخون الفلاحين ، دونما شرف او خجل، على الرغم من ان الفلاحين يمثلون حليفها الطبيعي، وعلى الرغم من انه لا حول لها ولا طول ضد الارستقراطية دون دعم الفلاحين » . واعلنت الصحيفة ان ثورة ١٨٤٨ الالمانية ليست غير محاكاة تثير السخرية لثورة ١٧٨٩ الفرنسية .

ولقد كانت محاكاة بمعنى آخر كذلك ، ذلك أن الثورة الالمانية لم تحرز النصر نتيجة لقوتها الخاصة بل نتيجة للثورة الفرنسية التي كانت قد اعطت للبروليتاريا حصة في الحكومة . وهذا لا يبرر ولا يعذر خيانة البرجوازية الالمانية للثورة ، ولكنه على الاقل يفسرها . وحين بدأت وزارة هانزمان تقدم خدماتها في حفر القبور ، كان الشبح الذي تخشاه قد حظر تقريبا . ففي معركة رهيبة في الشوارع استمرت اربعة أيام هزمت بروليتاريا باريس بفضل الخدمات المشتركة التي اداها رأس المال وكل الطبقات والاحزاب البرجوازية .

وفي المانيا رفعت «نيو راينيخه تزايتونغ» راية «المقهورين المنتصرين» من بين الركام ، فأوضح ماركس في مقالة لاحقة ، الجانب الذي يتوجب على الديمقراطية ان تقف معه في الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا : « سيسألوننا عما اذا لم نكن نملك دموع وتنهدات وكلمات أسى وأسف لضحايا الحرس الوطني والحرس المتحرك والحرس الجمهوري الذين سقطوا امام غضب الشعب. ستعتني الدولة بأراملهم وأيتامهم وستمجدهم بيانات فخمة وستحمل جثثهم الى القبور جنازات مهيبة. وستعلن الصحافة الرسمية أنهم خالدون ، وتغني الرجعية الاوروبية من الشرق الى الغرب قصائد مديح لهم . من جهة أخرى من حق الصحافة الديمقراطية أن تضع اكاليل الغار في أعناق أبناء الشعب الذين تقض مضاجعهم ضربات الجوع المضني وتحتقرهم الصحافة الرسمية ويتخلى عنهم الاطباء ويحقرهم كل المواطنين المحترمين ويصفونهم بأنهم لصوص وأوغاد وعبيد ويلقى بزوجاتهم واطفالهم في خضم تعاسة ما بعدها تعاسة ويبعد افضل من تبقى منهم الى ما وراء البحار » .

كلفت هذه المقالة الرائعة التي لا تزال تنفث لهب الحماسة الثورية حتى في يومنا هذا ، كلفت « نيو راينيخه تزايتونغ » العدد الاكبر من حملة الاسهم الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بأسهمهم .

٣ ــ الحرب ضد روسيا

كانت الحرب ضد روسيا هي المحور الذي تحركت عليه «نيو راينيخه تزايتونغ» في السياسة الخارجية . فقد كانت تعتبر روسيا العدو الخطر للثورة الذي لا بد ان يدخل حلبة الصراع حالما تتخذ الحركة الثورية طابعا اوروبيا .

ولقد كانت محقة تماما في هذا المجال ، ذلك انه بينما كانت تدعو الى حرب ثورية ضد روسيا ، كان القيصر يعرض على امير بروسيا استخدام الجيش البروسي لاعادة الحكم الاستبدادي الى بروسيا بالقوة المسلحة . ولم تكن « نيو راينيخه تزايتونغ » تعرف ذلك ، ولكن هذا ما أثبتته الوثائق ، وبعد سنة من ذلك انقذ الدب الروسي الحكم الاستبدادي النمسوي، اذ سحق بقبضته القاسية الثورة الهنغارية. واعلنت « نيو راينيخه تزايتونغ » ان الثورة الالمانية لن تنتصر في النهاية الا بتدمير الدولتين البروسية والنمسوية ، وهذا ما سيظل مستحيلا طالما لم تكسر قوة القيصر .

كانت « نيو راينيخه تزايتونغ » تأمل أن تؤدي حرب كهذه ضد روسيا الى اطلاق القوى الثورية ، كما حدث في فرنسا عام ١٧٨٩ نتيجة الحرب ضد المانيا الاقطاعية. وقد قال وير ان الصحيفة كانت تعامل الامة الالمانية على اساس انها امة من «الرعاع»، وكان هذا صحيحا من حيث أنها صبت جام غضبها المرير على الخدمات الذليلة التي أداها الالمان طيلة سبعين عاما ضد حرية واستقلال الامم الاخرى في اميركا وفرنسا، في ايطاليا وبولندا ، في هولندا واليونان وكذلك في اقطار أخرى : « الآن وقد بدأ الالمان يحطمون نير قيودهم، يتوجب عليهم أن يبدلوا سياستهم تجاه البلدان الاخرى كلها ، والا فانهم سيجدون السلاسل التي صنعوها للآخرين تقيد حريتهم الشابة ذاتها . ان المانيا ستكسب حريتها بقدر ما تترك الاقطار الاخرى بحرية » . وشجبت الصحيفة السياسة الميكافيلية التي تنشر عمدا ، رغم اهتزازها من الجذور في المانيا ذاتها، كراهية ضيقة الافق لكل الاشياء الاجنبية،متحدية بذلك الطابع الكوزموبوليتي للالمان، وذلك كي تشل الطاقات الديمقراطية وتحول حمم الثورة عن مجراها وتشحذ سلاحا للقمع الداخلي .

«ورغم الضجيج الوطني الذي كانت تثيره الصحافة الالمانية كلها تقريبا»، وقفت « نيو راينيخه تزايتونغ » منذ البداية الى جانب البولنديين في بوسن والايطاليين في ايطاليا والهنغاريين في هنغاريا ، وسخرت من « التناقض التاريخي » الذي يسعى الى دفع الالمان في حملة صليبية ضد حرية بولندا وهنغاريا وايطاليا ، في حين أن الالمان ذاتهم يحاربون الحكومات ذاتها التي تسعى الى قيادتهم في هذه الحملة » . ان حربا ضد روسيا هي فقط الحرب الثورية بالنسبة لالمانيا . ففي حرب كهذه تستطيع المانيا أن تكفر عن كل آثام الماضي وتبرهن على رجولتها وتهزم طغاتها وتقدم خدمة لقضية المدنية بالتضحية بأبنائها بطريقة تشرف شعبا القى عنه قيود عبودية طالما قاساها ، وتكسب حرية في الداخل بتحرير نفسها خارجيا » .

ونتيجة لهذا الموقف دعمت « نيو راينيخه تزايتونغ » قضية الحرية البولندية بحماسة تفوق حماستها لاية امة مضطهدة أخرى . كانت الحركة في بولندا عام ١٨٤٨ تقتصر على مقاطعة بوسن البروسية ، لان بولندا الروسية كانت لا تزال منهوكة القوى منذ ثورة ١٨٣٠ وبولندا النمسوية منهوكة منذ انتفاضة ١٨٤٦ . وكانت هذه الحركة متواضعة في مواقفها فلم تطالب بغير ما وعدت به معاهدات ١٨١٥ ولم ينفذ : استبدال جيش الاحتلال بقوات وطنية وملء الوظائف كلها بأهل

البلاد . وبفعل اول تشنجات الخوف التي سببتها احداث ١٨ اذار وعدت حكومة برلين « باعادة تنظيم وطنية عامة ، مع انها بالطبع لم تكن تنوي تحقيق ذلك ابـدا . وبلغت طيبة البولنديين حدا جعلهم يثقون بنوايا الحكومة ، ولكنها حرضت عمـــدا سكان مقاطعة بوسن من اليهود والالمان وأثارت حربا أهلية تقع مسؤولية فظائعهـــا على البروسيين كلية . وفي وجه هذه الاستفزازات المتعمدة حـارب البولنديـــون بشهامة وشجاعة واستطاعوا اكثر من مرة هزيمة قوات تفوقهم عددا وعدة كما حدث في ٣٠ نيسان قرب ميلوسلاف ، ولكن قتال المناجل البولندية ضـــد الشظايـــا البروسية كان قتالا خاسرا على المدى الطويل .

وايضا في المسألة البولندية لعبت البرجوازية الالمانية دورهـا الخياني الهلــع المعهود . ففقد كانت البرجوازية قد ادركت قبل ثورة آذار ان قضية بولندا مرتبطة بقضية المانيا ، وحتى بعد ١٨ آذار اعلن الناطقون باسم البرجوازية في ما كان يدعى البرلمان الاولي في فرانكفورت ان العمل من اجل اعادة الوحدة القومية في بولندا واجب يقع على عاتق الامة الالمانية ، ولكن ذلك لم يمنع كامفاوزن من ان يلعب دور ذنب اليونكر البروسيين في هذه المسألة ايضا . فنفذ وعد «اعادة التنظيم الوطني» بطريقة مخزية ، فانتزع قطعة اثر اخرى من مقاطعة بوسن حتى انتزع ثلثيها ، وجعل المجلس الموحد يضمها الى العصبة الالمانية وكان هذا العمل المخزي آخر عمل قام به هذا المجلس الذي انتهت حياته التعسة وسط احتقار الشعب الالماني . وهنا واجهت الجمعية الوطنية في فرانكفورت مسألة ما اذا كان يتعين عليها ان تعترف بالنواب الذين انتخبوا في اجزاء بوسن المقتطعة اعضاء فيها ام لا . وبعد نقاشات دامت ثلاثة ايام قررت ما كان يتوقع منها ان تقرر، وبارك هذا الابن العاق للثورة العمل المخزي الذي قامت به الثورة المضادة .

وقد علقت «نيو راينيخه تزايتونغ» اهمية بالغة على هذه المسألة ، فقد عالجت نقاشات فرانكفورت بالكثير من التفصيل ونشرت ثمانية او تسعة مقالات بعضها طويل جدا حول الموضوع ، في حين انها كانت تعالج حرب الكلمات البرلمانية التي تجري في هذه الجمعية باختصار يشوبه الاحتقار . وتمثل هذه السلسلةمن المقالات اطول المقالات التي نشرت في الصحيفة اطلاقا ويبدو من محتواها وأسلوبها ان ماركس وانغلز قد اشتركا في كتابتها . وعلى اية حال يبدو ان انغلز قد قام بكتابة الجزء الاكبر منها فهي تحمل امارات اسلوبه وطريقته .

اول ما يلفت النظر في هذه المقالات وما يشرف الصحيفة في الوقت ذاته هو الصراحة التي تعري بها اللعبة الحقيرة التي كان يجري لعبها في بولندا . غير ان الغضب الاخلاقي الذي ابداه ماركس وانغلز لا يشبه في شيء العطف الذي ابداه مثلا روبرت بلوم في فرنسا للبولنديين الذين أسيئت معاملتهم ، فقد حكم ماركس وانغلز على جهود قائد الجناح اليساري المحترم هذا في هذا المجال بالكلمات التالية: «كلام فارغ ، ولكننا مستعدون أن نعترف بسرور انه كلام فارغ قيل في قضيـــة حقة» وقد كان حكمهما صحيحا ذلك ان بلوم فشل في ان يدرك ان خيانة بولندا كانت في الوقت ذاته خيانة للثورة الالمانية ، التي خسرت بذلك سلاحا لا يعوض

ضد عدوها الرهيب ، القيصرية .
اصدر ماركس وانغلز الحكم السلبي ذاته على مطلب «الاخاء العام بين الشعوب»، ذلك المطمح الغامض الى الاخاء بغض النظر عن الوضع التاريخي والتطور الاجتماعي للشعوب . فقد كانت كلمات مثل «العدالة والانسانية والحرية والمساواة والاخاء والاستقلال» بالنسبة لهما لا تعدو كونها كلمات اخلاقية جميلة الوقع ، ولكنها لا تلعب اي دور في المسائل السياسية والتاريخية . لقد كان ما اسمياه «الميثولوجيا الحديثة» بغيضا لهما على الدوام ، فقد كانا في خضم ايام الثورة المحمومة لا يعترفان بغير محك واحد هو : «مع او ضد !» .
تنفث المقالات البولندية المنشورة في «نيو راينيخه تزايتونغ» روحا ثورية حقيقية ترفعها فوق مستوى الكلام الموالي للبولنديين الذي اطلقه الديمقراطيون العاديون . ولا تزال هذه المقالات تشكل حتى يومنا هذا برهانا ساطعا على البصيرة السياسية الحادة النفاذة لمؤلفيها . لا شك انه كان من الاهمية بمكان ايضاح ان النضال من اجل الاستقلال البولندي لا يمكن ان ينجح الا اذا كان في الوقت ذاته انتصارا للديمقراطية الزراعية ضد الحكم المطلق الابوي الاقطاعي ، لكن ماركس وانغلز كانا على خطأ حين افترضا ان البولنديين انفسهم ادركوا ذلك منذ دستور عام ١٧٩١ . كذلك كان خطأ القول ان بولندا الديمقراطية الارستقراطية القديمة قد ماتت ودفنت ، ولكنها تركت خلفها فتى يافعا هو بولندا الديمقراطية الفلاحية . وقد اعتبر ماركس وانغلز اليونكر البولنديين الذين قاتلوا بشجاعة لا مثيل لها خلف المتاريس الاوروبية الغربية ليحرروا شعبهم من قبضة القوى الشرقية ممثلين للارستقراطية البولندية ، بينما كان هؤلاء في الواقع قد طهرتهم نيران النضال ورفعوا انفسهم فوق طبقتهم كما رفع هتن وسيكنغن نفسيهما مرة فوق الطبقة الاقطاعية الالمانية او كما فعل كلاوزوفيتس وغينسنو في الماضي الاقرب اذ رفعا نفسيهما فوق اليونكرية البروسية .
سرعان ما تخلى ماركس وانغلز عن هذا الخطأ ، ولكن انغلز تشبث على الدوام بالحكم المؤسف الذي اصدرته «نيو راينيخه تزايتونغ» على نضال الامم والجماعات السلافية الجنوبية من اجل التحرر الوطني . فقد كان لا يزال في عام ١٨٨٢ يحتفظ بالموقف الذي اتخذه عام ١٨٤٩ في سجاله مع باكونين . ثارت الشكوك حول باكونين في تموز ١٨٤٨ بانهعميل للحكومة الروسية، ونشرت «نيو راينيخه تزايتونغ» تقريرا بهذا المعنى من مراسلها في باريس ، بينما نشر مكتب هافا تقريرا مماثلا في الوقت ذاته . غير انه تبين في الحال ان هذا الشك لا اساس له ، فنشرت «نيو راينيخه تزايتونغ» اعتذارا طويلا . وفي نهاية آب وبداية ايلول سافر ماركس الى برلين وفيينا ، وفي برلين جدد صداقته القديمة مع باكونين ، وعندما طرد باكونين من بروسيا في تشرين الاول ، نشر ماركس مقالة شجب فيها السلطات بشدة . وعندما نشر انغلز سجاله ضد باكونين حول نداء وجهه هذا الاخير الى السلافيين ، بدأه بالتأكيد على ان باكونين «صديق لنا» ، وبعد ذلك مضى ليهاجم ميول باكونين السلافية بقسوة بالغة .

كانت مصالح الثورة في المسألة السلافية ايضا هي ما حدد موقف ماركس وانغلز . فقد وقف السلافيون النمسويون ، باستثناء البولنديين ، الى جانب الرجعية في صراع حكومة فينا ضد الالمان الثوريين وضد هنغاريا . وقد استولوا بهجوم عاصف على فيينا الثورية وأسلموها لانتقام السلطات «الملكية والامبراطورية» الذي لا يرحم . وحين كان انغلز يشن سجاله ضد باكونين ، كانوا ثانية يقاتلون هنغاريا المنتفضة ، التي غطى انغلز حربها الثورية على صفحات «نيو راينيخه تزايتونغ» بمعرفة خبيرة ، ولكن في الوقت ذاته بالتزام حماسي جعله يبالغ في تقدير مستوى التطور التاريخي للمجريين كما كان قد بالغ في تقدير مستوى تطور البولنديين . اجاب انغلز على طلب باكونين بان يمنح للسلافيين النمسويين استقلالهم قائلا : «كلا والف كلا ! ان جوابنا على الجمل العاطفية حول الاخاء ، التي تقدم لنا نيابة عن اكثر الامم فياوروبا معاداة للثورة هو : لقد كانت كراهية روسيا ولا تزال اول عاطفة ثورية للالمان . ومنذ الثورة تعززت هذه الكراهية لروسيا بالكراهية للتشيكيين والكرواتيين ، ونحن لا نستطيع ان نحرز انتصار الثورة ، مع البولنديين والمجريين الا بالارهاب الناشط ضد هذه الشعوب السلافية . اننا نعرف الان اين يتركز اعداء الثورة : في روسيا وفي البلدان السلافية النمسوية ، ولن يمنعنا اي مقدار مهما كبر من الجمل والنداءات لمستقبل ديمقراطي غامض لهذه البلدان من ان نعامل اعداءنا كاعداء» . ولذا فان انغلز يعلن نضالا قاسيا حتى الموت ضد «السلافية المضادة للثورة» .

لم يكن السبب الذي يكمن وراء هذه السطور موجة شرسة من الغضب والحنق على الخدمات الخانعة التي يقدمها السلافيون النمسويون للرجعية الاوروبية . وقد انكر انغلز على الشعوب السلافية عدا البولنديين والروس وربما السلافيين في تركيا اي مستقبل تاريخي «لسبب بسيط هو ان كل السلافيين الاخرين لا يملكون الشروط التاريخية والجغرافية والسياسية والصناعية للاستقلال والحياة القومية» . وقد جعلهم نضالهم من اجل الاستقلال القومي ادوات طيعة في يد القيصرية ، ولا تستطيع كل خداعات النفس طيبة المقصد التي يمارسها المؤيدون للسلافيين ان تبدل هذه الحقيقة اقل تبديل . والحق التاريخي للشعوب الثقافية العظيمة في متابعة تطورها الثوري اهم بكثير من نضال هذه الامم والجماعات الصغيرة المقعدة العاجزة من اجل الاستقلال ، حتى ولو كان ذلك سيؤدي الى اقتلاع برعم قومي صغير هنا او هناك وهو لا يزال يافعا . ونتيجة لهذه النضالات العظيمة ، سيكون لهذه الامم الصغيرة امتياز المشاركة في عملية تطور تاريخي كانت ستظل غريبة عنهم لو تركوا وحدهم . وفي عام ١٨٨٢ قال انغلز مرة اخرى الشيء ذاته : اذا وقف نضال السلافيين البلقانيين في وجه مصالح البروليتاريا الاوروبية الغربية فان اذناب القيصرية هؤلاء يستطيعون الذهاب الى الجحيم في رأيه ، فالعواطف الشاعرية لا مكان لها في النضال السياسي .

كان انغلز على خطأ حينما انكر على الامم السلافية الصغيرة اي مستقبل تاريخي، ولكن الفكرة الاساسية التي حكمت موقفه كانت صحيحة ولا شك ، وقد احتفظت

«نيو راينيخه تزايتونغ» بهذه الفكرة حتى عندما اتفقت مع «العواطف الشاعرية» التي يهدهدها الجهلة الادعياء .

٤ ـ ايام ايلول

كان هذا هو الوضع في الحرب التي بدأتها الحكومة البروسية بعد ١٨ اذار ضد الدنمارك بناء على تعليمات الجامعة الالمانية فيما يتعلق بمسألة سليزويغ ـ هولشتاين .

كانت هولشتاين مقاطعة المانية تنتمي الى الجامعة الالمانية . اما سليزويغ فلم تكن عضوا في الجامعة ، وكان قسمها الشمالي على الاقل دنماركيا في غالبيته . وكانت هاتان الدوقيتان ترتبطان بالدنمارك بعائلة حاكمة مشتركة ، على الرغم من ان مبدأ خلافة الرجال كان سائدا في سليزويغ ـ هولشتاين ، في حين كان مسموحا في الدنمارك ، التي تكبر الدوقيتين بقليل مساحة وعدد سكان ، ان يتولى العرش رجل او امرأة . كذلك كان لسليزويغ وهولشتاين ادارة مشتركة وكانا معا يتمتعان باستقلالهما كدولة .

كان هذا على الاقل هو الرابط الذي يربط الدنمارك بالدوقيتين طبقا للمعاهدات الدولية . ولكن حتى بداية القرن التاسع عشر ، كانت الروح الالمانية تسيطر على كوبنهاغن واللغة الالمانية هي اللغة الرسمية للمملكة ، بينما كان نبلاء سليزويغ ـ هولشتاين يمارسون نفوذا حاسما في الدوائر الدنماركية الحاكمة . بدأت التناقضات العدائية القومية تنمو خلال الحرب النابليونية . فقد كان على الدنمارك ان تدفع في معاهدات فيينا ثمن اخلاصها لولي عهد الثورة الفرنسية الكبرى بخسارة النرويج ، واضطرت في صراعها من اجل البقاء الى اقتطاع سليزويغ ـ هولشتاين ، ذلك ان الانتهاء التدريجي لسلالة الرجال في العائلة المالكة كان يتهدد بانفصال الدوقيتين التام عن الدنمارك لانهما في ظل هذه الظروف سيقعان في ايدي سلالة عائلية موازية . وبدأت الدنمارك في تحرير نفسها قدر الامكان من النفوذ الالماني ، ولكنها كانت اصغر من ان تنمي روحا قومية حقيقية ، فبدأت تنمي روحا اسكندنافية مصطنعة ، على امل الاتحاد مع النرويج والسويد في وحدة ثقافية مشتركة .

لاقت محاولات الحكومة الدنماركية السيطرة التامة على الدوقيتين معارضة عنيدة فيهما ، وسرعان ما اصبح النزاع مسألة قومية بالنسبة لالمانيا . فقد كانت المانيا ، خاصة بعد تشكيل الزولفرين (الاتحاد الجمركي) ، قد ادركت اهمية برزخ سليزويغ ـ هولشتاين لتجارتها المزدهرة وعلاقاتها البحرية . فرحبت بالمقاومة التي تلقاها الدعاية الدنماركية في الدوقيتين . واصبحت اغنية «سليزويغ ـ هولشتاين بالبحر محاطة» اشبه بنشيد وطني في المانيا منذ ١٨٤٤ . لم تتخط الحركة بالتأكيد النسق النعس الممل لتحريض ايام ما قبل اذار ، ولكن الحكومات الالمانية لم تستطع ان تحرر نفسها تماما من تأثيرها . وفي ١٨٤٧ ، اتخذ كريستيان الثامن ملك الدنمارك خطوة حاسمة في اللعبة ، اذ اصدر رسالة ملكية يعلن فيها دوقية

سليزويغ وقسما من دوقية هولشتاين اجزاء لا تتجزأ من مملكة الدنمارك . وعندئذ وجد المجلس الالماني في نفسه قوة كافية لاصدار احتجاج خجول بدلا من ان يعلن ان المسألة ليست من اختصاصه كما كان يفعل في العادة عندما يكون من الضروري الدفاع عن مصالح الشعب الالماني ضد عنف الامراء .

وبالطبع ، لم تشعر «نيو راينيخه تزايتونغ» بأي تعاطف مع حماسات البرجوازية، التي كانت تعتبرها الوجه المقلوب السكندنافية «حماسة لقومية نوردية عتيقة قرصانية فظة لا تستطيع ان تعبر عن مطامحها البعيدة الفور بالكلمات ، ولكنها تستطيع ذلك بالتأكيد بالافعال ، وبالتحديد في المعاملة القاسية للنساء والسكر المزمن والعاطفية الدامعة والغضب الجامح» . تحول الوضع بصورة غريبة جدا ، ذلك ان المعارضة البرجوازية في الدنمارك ، التي كانت تقاتل تحت راية السكندنافية، هي التي كانت تريد ان تجعل دوقية سليزويغ دنماركية وأن توسع نشاطات الدنمارك الاقتصادية وتعزز الدولة الدنماركية باعطائها دستورا حديثا ، بينما تحول قتال الدوقيتين من اجل حقوقهما الثابتة شيئا فشيئا الى نضال من اجل التقاليد الاقطاعية والامتيازات الملوكية .

في كانون الثاني عام ١٨٤٨ ، اعتلى فريدريك السابع عرش الدنمارك بوصفه الاخير في سلسلة رجال العائلة المالكة ، وشرع فورا طبقا لوصية ابيه على فراش الموت في اعداد دستور ليبرالي للدنمارك وللدوقيتين . وبعد ذلك بشهر ، ايقظت ثورة شباط في كوبنهاغن حركة شعبية قوية اتت بحزب ايدر-دان البرجوازي الى السلطة ، وفي الحال بدأ هذا الحزب في تنفيذ برنامجه بنشاط محموم هادفا الى اقتطاع دوقية سليزويغ حتى نهر ايدر . وعندئذ اعلنت الدوقيتان استقلالهما عن العائلة المالكة الدنماركية ، وشكلتا حكومة مؤقتة في كييل ، وحشدتا جيشا من سبعة آلاف رجل . وكان للارستقراطية اليد العليا في الحكومة المؤقتة ، وبدلا من ان تعبأ موارد الدوقيتين التي كانت تكفل للدوقيتين للوقوف في وجه الدنمارك ، وجهت الحكومة نداء الى المجلس الالماني والى الحكومة البروسية تطلب فيه المساعدة، ذلك انها لم تكن تخشى ان تتدخل اي من هاتين في الامتيازات الاقطاعية للارستقراطية .

وجد هذا النداء استجابة من هاتين الهيئتين اللتين اغتنمتا بسرور فرصة «الدفاع عن القضية الالمانية» كوسيلة مناسبة للشفاء من الضربات العنيفة التي وجهتها الثورة . فقد كان ملك بروسيا ، بعد الهزيمة الساحقة التي تلقاها حرسه على يد مقاتلي المتاريس في برلين في ١٨ اذار ، يتوق الى استعادة منزلة هذا الحرس باحتلال عسكري ، وبدا ان الدنمارك الضعيفة عسكريا تقدم له هذه الفرصة التي طال انتظاره لها . وكان الملك يكره حزب ايدر-دان على اساس انه احدى ثمار الثورة ، ولكنه في الوقت ذاته كان يعتبر اهل سليزويغ - هولشتاين متمردين على السلطة التي منحها الله ، ولذا فقد اعطى تعليمات لجنرالاته ان «يقدموا خدمتهم للثورة» بأخف طريقة ممكنة . وفي الوقت ذاته ارسل رسولا سريا الى كوبنهاغن

هو الميجر فون فلدنبرخ ليخبر الحكومة الدنماركية انه يرغب في ان تحتفـــظ سليزويغ-هولشتاين بحكامها الدوقيين، وأنه يتدخل فحسب كي يقف في وجه العناصر الراديكالية والجمهورية .

غير ان الحيلة لم تنطل على الدنمارك ، فوجهت نداء الى الدول الكبرى تطلب فيه المساعدة . وكان ان برهنت بريطانيا العظمى وروسيا انهما جد راغبتين في منح مساعدة كهذه . ومكنت هذه المساعدة الدنمارك من ان تلكم المانيا الكبيرة وكأنهـــا صبي صغير . ووجه رجال الحرب الدنماركيون ضربات قاصمة الى تجارة المانيـــا البحرية ، ولكن الجيش الفيدرالي الالماني بقيادة الجنرال البروسي فرانغل غـــزا الدوقيتين ، واستطاع رغم قيادته التعيسة ان يدفع القوات الدنماركية الضعيفة الى الخلف ، ليجد ان انتصاراته العسكرية قد اصبحت دون طائل بسبب التدخل الدبلوماسي الذي مارسته الدول الكبرى . ففي نهاية ايار ، تلقى فرانغل اوامر من برلين بسحب قواته من يوتلاند . وحينئذ وفي ٩ حزيران ، اعلنت الجمعية الوطنية ان قضية الدوقيتين هي قضية الامة الالمانية ولذا فانها تقع ضمن صلاحيات الجمعية التي تتعهد بالدفاع عن شرف المانيا .

كانت الحرب في الواقع تخاض باسم الجامعة الالمانية ، وكان يجب ان تكون قيادتها بيد الجمعية الوطنية وامير هابسبرغ الذي انتخبته وصيا على العرش . لكن الحكومة البروسية تجاهلت هذه الحقائق ، وفي ٢٨ آب عقدت تحت ضغط انجلترا وروسيا هدنة مالمو لمدة سبعة اشهر ، وفي الوقت ذاته عاملت باحتقار الشروط التي وضعها الوصي على الرايخ وتجاهلت ممثله تماما . كانت شروط الهدنة مذلة لالمانيا : حلت حكومة سليزويغ-هولشتاين المؤقتة ، ووضع الحكم الاعلى طيلة مدة الهدنة بيد واحد من انصار الدنمارك ، والغيت القرارات التي اصدرتها الحكومة المؤقتة وفصلت قوات سليزويغ وهولشتاين عن بعضهما . كذلك كانت المعاهدة لغير صالح المانيا عسكريا ، فقد كانت تمتد طيلة فصل الشتاء ، الذي يكون فيه الاسطول الدنماركي عاجزا عن اغلاق الشواطىء الالمانية بينما تكون القوات الالمانية قـــادرة بالاستفادة من الجليد على احتلال فاين جاعلة الدنمارك تقتصر على جزيرة زيلندا .

وصلت انباء توقيع الهدنة في الايام الاولى من ايلول ، وكان لها وقع القنبلة في الجمعية الوطنية في فرانكفورت ، التي كان اعضاؤها يناقشون بفصاحة لاهوتيي القرون الوسطى «الحقوق الاساسية» لدستور الرايخ المقبل . وفي الواقع اتخذ اعضاء الجمعية في موجة غضبهم الاولى قرارا بان يكون الخامس من ايلول موعدا لمنع الهدنة ، وادى ذلك الى استقالة وزارة الرايخ .

استقبلت «نيو راينيخه تزايتونغ» هذا القرار بترحاب مشوب بالرضى ، ولكن دون اية اوهام ، فقد طالبت بمتابعة الحرب ضد الدنمارك كنتيجة للتطور التاريخي بمعزل عن اي حقوق تفرضها المعاهدات : «ان الدنماركيين شعب يعتمد بلا قيد ولا شرط على المانيا تجاريا وصناعيا وسياسيا وفي الادب . ومن المعروف جيدا ان هامبورغ هي عاصمة الدنمارك لا كوبنهاغن ، وأن الدنمارك تستورد الادب من المانيا

كما تستورد منها وارداتها المادية . والادب الدنماركي ، باستثناء وحيد هو هولبرغ، ليس الا نسخة باهتة عن الادب الالماني ... يجب على المانيا ان تأخذ سليزويغ للمبرر ذاته الذي اخذت به فرنسا الفلاندرز والالزاس واللورين ، وستأخذ به آجلا او عاجلا بلجيكا . انه حق المدنية ضد البربرية ، حق التقدم ضد الركود ... ان الحرب التي نشنها في سليزويغ-هولشتاين حرب وطنية حقيقية . من الذي وقف الى جانب الدنمارك منذ البداية ؟ القوى الثلاث الاكثر عداء للثورة في اوروبا: روسيا وانجلترا والحكومة البروسية . ان الحكومة البروسية لم تشن الحرب الا بالمظاهر فقط قدر ما تستطيع . فلنتذكر مهمة فون فيلدنبرخ والرضى الذي اخلت به بروسيا يوتلاند بناء على طلب انجلترا وروسيا، ولنتذكر الان توقيع الهدنة. ان روسيا وانجلترا وبروسيا هي القوى الثلاث التي تخشى اكثر ما تخشى الثورة الالمانية وثمرتها الاولى ، الوحدة الالمانية : بروسيا لانها بذلك ستكف عن الوجود، وانجلترا لانها ستخسر استغلالها للسوق الالمانية ، وروسيا لان الديمقراطية لن تتقدم الى فستولا فحسب ، بل والى دفينا والدنيبر كذلك . لقد تآمرت بروسيا وروسيا وانجلترا معا ضد سليزويغ - هولشتاين ، ضد المانيا ، وضد الثورة . ان الحرب التي ستتمخض عن قرارات فرانكفورت ستكون حرب المانيا ضد بروسيا وانجلترا وروسيا . ان الحركة الثورية الالمانية تحتاج هذه الحرب لتنتشلها من سباتها ، حرب ضد قوى الثورة المضادة الثلاث ، حرب ستجعل بروسيا في النهاية جزءا لا يتجزأ من المانيا ، حرب ستجعل تحالف المانيا وبولندا ضرورة ملحة لا غنى عنها ، وستعطي ايطاليا حريتها ، حرب ستشن مباشرة ضد حلفاء المانيا المضادين للثورة من ١٧٩٢ الى ١٨١٥ ، حرب ستتهدد الوطن بالخطر وتنقذه في الوقت ذاته، لان انتصار المانيا سيعتمد على انتصار الديمقراطية » .

تعكس هذه المقطوعات الواضحة الحادة من «نيو راينيخه تزايتونغ» ما كانت الجماهير الثورية تشعر به غريزيا . فقد تدفق آلاف الرجال الى فرانكفورت من منطقة حولها يبلغ طوال نصف قطرها خمسين ميلا ، وهم مستعدون وتائقون لنضالات ثورية جديدة ، ولكن نضالا كهذا كما اوضحت «نيو راينيخه تزايتونغ» سيؤدي الى الغاء الجمعية الوطنية ذاتها ، وهذه الجمعية تفضل الموت جبنا على الموت بطولة . ففي ١٦ ايلول منحت موافقتها على هدنة مالمو ، بينما رفض ممثلو الجناح اليساري فيها عدا واحد او اثنين طلبا بان تجعل الجمعية الوطنية نفسها مجلسا ثوريا . وكان القتال الوحيد الذي حدث قتال متاريس صغير في فرانكفورت ذاتها، حتى ان هذا القتال قد سمح له عمدا الوصي على الرايخ بالنمو ليعطيه ذريعة لاستقدام قوات ضخمة من ثكنة مينس الفيدرالية المجاورة ليخيف بحرابه البرلمان ذا السيادة .

وفي الوقت ذاته لاقت وزارة هانزمان في برلين المصير التاعس الذي تنبأت به «نيو راينيخه تزايتونغ» . فقد عضدت «سلطة الدولة» ضد «قوى الفوضى» ، فساعدت بذلك العسكريين البروسيين والشرطة والدولة البيروقراطية على الوقوف

بعد الضربات التي كانت قد تلقتها في ١٨ آذار ، ولكنها لم تنجح في تعزيز مصالح الربح البرجوازي المحض التي خانت الثورة من اجلها . وفوق كل شيء ، وكما تنهد عضو من اعضاء الجمعية الوطنية في برلين قائلا «على الرغم من الانشقاق في ايام آذار ، لا يزال النظام العسكري القديم حاضرا بالتمام والكمال» . كان هذا صحيحا ، ومنذ ايام حزيران في باريس استعاد النظام العسكري صليل سيوفه بصورة اوتوماتيكية . لقد كان سرا يعرفه الجميع ان احد الاسباب التي دعت حكومة بروسيا الى الموافقة على الهدنة مع الدنمارك كان رغبتها في استدعاء فرانغل وقواته الى جوار برلين للاعداد لانقلاب مضاد للثورة . ولذا استجمعت جمعية برلين في ٧ ايلول شجاعتها وطلبت من وزير الحرب ان يصدر تحذيرا الى كل ضباط الجيش من القيام بنشاطات رجعية ، وأن يدعو كل الضباط الذين تتعاكس معتقداتهم السياسية مع الوضع الدستوري القائم الى الاستقالة طبقا للشرف العسكري .

لم يكن لهذا الطلب اهمية كبرى في الواقع خاصة وأن نداءات مماثلة كانت قد صدرت لافراد البيروقراطية دون ان يكون لها اي اثر . لكن الطلب كان اكثر مما تستطيع العسكرية احتماله من وزارة برجوازية . فسقطت وزارة هانزمان وشكلت وزارة بيروقراطية محضة برئاسة الجنرال فويل الذي قام حينئذ وبكل هدوء باصدار الامر المشار اليه الى الضباط كبرهان للعالم ان العسكرية لم تعد تخشى البرجوازية وانها اصبحت تستطيع الان السخرية منها والهزء بها .

وبهذه الطريقة رأت الجمعية «البالغة الذكاء والعاجزة» بعينيها تحقق نبوءة «نيو راينيخه تزايتونغ» بأن الجناح اليساري للجمعية سيستفيق ذات صباح ليجد انتصاره البرلماني وقد توافق مع هزيمته المادية . واجابت «نيو راينيخه تزايتونغ» على الضجة التي اثارتها الصحافة المضادة للثورة والتي اعلنت ان انتصار الجناح اليساري قد احرز بفعل ضغط جماهير برلين ، فنددت بافكار الصحف الليبرالية الخجول لذلك ، واعلنت بصراحة : «ان حق جماهير الشعب الديمقراطية في ممارسة تأثير معنوي على اعمال الجمعيات الدستورية حق ثوري قديم ، ولم تر اي فترة منذ الثورتين الفرنسية والانجليزية اي نقض لهذا الحق . وان على التاريخ ان يشكر هذا الحق على كل الخطوات النشيطة التي اتخذتها جمعيات كهذه» . لقد كانت هذه الاشارة موجهة بالقدر ذاته الى «القماءة البرلمانية» لجمعية فرانكفورت في ايام ايلول ١٨٤٨ والى جمعيات برلين .

٥ ـ ديمقراطية كولون

كان لازمات ايلول في برلين وفرانكفورت اصداء قوية في كولون . فقد كانت الراينلاند تمثل القدر الاكبر من القلق تجاه الثورة المضادة ، وكانت تغمرها قوات مجندة من المقاطعات الشرقية . وكان قرابة ثلث الجيش البروسي محتشدا في الراينلاند ووستفاليا ، وفي ظل هذه الظروف كانت الانتفاضات الصغيرة عقيمة

تماما . ولذا فقد كانت الحاجة الماسة تدعو الى القيام بتنظيم شامل منضبط للديمقراطية انتظارا لليوم الذي تتحول فيه نصف الثورة الى ثورة كاملة .

انعقد مؤتمر لثمانية وثمانين جمعية ديمقراطية في فرانكفورت في حزيران ، واتخذ قرارا بانشاء منظمة ديمقراطية . غير ان هذه المنظمة لم تتخذ شكلا صلبا وثابتا الا في كولون ، بينما ظلت في بقية المانيا فضفاضة مهلهلة . كانت ديمقراطية كولون منظمة في ثلاث جمعيات كبيرة، في كل منها بضعة آلاف من الاعضاء : الجمعية الديمقراطية ويقودها ماركس والمحامي شنايدر ، والجمعية العمالية ويقودها مول وشابر ، وجمعية الموظفين والموظّفين ويقودها هيرمان بيكر الشاب . وعندما قرر مؤتمر فرانكفورت ان تكون كولون مركز الراينلاند ووستفاليا ، شكلت هذه الجمعيات الثلاث لجنة مركزية مشتركة ، عقدت فيما بعد مؤتمرا لكل الجمعيات الديمقراطية في الراينلاند ووستفاليا ، اجتمع في اواسط آب في كولون . حضر المؤتمر اربعون ممثلا يمثلون ١٧ جمعية ، وقرروا ان تكون اللجنة المركزية المشتركة لجمعيات كولون الديمقراطية لجنة لمنطقة الراينلاند ووستفاليا .

كان ماركس القائد الفكري لهذه المنظمة ، كما كان قائد «نيو راينيخه تزايتونغ». فقد كان يملك موهبة القيادة الى حد بعيد ، ولم يكن الديمقراطيون المبتذلون على استعداد للصفح عنه لذلك . رأى كارل شورز ، الذي كان حينذاك طالبا له من العمر تسعة عشر عاما ، ماركس للمرة الاولى في مؤتمر كولون ، ووصفه فيما بعد من الذاكرة قائلا : «كان لماركس اذ ذاك ثلاثون عاما من العمر ، وكان قد اصبح القائد المعترف به لمدرسة للفكر الاشتراكي . كان الرجل القوي البنية بجبهته العريضة وعينيه السوداوين اللامعتين وشعره الاسود الفاحم ولحيته الكثة يجتذب الانتباه حالا . وكان شهيرا بأنه رجل علم في مجاله ، وفي الواقع كان ما قاله منطقيا واضحا وذا وزن ، ولكنني لم ار في حياتي كلها رجلا له من الغطرسة المؤذية التي لا يمكن الصفح عنها ما لماركس» . كان شورز الذي اصبح فيما بعد واحدا من ابطال البرجوازية فيذكر على وجه الخصوص التحقير الحاد الجارح واللهجة المزدرية التي كان ماركس يستخدم بها اصطلاح «برجوازي» ـ كما لو انه كان يبصق شيئا ذا طعم كريه . كانت هذه هي النغمة ذاتها التي غناها بعد ذلك ببضع سنوات الملازم تشوف ، الذي كتب بعد محادثة مع ماركس يقول : «لقد احدث ماركس في اثرا لا لتفوقه غير العادي فحسب ، ولكن ايضا لشخصيته القوية . لو كان قلب هذا الرجل في كبر عقله وكان حبه في عظم كراهيته لكنت اجتاز النيران من اجله ، رغم انه اشار في مناسبات عدة الى استصغاره لشأني وفي النهاية عبر عن هذا الاستصغار بصراحة تامة . انه الرجل الوحيد بيننا الذي استطيع ان أعزي اليه صفة القيادة والقدرة على فهم وضع كبير معقد دون الضياع في التفاصيل التي لا شأن لها» . وبعد ذلك جاء الكلام المعهود عن الطموح الشخصي الخطر لماركس . في صيف ١٨٤٨ ، كان البرت باريسبن ، التلميذ الاميركي لفوريه في كولون مراسلا لجريدة «نيويورك تريبيون» ، مع ناشرها شارلز دانا ، وكان تقييمه لماركس مختلفا : «لقد رأيت كارل ماركس قائد حركة الشعب . لقد كان نجمه حينذاك في أوجه . كان

رجلا في الثلاثينات له جسم قوي ووجه جميل وشعر اسود كثيف . وملامحه تدل على طاقة عظيمة ، ويستطيع المرء ان يلحظ وراء تواضعه وتحفظه نار الحماسة التي تميز الارواح الجريئة» . كان هذا صحيحا ، وفي تلك الايام كان ماركس يقود ديمقراطية كولون بشجاعة باردة ولكنها مقدامة .

على الرغم من ان ازمات ايلول احدثت هياجا عظيما في صفوف جمعيـــة فرانكفورت ، الا انها لم تكن تستطيع استجماع شجاعة كافية لتنظيم ثورة ، بينما لم تكن وزارة فويل في الجانب الاخر تستطيع تنظيم ثورة مضادة ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن لاي انتفاضة محلية حظ في النجاح ، ولذا فقـــد كانت السلطات تتوق الى استثارة انتفاضة كهذه كي تفرقها بالدم بكل سهولة . فاتخذت اجراءات قانونية وبوليسية ضد اعضاء لجنة المنطقة الديمقراطية وضد محرري «نيو راينيخه تزايتونغ» . وكانت الاعذار التي اختلقت لذلك واهية جدا ، لدرجة ان السلطات نفسها تخلت عنها بعد حين . رفع ماركس صوته محذرا من خداع السلطـــات الخؤون : في هذه اللحظة ليس هناك مسألة كبيرة تمارس اثرها على الشعب ككل وتحثه على النضال ، ولذا فان اي محاولة لتنظيم انتفاضة ستفشل . وستكون اي انتفاضة في هذه اللحظة أسوأ من عقيمة ، لان احداثا عظيمة ستجري في المستقبل القريب ، ويجب على الديمقراطيين ان لا يدعوا سلاحهم ينتزع منهم قبل ان يهل يوم المعركة . اما اذا جرؤ العرش على تنظيم ثورة حضارة ، فستحين عندئذ ساعة ثورة جديدة يقوم بها الشعب .

غير ان اضطرابات صغيرة حدثت ، عندما تقرر القاء القبض على بيكر وجول وشابر وفيلهلم ولف في ٢٥ ايلول . وأدت اخبار بأن قوات الجيش تتقدم لفض اجتماع جماهيري بالقوة الى اقامة المتاريس ، ولكن القوات العسكرية لم تجرؤ في الواقع على التحرك ، ولم يستجمع القائد العسكري شجاعة كافية لاعلان الحكم العسكري في كولون الا بعد ان هدأت الاحوال تماما. حظرت «نيو راينيخه تزايتونغ» بموجب القانون العسكري ، وفي ٢٧ ايلول توقفت عن الصدور . ولربما كان هذا هو الهدف الوحيد لهذا الانقلاب العسكري السخيف ، وبعد ذلك ببضعة ايام رفعت وزارة فويل حالة الحصار . تلقت «نيو راينيخه تزايتونغ» في الحقيقة ضربة قاسية فلم تستطع الظهور ثانية قبل الثاني عشر من تشرين الاول .

تشتت هيئة تحرير الصحيفة لان معظم اعضائها اضطروا الى اجتياز الحدود ليتفادوا القاء القبض عليهم ، فذهب انغلز الى بلجيكا ، وذهب فيلهلم ولف الـى بالاتينيت ، ومضى بعض الوقت قبل ان يعودا . ففي بداية كانون الثاني ١٨٤٩ كان انغلز لا يزال في برن التي ذهب اليها عبر فرنسا مشيا على الاقدام معظم الوقت . وفوق كل شيء كان تمويل الصحيفة في حالة محزنة . فبعد ان أدار حملة الاسهم ظهورهم لها استطاعت ان تعيش بعض الوقت على تزايد توزيعها ، ولكنها لم تكن بعد الضربة الاخيرة تستطيع تفادي الاختفاء النهائي ، لولا ان ماركس اخذها «كملكية شخصية له» ، اي لولا انه ضحى من اجلها بالقليل الذي ورثه عن والده ، او بالقليل الذي استطاع ان يحصل عليه مقدما مما سيرثه في المستقبل . لم ينبس ماركس

ببنت شفة حول هذا الموضوع ، ولكن يبدو من رسائل زوجته وأقوال اصدقائه انه ضحى بسبعة آلاف ثالر لتعزيز عملية التحريض والابقاء على الصحيفة حية . وليس مهما بالطبع ان نعرف المقدار الذي انفقه ماركس ، فالمسألة الرئيسية هي انه ضحى بكل ما يملك ليبقي الراية خفاقة .

كان موقف ماركس حرجا من ناحية اخرى كذلك . فبعد اندلاع الثورة قرر المجلس الفيدرالي في الثلاثين من اذار ان اللاجئين الالمان سيمنحون حق الترشيح والانتخاب في انتخابات الجمعية الوطنية الالمانية ، شريطة ان يعودوا الى المانيا ويبدوا رغبتهم في تجديد حقوقهم المدنية السابقة . وقد اعترفت الحكومة البروسية صراحة بهذا القرار. ولذا كان ماركس الذي يفي بكل الشروط التي تهيء له الحصول على الحقوق المدنية مؤهلا للمطالبة باستعادة حقوقه المدنية في بروسيا . وفي الواقع عندما تقدم بطلب في نيسان عام ١٨٤٨ ، منح مجلس مدينة كولون موافقته على الطلب فورا ، وعندما اوضح ماركس لرئيس شرطة كولون انه لا يستطيع احضار عائلته من ترير ما دامت المسألة غير محسومة ، اجابه رئيس السلطة بان سلطات المقاطعة ، التي يتعين عليها حسب قانون بروسيا القديم ان توافق على قرار مجلس المدينة ، ستمنح موافقتها بالتأكيد على استعادته لجنسيته . غير ان «نيو راينيخه تزايتونغ» بدات بالظهور في تلك الاثناء . وفي ٣ آب تسلم ماركس اخطارا رسميا من الشرطة يفيد ان الحكومة الملكية قررت «في الوقت الحاضر» ان لا تستخدم في حالته حقها في منح الجنسية البروسية لاجنبي ، وأن عليه لذلك ان يستمر في اعتبار نفسه اجنبيا . وفي ٢٢ آب تقدم ماركس باستئناف ساخط الى وزير الداخلية ، لكن استئنافه رفض .

ولما كان ماركس زوجا مخلصا وأبا عطوفا فقد جلب عائلته اثناء ذلك الى كولون رغم الشك . وكان عدد افراد العائلة قد ازداد اثناء ذلك : فقد ولدت الابنة الاولى التي سميت يني باسم والدتها في ايار ١٨٤٤ ثم تبعتها ابنة ثانية سميت لورا ولدت في ايلول عام ١٨٤٥ ، وبعد ذلك بقليل ولد ادغار ، وهو الابن الوحيد الذي لا يعرف تاريخ ميلاده بالضبط . وكانت العائلة منذ ايام باريس مصحوبة بهيلين ديموث وهي صديقة وفية وخادمة مخلصة .

لم يكن ماركس واحدا من اولئك الرجال الذين يتخذون من كل جديد من معارفهم صديقا وأخا في الحال ، لكن اخلاصه لاصدقائه كان لا يطاله الشك . وفي المؤتمر ذاته الذي يقال ان غطرسته التي لا تحتمل استعدت عليه رجالا كانوا لولا ذلك سيصادقونه بسرور ، اكتسب ماركس لنفسه صديقين مدى الحياة هما المحامي شيلي والمدرس ايماندت . وعلى الرغم من ان جدية الغرض الوحيد الذي قاد خطى ماركس خلال حياته كلها جعلته يبدو شريرا لاشباه الثوريين من امثال شورز وتيشوف ، الا انها كانت في الوقت ذاته تجذب بما لا يقاوم الثوريين الحقيقيين من امثال فريليغارث ولاسال الى مداره الشخصي والفكري .

٦ ـ فريليغارت ولاسال

كان فريليغارت يكبر ماركس بثمانية اعوام ، وقد رضع في شبابه حليب الاورثوذكسية النقي . وفي احدى المرات ، شعر فريليغارث بلسعة «راينيخه تزايتونغ» القديمة لنشره قصيدة ساخرة حول رحلة هيرويغ الفاشلة بعد طرد هذا الاخير من بروسيا . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تعرف الى ماركس اثناء المنفى في بروكسل . وكانت علاقتهما في البداية ودية ولكنها طفيفة . وقد قال في ماركس «انه رجل جيد ، ذو سلوك متواضع مثير للاهتمام» . ولم يكن فريليغارث حكما سيئا على الاشخاص ، فقد كان متحرزا من أي غرور شخصي ، وربما كان يملك لهذا السبب بالذات حسا سليما تجاه كل ما يشعر بالغطرسة في الاخرين .

نضجت معرفة الرجلين ببعضهما وتحولت الى صداقة ثابتة في صيف وخريف ١٨٤٨ ، وكان ما جذبهما الى بعضهما هو الاحترام الذي كان يكنه كل منهما للآخر بسبب شجاعته وصلابته في التمسك بالمبادىء الثورية المشتركة التي كان الاثنان يحملانها في الحركة الراينية . قال ماركس عن فريليغارث في رسالة الى وايدماير: «انه ثوري حقيقي ورجل مخلص تماما ، وهذا مديح لا أمنحه الا للقلائل» . وفي الوقت ذاته نصح ماركس وايدماير ان يطري الشاعر بعض الاطراء ، لان الشعراء بحاجة الى الاطراء اذا كان لهم ان يعطوا افضل ما لديهم . ولم يكن ماركس من ذلك النوع من الرجال الذي يحمل قلبه على كفه ، ولكنه كتب الى فريليغارث في احدى لحظات التوتر يقول : «اقول لك بصراحة انني لست مستعدا لخسارة اي من الرجال القلائل الذين اعتبرهم اصدقاء لي بأفضل ما تعنيه هذه الكلمة بسبب سوء تفاهم بسيط» . لم يكن لماركس ، عدا انغلز ، صديقا افضل من فريليغارث في اسوأ ايام الشدائد .

كانت هذه الصداقة على الدوام مصدر ضيق للجهلة الادعياء ، ربما لانها كانت بسيطة وحقيقية في الوقت ذاته . فكانوا احيانا يدعون ان خيال الشاعر المحموم قاده الى صحبة سيئة ، وفي احيان اخرى كانوا يقولون ان الديماغوجي الشيطاني نفث سمَّه في الشاعر المسالم فسمم اغانيه . وفي الواقع لا تستحق هذه الادعاءات كلمة واحدة ، لولا ان محاولة قد بذلت لتحويل فريليغارث الى اشتراكي ديمقراطي حديث ، وهذا ما يضعه في صورة خاطئة . لقد كان فريليغارث ثوريا بسبب غريزة متحمسة ومشاعر شاعرية لا بسبب اي اعتبارات علمية . وكان يعتبر ماركس رائدا للثورة ويعتبر العصبة الشيوعية الطليعة الثورية ، ولكن الحجج التاريخية المتضمنة في البيان الشيوعي ظلت غريبة عنه بهذا القدر او ذاك . وعلى وجه الخصوص ، لم يكن خياله الجامح يستطيع ان يلم بأي من تفاصيل العمل التحريضي اليومي التي كثيرا ما تكون تاعسة .

كان فرديناند لاسال ، الذي انضم الى حلقة ماركس في ذلك الحين ، نوعا مختلفا تماما . فقد كان يصغر ماركس بسبع سنوات ، وكانت شهرته حتى ذلك الحين قائمة على نضاله الحماسي من اجل الكونته هاتزفيلت التي اساء زوجها

معاملتها وخانتها حاشيتها . وفي شباط ١٨٤٨ القي القبض عليه بتهمة التحريض على سرقة صندوق يحتوي على وثائق ذات علاقة بقضية هاتزفلت ، ولكن محلفي كولون اطلقوا سراحه في ١١ آب ، بعد ان دافع عن نفسه دفاعا رائعا . وبعد ذلك كان باستطاعته ان يكرس نفسه للنضالات الثورية . ولم يكن لاسال «بتعاطفه مع كل قوة حقيقية» ليفشل في التأثر تأثرا عميقا بقائد النضال الثوري ماركس .

كان لاسال كذلك قد اجتاز المدرسة الهيغلية واتقن اساليبها ، دون ان يعتريه اي شك بصحتها ودون ان يتأثر بانحلال خلفاء هيغل . وخلال زيارة لباريس ، تعرف لاسال الى الاشتراكية الفرنسية وتنبأ له هاينه ببصيرته النبوية بمستقبل عظيم . غير ان التوقعات الكبيرة التي اثارها الشاب اليافع اصطدمت ببعض الغموض في سلوكه ، الذي لم يستطع السيطرة عليه خلال نضاله ضد تراث عرق مضطهد لا تزال رواسبه عالقة به . فقد كان الجو المبتذل لليهودية البولندية يسيطر على بيت والديه . ولم يستطع حتى أقل الناس تحيزا ان يصدقـــوا نواياه في انتصاره للكونتيه هاتزفلت ، الذي كان في نظره نضالا في حالة فردية ضد التعاسة الاجتماعية لمرحلة كاملة تشق الان طريقها الى القبر . حتى ان فريليغارث ، الذي لم يكن مغرما به اطلاقا ، تحدث باحتقار عن «التفاهات المنزلية التعيسة» التي يبدو للاسال ان تاريخ العالم يدور حولها .

وبعد ذلك بسبع سنوات ، عبر ماركس عن نفسه بالطريقة ذاتها : ان لاسال يعتبر نفسه قاهرا للعالم ، لانه كان قاسيا في مؤامرة شخصية ، كما لو ان رجلا له شخصية حقة مستعد للتضحية بعشر سنين من عمره على امر تافه كهذا . وبعد ذلك بعدة عقود ، اعلن انغلز ان ماركس كان يكن كراهية للاسال منذ البداية ، وأن «نيو راينيخه تزايتونغ» نشرت أقل ما يمكن عن قضية هاتزفلت لتتجنب الظهور بمظهر مشاركة لاسال في موقفه من القضية . غير ان ذاكرة انغلز خانته بالنسبة لهذه المسألة ، ذلك ان «نيو راينيخه تزايتونغ» كانت حتى يوم حظرها في ٢٧ ايلول تنشر تقارير مفصلة عن محاكمة لاسال بتهمة التحريض على سرقة الصندوق ، رغم انها بالطبع لم تكن تخفي ان للمسألة جوانب اخرى مؤسفة . اكثر من ذلك ، ساعد ماركس نفسه ، كما كتب لفريليغارث ، الكونتيه هاتزفلت في ضائقتها الماسة من موارده الخاصة المتواضعة . وعندما واجه ماركس صعوبات خطيرة في فترة ما بعد كولون ، اختار لاسال مع فريليغارث موضعا لسره في مدينة كان له فيها الكثير من الاصدقاء القدامى .

لكن انغلز كان على حق عندما قال ان ماركس كان يكن كراهية للاسال ، وان انغلز وفريليغارث كانا كذلك . لقد كانت تلك كراهية لا علاقة لها الا القليل بالعقل، وهناك من الشواهد ما يكفي للدلالة على ان ماركس لم يدعها تعميه عن الاهميـــة الاعمق لقضية هاتزفلت ، هذا اذا طرحنا جانبا الحماسة التي ابداها لاسال لقضية الثورة والمواهب البارزة التي كان يتمتع بها ، وفي النهاية الصداقة الصدوق التي كان رفيق السلاح الشاب يكنها لماركس .

ان من الضروري ان نتفحص بدقة تطور العلاقات بين الرجلين منذ البداية ،

لا من اجل لاسال ، ولكن لنحمي ماركس نفسه من سوء الفهم ، لان موقفه من لاسال يمثل اصعب مشكلة سيكولوجية في حياته كلها .

٧ ـ ايام تشرين الاول وتشرين الثاني

بدأت «نيو راينيخه تزايتونغ» في ١٢ تشرين الاول في الظهور ثانية ، واعلنت ان فريلفارث قد انضم الى هيئة تحريرها . كان من حسن حظ الصحيفة ان تستطيع الترحيب فورا بثورة جديدة ، ذلك ان بروليتاريا فيينا استطاعت في ٦ تشرين الاول ان تضرب بقبضتها بصلابة وتحبط خطط آل هابسبرغ المضادة للثورة ، والتي كانت تنوي بعد انتصارات رادتسكي في ايطاليا ان تسحق اولا الهنغاريين الثائرين ثم الالمان الثائرين وذلك بمساعدة الشعوب السلافية .

كان ماركس نفسه في فيينا من ٢٨ آب الى ٧ ايلول لتوعية الجماهير هناك ، غير انه يبدو من اشارات الصحف المتفرقة انه لم يكن ناجحا في ذلك ، وليس في هذا ما يثير العجب ، فقد كان عمال فيينا لا يزالون في مرحلة واطئة من التطور ، ولذا فقد كانت الغريزة الثورية التي عارضوا بها مغادرة الجيوش الى هنغاريا لقمع ثورتها تستحق قدرا اكبر من المديح . فلقد جذبوا بعملهم هذا اول نيران الثورة المضادة نحوهم ، وكانت تلك تضحية نبيلة اثبتت الارستقراطية الهنغارية انها لا تستحقها . فقد كانت تتوق الى شن نضالها من اجل استقلال هنغاريا على اساس حقوقها التاريخية ، لكن الجيش الهنغاري لم يقم بغير هجوم يفتقر الى الحماسة ادى الى زيادة مصاعب المنتفضين في فيينا بدلا من ان يقلل منها .

ولم يكن موقف الديمقراطية الالمانية افضل . ولا شك ان هذه الديمقراطية ادركت كم هي ذاتها معتمدة على نجاح انتفاضة فيينا ، ذلك انه اذا احرزت الثورة المضادة اليد العليا في العاصمة النمسوية فانها لا بد ان توجه ضربة قاضية للعاصمة البروسية ايضا حيث كانت تنتظر فرصتها المناسبة منذ امد . غير ان الديمقراطية الالمانية قنعت بنداءات عاطفية وتعبيرات عقيمة عن التعاطف ونداءات فارغة الى الوصي العاجز على الرايخ . وفي نهاية تشرين الاول اجتمع المؤتمر الديمقراطي ثانية في برلين ، واصدر نيابة عن فيينا المحاصرة بيانا وضعه روغه ، ولكن «نيو راينيخه تزايتونغ» اوضحت عن حق ان المؤتمر الديمقراطي حاول ان يعوض عن افتقاره الى الطاقة الثورية بالعواطف الدافقة والدموع المدرارة ، وأن النداء كله لا يحتوي على اثر للعاطفة الثورية او للافكار الثورية . غير ان نداءات ماركس المتقدة حماسا والمكتوبة بالنثر الرصين ونداءات فريليغارث بالشعر الرائع لمنح اهل فيينا المحاصرين المساعدة الوحيدة الفعالة بالاطاحة بالثورة المضادة في الداخل كان لها رجع الصدى في صحارى مقفرة .

هكذا تقرر مصير ثورة فيينا . فقد حارب العمال ببطولة بعد ان خانتهم البرجوازية والفلاحون ولم يدعمهم غير الطلبة وقطاع من البرجوازية الصغيرة . ولكن القوات المحاصرة استطاعت مساء الحادي والثلاثين من تشرين الاول اختراق

المدينة ، وفي الاول من تشرين الثاني كان علم الثورة المضادة الاصفر والاسود يرفرف من على كاتدرائية سان ستيفان .

لحقت بمأساة فيينا المؤثرة مأساة ـ ملهاة غريبة في برلين . فقد استقالت وزارة فويل لتفسح الطريق امام وزارة براندنبرغ ، وقامت هذه فورا باصدار امر الى الجمعية الوطنية بالانسحاب الى بلدة براندنبرغ ، وجعلت الجنرال فرانغل يحتل برلين ليدعم هذا الامر بقوة السلاح ، كان براندنبرغ ، وهو ابن غير شرعي لعائلة هوهنزلرن يقارن نفسه باعجاب بفيل سيسحق الثورة تحت قدمه . لكن « نيو راينيخه تزايتونغ» اعلنت صادقة ان كلا من براندنبرغ ومعاونه فرانغل «رجلان بلا عقل ولا قلب ولا مبادىء ، انهما ليس اكثر من شاربين كبيرين» ولكنهما لهذا السبب بالذات كانا الخصمين المناسبين لجمعية جبانة .

وفي الواقع كان شاربا فرانغل العسكريين كافيين لارهاب الجمعية . صحيح انها رفضت ان تخلي برلين ، مقرها الدستوري ، ولكن عندما اصبحت الضربة تلي الاخرى واعمال العنف تتتابع : حل الحرس الوطني ، اعلان الحكم العسكري الخ ، اعلنت ان الوزراء خونة واشتكتهم الى النائب العام . وتجاهلت مطالب عمال برلين بأن يجري الدفاع عن حقوق الشعب بقوة السلاح ، واعلنت بدلا من ذلك «المقاومة السلبية» ، اي بكلمات اخرى قررت ان تتحمل ضربات العدو دون أن ترد عليها . وبعدئذ اصبحت الجمعية تطرد من قاعة الى اخرى ، وفي انفجار مفاجىء سببه ظهور حراب فرانغل مرة اخرى ، اعلنت الجمعية بوقار انه ليس من حق وزارة براندنبرغ التصرف باموال الدولة او جمع الضرائب ما لم يسمح للجمعية بعقد جلساتها في برلين دون اعاقة او تأخير . ولكن ما ان أرفض اجتماع الجمعية ، حتى خشي رئيسها على جلده ، فاستدعى مكتب الجمعية ليسجل في محضر الجمعية ان القرار ضد الوزارة غير قانوني طبقا لقاعدة قانونية شكلية ، على الرغم من انه سمح باعلان القرار على الجمهور دون تأخير .

وترك لـ «نيو راينيخه تزايتونغ» ان تعارض انقلاب الحكومة بالطريقة التي يستحقها ، فاعلنت ان اللحظة قد أزفت لمعارضة الثورة المضادة بثورة ثانية ، ودعت الجماهير ان ترد على عنف الحكومة بكل وسائل العنف المضاد الممكنة . واعلنت ايضا ان المقاومة السلبية يجب ان يكون لها اساس من المقاومة الفعالة الايجابية ، والا كانت مقاومة النعاج للجزار . وفي الوقت ذاته نسفت بقسوة الحجة الكامنة وراء نظرية الاتفاق مع العرش ، التي سعى جبن البرجوازية الى الاختفاء وراءها : «ان العرش البروسي انما يمارس حقوقه عندما يتصرف تجاه الجمعية تصرف الحكم المطلق ، والجمعية مخطئة عندما لا تتعامل مع العرش كجمعية ذات سيادة ... ان البيروقراطية القديمة لا ترغب في ان تصبح خادمة للبرجوازية ، التي كانت تلعب بالنسبة لها حتى الان دور مدير المدرسة المستبد . والحزب الاقطاعي ليس راغبا في التضحية بامتيازاته ومصالحه على مذبح البرجوازية. وفي النهاية ، يرى العرش قاعدته الاجتماعية الحقيقية في عناصر المجتمع الاقطاعي القديم ، الذي يجد في العرش أرفع تعبير عنه ، بينما يعتبر العرش البرجوازية قاعدة مصطنعة غريبة عنه

ستحمله على شرط واحد هو ان يزول . ان الحكم «ببركة الله» يصبح بالنسبة للبرجوازية حقا قانونيا ، ويصبح حق الدم حق الورق ، وتصبح الشمس الملكية قرشا برجوازيا . ولذا رفض العرش ان يقتنع بكلام البرجوازية ، وأجاب نصف ثورتها بثورة مضادة كاملة . وقذف بالبرجوازية ثانية الى احضان الثورة ، الى احضان الشعب ، عندما صرخ «براندنبرغ في الجمعية ، والجمعية في براندبرغ !».

سخرت «نيو راينيخه تزايتونغ» من هذا الشعار وحولته الى «غرفة الحرس في الجمعية ، والجمعية في غرفة الحرس !» معبرة عن املها في ان ينتصر الشعب في هذا الشعار ويحوله الى رثاء على قبر آل براندنبرغ .

وبعد ان اصدرت جمعية برلين قرارها بحرمان الحكومة من حق جبي الضرائب، اصدرت لجنة المقاطعة الديمقراطية في برلين نداء في ١٨ تشرين الثاني ، وقعه ماركس وشابر وشنايدر يطالبون فيه الجمعيات الديمقراطيةان تتخذ فورا الاجراءات التالية : يجب مقاومة اي محاولة من السلطات لجبي الضرائب بأي وسيلة ممكنة ، يجب تنظيم الحرس الوطني فورا في كل مكان لمقاومة العدو ، يزود الفقراء بالاسلحة والذخائر على نفقة البلديات وبواسطة التبرعات الطوعية ، اذا رفضت الحكومة الاعتراف بقرارات الجمعية واحترامها فيجب انتخاب لجان السلامة العامة في كل مكان بالاتفاق مع البلديات ان امكن ، اما تلك البلديات التي تعارض الجمعية فيجب انتخابها بالتصويت الشعبي . هكذا فعلت الجمعية الديمقراطية ما كان يتعين على الجمعية فعله لو كانت جادة في قرارها بالامتناع عن دفع الضرائب . لكن ابطال جمعية برلين بدأوا يرتجفون خوفا من شجاعتهم هم ، وسارعوا كل الى منطقته ليمنعوا تنفيذ القرار الذي اتخذوه هم انفسهم ، وبعد ذلك انسلوا الى براندنبرغ ليواصلوا اجتماعاتهم . وبهذا خسرت الجمعية آخر أثر من آثار كرامتها ونفوذها ، وأصبح سهلا على الحكومة في ٥ كانون الاول أن تحل الجمعية وتفرض دستورا جديدا وانتخابا جديدا .

شلت خيانة جمعية برلين لجنة مقاطعة الراينلاند ، التي كانت مليئة بقوات الجيش . وفي ٢٢ تشرين الثاني القى القبض على لاسال ، الذي رحب بالنداء الذي أصدرته اللجنة بحماس ، أما في كولون فقد رفع المدعي العام قضية ضد موقعي النداء ، وان لم يجرؤ على اعتقالهم . وفي ٨ شباط ، مثل الموقعون على النداء أمام محكمة محلفين في كولون بتهمة تحريض الشعب على المقاومة المسلحة ضد السلطات وضد قوات العرش العسكرية .

حاول المدعي العام أن يستخدم قوانين ٦ و ٨ نيسان ، وهي ذاتها التي وطأت عليها الحكومة بانقلابها ، ضد الجمعية وضد المتهمين . لكن ماركس فند هذه المحاولة في خطبة قوية: يمكن لاولئك الذين قاموا بثورة ناجحة أن يشنقوا خصومهم، لا أن يجلسوا قضاة لهم ، يمكن لهم أن يتخلصوا من اعدائهم المهزومين ، ولكنهم لا يستطيعون أن يحاكموهم كمجرمين . انه لرياء جبان أن تستخدم قوانين أطاحت بها ثورة أو ثورة مضادة ضد اولئك الذين يعتنقون هذه القوانين . ومسألة ما اذا كانت الجمعية على صواب أو كان العرش على صواب مسألة تاريخية لا يحسمها محلفون ،

بل يحسمها التاريخ وحده .

لكن ماركس ذهب أبعد من ذلك ، فرفض أن يعترف بقوانين ٦ و ٨ نيسان على الاطلاق ، معلنا أن المجلس الموحد قد وضعها ليجنب العرش الاعتراف بهزيمته في نضالات آذار . ولا يمكن محاكمة جمعية تمثل المجتمع البرجوازي الحديث طبقـا لقوانين سنتها هيئة اقطاعية . وما مبدأ أن المجتمع يقوم على القانون سوى خرافـة قانونية . فعلى العكس من ذلك ، يقوم القانون في الواقع على المجتمع : « في يـدي القانون النابليوني . انه لم ينتج المجتمع البرجوازي ، على العكس لقد انتجه المجتمع البرجوازي ، الذي نشأ في القرن الثامن عشر واستمر في تطوره في القرن التاسع عشر ولم يجد في القانون النابليوني سوى تعبيره القانوني . وفي اللحظة التي يفشل القانون فيها في أن يعكس العلاقات الاجتماعية بصدق ، يصبح لا أكثر من قصاصة ورق . انك لا تستطيع ان تجعل القوانين القديمة أساس المجتمع الجديد أكثر ممـا صنعت القوانين القديمة المجتمع القديم » .

لقد فشلت جمعية برلين في فهم الدور التاريخي الذي القته على عاتقها ثـورة آذار . أما التهمة التي اتهمها المدعي العام للجمعية بأنها رفضت كل توسط فقد كان بلا أساس ، اذ أن المصيبة كلها والخطأ الذي اقترفته الجمعية يكمن بالضبط في أنها حطت من نفسها وتدهورت من مجلس ثوري الى جمعية من المساومين : « لم يكن ما شهدناه صراعا سياسيا بين جناحين على أساس مجتمع واحد ، بل صراعـا بـين مجتمعين ، صراعا اجتماعيا في شكل سياسي . لقد كان صراع المجتمع الاقطاعـي البيروقراطي القديم ضد المجتمع البرجوازي الحديث ، بين مجتمع ملكيـة الارض ومجتمع الصناعة ، بين مجتمع الايمان الاعمى ومجتمع المعرفة » . ولا يمكن أن يكون هناك سلام بين هذين المجتمعين، بل صراع لا بد أن ينهزم فيه احدهما . ان الامتناع عن دفع الضرائب لم يهز أسس المجتمع ، كما حلا للمدعي العام أن يقول . لقد كان ذلك دفاعا من جانب جزء من المجتمع ضد حكومة تهددت بالخطر أسس المجتمع .

ولم تتصرف الجمعية تصرفا غير قانوني في رفضها دفع الضرائب ، ولكنهـا لم تتصرف قانونيا باعلانها المقاومة السلبية : « اذا أعلن جمع الضرائب غير شرعي ، فان من واجبي أن اقاوم ، وبالقوة اذا دعت الضرورة ، أي محاولة للقيام بعمـل غـير شرعي » . وعلى الرغم من أن اولئك الذين اعلنوا رفض دفع الضرائب امتنعوا عـن سلوك الطريق الثوري خوفا على جلودهم ، الا ان جماهير الشعب اضطرت مع ذلك الى سلوك الطريق الثوري عندما نفذت هذا الاعلان . ولم يكن موقف الجمعية حاسما بالنسبة للشعب : « فليس للجمعية حقوق خاصة بها ، ذلـك أن الشعب انـاط بالجمعية مهمة الدفاع عن حقوقه . وعندما تفشل الجمعية في القيام بهذه المهمة ، تنتهي حقوقها ، وعندئذ يظهر الشعب في الحلبة بنفسه ليعمل من أجل حقوقـه . وعندما ينظم العرش ثورة مضادة ، يجيب الشعب عن حق بثورة جديدة » . وانهى ماركس خطابه بالقول أن الفصل الاول فحسب من الدراما قـد انتهى ، أما فصـل الختام فسيكون اما انتصارا كاملا للثورة المضادة أو ثورة جديدة ناجحـة ، رغم أن هذه الاخيرة قد لا تكون ممكنة الا بعد أن تنجز الثورة المضادة نصرها .

وبعد هذه الخطبة الثورية العصماء ، برأ المحلقون كل المتهمين، وشكروا ماركس على ايضاحاته المنيرة .

٨ ـ عمل من اعمال الغدر

بانتصار الثورة المضادة في فيينا وبرلين قيلت الكلمة الفصل في ألمانيا . وكان كل ما تبقى من انجازات الثورة جمعية فرانكفورت التي كانت قبل ذلك بوقت طويل قد فقدت كل اهليتها السياسية وصارت تبعثر قواها في مناقشات لا تنتهي حول دستور ورقي . وفي الواقع كانت المسألة الوحيدة البارزة هي ما اذا كانت الجمعية ستحل على رؤوس الحراب البروسية أم الحراب النمساوية .

وفي كانون الاول ، وصفت « نيورانيخه تزايتونغ » تطور الثورة والثورة المضادة البروسية فيسلسلة من المقالات الرائعة، ثم القت نظرةامل الى الطبقة العاملة الفرنسية ، التي كانت تتوقع منها حربا عالمية . « ان البلد الذي حول أمما بكاملها الى بروليتاريين ، والذي يمسك العالم بكامله بشباكه العملاقية ، والذي سبق ودفع ثمن الاستعادة الاوروبية مرة ، والذي نمت في حضنه التناقضات الطبقية في أوضح اشكالها ، ان هذا البلد ـ انجلترا ـ يبدو أنه الصخرة التي ستتحطم عليها أمواج الثورة . ان انجلترا ستميت المجتمع الجديد جوعا قبل أن يولد . ان انجلترا تسيطر على السوق العالمي ، وتحويل العلاقات الاقتصادية في كل بلد من بلدان اوروبا في القارة كلها سيكون زوبعة في فنجان بدون انجلترا. ان العلاقات الصناعية والتجارية في كل بلد تتحدد بعلاقتها مع البلدان الاخرى ، بعلاقتها مع السوق العالمي . لكن انجلترا تسيطر على السوق العالمي ، وانجلترا تسيطر عليها البرجوازية » .

وهكذا ، فان أي ثورة اجتماعية في فرنسا ستسحقها البرجوازية الانجليزية ، بقوة بريطانيا العظمى الصناعية والتجارية . وسيظل أي اصلاح اجتماعي جزئي في فرنسا أو أي مكان آخر في القارة الاوروبية أمنية فارغة . ولا يمكن الاطاحة بانجلترا القديمة الا بحرب عالمية ، يمكن لها وحدها أن تعطي للميثاقيين (الشارتيين) ، وهم حزب البروليتاريا الانجليزية المنظم ، الشروط الضرورية لانتفاضة ناجحة ضد مضطهديها الاقوياء . وفقط عندما يصبح الميثاقيون على راس الحكومة الانجليزية ، يمكن للثورة الاجتماعية أن تتقدم من عالم اليوتوبيا الى عالم الحقيقة .

لم تتحقق الشروط الاولية لهذا المستقبل المأمول . فالطبقة العاملة الفرنسية ، التي كانت لا تزال تنزف من الف جرح جرحته أيام حزيران ، لم تكن قادرة على نهوض آخر . بدات الثورة المضادة رحلتها في القارة الاوروبية في باريس أيام حزيران ، منتقلة الى فرانكفورت وفيينا وبرلين ، لتنتهي في هذه المرحلة في ١٠ كانون الاول بانتخاب بونابرت المزيف رئيسا للجمهورية الفرنسية. ومنذ ذلك الحين، كانت الثورة لا تزال حية في هنغاريا وحدها ، وقد وجدت محاميا فصيحا مجربا عنها في انغلز ، الذي كان قد عاد في تلك الاثناء الى كولون . اضطرت « نيو راينيخه تزايتونغ » بقية ما تبقى لها من عمر أن تقصر نشاطها على شن حرب غوار ضد الثورة

المضادة المتقدمة ، ولكنها شنت نضالها هذا بالشجاعة والتصميم ذاتهما اللذين شنت بهما نضالات السنين الماضية ، واستقبلت « نيو راينيخه تزايتونغ » حزمة الرقع الصحفية التي اهالتها عليها حكومة الرايخ بوصفها أسوأ صحيفة في صحافة سيئة بملاحظة ساخرة هي أن سلطة الرايخ اكثر السلطات الهزيلة هزالة . واجابت على الاستعراض الفخوّر « للبروسية » الذي تبناه يونكر شرقي الالب منذ انقلاب برلين بسخرية يستحقها : « كان من حسن حظنا نحن ابناء الراينلاند أن نربح دوقا اكبر للراينلاند السفلي نتيجة اعادة التنظيم الكبرى في برلين ، ان نربح رجلا لم يف بالشروط التي أصبح بموجبها دوقا اكبر . بالنسبة لنا ، لا يوجد ملك لبروسيا الا منذ جمعية برلين ، وما دام لا يوجد جمعية لـ « دوق الراينلاند السفلي الاكبر » ، فلا يوجد ملك لبروسيا بالنسبة لنا . لقد وقعنا في يدي دوق الراينلاند السفلي الاكبر نتيجة التلاعب بمصير الشعوب ، وحالما نصبح في موقف نستطيع معه رفض هذا التلاعب فاننا سنسأل الدوق الاكبر عن مؤهلاته ». كتبت هذه الاسطر في وقت كانت الثورة المضادة تقترف فيه أفظع جرائمها .

يلاحظ المرء منذ أول نظرة الى صفحات « نيو راينيخه تزايتونغ » في تلك الايام غياب أمر يتوقع المرء أن يجده قبل أي شيء آخر ، وذلك هو بالتحديد الوصف التفصلي لنشاطات العمال الالمان في ذلك الحين . لم تكن هذه الحركة قليلة الاهمية اطلاقا ، وقد امتدت حتى الى مقاطعات يونكر شرقي الالب ذاتها وكان لها مجالسها ومنظماتها وصحفها ، ووجدت قائدا قديرا لها في ستيفان بورن الذي كان على صلة جيدة بماركس وانغلز منذ فترة باريس وبروكسل والذي كان لا يزال يرسل مقالات الى « نيو راينيخه تزايتونغ » من برلين وليبزيغ . فهم بورن البيان الشيوعي جيدا ، ولكنه كان أقل نجاحا في تطبيق مبادئه على الوعي الطبقي المتخلف لبروليتاريا القسم الاكبر من المانيا ، وفيما بعد شجب انغلز نشاطات بورن بقسوة ظالمة . ولكن ربما كان صحيحا ما قاله بورن في مذكراته من ان ماركس وانغلز لم ينبسا خلال سنوات الثورة أي كلمة تعبر عن عدم رضاهما على تلك النشاطات ، وهذا بالطبع لا يستثني امكانية ان يكونا غير راضيين عن هذه المسألة التفصيلية او تلك . وعلى أية حال ، قام ماركس وانغلز في ربيع عام ١٨٤٩ بخطوتهما الاولى تجاه حركة الطبقة العاملة التي تطورت في تلك الاثناء بمعزل عن تأثيرهما .

ان قلة الاهتمام الذي أبدته « نيو راينيخه تزايتونغ » تجاه هذه الحركة في البداية يمكن تفسيره جزئيا بأن رابطة عمال كولون كان لها صحيفتها الخاصة بها ، التي كانت تظهر مرتين في الاسبوع ويحررها مول وشابر ، وجزئيا وربما بقدر اكبر بأن « نيو راينيخه تزايتونغ » كانت قبل كل شيء صحيفة للديمقراطية ، اي انها كانت تهدف الى تمثيل المصالح المشتركة للبرجوازية والبروليتاريا ضد الحكم المطلق والاقطاع . وكان لهذه المهمة أهمية فائقة في ذلك الحين لانها تساعد على خلق الاسس التي تستطيع البروليتاريا أن تبدأ بها مباحثاتها الخاصة مع البرجوازية . غير أن القطاع البرجوازي من الحركة الديمقراطية فقد معنوياته بسرعة ، وانهار انهيارا تعيسا أمام كل اختبار جدي . كان هناك أناس مثل ماين وكريغ (اللذين

عادا في تلك الاثناء من اميركا) في لجنة الخمسة التي انتخبها المؤتمر الديمقراطي الاول في حزيران ١٨٤٨ . وفي ظل قيادة كهذه بدأت المنظمة تنهار بسرعة . وحلت الكارثة عندما عقدت المنظمة مؤتمرها الثاني عشية الانقلاب البروسي . فقد انتخبت لجنة جديدة كان دستر عضوا فيها ، وكان هذا صديقا ونصيرا لماركس ، ولكن هذا لم يكن اكثر من دين للمستقبل . فشل الجناح اليساري البرلماني في جمعية برلين في أزمة تشرين الثاني وغاص الجناح اليساري لجمعية فرانكفورت أكثر فأكثر في حمأة التسويات التعيسة .

وفي ظل هذا الوضع أعلن ماركس وفلهلم ولف وشابر وهرمن بيكر استقالتهم من لجنة المنطقة الديمقراطية في ١٥ نيسان مبررين هذه الاستقالة كما يلي : « في رأينا ان الشكل الراهن لتنظيم الجمعيات الديمقراطية يحتوي على عناصر متنافرة تجعل من المستحيل القيام بأي نشاط مفيد لتحقيق غاياته . وفي رأينا أن تنظيما أوثق للمنظمات العمالية سيكون اكثر فائدة لان هذه المنظمات مكونة من عناصر اكثر تجانسا » . وفي الوقت ذاته استقالت جمعية عمال كولون من رابطة المنظمات الديمقراطية الراينية ، ودعت كل المنظمات العمالية وغيرها من المنظمات التي تدين بمبادىء الاشتراكية الديمقراطية الى ارسال ممثلين عنها الى مؤتمر يعقد في ٦ أيار. وقد دعي هذا المؤتمر الاخير ليقرر انشاء تنظيم لجمعيات العمال في الراينلاند ووستفاليا ، وليقرر أيضا ما اذا كان يجب ارسال مندوبين الى مؤتمر لكل المنظمات العمالية دعته جمعية الاخاء العمالي في ليبزيغ ، وهي الجمعية التي يقودها بورن ، الى الانعقاد في حزيران .

وفي ٢٠ آذار ، وقبل أن تتخذ هذه الخطوات ، كانت « نيو راينيخه تزايتونغ » قد بدأت تنشر مقالات فيلهلم ولف عن مليونيزي سيليسيا ؛ تلك المقالات التي أثارت ثائرة البروليتاريا الريفية . وفي ٥ نيسان بدأت تنشر المحاضرات التي كان ماركس قد القاها على جمعيات العمال في بروكسل حول رأس المال والعمل المأجور . وبينت الصحيفة على أساس النضالات الجماهيرية الضخمة عام ١٨٤٨ أن كل انتفاضة ثورية لا بد أن تفشل ، مهما بدت أهدافها بعيدة عن الصراع الطبقي ، ما لم تنتصر الطبقة العاملة ، وبعد ذلك حولت انتباهها الى مسألة العلاقات الاقتصادية التي يقوم على أساسها وجود البرجوازية وعبودية العمال معا .

غير أن هذا التطور الواعد انقطع بفعل الصراعات التي نشبت حول الدستور الورقي الذي نجحت جمعية فرانكفورت أخيرا في تفصيله . ولم يكن هذا الدستور الثمين يستحق بحد ذاته اراقة نقطة واحدة من الدم، وكان التاج الامبريالي المتوارث الذي سعت الى وضعه على رأس ملك بروسيا أشبه بقبعات المهرجين . غير أن ملك بروسيا لم يرض بذلك ، ولكنه لم يرفضه قطعيا . فقد كان يريد التفاوض مع الامراء الالمان على أمل أن يوافقوا على الهيمنة البروسية مقابل أن تقدم بروسيا خدماتها العسكرية لتدمير ما تبقى من مكاسب الثورة في الولايات الصغيرة والدويلات .

كان ذلك تحديا صارخا ألهب شعلة الثورة ثانية ، مسببا عددا من الانتفاضات استمدت اسمها من دستور الرايخ ، وان لم تستمد محتواها منه . فقد كان دستور

الرايخ رغم نقاط ضعفه يمثل سيادة الشعب ، فسعت السلطات الى تدميره لتقيم سيادة الامراء مرة ثانية . فكان ان نشبت انتفاضات لدعم دستور الرايخ في مملكة ساكسونيا ودوقية بادن في بالانتينيت البافارية . وفي كل مكان لعب ملك بروسيا دور الجلاد ، رغم أن الحكام الآخرين سلبوه فيما بعد أجر الجلاد . كذلك نشبت انتفاضات معزولة في الراينلاند ، ولكنها سحقت جميعا بفعل التفوق العددي الساحق للقوات المعادية ، بفضل القوات العسكرية الضخمة التي حشدتها الحكومة في المقاطعة التي تحبها كثيرا .

ثم استجمعت السلطات شجاعة كافية لتكيل ضربة قاضية الى « نيو راينيخه تزايتونغ » . فعندما جعلت علامات صعود ثوري جديد نفسها محسوسة في كل مكان ، شبت معها نيران الحماسة الثورية على صفحات الجريدة ، وفي الواقع لم تكن الطبعات الخاصة التي اصدرتها الجريدة في نيسان وايار غير نداءات للشعب كي يستعد للانتفاضة القادمة . وقد شرفت جريدة « كروغ تزايتونغ » الرجعية صحيفة « نيو راينيخه تزايتونغ » عندما أعلنت ان وقاحتها لا مثيل لها ، وأن أعمال صحيفة « مونيتور » عام ١٧٩٣ تقف شاحبة بالمقارنة مع نشاطات « نيو راينيخه ». وكانت الحكومة تتحرق الى وضع يدها على « نيو راينيخه » ، ولكنها لم تجرؤ على ذلك . وبفضل شجاعة محلفي الراينلاند ، لم تؤد محاكمتان لماركس الا الى وضع اكاليل جديدة من الغار على رأسه ، وكذلك تملص قائد ثكنة كولون من اقتراح قدم من برلين يقضي بفرض الحكم العسكري على المدينة ، بأن تقدم بدلا من ذلك بطلب الى الشرطة يقترح فيه ابعاد ماركس بوصفه « شخصا خطرا » .

وأصاب هذا الطلب الشرطة بالحرج ، فحولته الى حاكم المقاطعة ، الذي حول نصيبه من الاحراج الى مانتوفل ، وزير الداخلية . وفي ١٠ آذار بعثت حكومة المقاطعة بتقرير الى برلين قالت فيه أن ماركس لا يزال في كولون ، على الرغم من أن الشرطة لم تسمح له بذلك ، وأن الصحيفة التي يحررها لا تزال تتابع أهدافها التخريبية وتحريضها ضد الوضع القائم ومطالبتها باقامة جمهورية اشتراكية ، في الوقت الذي تسخر فيه من كل ما تحترمه الانسانية وتعتبره عزيزا عليها . وكانت الصحيفة تزداد خطرا بالنظر الى أن حدة المزاج والوقاحة اللتين كانت تكتب بهما الصحيفة أديا الى زيادة عدد قرائها باستمرار . غير أن الشرطة كانت تخشى الاستجابة الى الطلب الذي تقدم به قائد الثكنة بابعاد ماركس ، ووجدت حكومة المقاطعة نفسها مضطرة الى دعم الشرطة لان ابعاد شخص « بغير سبب محدد غير اتجاه وخطورة الصحيفة التي يحررها » قد يسبب تظاهرات من جانب الحزب الديمقراطي .

اتصل مانتوفل ، بعد تسلمه هذا التقرير ، بايخمان رئيس مقاطعة الراين يسأله رأيه . وفي ٢٩ آذار أدلى ايخمان برأيه قائلا ان ابعاد ماركس أمر مبرر ، ولكن هناك صعوبات بشأنه ما لم يقترف ماركس جنحا أخرى . وعندئذ وفي ٧ نيسان أبلغ مانتوفل حكومة المقاطعة انه ليس لديه أي اعتراض على ابعاد ماركس ، ولكنه يترك تحديد الوقت والظروف لحكومة المقاطعة ، وانه يفضل أن يصدر أمر الابعاد بسبب

جنحة محددة . وفي النهاية ، صدر أمر الابعاد بسبب « الاتجاه الخطر » للصحيفة التي يحررها ماركس فحسب ، وليس بسبب أي جنحة محددة . وقد حدث ذلك في ١١ أيار ، عندما أصبحت الحكومة تشعر أن لديها من القوة ما يمكنها من توجيه ضربة كانت أجبن من أن توجهها في ٢٩ آذار أو في ٧ نيسان .

ان الاستاذ الجامعي البروسي الذي كشف حديثا عن السجل الوثائقي للمسألة في ملفات الدولة صنع جميلا لرؤيا فريليغارت الشاعرية ، فقد كتب هذا الاخير بتأثير الوحي المباشر لحادثة الابعاد يقول :

ليست تلك ضربة شريفة في قتال شريف
بل هي ضربة حقد وحيلة .

٩ ـ وحيلة جبانة أخرى

لم يكن ماركس في كولون عندما وصل أمر الابعاد . وعلى الرغم من أن توزيع « نيو راينيخه تزايتونغ » كان يزداد باستمرار حتى وصل ستة آلاف مشترك ، الا أن مصاعبها المالية لم تنته . فمع زيادة المبيعات ازدادت المصاريف المباشرة ، بينما لم تزد العائدات الا فيما بعد . ولذلك كان ماركس في هام يفاوض ريمبل ، أحد الراسماليين اللذين أبديا في ١٨٤٦ استعدادهما لتمويل انشاء دار نشر شيوعية . غير أن هذا الرجل الكريم أبقى خزائنه مقفلة ، وأحال ماركس على ملازم سابق يدعى هنز، وبالفعل أقرض هذا الاخير الصحيفة مبلغ ٣٠٠ ثالر بكفالة ماركس الشخصية. وعلى الرغم من أن هنز قد كشف أمره فيما بعد وعرف أنه عميل الا أنه كان في ذلك الوقت يتعرض لاضطهاد الشرطة ، وقد اصطحب ماركس عائدا الى كولون ، حيث وجد ماركس أمر الابعاد في انتظاره .

كانت هذه نهاية « نيو راينيخه تزايتونغ » . فقد كان عدد من محرريها في الموقف ذاته الذي كان ماركس فيه ، وكان يمكن ان يبعدوا في أي وقت بوصفهم « اجانبا » ، بينما كان الآخرون ملاحقين . وفي ١٩ أيار صدر العدد الاحمر الاخير من الصحيفة يحمل وداع فريليغارث الشهير ، وكلمة وداعية تتسم بالتحدي كتبها ماركس مقرعا فيها الحكومة بشدة : «لماذا تتعبون أنفسكم بالاكاذيب الحمقاء والجمل الشكلية ؟ اننا قساة انفسنا ولا نطلب منكم رحمة . وعندما يأتي دورنا فلن نتقدم بأية اعذار لارهابنا . لكن الارهابيين الملكيين ، ارهابيي حكمة الله وحق القانون ، فظون انذال يستحقون الاحتقار في الممارسة ، جبناء مخادعون في النظرية ، وبلا شرف في النظرية وفي الممارسة » . وحذرت « نيو راينيخه تزايتونغ » العمال من أي انتفاضات لان الوضع العسكري يجعل نجاح اي محاولات كهذه مستحيلا ، وشكر المحررون القراء لتعاطفهم ودعمهم ، معلنين أن كلمتهم الاخيرة ستكون دائما وفي كل مكان : « انعتاق الطبقة العاملة ! » .

وفي الوقت ذاته ادى ماركس كل الواجبات التي تترتب عليه كقبطان لسفينة غارقة . فدفع الثلاثمائة ثالر التي تسلمها من هنز و ١٥٠٠ ثالر دفعها المشتركون ودور النشر الخ وكل ما يملك من موارد سدادا للديون التي كانت على عاتق الصحيفة

للمطبعة وتجار الورق والكتبة والمراسلين وهيئة التحرير الخ . ولم يحتفظ ماركس لنفسه ولعائلته الا بفضة زوجته ، التي رهنها في فرانكفورت لقاء بضع مئات من النقود كان عليه أن يعيش عليها مع عائلته .

ومن فرانكفورت ذهب ماركس بصحبة انغلز الى مسرح الانتفاضة في بادن وبالاتينيت ، فزارا كالزروهة أولا ثم كيزر لوثرن ، حيث قابلا ديستر الذي كان الروح المحركة لحكومة المقاطعة فيها . وتسلم ماركس من ديستر تفويضا، من اللجنة المركزية الديمقراطية لتمثيل الحزب الثوري الالماني في باريس لدى « أهل الجبل » في الجمعية الوطنية ، الذين كانوا يمثلون الاشتراكية الديمقراطية في تلك الايام ويتكونون من مزيج من العناصر البرجوازية الصغيرة والبروليتارية ، وكان هؤلاء يعدون ضربة كبرى لاحزاب « القانون والنظام » ولممثلها بونابرت المزيف . وفي طريق عودتهما ، القي القبض عليهما شكا في انهما اشتركا في الانتفاضة ، واخذا الى دارمشتادت ومنها الى فرانكفورت حيثأطلق سراحهما. وبعد ذلك ذهب ماركسالى باريس ، بينما ذهب انغلز الى كيزرلوترن ليصبح معاونا في قوات للمتطوعين كان ينظمها ضابط بروسي سابق اسمه ويليش .

كتب ماركس في ٧ حزيران من باريس يقول ان رجعية ملكية تتنامى قوتها وان الوضع اسوأ منه أيام غيزوت ، ولكن ورغم ذلك لم يكن اندلاع البركان الثوري قريبا في أي وقت أقرب منه الآن . غير أن آمال ماركس ذهبت ادراج الرياح ، فقد فشلت الخطة التي كان يعدها « أهل الجبل » وفشلت بطريقة مؤسفة ايضا . وبعد ذلك بشهر، لحق ثأر المنتصرين بماركس ايضا ، ففي ١٩ تموز أبلغت الشرطة ماركس امرا من وزير الداخلية بأن عليه أن يقيم في منطقة موربيهان . وكانت تلك حيلة جبانة ، و «أكثر الاعمال المخزية خزيا»، كما قال فريليغارث في رسالة الى ماركس، عندما بلغه النبأ . « يقول لي دانيال أن موربيهان هي اسوأ منطقة في فرنسا صحيا ، فهي منطقة مستنقعات تعمها الحمى » . لكن ماركس لم يستسلم « لمحاولة القتل المستترة » هذه ، ونجح في الحصول على اقامة مؤقتة بعد أن استأنف الامر الصادر بحقه الى وزير الداخلية .

وحينذاك ، كان ماركس قد أصبح يعاني ضائقة مالية حادة ، فناشد لاسال وفريليغارث ان يساعداه . ففعل الرجلان كل ما في وسعهما، لكن فريليغارث اشتكى من أن لاسال لم يكن كتوما في جمعه للنقود ، مما جعل المسألة حديث كل الاندية . أحرج ماركس لذلك كثيرا ، وقال في رسالة بتاريخ ٣٠ تموز : « ان أعظم الصعوبات المالية أفضل بكثير من الشحاذة علنا ، وقد كتبت له أقول ذلك . لقد ضايقتني المسألة كثيرا » . غير أن لاسال نجح في تبديد ضيق ماركس برسالة تفيض بالنوايا الطيبة ، رغم أن تأكيداته بأنه سيعالج الامر مذ ذاك « باحتراس بالغ » ظلت مشكوكا فيها .

وفي ٢٣ آب كتب ماركس الى انغلز يخبره أنه سيغادر فرنسا ، وفي ٥ أيلول كتب الى فريليغارث يقول ان زوجته ستلحق به في ١٥ ايلول ، رغم انه لا يعرف من أين سيتدبر النقود اللازمة لرحلتها ولاقامتها عندما تصل . لقد لازمته العناية السوداء في منفاه الثالث ، وظلت له بعد ذاك رفيقا ثابتا .

الفصل السابع

المنفى في لندن

١ ــ « نيو راينيخه رفيو »

اخبر ماركس انغلز في رسالته الاخيرة له من باريس أن هناك احتمالا قويا في انشاء صحيفة المانية في لندن ، وأن جزءا من النقود اللازمة لذلك اصبحت متوفرة. وفي الوقت ذاته طلب من انغلز،الذي كان يعيش حينذاك لاجئا سياسيا في سويسرا بعد فشل انتفاضة بادن وبالانتينيت ، ان يغادر الى لندن على الفور . ففعل انغلز ذلك على ظهر سفينة ابحرت من جنوا .

لم يعد من الممكن ان يكتشف المرء من أين استحصلا على النقود الضرورية . ولكن لم يكن بامكانهما على وجه التأكيد أن يحصلا على الكثير ، وعلى أية حال لم يكونا يتوقعان للصحيفة حياة طويلة ، وكان ماركس يأمل أن تندلع حرب عالمية خلال الاشهر الثلاثة او الاربعة اللاحقة . تحمل النشرة التمهيدية لنيو راينيخه تزايتونغ ، صحيفة اقتصادية ــ سياسية يحررها كارل ماركس ، تاريخ الاول من كانون الثاني ١٨٥٠ في لندن ، كما تحمل توقيع كونراد شرام بوصفه كفيلا . وتعلن الوثيقة أن محرري « نيو راينيخه تزايتونغ » قد قدموا الى لندن ، بعد أن اشتركوا في الحركة الثورية في جنوب المانيا وفي باريس خلال الصيف الماضي ، وقرروا أن يستمروا في نشر الصحيفة ، التي ستظهر في البداية كنشرة شهرية تحتوي قرابة ثمانين صفحة ، ولكنها ستصدر نصف شهرية في الشكل ذاته عندما يسمح تمويلها بذلك ، وربما ظهرت اسبوعية على غرار الصحف الاميركية والانجليزية الاسبوعية الكبيرة ، وحين تسمح الظروف بالعودة الى المانيا ، فأنها ستظهر كصحيفة يومية . وفي النهاية تدعو الصحيفة قراءها الى شراء الاسهم بقيمة خمسين فرنكا للسهم الواحد.

ليس من المحتمل أن يكون قد تم شراء عدد كبير من الاسهم . طبعت الصحيفة في هامبورغ ، حيث تعهدت احدى شركات بيع الكتب بطباعتها على اساس عمولة قدرها خمسون بالمائة من ثمن المبيع . ولم تول الشركة الصحيفة كبير اهتمام ، خاصة وأن جيش الاحتلال البروسي في هامبورغ كان يعيق نشاطاتها ، ولكن الحالة

لم تكن لتتحسن حتى ولو أبدت الشركة حماسة حقيقية للامر . لم ينجح لاسال في الحصول على اكثر من خمسين اشتراكا في دوسلدورف ، أما وايدماير الذي طلب ١٠٠ نسخة لبيعها في فرانكفورت ، فلم يستطع الحصول على أكثر من ٥١ خلدن بعد ستة أشهر من الجهد : « لقد مارست ضغطا كافيا على الناس ، ولكن احدا ليس متعجلا على الدفع » . وقد كتبت له السيدة ماركس بمرارة لها ما يبررها تقول أن المشروع كله قد انتهى الى الدمار الكامل بفضل اهمال الادارة ، وان من المستحيل تحديد ما الذي يتحمل القدر الاكبر من المسؤولية ، اهو استهانة شركة بيع الكتب أم المدير والاصدقاء في كولون أم موقف الديمقراطية .

على أية حال ، يتحمل الافتقار الى الاعداد الكافي في تحرير العدد الاول قدرا من المسؤولية ، وقد كان ماركس وانغلز هما المسؤولين عن ذلك بصورة رئيسية . فقد وصلت مخطوطة عدد كانون الثاني الى هامبورغ في ٦ شباط . ولكن ، علينا رغم ذلك ان نشعر بالرضى لان المشروع قد نفذ ، ذلك ان تأخره بضعة اشهر كان سيجعل تنفيذه مستحيلا بفعل الجزر السريع للموجة الثورية . ولقد زودتنا الاعداد الستة التي صدرت بمثال رائع على قدرة ماركس على الارتفاع فوق متاعب الحياة الصغيرة التي كانت تحيط به من كل جانب « بشكل ثوري » ، ويوميا بل وكل ساعة » ، و « بكل ما أوتي من طاقة وقوة هادئة صافية مركزة » على حد تعبير زوجته .

كان ماركس وانغلز في شبابهما ، وعلى الاخص انغلز ، يريان الامور أقرب مما هي في الواقع ، وكثيرا ما كانا يأملان في جني الثمرة ناضجة حيث لا يكون قد نما سوى البرعم . وكم هي كثيرة تلك المرات التي كانا يعابان فيها على ذلك ويسميان نبيين مزيفين ! ولا شك في أن اعتبار المرء نبيا مزيفا لا يساعد على تعزيز مكانته السياسية . غير أن من الضروري أن نميز بين التنبؤات المزيفة التي تنجم عن فكر صاف وحاد وتلك التي تكون نتيجة التمنيات المغرورة . ففي الحالة الاخيرة ، تكون خيبة الامل الناجمة باعثة على الوهن لان الوهم يتبخر سريعا ، أما في الحالة الاولى فان خيبة الامل تكون مثمرة لان الرجل المفكر يتتبع سبب خطئه ويكتسب بذلك معرفة جديدة .

ربما لم يكن هناك من هو اقسى في نقده للذات من ماركس وانغلز . فقد كانا كلاهما متحررين من تلك الدوغماتية التعيسة التي تسعى الى خداع نفسها حتى عندما تواجه أمر خيبات الامل ، والتي تعلن انها كان يمكن أن تكون على صواب لو أن الامور حدثت بطريقة مختلفة قليلا . وفي الوقت ذاته كان ماركس وانغلز متحررين من الانهزامية الرخيصة والتشاؤم العقيم . لقد كانا يتعلمان من هزائمهما ويكتسبان منها قوة جديدة للاعداد لنصر قادم .

مع هزيمة عمال باريس في ١٣ حزيران ، وفشل حملة دستور الرايخ في المانيا وسحق القيصر للثورة في هنغاريا ، انتهت مرحلة كبيرة من مراحل الحركة الثورية . واذا كان هناك من بعث للثورة ، فقد كان لا بد أن يحدث في فرنسا وحدها ، حيث لم تحسم الامور رغم كل ما حدث . تمسك ماركس بثبات بالامل في بعث كهذا ،

ولكن ذلك لم يمنعه من اخضاع كل تطورات الثورة الفرنسية لنقد قاس سخر فيه من كل الاوهام . على العكس من ذلك ، دفعه أمله الى ممارسة هذا النقد ، فتفحص تشوش النضالات الثورية ، الذي يبدو للسياسي المثالي بالضرورة تشوشا لا حل له، من وجهة نظر التناقضات العدائية الاقتصادية التي اصطدمت ببعضهـا البعض في هذه النضالات .

نشر هذا النقد في الاعداد الاول من الصحيفة ، وفيها ينجح ماركس في الكشف عن أعقد المسائل الراهنة ببضع جمل شديدة الايجاز . فكم من بخار الحبر اراقها على حق العمل الملح ممثلي البورجوازية وحتى بعض الاشتراكيين الدغماتيين ، وكم هي قليلة الكلمات التي لخص بها ماركس اهمية ونقائص هذا الشعـار ! « لقد احتوت المسودة الاولى للدستور التي وضعت قبل أيام حزيران على المطالبة بحق العمـل . فكان ذلك أول صياغة سيئة لرغائب البروليتاريا الثورية . وفيما بعد تحول هـذا الشعار الى المطالبة بحق الدعم العام ، وأي دولة حديثة لا تدعم عاطليها بهذا الشكل أو ذاك ؟ ان حق العمل ليس من وجهة النظر البرجوازية أكثر من هـراء وامنيـة حقيرة ، ولكن خلف حق العمل تقف سلطة السيطرة على رأس المال ، وخلف سلطة السيطرة على رأس المال يقف انتزاع وسائل الانتـاج وخضوعها للطبقـة العاملـة ، وبعبارة أخرى يقف الغاء العمل المأجور ورأس المال وعلاقاتهما المتبادلة » . لقد ادرك ماركس أن الصراع الطبقي هو القوة الدافعة للتطور التاريخي على أساس التاريـخ الفرنسي ، الذي ظهر فيه الصراع الطبقي بشكل كلاسيكي واضح منـذ القـرون الوسطى ، وهذا هو ما يفسر تفضيل ماركس للتاريخ الفرنسي . ان هذه الاطروحة والاطروحة التي تلتها عن الانقلاب البونابرتي والاطروحة الثالثة التي لحقتهما عـن عامية (كومونة) باريس ، تمثل أروع الجواهر في تاج الكتابات التاريخية الصغيرة التي كتبها ماركس .

كذلك احتوت الاعداد الثلاثة الاولى من الصحيفة على مادة تبعث مقارنتها بمـا سبق على التسلية ، ولكنها لم تكن تخلو من نتائج مأسوية . كانت هذه المادة وصفا عاما لثورة برجوازية صغيرة استمده انغلز من وصفه لحملة دستور الرايخ في المانيا . وكانت الشهريات التي اشترك ماركس وانغلز في كتابتها تعالـج سير الاحـداث الاقتصادية . وفي عدد شباط أشارا الى اكتشاف الذهب في كاليفورنيا على انـه حقيقة « تكبر اهميتها أهمية ثورة شباط » ، وسيكون لها نتائج اعظم وأبعد مدى من اكتشاف اميركا : « ان شريطا ساحليا عرضه ثلاثون درجة ويشكل واحـدة مـن أخصب واجمل مناطق العالم ويكاد يخلو من السكان حتى يومنا هذا ، يتحول أمـام أعيننا الى بلد متمدن وغني يسكنه بكثافة أناس من كل الاعـراق من اليانكيين الى الصينيين ، ومن الزنوج الى الهنود والملايين ، ومن الخلاسيين والمستينرو الـى الاوروبيين.ان ذهب كاليفورنيا يتدفق على اميركا وعلى السواحل الاسيوية للمحيط الهادي ، جارفا الشعوب البربرية دافعا بها الى مدار التجارة العالمية والى مجـال المدنية . وللمرة الثانية تتلقى التجارة العالمية دفعا جديدا ... وسرعان ما تصبح سواحل المحيط الهادي معادلة في كثافة سكانها ورفعة تصنيعها وانفتاحها عـلى

التجارة للساحل الممتد من بوسطن الى نيو اورليانز ، وذلك بفضل ذهب كاليفورنيا والطاقة المتجددة التي يتمتع بها اليانكيون . وحينئذ سيلعب المحيط الهادي الدور الذي يلعبه المحيط الاطلسي الان والدور الذي لعبه البحر المتوسط في العصور القديمة والوسطى — دور الممر المائي للاتصالات العالمية — وستهبط قيمة المحيط الاطلسي ليصبح مجرد بحيرة كما هو البحر الابيض اليوم . ان الفرصة الوحيدة التي لا تزال بلدان اوروبا المتمدنة تملكها لتجنب الوقوع في التبعية الصناعية والتجارية والسياسية التي وقعت فيها ايطاليا واسبانيا والبرتغال، تكمن في الثورة الاجتماعية في وقت مبكر ، تلك الثورة التي ستحول نمط الانتاج والتبادل طبقا لحاجات الانتاج الناجمة عن طبيعة القوى الانتاجية الحديثة ، مما يجعل بالامكان تطوير قوى انتاجية جديدة تضمن التفوق للصناعة الاوروبية وتعادل من تأثير العيوب التي يسببها الوضع الجغرافي لاوروبا » . كان كل ما تجب اضافته الى هذا المنظور الرائع ، هو القول أن الفرص المباشرة لنشوب أية ثورة قد تعثرت على صخرة اكتشاف مناجم الذهب في كاليفورنيا ، ولقد اكتشف ماركس وانغلز ذلك سريعا فيما بعد .

كذلك انتقد ماركس وانغلز عددا من الكتابات التي بذل فيها قادة الفكر في فترة ما قبل اذار جهدهم للكشف عن مشاكل الثورة ، ومن بين هذه الكتابات كتب الفيلسوف الالماني دومر والمؤرخ الفرنسي غيزوت والعبقري الانجليزي كارليل . انطلق دومر عن المدرسة الهيغلية ، بينما مارس غيزوت تأثيرا كبيرا على ماركس ومارس كارليل تأثيرا على انغلز ، ولكن الحكم الذي اصدره ماركس وانغلز عليهم كان : لقد وزنوا في ميزان الثورة ، فوجدوا جميعا ناقصين . ولخصا التفاهات التي كان دومر يبشر بها «بدين حقبة عالمية جديدة» في صورة مؤثرة هي : ان الفلسفة الالمانية تبكي وتنوح على موت مولاها ، الفلستية الالمانية . اما نقدهما لغيزوت فقد اوضح ان أحداث شباط اوقعت أقدر عقول النظام القديم ، حتى اولئك الذين كانوا بينهم يتمتعون بموهبة تاريخية ، في تشوش كامل جعلهم يفقدون كل فهم تاريخي حتى لافعالهم هم . وفي النهاية اعلنا ان كتاب غيزوت برهان على الانحطاط الفكري لقادة البرجوازية الكبار ، بينما تبرهن بضعة النشرات التي اصدرها كارليل على تدهور العبقرية الادبية في وجه النضالات التاريخية الحادة التي سعت الى ممارسة طموحاتها النبوية المباشرة التي تعاني من سوء الفهم عليها .

وعلى الرغم من أن ماركس وانغلز بيّنا في هذه الانتقادات اللامعة على الآثار المدمرة للنضالات الثورية على نجوم الادب البرجوازيين في فترة ما قبل اذار ، فانهما كانا ابعد ما يكون عن الاعتقاد بأي قوة صوفية للثورة ، على الرغم من انهما اتهما بذلك في احيان عدة . ان الثورة لم تخلق الصورة التي صدمت دومر وغيزوت وكارليل ، لكن كل ما فعلته هو ازاحة الستار الذي كان يخفي هذه الصورة . كذلك لم يغير التطور التاريخي مساره خلال الثورات ، ولكنه سارع وتيرة تقدمه فحسب، وبهذا المعنى اطلق ماركس مرة على الثورات اسم «قاطرة التاريخ» . وبالطبع لم يكن ماركس وانغلز ليلتفتا يوما الى ذلك الاعتقاد الذي يهدهده المدعون الجهلة بان «الاصلاح السلمي المشروع» يتفوق على كل الانفجارات الثورية ، فقد كانا ماركس

وانغلز يعتبران القوة طاقة اقتصادية ، كانا يعتبرانها قابلة كل المجتمعات الجديدة .

٢ ـ الانشقاق في العصبة الشيوعية

ان النشاطين الرئيسيين اللذين قام بهما ماركس وانغلز عام ١٨٥٠ ، عدا عن اصدار «نيو راينيخه رفيو» ، يبينان الامور التي كانت تجذب الصديقين الى غيرهما من المهاجرين والامور التي كانت تميل الى انفصالهما عنهم . كان هناك من جهة «جمعية مساعدة اللاجئين» التي اسساها مع باور وفاندر وويليش لمساعدة اللاجئين السياسيين الذين كانوا يتدفقون على لندن لان السلطات السويسرية كانت قد بدأت تعاملهم بالقليل من الاعتبار . ومن جهة اخرى كان هناك اعادة تأسيس العصبة الشيوعية ، الذي اصبح مهمة تزداد ضرورتها يوما فيوما كلما استمرت الثورة المضادة المنتصرة في حرمان الطبقة العاملة من قدر متزايد من حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، وفي الواقع من كل وسائل الدعاية العلنية . ويمكن للمرء ان يلخص الوضع بأن ماركس وانغلز اعلنا انهما متضامنين مع غيرهما من اللاجئين شخصيا ، ولكن ليس سياسيا ، وانهما كانا يقاسيان آلام هؤلاء اللاجئين ، ولكن ليس اوهامهم ، وانهما ضحيا بكل ما يملكان لمساعدة هؤلاء ، ولكنهما لم يضحيا بذرة من معتقداتهما السياسية .

كانت الهجرة الالمانية ، وبقدر اكبر الهجرة العالمية ، تمثل مزيجا مختلطا من اكثر العناصر اختلافا . غير ان هذه العناصر جميعا كانت تأمل في انبعاث الثورة التي تمكنها من العودة الى الوطن ، وكانوا جميعا يعملون لهذه الغاية ، فبدا ان هناك اساسا للعمل المشترك فيما بينهم ، ولكن كل جهودهم فشلت في الممارسة وبلا استثناء . فقد كان اقصى ما يتم التوصل اليه قرارات على الورق ، وكلما كان لهذه القرارات ضجيج اكبر كلما كانت لها اهمية أقل . وحالما يبدأ اتخاذ اي اجراء عملي ، تبدأ النزاعات والخصومات . ولم يكن سبب هذه الخصومات الاشخاص المشتركين فيها ، بل كان الوضع غير المؤاتي هو الذي يزيدها حدة ، والصراع الطبقي هو الاساس الحقيقي لها ، هذا الصراع الذي حدد مسيرة الثورة والذي استمر في دوائر المهاجرين رغم كل المحاولات الطيبة النية للتخلص منه . ولقد ادرك ماركس وانغلز عقم هذه المحاولات منذ البداية فلم يشاركا فيها ، مما ادى بجميع الاجنحة الى الاتفاق على نقطة واحدة على الاقل هي ان ماركس وانغلز هما مثيرا المتاعب الحقيقيين .

تابع ماركس وانغلز من جهتهما سياسة الصراع الطبقي التي كانا قد بدآها حتى قبل نشوب الثورة . ومنذ صيف ١٨٤٩ ، كان الاعضاء القدماء في العصبة الشيوعية قد تجمعوا كلهم تقريبا في لندن ، باستثناء مول ، الذي سقط صريعا في الاشتباك على الميرغ ، وفيلهلم ولف الذي لم يصل الى لندن من سويسرا الا بعد ذلك بسنة ، وشابر الذي لم يصل الا في صيف ١٨٥٠ . وبالاضافة الى ذلك ، كان قد تم اكتساب اعضاء جدد . وكان منهم اوغست ويليش ، وهو ضابط بروسي سابق

اكتسبه انغلز وابدى قدرة قيادية في قيادة قوات المتطوعين خلال الحملة في بادن وبالانتينيت ، وكان رجلا نافعا جدا ولكنه لم يكن واضحا نظريا . كذلك كان هناك رجال اصغر سنا : التاجر كونراد شرام ، والمعلم فيلهلم بيبر ، وقبل كل هؤلاء فيلهلم ليبكنشت ، الذي كان قد درس في عدة جامعات المانية ولكنه اجتاز امتحاناته النهائية في انتفاضة بادن وفي المنفى في سويسرا . وفي السنوات اللاحقة ، ارتبط هؤلاء جميعا ارتباطا وثيقا بماركس ، وعلى الاخص ليبكنشت . ولم يمتدح ماركس الرجلين الاخرين دائما ، فقد سببا له بعض المتاعب ، ولكن على المرء ان لا يأخذ كل كلمة ضيق وكأنها كلمة نهائية . فقد رثا ماركس كونراد شرام عندما توفي بالسل شابا واصفا اياه بانه كان «خادما مخلصا» للحزب ، واعلن مرة مشيرا الى بيبر بأنه كان «ولدا طيبا بشكل عام» . وبفضل بيبر اصبح المحامي يوهانس ميكيل يراسل ماركس ثم انضم الى العصبة فيما بعد ، ومن الواضح ان ماركس كان يعتبره رجلا له بعض الذكاء . وقد ظل ميكيل مخلصا بضع سنوات ، ولكنه في النهاية ارتد كصاحبه بيبر وأصبح ليبراليا .

وفي اذار ١٨٥٠ ، اصدرت اللجنة المركزية للعصبة تعميما وضعه ماركس وانغلز ، وحمله الى المانيا هينريخ باور الذي كلف باعادة التنظيم هناك . كان هذا التعميم مبنيا على الاعتقاد بان ثورة جديدة تقترب «ربما نتيجة نهوض مستقل للبروليتاريا الفرنسية ، او نتيجة غزو قوات التحالف المقدس لبابل الثورية» . وكما ان ثورة اذار حملت البرجوازية الى النصر ، كذلك فان الثورة القادمة ستحمل البرجوازية الصغيرة الى النصر ، وعندئذ ستبدأ هذه بخيانة البروليتاريا .

ولخص التعميم موقف حزب البروليتاريا الثوري من الديمقراطيين البرجوازيين الصغار كما يلي : «سيتعاون حزب البروليتاريا الثوري مع الديمقراطيين البرجوازيين الصغار ضد الجناح الذي يرغب الطرفان في الاطاحة به ، ولكنه سيعارضهم في كل النقاط التي تقتضيها مصلحته» . وستستخدم البرجوازية الصغيرة الثورة المنتصرة لاصلاح المجتمع الرأسمالي لجعل الحياة اسهل واكثر راحة لها والى حد ما للعمال . غير ان البروليتاريا لا تستطيع ان تقنع بذلك . ذلك ان البرجوازية الصغيرة الديمقراطية ستسعى بعد ان تتحقق مطالبها المحدودة الى التخلص من الثورة باسرع ما يمكن ، في حين ان مصالح البروليتاريا تفرض عليها ان تجعل الثورة دائمة «حتى تخرج جميع الطبقات المالكة الى هذا الحد او ذاك من الثورة ، وتستولي البروليتاريا على سلطة الدولة لنفسها ، والى ان يتقدم ارتباط العمال ، لا في بلد واحد بل في كل البلدان الاكثر اهمية في العالم كله ، الى درجة ينتهي فيها التنافس بينهم وتصبح اهم ادوات الانتاج على الاقل في ايديهم» .

ولذا حذر التعميم العمال من الانخداع بتبشير الديمقراطيين البرجوازيين الصغار بالتسويات ، او الانحطاط الى لعب دور التابعين للبرجوازية الديمقراطية . فان عليهم ، على العكس من ذلك ، ان ينظموا انفسهم بأكمل وأشمل شكل ممكن ، حتى يمكنهم بعد انتصار الثورة ، الذي سيتم كالعادة بفضل قوتهم وشجاعتهم ، املاء شروط على البرجوازية الصغيرة تجعل حكم البرجوازية الديمقراطية يحمل في

داخله بذور تحلله وتفسخه ، مما يسهل استبداله بحكم البروليتاريا فيما بعد .

«وخلال النضال ، وبعده مباشرة ، يجب على العمال ان يعارضوا فوق كل شيء وبأكبر قدر ممكن كل المحاولات البرجوازية للتهدئة ويجبروا الديمقراطيين على تنفيذ كلامهم الارهابي ... ويجب علينا ان لا نعارض ما يسمى بالفظاعات ، مثل انتقام الشعب من الاشخاص المكروهين ، او هجومه على البنايات التي تثير لديه ذكريات كريهة ، بل لا يترتب علينا ان نتسامح تجاه هذه الاعمال فحسب ، بل ان نأخذ الدور القيادي فيها» . وخلال الانتخابات للجمعية الوطنية ، يجب على العمال ان يتقدموا بمرشحين لهم في كل مكان ، حتى ولو لم يكن لديهم حظ النجاح ، وعليهم ان يتجاهلوا كل الجمل الديمقراطية . وبالطبع ، لن يستطيع العمال في بداية الحركة ان يتقدموا بأية مقترحات شيوعية محددة ، ولكنهم يستطيعون ان يجبروا الديمقراطيين على التدخل الى اقصى حد ممكن وبكل طريقة ممكنة في بنية النظام الاجتماعي السابق والتدخل في انتظام عمله ، وبالتالي الحاق الضرر بانفسهم ، كما يستطيعون اجبارهم على وضع اكثر ما يمكن من وسائل الانتاج ، كوسائل النقل والمصانع وسكك الحديد الخ في يدي الدولة .

وفوق كل شيء ، يجب على العمال عند الغاء الاقطاعية ان لا يتسامحوا تجاه تفتيت الملكيات الاقطاعية الكبيرة وتوزيع الارض على الفلاحين كملكية فردية ، كما تم بعد الثورة الفرنسية الكبرى ، لان ذلك سيؤدي الى تكريس وجود البروليتاريا الريفية وخلق طبقة برجوازية صغيرة من ملاك الارض يعانون من الافقار والديون التي يعاني منها الفلاح الفرنسي . على العكس من ذلك ، ينبغي على العمال ان يطالبوا بأن تظل الملكيات الاقطاعية المصادرة ملكا للدولة وتحويلها الى جماعيات للفلاحين تديرها بروليتاريا الارض على أسس الزراعة الكبيرة . وبهذه الطريقة ، يتم وضع اساس صلب لمبدأ الملكية الجماعية في مركز علاقات الملكية البرجوازية المتعثرة .

لاقى باور في مهمته الى المانيا ، مسلحا بهذا التعميم ، نجاحا عظيما . فقد استطاع ان يعيد اتصالات كانت قد قطعت ، كما استطاع اقامة اتصالات جديدة ، وفوق كل شيء استطاع ان يكسب نفوذا واسعا في صفوف بقايا جمعيات العمال والفلاحين والعمال المياومين التي كانت لا تزال موجودة رغم ارهاب الثورة المضادة. وكذلك انضم الى العصبة الشيوعية اكثر اعضاء جمعية الاخاء العمالية التي اسسها ستيفان بورن ، فارسل كارل شورز الذي كان يطوف المانيا موفدا من جمعية اللاجئين في سويسرا تقريرا الى زوريخ يقول ان العصبة تكسب «اكثر العناصر فعالية» . وفي وثيقة صدرت في حزيران ١٨٥٠ ، كان بوسع اللجنة المركزية للعصبة ان تقول ان العصبة غرست جذورا صلبة في عدد من المدن الالمانية ، وأن لجانا قيادية انشئت في هامبورغ لمنطقة سليزويغ-هولشتاين ، وفي شفيرن لمنطقة ميكلينبرغ ، وفي برسلو لمنطقة سيليسيا ، وفي ليبزيغ لمنطقة ساكسونيا وبرلين ، وفي نورمبرغ لمنطقة بافاريا ، وفي كولون لمنطقة الراينلاند ووستفاليا .

واعلنت الوثيقة ذاتها ان لندن هي اقوى مركز للعصبة ، وانها تكاد تزود العصبة بكل مواردها المالية ، وتوجه عمل العصبة العمالية التثقيفية الالمانية وأهم جماعات

المهاجرين ، وأن العصبة تحتفظ بعلاقات وثيقة مع الاحزاب الثورية الانجليزيـــة والفرنسية والمجرية . غير ان منطقة لندن كانت من زاوية اخرى اضعف نقطة في العصبة ، لان العصبة أصبحت من خلالها تنغمس اكثر فاكثر في صراعات المهاجرين الشرســة .

خلال صيف ١٨٥٠ ، اختفى الامل بانبعاث الثورة بسرعة . ففي فرنسا دمــر الاقتراع العام دون ان ينتج عن ذلك اي مقاومة من جانب العمال ، واصبحت سلطة التقرير مقتسمة بين لوي بونابرت وبين الجمعية الوطنية الملكية الرجعية . وفــي المانيا انسحبت الديمقراطية البرجوازية الصغيرة من حلبة السياسة بينما شاركت البرجوازية الليبرالية في اقتسام المغانم الذي بدأته بروسيا فورا على حساب الثورة . غير ان الولايات الالمانية الاخرى خدعت بروسيا ، فقد كانت ترقص جميعا على انغام النمسا ، بينما كان القيصر يفرقع بالسوط فوق المانيا كلها . وكلما اصبح الجزر الثوري اكثر وضوحا ، كلما كان المهاجرون يعززون جهودهم لخلق ثــورة مصطنعة . فكانوا يتجاهلون عمدا كل اشارات التحذير ويعلقون آمالهم علـــى المعجزات التي ظنوا ان باستطاعتهم تحقيقها بفعل قوة الارادة والتعميم وحدهما . وفي الوقت ذاته ، وبالمقدار ذاته ، اصبحوا يشكون في اي نقد ذاتي في صفوفهم، ونتيجة لذلك تعمق الصدام بين ماركس وانغلز ، اللذين كانا يدركان الوضع على حقيقته ، وبين بقية المهاجرين . وكيف يتسنى لصوت المنطق والعقل ان يسيطر على عاصفة العواطف التي كانت تزداد هياجا في قلوب الرجال كلما اصبحوا اكثر يأسا؟ كان الوضع ميئوسا ، وفي الواقع امتدت حمى الهذيان الى صفوف العصبة ذاتها واثرت سلبا على معنويات لجنتها المركزية .

وفي جلسة اللجنة المركزية التي انعقدت في ١٥ ايلول ١٨٥٠ حصل انشقاق واضح ، اذ وقف ستة اعضاء في جانب ووقف الاربعة الاخرون في الجانب الاخر . كان الستة هم ماركس وانغلز وباور وايكاريوس وفاندر من الحرس القديم بالاضافة الى كونراد شرام من الجيل الجديد . اما الاربعة فكانوا شابر دويليش وفرانكـل وليهمان ، ولم يكن بينهم من الحرس القديم غير شابر . وكان شابر « الثــوري الاصيل» ، كما سماه انغلز مرة ، انجرف في تيار الغضب الثوري لما رآه من فظاعات الثورة المضادة لمدة اكثر من سنة ، وكان قد وصل لتوه الى انجلترا .

لخص ماركس النزاع الذي نشب في هذه الجلسة الحاسمة كما يلي : « ان الاقلية تستبدل الملاحظة النقدية بالدغماتية، وتستبدل الموقف المادي بموقف مثالي. فهي تعتبر رغائبها الخاصة القوة الدافعة للثورة بدلا من الوقائع الحقيقية للوضع . وبينما نخبر نحن العمال ان عليهم ان يخوضوا غمار خمسة عشر او عشرين او حتى خمسين سنة من الحرب والحرب الاهلية ، لا لكي يبدلوا الوضع القائم فحسب ، بل وايضا حتى يصبحوا مؤهلين للاستيلاء على السلطة السياسية ، تقولون انتم لهم على العكس من ذلك ان عليهم ان يستولوا على السلطة السياسية الان وفورا والا فليفقدوا كل امل . وبينما نوضح نحن كيف ان البروليتاريا الالمانية لا تزال متخلفة، تقومون انتم بدغدغة العواطف القومية للحرفي الالماني وتحيزاته بأتفه الوسائل ،

وهذا بالطبع نهج اكثر شعبية . وكما ان الديمقراطيين جعلوا من كلمة شعب شيئا مقدسا ، تحاولون انتم ان تفعلوا الشيء ذاته بكلمة بروليتاريا» . نشبت نقاشات عنيفة ، حتى ان شرام تحدى ويليش للمبارزة ، رغم ان ماركس شجب هــــذا التصرف . وبالفعل حدثت المبارزة قرب انتغيرب وجرح فيها شرام جرحا طفيفا . وفي نهاية الامر تبين ان من المستحيل التوفيق ما بين الطرفين .

حاولت الاغلبية ان تنقذ العصبة بنقل قيادتها المركزية الى كولون . على ان تنتخب منطقة كولون لجنة مركزية جديدة ، وتقسم منطقة لنــدن الى منطقتين منفصلتين مستقلتين عن بعضهما البعض وكل منهما ترتبط باللجنة المركزية فــي كولون . وافقت منطقة كولون على هذا الاقتراح وانتخبت لجنة مركزية جديدة ، لكن الاقلية رفضت فيما بعد الاعتراف بها . وكان للاقلية النفوذ الاقوى في منطقة لندن ، وعلى الاخص في عصبة العمال الالمان التثقيفية ، فما كان من ماركس ورفاقه الاقربين الا ان استقالوا منها . وهنا مضى شابر وويليش الى انشاء منظمة خاصة بهما ، ولكنها سرعان ما انحطت الى سلوك سبيل المغامرة التامة .

شرح ماركس وانغلز وجهة نظرهما في الرقمين الخامس والسادس من « نيو راينيخه رفيو» ، اللذين ظهرا كعدد مزدوج في تشرين الثاني ١٨٥٠ ، وكانا اخر عدد يصدر من الصحيفة . وفي هذا الشرح اورد ماركس وانغلز موقفهما بالتفصيل اكثر مما فعلا في الجلسة التي حصل فيها الانشقاق . كذلك احتوى العدد المزدوج على مقالة طويلة لانغلز حول الحرب الفلاحية عام ١٨٢٥ من وجهة النظر الماديــة التاريخية ، ومقالة اخرى كتبها ايكاريوس حول الخياطة في لندن . وقد استقبل ماركس هذه المقالة الاخيرة بحرارة معلنا : «قبل ان تقاتل البروليتاريا معاركها خلف المتاريس ، فانها تعلن قدوم حكمها بسلسلة من الانتصارات الفكرية» .

كان ايكاريوس نفسه يعمل في احد مشاغل الخياطــة ، فادرك ان استبدال المشاغل الحرفية بالصناعة الكبيرة خطوة تاريخية الى الامام ، وفي الوقت ذاته لاحظ ان نتائج انجازات الصناعة الكبيرة تخلق شروط ثورة البروليتاريا وتجددها يوميا . فتبنى موقفا ماديا تماما ، وعارض المجتمع البرجوازي وكل قواه دون ان يصاب بالعاطفية المعتادة . ولهذا السبب امتدح ماركس مقالته بوصفها خطوة عظيمة الى الامام تتخطى النقد العاطفي والاخلاقي والسيكولوجي للاوضاع القائمة كما يمارسه ويتلينغ وغيره من كتّاب الطبقة العاملة . كذلك مثلت المقالة واحدة من ثمرات العمل التثقيفي الذي كان ماركس يمارسه ، وكانت ثمرة جيدة حقا .

غير ان اهم مساهمة في هذا العدد الاخير كانت مراجعة سياسية اقتصاديــة للفترة ما بين ايار وتشرين الاول . وفيها عالج ماركس وانغلز الاسباب الاقتصادية للثورة السياسية وللثورة المضادة بتحليل واف وشامل ، مبينين ان الاولى نجمت عن الازمة الاقتصادية ، بينما تجد الثانية جذورها في تقدم جديد للانتاج . وكانت النتيجة التي انتهيا اليها هي : «بالنظر الى الازدهار العام الذي يسود الان والذي يسمح لقوى الانتاج في المجتمع البرجوازي بالتطور باسرع ما يمكن ضمن اطــار المجتمع البرجوازي ، فانه لن يكون هناك اي مجال لنشوب ايــة ثورة حقيقية .

فثورة كهذه ممكنة فحسب في فترة يرتطم فيها عاملان : عندما تصطدم قوى الانتاج الحديثة بنمط الانتاج البرجوازي . اما المنازعات المختلفة التي ينغمس فيها الان مختلف ممثلو اجنحة النظام القاري فلن تؤدي الى اي ثورة جديدة . بل على العكس من ذلك ، ان هذه المنازعات ليست ممكنة الا لان اساس العلاقات السائدة متين وبرجوازي كذلك ، وهذه النقطة الاخيرة تجهلها الرجعية . ولذا فان كل محاولات الرجعية للحيلولة دون التطور البرجوازي ستتحطم كما سيتحطم كل الغضب الاخلاقي الذي يحدو بالديمقراطيين الى اطلاق البيانات الحماسية . ولن تكون الثورة الجديدة ممكنة الا نتيجة لأزمة جديدة ، ولكنها مؤكدة القدوم تماما كما ان قدوم الازمة مؤكد » .

قورن هذا الوصف الواضح المقنع للوضع القائم بنداء اصدرته لجنة مركزية اوروبية ووقعه ماتزيني وليدرو-رولان وداراز وروغه ، فقد كان هذا النداء يمثل في اوجز صورة كل اوهام اللاجئين السياسيين ويفسر فشل الثورة كنتيجة للحسد الطامح للقادة الافراد والتعاليم المتناقضة لمختلف ممثلي الشعب ، وينتهي النداء بابداء الايمان بالحرية والمساواة والاخاء والعائلة والمجتمع والدولة والوطن، وباختصار بابداء الايمان بنظام اجتماعي يقف الله وقوانينه الخالدة على رأسه والشعب في قاعدته .

يحمل العدد الاخير من «نيو راينيخه رفيو» تاريخ الاول من تشرين الثاني ١٨٥٠ ، وبه توقف التعاون المباشر بين كتّابه مدة عقدين ، ذلك ان انغلز ذهب الى مانشستر ليعمل مرة اخرى في مصانع ايرمين وانغلز بينما بقي ماركس في لندن ليكرس كل طاقاته للدراسة العلمية .

٣ ـ الحياة في المنفى

اقترب ماركس في تشرين الثاني ١٨٥٠ من منتصف عمره ، وأيام تشرين الثاني هذا تمثل نقطة تحول هامة في العمل الذي استغرق حياته . وقد كان ماركس على وعي لذلك ، ولربما كان انغلز اشد وعيا له .

كتب انغلز الى ماركس في شباط ١٨٥١ : «يستطيع المرء ان يعي اكثر فاكثر ان المنفى مؤسسة لا بد ان يصبح المرء فيها احمق وحمارا ووغدا حقيرا الا اذا انسحب منها كلية وقنع بان يكون كاتبا مستقلا لا يتعب راسه حتى بما يدعى الحزب الثوري» . فأجاب ماركس : «انني احب كثيرا الانعزال الذي نجد نحن الاثنين نفسينا فيه . فهو يتفق تمام الاتفاق مع موقفنا ومبادئنا . لقد انتهت ممارسة التنازلات المتبادلة والحلول الوسطى التي يجري التسامح تجاهها من اجل المظاهر ، وانتهت ضرورة المشاركة في المسؤولية امام الراي العام مع كل اولئك الحمير» . وكتب انغلز ثانية : «لدينا الان فرصة اخرى ، لم تسنح منذ وقت طويل، لنبين اننا لسنا بحاجة الى الشعبية ولا الى الدعم من اي حزب في اي بلد ، وان موقفنا مستقل تماما عن هذه التفاهات . من الان فصاعدا ، نحن مسؤولون عن

انفسنا فحسب ... وبالمناسبة ، لا يمكننا ان نشكو لان صغار الرجال يتجنبوننا. فلقد تصرفنا سنوات عدة كما لو ان فلانا وعلانا ينتمون الى حزبنا ، رغم انه لم يكن لنا حزب ، وكان الناس الذين نعتبرهم من حزبنا ، على الاقل رسميا ، لا يفهمون حتى المبادىء الاولية لقضيتنا » .

من الخطأ ان نأخذ تعابير «حمقى» و«حمير» و«أوغاد» على حرفيتها ، اذ انها يمكن ان تطرح من هذه الملاحظات الغاضبة ، ولكن ما يتبقى حينئذ يبين لنا ان ماركس وانغلز كانا يعتبران عن حق ان في قرارهما بالابتعاد عن منازعات المنفيين العقيمة خلاصا لهما . فقد رضيا بقدر من العزلة ، على حد تعبير انغلز ، كي يكملا دراساتهما العلمية حتى يحين الوقت الذي يفهم فيه الناس قضيتهما بشكل أفضل.

غير ان انقطاعهما لم يكن كاملا وسريعا وعميقا كما يبدو . فنحن نجد ان الصراعات الداخلية بين المنفيين تلعب دورا كبيرا في الرسائل التي تبادلاها في السنوات اللاحقة ، ويعود هذا الى الاحتكاك الدائم الذي كان يحصل بين الجناحين اللذين انشقت اليهما العصبة الشيوعية ، ان لم يكن لاي سبب اخر . اكثر من ذلك ، على الرغم من ان ماركس وانغلز قررا ان لا يشاركا في النزاعات الصاخبة خلال فترة هجرتهما ، الا ان ذلك لم يكن بالتأكيد يعني انهما تخليا عن لعب اي دور في النضال السياسي . فقد استمرا في المساهمة في الصحف الميثاقية (الشارتية)، ولم يعتبرا توقف «نيو راينيخه رفيو» نهائيا .

عرض ناشر في بازل ان يتعهد باعادة اصدار الصحيفة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث في النهاية ، وعندئذ بدأ ماركس يتفاوض مع هيرمان بيكر ، الذي نجح في الحفاظ على مركزه في كومون كمحرر لـ«وست دويتشه تزايتونغ» لبعض الوقت ، وعندما حظرت هذه الصحيفة في النهاية استطاع ان يصبح مديرا لاحدى دور النشر . وكان ماركس يريد ان تنشر اعماله الكاملة في نسخة واحدة ، وأن يصدر مجلة فصلية من ليبيج . لكن هذه الخطة فشلت بالقاء القبض على بيكر في أيار ١٨٥١ ، رغم ان كتيبا واحدا من الاعمال الكاملة ظهر فعلا . وكان من المقرر ان يصدر مجلدان ، في كل منهما ٤٠٠ صفحة ، على ان يتسلم من غامروا بالاشتراك المجلدين في عشرة كتيبات . وقد بيع الكتيب الاول سريعا ، ولكن قول وايدماير انه قد بيع منه ١٥ الف نسخة ربما كان خطأ ، فقد كان عشر هذا الرقم يمثل نجاحا جيدا في تلك الايام .

عندما كان ماركس يضع هذه الخطط ، كان في حاجة ماسة الى كسب عيشه . فقد كان يعيش وعائلته في فقر مدقع . وفي تشرين الثاني ١٨٤٩ ولد له ولد رابع سماه غيدو ، وكتبت والدة الصبي تقول : «لقد رضع الملاك الصغير البائس كثيرا من الهموم والمخاوف حتى اصبح مريضا على الدوام يعاني اوجاعا مريرة ليلا ونهارا . ومنذ ان اتى الى العالم ، لم ينم ليلة واحدة نوما هانئا او اكثر من ساعتين او ثلاث ساعات في المرة الواحدة» . وقد مات هذا الصبي بعد سنة واحدة من مولده .

وطردت العائلة من مسكنها الاول في شيلسي بطريقة فظة وقاسية ، رغم ان الايجار كان قد دفع للمؤجر ، ولكن هذا لم يدفعه للمالك . وبعد عدد هائل من

المصاعب ، نجحت العائلة في الحصول على مأوى مؤقت في فندق الماني في شارع ليستر القريب من ساحة ليستر ، وبعد ذلك بقليل انتقلت الى شارع دين في ساحة سوهو . واصبح البيت ذو الغرفتين مسكنا دائما للعائلة طيلة السنوات الست اللاحقة . غير ان ذلك لم يخلصها من متاعبها المالية التي كانت تزداد باطراد. وقد كتب ماركس الى وايدماير في حوالي نهاية تشرين الاول ١٨٥٠ يسأله ان يأخذ فضة العائلة من المرتهن ويبيعه بافضل ثمن ممكن ، وأن لا يبقي سوى على علبة صغيرة من المعالق تخص ييني الصغيرة . «وضعي الان هو انه يجب ان احصل على نقود مهما كان من امر لاستطيع الاستمرار في العمل» . وفي ذلك الحين غادر انغلز الى مانشستر ليكرس نفسه «للتجارة الملعونة» وكي يعين صديقه ماليا» .

ثبت لماركس ان الصديق نادر عند الضيق ، عدا انغلز بالطبع ، ففي عام ١٨٥٠ كتبت السيدة ماركس الى وايدماير تقول : «ان اكثر ما يقلقني ويجعل قلبي ينزف دما هو ان زوجي يقلقه عدد كبير من المتاعب الصغيرة . وهو ليس بحاجة سوى الى القليل من المساعدة ، ولكنه هو الذي طالما ساعد الاخرين يترك الان دون مساعدة . ارجو ايها السيد وايدماير ان لا تظن اننا نطلب شيئا من اي كان ، ولكن على الاقل يستطيع زوجي ان يطلب عن حق من اولئك الذين كانوا يلجأون اليه ليأخذوا منه الكثير من الافكار ويتلقوا الكثير من الدعم ان يبدوا اهتماما تجاريا بصحيفته . اعتقد انهم مدينون له بهذا القليل ، وانا لا اخجل من ان اقول ذلك ــ وعلى كل حال لم يخدع احد في المسألة . ان هذا الامر يؤلمني ، ولكن زوجي يفكر بطريقة مختلفة . انه لم يفقد قط ثقته بالمستقبل ، حتى في اسوأ اللحظات ، وهو يحتفظ على الدوام بمعنويات مرتفعة ويسر كثيرا اذا ما رآني في مزاج حسن ، والاولاد يثيرون الضجة من حولي» . وكما اعتنت زوجة ماركس به عندما كان الاصدقاء صامتين ، كذلك اعتنى هو بها عندما اشتدت هجمات الاعداء .

في آب ١٨٥١ ، كتب ماركس الى وايد ماير يقول : «اعتقد انك تستطيع تصور وضعي البائس . ان زوجتي ستنهار اذا استمر الحال على هذا المنوال فالمتاعب المستمرة والصراعات اليومية الصغيرة تستهلكها . وفوق كل ذلك هناك حقارة خصومي ، الذين لا يحاولون مهاجمتي موضوعيا بل ينتقمون لعجزهم بالقاء الشكوك حولي ونشر افظع الاقاويل عني ... ولو كان الامر يتعلق بي وحدي لقهقهت ضاحكا من الامر كله ، وانا لا ادعه يتدخل في عملي باية صورة كانت ، ولكنك تستطيع ان ترى ان ذلك لا يجلب الراحة لزوجتي المريضة التي تعاني من تعب جهازها العصبي والتي يتعين عليها ان تصارع الفقر من الصباح حتى المساء . ان افتقار بعض الناس الى اللياقة في هذا المجال كثيرا ما يكون هائلا» .

قبل ذلك ببضعة اشهر (في اذار) كانت السيدة ماركس قد وضعت طفلة سموها فزانسيسكا ، وعلى الرغم من ان الحمل كان سهلا الا ان السيدة ماركس مرضت مرضا شديدا «لاسباب سيكولوجية اكثر منها اسبابا جسدية» لم يكن هناك قرش واحد في البيت «وفي الوقت ذاته كنا نستغل العمال ونعمل من اجل الديكتاتورية». هكذا كتب ماركس لانغلز بمرارة .

كانت دراسات ماركس العلمية مصدر عزاء دائم له . فقد كان يجلس في المتحف البريطاني من التاسعة صباحا حتى التاسعة مساء . وقد قال مرة مشيرا الى غرور البعض : «بالطبع لا يحتاج السذج الديمقراطيون الذين يأتيهم الالهام من فوق لان يفعلوا اي شيء من هذا القبيل . ولماذا يتعب الابرياء رؤوسهم بالاقتصاد والتاريخ ؟ فكل شيء بسيط جدا . كل شيء بسيط جدا ، كما كان ويليش المبجل يقول لي . ربما كان الامر كذلك في عقولهم المشوشة ، فهم في الحقيقة سذج الى درجة كبيرة» . وفي الوقت ذاته كان ماركس يأمل ان ينتهي من كتابة «نقد الاقتصاد السياسي » خلال بضعة اسابيع . فبدأ يبحث عن ناشر ، لكن هذا البحث سبب له خيبة امل اثر اخرى .

وفي ايار ١٨٥١ قدم الى لندن صديق مخلص يستطيع ماركس ان يعتمد عليه اعتمادا مطلقا ، ذلك هو فرديناند فريليغارث . وخلال بضع السنوات المقبلة ظل الصديقان على اتصال وثيق . ولكن الانباء السيئة سرعان ما جاءت في اعقابه . ففي ١٠ ايار القي القبض على الخياط نوثيونغ في ليبزيغ بينما كان يقوم برحلة تحريض ممثلا للعصبة الشيوعية . وكشفت الاوراق التي كان يحملها وجود العصبة للشرطة، وبعد ذلك بقليل القي القبض على اعضاء اللجنة المركزية في كولون . اما فريليغارث فقد نجا بشق الانفس رغم انه لم يكن يعلم الخطر الذي يتهدده . وعندما وصل الى لندن بدأت الاجنحة المختلفة بين المنفيين الالمان تتنازع ادعاء ارتباط الشاعر العظيم بها ، ولكنه وضع حدا لذلك عندما اخبر الجميع انه يقف مع ماركس وحلقته ورفض ان يحضر اجتماعا وقع في ١٤ تموز عام ١٨٥١ للقيام بمحاولة اخرى لتسوية الخلافات بين المنفيين . فشلت المحاولة كما فشلت كل المحاولات التي سبقتها ، ولم يكن لها من نتيجة غير خلق خلافات جديدة . ففي ٢٠ تموز انشىء « نادي التحريض» بقيادة روغه الفكرية وتبع ذلك في ٢٧ تموز تشكيل نادي المهاجرين بقيادة كنكل الفكرية ، وسرعان ما اخذت الجمعيتان برقاب بعضهما ، على الاخص على صفحات الصحافة الاميركية ـ الالمانية .

بالطبع لم يكن ماركس يحمل لهذه «الحرب الحقيرة بين الضفادع والفئران» غير الاحتقار ، وكانت المواقف الفكرية لقادتها بغيضة بالنسبة له بهذا القدر او ذاك . كان ماركس قد عالج في «نيو راينيخه تزايتونغ» محاولات روغه لاستخلاص منطق احداث ١٨٤٨ ولكنه الان شدد هجومه على «روغه المفكر البوماري» الذي تشكل كتاباته «المجرور الذي تجري فيه كل قمامة الديمقراطية الالمانية وتناقضاتها» . غير ان روغه كان برغم كل تشوشه السياسي من مستوى يفوق مستوى كنكل الذي كان يشغل نفسه بمحاولات لا تنتهي للعب دور الاسد الاجتماعي في لندن منذ هربه من السجن في سباندو «طورا في البار وتارة في النادي» ، كما قال فريليغارث ساخرا . وبالاضافة الى ذلك ، كان ماركس اكثر اهتماما بكنكل في ذلك الوقت لان ويليش اصبح حليفه في تنظيم عملية احتيالية كبيرة هي القيام بنوع من الثورة على اساس احتمالات محدودة . ففي ١٤ ايلول ١٨٥١ حط كنكل في نيويورك للقيام بكسب بعض اللاجئين المحترمين ليلعبوا دور كفلاء قرض وطني الماني «يبلغ مليوني دولار

لتمويل الثورة الجمهورية القادمة» ولجمع مبلغ اولي قدره ٢٠ الف ثالر . وكان كوسث قد اوردته اولا فكرة الابحار حاملا صندوق جمع التبرعات ، ولكن كنكل نفذ المشروع على نطاق اضيق وان يكن بالقدر ذاته من الحماسة والمخاطرة . وكـــان المعلم والتلميذ يبشران خلال نشاطهما ضد العبودية في الولايات الشمالية ولمصلحتها في الولايات الجنوبية .

وبينما كانت هذه المهزلة مستمرة، اقام ماركس علاقات جدية مع العالم الجديد. فقد كتب انغلز في ٣١ تموز بينما كانت ضائقته المالية تزداد حدة يقول : «مـــن المستحيل تقريبا ان تظل الامور سائرة على هذا النحو واقترح اصدار مراســلات مطبوعة وارسالها الى الصحف الاميركية ، وبعد ذلك ببضعة ايام تلقى عرضا من «ذي نيويورك تريبيون» ، وهي اوسع الجرائد انتشارا في الولايات الشمالية ، عرضا بان يصبح كاتبا منتظما فيها . وكان العرض قد جاء من دانا ناشر الصحيفة الذي كان ماركس قد عرفه خلال اقامته في كولون . في ذلك الوقت لم يكن ماركس يملك الطلاقة الضرورية والسيطرة الكاملة على اللغة الانكليزية ، ولذا فوض انغلز نيابة عنه ، فكتب انغلز سلسلة من المقالات عن الثورة المضادة في المانيا . وبعد ذلك بقليل استطاع ماركس ان يؤمن نشر احد كتبه في الولايات المتحدة بالالمانية .

٤ ـ الثامن عشر من برومير

كان جوزيف وايدماير صديق ماركس القديم يقاتل بشجاعة خلال السنوات الثورية كمحرر لصحيفة ديمقراطية في فرانكفورت . وعندما اصبحت الثـــورة المضادة اكثر وقاحة حظرت هذه الصحيفة ايضا ، وسرعــان ما اصبح جواسيس البوليس يتعقبون وايد ماير بعد اكتشاف العصبة الشيوعية التي كان عضـــوا نشيطا فيها .

لجأ وايد ماير في البداية الى «فندق هادىء صغير في ساخسن هاوزن ، آملا ان تنجلي العاصفة ، شاغلا نفسه اثناء ذلك بكتابة كتاب شعبـــــي في الاقتصاد السياسي . غير ان الجو اصبح خانقا اكثر فاكثر ، حتى انفجز وايد ماير قائلا : «ليذهب هذا الاختفاء الذي لا ينتهي الى الجحيم» . كان وايدماير متزوجا وابـــا لطفلين صغيرين ، ولما لم ير امكانية لكسب عيشه في سويسرا او لنـــدن قرر ان يهاجر الى اميركا .

كان ماركس وانغلز غير راغبين على الاطلاق في خسارة صديق مخلص كهذا ، وحاول ماركس عبثا ان يجد طريقة للعثور على وظيفة له كمهندس او مساح فـــي سكة الحديد او اي شيء من هذا القبيل . «عندما تصل هناك ، ما الذي يضمن أن لا تخسر نفسك في مكان ما في الغرب البعيد ؟ اننا لا نملك سوى القليل من الرجال الجيدين حقا ، ويجب علينا ان نقتصد في قوانا» . ولكن عندما اصبح واضحا انه ليس هناك بد من مغادرة وايد ماير وجد ماركس وانغلز انهما بذلك يستطيعان ان

يؤمنا ممثلا قادرا للعصبة الشيوعية في نيويورك . فقال انغلز : «اننا نحتاج الى رجل موثوق مثل وايد ماير في نيويورك ، فنيويورك ليست خارج العالم على اية حال ، ونحن نعلم اننا نستطيع الوثوق من وايدماير اذا كنا بحاجة له» . وفي النهاية منحاه مباركتهما ، فابحر من هافر في ٢٩ ايلول ووصل نيويورك سالما بعد رحلة عاصفة استمرت اربعين يوما .

وفي ٣١ تشرين الاول ارسل له ماركس رسالة ينصحه فيها بان يتدبر امره ويعمل كبائع للكتب وناشر في نيويورك . وان يأخذ افضل الاشياء من «نيو راينيخه تزايتنغ «ونيو راينيخه‌ريفيو» ويصدرها منفصلة. ولذا سر ماركس عندما تسلم رسالة من وايد ماير يسفه فيها عقلية اصحاب الدكاكين التي تبدو اكثر عريا واثارة للتقزز في العالم الجديد منها في اي مكان اخر، ولكنه في الوقت ذاته قال انه يأمل في اصدار مجلة اسبوعية بعنوان الثورة في بداية كانون الثاني ، وطلب ان ترسل المساهمات للمجلة باسرع ما يمكن . عبأ ماركس بحماسة وفي الحال كل الاقلام الشيوعية وعلى رأسها قلم انغلز كما ضمن مساهمة فريليغاث الذي كان وايدماير يريد قصيدة منه، وايكاريوس وويرث والاخوين وولف . وشكا ماركس في جوابه على وايد ماير من انه حذف اسم فيلهلم وولف عندما اعلن عمن يساهمون في الصحيفة وقال : « لا يملك احد منا سلوكا في شعبية سلوكه ، ولكنه متواضع جدا ولذا فان علينا واجبا اكبر في ان نتجنب الظهور بمظهر من يعتبر تعاونه زائدا عن الحاجة» واعلن ماركس انه سيساهم بمقالة طويلة تبحث احد كتب برودون الجديدة وانه ينوي الكتابة في الثامن عشر من بروميير لوي بونابرت او الانقلاب البونابرتي في ٢ ايلول الذي كان اهم حدث في السياسة الاوروبية في ذلك الحين واثار الكثير من النقاشات .

اشتهر كتابان في الموضوع كتبهما آخران وتلقى مؤلفاهما الكثير من الثناء . وفي وقت لاحق وصف ماركس الفرق بين كتابه وهذين الكتابين بما يلي : «ان كتاب فكتور هيجو ، نابليون الصغير ، يقتصر على قدح وذم المؤلف المذكور للانقلاب بصورة رائعة ومريرة . اما الانقلاب ذاته فيبدو انه قد سقط من السماء وانه ليس الا نتيجة عنف فردي ، ولكنه يفشل في ان يرى انه بذلك انما يرفع من قدر هذا الفرد بدلا من ان يحط منه بان يعزو له قدرة شخصية على المبادرة لا مثيل لها في تاريخ العالم . اما من جهة اخرى فان كتاب برودون «الانقلاب» يحاول ان يظهر الانقلاب على انه نتيجة لسلسلة من التطورات السياسية السابقة ، ولكن البنية التاريخية للانقلاب تتحول على يديه الى محاولة لايجاد عذر تاريخي لبطل الانقلاب . وهو بذلك يقع في خطأ من يسمون بالمؤرخين الموضوعيين . اما في معالجتي للموضوع ، فانني ابين كيف ان الصراع الطبقي في فرنسا خلق ظروفا وشروطا مكنت رجلا عاديا من لعب دور البطل» . بدا كتاب ماركس صغيرا بجانب الكتابين المحظوظين ، ولكن بينما اصبح هذان الكتابان منسيين منذ امد بعيد لا يزال كتاب ماركس يشع حتى يومنا هذا بعبقرية لامعة خالدة .

نجح ماركس في كتابه الذي يشع ذكاء وفكاهة في ان يحلل حدثا تاريخيا معاصرا حتى النخاع ، وذلك بفضل المفهوم المادي للتاريخ . ولا شك في ان شكل

الكتاب عظيم كمحتواه . فمن المقارنة الحاذقة في الفصل الاول : «ان الثورات البورجوازية ، كثورات القرن الثامن عشر ، تندفع من نصر الى نصر ، لتسبق آثارها بعضها بعضا ، فيبدو الناس والاشياء وكأنهم يحترقون في لهب لألاء، وتكون النشوة الروح المخيمة . لكن قصيرة هي هذه الثورات ، فهي تصل اوجها سريعا ، ليرتد المجتمع الى نوبة رد فعل عصبية قبل ان يتعلم كيف يقطف ثمار فترة الهياج المحموم . اما الثورات البروليتارية ، كثورات القرن التاسع عشر ، فهي على العكس من ذلك تمارس نقد نفسها باستمرار ، وبأستمرار تتوقف خلال سيرها ، تعود الى ما كان يبدو منجزا لتبدأ من جديد ، تهزأ بشمول قاس من كل نقاط ضعف محاولتها الاولى وحقارتها واجراءاتها المجزؤة فتبدو وكأنها ما تطرح خصمها الا ليستمد من الارض عزما جديدا فينهض ثانية ضدها وقد اتخذ قواما عملاقيا، تتردد باستمرار فزعا من الحجم الهائل غير المحدد لاهدافها ذاتها ـ الى ان يخلق في النهاية وضع يجعل كل تراجع مستحيلا ، وترفع الظروف ذاتها عقيرتها بالصياح : «هنا الوردة ، وهنا علينا ان نرقص !» الى الكلمات الواثقة في النتيجة النبوية : «اذا انتهت العباءة الامبراطورية الى كتفي لوي بونابرت فان تمثال نابليون البرونزي سيسقط من عمود الفاندوم ويتحطم » .

واية ظروف تلك التي كتب الكتاب الرائع في ظلها ! اقل هذه الظروف اهمية هو ان وايد ماير اضطر بعد العدد الاول من مجلته الاسبوعية الى ايقاف صدورها بسبب الافتقار الى الاموال : «ان البطالة التي لا مثيل لها والتي سادت هنا منذ بداية الخريف تجعل من الصعب جدا البدء بأي مشروع جديد. ثم ان العمال استغلوا حديثا بطرق مختلفة ، فكان هناك اولا كنكل ثم اتى كوست . ولسوء الحظ تفضل اغلبية العمال التبرع بدولار بدعاية مضادة لهم بدلا من التبرع بسنت دفاعا عن مصالحهم . ان للاوضاع في اميركا تأثيرا مفسدا بصورة غير عادية وفي الوقت ذاته تعطي هذه الاوضاع الفكرة المتغطرسة بان الاميركيين يعيشون افضل من رفاقهم في العالم الحديث» . غير ان وايد ماير لم يفقد الامل في بعث صحيفته الى الحياة مجددا ، ولكن كمجلة شهرية هذه المرة ، ولم يكن يحتاج لذلك الى اكثر من مبلغ حقير لا يتجاوز ٢٠٠ دولار ..

اهم من ذلك كان المرض الذي وقع ماركس ضحيته في كانون الثاني مما جعله لا يستطيع العمل الا بصعوبة كبيرة . وعلى رأس كل شيء ، كان ماركس ينزعج باستمرار بسبب الحاجة الى «الدراهم القذرة» التي لم تكن تترك له سلاما . وفي ٢٧ شباط كتب يقول : «لقد وصلت بي الحال حدا لم استطع معه ان اغادر البيت لان ثيابي جميعها مرتهنة ولم اعد استطيع ان آكل اللحم لان نقودي قد نفدت جميعا» . ولكنه في النهاية استطاع في ٢٥ اذار ان يرسل الجزء الاخير من المخطوطة الى وايد ماير مع تهانيه بميلاد ثوري صغير اخر كان وايد ماير قد اخبره عنه : «ان من المستحيل ان يختار المرء وقتا افضل من هذا للقدوم الى العالم . وعندما يحين الوقت الذي يصبح فيه من الممكن الذهاب من لندن الى كلكوته في سبعة ايام، سيكون رأسانا قد قطعا او اتت عليهما الشيخوخة. استراليا وكاليفورنيا

والمحيط الهادي ! ان مواطني العالم الجديد لن يكون باستطاعتهم ان يدركوا كم كان عالمنا صغيرا» . لم يكن ماركس حتى في خضم اسوأ متاعبه الشخصية يفقد الامل في الآفاق الواسعة للتقدم الانساني ، ولكن الايام الحزينة كانت ستأتي بعد ذلك مباشرة .

لا بد ان وايد ماير سلب ماركس كل امل في ان يرى كتابه مطبوعا في رسالة ارسلها له في ٣٠ اذار . وعلى الرغم من ان الرسالة لم تحفظ الا ان صداها يتردد قويا في رسالة عنيفة كتبها فيلهلم وولف في ١٦ نيسان ، اي في اليوم الذي دفن فيه احد اطفال ماركس : «ان كل اصدقائنا تقريبا متأثرون للمصيبة العامة ، ويكادون ينهارون بفعل الضغوط التي يواجهونها» . والرسالة مليئة بنقد مرير لوايد ماير ، الذي لم تكن حياته على اية حال مزدانة بالورود والذي كان على الدوام يفعل ما بوسعه .

كان ذلك فصحا رهيبا لماركس وعائلته . فقد توفيت طفلتهما الصغرى التي ولدت قبل ذلك بسنة . ووصفت السيدة ماركس الحدث في مذكراتها وصفا مؤثرا : «في فصح ١٨٥٢ وقعت طفلتنا الصغيرة المسكينة فرانسيسكا مريضة بالنزلة الصدرية ، وظلت ثلاثة ايام تصارع الموت وتعاني الكثير . ثم استراح جسمها الصغير بلا حياة في غرفتنا الخلفية الصغيرة بينما ذهبنا جميعا الى الغرفة الامامية وعندما حل الليل وضعنا فراشنا على الارض . استلقى الاطفال الثلاثة الباقون معنا على الارض وانتحبنا جميعا من اجل الملاك الصغير المسكين الذي كان يستلقي باردا بلا حراك في الغرفة التالية . وقد حدثت وفاة الطفلة المسكينة في فترة كنا نعاني فيها الفقر المضني . ذهبت الى لاجيء فرنسي يعيش قربنا وكان قد زارنا قبل ذلك بوقت قصير . فاستقبلني بترحاب وتعاطف واعطاني جنيهين اشترينا بهما النعش كي نسجي فيه الطفلة بسلام . لم يكن للمسكينة مهد عندما ماتت، وعندما توفيت حرمت فرصة الاستلقاء في نعش طويل كفاية . لقد كانت لحظة رهيبة لنا جميعا تلك التي خرجوا فيها بالنعش الى مثواه الاخير» . وفي ذلك اليوم الاسود وصلت رسالة وايد ماير بانبائها السيئة الى ماركس . وقد تأثر ماركس كثيرا لزوجته التي شاهدت كل ما وضع يديه عليه خلال السنتين السابقتين يهوي ويتحطم .

لكن رسالة جديدة كانت في طريقها الى ماركس خلال تلك الساعات الحزينة. وكانت هذه الرسالة مؤرخة في ٩ نيسان وتقول : في النهاية ذللت مساعدة غير متوقعة كل الصعوبات التي كانت تحول دون نشر الكتيب . فبعد ان ارسلت لك رسالتي الاخيرة قابلت واحدا من عمالنا في فرانكفورت وهو خياط اتى الى هنا في الصيف ، وعلى الفور وضع ٤٠ دولارا هي كل ما يملك تحت تصرفي» . ولولا ذلك العامل لما كان الثامن عشر من برومير قد نشر ، ومع ذلك لا يذكر وايد ماير اسمه ! ولكن ماذا يهم ؟ ان القوة التي حركته كانت الوعي الطبقي للبروليتاريا التي لا تكف ابدا عن تقديم تضحيات نبيلة من اجل انعتاقها .

كان الثامن عشر من برومير العدد الاول من الصحيفة الشهرية «الثورة» التي بدأ وايد ماير اصدارها . أما العدد الثاني والاخير فقد احتوى على قصيدتين

لفريليغارث على شكل رسائل لوايد ماير ينتقد فيها بقسوة وبذكاء لامع وفكاهة جميلة تسولات كنكل في اميركا . كانت تلك نهاية المشروع ، وكان ان فقدت مقالات ارسلها انغلز في الطريق .

طبع وايد ماير الف نسخة في الثامن عشر من برومير ، ذهب ثلثها الى اوروبا، ولكن ليس عن طريق بائعي الكتب . اذ انها وزعت من جانب الاصدقاء في انجلترا والراينلاند ، ذلك ان باعة الكتب حتى الراديكاليين منهم لم يكونوا على استعداد لتوزيع كتاب «جاء في غير وقته كهذا» . كما ان ترجمة انجليزية وضعها بيبر وحسنها انغلز لم تستطع ان تجد طريقها الى النشر .

واذا كان هنالك ما يمكن ان يزيد من المصاعب التي كان يلقاها ماركس في العثور على ناشر ، فان ذلك كان ان الانقلاب البونابارتي في فرنسا تبعته محاكمة الشيوعيين في كولون .

٥ ـ محاكمة الشيوعيين في كولون

منذ ان وقعت الاعتقالات في ايار ١٨٥١ ، تابع ماركس باهتمام التحقيقات الاولية ولكن لم يكن هنالك الكثير مما يمكن فعله ، ذلك ان التحقيقات كانت تتوقف باستمرار نتيجة الافتقار الى «اي اساس موضوعي للادانة» ، وذلك ما اضطر الى الاعتراف به المدعي العام نفسه . فقد كان كل ما يمكن اثباته ضد المعتقلين هو انهم كانوا اعضاء في منظمة سرية دعاوية ، وذلك امر لا يورد القانون الجنائي له عقابا .

غير ان الملك أصر على ان يعطى مرشحه شتايبر فرصة ابداء ذكائه واعطاء الجمهور البروسي فرصة التحقق من اكتشاف مؤامرة ومعاقبة متآمرين ، وكان شتايبر وطنيا مخلصا الى درجة لا يستطيع معها الا ان ينفذ رغبة مليكه ، فبدأ مهمته بطريقة مناسبة بالتحريض على عمل من اعمال اللصوصية . فقد اقتحم احد عملائه مكتب رجل يدعى اوزوالد دايدز كان يحفظ محاضر منظمة ويليش . وكان شتايبر لذكائه يدرك ان قلة احتراز هذه المنظمة تعطيه فرصا اكبر لنجاح مهمته الرفيعة لا يمكن ان يعطيها له «حزب ماركس» .

وبمساعدة الوثائق المسروقة وبالعون الذي قدمته السلطات الفرنسية عشية الانقلاب البونابارتي الى شتايبر ، استطاع هذا ان يختلق ما يدعي «المؤامرة الفرنسية الالمانية» في باريس ، وادى ذلك في شباط ١٨٥٢ الى الحكم على عدد من العمال الالمان سيئي الحظ في محاكم باريس بالسجن مددا مختلفة . غير ان ما فشل شتايبر في فعله هو اثبات اي صلة بين مؤامرة باريس التي اخترعها وبين المتهمين في كولون . اذ لم تستطع «المؤامرة الفرنسية الالمانية» ان تعطيه رغم كل خبثه ظلا من دليل يمكن ان يستخدم في كولون .

في هذه الاثناء ازدادت حدة الخلافات بين حزب ماركس وحزب ويليش ـ شابر . فقد كان ويليش ما يزال متحالفا مع كنكل ، وادت عودة هذا الاخير الى اندلاع كل

النزاعات بين المنفيين من جديد الى درجة اصبح التوتر بين المنظمتين معها بالغا في صيف ١٨٥٢ . لم يستطع كنكل ان يحصل على المئتي الف ثالر التي كان يراد لها ان تصبح عصب القرض الوطني الثوري ، ولكنه استطاع الحصول على نحو نصفه . واصبحت مسألة القرض الذي ستخصص له النقود مسألة لم تجهد المنفيين فحسب ، بل ادت بهم الى البدء في تكسير رؤوس بعضهم البعض . وفي النهاية اودع ١٠٠٠ جنيه استرليني في البنك كعربون لاول حكومة مؤقتة ، بينما صرف ما تبقى على الرحلة وعلى مصاريف الادارة . لم يخدم المبلغ المودع الغرض الذي اودع من اجله ابدا ، ولكنه بعد ذلك بخمسة عشر عاما استخدم في مساعدة الصحافة الاشتراكية الديمقراطية على التغلب على مصاعبها الاولية .

وبينما كان الصراخ يتضاعف والضجة تتعالى ، عمد ماركس وانغلز الى رسم صور لابطال المعركة ، ولكن المخطوطات لم تحفظ لسوء الحظ . وكان قد اقنعهم بذلك ضابط مجري يدعى بانيا ، قدم لهما نفسه مع توصية من كوست يعينه فيها رئيسا لشرطة المهاجرين المجريين ، على الرغم من ان الرجل لم يكن في الواقع غير جاسوس عادي يضع نفسه دائما في خدمة من يدفع اكثر . لكن ماركس وانغلز اكتشفا ذلك ، لانه بدلا من ان يعطي المخطوطات لناشر في برلين اعطاها للبوليس البروسي . وفي الحال حدد ماركس موقفه من نذالة هذا الوغد في بيان موقع نشر في صحيفة «كريمينال تزايتونغ» في نيويورك ، ولكنه لم يستطع ان يستعيد مخطوطته التي لم تظهر منذ ذلك الحين . ولا شك ان الحكومة البروسية اصيبت بخيبة امل بالغة ، اذا كانت قد تأملت ان تستخدم هذه المواد في محاكمات كولون .

عمدت الحكومة ليأسها تجاه الافتقار الى ادلة ضد المتهمين الى تأجيل المحاكمة العلنية مرة اثر اخرى ، فزادت بذلك توق الجمهور حتى وصل درجة عالية ، فما كان عليها في تشرين الاول ١٨٥٢ الا ان ترفع الستار وتدع المسرحية تبدأ . ولكن كل التلفيقات التي ابتدعها عملاء للبوليس لم تكن لتكفي لاثبات اي علاقة بين المتهمين وبين «المؤامرة الفرنسية الالمانية» ، تلك المؤامرة التي اختلقها البوليس بينما كان المتهمون في السجن وعزاها الى منظمة لم يكونوا اعضاء فيها بل كانوا خصوما لها . وفي النهاية ابرز شتايبر في خضم يأسه «محضر الجلسات الاصلي لحزب ماركس» محتويا على سلسلة زمنية من المحاضر تصف اجتماعاته ادعى ان ماركس ورفاقه بحثوا فيها خططهم الشائنة لاشعال الثورة العالمية . كان هذا المحضر تزويرا نذلا قام به عميلان للشرطة هما شارل لوري وفلهلم هيرش بتوجيه من ضابط شرطة يدعى غريف . وكانت الوثيقة الثمينة تحمل كل علامات التزوير وكانت محتوياتها ببساطة غبية ، ولكن شتايبر كان يعتمد على خبل المحلفين البرجوازيين الذين انتقوا بعناية، وفي الوقت ذاته راقب البريد مراقبة دقيقة ليمنع وصول اية تفسيرات الى هؤلاء المحلفين من لندن .

غير ان خطة شتايبر التعيسة فشلت بسبب العزم والتصميم اللذين واجههما ماركس بهما ، على الرغم من انه لم يكن مستعدا لصراع طويل ومضن . ففي ٨ ايلول كتب الى انغلز يقول : «زوجتي مريضة . وجيني الصغيرة مريضة ايضا . اما لنشن

فيعاني من نوع من الحمى العصبية ولا استطيع ان استدعي الطبيب لانني لا املك نقودا ادفعها له. لقد عشنا ثمانية او عشرة ايام تقريبا على الخبز والبطاطا وحدهما، اما الان فقد لا نستطيع ان نحصل حتى على ذلك ... لم اكتب شيئا لدانا لانني لا املك نقودا اشتري بها صحفا . وافضل ما يمكن ان يحدث الان هو ان تلقي بنـــا صاحبة البيت خارجا لانني حينذاك سأتخلص من عبء عشرين جنيها من الاجرة المستحقة عليّ ، ولكنني اشك في انها تتمتع بهذه الدرجة من اللياقة . ثم اننـــا مدينون للخباز ولبائع الحليب وللبقال ولبائع الخضار وللحام . فكيف بحق الارض استطيع ان اسوي هذا المأزق الشيطاني ! وخلال الاسبوع الماضي اقترضت بضعة شلنات حتى فلسات من العمال . كان ذلك رهيبا ولكنه كان ضروريا جدا والا كنا متنا جوعا» . كان هذا هو الوضع اليائس الذي اضطر ماركس فيه ان يدخل صراعا مع اعداء اقوياء ، ولكنه وزوجته استطاعا في خضم هذا الصراع ان ينسيا متاعبهما الصغيرة .

كان النصر لا يزال في الميزان عندما كتبت السيدة ماركس إلى صديق اميركي تقول : «كان يتوجب الحصول على كل الادلة على التزوير من هنا ، وكان على زوجي ان يعمل طول النهار وحتى الى وقت متأخر من الليل ، وكان علينا بعد ذلك ان ننسخ كل شيء ست او سبع مرات ونرسله الى المانيا بطرق متعددة عبر فرانكفورت وباريس الخ ، لان كل الرسائل التي تأتي الى زوجي وكل الرسائل التي يرسلها الى المانيا تفتح وتصادر . لقد انتهت المسألة كلها الى صراع بين البوليس من جهة وبين زوجي من جهة اخرى ، وقد اصبح زوجي مسؤولا عن كل شيء ، حتى عن سير المحكمة . ارجو ان تعذر تشوشي ، ولكن كان لي انا ايضا نصيب من الامر ، فقد نسخت ونسخت حتى صارت اصابعي تؤلمني . وقد وصل للتو قوائم كاملة من العناوين التجارية والرسائل التجارية المزيفة من ويرث وانغلز كستار لارسال الوثائق بأمان . لقد استحال بيتنا مكتبا . فهناك اثنان او ثلاثة يكتبون ، وغيرهم ينقلون الرسائل ، وما تبقى يجمعون ما يستطيعون من قروش لكي نستطيع جميعا ان نستمر فـــي العيش ونقدم البرهان على اكثر الفضائح التي اقترفها العالم الرسمي خزيا وعارا . وكل ذلك واولادي الثلاثة يغنون ويصفرون ويتلقون صيحة غضب بين الفينةوالاخرى من والدهم . انها لحياة هذه ؟»

احرز ماركس النصر وافتضح تزوير شتايبر حتى قبل ان تبدأ المحاكمة فاضطر المدعي العام الى التخلي عن «الكتاب البائس» . غير ان هذا النصر قرر مصـــير المتهمين . فخلال الاسابيع الخمسة التي استغرقتها المحاكمة افتضح الكثير مـــن المخازي التي ارتكبتها اعلى السلطات في الدولة البروسية لدرجة ان تبرئة المتهمين كانت ستعني ادانة الدولة في نظر العالم اجمع . لكن المحلفين كانوا مستعدين لتلطيخ شرفهم واثقال ضمائرهم في سبيل تجنيب الدولة هذه المذلة ، ولذا فقـد وجدوا سبعة من المتهمين الاحد عشر مذنبين بتهمة محاولة الخيانة العظمى . فحكم على صانع السجاير روزر والمؤلف بيرغرز والخياط نوثيونغ بالسجن ست سنوات في احدى القلاع لكل منهم ، وحكم على العامل ريث والكيماوي اوتو والمحامي السابق

بيكر بالسجن خمس سنوات في احدى القلاع لكل منهم ، بينما حكم على الخياط ليسنر بالسجن ثلاث سنوات . اما الكاتب ايرهارت والاطباء الثلاثة دانيال وجاكوبي وكلاين فقد برئوا . غير ان دانيال مات بعد ذلك ببضع سنوات بالسل الذي التقطه خلال سجنه ثمانية عشر شهرا بانتظار المحاكمة . وعند موته ارسل الى زوجتـــه رسالة مؤثرة يقدم فيها اخر تحياته الى ماركس الذي حزن لموته حزنا عميقا .

عاش ضحايا هذه المحاكمة المشينة بعد دانيال بعدة سنوات حتى ان بعضهم استطاع ان يشق طريقه ثانية الى العالم البرجوازي مثل بيرغر الذي انتخب نائبا في الرايشستاغ وبيكر الذي اصبح فيما بعد رئيسا لبلدية كولون وعضوا في مجلس الشيوخ البروسي ، والذي اكسبته مواقفه الوطنية في كل المناسبات عطف الحكومة والبلاط . اما المحكومون الاخرون فقد ظلوا مخلصين للراية البروليتارية ومن بينهم نوثيونغ وروزر اللذين لعب كلاهما دورا نشيطا في بدايات تجدد حركة الطبقـــة العاملة، ولسنر الذي عاش بعد ماركس وانغلز وكان واحدا من اكثر رفاقهما في المنفى تكرسا .

حلت العصبة الشيوعية بعد محاكمة كولون وسرعان ما اقتفت منظمة ويليش آثارها . وهاجر ويليش نفسه الى اميركا واكتسب شهرة استحقها كجنرال فــي الجيش الشمالي ، بينما عاد شابر تائبا الى رفاقه القدامى . غير ان ماركس لم يكن راغبا في السماح للحكومة البروسية في التمتع بثمرات نصرها التعيس التي احرزته في محاكمات كولون ، وعزم على التشهير بها امام العالم كله . ولذلك فقد اعد ما كشفت عنه المحاكمة للنشر في سويسرا ، وان امكن ففي اميركا ايضا . وفي ٧ كانون الاول كتب الى اصدقائه في اميركا يقول : «اعتقد انكم ستقدرون خفة الروح التي يتحلى بها الكتيب عندما اقول لكم ان كاتبه سجين عمليا لافتقاره الى ما يغطي به قدميه وقفاه ، وان عائلته بالاضافة الى ذلك كانت ولا تزال مهددة بتعاسة فظيعة حقا . وهذا ايضا يعود جزئيا الى المحاكمات لانني اضطررت الى تكريس كل طاقاتي مدة خمسة اسابيع للدفاع عن الحزب ضد مكائد الحكومة ، بدلا من ان اصرفها على كسب عيشي . وليس ذلك فحسب بل ان المحاكمة جعلت بائعي الكتب الالمان ينقلبون عليّ تماما ، وكنت قد املت في الوصول الى اتفاق معهم لنشر كتابي في الاقتصاد السياسي » .

غير ان ابن شابيلتز ، الذي كان قد تسلم اعمال والده في ذلك الحين ، كتب الى ماركس في ١١ كانون الاول من بازل يخبره انه قد انتهى من طباعة الفصول الاولى . «انني على قناعة من ان الكتاب سيحدث آثارا عظيمة لانه رائعة» . اقترح شابيلتز ان يطبع الفي نسخة وان يضع للنسخة الواحدة ثمنا مرتفعا نسبيا لانه يقدر ان جزءاً من الطبعة على الاقل سيصادر . لسوء الحظ صودرت الطبعة كلها عندما كانت في طريقها الى عبور الحدود الداخلية من قرية صغيرة في بادن كانت قد ظلت فيها مخزونة حوالي ستة اسابيع .

وفي ١٠ اذار وصل النبأ السيء الى انغلز مصحوبا بالكلمات المرة التالية : «ان هذه المصائب تتهدد المرء بسلبه كل ما يشجعه على الكتابة مرة اخرى . اننا نعمل

دائما من اجل ملك بروسيا ! » كان من المستحيل الإكتشاف كيف تسربت الانباء ، وثبت ان الشك الذي راود ماركس بالناشر كان بلا اساس . حتى ان شابيليتز عرض ان يوزع النسخ الخمسمائة التي ظلت لديه في سويسرا . كان لهذه المسألة نتائجها المريرة بالنسبة لماركس بعد ذلك بثلاثة اشهر ، عندما طلب امبيرغر شريك شابيليتز تعويضا على تكاليف الطباعة بمبلغ اربعمائة واربعة وعشرين فرنكا .

ولحسن الحظ عوض الفشل في سويسرا بنجاح جزئي في اميركا ، مع ان تأثير الكتيب الذي يكشف ما دار في محاكمات كولون لم يكن ليزعج الحكومة البروسية اذ ينشر في اميركا قدر ما كان سيزعجها لو نشر في اوروبا . طبعت «نيو انجلند تزايتونغ» التي كانت تصدر في بوسطن الكتيب كما طبع انغلز ٤٤٠ نسخة خاصة على نفقته . وحاول انغلز ان يوزع هذه النسخ في مقاطعة الراين بمساعدة لاسال. فراسلت السيدة ماركس لاسال حول هذه النقطة ، وابدى هذا حماسة كافية لذلك، ولكن المراسلات لا تبين لسوء الحظ ما اذا كانت الخطة قد نفذت بنجاح ام لا .

احدث الكتيب اصداء واسعة في الصحافة الالمانية ـ الاميركية وتقدم ويليش على وجه الخصوص ليعارضه ، مما ادى بماركس الى كتابة رد قصير بعنوان «فارس الضمير الرفيع» ، ولكن الامر لا يستحق ان ترفع عنه اليوم ستارة النسيان التي اسدلت عليه منذ زمن . فكما هي الحال في مثل هذه المنازعات ، يقترف الجانبان اخطاء وخطايا ، ولكن ماركس كمنتصر امتنع عن تأكيد انتصاره على المغلوب . بعد ذلك بعدة سنوات قال ماركس مشيرا الى السنوات الاولى لفترة الهجرة قائلا ان افضل تبرير لها هو مقارنة تاريخها بالتاريخ الموازي للحكومات البرجوازية والمجتمع البرجوازي ، ذلك ان اسوأ ما يمكن ان يتهم به المنفيون عدا استثناءات قليلة منهم، هو انهم كانوا يتمسكون بأوهام لها في الحقيقة ما يبررها في الظروف التي كانوا يعيشونها حينذاك ، وانهم اقترفوا حماقات نجمت بالضرورة عن الظروف غير العادية التي وجدوا انفسهم فجأة فيها .

عندما اعد ماركس طبعة ثانية من الكتيب للنشر في عام ١٨٧٥ ، تردد في البداية في ترك الفقرات التي تتصدى لجناح ويليش ـ شابر ، ولكنه في النهاية ابقي عليها لشعوره بان اي تحويل في النص قد يبدو تحريفا لوثيقة تاريخية ، ولكنه اضاف : «تترك احداث الثورة العنيفة رواسب مزعجة في عقول من اشتركوا فيها، وعلى الاخص عقول اولئك الذين طوردوا الى المنفى بعيدا عن وطنهم . ويؤثر هذا التشوش العقلي حتى على اقدر الرجال فترة تطول او تقصر ، ويجعلهم اذا صح التعبير غير شاعرين بالمسؤولية . فيفشلوا في ان يروا معنى الاحداث ويرفضوا ان يروا ان شكل الحركة قد تغير. وتكون النتيجة ان ينغمسوا في مؤامرات ورومانتيكية ثورية تضر بهم وبالقضية التي يحملونها في قلوبهم . وهذا هو تفسير اخطاء شابر وويليش . لقد اثبت ويليش في الحرب الاهلية الاميركية انه اكثر من رجل ينسج مشاريع خيالية ، بينما ادرك شابر الذي كان رائدا من رواد حركة الطبقة العاملة اخطاءه المؤقتة واعترف بها بعد محاكمات كولون . وبعد ذلك بعدة سنوات وفي اليوم الذي سبق موته اشار شابر بسخرية لاذعة الى حماقة ايام الهجرة الاولى .

ومن الناحية الاخرى ، تفسر الظروف التي كتب فيها الكتيب واصدر المرارة التي يهاجم بها من ساعدوا العدو المشترك دون وعي منهم لذلك . ذلك ان فقدان المرء لعقله لحظة الازمة جريمة ضد الحزب تتطلب تكفيرا علنيا . كانت تلك كلمات حكمة في وقت كان الناس فيه لا يزالون يعتقدون ان الاحتفاظ بلهجة جيدة افضل من ايضاح المسائل المبدئية .

وعندما كانت المعركة تخاض ويحرز النصر ، كان ماركس اخر من يحمل ضغينة. ففي عام ١٨٥٠ اجاب على ملاحظات قاسية ابداها فريليغارث حول«العناصر المشكوك فيها والمنحطة» التي وجدت طريقها الى العصبة ، فاعترف باكثر مما كان يتوجب عليه ان يفعل اذ قال : «ان العواصف تثير دائما قدرا من الغبار ، والفترة الثورية ليست مضمخة بعبير الزهور . ومن الواضح ان المرء يتلوث احيانا بكل انواع الوحل. ومن المستحيل ان يكون المرء متشددا في الانتقاء في لحظة كهذه» ولكنه كان محقا عندما اضاف : «غير انه اذا اخذ المرء بالاعتبار الجهود الهائلة التي كان يوجهها العالم الرسمي ضدنا ، والتدقيق الذي كان يخضعنا له القانون الجنائي والافتراءات التي كانت توجهها لنا ديمقراطية الغباء (التي لم تغفر لنا ابدا اننا برهنا عن ذكاء اكبر من ذكائها وقوة شخصية اصلب من قوة شخصيتها) وتاريخ الاحزاب الاخرى ، فان المرء لا بد الا ان يصل الى نتيجة هي ان حزبنا يتميز قبل كل شيء بنظافته» .

عندما انتهت عصبة الشيوعيين انقطعت اخر الخيوط التي كانت تصل ماركس بالحياة العامة في المانيا . ومنذ ذلك الحين اصبح المنفى «وطن الناس الجيدين» وطنا له ايضا .

الفصل الثامن

ماركس وانغلز

١ ـ العبقري والمجتمع

وجد ماركس في انجلترا وطنا ثانيا له ، ولكننا يجب ان لا نحمل هذا الكلام اكثر مما يحمل . لم يتدخل احد بأمور ماركس في انجلترا بسبب تحريضه الثوري على الرغم من ان هذا التحريض كان بالطبع موجها في الحساب الاخير ضد الدولة الانجليزية ايضا . فقد ابدت حكومة «اصحاب الحوانيت الجشعين الغيورين» قدرا من احترام الذات والكبرياء اكبر من ذلك الذي ابدته حكومات القارة الاوروبية التي كان ضميرها المتعب يدفعها الى اصطياد اعدائها بكل وسائل القمع البوليسي ، حتى ولو لم يكونوا قد فعلوا شيئا غير الدعاية واثارة النقاش .

لكن ماركس بمعنى اخر اعمق لم يكن ليجد له وطنا ابدا بعد ان نفذت عين بصيرته الحادة الى مخازي المجتمع البرجوازي . اننا نستطيع ان نكتب فصلا كاملا عن مصير العبقري في المجتمع البرجوازي . فقد ادلي بآراء مختلفة حول هذا الموضوع ، من الثقة الساذجة التي يتنبأ بها المتحذلقون بان النصر النهائي سيكون ولا بد من نصيب كل عبقري ، الى كلمات فاوست الحزينة : «ان اولئك القلائل الذين رأوا وفهموا ، ثم فتحوا قلوبهم واسعة ، واظهروا مشاعرهم أمام الرعاع ، ماتوا جميعا بلا استثناء ، اما على الصليب او في المحرقة» .

ان الطريقة التاريخية التي طورها ماركس تسمح لنا بصدد هذه المسألة ايضا ان نرى علاقات الاشياء بشكل اعمق . ان المتحذلق ، لكونه كذلك ، يتنبأ بالنصر النهائي لكل رجل ذي عبقرية ، ولكن الواقع انه اذا ما نجا عبقري من الصليب او المحرقة ، فما ذلك في التحليل الاخير الا لانه كان لديه من التواضع ما مكنه من أن يظل متحذلقا . ولم يكن المجتمع البرجوازي ليعترف بعبقرية غوته او هيكل لو انهما لم يرضخا الى المجتمع ويتزيبا بزيه .

قد يكون للمجتمع البرجوازي ، الذي لا يعدو في هذا المجال كونه اكثر المجتمعات

الطبقية وضوحا وتحديدا ، ما تشاء من المزايا ، ولكنه لم يكن ابدا مضيافا للعباقرة. وفي الواقع لا يمكن ان يكون مجتمع كهذا مضيافا لهم ، ذلك ان جوهر العبقرية يتضمن على الدوام اطلاق كل الحوافز الخلاقة في الطبيعة الانسانية في وجه كل العقبات التقليدية ، وهز الحواجز التي لا يستطيع المجتمع الطبقي بدونها ان يستمر في البقاء . توجد على مدخل مقبرة نائية في جزيرة سلد لافتة حجرية تآكلت تحت وطأة موج البحر ، تقول : «هنا صليب الجلجثة ، وطن من لا وطن له» . ان هذه اللافتة تلخص دون وعي منها مصير العبقري في المجتمع الطبقي تلخيصا ناجزا . فالعبقري الذي يجد نفسه في المجتمع الطبقي بلا وطن ، لا يعثر على مكان يرتاح فيه غير صليب الجلجثة .

هذا الا اذا وافق العبقري على التسامح تجاه المجتمع الطبقي . فعندما وضعت العبقرية نفسها في خدمة المجتمع البرجوازي للاطاحة بالمجتمع الاقطاعي ، بدا انها قد احرزت قوة عظيمة ، ولكن ما ان حاولت التصرف بمفردها حتى ذهبت هذه السلطة ، وسمح للعبقرية ان تنهي ايامها على صخور سان هيلانه . او من جهة اخرى ، ارتضت العبقرية ان ترتدي ثياب الحذلقة وعند ذلك سمح لها بان ترتفع الى مرتبة عالية ، ان تصبح وزير دولة لدوق فيمار الاكبر او استاذا ملكيا بروسيا في برلين . لكن المصائب تحل بالعبقرية التي لا تفسد ، والتي ترتفع بنفسها بكبرياء محرزة استقلالها عن المجتمع البرجوازي ، وتتنبأ بالنهاية القادمة لهذا المجتمع من المعلومات التي توفرها آليته الداخلية ، والتي في النهاية تشحذ الاسلحة لتوجه الى المجتمع البرجوازي الضربة القاضية . فالمجتمع البرجوازي لا يملك ان يقدم لعبقرية كهذه غير عذابات وآلام تفوق في قسوتها عقوبات المجتمع القديم او محرقة مجتمع القرون الوسطى ، رغم انها قد تبدو من الخارج اقل وحشية .

لم يعان احد بين عباقرة القرن التاسع عشر اكثر مما عانى اعظمهم عبقرية ، كارل ماركس. فقد اضطر الى مقارعة الفقر حتى في العقد الاول من نشاطاته العامة، وعندما هاجر الى لندن كان عليه ان يتحمل كل اعباء النفي غير ان المعاناة التي جعلت مصيره بروميثيوسيا جاءت في اوج رجولته ، عندما كان عليه في خضم جهوده المضنية لدفع قضية الانسانية الى الامام ان يصارع في الوقت ذاته متاعب الحياة التافهة التعيسة يوما بعد يوم ، وان يناضل في سبيل الحصول على وسائل العيش المجرد له ولعائلته ضمن نطاق المجتمع البرجوازي ، وبالاضافة الى ذلك لم تكن الحياة التي عاشها ماركس تشبه في شيء الحياة التي يعتبرها المتحذلق العادي في جهله المعتاد حياة عبقرية . فقد كانت قدراته الهائلة في عظمة جلده ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت ايام وليالي العمل القاسي تحدث اثرها على بنية جسمه التي كانت في الاساس وكأنها قدت من حديد . ولقد كان جادا كل الجد عندما قال ان عدم القدرة على العمل حكم بالاعدام على اي كائن انساني . وفي مرة عندما وقع صريع المرض اسابيع عدة كتب الى انفلز يقول : «على الرغم من انني لم اكن استطيع العمل ، فقد قرأت كتابا في علم وظائف الاعضاء لكاربنتر وكتابا لكولكر وكتابا في تشريح المخ والجهاز العصبي لشلايدن» . ولم ينس ماركس ابدا في خضم عطشه

البالغ الى المعرفة العلمية الكلمات التي قالها مرة عندما كان شابا : علـــى الكاتب بالتأكيد ان يستحصل على نقود كي يستطيع العيش والكتابة ولكنه يجب ان لا يعيش ويكتب كي يكسب نقودا، كما كان على الدوام يدرك «الضرورة الملكة لكسب العيش».

غير ان كل جهوده في هذا المضمار كانت تفشل بلا استثناء في وجه الشك او الكراهية ، او في احسن الاحوال الخوف من عالم معاد . فحتى اولئك الناشرون الالمان الذين كانوا يتفاخرون باستقلالهم ، كانت فرائصهم ترتعد عند سماع اسم الديماغوجي السيء الصيت. فقد كانتكل الاحزاب في المانيا تفتري عليه بالتساوي، وحيث كان قوامه العملاقي يبدو واضحا عبر السحب المختلقة حوله ، كان الصمت الخبيث الحقود والمتعمد يفعل فعله المخزي . لم تطرد امة في التاريخ اعظم مفكريها خارج حياتها الوطنية بهذا القدر وطيلة هذه المدة كما فعلت المانيا بماركس .

كانت المرة الوحيدة التي نجح فيها في الحصول على عيش نصف آمن ، عندما عمل لحساب «نيويورك تريبيون» مدة عقد من الزمن بدأ عام ١٨٥١ . كانت «نيويورك تريبيون» اقوى الجرائد واكثرها شعبية في الولايات المتحدة الاميركية وكان لها من القراء ٢٠٠ الف ، وقد استطاعت بالتحريض الذي كانت تقوم به داعية لنوع من الفورييه ان ترفع نفسها على الاقل فوق مستوى المشاريع الراسمالية التي تقصر همها على ابتزاز المال . لم تكن الشروط التي كان ماركس يعمل بموجبها في هذه الصحيفة غير مواتية . فقد كان عليه ان يكتب مقالتين في الاسبوع ليتلقى جنيهين عن كل منهما . وكان هذا يعني انه كان يستطيع الحصول على ٢٠٠ جنيه استرليني في السنة وكان ذلك يمكنه من ان يبقي راسه فوق الماء . اذ لم تكن نشاطـــات فريليفارث التجارية تربح اكثر من ذلك على الاقل في البداية ، مع ان فريليفارث كان يتفاخر دائما بانه لم يكن يفتقد اللحم يوما .

بالطبع ليست المسألة ما اذا كان المبلغ الذي كانت تدفعه الصحيفة الاميركية الى ماركس يتفق مع القيمة الادبية والعلمية لمقالاته ، ذلك ان الجرائد الراسمالية تحدد تعاملها على اساس اسعار السوق ، وعملها هذا مبرر في المجتمع البرجوازي. ولم يكن ماركس يطلب ابدا اي معاملة افضل من هذه ، ولكنه كان مؤهلا حتى في مجتمع برجوازي للمطالبة باحترام الاتفاقيات وربما بان يقيم عمله بحد ذاته ايضا. غير ان ناشري نيويورك تريبيون لم يفعلوا لا هذا ولا ذلك . فقد كان دانا فوريا نظريا ولكنه كان في الممارسة رجل اعمال اميركي حقيقي . وقد اعلن انغلز في فورة من فورات الغضب ان اشتراكية دانا ليست في الواقع غير أحط انواع الخـداع البرجوازي الصغير ، وعلى الرغم من ان دانا كان مدركا تمام الادراك لقيمة ماركس ككاتب ، وعلى الرغم من انه لم يفشل في اعلان تلك القيمة لقرائه ، الا انه ابـدى تجاه ماركس كل اشكال القسوة التي يشعر المستغل الراسمالي ان من حقه ابداءها تجاه العمل المبذول المستغل المعتمد عليه في عيشه . لكن اسوأ عمل اقترفه دانا كان بلا شك انه كثيرا ما سرق المقالات التي كان يرسلها ماركس ونشرها في شكل محرف كمقالات بقلم التحرير ، فكان لا بد لهذا العمل من ان يسبب للمؤلف الحقيقي ضيقا بالغا .

اكثر من ذلك ، لم يكتف دانا بانقاص ما يتلقاه ماركس بمقدار النصف حالما ظهرت اول علامات هبوط المبيعات ، ولكنه ايضا لم يكن يدفع له اجرا الا لقاء المقالات التي كانت تطبع فعلا باسم ماركس . وفي الواقع لم يكن يتردد في تمزيق مقالات كاملة بكل ما فيها لمجرد ان خطها العام لا يتفق مع اغراضه . وفي بعض الاحيان كانت المقالات التي يرسلها ماركس تجد طريقها الى سلة المهملات طوال ثلاثة اسابيع وحتى ستة اسابيع . وفي الوقت ذاته لم تبد الصحف الالمانية التي كان باستطاعة ماركس ان يتقدم منها بمقالاته مثل «داي بروس» في فيينا قدرا اكبر من الشرف. لقد كان ماركس محقا عندما قال بمرارة ان العمل الصحفي ليس افضل من الاستجداء.

وفي ١٨٥٣ نجد ماركس يتوق الى بضعة اشهر من الهدوء يستكمل بها دراساته العلمية : «من الواضح انني لن احصل عليها . ان هذا المخاض الدائم من اجل ارسال مواد الى الصحف يصيبني بالملل . ففيه تستطيع ان تكون مستقلا كما تشاء ، ولكنك في نهاية المطاف ملتزم بالجريدة وقرائها خاصة عندما تتلقى اجرك نقدا كما افعل ، اما العمل العلمي المحض فمختلف تماما» . نجد ان لهجة ماركس تصبح اكثر مرارة بعد ان عمل بضع سنوات تحت رحمة طغيان دانا : «انه لامر مثير للتقزز تماما ان يتعين على المرء الشعور بالامتنان عندما تتعطف صحيفة كهذه وتأخذ المرء تحت جناحها . ان العمل السياسي لصحيفة كهذه ليس في النهاية غير طحن عظام وصنع حساء من طحينها ، ومع ذلك فان عليّ ان افعل ذلك بالتمام والكمال» . لقد شارك ماركس البروليتاريا الحديثة مصيرها لا في شحة وسائل العيش فحسب ، ولكن ايضا في افتقارها التام الى الطمأنينة .

كان العالم على الدوام يملك فكرة عامة عن ماركس ، ولكننا نجد في رسائله الى انفلز تفاصيل رهيبة ومؤثرة : مرة اضطر ان يبقى في البيت لانه لم يكن يملك معطفا ولا حذاء ، وفي مرة اخرى لم يكن يملك من النقود ما يكفيه لشراء صحف او ورق للكتابة ، وفي مرة ثالثة نجده يتنقل بين معارفه ليقترض نقودا يدفع بها اجرة ارسال احدى المخطوطات الى الناشر بالبريد . ثم كان هناك المشادات المستمرة مع البقال واصحاب الحوانيت لانه لم يكن يستطيع ان يسدد في الميعاد ثمن حتى ضرورات الحياة ، هذا عدا عن المتاعب المستمرة مع صاحب المنزل الذي كان يتهدده على الدوام بوضع يده على موجودات البيت ، كل ذلك بالاضافة الى الزيارات الدائمة للمسترهن الذي كان رباه يبتلع حتى النقود القليلة التي كان يمكن لها بصعوبة ان تبقي شبح الجوع خارج البيت .

كثيرا ما كان هذا الشبح يدخل البيت ويقبع فيه . وكانت زوجة ماركس التي اعتادت على الحياة الهانئة في طفولتها كثيرا ما تنهار تحت وطأة ضربات الحظ التاعس حقا ، فكانت عندئذ تتمنى ان تموت واطفالها . واننا لنجد اشارات الى المنازعات العائلية في بعض رسائل ماركس ، وفي احدى المرات نجده يقول ان اولئك الذين يخدمون الاهداف العامة للانسانية لا يمكن ان يرتكبوا حماقة اكبر من الزواج لانهم بذلك يسلمون انفسهم للمشاغل الحقيرة التي تكتنف الحياة الخاصة . ولكن رغم ان شكاوى زوجته تؤدي به احيانا الى نفاد الصبر الا انه كان على الدوام يجد

لها المعاذير ويجد لشكاواها ما يبررها ، قائلا ان عليها ان تقاسي اكثر منه بكثير من الاذلالات والمشاغل والهموم التي يتعين على من هم في وضعهما ان يعانوا منها ، ولا شك في ان حالتها كانت اسوأ من حالته بكثير لانها لم تكن تستطيع ان تجد لها ملجأ وملاذا في رحاب العلم الذي كان يخلصه المرة تلو الاخرى . وكان قلب الابوين معا ينخلع حزنا اذ يريا ملذات الطفولة البريئة تنحسر عن اطفالهما بقسوة .

كان مصير عبقرية ماركس حزينا حقا ولكنه ارتفع الى اعال مأسوية لانه اختار طواعية ان يتحمل عبء هذه الآلام والشدائد عقودا طويلة ، ورفض باصرار كل الاغراءات التي كانت تدفع به نحو الاستقرار في وظيفة برجوازية ، رغم انه كان يستطيع ان يفعل ذلك دون ان يمس شرفه وكرامته . وهو يفسر موقفه بنفسه دون اي تعال وبكلمات بسيطة : «علي ان اتابع السير نحو هدفي مهما كانت الصعاب ، ولن اسمح للمجتمع البرجوازي ان يحولني الى آلة لصنع النقود» . لم تكن قيود الآلهة هي التي تقيد بروميثيوس ولكن ارادته الصلبة هي التي جعلت مسيرته تتجه بلا تردد نحو اعظم هدف للانسانية . لقد كان سلوكه كالفولاذ الصلب المرن . فهو في الوقت ذاته في الرسالة ذاتها يبدو مسحوقا تحت وطأة التعاسات الصغيرة لنجده وقد تحول فجأة الى بحث اعقد المسائل بهدوء العالم الذي لا يتأثر البتة لهموم الحياة المادية .

غير ان ماركس كان يتألم ويتألم بعمق للضربات التي يكيلها له المجتمع البرجوازي. ولا شك ان من الغباء ان يتساءل المرء: ماذا تهم هموم كهذه عبقريا يتطلع في اية حال الى حكم الاجيال القادمة ؟ لا شك في ان الطموح الادبي المغرور الذي يجعل صاحبه يتمنى ان يرى اسمه في الصحف كل يوم غبي جدا ، لكن القوى الخلاقة يجب رغم ذلك ان تجد لنفسها متنفسا تتطور فيه ، فهي تكتسب قوة جديدة من الصدى الذي تثيره اعمالها . لم يكن ماركس ثرثارا متكلفا وفاضلا كاولئك الذين نصادفهم في الروايات والمسرحيات السيئة ، ولكنه كان مثل ليسنغ رجلا يحب ان يتمتع بالحياة والعالم، ولم يكن ماركس يجهل المزاج الذي كتب به ليسنغ وهو على فراش الموت الى احد اصدقائه يقول : «انني واثق من انك لا تعتبرني رجلا متعطشا للمديح ، لكن البرود الذي اعتاد العالم ان يشير به الى اناس معينين ، مصرا على ان كل ما يفعلون ليس صحيحا ، يسبب الشلل ان لم يكن قاتلا» . فهو المزاج ذاته الذي كتب به ماركس عشية عيد ميلاده الخمسين يقول : «نصف قرن على ظهري ولا ازال عالة ! » . وفي احدى المرات تمنى ان يغرق مئة قدم في البحر بدلا من ان يستمر في العيش كالنباتات ، وفي مرة ثانية انفجر يائسا فقال انه لا يتمنى لاعدى اعدائه ان يصادف ما يصادفه ، اذ ظل ثمانية اسابيع وقلبه يتمزق غيظا لان ذكاءه وقدراته تتفتتان تحت وطأة التفاهات .

مع ذلك كله لم يصبح ماركس ابدا «كلبا حزينا ملعونا» كما وصف نفسه بهزء ذات مرة ، وبهذا المعنى كان انغلز على حق عندما قال ان صديقه لم ييأس يوما . كثيرا ما وصف ماركس بانه ذو شخصية صلبة ، لكن الضربات التي تلقاها على مذبح سوء الحظ جعلته اصلب واصلب . فقد اصبحت السماء الزرقاء التي كانت تظل

شبابه الباكر ملبدة شيئا فشيئا بغيوم داكنة كانت افكاره تتخللها كما يلمع البرق. ونمى تقييمه لاعدائه ، وفي احيان كثيرة لاصدقائه ، لذعة حادة جرحت حتى اولئك الذين لم يكونوا حساسين كثيرا . ان اولئك الذين يشتمونه ويصفونه بانه ديماغوجي بارد كالثلج لا يقلون ولا يزيدون خطأ عن اولئك الذين لا يرون في المقاتل العظيم والانسان الرائع اكثر من دمية في استعراض .

ـ ٢ ـ تحالف لا مثيل له

لا يعود انتصار حياة ماركس الى قدراته البالغة فقط . فقد كان لا بد ان ينهار في نضاله بشكل او بآخر ، لولا الصديق الذي وجده في انغلز ، ذلك الصديق الذي بدأنا نفهم اخلاصه وتضحيته بعد ان نشرت مراسلات الصديقين .

لم يكن لصداقتهما مثيل في التاريخ ، الذي سجل حالات كثيرة من الصداقة الشهيرة ، تلك الصداقات التي جمعت بين اناس ارتبطتهم اعمالهم الحياتية ارتباطا وثيقا ، والتاريخ الالماني هو الاخر يضم حالات كهذه . ولكن كان يظل في هذه الحالات بعض آثار الاثرة او العناد ، او حتى معارضة خفية للتخلي تماما عن الشخصية الفردية التي تمثل «أسمى هدية اعطتها الارض لابنائها» ، على حد تعبير احد الشعراء . فقد كان لوثر في نهاية الامر يعتبر ميلانكثون اكاديميا ضعيف القلب ، بينما كان ميلانكثون يعتبر لوثر فلاحا خاما ، ولا شك انه يتعين على المرء ان يكون راغبا في الوقوع ضحية البلادة ان لم يلاحظ في مراسلات غوته وشيللر الاختلاف المستتر بين وزير الدولة والمستشار الصغير . اما صداقة ماركس وانغلز فلم تكن تعرف شيئا من آثار الحقارة الانسانية هذه . فكلما كان فكرهما وتطورهما يصبح واحدا ، كلما ظل كل منهما هوية منفصلة وانسانا مستقلا .

كان مظهرهما من الخارج مختلفا جدا . فقد كان انغلز الالماني الاشقر الطويل القامة ، وكان سلوكه ، اخبرنا احد المراقبين ، انجليزيا ، وكذلك كان يعتني بملابسه ويحافظ على استقامة قامته نتيجة النظام في الخدمة العسكرية وفي عمله المكتبي . ولقد اعلن مرة انه يستطيع ان ينظم بستة كتبة فقط ادارة ابسط واكثر فعالية من ادارة تنتظم ستين مستشارا، لا يستطيعون حتى ان يكتبوا بشكل مقروء، وينظمون الدفاتر بشكل لا يستطيع معه احد من بعدهم ان يعرف لها رأسا من ذيل. لقد كان عضوا محترما في بورصة مانشستر ، ولامعا في التجارة وفي مسرات البرجوازية الانجليزية من صيد الثعالب الى حفلات عيد الميلاد . ولكن كان للقائد المفكر والمقاتل كنزه في بيت صغير بعيد في الجانب الاخر من المدينة ، ولم يكن ذلك الكنز غير فتاة ايرلندية كان يستعيد في احضانها قواه الروحية عندما كان يتعب من العيش الذي اضطر ان يحياه في وسط البرجوازية .

اما ماركس فقد كان قوي البنية ذا عينين سوداوين مشعتين وشعر كثيف اسود يتدلى على ظاهر عنقه ويشير الى اصله السامي . ولم يكن يهتم بمظهره كأي رب

عائلة ليس لها من نشاطات المدينة التجارية نصيب ، ولكنه كان يستنفد قواه في العمل الفكري الذي كاد لا يترك له وقتا لابتلاع وجباته والذي كان يستمر الى وقت متأخر من الليل ، فيحدث اثرا سلبيا على صحته . لقد كان مفكرا لا يكل ولا يمل، يشكل التفكير بالنسبة له اسمى الملذات ، كما كان خليفة حقا لكانط وفيخته وعلى الاخص لهيغل الذي كان يردد بسرور كلماته : «حتى تفكير الاوغاد الاجرامي أسمى وأرفع من كل تأملات السماء» ، هذا عدا عن ان فكر ماركس كان يناضل دائما للتحقق في الممارسة . لقد كان ماركس غير عملي في المسائل الصغيرة ، ولكنه كان اكثر من عملي في المسائل الكبيرة . فلم يكن يستطيع ادارة امور بيت صغير ، ولكنه كان لا يجارى في قدرته العبقرية على حشد جيش وقيادته الى الامام ليغير به وجه الارض .

يقال ان الاسلوب ينبىء عن صاحبه ، وفي هذا المجال ايضا كان ماركس وانغلز مختلفين فقد كان كل منهما متمكنا من اللغة بطريقته الخاصة ، كما كان كل منهما لغويا لامعا متمكنا من كثير من اللغات وحتى اللهجات . وقد استطاع انغلز ان ينجز في هذا الحقل اكثر من ماركس ، ولكنه عندما كان يستعمل لغته الاصلية ، حتى في رسائله عدا عن كتبه ، كان يمسك بالقياد بصلابة فلا يسمح بالتعثر لا يسارا ولا يمينا ولا بالوقوع في فجوات غريبة ، بينما كان يتجنب في الوقت نفسه الوقوع في تزمت مصلحي اللغة . فقد كان يكتب ببساطة وبلمسات خفيفة ، فكان نثره واضحا في كل حين حتى ان القارىء يستطيع ان يرى عبر سيل كلماته الجاري الامور حتى القاع .

اما ماركس فقد كان يكتب بقدر أقل من الاحتراز وبصعوبة اكبر . اذ يشعر المرء في رسائله الاولى ، مثل تلك التي ارسلها لهاينه ، انه يصارع من اجل الوصول الى الكمال ، وفي رسائله الاخيرة ، خاصة تلك التي كتبها بعد ذهابه الى انجلترا ، نجد انه يستعمل خليطا رهيبا من التعابير الالمانية والفرنسية والانجليزية . كذلك تحتوي كتاباته على عدد من الكلمات الاجنبية اكثر مما هو ضروري ، حتى ان كتابته بالالمانية تتخللها تعابير ذات جرس انجليزي او فرنسي . ولكنه مع ذلك كان متمكنا من اللغة الالمانية الى درجة ان ما كتبه بها لا يمكن ان يترجم دون ان يفقد الكثير . ولقد قال انغلز بعد ان قرأ مرة ترجمة فرنسية لاحد كتب ماركس ، كان ماركس نفسه قد نقحها بعناية بالغة ، ان قوة وحيوية وسلاسة النص الاصلي قد ذهب هباء منثورا . كتب غوته مرة الى السيدة فون شتاين : «انني في التشابيه اخوض سباقا مع اقوال سانشوبانزا المأثورة» ، وبالمثل كان ماركس في تعبيرية لغته يستطيع ان يخوض سباقا مع اعظم أسياد اللغة مثل ليسنغ او غوته او هيغل . فقد تمكن من المبدأ الذي وضعه ليسنغ من ان الشكل والمحتوى يجب ان يتفقا اتفاق حبيبين في زيجة سعيدة ، ولهذا السبب فقد تعرض للنقد من جانب كهنة الجامعات ابتداء من الاستاذ القديم فيلهلم روشر الى أصغر محاضر جامعي على اعتبار انه لا ينجح في جعل نفسه مفهوما الا بصعوبة و«بنسيج من التشابيه» . لقد كان ماركس على الدوام يعالج المسائل التي يكتب فيها بطريقة تترك للقارىء مجالا للتفكير ، وكانت

لغته تشبه لعب الامواج في اعماق المحيط الارجوانية .

أدرك انغلز دوما تفوق ماركس العبقري ، ولم يطمح ابدا الى لعب اي دور غير دور الشريك الثاني . غير انه لم يكن اطلاقا مجرد مفسّر لماركس ومساعد له ، بل كان دائما معاونا مستقلا ، وقدرة فكرية مختلفة عن قدرة ماركس ولكنها تشكل قدرة مكملة لها . وفي بداية صداقة الرجلين ، كان انغلز يعطي اكثر مما يتلقى في احد حقول نشاطهما الهامة جدا ! وبعد ذلك بعشرين سنة ، كتب ماركس له يقول: «أتعلم انني اولا وقبل كل شيء أتوصل الى الاشياء ببطء ، وانني ثانيا اتبع خطاك على الدوام» . لقد كان انغلز يحمل اسلحة أخف ، ويستطيع الحركة بسرعة اكبر . وكانت بصيرته حادة لدرجة تتيح له رؤية النقطة الحاسمة في اي مسألة او وضع فورا ، ولكنه لم يكن ينفذ الى عمق يكفي لرؤية كل جوانب المسألة فورا . ولا شك ان هذه المقدرة ميزة عظيمة جدا لرجل عمل ، ومن هنا لم يكن ماركس يتخذ اي قرار سياسي دون ان يستشير انغلز ، الذي كان يستطيع على الدوام ان يصيب كبد المسألــة .

ولذا ، وطبقا للعلاقة التي كانت قائمة بين الرجلين ، لم تكن النصيحة التي كان ماركس يسعى اليها ويلقاها عند انغلز مثمرة في المسائل النظرية قدر ما كانت تثمر في المسائل السياسية ، ذلك ان ماركس كان يتفوق على صديقه في المسائل الاولى . ولكن كانت هناك نصيحة واحدة لم يكن ماركس يعير لها أذنا صاغية ، تلك هي النصيحة التي كان انغلز يخص بها ماركس على انهاء بحثه العلمي بسرعة : « لا تثقل ضميرك كثيرا بعملك ، فهو سيكون جيد جدا بالنسبة للجمهور على اية حال. المهم في الامر ان تنهيه وتنشره . اما النقاط الضعيفة التي تستطيع ان تراها فلن يكتشفها الحمير مهما حدث» . كانت هذه النصيحة نموذجا لسلوك انغلز ، تماما مثلما كان رفضها نموذجا لسلوك ماركس .

من هذا كله ، نستطيع ان نرى ان انغلز كان اقدر على العمل الدعاوي اليومي من ماركس ، الذي وصف صديقه مرة بأنه «موسوعة حية ، مستعد للعمل في اي ساعة من ساعات الليل والنهار ، مليء بصفاء الذهن ، سريع في الكتابة ، ونشيط نشاط شيطان» . يبدو ان الصديقين عزما على مشروع جديد مشترك بعد ان توقفت «نيو راينيخه رفيو» عن الصدور في خريف ١٨٥٠ . فعلى الاقل كتب ماركس لانغلز في كانون الاول ١٨٥٣ : «لو اننا بدأنا مشروع المراسلات الانجليزية التجارية فــي لندن في الوقت المناسب ، لما كنت انت في مانشستر تثقلك هموم التجارة ، ولمــا كنت انا هنا في لندن تثقلني الديون» . ولربما كان انغلز قد فضل ان يتولى عملا في شركة والده بدلا من الاعتماد على «مشروع المراسلات التجارية» بسبب الحالة المزرية التي وجد ماركس نفسه فيها في ذلك الحين ، وليس بسبب اي نية فــي تكريس نفسه بشكل دائم «للتجارة الملعونة» . ففي ربيع ١٨٥٤ ، فكر انغلز مرة اخرى في ترك التجارة والعودة الى لندن للعمل في الكتابة ، ولكن هذه كانت المرة الاخيرة التي فكر فيها بذلك ، ولا بد انه في ذلك الوقت قرر الرزوح تحت النير الملعون بصورة دائمة كي يساعد صديقه وفي الوقت ذاته يحفظ للحزب اعظم قدرة

فكرية لديه . ولم يكن انغلز ليقوم بهذه التضحية ، ولم يكن ماركس ليقبلها الا في ظل ظروف كهذه . ولا شك في ان العرض وقبوله يصدران عن درجة عالية من انكار الذات الرفيع .

استطاع انغلز ان يصبح في ما بعد شريكا في الشركة التي كان يعمل فيها ، ولكن وضعه المالي لم يكن حتى ذاك وكموظف بسيط في الشركة زاهرا ، ولكنه مع ذلك ساعد ماركس بأفضل ما يستطيع منذ الايام الاولى لاقامته في مانشستر ، ولم يتعب ابدا من مساعدته . فقد كانت اوراق الخمسة جنيهات واوراق العشرة ، وحتى اوراق المائة فيما بعد ، تجد طريقها باستمرار من مانشستر الى لندن . ولم ينفد صبر انغلز اطلاقا ، حتى عندما كان صبره يتعرض لضغط هائل من ماركس وزوجته اللذين يبدو ان آراءهما في كيفية ادارة المنزل العائلي لم تكن متواضعة . وحتى عندما نسي ماركس مرة انه مدين بكمبيالة واصيب بالدهشة والانزعاج عندما حان وقتها ، لم يبد انغلز اي يأس تجاه الطبيعة غير العملية لصديقه . او عندما رتب في مرة اخرى تمويل العائلة على اساس جديد ، فأخفت عنه السيدة ماركس ديون العائلة املا في ان تستطيع دفعها بنفسها مما يتوفر من النقود التي رتب انغلز امر دفعها ، فكانت النتيجة ان بدات المصاعب وأصناف الحرمان بالتتابع من جديد . فما كان من انغلز الا ان ترك لصديقه امر الاستمتاع بالرضى المرائي نوعا ما الذي استمده من الشكوى من «حماقة النساء» ، وقنع لنفسه بتوجيه نصيحة خفيفة الوقع : «فلتتأكدي من ان ذلك لن يحدث ثانية» .

لم يكدح انغلز من اجل صديقه في المكتب والبورصة خلال النهار فحسب ، بل كان كذلك يضحي بالجزء الاكبر من وقت فراغه ، اذ يعمل في المساء ، وفي احيان كثيرة حتى وقت متأخر من الليل . فكان في البداية يفعل ذلك كي يترجم رسائل ماركس الى «نيويورك تريبيون» لان ماركس لم يكن حينذاك متمكنا من اللغة الانجليزية كفاية، وعندما بطل هذا السبب، استمر انغلز مع ذلك في تعاونه الصامت.

لكن كل هذه التضحيات تتضاءل اذا قورنت بتضحيته الكبرى : تخليه الطوعي عن كل امل في الوصول الى قدر من الانجاز العلمي كان بامكانه ان يحصله بالنظر الى قدرته العظيمة على العمل ومواهبه الفنية . وفي هذه الحالة ايضا ، تعطينا المراسلات بين الرجلين فكرة حقيقية عن الوضع ، حتى ولو اخذنا بالاعتبار فقط الدراسات العسكرية واللغوية التي كان انغلز يتابعها ، جزئيا «لميله» اليها ، وجزئيا بسبب الضرورات العملية لنضال البروليتاريا من اجل الانعتاق . وعلى الرغم من انه كان يكره «الوعظ الذاتي» — كتب مرة باحتقار انه هراء دائما — وعلى الرغم من ان طريقته في العمل العلمي كانت شاملة ، الا انه لم يكن ابدا من علماء الصالونات، مثله في ذلك مثل ماركس ، وكان يعتبر ان اية معلومات لها قيمة مضاعفة اذا كان يمكن وضعها فورا في خدمة النضال من اجل تحطيم قيود البروليتاريا .

ولهذا السبب بدأ بدراسة اللغات السلافية، معلنا انه عندما يحين الوقت للعمل السياسي ثانية «فعلى الاقل واحد منا» يجب ان يكون عالما بشيء عن لغة وتاريخ وادب تلك الامم التي سندخل في صراع معها فورا . وبالطريقة ذاتها دفعته

الاشتباكات في الشرق الاقصى الى دراسة اللغات الشرقية . فأفزعته اللغة العربية بجذورها الاربعة آلاف ولم يتعلمها ، ولكنه وجد الفارسية «مجرد ألهية لطفل» وعبر عن امله في ان يتعلمها ويتمكن منها في ثلاثة اسابيع . ثم حول انتباهه الى اللغات الجرمانية : «انني الان غاطس حتى قمة رأسي في اولفلاس (١) . وكان يتوجب عليّ حقا ان انهي هذا القوطي الملعون منذ وقت طويل ولكني متقطع في دراساتي . لقد دهشت اذ اكتشفت انني اعرف اكثر مما ظننت بكثير . يجب عليّ ان انتهي منه بمساعدة قاموس جيد خلال حوالي اسبوعين ، ثم انتقل الى اللغتين النوردية القديمة والسكسونية القديمة اللتين ألفتهما بصورة عابرة منذ حين . انني اعمل حتى هذه اللحظة دون قاموس ، مستخدما النص وغريم فحسب ، ولا شك ان هذا الرجل العتيق رائع حقا . وعندما اصبحت مسألة سليزويغ ــ هولشتاين حادة في الستينات وجه انغلز اهتمامه الى «القليل من فقه اللغة وعلم الآثار الفرنسي ــ الانكليزي ــ القوطي ــ السكندنافي» وعندما اندلعت المسألة الايرلندية ثانية التفت الى «القليل من الايرلندية السلتية» وهكذا . وفيما بعد اكسبته سيطرته الرائعة على العديد من اللغات مكانة جيدة في المجالس العامة للاممية . فقال احدهم مرة: «ان انغلز يتأتى بعشرين لغة» ذلك ان انغلز كان يميل الى التأتأة ميلا خفيفا عندما يهتاج .

واكتسب انغلز لقب «الجنرال» بسبب دراسته الاكثر حماسة في العلم العسكري . وفي هذه الحالة ايضا شجعت الضرورات العملية للسياسة الثورية «ميلا قديما» لديه . فقد كان يعي «الاهمية العظمى التي ستكون للحزب العسكري في الحركة القادمة . كما ان اولئك الضباط الذين انحازوا الى الشعب خلال الثورة لم يبرهنوا عن انفسهم بشكل مرض . فقد قال انغلز في احدى المناسبات «ان هذا الجمع من العسكريين يملك روحا عسكرية مثيرة للتقزز بشكل فظيع فهم يكرهون بعضهم بعضا ويحسدون بعضهم لادنى امتياز ، ولكنهم يقفون كرجل واحد ضد (المدنيين) »» . وكان هدفه ان يتمكن من العلم العسكري بقدر يسمح له ان يقول كلمة او كلمتين في المسائل العسكرية النظرية دون ان يجعل من نفسه اضحوكة .

ولم يكد انغلز يستقر في مانشستر حتى بدأ يبتلع المسائل العسكرية بادئا « بأكثر المسائل عادية كتلك التي تطلب في الامتحانات من مرشحي الضباط وصف الضباط » . فدرس التنظيم العسكري بكل تفاصيله التقنية : التكتيك الاولي ، نظام التحصينات من فوبان الى احدث نظام للقلاع المكتفية بذاتها ، بناء الجسور وحفر الخنادق ، استخدام الاسلحة ، مختلف انواع حاملات المدافع ، نظام التموين، نظام العناية الطبية ، وغير ذلك كثير من التفاصيل ، وفي النهاية ركز اهتمامه على التاريخ العسكري العام فدرس بحماسة الانجليزي نابيير والفرنسي جوميني والالماني كلاد زوفتز .

لم يضع انغلز يوما وقت قرائه محاولا ان يبين لهم لا عقلانية الحرب اخلاقيا ،

---

(١) مطران قوطي ترجم التوراة والقوطيون هم شعب جرماني قديم .

بل سعى بدلا من ذلك الى الكشف عن الاسباب التاريخية للحرب ، وكثيرا ما جعلت هذه الجهود غضب الديماغوجيين الديمقراطيين يحل على راسه . صب بايـــرون تحقيره اللاذع مرة على قادة الجيشين اللذين تحاربا في ووترلو بوصفهما حامـلي لواء اوروبا الاقطاعية ، كما وجه ضربة قاضية الى وريث الثورة الفرنسيـــة ، ولا شك في انها مناسبة سعيدة تلك التي دفعت انغلز الى رسم صورة تاريخية لولنفتون وبلوخر في واحدة من رسائله الى ماركس . وعلى الرغم من أن اطار هـذه الصورة محدود الا انها واضحة ودقيقة الى درجة كبيرة ، حتى اننا لا نكاد نحتاج الى تغيير سطر واحد منها اليوم رغم التقدم العظيم الذي احرزه التقدم العسكري .

كذلك عمل انغلز بسرور وحماسة في حقل ثالث ، هو حقل العلوم الطبيعيـــة . ولكن هنا ايضا لم يستطع أن يضع على استقصاءاته اللمسات الاخيرة خلال العقود الطويلة التي عمل فيها ليمهد الطريق امام الجهود الفكرية لرجل يفوقه عظمة .

كان هذا مصيرا مأسويا لكن انغلز لم يحزن لذلك اطلاقا ، ذلك أن العاطفة كانت بعيدة عنه بعدها عن صديقه ماركس . فقد كان يعتبر دائما أن من حسن حظه انـــه استطاع أن يقف مع ماركس كتفا الى كتف طيلة أربعين عاما ، حتى ولو كان ذلـك على حساب بقائه في ظل القامة التي تفوقه عظمة . وعندما لعب انغلز طيلة عقـــد واكثر بعد موت صديقه الدور القيادي في الحركة العالمية للطبقة العاملة ، وعندمـا كانت سلطته لا تنازع ، لم يبد له ذلك ابدا على أنه أمر مرض جاء متأخرا . بل على العكس من ذلك كان يقول دائما أنه يمنح هالة اكثر مما يستحق .

لقد اعطى الرجلين نفسيهما تماما للقضية المشتركة ، وقام كل منهما بتضحيـــة مختلفة ولكنها تساوي الاخرى عظمة ، لمصلحة هذه القضية دون أن يبدو عليهما أثر لهمهمة مستاءة أو تفاخر مزهو . ولهذه الاسباب كانت صداقتهما تحالفا لا مثيل له، تحالفا لا يستطيع التاريخ ان يقدم له صنوا ولا نظيرا .

الفصل التاسع

حرب القرم والازمة

١ ـ السياسة الاوروبية

في نهاية عام ١٨٥٣ وعندما انهي ماركس صراعه مع « اوهام المهاجرين الديمقراطيين وهوايتهم الثوروية » بسجاله ضد ويليش ، ابتدأت فترة جديدة في السياسة الاوروبية باندلاع حرب القرم ، وقد كانت هذه الفترة موضع اهتمامه الرئيسي في السنوات القليلة اللاحقة .

اعطى ماركس وجهات نظره في الموضوع في مقالاته في « نيويورك تريبيون » بصورة رئيسية . وعلى الرغم من أن محرري الصحيفة فعلوا كل ما بوسعهم ليجبروه على النزول الى مستوى المراسل الصحفي العادي ، فقد كان بامكانه ان يقول بكل صدق انهم لم ينجحوا « الا في حالات استثنائية » . فقد ظل مخلصا لمبادئه ، حتى ان العمل الذي اضطر الى القيام به لكسب عيشه اكتسب قيمة خالدة لكونه مبنيا على دراسات مستفيضة .

لا يزال الكثير من هذه الكنوز التي خطها قلمه مدفونا ، ولا شك أن الكشف عنها يتطلب قدرا معينا من المشقة . ذلك ان « نيويورك تريبيون » كانت تعامل مقالاته كمادة خام الى هذا الحد او ذاك ، فتلقي ببعضها الى سلة المهملات وتنشر البعض الآخر باسمها ، وكثيرا ما كانت تنشر موادا لا قيمة لها باسمه كما اشتكى مرارا ، ولذا فلن يكون من الممكن ابدا اكتشاف كل اعماله للصحيفة ، كما ان من الضروري القيام بتفحص دقيق جدا لتعيين حدود هذه الاعمال بأي درجة من الدقة .

لقد قدم نشر مراسلات ماركس ــ انغلز حديثا مساعدة لا غنى عنها في هذا المجال . فهي تبين مثلا أن سلسلة من المقالات حول الثورة والثورة المضادة في المانيا ارتبطت سنوات عدة باسم ماركس ، كانت في الواقع بقلم انغلز ، وأن انغلز لم يكتب فحسب المقالات التي تتعلق بالمسائل العسكرية ، وهذا ما عرف منذ أمد بعيد ، ولكنه ايضا ساعد بصورة واسعة في مقالات ماركس للصحيفة في حقول اخرى .

وبالاضافة الى سلسلة المقالات عن الثورة والثورة المضادة في المانيا ، جمعت أيضا المقالات التي تبحث المسألة الشرقية والتي ظهرت في نيويورك تربيون ، مع أن الشك يحوم حول صحة ما تحتويه هذه المجموعة الاخيرة وما لا تحتويه ، اكثر مما يحوم حول المجموعة الاولى التي لم يصبها أي ضير غير نسبتها الى مؤلف غير مؤلفها .

ولكن هذا التفحص النقدي لاعمال ماركس في نيويورك تريبيون لن يمثل سوى جزء ضئيل من الجهد الضروري ، ذلك انه على الرغم من ان ماركس نجح بالتأكيد في رفع مستوى العمل الصحفي كثيرا ، الا انه لم يكن يستطيع رفعه تماما فوق الظروف التي كان يتوجب عليه أن يكتب فيها . ان أعظم العقول في العالم لا يستطيع ان يقوم باكتشافات جديدة أو ان يخلق افكارا جديدة مرتين في الاسبوع وفي الوقت المناسب للحاق بالسفينة المبحرة الى نيويورك كل يوم ثلاثاء وجمعة . فمن المستحيل في ظل هذه الظروف ، كما اوضح انغلز تجنب « الارتجال المحض من وحي اللحظة والاعتماد على الذاكرة فقط» تجنبا تاما. اكثر من ذلك ، يعتمد العمل اليومي على الانباء اليومية والمزاج اليومي ، ولذا فانه لا يستطيع أن يحرر نفسه منها دون ان يصبح جافا ومملا . فمثلا ، ما قيمة مراسلات ماركس وانغلز ، التي تبلغ اربعة مجلدات كبيرة ، دون التناقضات الكثيرة التي نما من خلالها الخط العام العظيم لافكارهما ونضالاتهما ؟

ولكن حتى بدون الكمية الضخمة من المواد التي لا تزال تنتظر بعثها ملقاة على صفحات « نيويورك تريبيون » ، فان الخطوط الرئيسية للسياسة الاوروبية التي بدأ ماركس وانغلز بتبنيها مع حرب القرم واضحة تماما . ويمكن القول أن تبنيهما لهذه السياسة مثل الى حد ما نقطة تحول في نشاطاتهما. فقد ركز مؤلفا البيان الشيوعي ومحررا « نيو راينيخه تزايتونغ » اهتمامهما على المانيا . ودعمت « نيو راينيخه تزايتونغ » بحماسة نضال البولنديين من اجل الاستقلال القومي ، ثم دعمت نضال الايطاليين والمجريين ، وفي النهاية طالبت بشن الحرب ضد روسيا بوصفها قلعة الثورة المضادة في اوروبا . ولكن هذا الطلب تطور فيما بعد شيئا فشيئا الى المطالبة بحرب عالمية ضد انجلترا ، لانه لا يمكن للثورة الاجتماعية أن تنتقل من عالم الخيال الى عالم الحقيقة الا بعد تحطيم سلطة انجلترا العالمية .

كانت « العبودية الانكليزية الروسية » هي الاساس الذي وضع ماركس عليه سياسته الاوروبية وقت حرب القرم . فقد رحب بالحرب لانها كانت تعد بتحطيم التفوق الاوروبي الذي احرزته القيصرية نتيجة لانتصار الثورة المضادة في اوروبا ، ولكنه لم يكن بالتأكيد موافقا على الطريقة التي شنت بها الدول الاوروبية الغربية الحرب . وقد اتخذ انغلز الموقف ذاته ، وأعلن أن حرب القرم كلها كانت كوميديا ضخمة من الاخطاء لدرجة اصبح مستحيلا معها أن يحدد المرء من لحظة الى اخرى من هو الخادع ومن هو المخدوع . وقد اعتبر ماركس وانغلز هذه الحرب حربا مزيفة بقدر ما يتعلق الامر بفرنسا وعلى الاخص بقدر ما يتعلق بانجلترا ، وذلك على الرغم من الارواح المليون وملايين الجنيهات التي كلفتها .

لقد كان بالتأكيد على حق في ذلك ، اذ لم يكن لا بونابرت المزيف ولا اللورد

بالمرستون وزير الخارجية الانكليزي يرغبان اطلاقا في جرح الدب الروسي في أي منطقة حساسة من جسمه فما أن شعرا ان النمسا تستطيع أن توقف زحف الجيش الروسي على الحدود الغربية،حتى قاما بنقل مسرح القتال الى القرم ، وبدآ يناطحان قلعة سيباستوبول ، فلم ينجحا في الاستيلاء على نصفها بعد حملة طويلة مضنية . وفي النهاية كانا عليهما أن يقنعا بهذا النصر الهزيل ، ويرجوا « روسيا المهزومة » بالسماح لهما باخلاء قواتهما دون تدخلها .

كان من السهل أن يرى المرء لماذا كان بونابرت المزيف غير راغب في دخول صراع حياة او موت مع القيصر ، ولكن دوافع بالمرستون كانت أقل وضوحا . فقد كانت حكومات القارة الاوروبية تخشاه بوصفه ثوريا بينما كان الليبراليون معجبين به كمثال نموذجي للوزير الليبرالي ــ الدستوري . فجاء ماركس ليحل الاحجية بدراسة عميقة للوثائق الرسمية والتقارير المتعلقة بالنصف الاول من القرن ولعدد من التقارير الديبلوماسية كان قد وضع في المتحف البريطاني . وتتوجت جهوده بالبرهنة على أن هناك تعاونا سريا بين مجلسي الوزراء في لندن وسانت بطرسبرغ منذ ايام بطرس الكبير ، وأن بالمرستون على وجه الخصوص كان أداة طيعة بيد السياسة القيصرية . ولم تمض تأكيدات ماركس دون ان تواجه التحدي ، وهي لا تزال تواجهه حتى يومنا هذا على الاخص فيما يتعلق بدور بالمرستون . ليس هناك من شك في ان ماركس قيم سياسة بالمرستون ، التي لا يقيدها وازع من ضمير باجراءاتها المجزوءة وتناقضاتها ، تقييما أوضح من ذلك الذي قيمها به الليبراليون الاوروبيون او الحكومات الاوروبية ، ولكن لا ينجم عن ذلك بالضرورة ان روسيا كانت قد اشترت بالمرستون . وليس من المهم كثيرا ان يبحث المرء مسألة ما اذا كان ماركس قد ذهب بعيدا في تأكيداته أم لا ، فالمهم أن ماركس اكتشف منذ ذلك الحين ان من أهم المهام التي لا غنى عنها للطبقة العاملة مهمة تمحيص غوامض الديبلوماسية الدولية للوقوف في وجه المكائد الدبلوماسية التي تحيكها الحكومات ، أو تعريتها وشجبها اذا كان ذلك مستحيلا .

وفوق كل شيء كان ماركس مهتما بشن نضال صارم ودائب ضد القوة البربرية التي تقبع في سانت بطرسبرغ وتمد لنفسها يدا في كل وزارة أوروبية . فهو لم يكن يعتبر القيصرية اقوى قلعة للرجعية الاوروبية يشكل مجرد وجودها السلبي تهديدا وخطرا دائمين فحسب ، بل كان يعتبرها كذلك العدو الرئيسي الذي يؤدي تدخله المستمر في شؤون أوروبا الداخلية الى اعاقة وتحريف المسار الطبيعي للتطور ، كما كان يعتبر انها تهدف الى كسب موقع جغرافي يعطيها السيطرة على اوروبا ، مما يجعل تحرر البروليتاريا الاوروبية مستحيلا . ولقد احدث هذا التأكيد الذي وضعه على هذه المسألة اثرا كبيرا على سياسته منذ حرب القرم اكثر مما كان يفعل حتى خلال سنوات الثورة .

وبهذا فان ماركس يطور فكرة عبر عنها أولا في « نيو راينيخه تزايتونغ »، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت نضالات تلك الامم التي دافعت عنها الصحيفة بحماسة بالغة تتراجع بالنسبة له ولانغلز الى الخلف. لم يكن الامر أن أيا منهما كف ابدا عن المطالبة

باستقلال بولندا والمجر وايطاليا كحق لهذه البلدان ولمصلحة المانيا واوروبا بشكل عام، لكن انغلز اعطى هذه الامم المفضلة لديه امرا بالتقدم الى الامام في وقت مبكر يعود الى عام ١٨٥١ : « يجب أن يقال بوضوح للايطاليين والبولنديين والمجريين ان عليهم أن يصمتوا عندما تبحث المسائل الحديثة ». وبعد ذلك ببضعة أشهر قال للبولنديين انهم انتهوا كأمة ، وأنه لم تعد لهم فائدة الا كوسيلة لغاية حتى تجتذب روسيا نفسها الى دوامة الثورة . فالبولنديون لم يفعلوا شيئا عبر التاريخ غير التصرف بغباء شهم مشاكس . حتى أنهم لم يفعلوا ضد روسيا أي شيء ذي قيمة تاريخية ، بينما كانت روسيا على الاقل تقدمية تجاه الشرق . وكانت السيطرة الروسية برغم كل حقارتها وقذارتها السلاثية عاملا على التمدن بالنسبة للبلاد الواقعة حول البحر الاسود وبحر قزوين وآسيا الوسطى وبلاد البشكير وبلاد التتر ، كما أن روسيا تمثلت قدرا من الحضارة وعلى الاخص العناصر الصناعية اكبر من ذاك الذي تمثلته بولندا ذات الطبيعة الكسولة الفروسية اساسا . لا شك في ان هذه الملاحظات تلونت بالهوى الذي كان يطبع الصراعات في صفوف المنفيين في ذلك الحين ، ففي السنوات التي تلت كان حكم انغلز على بولندا الطف بكثير ، بينما اعلن في السنوات الاخيرة من حياته أن بولندا أنقذت الحضارة الاوروبية مرتين على الاقل : بانتفاضة ١٧٩٢ — ١٧٩٣ وبثورة ١٨٣٠ — ١٨٣١ .

أما ماركس فقد أعلن مشيرا الى بطل الثورة الايطالية الشهير : « لا يعرف ماتزيني غير المدن بأرستقراطيتها الليبرالية ومواطنيها المتنورين . اما الحاجات المادية للسكان الايطاليين الريفيين بوصفهم مضطهدين ومخصيين باستمرار ومجبرين على الغباء مثل الايرلنديين — فهي بالطبع أحط من ان تهتم بها بياناته الايديولوجية الكوزموبوليتية الكاثوليكية — الجديدة . غير ان المرء بحاجة الى الشجاعة كي يقول للبرجوازية وللارستقراطية أن الخطوة الاولى نحو استقلال ايطاليا هي التحرير الكامل للفلاحين وتحويل نظام شبه الاجارة لديهم الى ملكية برجوازية حرة » . وفي رسالة مفتوحة الى صديقه ارنست جونز ، القائد الميثاقي (الشارتي) ، أخبر ماركس كوست ، الذي كان يلعب دور الاسد في لندن ، ان الثورات الاوروبية حملات صليبية يقوم بها العمل ضد راس المال ، وانها لا يمكن أن تحط الى المستوى الاجتماعي والفكري لشعب غامض ونصف بربري كالمجريين ، الذين لا يزالون ملتصقين بشبه حضارة القرن السادس عشر ، ولكنهم مع ذلك يتخيلون انهم يستطيعون التمكن من استنارة المانيا وفرنسا وتملق اعجاب سذاجة انجلترا .

غير ان ماركس افترق ابعد من ذلك عن تقاليد « نيو راينيخه تزايتونغ » ، لا لانه لم يعد يركز اهتمامه الرئيسي على المانيا فحسب ، بل لانه في الواقع وضعها خارج اهتماماته السياسية تماما تقريبا . صحيح أن المانيا لعبت في ذلك الحين دورا مؤسفا جدا في السياسة الاوروبية ، حتى انه كان يمكن اعتبارها مجرد مقاطعة بروسية . ولكن على الرغم من أن ذلك يفسر الى هذا الحد او ذاك موقف ماركس ، الا أن ماركس وانغلز معه كان عليهما مع ذلك أن يدفعا الثمن غاليا فيما بعد لانهما فقدا الصلة مع التطورات في المانيا سنوات عدة . لسوء الحظ تكشف الاحتقار الذي

كان كلاهما يشعر به ، كاثنين من ابناء الراينلاند وابنين لمقاطعة مقتطعة ، تجاه الدولة البروسية أيام مانتوفل ــ وستفالن الى درجة لم تعد تتناسب مع احاطتهما الشاملة المعتادة بالاوضاع السياسية .

ولا شك في أن الاستثناء الوحيد الذي لفت انتباه ماركس في تلك الايام الى بروسيا يقدم برهانا ناصعا على ذلك .

كان ذلك في نهاية ١٨٥٦ عندما اصطدمت بروسيا بسويسرا حول « مسألة نيوفشاتل » . فأدى ذلك الحادث بماركس ، كما كتب لانغلز في ٢ كانون الاول ١٨٥٦ ، الى اكمال « معرفته الفقيرة جدا بالتاريخ البروسي » ولخص نتائج دراساته بأن أعلن أن التاريخ العالمي لم ينتج يوما شيئا اكثر سوءا . ولا شك أن الفقرات التي تتبع ذلك والمقالة التي ظهرت بعد ذلك بعدة ايام في « ذي بيبولز بيير » ، صحيفة الميثاقيين ، معالجة المسألة نفسها بتفصيل اكبر ، تكشف انه كان بعيدا جدا عن المستوى الرفيع الذي كان في العادة يعالج به المسائل التاريخية . فهو في الحقيقة يغوص بشكل خطر يقترب من المستوى المخفض للسباب الديمقراطي البرجوازي الصغير ، على الرغم من أن رفعه لمستوى الكتابة التاريخية فوق هذا المستوى كان واحدا من أهم خدماته الجليلة .

لا شك في أن الدولة البروسية مثلت طبقا يصعب على أي انسان أن يبتلعه ، ولكن وبرغم ذلك لم يكن بالامكان جعل هذا الطبق شهيا بواسطة السخرية اللاذعة من « ال الهوهنزلرن بمشيئة الله » ، و « الاقنعة الشخصية » للتاريخ البروسي التي ظهرت ثلاث مرات : التقي الورع وضابط الصف والمهرج ، بوصفها « تاريخ عائلي غير ممتع » بالمقارنة مع « الملحمة الشريرة » للتاريخ النمسوي ، وغير ذلك من الملاحظات الشبيهة التي تفسر في أحسن الاحوال ما حدث ، ولكنها تترك مسألة لماذا حدث ما حدث غامضة تماما .

٢ ــ ديفيد ادركوهارت وهارني وارنست جونز

بينما كان ماركس يساهم في « نيويورك تريبيون » ، ساهم كذلك بالطريقة ذاتها في صحف اوركوهارت والصحف الشارتيه .

كان ديفيد ادركوهارت دبلوماسيا انكليزيا ، أدى خدمات جليلة بفضل معرفته المفصلة بالخطط الروسية للسيطرة على العالم ونضاله المستمر الدائب ضدها . لكنه قلص هذه الخدمات بكراهيته المتعصبة لروسيا وحماسته المتعصبة بقدر مساو لكل ما هو تركي . كثيرا ما اتهم ماركس بأنه اوركوهارتي ، ولكن هذا لم يكن مبررا على الاطلاق ، فالواقع أنه كان كانغلز يشعر بالضيق الشديد لمبالغات ادركوهارت الحمقاء الى حد يحول دونه وتقدير خدمات الرجل الحقيقية حق قدرها . يرد ذكر أوركدهارت في مراسلات ماركس ــ انغلز في رسالة كتبها انغلز في اذار ١٨٥٣ ، « انني اقرأ الآن كتاب أوركوهارت . وهو يؤكد أن بالمرستون عميل لروسيا .

وتفسير ذلك بسيط جدا فالرجل اسكتلندي سلتي تلقى تدريبا اسكتلنديا ــ انكليزيا، ميال الى الرومانسية ، مثقف ثقافة من يؤمنون بالتجارة الحرة . ذهب الى اليونان كمحب للهلنستية ، وبعد اشتباكات صغيرة مع الاتراك استمرت ثلاث سنوات ذهب الى تركيا وهناك اخذته الحماسة للاتراك على الفور . وهو مليء بالحماسة للاسلام ، ويعلن انه لو لم يكن كلفانياً لكان مسلما فقط» . لقد وجد انغلز ان كتاب أوركوهارت كان بشكل عام مشوشا جدا .

كانت نقطة اللقاء بين ماركس واركوهارت هي نضالهما المشترك ضد بالمرستون. فقد أعيد طبع احدى المقالات التي كتبها ماركس ضد بالمرستون لنيويورك ثريبيون في احدى صحف غلاسكو ، حيث لفتت انتباه اوركوهارت . وفي شباط ١٨٥٤ تقابل الرجلان فتلقى اوركوهارت ماركس بتحية قال انه كان يمكن لتركي ان يكتب المقال لكن اوركوهارت أصيب بخيبة الامل عندما اخبره ماركس أنه ثوري ، فقد كانت احدى نزوات اوركوهارت هي أعتقاده بأن كل الثوريين الاوروبيين هم ادوات واعية او غير واعية تستخدمها القيصرية لمضايقة الحكومات الاوروبية . فكتب ماركس الى انغلز بعد هذا الاجتماع يقول : « الرجل مصاب بمس حب الذات » مضيفا انه لم يتفق معه في شيء غير ما يتعلق ببالمرستون وحتى في تلك المسألة لم يكن الرجل ذا فائدة له .

بالطبع يجب أن لا تحمل هذه الملاحظات الخاصة على محمل الكثير من الجد . فقد اعترف ماركس علنا وعلى استمرار بخدمات اوركوهارت برغم كل تحفظاته النقدية تجاهه ، ولم يخف ابدا أنه على الرغم من عدم اقتناعه باوركوهارت الا أنه أوحى له بالكثير . ولهذا السبب بالذات لم يكن يتردد في المساهمة في صحف اوركوهارت وعلى الاخص صحيفة « ذي فري برس » في لندن ، كما أنه سمح لاوركوهارت أن يطبع ويوزع عددا من مقالاته في « نيويورك ثريبيون » على شكل كتيب . كانت كتيبات بالمرستون هذه توزع في طبعات كبيرة جدا ، يبلغ عدد كل منها خمسة عشر الف نسخة الى ثلاثين الف نسخة ، وقد احدثت اصداء واسعة ، ولكن ماركس لم يكسب اي مكسب مادي من اوركوهارت السكتلندي يكبر ذاك الذي كان يكسبه من دانا الاميركي .

وفي الواقع كان اي ارتباط وثيق بين الرجلين مستحيلا ، لان ماركس كان يدعم الشارتية ، في حين كان اوركوهارت يكره هذه الحركة بصورة مضاعفة كمدافع عن التجارة الحرة وكعدو لروسيا اذ كان يظن أنه يستطيع أن يلمح الروبل في جيب كل حركة ثورية . ولم تشف الشارتية أبدا من الهزيمة القاسية التي اصابتها في ١٠ نيسان ١٨٤٨ ، ولكن ماركس وانغلز ظلا يدعمانها طيلة الوقت الذي ظلت فيه بقاياها تصارع من أجل الحياة ، وقد فعلا ذلك بصورة رئيسية بمساهمتهما بمقالات لم يتلقيا عنها اجرا في الصحف التي كان يصدرها جورج جولين هارني وارنست جونز في الخمسينات . فقد أصدر هارني « ذي رد ريببليكان » و « ذي فريند اوف ذي بيبول » و « ذي ديمقراطيك رفيو » بتتابع سريع ، بينما أصدر جونز « ذي نوتس تو ذي بيبول » و « ذي بيبولز بيبر » . وقد عاشت « ذي بيبولز بيبر » مدة أطول

من أخواتها وظلت تصدر بانتظام حتى العام ١٨٥٨ .

كان هارني وجونز ينتميان الى الجناح الثوري من الحركة الشارتية ولربما كانا أقل اعضاء هذه المجموعة تعصبا . كما كانا يعتبـــران الشخصيتين القياديتين في الرابطة الاممية للديمقراطيين الاخويين . كان هارني ابن بحار نما وترعرع في محيط بروليتاري . وحصل على معارفه الثورية بنفســـه من الادب الثوري الفرنسي ، وكان مارا مثله الاعلى . وكان يكبر ماركس بسنة واحدة ، وبينما كان هذا الاخير يحـرر « راينيخه تزاينونغ » كان هذا عضوا في هيئة تحرير « ذي نورثرن ستار » ، وهي الصحيفة الرئيسية للشارتية . وقد زاره انغلز في ١٨٤٨ ، فوصفه هارني بأنـــه « شاب نحيل ، يتدفق حيوية وشبابا حتى أنه يكاد يبدو صبيا ، ولكنــه حتى في ذلك الحين كان يتكلم الانكليزية بشكل صحيح غير معتاد » وفي ١٨٤٧ تعرف هارني بماركس وانضم الى حلقته بحماسة .

نشر هارني ترجمة انجليزية للبيان الشيوعي في صحيفة « رد ريببلكان » مـــع هامش يقول أنها أعظم وثيقة ثورية ظهرت على الاطلاق ، كمـا نشر في صحيفـــة «ديمقراتيك ريفيو» ترجمات انجليزية للمقالات التي ظهرت في « نيو راينيخـــه تزايتونغ » حول الثورة الفرنسية ، معلنا انها تمثل « النقد الحقيقي » للمسائـــل الفرنسية . ولكنه في حضم صراعات المهاجرين عاد الى حبه القديم واصطدم بعنف مع ارنست جونز ، وبشكل لا يقل عنفا مع ماركس وانغلز ، وبعد ذلك بقليل ذهب ليعيش في جزيرة جيرسي فأقام هناك بعض الوقت ثم ذهب الى الولايات المتحدة ، حيث زاره انغلز في ١٨٨٨ . وبعد هذه الزيارة بقليل عاد هارني الى انجلترا ، حيث توفي بعد أن بلغ به العمر عتيا ، ولربما كان حين وفاته آخر مشاهد لفترة تاريخية عظيمـــة .

وكان أرنست جونز من أصل نورماندي ، ولكنه ولد وتعلم في ألمانيا ، حيث كان والده مستشارا عسكريا لدوق كمبرلاند ، الذي أصبح في ما بعد الملـــك ارنست اوغست ، ملك هانوفر . وكان هذا الخليع المغالي في الرجعية عراب أرنست جونز، ولكن ذلك بالاضافة الى روابط والدي جونز الصبي بالبلاط لم يترك عليه أي أثر . فقد أبدى حتى عندما كان حديث السن التزاما صارما بقضية الحرية، وعندما أصبح رجلا نجح في مقاومة كل الاغراءات التي وضعت في طريقه وكل المحاولات التـــي جرت لتقييد روحه الطليقة بسلاس من ذهب . وعندما عادت عائلته الى انجلتـرا ، كان قد بلغ قرابة عشرين عاما من العمر ، وحينئذ بدأ يدرس المحاماة التي نجح في نيل اجازتها فيما بعد . وقد ضحى جونز بكل آفاق المستقبل اللامعـــة التي كانت تؤمنها له مواهبه الرفيعة والاتصالات الارستقراطية لعائلته ، وذلك كي يكرس نفسه تماما للقضية الشارتية، التي ذاد عنها بحماس ملتهب ادى الى الحكم عليه عام ١٨٤٨ بالسجن مدة سنتين . وقد عومل في السجن معاملة قاسية لخيانتــه لطبقتـــه ، ولكنه خرج من السجن في ١٨٥٠ ثوريا لا يهاب ، ومنذ صيف ذلك العام احتفـظ بعلاقات وثيقة مع ماركس وانغلز طوال مدة تقرب من عشرين عاما (كان جونز يقف عمرا بين ماركس وانغلز تقريبا) .

ولا شك في أن هذه الصداقة لم تخل تماما من الغيوم . فقد تخللتها متاعب كتلك التي حدثت بين ماركس وانغلز من جهة وفريليغارت ، الذي كان جونز يشترك معه في الميول الشعرية ، من جهة اخرى ، وكتلك التي حدثت بينهما وبين لاسال ، الذي كان حكم ماركس عليه شبيها بحكمه على جونز وان يكن أقسى بكثير . وقد أشار ماركس الى جونز في رسالة كتبها عام ١٨٥٥ بقوله : « انه رغم كل الطاقة والاصرار والنشاط التي يجب أن يعترف المرء له بها ، يفسد كل شيء ببحثه الذي يفتقر الى الحذق عن اعذار يستخدمها في التحريض الذي يقوم به ، ونفاد صبره الدائم ورغبته في ان يسبق الاحداث » . وفيما بعد حدثت خلافات اكثر اهمية بينهما ، خاصة عندما بدأ التحريض الشارتي يبلى أكثر فأكثر وعندما بدأ جونز يغازل الراديكالية البورجوازية .

غير أن صداقتهما ظلت في الاساس متينة ووثيقة . وقد عاش ارنست جونز سنواته الاخيرة في مانشستر ، الى ان توفي فجأة في ١٨٦٩ بينما كان لا يزال في ربيع العمر . فأرسل انغلز النبأ بسرعة الى لندن : « واحد آخر من الحرس القديم يمضي ! » فأجاب ماركس : « لقد سبب النبأ بالطبع صدمة عميقة لنا جميعا ، ذلك أنه كان واحدا من اصدقائنا القلائل » . وبعد ذلك ببضعة أيام أرسل انغلز يقول أن جنازة ضخمة تبعت جونز الى المقبرة ، حيث يجثو واحد آخر من الحرس القديم هو فيلهلم ولف . وقال انغلز انه لخسارة حقا ، فكلامه البورجوازي لم يكن في نهاية الامر غير رياء ، وكان الانجليزي المثقف الوحيد بين السياسيين الذي وقف في الحقيقة الى جانب ماركس وانغلز .

٣ ــ العائلة والاصدقاء

ظل ماركس خلال هذه السنوات مترفعا عن كل الدوائر السياسية ، ولم يخض عمليا غمار أي حياة اجتماعية . فقد عزل نفسه تماما في غرفته ، التي لم يكن يخرج منها الا مع عائلته ، التي كبرت في عام ١٨٥٥ بولادة ابنة خامسة هي اليانور.

كان ماركس ، مثل انغلز ، يحب الاطفال حبا جما . وعندما كان يترك غرفته ساعة او اثنتين ، كان يفعل ذلك كي يلعب مع اولاده ، الذين كانوا يعبدونه رغم أنه لم يحاول أبدا ان يمارس عليهم سلطة أبوية ، او ربما كانوا يعبدونه لهذا السبب بالذات . وكانوا يعاملونه كرفيق في اللعب ، ويطلقون عليه لقب « المراكشي » بسبب شعره الاسود وبشرته الداكنة اللون . وكان من عادته ان يقول « يجب أن يربي الاطفال آباءهم » ، ولا شك في أن أطفاله كانوا يفعلون ، فقد حظروا عليه القيام بأي عمل أيام الآحاد ، التي كانوا يستأثرون به فيها تماما . وكانت النزهات التي تقوم بها العائلة في الريف وتتوقف خلالها في الفنادق الجانبية كي تشرب البيرة وتأكل الخبز والجبن ، شعاع الشمس الباهر الذي يخترق السحب التي كانت متلبدة فوق العائلة على الدوام .

كانت النزهات المفضلة لدى العائلة هي تلك التي تخرج فيها الى هامبستيد هيث ، وقد أورد لنا ليبكنشت وصفا ساحرا لهذه النزهات . تختلف هامبستيد هيث اليوم قليلا عما كانت عليه ذلك الحين ، ولكن المرء يستطيع اليوم ان يرى من قلعة جاك سترو ، التي كثيرا ما كان ماركس يؤمها ، منظرا رائعا خلف هيث بمناظر تلالها ووديانها الخلابة والناس السعداء الذين يذرعونها أيام الآحاد . والى الجنوب تقبع المدينة العملاقة ، لندن ، بغابة بيوتها المتراصة وعلاماتها المميزة من قبة سان بول الى ابراج وستمنستر . أما الى الشمال فالريف مغطى اليوم بالبيوت ، والى الغرب تقع تلة هايغيت ، التي وجد ماركس فيها مثواه الاخير .

وفجأة أصابت المأساة سعادة العائلة وكانها قدر صاعق محتوم . ففي يوم الجمعة العظيمة عام ١٨٥٥ ، مات ادغار ، ابن ماركس الوحيد الذي يبلغ من العمر تسعة أعوام . وكان الصبي الذي أبدى منذ صغره موهبة عظيمة الطفل المفضل للعائلة . وقد كتب فريليغارث في رسالة الى المانيا يقول : « انها لخسارة رهيبة ، حتى انني لا أكاد استطيع وصف الاثر العميق الذي احدثته علي » .

أما الرسائل التي يصف فيها ماركس لانغلز مرض الصبي ووفاته فتفطر القلب حزنا . فقد كتب اليه في ٣٠ آذار يقول : « زوجتي مريضة منذ اسبوع بسبب القلق وحده ، وهي في حالة أسوأ بكثير من أية مرة سابقة . انني اشعر ببؤس شديد ، فقلبي مثقل ورأسي يدور في دوامة ، ولكن يجب علي بالطبع أن اتظاهر بالشجاعة . اما الصبي فلا يزال حتى في حمى المرض يتمتع بالشخصية المستقلة الطيبة ذاتها » . وفي ٦ نيسان كتب ثانية يقول : « لقد ذهب العزيز الصغير . فقد نام بين يدي بين الساعة الخامسة والسادسة . لن أنسى ما حييت صداقتك التي خففت من مصيبتنا في تلك الايام الرهيبة . ولا بد انك تدرك مقدار حزني لوفاة ولدي » . وفي ١٢ نيسان كتب يقول : « يبدو البيت فارغا ومهجورا منذ ان مات الصبي . لقد كان حياة البيت وروحه . من المستحيل أن أصف كيف نفتقده في كل حين . لقد عانيت كل انواع المصائب ، ولكنني الآن اعرف كيف تكون المصائب الحقيقية ... ولم يبقني على قيد الحياة عبر العذاب والقلق الرهيبين اللذين عانيتهما غير التفكير بك وبصداقتك ، والامل في اننا لا نزال نستطيع أن نفعل شيئا له قيمته في هذا العالم » .

مضى وقت طويل قبل أن يلتئم الجرح . فقد أجاب ماركس في ٢٨ تموز على رسالة عزاء من لاسال يقول : « يقول باكو ان الرجال العظماء حقا يملكون اهتمامات كثيرة بالطبيعة والعالم وتحتل تفكيرهم مسائل كثيرة لدرجة أن أية خسارة مهما كبرت لا تعني لهم شيئا . اخشى أنني لست من اولئك الرجال العظام . فقد هزني موت ولدي بعمق ، ولا ازال اشعر بالخسارة بحدة كما لو انها حدثت البارحة ، كما ان زوجتي المسكينة انهارت تماما تحت وطأة الضربة» . وفي ٦ تشرين الاول نجد فريليغارث يكتب الى ماركس : «انني آسف اشد الاسف لان خسارتك الكبيرة لا تزال تسبب لك كل هذا الالم الممض . ولسوء الحظ ليس هناك ما يستطيع الصديق أن يفعله أو يشير به . انني أفهم وأحترم حزنك ، ولكن يجب أن تحاول السيطرة

عليه لئلا يسيطر عليك . ولن يكون هذا خيانة منك لذكرى ولدك العزيز » .

كان موت ادغار ، ابن ماركس ، تتويجا لسلسلة من الامراض حلت بالعائلة خلال السنوات القليلة الماضية . ففي الربيع السابق ، وقع ماركس نفسه مريضا ، وفي الواقع لم يشف ثانية أبدا . وكان يشكو بصورة رئيسية من كبده ، الذي كان يظن انه ورث آلامه عن والده ، ولكن ليس هناك من شك في ان المرض تفاقم بسبب الظروف السكنية السيئة والحي غير الصحي الذي كان يعيش فيه ماركس . وفي صيف ١٨٤٥ اندلع وباء الكوليرا في المنطقة ، وقيل أن ذلك كان نتيجة مرور المجاري التي حفرت حديثا على قبور ضحايا الطاعون في ١٦٦٥ . وقد حضه طبيبه على مغادرة سوهو التي كان قد تنفس هواءها دون انقطاع طيلة سنوات . وقد جعل موت أحد افراد العائلة ذلك امرا ممكنا . وفي صيف ١٨٥٥ ، ذهبت السيدة ماركس مع بناتها الثلاث الى ترير لتزور والدتها التي كانت تعاني مرضا خطيرا ، فوصلت في الوقت المناسب لتغمض عينيها بعد مرض لم يدم أكثر من احد عشر يوما .

لم تترك السيدة العجوز الكثير وراءها ، ولكن بضع مئة تالر كانت من نصيب السيدة ماركس ، ويبدو أنها في حوالي ذلك الوقت ورثت أيضا مبلغا صغيرا من اقاربها السكوتلنديين . وعلى اية حال كانت النقود تكفي العائلة للانتقال في خريف ١٨٥٦ الى بيت صغير في هافرستول هيل قرب هامبستيدهيث التي يعشقها ماركس. كانت اجرة هذا البيت ستة وثلاثين جنيها في السنة . وقد كتبت السيدة ماركس الى احد الاصدقاء « بالمقارنة مع الجحور التي كان علينا أن نسكنها في السابق ، يمكن القول أن هذا البيت بيت امراء حقا . وعلى الرغم من أن كل ما نملك لا تزيد قيمته عن أربعين جنيها الا قليلا ، فقد شعرت بالعظمة في غرفة جلوسنا الجديدة في البداية . وقد استطعت تخليص كل الكتان وكل ما يذكرنا بالعظمة السابقة من بين ايدي ، العم ، ومرة أخرى استطعت أن أعد مناديل الحرير السكوتلندي العتيقة التي املكها بسرور . لكن الهناءة لم تدم طويلا ، ذلك أن هذه القطع سرعان ما وجدت طريقها واحدة أثر اخرى الى دكان المسترهن . ولكننا مع ذلك لا نزال مسرورين في بيتنا الدافىء المريح البرجوازي » . ولكن لسوء الحظ ، لم يدم هذا المتنفس طويلا .

كذلك حصد الموت بعض اصدقاء العائلة . فمات دانيال في خريف ١٨٥٥ ، وويرث في كانون الثاني ١٨٥٦ في هايتي ، وكونراد شرام في بداية ١٨٥٨ في جزيرة جيرسي . وقد فعل ماركس وانغلز كل ما بوسعهما لنشر حتى نبأ صغير عن وفاة كل من هؤلاء في الصحف ولكنهما لم ينجحا . وكثيرا ما كانا يشكوان من ان صفوف الحرس القديم تتضاءل وأن الدم الجديد شحيح . كانت عزلتهما محببة لهما في البداية ، وكانت قناعتهما بالنصر النهائي ثابتة لا تهتز تدفعهما الى النضال المستمر ، ذلك النضال الذي شناه بثقة كما لو انهما كانا يمثلان دولة اوروبية كبرى ، ولكنهما رغم ذلك كانا مسيسين الى درجة لم يكن ممكنا معها أن لا يشعرا على المدى الطويل بافتقارهما الى حزب . ذلك ان انصارهما لم يكونوا يمثلون حزبا ، كما اعترف ماركس نفسه ، كما أن أيا منهم لم يرتفع في آراءه الى ما يقرب من مستوى آرائهما،

باستثناء واحد هو الرجل الذي لم يستطيع ابدا أن يتغلب على شكهما به .

كان ليبكنشت يزور بيت ماركس في لندن يوميا ، على الاقل، حين كان البيت لا يزال في شارع دين . ولكن كان على ليبكنشت في غرفته الصغيرة ان يصارع مصاعب الحياة المادية ، وهذا ينطبق على كل رفاق ماركس وانغلز ايام العصبة الشيوعية ، على لسنر ولوخنر وايكاريوس «والمذنب التائب» شابر . اما الاخرون فكانوا مبعثرين : كان درونكي رجل اعمال في ليفربول وفيما بعد في جلاسكو ، وكان ايماندت استاذا في دندي وشيلي محاميا في باريس ، بينما كان راينهاردت ، سكرتير هاينه في السنوات الاخيرة في حياته ، واحدا من الحلقة المقربة .

غير ان النشاط السياسي بدأ بالأفول حتى في صفوف المخلصين . فلم يكن فلهلم وولف ، الذي كان يعيش في مانشستر ، يستطيع ان يبقي رأسه فوق الماء الا باعطاء دروس خصوصية وظل ، كما كتبت السيدة ماركس ، «هو هو ، الشهم القدير ذا الطبيعة الخشنة» ، ولكن بمرور الوقت بدأت تظهر عليه نزوات العازب العجوز ، واصبحت «نضالاته الرئيسية» ضد صاحبة البيت الذي كان نزيلا فيه حول مسائل كالشاي والسكر والفحم ، وكف عن ان يعني الكثير فكريا لاصدقائه في المنفى . كذلك ظل فريليغارث صديقا وفيا ، وبعد ان اصبح مديرا لفرع بنك سويسري في لندن في صيف ١٨٥٦ ، اصبح باستطاعته ان يقدم لماركس مساعدة اكبر من ذي قبل ، على الاخص استطاع ان يمنع اي تأخير في صرف النقود التي كانت ترسلها نيويورك تريبيون ، التي كانت تضيف الى نقائصها الاخرى التخلف عن الدفع في الوقت المحدد في كثير من الاحيان . كذلك ظل فريليغارث مخلصا لمعتقداته الثورية ، ولكنه ابتعد اكثر فاكثر عن نضالات الحزب . وعلى الرغم من انه اعلن عن قناعته انه ليس هناك ما يشرف الثوري اكثر من ان يدفن في المنفى ، الا انه لم يكن سعيدا في منفاه . وادى حنين زوجته التي كان يحبها كثيرا ، ومنظر ابنائه يشعلون شموع عيد الميلاد مرة اثر اخرى على ارض اجنبية ، الى نضوب شعره . فتألم لذلك اشد الالم ، ولكنه تعزى ايما عزاء عندما اصبح وطنه يتذكر بالتدريج شاعره المشهور مرة اخرى .

وكانت هناك ايضا قائمة طويلة من «الاموات الاحياء» . فقد كان ماركس يقابل احيانا عددا من رفاق ايامه الفلسفية الاولى : ادوارد ماين ، الذي اثبت انه لا يزال التافه السام ذاته ، وفوشر الذي اصبح سكرتير كبدن والذي ظن انه قدّر ، «كي يصنع التاريخ» في حركة التجارة الحرة ، وادغار باو الذي كان يلعب دور المحرض الشيوعي ، والذي كان ماركس يصفه على الدوام بأنه «مهرج» . كذلك قابل ماركس صديقه القديم برونو باور في مناسبات عدة عندما جاء هذا الى لندن ، ولكن لم يكن هناك اي اساس للقاء بينهما ، فقد كان برونو باور ممتلئا حماسة «لقوة روسيا البدائية» ، ويعتبر ان البروليتاريا ليست الا «رعاعا» يجب ان يسيطر عليهم جزئيا بالعنف وجزئيا بالخداع وجزئيا بالقاء بضعة دراهم لهم عندما لا يمكن تجنب ذلك . وجد ماركس ان باور يبدو عليه الكبر وأن جبهته قد اصبحت أعرض وانه اكتسب سلوك الاستاذ الجامعي المتحذلق ، ولكنه نقل احاديثه مع «العجوز المرح» الى انغلز

بالتفصيـــل .

غير ان قائمة «الاموات الاحياء» كانت اكبر من ذلك بكثير ، كما كانت تكبر سنة اثر اخرى . فمثلا كان هناك الاصدقاء القدماء في الراينلاند : جورج يونغ وهينريخ بيرغر وهيرمن بيكر وغيرهما . وقد حاول بعض هؤلاء ، مثل بيكر وفيما بعد ميكل ، ان يبرروا موقفهم «علميا» ، معلنين ان البرجوازية يجب ان تنتصر تماما علـــى اليونكر الاقطاعيين حتى قبل ان تفكر البروليتاريا بالنصر . فقال بيكر : «ستشق المصالح المادية للرعاع طريقها ببطء عبر بنية اليونكرية المتفسخة التي تتحول الى غبار ، حتى ان التاريخ سيزيح ببساطة هذه البنية جانبا ويتقدم رابط الجأش الى البند التالي على جدول الاعمال» . لقد كانت تلك نظرية جميلة ، ولا شك في انها لا تزال تقدم خدمة جليلة لكثير من المراوغين الحاذقين اليوم . ولكن عندما اصبح بيكر رئيسا لبلدية كولدن وميكل وزيرا لماليـــة بروسيا ، وجـدا انهما مرتبطين «بالمصالح المادية للرعاع» الى درجة حاربا معها بكل قواهما ضــد كل المحاولات «للتقدم برباطة جأش نحو البند التالي لجدول الاعمال» . وفي ربيع ١٨٥٦ جاء رجل اعمال يدعى غوستاف ليفي من دوسلدورف الى لندن وقدم لماركس هدية كاملـــة جاهزة ان صح التعبير ، هي انتفاضة يقوم بها عمال المصانع في ايزلون وسولنفن ومكان اخر او اثنين . شجب ماركس المشروع الاحمق الخطر بشدة وقال لليفي ان عليه ان يخبر العمال الذين يمثلهم ، او الذين يتظاهر بتمثيلهم ، انهم ينبغي ان يظلوا على اتصال به وان لا يفعلوا شيئا دون ان يحصلوا على موافقته . لكن ماركس لسوء الحظ لم يتخذ الموقف ذاته من مهمة ثانية ادعى ليفي ان عمال دوسلدورف قـــد اوكلوها له ، وهي بالتحديد تحذير ماركس ضد لاسال بوصفه شخصا غير موثوق يعيش بعد نجاح قضية هاتسفيلد تحت ربقة الكونتسة ، وانه ينوي الذهاب الى برلين معها لتأسيس ناد للمثقفين ، وانه القى بالعمال جانبا وكأنهم قفاز قذر كي ينحاز الى البرجوازية ، والكثير من الكلام الذي يندرج تحت هذا النوع . يحـــق للمرء ان يشك في ان عمال الراينلاند ارسلوا رسالة كهذه لماركس ، ذلك ان هؤلاء العمال ذاتهم استقبلوا لاسال بعد بضعة سنوات بخطاب مشرف اعلنوا فيه ان بيته كان في الخمسينات خلال الحكم الارهابي الابيض «قلعة ثابتة شجاعة لمساعـــدة الحزب» والامر الاكثر احتمالا هو ان ليفي اختلق هذه الرسالة كما يشبع حقده على لاسال لان هذا رفض ان يمنحه قرضا قيمته ٢٠٠٠ ثالر ، اذ لم يكن مستعدا لتقديم اكثر من خمسمائة .

لو عرف ماركس ذلك لكان قد عامل ليفي بالتأكيد بقدر كبير من التحفظ ، ولكن النبأ الذي نقله ليفي كان مصاغا بحد ذاته كي يثير في ماركس شكا قويا بلاسال . وكان ماركس يراسل لاسال وان لم تكن رسائلهما كثيرة ، كما كان يجد فيه دائما صديقا موثوقا ، من ناحية شخصية وسياسية معا ، ورفيقا حزبيا مخلصا . حتى أن ماركس وقف في وجه الشك الذي ثار حول لاسال ايام العصبة الشيوعيـــة القديمة بين عمال الراينلاند بسبب اشتراكه بقضية هاتسفيلد ، وقبل مجيء النبأ الذي اتى به ليفي بسنة تقريبا ، رد ماركس على رسالة كتبها له لاسال من باريس

بلهجة ودية جدا : «انا مندهش بالطبع اذ اسمع انك بهذا القرب من لندن ومع ذلك لا تفكر بالمجيء الى هنا حتى لبضعة ايام . وانني آمل ان تعيد بحث المسألة لترى كم هي قصيرة ورخيصة الرحلة من باريس الى لندن . ولسوء الحظ فان فرنسا مغلقة في وجهي والا لاتيت بالتأكيد وفاجأتك في باريس» .

ولذا من الصعب ان يفهم المرء لماذا قبل ماركس كلام ليفي على علاته ، ونقله الى انغلز في الحال في رسالة بتاريخ ٥ اذار ١٨٥٦ مضيفا : «ان هذا يعطيك فحسب تفاصيل المسألة بخطوطها العامة . ولقد أحدث الامر اثرا قاطعا على فريليفارث وعلي" بقدر ما احب لاسال وبقدر ما اكره تقولات العمال قال ماركس لليفي ان من المستحيل الوصول الى نتيجة قاطعة على اساس نبأ من طرف واحد فقط ، ولكن الشك مفيد على اية حال . ولذا فان لاسال يجب ان يراقب ، ولكن يجب ان تتجنب اي فضيحة علنية في هذه المرحلة. وافق انغلز على ذلك واضاف عددا من الملاحظات لا تثير قدرا كبيرا من الدهشة لانه لم يكن على معرفة وثيقة بلاسال كما كان ماركس. وقال انغلز ان الامر مما يؤسف له لان لاسال يتمتع بلا شك بموهبة عظيمة . واضاف انه كان يجب ان يراقب على الدوام كما يراقب الشيطان ، لانه كيهودي حقيقي من الحدود السلافية مستعد باستمرار لاغتنام اي فرصة لاستغلال اي كان لاغراضه الخاصة مستخدما الحزب كوسيلة الى ذلك . توقف ماركس عندئذ عن مراسلة الرجل الذي كتب له بعد ذلك ببضعة سنوات قائلا وعن حق : «انا الصديق الوحيد الذي تملكه في المانيا» .

٤ ــ ازمــة ١٨٥٧

عندما انعزل ماركس وانغلز عن النزاعات العلنية للمنفيين في خريف ١٨٥٠ اعلنا : «ان ثورة جديدة ليست ممكنة الا نتيجة لأزمة جديدة ، ولكن من المؤكد ان الثورة ستأتي قدر ما هو مؤكد ان الازمة ستأتي» ومنذ ذلك الحين لبثا يراقبـان الامور بحرص كي يلمحا اية اشارة لأزمة جديدة ، وبمرور السنين اصبح صبرهما ينفد شيئا فشيئا . يخبرنا ليبكنشت في ذكرياته ان ماركس تنبأ خطأ بقـدوم الثورة مرة او مرتين ، ليصبح ذلك مثارا لمزاح اصدقائه ، وعندما اتت الازمة في النهاية عام ١٨٥٧ قال ماركس لفلهلم وولف عبر انغلز انه سيثبت ان الازمة كان يجب ان تأتي قبل ذلك بسنتين لو ان الامور سارت سيرا طبيعيا .

بدأت الازمة في الولايات المتحدة ، واعلنت عن نفسها شخصيا لماركس عبـر «نيويورك تربيون» التي انقصت راتبه بمقدار النصف فورا . كانت هذه الضربة ذات وقع شديد عليه ذلك ان صنوف الحرمان القديمة ظهرت مرة اخـرى في البيت الجديد ، بل انها ظهرت هذه المرة بشكل اكثر حدة . ولم يعد ماركس في جرافتون تراس يستطيع العيش «عيش الكفاف كما كان يفعل في شارع دين» . اذ تبخرت كل آماله ، وكان انفاق عائلته يزداد باستمرار . وفي ٢٠ كانون الثاني ١٨٥٧ كتب

لانغلز يقول : «انني لا اعلم ماذا يتعين عليّ ان افعل بعد ، فوضعي في الحقيقة اسوأ مما كان عليه قبل خمس سنوات» .

حلت هذه الرسالة على انغلز كصاعقة من السماء فسارع الى مساعدة صديقه ولكنه شكا من انه لم يعرف الوضع على حقيقته في وقت مبكر . ويبدو ان انغلز كان قد اشترى لنفسه حصانا بنقود منحها له والده كهدية في عيد الميلاد : «انني اجد ان من المسيء ان احتفظ بحصان بينما تعاني انت وعائلتك من متاعب كهذه في لندن . وبعد ذلك ببضعة اشهر اغتبط انغلز عندما اقترح دانا على ماركس ان يساهم في اعداد موسوعة . وكان دانا يريد على وجه الخصوص مساهمة في المواضيع العسكرية ، فسرّ انغلز سرورا بالغا ، لان ذلك سيخلص ماركس من متاعبه الابدية . ورأى انه يجب على ماركس ان يتعهد بكتابة كل المقالات التي يمكن ان يعطوها له ، ثم ينظم بالتدريج مكتبا خاصا به .

لم ينجم شيء عن اقتراح انشاء مكتب ، ويعود ذلك بصورة رئيسية الى ان ماركس وجد ان من المستحيل العثور على عدد كاف من الاشخاص المناسبين للتعاون معه ، عدا ذلك لم تكن الامور كما توقع انغلز ، لان معدل الدفع لم يكد يصل الى بنس واحد للسطر الواحد ، وعلى الرغم من ان الجزء الاكبر من العمل لم يكن اكثر من حشو الا ان انغلز لم يكن ارهافة ضميره على استعداد لكتابته بسرعة . ولا شك في ان التقييم الذي اصدره انغلز على المقالات التي كتب هو بعضها وكتب ماركس البعض الاخر كان ، كما يتبين من مراسلاتهما، حكما جائرا وغير مبرر بالمرة : «مجرد تكسُّب ، لا يهم اذا لم تقرأ ثانية» . وبالتدريج انتهى هذا العمل ايضا ، ويبدو ان تعاون الصديقين في اعداد الموسوعة لم يتخط حرف ج .

منذ البداية وقفت في طريق عملهما بعض المصاعب ، ففي صيف ١٨٥٧ اصيب انغلز بمرض في الغدد ، وكان عليه ان يعيش وقتا طويلا على شاطىء البحر ، اما حالة ماركس فلم تكن بأفضل ، فقد عادت اليه آلام الكبد عنيفة فلم يكن يستطيع القيام باكثر من الحد الادنى من العمل الضروري ، وكان يفعل ذلك بصعوبة كبيرة . وفي تموز وضعت زوجة ماركس طفلا جهيضا في ظروف تركت انطباعا رهيبا على ماركس وجعلت ذكرى الحادثة مؤلمة له جدا . كتب انغلز بفزع ردا على احدى رسائل ماركس : «لا بد ان الضربة كانت قاسية حتى تكتب بالشكل الذي كتبت به»، ولكن ماركس اجاب ان من الافضل تأجيل بحث الموضوع الى ان يلتقيا ، لانه لا يستطيع ان يكتب في أمور كهذه .

غير ان كل المتاعب نسيت عندما امتدت الازمة الى انجلترا في الخريف وانتشرت بسرعة الى القارة كلها . فقد كتب ماركس الى انغلز في ١٣ تشرين الثاني يقول : «على الرغم من انني أعاني متاعب مادية جدية ، الا انني لم اشعر بسعادة كهذه في وجه هذا الهيجان منذ ١٨٤٩» . وفي رده في اليوم التالي ، قال انغلز انه لا يخشى الا ان تتطور الامور بسرعة اكبر مما يجب : «اعتقد ان من الافضل ان يحدث (التحسن) في الازمة المزمنة قبل ان تتبع ضربة ثانية حاسمة . فالضغط المزمن ضروري لبعض الوقت حتى يستثار الشعب . وحينئذ تستطيع البروليتاريا ان تقاتل بشكل أفضل

وبانسجام اكبر ، تماما كما ان هجوم سلاح الفرسان يكون اكثر حماسة واندفاعا اذ خبَّت الجياد مسافة خمسمائة خطوة قبل ان تلتحم مع العدو . لا أود ان يحدث اي شيء في وقت قريب جدا ، قبل ان تصبح اوروبا كلها معنية بالامر تماما ، ذلك ان النضال اذ ذاك سيكون اكثر حدة واكثر صعوبة واكثر تذبذبا . ان ايار او حزيران مبكران جدا . اذ لا بد ان الجماهير اصبحت متبلدة بعد هذه الفترة الطويلة من الازدهار ... بالمناسبة انني اشعر تماما كما تشعر . فما ان انهار الغش والخداع في نيويورك حتى اصبحت لا اشعر بأي سلام في جيرسي ، وأنا الان اشعر انني في هيئة رائعة في خضم هذا الانهيار العام . فمهما كان من امر ، التصق بي الى حد ما الوحل البرجوازي الذي لامسته في السنوات القليلة الماضية ، ولكن هذا الوحل سيغسل الان وسأشعر بأنني انسان جديد . وستفيد الازمة صحتي قدر ما تفيدها عطلتنا على شاطىء البحر ، وأنا اشعر بذلك منذ الان . لقد ظننا في ١٨٤٨ ان وقتنا قد حان ، وهو بمعنى من المعاني قد فعل ، ولكنه قد حان حقا هذه المرة وصار كل شيء في الميزان» .

كان انغلز مخطئا بالطبع ، اذ لم يكن كلّ شيء في الميزان على الاطلاق . لقد كان للأزمة فعلا آثارها الثورية ، ولكنها لم تكن تلك الآثار التي توقعها الصديقان ، على الرغم من انهما لم يصرفا وقتهما في هدهدة احلام طوباوية متفائلة بل في دراسة جادة لمسا الازمة يوما بيوم . ففي ١٨ كانون الاول كتب ماركس : «انني اقوم بقدر هائل من العمل ، حتى الرابعة صباحا في بعض الاحيان . وعملي مزدوج : (١) وضع المبادىء الاساسية للاقتصاد السياسي (فمن الضروري ضرورة مطلقة ان يعرف الجمهور اعماق المسألة ، وعليّ ان أزيح الكابوس الجاثم على صدري) و(٢) الازمة الراهنة . وفي هذا المجال الاخير لا افعل بالاضافة الى مقالاتي الى التربيون اكثر من تسجيل الاحداث ، ولكن ذلك يستنفد قدرا كبيرا من وقتي . وانني اعتقد انني سأقوم واياك في وقت ما في الربيع المقبل بكتابة كتيب عن المسألة كنوع من التذكير الجمهور الالماني بأننا ما زلنا حيين واننا لا نزال عما نحن عليه» لم يتمخض هـــذا الاقتراح عن شيء ، لان الازمة لم تحرك الجماهير في الواقع ، ولكن هذا على الاقل اعطى ماركس وقت فراغ كاف لانهاء الجانب النظري من خطته .

كانت السيدة ماركس قد كتبت قبل ذلك بعشرة ايام الى كونراد شرام المحتضر في جيرسي تقول : «على الرغم من اننا نشعر بوطأة الازمة الاميركية على جيوبنا ، لان كارل يكتب مقالة واحدة للتربيون في الاسبوع بدلا من اثنتين ، بعد ان استغنت التربيون عن كل مراسليها الاوروبيين عدا بايارد وتايلور وكارل ، الا انك تستطيع ان تتخيل كم اصبح المراكشي مغتبطا . فقد عادت اليه قدرته على العمل جنبا الى جنب مع سرور لم يعرفه من سنوات عدة منذ ان حل بنا الحزن الاكبر عندما فقدنا طفلنا الصغير الذي ستظل خسارته تثقل قلبي الى اخر الزمن . ان كارل يعمل خلال النهار لكسب عيشنا ، وفي الليل يعمل كي ينهي كتابه في الاقتصاد السياسي . ولا شك في انه سيجد له ناشرا تعيسا بعد ان اصبح كتاب كهذا ضرورة ملحة» . ولقد عثر على الناشر بفضل جهود لاسال . ففي نيسان ١٨٥٧ ، كتب لاسال بطريقته

الودودة المعتادة ، معبرا عن الدهشة لانه لم يسمع من ماركس مدة طويلة من الزمن، مع انه بالطبع لم يكن يعرف السبب . ورغم ان انغلز نصح ماركس بان يجيب على الرسالة ، الا انه لم يفعل . وفي كانون الاول من السنة ذاتها كتب لاسال مرة اخرى ، بهدف محدد هذه المرة . فقد اقترح عليه ابن عمه ماكس فريدلاندر ان يتصل بماركس ويقنعه بالكتابةالى صحيفة «داي برس» في فيينا التي كان فريدلاندر رئيس تحريرها . اجاب ماركس هذه المرة ، رافضا عرض فريدلاندر قائلا انه وان يكن «ضد الفرنسيين» فانه لا يقل «عداء للانكليز» وهو لذلك غير راغب على الاطلاق في الكتابة من اجل بالمرستون . ثم شكا لاسال من انه قد تأثر بان ماركس لم يجب على رسالته في نيسان ، رغم ان العاطفية لم تكن واحدة من رذائله . فأجاب ماركس «بايجاز وبرود» انه لم يفعل ذلك لاسباب يصعب وصفها على الورق . وعلى الرغم من ان الرسالة كانت قصيرة ، الا ان ماركس اخبر لاسال فيها انه ينوي ان ينشر كتابا في الاقتصاد السياسي . وفي كانون الثاني ١٨٥٨ وصلت الى لندن نسخة من كتاب لاسال «هرقليط» مصحوبة ببضعة ملاحظات عن الاستقبال الحار الذي لاقاه في الدوائر المثقفة في برلين . وكان لاسال قد ذكر في رسالته التي ارسلها في كانون الاول نيته في ارسال الكتاب . كان لا بد لثمن البريد وقدره شلنان من ان «يضمن للكتاب استقبالا سيئا» من جانب ماركس ، ولكن تقيم ماركس لمحتويات الكتاب كان سلبيا ايضا . فلم يعجبه «العرض المتعمد» لقدرة الكاتب الاكاديمية ؛ ولاحظ ان من السهل على المرء ان يراكم استشهادا فوق اخر اذا كان لديه من الوقت والمال ما يكفي كي يرسل في طلب كل الكتب الضرورية من مكتبة جامعة بون. وقال ان لاسال يتبختر في ثوب فلسفي مبهرج كمن يلبس بذلة انيقة للمرة الاولى . كان تقييم ماركس مجحفا بحق لاسال ، لكنه كره الكتاب للسبب ذاته الذي احبه له نجوم حلقات الاساتذة الجامعيين ، وهذا السبب بالتحديد هو ابداء قدر كبير جدا من الحكمة العتيقة البالية من جانب شاب معروف بأنه ثوري كبير . على اية حال كان الجزء الاكبر من الكتاب قد كتب قبل اكثر من عشر سنوات من نشره .

لم يدرك لاسال ان هناك امرا جديا يقف خلف رسالة ماركس «الموجزة الباردة»، ويبدو انه اساء – بنية طيبة مع ان ماركس شك في ان ذلك امر متعمد – اشارة ماركس الى ان من الضروري ان يجري نقاش شخصي بينهما ، وافترض ان لدى ماركس امرا او اثنين لا اهمية ملحة لهما يريد ماركس ان يبحثهما معه عندما تحين الفرصة . فكتب ثانية في شباط ١٨٥٨ دون ان يبدي اي اثر للضيق واصفا النشوة الغامرة التي اصابت البرجوازية في برلين لزواج ولي عهد بروسيا بأميرة انكليزية. وفي الوقت ذاته عرض على ماركس ان يحاول ايجاد ناشر لكتابه في الاقتصاد السياسي . قبل ماركس هذا العرض ، ولم ينته اذار حتى كان لاسال قد عقد اتفاقا مع ناشره فرانز دنكر وضمن لماركس شروطا افضل من تلك التي طلبها . فقد كان ماركس يريد ان يظهر الكتاب في اجزاء وكان راغبا في تأجيل مسألة الدفع الى ما بعد ظهور الاجزاء الاولى ، ولكن لاسال ضمن له مكافأة تفوق ما يتلقاه اساتذة الجامعات بمقدار النصف . غير ان الناشر احتفظ لنفسه بحق التوقف عن نشر

الكتاب اذا لم تبع الاجزاء الاولى بشكل مرض .

مضت تسعة اشهر كاملة قبل ان يستطيع ماركس انهاء الحزمة الاولى من المخطوطة بسبب عودة آلام الكبد اليه وبسبب هموم منزلية اخرى . ففي عيد ميلاد عام ١٨٥٨ بدت الامور في بيت ماركس «أحلك واكثر اثارة لليأس من اي وقت مضى» . وفي ٢١ كانون الثاني ١٨٥٩ انتهت «المخطوطة التعيسة» ولكن لم يكن ماركس يملك اي نقود على الاطلاق كي يستطيع ارسالها بالبريد ويدفع رسوم تسجيلها . فكتب ماركس الى انغلز طالبا منه ان يرسل اليه نقودا تكفي ارسالها بالبريد ، وقال «لا اعتقد ان احدا سبق ان كتب عن النقود وعانى الى هذا الحد من الافتقار اليها . فمعظم من كتبوا في الموضوع كانوا يحتفظون معه بأطيب العلاقات» .

٥ ـ نقد الاقتصاد السياسي

ان خطة كتابة كتاب شامل في الاقتصاد السياسي يكشف عن المبادىء الاساسية لنمط الانتاج الرأسمالي كان لها من العمر قرابة خمسة عشر عاما عندما بدأ ماركس يضعها موضع التنفيذ . فقد راودته الفكرة حتى قبل ثورة اذار ، وكان رده على برودون كدفعة على الحساب . وعندما انقضت نضالات السنوات الثورية ، خطرت له الفكرة ثانية على الفور ، فكتب الى انغلز في ٢ نيسان ١٨٥١ يقول : «لقد وصلت الى حد انهيت فيه كدحي في حقل الاقتصاد . وبعد ذلك سأعمل على كتابي في البيت وأنقب في علم آخر في المتحف . لقد بدأ الملل يصيبني من الاقتصاد . فعلم الاقتصاد السياسي لم يحرز تقدما اساسيا منذ ايام آدم سميث وديفيد ريكاردو على الرغم من أن البحث الفردي قد انجز الكثير» . سر انغلز لذلك وأجاب : «انني مسرور لانك انتهيت من اقتصادك السياسي . فقد دام الامر طويلا حقا» ولكنه كرجل ذي خبرة اضاف : «ما دام امامك كتاب تعتبره هاما ولم تقرأه ، فانك لن تضع القلم على الورق» . كان انغلز ميالا دائما الى الاعتقاد بأنه عدا كل الصعوبات الاخرى ، فان «السبب الرئيسي في التأخير» يعود باستمرار الى «حيرة وتردد» صديقي .

لم تكن هذه الحيرة بالتأكيد مصطنعة ابدا ، ولم يشر انغلز اطلاقا الى انها كذلك. وبدلا من ان ينهي ماركس عمله في ١٨٥١ ، بدأ باعادته من جديد ، وهو في مقدمته للجزء الاول يفسر لماذا : «الكمية الهائلة من المواد المخزونة في المتحف البريطاني والمناسب لتاريخ الاقتصاد السياسي ، والموقع المشرف الذي تمنحه لندن على وجه الخصوص لدراسة المجتمع البرجوازي ، وفي النهاية مرحلة جديدة من تطور المجتمع البرجوازي التي بدا انها قد افتتحت باكتشاف حقول الذهب في اوستراليا وكاليفورنيا» . وهو كذلك يشير الى ان عمله الذي استغرق ثمانية اعوام لنيويورك تريبون سبب انقطاعات مستمرة في دراسته ، وكان كذلك يستطيع ان يضيف ان هذا العمل ادى به الى العودة بعض الشيء الى النضال السياسي ، الذي كانت له

على الدوام اهمية قصوى بالنسبة له . وفي النهاية كانت الآمال بانبعاث حركة الطبقة العاملة الثورية هي التي جعلته يجلس الى مكتبه ليضع في خطوط عريضة الامور التي شغلت تفكيره باستمرار سنوات عدة .

وتقدم مراسلاته مع أنغلز برهانا ساطعا على هذا، ذلك ان بحث المشاغل الاقتصادية لا يتوقف اطلاقا ، واحيانا يصبح هذا البحث مقالات منتظمة . ان بعض المقاطع تبين لنا تبادل الافكار الذي كان يحدث بين الصديقين . وفي احد المرات يكتب انغلز عن كسله الشهير في حقل النظرية ، ذلك الكسل الذي تثور نفسه عليه ، ولكن ليس بشكل حاد يجعله يغوص في أعماق الاشياء . وفي مرة اخرى يتنهد ماركس : «آه لو عرف الناس كم هو قليل ما اعرف عن هذه المسائل !» وكانت هذه الملاحظة الاخيرة قد جاءت نتيجة قول احد الصناعيين انه لا بد ان ماركس كان صناعيا ، هو ذاته ، في وقت اخر .

فاذا ما وضع المرء المبالغة الفكهة جانبا فان ما يبقى يدل على ان انغلز كان على معرفة افضل بالآلية الداخلية للمجتمع الراسمالي مما كان ماركس ، بينما كان ماركس بقدراته الحادة على الاستنتاج أقدر على تتبع قوانين تطوره . وعندما ارسل ماركس الى انغلز خطة الجزء الاول من كتابه اجاب انغلز : «ان خطتك مجردة كثيرا ، واعتقد ان هذا كان امرا لا بد منه بالنظر الى ايجازها . فقد صادفت قدرا كبيرا من الصعوبة في العثور على الانتقالات الجدلية ، ذلك انني اصبحت غير معتاد على الفكر المجرد كله» . من جهة اخرى ، كثيرا ما كان ماركس يصادف صعوبة في فهم الاجوبة التي كان انغلز يقدمها على اسئلته حول الطريقة التي يحسب بها الصناعيون والتجار ذلك الجزء من الدخل الذي يستعملونه لانفسهم ، وحول اهتلاك الآلات ، او طريقة حساب راس المال المتداول . كذلك شكا ماركس من ان المسائل ذات الاهمية العملية تفترق كثيرا في علم الاقتصاد السياسي عن المسائل ذات الضرورة النظرية .

بدأ ماركس فعلا في اعطاء كتابه شكله الاخير في سنتي ١٨٥٧ ــ ١٨٥٨ ، وهذا واضح من تغير خطة الكتاب بين يديه . ففي نيسان ١٨٥٨ كان لا يزال ينوي ان يعالج «رأس المال بشكل عام» في الجزء الاول ، ولكن على الرغم من ان هذا الجزء نما ليصبح ضعفي او ثلاثة اضعاف الحجم الذي اراده له ، الا انه لم يحتو شيئا عن رأس المال ، بل احتوى فصلين عن السلع والنقود . وقد ظن ماركس ان ميزة ذلك ستكون ان النقد لن يكون قادرا على الاقتصار على مجرد السباب ، ولكنه غفل عن انه بذلك اعطى للنقد سلاحا فعالا هو سلاح الصمت التام .

يلخص ماركس في المقدمة مسار تطوره العلمي ، وتستحق الفقرة التي يلخص بها نظرية المادية التاريخية ان تثبت هنا : «لقد ادى بي تفحصي (لفلسفة الحق لدى هيغل) الى نتيجة هي انه لا يمكن فهم العلاقات القانونية او اشكال الدولة بحد ذاتها ، او مما يسمى التطور العام للفكر الانساني . وأن هذه جميعا تجد جذورها في شروط الحياة المادية التي اخص هيغل كليتها ، على غرار الاكاديميين الانجليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر ، بمصطلح المجتمع البورجوازي ، وأن تشريح

المجتمع البورجوازي يجب ان يسعى اليه في الاقتصاد السياسي ... ويمكن تلخيص النتائج العامة التي توصلت اليها ، والتي ما ان توصلت اليها حتى شكلت الخط الذي قاد دراساتي اللاحقة ، كما يلي : يدخل البشر بالانتاج الاجتماعي في علاقات محددة وضرورية مع بعضهم البعض باستقلال تام عن ارادتهم ، علاقات انتاجية تتفق مع مرحلة محددة من تطور قوى الانتاج المادية ، وتشكل كلية هذه العلاقات الانتاجية البنية الاقتصادية للمجتمع والاساس المادي الذي تقوم عليه البنى الفوقية السياسية والقانونية ، والذي تتفق معه الاشكال المحددة للوعي الاجتماعي. ان نمط انتاج الحياة المادية هو الذي يقرر العملية الاجتماعية والسياسية للحياة بشكل عام . ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ، بل على العكس من ذلك يحدد وجودهم الاجتماعي وعيهم . وفي مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الانتاج المادية للمجتمع ، تتناقض هذه القوى مع العلاقات الانتاجية القائمة او مع علاقات الملكية القائمة ، التي ليست غير تعبير قانوني عن الشيء ذاته ، التي كانت تتحرك ضمنها سابقا . وعندئذ تتحول هذه العلاقات من اشكال لتطور القوى الانتاجية الى قيود على هذه القوى ، فتبدأ حقبة من الثورة الاجتماعية . ومع هذا التغير في الاساس الاقتصادي للمجتمع تتغير البنية الفوقية الهائلة كلها بسرعة كبيرة الى هذا الحد او ذاك . ويتوجب على المرء عند متابعة هذه التغيرات ان يميز بين التغيرات المادية في الشروط الاقتصادية للانتاج ، التي يجب ان تسجل بدقة علمية ، وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفلسفية، وبالاختصار الاشكال الايديولوجية التي يصبح البشر بها مدركين للصراع ويناضلون لحله . وكما ان المرء لا يستطيع ان يقيم فردا حسبما يظن هذا الفرد ذاته ، كذلك لا يستطيع المرء ان يقيم حقبة تحول كهذه من وعيها الذاتها ، بل على المرء بدلا من ذلك ان يفسر هذا الوعي من التناقضات في الحياة المادية ، من الصدام القائم بين القوى الانتاجية الاجتماعية وبين شروط الانتاج . ليس هناك شكل من اشكال المجتمع يأفل قبل ان يطور كل قوى الانتاج التي تتفق مع مرحلة تطوره ، والعلاقات الانتاجية الجديدة الارفع لا تحل ابدا محل العلاقات القديمة قبل ان تتطور الشروط المادية لوجودها داخل رحم المجتمع القديم ذاته . ولذا فان الانسانية لا تضع ابدا لنفسها مهاما غير تلك التي تستطيع ان تقوم بها ، ذلك انه اذا درس المرء المسألة بشكل اكثر دقة ، فانه سيجد في كل الحالات ان مهمة ما لا تقدم نفسها ابدا كي يقام بها الا اذا كانت الشروط المادية للقيام بها قد تطورت او هي على الاقل في طريقها الى التطور . ويمكن القول بشكل عام ان انماط الانتاج الآسيوي والكلاسيكي والاقطاعي والبورجوازي الحديث تمثل حقبات تقدمية من الاشكال الاقتصادية الاجتماعية . وعلاقات الانتاج البورجوازية تمثل الشكل المتناقض الاخير من عملية الانتاج الاجتماعي ، وهي ليست متناقضة بمعنى التناقض العدائي الفردي ، بل بمعنى تناقض عدائي يتطور من الشروط الاجتماعية لحياة الافراد . غير ان القوى الانتاجية التي تتطور ضمن اطار المجتمع البورجوازي تخلق في الوقت ذاته الشروط المادية لتصفية هذا التناقض العدائي . ولذا فان التاريخ الاولي للمجتمع الانساني ينتهي بهذا الشكل من

اشكال المجتمع » .

خطا ماركس في هذا الكتاب ، الذي وضع له عنوان «نقد الاقتصاد السياسي»، خطوة حاسمة تتخطى حدود الاقتصاد السياسي البورجوازي كما طوره على وجه الخصوص آدم سميث ودافيد ريكاردو . فقد تتوج الاقتصاد السياسي البورجوازي بتعريف قيمة السلعة بانها مقدار وقت العمل الضروري لانتاجها ، ولكن بما ان هذا الاقتصاد السياسي اعتبر نمط الانتاج البورجوازي الشكل الطبيعي والخالد للانتاج الاجتماعي ، فقد افترض ان خلق القيمة سمة طبيعية من سمات قوة العمل الانساني كما هي معطاة في الفرد وفي قوة العمل العيانية للفرد ، وعلى اساس هذا الافتراض دخل الاقتصاد السياسي في سلسلة من التناقضات لم يستطع حلها . اما ماركس فلم يعتبر نمط الانتاج البورجوازي الشكل الخالد الطبيعي للانتاج الاجتماعي ، بل اعتبره شكلا تاريخيا محددا من اشكال الانتاج الاجتماعي يخلف سلسلة كاملة من الاشكال السابقة . ومن وجهة النظر هذه ، أخضع سمة قوة العمل المنتجة للقيمة لتفحص شامل . فبحث في اي نوع من قوة العمل ينتج القيمة ولماذا وكيف ، كما بحث لماذا لا تكون القيمة شيئا غير قوة العمل المتضمنة .

وبهذه الطريقة ، توصل ماركس الى «نقطة حيوية» يعتمد عليها فهم الاقتصاد السياسي ، وهي : الطابع المزدوج لقوة العمل في المجتمع البورجوازي . فقوة العمل العيانية المفردة تنتج القيمة الاستعمالية ، بينما تنتج قوة العمل الاجتماعية قيمة تبادلية . وقوة العمل توجد في كل الاشكال الاجتماعية بقدر ما تخلق القيمة الاستعمالية . واستخدام قوة العمل كنشاط مفيد لاستثمار الموارد الطبيعية بشكل او بآخر شرط طبيعي للوجود الانساني ، شرط للتداخل الحيوي القائم بين الانسان والطبيعة باستقلال تام عن كل الاشكال الاجتماعية . وقوة العمل تتطلب مادة تعمل عليها . وذلك كشرط اولي للعمل ، ولذا فانها ليست المصدر الوحيد لذلك الذي تنتجه ، اي للثروة المادية . ومهما كانت العلاقة بين قوة العمل ومادته الخام في القيمة الاستعمالية المختلفة المنتجة ، فان القيمة الاستعمالية تحتوي دائما قواما طبيعيا .

اما القيمة التبادلية فمختلفة . اذ انها لا تحتوي اي عنصر طبيعي ، وقوة العمل هي مصدرها الوحيد ، ولذا فهي المصدر الوحيد لكل ثورة تتشكل من قيم تبادلية. واي قيمة استعمالية تساوي اي قيمة استعمالية اخرى اذا اعتبرت قيمة تبادلية ، شرط ان تكون موجودة بنسبة صحيحة . «يمكن التعبير عن القيمة التبادلية لقصر ما بعدد معين من صفائح الدهان . ومن الجهة الاخرى ، عبّر صانع الدهان عن القيمة التبادلية لصفائح دهان مضاعفة بقصور» . ولأن السلع تتبادل ببعضها البعض بغض النظر عن الشروط الطبيعية لوجودها ، وبصرف النظر عن الحاجات التي قصد لها ان تشبعها ، فانها تمثل الوحدة ذاتها ، وهي رغم اشكال ظهورها المختلفة تمثل نتائج قوة عمل منتظمة ، «ولا يهم قوة العمل هذه ان تظهر بشكل ذهب او حديد او قمح او حرير او اكسجين ، أو ان تكون موجودة في صدا الحديد او الجو او عصير العنب او دم الانسان » .

وينجم تنوع القيم الاستعمالية عن تنوع قوى العمل التي تنتجها ، ولكن قوة العمل التي تنتج قيما تبادلية لا علاقة لها بالمادة المحددة للقيمة الاستعمالية ، ولا علاقة لها بالشكل المحدد لقوة العمل ذاتها . فهي عمل عام مجرد منتظم ، وهي لم تعد تختلف في النوع ، ولكن في الكمية فحسب ، اي فحسب في الكميات المختلفة التي تتضمنها في قيم تبادلية بحجوم مختلفة . ولا تجد الكميات المختلفة من العمل العام المجرد ما تقاس به الا الوقت، الذي يقاس هو ذاته بالطريقة التقليدية: بالدقائق والساعات والايام والشهور الخ . ومن هنا فان وقت العمل هو الوجود الحي للعمل بصرف النظر عن شكله ومحتواه وفرديته . وليست السلع جميعا بوصفها قيما تبادلية غير كميات محددة من وقت العمل المتضمن . ولذا فان وقت العمل المتضمن في القيم الاستعمالية هو المادة التي تجعلها قيما تبادلية وسلعا ، وفي الوقت ذاته مقياس الحجم المحدد للقيمة الموجودة فيها .

ان هذا الطابع المزدوج شكل اجتماعي للعمل غريب عن انتاج السلع . ففي ظل الشيوعية البدائية ، وهي شكل اجتماعي يوجد على عتبة تاريخ كل الشعوب الحديثة ، كان العمل الفردي متضمنا مباشرة في النسيج الاجتماعي. اما في القنانة والتبادل الذي كان سائدا في العصور الوسطى ، فقد كانت خصوصية العمل وليس عموميته هي التي تشكل الرابط الاجتماعي . وفي العائلة الريفية الابوية التي كانت النساء فيها تغزل والرجال ينسجون ليستخدم الناتج من جانب العائلة وحدها ، كانت المنسوجات منتجات اجتماعية ، وكان الغزل والنسيج يمثلان عملا اجتماعيا ضمن حدود العائلة . كذلك اعطت الرابطة العائلية وما لازمها من تقسيم طبيعي للعمل لنتاج قوة العمل طابعه الخاص . ولم يكن النسيج يتبادل كتعبير منتظم عن وقت العمل العام ذاته . ولا يصبح العمل الفردي عملا اجتماعيا ، من حيث انه يأخذ شكل نقيضه المباشر ، اي شكل العمومية المجردة ، الا في ظل الانتاج السلعي.

ان السلعة هي الاتحاد المباشر بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية ، وهي في الوقت ذاته ليست سلعة الا بالعلاقة مع السلع الاخرى . وتكمن العلاقة الحقيقية بين السلع ببعضها البعض في عملية التبادل . ففي هذه العملية ، التي يدخل فيها افراد مستقلون عن بعضهم البعض ، تمثل السلعة في الوقت ذاته قيمة استعمالية وقيمة تبادلية معا ، اي انها تمثل عملا مخصوصا يفي بحاجات مخصوصة وعملا عاما تمكن مبادلته بأي حجم اخر مساو من العمل العام . ويجب على عملية تبادل السلع ان تكشف وتصفي التناقض الناجم عن ان قوة العمل الفردية المتضمنة في سلعة معينة يجب ان يكون لها طابع عام مباشر .

وتصبح كل سلعة منفصلة بوصفها قيمة تبادلية مقياسا لقيمة كل السلع الاخرى ، ومن جهة اخرى ، تصبح كل سلعة مفردة ، تقاس بالنسبة اليها كل السلع الاخرى ، وجودا كافيا للقيمة التبادلية ، وهكذا تصبح القيمة التبادلية سلعة خاصة محددة تتضمن مباشرة وقت العمل العام وذلك بتحويل كل السلع الاخرى اليها . وبذلك ، يحل في كل سلعة مفردة التناقض الذي تحتويه كل سلعة بذاتها : قيمة استعمالية محددة ، ولكن لها مساو عام كذلك ، ولذا قيمة استعمالية بشكل عام،

قيمة استعمالية عامة . وهذه السلعة هي النقود .

تبلور القيمة التبادلية للسلع نفسها في النقود بوصفها سلعة مخصوصة . وهذا التبلور النقدي نتاج ضروري لعملية التبادل ، التي تصبح فيها المنتجات المتنوعة لقوة العمل منتظمة بعلاقتها مع بعضها ، ولذا فانها تتحول فعلا الى سلع . وقد تطور ذلك بالغريزة وعلى خطوط تاريخية . فقد مثل التبادل البسيط ، وهو الشكل البدائي لعملية التبادل ، بداية تطور القيم الاستعمالية الى سلع وليس تطور السلع الى نقود . وكلما تطورت القيمة التبادلية ، كلما تطورت القيمة الاستعمالية الى سلع ، اي انه كلما طورت القيمة التبادلية شكلا مستقلا عن القيمة الاستعمالية المخصوصة لا يعود مرتبطا بها ، كلما اصبح تطوير النقود اكثر ضرورة . ففي البداية تلعب سلعة محددة دور النقود ، او ربما لعب ذلك الدور عدد من السلع ذات القيمة الاستعمالية العامة مثل الاغنام او القمح او العبيد . وقد لعبت دور النقود من حين لآخر سلع مناسبة بهذا القدر او ذاك . وفي النهاية اصبحت المعادن الثمينة تلعب هذا الدور ، لان هذه المعادن تملك الصفات المادية الضرورية للسلعة المحددة التي يجب ان تبلور الطبيعة النقدية لكل السلع نفسها فيها ، وذلك بقدر ما تنجم هذه الصفات مباشرة عن طبيعة القيمة التبادلية ذاتها ، اي بالتحديد متانة قيمتها الاستعمالية ، وامكانية تقسيمها بلا حدود ، والطبيعة المنتظمة لكل اجزائها وانتظام كل صنوف سلعة كهذه .

ثم اصبح الذهب ، من بين المعادن الثمينة ، السلعة ـ النقدية . فهو يقوم بدور مقياس القيم ومقياس الاسعار ، ووسيلة تبادل لكل السلع الاخرى . وبفضل هذا التحول المصيري للسلعة الى ذهب ، يحتفظ بقوة العمل المحددة المتضمنة في السلعة كعام مجرد ، كعمل اجتماعي . واذا ما فشلت السلعة في تحقيق هذا التحول الى نقد ، فانها عندئذ لا تحقق هدف وجودها ، لا كسلعة فحسب بل كناتج ايضا ، ذلك انها سلعة لانه ليست لها قيمة استعمالية لمالكها .

هكذا بيّن ماركس كيف ولماذا يجب بالضرورة على السلعة ، بسبب طبيعة قيمتها الداخلية ذاتها ، وعلى تبادل السلع ان ينتجا نقيض السلعة والنقود . فتعرف في النقود ، التي تقدم نفسها على انها شيء طبيعي له سمات خاصة ، على علاقة انتاجية اجتماعية ، وشرح التفسيرات المشوشة للنقود التي يقدمها علماء الاقتصاد البورجوازيون بأن أوضح ان ما ظنوا انهم تعرفوا عليه كشيء ، بدا فجأة كعلاقة اجتماعية ، وما ظنوا انه علاقة اجتماعية بدا شيئا .

في البداية ، أغشى فيض الضوء الذي أحدثه هذا الكتاب اصدقاء الكاتب نفسه بدلا من ان يساعدهم على الرؤية . فاعلن ليبكنشت ان أمله لم يخب يوما في كتاب كما خاب في هذا الكتاب، اما ميكيل فلم «يجد فيه شيئا جديدا غير القليل القليل» . اما لاسال فقد امتدح الشكل الذي وضع به الكتاب ، واعطى له دون حسد قيمة تفوق قيمة كتابه هو نفسه (هرقليط) . ولكن ماركس شعر ان ما قاله لاسال يثير شكا في انه لا يفهم الا القليل عن المسائل الاقتصادية ، وقد كان على حق في ذلك ، اذ لم يمض وقت طويل حتى بيّن لاسال انه اخطأ «النقطة الحيوية» في الكتاب ، حين

لم يفهم الفرق بين قوة العمل التي تنتج قيما استعمالية وقوة العمل التي تنتــج قيما تبادلية .

واذا كان هذا هو الاستقبال الذي لاقاه كتاب ماركس من اولئك الذين كان يتوقع ان يفهموه ، فماذا كان يتوقع من الاخرين ؟ في ١٨٨٥ قال انغلز ان ماركس وضع اول نظرية للنقود وانه قد تم تبني نظريته بصمت ، ولكن وبعد ذلك بسبع سنوات ظهرت «موسوعة الاقتصاد السياسي» لتنشر على خمسين عمودا أطروحة عــن النقود تحيي فيها كل النظريات القديمة عن النقود ، ولا تذكر ماركس ابدا ، بل تعلن ان النقود لغز غير قابل للحل . ولكن كيف يمكن لعالم اعتبر النقود الهاً له ان يطمح الى فهم الهه ؟

الفصل العاشر

تغيرات في السلالات الحاكمة

١ ـ الحرب الايطالية

لم تتمخض ازمة ١٨٥٧ عن ثورة بروليتارية ، كما كان ماركس وانفلز يأملان . ولكنها بالتأكيد لم تكن لتمر دون آثار ثورية ، حتى ولو لم تتخذ هذه الآثار غير شكل تغييرات في السلالات المالكة . فقد ظهرت مملكة ايطاليا المتحدة ، وبعد ذلك بقليل ظهرت الامبراطورية الالمانية المتحدة ، بينما اختفت الامبراطورية الفرنسية القديمه .

اتخذت الاحداث هذا الخط لسبب مزدوج هو ان البورجوازية لا تحارب معاركها الثورية بنفسها اطلاقا ، كما انها منذ ثورة ١٨٤٨ لم تعد راغبة في ان تسمح للبروليتاريا بخوض هذه المعارك عنها . وكانت المشكلة ان البروليتاريا في هذه الثورة وفي نضالات حزيران في باريس على وجه الخصوص تخلت عن عادتها القديمة في السماح للبورجوازية باستخدامها وقودا للمدافع ، وصارت تطالب بنصيب من نتائج الانتصارات التي احرزت بدمها وشجاعتها .

ونتيجة لذلك ، وحتى في السنوات الثورية ، راودت البورجوازية فكرة اقناع قوة اخرى غير البروليتاريا ، التي تزداد اثارة للشك وتصبح غير موثوقة اكثر فاكثر، بأن تقوم عن البورجوازية بالمهمة الشاقة . وكان هذا هو الحال على وجه الخصوص في المانيا وايطاليا ، اي في تلك البلدان التي كانت فيها المهمة التي يطرحها التطور التاريخي هي خلق الدولة القومية التي تتطلبها قوى الانتاج كي تستطيع التطور الى اقصى مدى . كان الحل الواضح المشكلة هو ان تقدم لأحد الامراء الهيمنة الكاملة على البلاد لقاء وعد منه بمنح البورجوازية الفسحة التي تحتاجها لتطوير الاستغلال الرأسمالي تطويرا كاملا . غير ان هذه الخطة اضطرت البورجوازية الى التخلي عن مثلها السياسية الخاصة بها لتقنع بالارباح المالية فحسب ، ذلك انها اذ طلبت عون الامراء ، انما اخضعت نفسها للسيطرة الاميرية .

ولذا وحتى في السنوات الثورية بدأت البورجوازية تغازل أمراء الولايات بل انها غازلت اكثر هذه الولايات رجعية . فغازلت في ايطاليا مملكة سردينيا ، تلك الدويلة «العسكرية ـ اليسوعية» التي قال الشاعر الالماني بمرارة «ان القساوسة والمرتزقة يمصون دم الشعب فيها حتى يجف» ، وفي المانيا غازلت مملكة بروسيا التي كانت تحت رحمة يونكر شرقي الألب الرجعيين الذين يريدون اعادة التاريخ الى الوراء . نجحت البورجوازية في البداية في ايطاليا والمانيا معا ، فوافق الملك البرت ملك سردينيا على ان يجعل نفسه «سيف ايطاليا» ، ولكن الجيش النمسوي هزمه في ساحة المعركة فمات لاجئا على ارض اجنبية . اما في بروسيا فقد رفض ملكها فريدريك ويليام الرابع التاج القيصري الالماني الذي عرضته عليه البورجوازية الالمانية ، ذلك انه اعتبره شرفا وهميا محضا ، تاجا مصنوعا من الطين والوحل . وفضل بدلا من ذلك ان ينتزع بعض المكاسب الصغيرة على حساب الثورة ، مع انه فشل في ذلك فشلا ذريعا ، وكان ذلك بسبب السوط النمسوي في أولمتز اكثر منه بسبب السيف النمسوي .

غير ان الازدهار الصناعي الذي أوهن قوة الثورة في عام ١٨٤٨ اصبح رافعة قوية تدفع بالمصالح البورجوازية في ايطاليا والمانيا الى الامام ، كما انه جعل الوحدة القومية في كلا البلدين اكثر الحاحا وضرورة من اي وقت مضى .

وفي ١٨٥٧ ، نشبت الازمة لتذكر البورجوازية بأن كل عظمة رأسمالية ليست الا عظمة سريعة التلاشي والانحلال ، لكن الامور بدأت تتحرك في النهاية ، في ايطاليا اولا . ولا يعني ذلك ان التطور الرأسمالي تقدم في ايطاليا اكثر منه في المانيا . على العكس من ذلك لم تكن الصناعة الكبيرة موجودة في ايطاليا ابدا ، ولذا لم يكن التناقض العدائي بين البورجوازية والبروليتاريا قد نمى الى حد يوقظ الشك المتبادل بين الطرفين . ولا يقل عن ذلك اهمية ان تفتت ايطاليا كان نتيجة السيطرة الاجنبية ، وأن الاطاحة بهذه السيطرة كان هدفا مشتركا لكل طبقات المجتمع . فقد كانت النمسا تحكم لمبارديا ومقاطعة البندقية ، كما كانت تحكم بصورة غير مباشرة ايطاليا الوسطى ، التي كانت اماراتها الصغيرة تتلقى اوامرها من فينا . وكان النضال ضد النير الاجنبي مستمرا بلا انقطاع طيلة عشرين سنة ، مما ادى من جهة الى اجراءات قمع وحشية ، والى اعمال انتقامية يائسة من الجهة الاخرى : لقد كان الخنجر الايطالي هو الجواب الحتمي على السيف النمسوي .

غير ان الارهاب كله وكل الانتفاضات والمؤامرات اثبتت عقمها تجاه سلطة آل هابسبرغ المتفوقة ، ففشلت الانتفاضات الايطالية جميعا حتى في السنوات الثورية. وثبت ان الامل في ان تحرز ايطاليا استقلالها بذاتها ليس غير وهم . فقد كانت ايطاليا تحتاج الى مساعدة خارجيةكي تستطيع التخلص من ربقة السيطرة النمسوية، ولذا استدارت نحو شقيقتها فرنسا . كان الحفاظ على التفتت القومي في ايطاليا والمانيا مبدأ تقليديا من مبادىء السياسة الخارجية الفرنسية . لكن المغامر الذي كان يتربع على عرش فرنسا ابدى استعداده للمساومة حول المسألة . فقد كانت الامبراطورية الثانية مجرد مهزلة ما دامت محصورة ضمن الحدود التي رسمتها

لفرنسا الدول الاوروبية الكبرى بعد الاطاحة بالامبراطورية الاولى . ولذا فقد كانت فرنسا بحاجة الى مكاسب اقليمية ، ولكن بونابرت المزيف لم يكن يستطيع احراز هذه المكاسب كما فعل بونابرت الحقيقي . ولذا فقد كان على بونابرت المزيف ان يقنع باقتراض ما يدعى «مبدأ القومية» من عمه المزعوم ، ويصور نفسه مسيح الامم المضطهَدة ، بشرط واحد هو بالطبع ان يجازى على خدماته الودية بالارض والسكان .

في الوقت ذاته لم يكن وضعه العام يسمح له بالمخاطرة كثيرا . اذ لم يكن في وضع يمكنه من شن حرب اوروبية ، عدا عن حرب ثورية ، وكان كل ما يستطيع فعله هو ضرب كبش فداء اوروبا بموافقة متواطئة من الدول الاخرى . كان كبش الفداء في بداية الخمسينات هو روسيا ولكنه اصبح في نهايتها النمسا ، فقد اصبح نظام الحكم الذي اقامه الممثلون النمسويون في ايطاليا فضيحة اوروبية، وفي الوقت ذاته تشاجر آل هابسبرغ مع شركائهم القدماء في التحالف المقدس ، مع بروسيا بسبب أولمتز ومع روسيا بسبب حرب القرم . ولذا كان بونابرت متأكدا تماما من انه سيتلقى مساعدة روسيا اذا هاجم النمسا .

كان الوضع الداخلي في فرنسا يتطلب بالحاح عملا سياسيا خارجيا ليرفع من منزلة النظام البرنابرتي . اذ كانت الازمة التجارية ١٨٥٧ قد شلت الصناعة الفرنسية ، وبفضل المناورات التي حاولت بها الحكومة منع اندلاع الازمة اصبح الشر مزمنا ومستحكما ، وقبعت التجارة الفرنسية راكدة سنوات عدة . ونتيجة لذلك بدأت البورجوازية والبروليتاريا معا تبديان تمردهما ، حتى ان الفلاحين ، وهم الدعامة الاساسية لنظام الانقلاب بدأوا يتململون . فقد جعل الهبوط الكبير في اسعار الحبوب الذي حدث من عام ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ الفلاحين يعلنون ان زراعة الارض تصبح مستحيلة باضطراد بسبب الاسعار المنخفضة التي يتلقونها لقاء انتاجهم والاعباء الثقيلة الموضوعة على عاتق الزراعة .

في ظل هذا الوضع ، غازل كافور ، كبير وزراء مملكة سردينيا ، بونابرت بحماسة . وكان كافور قد اتبع تقليد الملك البيرت ، ولكنه اختط سياسته بقدر اكبر بكثير من المهارة ، ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع ان يحرز الكثير من التقدم بالوسائل الدبلوماسية العقيمة التي في متناول يده ، ذلك ان شخصية بونابرت المتذبذبة والمترددة جعلت من الصعب عليه ان يتخذ قرارا سريعا . غير ان حزب العمل الايطالي ادلى بدلوه في اللعبة ، ونتيجة لذلك اضطر بطل الحرية الى الرسو على قرار بسرعة . وفي ١٤ كانون الثاني ١٨٥٨ قام أورزيني والمتواطئون معه بالقاء قنابلهم على العربة الامبراطورية ، فأصيبت بما لا يقل عن ستة وسبعين شظية . لم يصب راكبو العربة بأذى ، ولكن كما هي العادة في حالات من هذا القبيل ، اجاب بونابرت على المحاولة باقامة حكم الارهاب . غير ان الاهتياج الذي فعل به ذلك اشار الى ان نظامه ، الذي كان قد استمر طيلة سبعة اعوام حتى ذلك الحين ، كان في الواقع قائما على اساس واه ، بينما سببت له رسالة تلقاها من أورزيني خلال سجنه المزيد من الرعب . فقد قال اورزيني : «تذكر ان سلام اوروبا وهدوءك

وسكينتك ستظل جميعا وهمية محضة ما دامت ايطاليا لم تحرز استقلالها» .
ويقال ان اورزيني تكلم حتى بقدر اكبر من الصراحة في رسالة ثانية . وكان بونابرت خلال تسكعه ايام حياته المغامرة قد وقع في شبكة متآمرين ايطاليين ، فكان يعرف جيدا ان نقمتهم ليست امرا يؤخذ ببساطة . ولذا دعا بونابرت كافور لمقابلته في صيف عام ١٨٥٨ في بلوبيير ، وهناك رتبا معا حربا صغيرة ضد النمسا. واتفقا ان تأخذ ساردينيا لنفسها لومباردي ومقاطعة البندقية وتشكل مملكة ايطاليا العليا ، وبالمقابل تمنح سافوي ونيس لفرنسا . كانت تلك صفقة دبلوماسية ليس لها غير القليل من العلاقة باستقلال ايطاليا وحريتها ، ولم تذكر ايطاليا الجنوبية والوسطى ، رغم انه كان للطرفين بلا شك افكارهما حول الموضوع . فقد كان بونابرت غير راغب في التخلي تماما عن السياسة الخارجية الفرنسية التقليدية العمل على توحيد ايطاليا . على العكس من ذلك ، كان يرغب في الحفاظ على السلطة الزمنية للبابوية وخلق رابطة للسلالات المالكة الايطالية بحيث يمكن لعب الواحدة منها ضد الاخرى ، مما يؤمن الهيمنة الفرنسية ، وبالاضافة الى ذلك ، كانت تراوده فكرة تكوين مملكة لايطاليا الوسطى ، ينصب عليها ابن عمه جيروم . اما كافور ، فكان من جهة اخرى يعتمد على نمو حركة قومية قوية في ايطاليا تسمح له بالسيطرة على كل النزعات الاقليمية الملكية حالما تصبح ايطاليا العليا دولة قوية .

وفي يوم رأس السنة عام ١٨٥٩ ، استقبل بونابرت السفير النمسوي ، واخبره بالنوايا الفرنسية ، بينما اعلن ملك ساردينيا بعد ذلك ببضعة ايام انه ليس أصما تجاه نداءات الشعب الايطالي التي تفطر القلب . لاقت هذه التهديدات فهما كاملا في فينا . واقترب اندلاع النزاع المسلح بسرعة ، وكانت الحكومة النمسوية بليدة الى درجة انها سمحت بان تدفع الى لعب دور المهاجم . فوضعت نفسها في موقف صعب ، خاصة وانها كانت نصف مفلسة ، تهاجمها فرنسا وتهددها روسيا ، ولم تكن صداقتها الفاترة مع المحافظين الانجليز ذات عون كبير ، ولذا سعت الى كسب دعم الجامعة الالمانية . ولم تكن الجامعة ملزمة باي اتفاق للدفاع عن الممتلكات غير الالمانية لاي من اعضائها ، ولكن الحكومة النمسوية كانت تأمل في أن تدفعها الى فعل ذلك بشعار سياسي ــ عسكري هو ان نهر الراين يجب ان يدافع عنه على نهر البو، اي انها ، بكلمات اخرى ، حاولت ان تقنع الجامعة ان الحفاظ على ممتلكات النمسا امر ذو اهمية حيوية قومية لالمانيا .

كانت حركة قومية قد تطورت في المانيا ايضا منذ ازمة ١٨٥٧ ، ولكنها كانت مختلفة عن الحركة القومية في ايطاليا ، ولم يكن هذا الاختلاف ميزة لها . لم تكن الحركة القومية الالمانية مدفوعة بالضيق من السيطرة الاجنبية . وبالاضافة الى ذلك ، كانت البورجوازية الالمانية ، منذ ١٨٤٨ ، فزعة من البروليتاريا ، على الرغم من ان البروليتاريا لم تكن قد اثبتت انها خطرة الى هذا الحد على الاطلاق . ولكن ايام حزيران في باريس ، كانت تمثل مع ذلك تحذيرا رهيبا . فقد كانت فرنسا حتى عام ١٨٤٨ المثل الاعلى للبورجوازية الالمانية ، ولكنها بعد ذلك استدارت نحو انجلترا لتتخذ منها مثلا ، انجلترا التي كان يبدو ان بورجوازيتها والطبقة البروليتارية

فيها قادرتان على تسوية خلافاتهما سلميا . وقد احدثت زيجة ولي العهد البروسي من اميرة انجليزية نشوة غامرة لكل البورجوازيين الالمان . وعندما تخلى ملك بروسيا المصاب في عقله عن مقاليد الحكم لشقيقه في خريف ١٨٥٨ ، فقام هذا بتنصيب حكومة ليبرالية مطواعة ، لاسباب يمكن ان تكون اي شيء ولكنها لا يمكن ان تكون اسبابا ليبرالية ، « اندلعت احتفالات تتويج بليدة » ، كما عبر لاسال عن ذلك بمرارة . ولكي لا تزعج البورجوازية النبيلة الوصي على العرش ، شجبت ابطالها عام ١٨٤٨ ، وبدلا من أن تحتج عندما تركت الحكومة الجديدة الامور على حالها عمليا ، تبنت الشعار الشهير «لنفعل ذلك بلطف !» خوفا من اثارة استياء الحاكم الجديد، الذي يمكن حينئذ ان يطيح « بالحقبة الجديدة » التي كانت تحت رحمة نزواته وكأنها مجرد ظل على حائط .

أخذت الموجة القومية ترتفع في المانيا ، كلما ازداد تلبد غيوم الحرب . فقد كانت الطريقة التي كان كافور يعمل بها من اجل الوحدة الايطالية مغرية جدا للبورجوازية الالمانية ، التي كانت قد اختارت قبل ذلك بزمن طويل بروسيا لتلعب في المانيا دور ساردينيا في ايطاليا . ولكن هجوم فرنسا ، عدو المانيا التقليدي ، على النمسا ، حليفة المانيا ، اثار المخاوف في قلب البورجوازية الالمانية وايقظ فيها ذكريات غير سارة . ربما كان بونابرت المزيف ينوي ان يبعث تقاليد بونابرت الحقيقي؟ ربما تعود أيام اوسترلتز و يينا لتقعقع قيود السيطرة الاجنبية ثانية في المانيا ؟ جهد الكتبة الذين يتلقون رشوات من الحكومة النمسوية في اقناع البورجوازية الالمانية بان مخاوفها حقيقية ، وفي الوقت ذاته رسموا صورة زاهية « لدولة وسط اوروبية كبرى » بقيادة النمسا وتضم الجامعة الالمانية وهنغاريا واراضي الدانوب الرومانية والسلافية والالزاس واللورين وهولندا ويعلم الله ماذا ايضا . من جهة اخرى اطلق بونابرت المزيف بالطبع العنان لكتبته ايضا ، فراحوا يحلفون بكل الآلهة أن سيدهم لا تراوده اية فكرة خبيثة كالرغبة في الاستيلاء على ضفاف الراين ، وأن هجومه على النمسا لا سبب له الا اعتبارات رفيعة هي مصالح الحضارة الاوروبية .

وبالطبع ، وجد الفلستيون الالمان ان من الصعب عليهم تكوين رأي محدد في خضم فوضى الدعاية المتناقضة ، ولكنهم بدأوا يعيرون اذنا صاغية بالتدريج لصوت الساحر الهابسبرغي ، مما الحق الاذى بمنافسه البونابرتي . لقد كانت حجج آل هابسبرغ تدغدغ وطنية الفلستيين الالمان ، وفي الوقت ذاته كان كثيرا ان يطلب من اي كان ان يؤمن بالرسالة الحضارية لبونابرت المزيف . غير أن الوضع ، بسبب ذلك كله ، كان معقدا الى درجة كبيرة ، حتى ان رجالا معتادين على معالجة دقائق الامور السياسية ، وبينهم الثوريون ، رجالا كانوا متفقين تماما على كل المسائل الاساسية، لم يستطيعوا الاتفاق على السياسة العملية التي يجب لالمانيا ان تتبعها تجاه الحرب الايطالية .

٢ ـ النزاع مع لاسال

دخل انغلز الحلبة أولا ، بالاتفاق مع ماركس ، بكتيبة « البو والراين » ، ورتب

لاسال امر نشره عبر فرانز دانكر . كان هدف انفلز هو دحض حجة آل هابسبرغ بان الراين يجب ان يدافع عنه على البو . فأوضح ان المانيا لا تحتاج الى بوصة من التراب الايطالي للدفاع عن نفسها ، وقال انه اذا كانت الاعتبارات العسكرية هي العامل المقرر فان لفرنسا حق في ضفاف الراين اكبر من حق المانيا في البو . واضاف ان السيطرة النمسوية على ايطاليا العليا يمكن من وجهة النظر العسكرية المحضة ان تكون ضرورية لالمانيا ، ولكنها من الناحية السياسية مؤذية جدا ، لان القمع الشيطاني الذي يمارسه المضطهدون النمسويون على الوطنيين الايطاليين يتسبب في إثارة كراهية وعداء متعصب ضد المانيا على امتداد ايطاليا كلها .

وقال انه مهما يكن من امر فان مسألة ملكية لمبارديا امر يخص المانيا وايطاليا ، وليس لوي بونابرت والنمسا . اما فيما يتعلق بطرف ثالث مثل بونابرت ، الذي كان يتدخل لمصالحه الخاصة وضد مصلحة المانيا، فان الموقف الوحيد الذي تستطيع المانيا اتخاذه هو ان تحتفظ بالمقاطعة ولا تستسلم الا رغما عنها، وان تحتفظ بمواقعها العسكرية ولا تخليها الا اذا اصبح ذلك متعذرا . ولذا فان شعار آل هابسبرغ مبرر تماما فيما يتعلق ببونابرت ، ذلك انه اذا كان لوي بونابرت قد جعل من البو عذرا له ، فان الراين هو هدفه الحقيقي بالتأكيد ، فالاستيلاء على ضفاف الراين هو وحده الذي يمكن ان يضع اساسا لتعزيز نظام الانقلاب في فرنسا . لقد كان ذلك مثلا كلاسيكيا على وضع القول المأثور القديم موضع التطبيق العملي : هاجم بونابرت البرذعة ولكنه كان يريد الحمار . ويمكن ان تغرى ايطاليا بلعب دور البرذعة ولكن هذا ليس سببا يدفع المانيا الى لعب دور الحمار على الاطلاق . واذا كانت المسألة في نهاية الامر هي مسألة من يجب ان يملك الضفة اليسرى للراين ، فان المانيا لا تستطيع ان تحلم بالتخلي عن البو ، اي التخلي دون قتال عن واحد من اقوى مواقعها ، ان لم يكن أقواها على الاطلاق . ففي عشية الحرب كما في الحرب ذاتها، يحتل المرء كل موقع يمكن ان يشكل منه خطرا على عدوه او ان يحمي به نفسه ، دون ان يسبق ذلك تفكير اخلاقي عما اذا كان عمل كهذا يتفق مع العدالة الابدية ومبادىء القومية . فعندما يكون المرء محشورا في زاوية ضيقة ، فانه يدافع عن نفسه بكل الاسلحة التي يستطيع وضع يده عليها .

كان ماركس متفقا تماما مع وجهة النظر هذه ، فقد كتب الى انفلز بعد ان قرأ مخطوطة الكتيب يقول : «قدرة غير عادية : وكذلك الجانب السياسي الذي كان صعبا للغاية . سيحرز الكتيب نجاحا باهرا» . اما لاسال فقد اعلن انه لا يستطيع ان يفهم موقف انفلز اطلاقا ، وبعد ذلك بقليل ، اصدر من جانبه كتيبا من وضعه بعنوان «الحرب الايطالية ومهمة بروسيا» ، وقد نشره دنكر كذلك . انطلق لاسال من افتراضات مختلفة تماما ، فتوصل بالتالي الى نتائج مختلفة تماما ، وصفها ماركس بأنها «خاطئة خطأ مريعا» .

اعلن لاسال ان الحركة القومية التي قامت في المانيا بتأثير خطر الحرب كانت «كراهية محضة لفرنسا ولا شيء غير ذلك (استخدم نابليون كذريعة ، ولكن السبب الحقيقي هو كراهية التطور الفرنسي الثوري) » . وقال ان الحرب الفرنسية ـ

الالمانية ، التي سيتصارع فيها اعظم شعبين اوروبيين بسبب أوهام قومية لا غير ، ستكون حربا شعبية حقا لا تسببها اي مصلحة قومية حيوية ، بل تغذيها قوميـة حساسة مرضية ووطنية متأججة وعداء طفولي للفرنسيين . ولذا فانها ستشكل خطرا على الحضارة الاوروبية وعلى كل المصالح الوطنية والثورية حقا ، كما انهـا ستمثل ابشع واخطر نصر يحرزه المبدأ الرجعي منذ ايار ١٨٤٨ . ولذلك فهو يرى ان على الديمقراطية ان تعارض حربا كهذه بكل السبل الممكنة .

واوضح لاسال بالتفصيل ان الحرب الايطالية لا تشكل تهديدا جديا لالمانيا ، التي من صالحها ان يتوج النضال الايطالي من اجل الوحدة القوميـة بالنجاح . فالقضية الحقة لا تصبح باطلة اذا ما دافع عنها رجل سيء . وقد يأمل بونابرت في كسب القليل من الشعبية من خلال الحرب الايطاليـة ، ولكن من واجب الديمقراطية في هذه الحالة ان تعمل على افشال ذلك ، وبذلك تجعل ما قام بـه لمصلحته الخاصة غير ذي نفع في تنمية هذه المصلحة ذاتها . كيف يمكن للمرء ان يعارض الان بسبب نابليون فحسب ما كان يرغب فيه في السابق ؟ فمن جانب كان هناك قضية حقة ورجل سيء ، وفي الجانب الاخر هناك قضية سيئة وهناك «الرجل ؟» . ثم ذكر لاسال قراءه باغتيال بلوم وباولمتز وهولشتاين وبرونزل وبكل الجرائم التي لم يقترفها ضد المانيا بونابرت بل اقترفها الطغيان الهابسبرغي . وقال ان الشعب الالماني ليس مهتما على الاطلاق بالحفاظ على قوة النمسا ، بل علـى العكس من ذلك ، ان تحطيم النمسا هو الشرط الاولي لتحقيق الوحدة الالمانية . ففي اليوم الذي تحرز فيه ايطاليا وهنغاريا استقلالهما سيعود الاثني عشر مليون الماني – نمسوي الى الشعب الالماني ، وعندئذ فقط يمكن لهم ان يشعروا انهم المان وتصبح الوحدة الالمانية ممكنة .

وحلل لاسال موقف بونابرت وبيَّن ان هذا الرجل الضعيف ، الذي يقدر بأكبر مما يستحق ، ليس في موقف يستطيع معه ان يفكر جديا بمكاسب اجنبية حتى في ايطاليا ، فكيف بألمانيا . وحتى لو افترضنا ان المجنون يهدهد احلام غـزو خيالية ، فهل هذا سبب يدعو المانيا الى ابداء هذا الخوف المشين ؟ وسخر مـن الوطنيين الرعاديد الذين يعتبرون يينا المقياس الطبيعي لقوة المانيا القومية، فيدفعهم الى اليأس خوفهم ذاته . ثم أنب الشجعان الذين يخشون هجوما غير متوقع من فرنسا فيطالبون بأن تقوم المانيا بالهجوم ، وأوضح ان من الواضح تماما انه اذا كانت المانيا ستصد غزواً فرنسيا ، فانها ستكون قادرة على حشد قوة اكبر بكثير مما لو قامت هي بالهجوم على فرنسا ، بالاضافة الى ان هجوما كهذا سيجعـل الفرنسيين يلتفون حول بونابرت مما يقوي موقفه .

ولا يجب ان تشن الحرب ضد فرنسا الا اذا حاول بونابرت ان يحتفظ بمكاسب الحرب مع النمسا لنفسه ، او حتى اذا لم يفعل شيئا غير محاولة خلق مملكـة ايطالية وسطى لابن عمه جيروم . واذا لم يحدث اي من هذين الاحتمالين ، وأبدت الحكومة البروسية مع ذلك ميلا الى تحريض الشعب للحرب ضد فرنسا ، فان الديمقراطية يجب ان تفعل كل ما يمكن لمعاكسة تحريض كهذا . غير ان الحياد ليس

كافيا ، فالمهمة التاريخية لبروسيا لمصلحة الامة الالمانية هي ارسال جيشها لمقاتلة الدنمارك معلنة « اذا كان بونابرت يصر على تغيير خارطة اوروبا في الجنوب باسم مبدأ القومية ، فاننا سنفعل الشيء ذاته في الشمال . واذا كان بونابرت سيحرر ايطاليا فاننا سنحرر سليزويغ ـ هولشتاين» . اما اذا استمرت بروسيا صامتة فانها بذلك تبرهن ان الملكية الالمانية لم تعد قادرة على القيام بعمل قومي عظيم .

نتيجة لهذا البرنامج ، مُجِّد لاسال بوصفه نبيا قوميا تنبأ بسياسة بسمارك فيما بعد ، ولكن الواقع ان حروب الغزو الملكية التي شنها بسمارك في ١٨٦٤ لضم سليزويغ ـ هولشتاين لا تشبه في شيء الحرب الثورية التي حث عليها لاسال في ١٨٥٩ لتحرير سليزويغ ـ هولشتاين . كان لاسال مدركا تماما ان الوصي على العرش لن يقوم بالمهمة التي حددها له ، وهذا وحده هو الذي اعطاه الحق في تقديم اقتراح كان يتفق مع مصالح المانيا القومية ، حتى ولو تحول هذا الاقتراح في الحال الى تأنيب للحكومة . لقد كان لاسال محقا في اجتذاب الجماهير المهتاجة بعيدا عن السبيل الخاطىء بتبيان السبيل القويم لها .

غير ان لاسال بغض النظر عن الحجج التي اوردها في كتيبه كان مدفوعا «بدوافع سامية» ، كما شرح ذلك لماركس وانغلز في رسائله . فقد كان يعرف ان الوصي على العرش على وشك ان يدخل الحرب الايطالية الى جانب النمسا ، ولم يكن منزعجا كثيرا لذلك ، لانه افترض ان الحرب ستخاض بصورة سيئة ، وانها ستمكن الحركة الثورية من الاستفادة من الاوضاع المتغيرة التي لا بد ان تنجم عنها ، ولكن بشرط واحد هو ان تقنع الحركة القومية منذ البداية بأن حرب الوصي على العرش مسألة تخص العائلة المالكة وليس لها اي مبرر قومي . وكان لاسال يرى ان حربا غير شعبية ضد فرنسا ستكون «ضربة حظ» الى جانب الثورة ، بينما قد تؤدي حرب شعبية بقيادة الملكية الى كل النتائج المضادة للثورة التي وصفها في كتيبه وصفا فصيحا .

ولذا كان التكتيك الذي اقترحه انغلز في كتيبه غير مفهوم الى هذا القدر او ذاك من وجهة نظره . فقد اثبت انغلز بشكل واضح ان المانيا ، من وجهة النظر العسكرية ، لا تحتاج البو للدفاع عن نفسها ، ولكنه مع ذلك اكد ان البو يجب ان يحافظ عليه في حال نشوب الحرب ، اي ان الامة الالمانية ملزمة بواجب الدفاع عن النمسا ضد هجوم فرنسي . فبدا ذلك للاسال قابلا للنقاش الى حد بعيد ، ذلك انه كان من الواضح تماما ان اية هزيمة لهجوم بونابرت من جانب النمسا لا يمكن الا ان تكون لها نتائج مضادة للثورة . واذا نجحت النمسا ، تدعمها في ذلك الجامعة الالمانية ، فان من الواضح انه ليس هناك ما يمنعها من الاحتفاظ بسيطرتها على ايطاليا العليا ، وهذا ما شجبه انغلز بعنف . وبالاضافة الى ذلك ستقوى هيمنة آل هابسبرغ في المانيا وستحقن سياسات الجامعة الالمانية بدم جديد . وحتى لو افترضنا ان النمسا المنتصرة ستطيح بالمغتصب الفرنسي ، فانها لن تفعل ذلك الا لتستبدله بنظام حكم البوربون القديم ، وهذا امر لا يخدم لا المصالح الالمانية ولا المصالح الفرنسية ، هذا اذا ضربنا صفحا عن مصالح الثورة .

لكي يفهم المرء وجهة النظر التي قدمها ماركس وانغلز فان عليـه ان يدرك ان دوافعهما لم تكن تقل سموأ عن دوافع لاسال . وقد اتخذ كلاهما هذا الموقف للسبب ذاته ، وهو كما اشار انغلز في رسالة الى ماركس : «ان من المستحيل ان يدافع المرء في المانيا نفسها عن مصالح حزبنا سواء سياسيا ام سجاليا» . غير ان «الدوافع السامية» للصديقين في لندن ليست واضحة وضوح دوافع لاسال ، ذلك انه على الرغم من رسائله اليهما لا تزال موجودة ، فان رسائلهما اليه ليست كذلك ، ولكن مع ذلك يمكن التعرف على دوافعهما بخطوطها العامة من خلال نشاطاتهما الدعاوية العامة في ذلك الحين . ففي نشرة ثانية بعنوان «سافوي ونيس والراين» اصدرها انغلز بعد ذلك بسنة ضد اقتطاع بونابرت لسافوي ونيس ، نجده يصف بوضوح الموقف الذي كتب منه كتيبه الاول .

اولا وقبل كل شيء كان كل من ماركس وانغلز يعتقد ان الحركة القومية في المانيا حركة اصيلة حقا . وكانا يعتقدان انها تطورت «بصورة طبيعية وغريزية ومباشرة» وأنها كانت تعد بجرف الحكومات غير الراغبة معها . وأن السيطرة النمساوية على ايطاليا العليا والحركة الايطالية الاستقلالية ليسا معا مسألة تهم هذه الحركة القومية في الوقت الراهن . فما يهم هو ان غريزة الشعب طالبت بالحرب ضد لوي بونابرت بوصفه ممثل تقاليد الامبراطورية الفرنسية الاولى، وكانت هذه الغريزة على حق .

ثانيا افترض ماركس وانغلز ان المانيا مهددة حقا بالتحالف الفرنسي ـ الروسي. وقد بيّن ماركس في «نيويورك تريبيون» ان الوضع السياسي الداخلي في الامبراطورية الثانية قد وصل مرحلة حرجة ، وأنه لا يمكن الا لحرب اجنبية ان تطيل حياة الانقلاب في فرنسا وفي الوقت ذاته حياة الثورة المضادة في اوروبا . وكان ماركس يخشى ان يكون التحرير البونابرتي لايطاليا مجرد ذريعة لابقاء فرنسا نفسها رازحة في الاغلال ، ولاخضاع ايطاليا لنظام الانقلاب ونقل «الحدود الطبيعية» لفرنسا الى داخل المانيا وتحويل النمسا الى اداة في يد روسيا ودفع شعوب اوروبا الى حرب نيابة عن الثورة المضادة المشروعة وغير المشروعة . وكان يعتبر ، كما يبيّن انغلز في كتيبه الثاني ، ان حمل الجامعة الالمانية للسلاح نيابة عن النمسا سيكون اللحظة الحاسمة لروسيا كي تظهر على المسرح فتكسب ضفة الراين اليسرى لفرنسا مقابل اطلاق يدها في تركيا .

وفي النهاية ، افترض ماركس وانغلز ان الحكومات الالمانية ، وعلى الاخص مغروري برلين ، التي رحبت بفرح بصلح بازل الذي اعطى الضفة اليسرى للراين الى فرنسا ، والتي سرت سرا عندما هزم النمسويون في أولم واوسترليتز ، ستترك النمسا في موقف حرج . وكانا يريان ان الحكومات الالمانية بحاجة الى ان تدفع من جانب الحركة القومية ، وقد وصف انغلز في مقطع من رسالة بعثها الى لاسال ، واوردها هذا كاملة في رده ، ما الذي توقعاه بعد ذلك : «لتعش حرب نهاجم فيها من الفرنسيين والروس في وقت واحد ، ذلك ان وضعا يائسا كهذا تلوح فيه الكارثة في الافق سيدفع كل الاحزاب الى استنفاد نفسها ، وعندئذ ستلتفت الامة

في النهاية الى اكثر الاحزاب نشاطا كي يخلصها» . اجاب لاسال انه يوافق على ذلك تماما ، وأنه يبذل كل قواه في برلين كي يبرهن انه اذا اعلنت الحكومة البروسية الحرب ، فانها بذلك تخدم الثورة ، ولكن بشرط واحد هو ان يعتبر الشعب الحرب منذ البداية خطة مضادة للثورة وضعها «التحالف المقدس» . واذا انتهت الامور كما توقع انغلز فان نظام الجامعة الالمانية والسيطرة النمسوية على ايطاليا العليا ونظام الانقلاب الفرنسي ستدمر جميعا . لقد وجد لاسال انه لا يمكن فهم تكتيك انغلز الا من وجهة النظر هذه .

يبين كل هذا بوضوح انه لم تكن هناك خلافات اساسية في الراي بين المتنازعين، بل فقط «تقييمات متعاكسة لاوضاع معطاة» ، كما قال ماركس بعد ذلك بسنة . لم يكن هناك خلاف في الرأي بينهم لا في وجهات النظر الثورية ولا القومية . ذلك ان الهدف النهائي لهم جميعا كان انعتاق البروليتاريا ، والشرط الضروري بصورة مطلقة لتحقيق هذا الهدف هو تشكيل دول قومية كبيرة . وهم كألمان كانوا جميعا مهتمين بتحقيق الوحدة القومية الالمانية ، وكان الشرط الضروري بصورة مطلقةلذلك هو الغاء نظام السلالات المالكة المتعددة في المانيا . ولانهم جميعا كانت لهم مصالح قومية ، لم يدعم اي منهم الحكومات الالمانية وكانوا جميعا يتمنون هزيمتها . ولم يخطر ببال اي منهم ان على الطبقة العاملة في حالة نشوب حرب بين الحكومات ان تتخلى عن سياستها المستقلة الخاصة بها وتسلم مصيرها للطبقات الحاكمة ، فقد كانت روحهم القومية حقيقية ومتجذرة بعمق ، ولذا فلم يكونوا ليخدعوا بالشعارات الملكيـــة .

غير ان الوضع كان معقدا ، فقد بدأ تراث السنوات الثورية يصفي نفسه عبر التغيرات الملكية ، وأصبحت مسألة التوصل الى موقف صحيح في خضم هـــذا الخليط من الاهداف الرجعية والثورية مسألة حقائق اكثر منها مسألـــة مبادىء اساسية . لم توضع اي من وجهتي النظر موضع الاختبار ، ولكن التطور ذاته الذي منع ذلك يبين بوضوح كاف ان لاسال استطاع تقييم «الظروف المعطاة» بشكل ادق مما فعل ماركس وانغلز . كان على الصديقان ان يدفعا ثمن فقدانهما للصلة بالاوضاع في المانيا طوال هذه المدة الكبيرة . لقد اعطيا تقديرا مبالغا فيه ان لم يكن لشهوة القيصرية الى الغزو فعلى الاقل للامكانات العملية التي تستطيع بها اشباع هـــذه الشهوة . وقد يكون لاسال مبالغا حين قال ان الحركة القومية في المانيا لم تكن تعود لشيء غير الكراهية التقليدية لفرنسا ، ولكن على اية حال لم تكن الحركة ثورية بالتأكيد ، كما اثبت ذلك النتاج المزري لاعمالها ـ الجهيض المعروف باسم الجمعية الوطنية الالمانية .

ولربما كان لاسال قد قلل من اهمية الخطر الروسي ، فهو يعامله في كتيبه كمسألة ذات اهمية ثانوية . ولكن على اية حال لم يكن هذا الخطر ماثلا ، كما بان عندما عمد الوصي على عرش بروسيا ، تماما كما تنبأ لاسال ، الى اعلان التعبئة في الجيش البروسي ودعا الجامعة الالمانية الى تعبئة قوات الدول الاصغر ايضا . فقد اثبتت هذه التظاهرة العسكرية انها كافية لان تجعل بونابرت المزيف والقيصر يأخذان

موقفا يقوم على التهدئة . وفي الحال ظهر جنرال روســـي في مقر قيادة الجيش الالماني ، وشجع بونابرت على عرض السلام على امبراطورية النمسا المهزومة ، ففعل بونابرت ذلك وتخلى عن نصف برنامجه الرسمي ، موافقا على ان يقنع لنفســـه بلمبارديا ، بينما ظلت مقاطعة البندقية تحت السيطرة النمسوية . لم يكن بونابرت في موقف يستطيع معه شن حرب اوروبية وحده ، ووقفت في وجه روسيا المتاعب في بولندا والصعوبات التي كانت تعاني منها في مسألة تحرير الاقنان والضربات التي كانت قد تلقتها في حرب القرم ، تلك الضربات التي لم تكن قد شفيت مـن آثارها بعد .

وفي الوقت ذاته سوى صلح «فيلا فرانكا» النزاع حول التكتيك الثوري تجاه الحرب الايطالية ، ولكن لاسال ظل يعود المرة تلو الاخرى الى المسألة في رسائله الى ماركس وانغلز ، ويصر على انه كان محقا وعلى ان سير الاحداث اثبت صحة وجهات نظره . وبما اننا لا نملك ردود ماركس وانغلز عليه ، وأيضا بما انهما لم يضعا وجهات نظرهما في بيان كما كانا ينويان ، فان من المستحيل ان يزن المرء الحجج والحجج المعاكسة . غير ان لاسال كان يستطيع ان يشير عن حق الى الخط الذي سارت به الاحداث في الواقع ، الى التطـــور الواقعي لحركة الوحدة الايطالية ، والغـــاء السلالات المالكة في ايطاليا الوسطى بفعل ثورة «رعاياها» الذين اسيئت معاملتهم ، وغزو غريبالدي ومتطوعين لصقليا ونابلولي ، والعصا الكبيرة التي وضعها كل ذلك في عجلة بونابرت ، مما حطم كل خططه . ولكن كانت السلالة المالكة في سافوي هي التي جنت في نهاية الامر الثمر .

تفاقم النزاع لسوء الحظ بسبب عدم قدرة ماركس على التغلب على شكـــه بلاسال ، على الرغم من انه كان يتوق بصدق الى كسبه تماما ، معلنا انه « رجل نشيط» لا يمكن ان يساير الحزب البرجوازي . وعلى الرغم من ان كتابه «هيرقليط» كان خاما قليلا ، الا انه كان افضل من اي شيء يتفاخر به الديمقراطيون . ولكن على الرغم من ان لاسال كان باستمرار يتقدم الى ماركس بقلب مفتوح ويد ممدودة ، الا ان ماركس كان يشعر دوما ان الدبلوماسية ضرورية في تعامله معه . وقد قال ان «الادارة الذكية» ضرورية لابقاء لاسال وفق ما يرام ، وكان اقل حادث كافيا لبعث الشكوك القديمة في نفس ماركس من جديد .

فمثلا جدد فريدلاندر عرضه بأن يكتب ماركس الى «داي برس» في فيينا . ومرة اخرى جاء العرض عبر لاسال ، وبدون شروط هذه المرة . لكن فريدلاندر صرف النظر عن ذلك في النهاية ، فما كان من ماركس الا ان شك فورا في ان لاسال تعمد افساد الامر . وأيضا عندما تأخر طبـــع كتاب ماركس في الاقتصاد السياسي من بداية شباط الى نهاية ايار ، كان ماركس متأكدا ان هذه واحدة اخرى من «الاعيب» لاسال ووعد انه لن ينسى ذلك ابدا . وفي الواقع كان السبب الوحيد للتأخير هو الناشر البطيء ، الذي كان له عذر جيد في ذلك ، اذ اشار انه قد أجل الطبع كي يصدر كتيبي انغلز ولاسال اللذين كانا اكثر الحاحا لانهما يعالجـــان مسائل راهنة .

٣ ـ صراعات جديدة في المنفى

جدد الطابع الغامض للحرب الايطالية العداوات القديمة في صفوف المنفيين وسبب تشوشا جديدا بينهم .

فبينما كان اللاجئون الفرنسيون والايطاليون يعارضون خلط الحركة الايطالية الاستقلالية بنظام الانقلاب في فرنسا ، كان كثيرون من اللاجئين الالمان تواقين الى تكرار الحماقة التي كانت قد كلفتهم عشر سنوات من الابعاد . غير انهم كانوا بعيدين جدا عن وجهة نظر لاسال ، بل انهم كانوا يقفون باصرار الى جانب «الحقبة الجديدة» التي كانوا يعتقدون ان أفضال الوصي على العرش قد افتتحتها في المانيا ، والتي كانوا يأملون في ان يكون لهم منها نصيب . لقد كانوا كما قال فريليغارث باحتقار يتحرقون رغبة في العفو عنهم ويتوقون الى القيام بأي عمل وطني لو ان «صاحب السمو الملكي» يحقق نبوءة كنكل ويستل السيف ليقيم به الوحدة الالمانية .

قفز كنكل هذا الى حلبة الصراع وجعل من نفسه الناطق باسم هذه النزعة . وفي الاول من كانون الثاني ١٨٥٩ ، بدأ اصدار مجلة اسبوعيـــة هي «هيرمان» (المحارب) التي كان اسمها العتيق يكشف فورا عن الافكار التي تبشر بها . وعلى حد تعبير فريليغارث ثانية ، اصبحت المجلة في الحال المجلة المفضلة لكل اولئك «الابطال المرضى بالحنين الى الوطن» الذين كانوا يرتعدون بنفاد صبر وينتظرون تلقي السماح لهم بالاندفاع الى «ليبيرالية العنابر العسكرية» التي كانت تسود المانيا في ذلـك الحين . ولكنها لهذا السبب بالذات اصبحت مجلة شعبية جدا ، لدرجة انها قتلت «داي نيو زايت» وهي صحيفة عمالية صغيرة كان يصدرها ادغار باور نيابة عن رابطة العمال التثقيفية . فقد كانت «داي نيو زايت» تعيش بصورة رئيسية على الديون التي كان يمنحها لها صاحب المطبعة التي تطبع فيها ، فكان من الطبيعي ان يذهب ذلك عندما عرض كنكل على صاحب المطبعة عرضا مربحا اكثر وموثوقا اكثر هو ان يطبع «در هيرمان» . غير ان حيلة كنكل القذرة لم تلق قبولا اجماعيا حتى بين اللاجئين البورجوازيين ، حتى ان فوشر داعية التجارة الحرة شكل لجنـــة تمويلية لانقاذ «داي نيو زايت» . ونجحت هذه الجهود ، فاستمرت «داي نيو زايت» في العيش تحت اسم جديد هو «داس فولك» ، ورئس تحريرها ايلارد بسكامب ، الذي كان لاجئا من هس ، وكان قد ساهم في داي نيو زايت من المقاطعات ، ولكنه الان تخلى عن وظيفته كمعلم ليكرس وقته كله للصحيفة .

بعد ذلك بقليل ، اصطحب ليبكنشت ايلارد لزيارة ماركس في محاولة لاقناعه بالمساهمة في الصحيفة . وكان ماركس قد قطع علاقاته مع رابطة العمال التثقيفية منذ نزاع عام ١٨٥٠ ، حتى انه عبر عن استيائه عندما اعاد ليبكنشت علاقاته مع الرابطة ، مع ان حجة ليبكنشت في ان حزب عمال دون عمال امر متناقض في حد ذاته كان فيها الكثير من الصحة . غير انه ليس من الصعب ان يفهم المرء ان ماركس لم ينجح في التغلب على ذكرياته غير السارة فورا ، و«أذهل وفدا من الرابطة عندما قال لهم انه وانغلز لم يتسلما تفويضا بتمثيل الحزب البروليتاري من احد غـــير

نفسيهما ، وأن ذلك ما اكدته الكراهية العامة الشاملة التي خصتهما بها احزاب العالم القديمة» .

لم يكن ماركس في البداية متعاطفا مع الطلب كثيرا ، ولكنه ادرك انه لا يمكن السماح لكنكل بأن يرتب الامور على هواه ، ولذا فقد وافق على ان يساعد ليبكنشت بسكامب في تحرير الصحيفة ، على الرغم من انه رفض ان يساهم في صحيفة صغيرة بنفسه ، او في الواقع في اي صحيفة حزبية لا يحررها هو وانغلز . غير انه وعد مع ذلك بالمساعدة على توزيع الصحيفة ، كما وعد بان يضع المقالات المطبوعة في «نيويورك تريبيون» تحت تصرفها وأن يساعد محرريها بالاقتراحات والملاحظات الشفوية والمكتوبة . وكتب ماركس الى انغلز يقول انه يعتبر داس فولك «صحيفة حائط» مثل صحيفة «فوروارتس» في باريس ومثل «دويتشه بروسللر تزايتنغ»، ولكن قد يأتي الوقت الذي يصبح من المفيد فيه ان يجدا تحت تصرفهما صحيفة في لندن ، كما ان بسكامب يستحق الدعم ، لانه في نهاية الامر يعمل بدون مقابل .

وعندما بدات «صحيفة الحائط» تضايق كنكل ، كانت روح ماركس القتالية اكبر من ان تبقيه بعيدا عن الصراع ، فرمى بثقله الى جانبها بكل اندفاع . وصرف الكثير من الوقت والجهد كي ينقذها من الغرق ، ولم يفعل ذلك بمساهماته التي لم تكن تتعدى حسب روايته بضع ملاحظات قصيرة ، بل بجهوده لتزويد الصحيفة التي كانت تصدر في اربع صفحات من القطع الكبير ، بوسائل عيش الكفاف على الاقل . فعبأ اعضاء حزبه وانصاره الذين يستطيعون ان يوفروا بعض النقود ، وخاصة انغلز الذي كان بالاضافة الى ذلك يدعم الصحيفة بقلمه ، اذ كتب فيها مقالات عسكرية فنية حول الحرب الايطالية ونقدا قيما لكتاب صديقه العلمي الذي صدر حديثا ، على الرغم من ان المقالتين الثالثة والرابعة من هذه المراجعة لم تنشرا ابدا لان الصحيفة لم تعد تستطيع الصدور في نهاية آب . وكان من احدى النتائج العملية لجهود ماركس في الابقاء على الصحيفة حية هي ان صاحب المطبعة التي كانت تطبعها اعتبره مسؤولا عن المبلغ الذي كانت مدينة له به . كان ذلك مجحفا بالطبع، ولكن «بالنظر الى ان عصابة كينكل كلها تنتظر فرصة لاثارة فضيحة عامة ، ولأن الكثيرين من المرتبطين بالمسألة لا يستطيعون مواجهة المحكمة» سوّى ماركس الدين بدفع مبلغ خمسة جنيهات .

وكان هناك امر اخر اورثته اياه «داس فولك» وسبب له قدرا اكبر من التضحيات والمتاعب . ففي ١ نيسان ١٨٥٩ ، ارسل كارل فوخت ، الذي كان يعيش في جنيف ، برنامجا للاشتراكية الديمقراطية الالمانية تجاه الحرب الايطالية الى عدد من اللاجئين الالمان في لندن ، ومن بينهم فريليغارث ، طالبا في الوقت ذاته ان يتعاونوا معه على اصدار مجلة اسبوعية في سويسرا تتبنى روح البرنامج . كان فوخت ابن اخ الاخوين فولن ، اللذين لعبا دورا بارزا في حركة «بورشن شافتن» ، كما كان ، مع روبرت بلوم ، واحدا من قادة الجناح اليساري في جمعية فرانكفورت ، وفي الواقع كان من آخر القرارات التي اصدرها البرلمان المحتضر تعيين فوخت واحدا من الاوصياء الخمسة على الرايخ . وعندما ارسل برنامجه السياسي ، كان قد

اصبح استاذا للجيولوجيا ، وكان يمثل جنيف في البرلمان السويسري الى جانب فازي الذي كان قائد الراديكاليين في جنيف . حافظ فوخت على ذكراه حية في المانيا بتحريضه النشيط لصالح مادية تقوم على العلم الطبيعي ، ذلك الشكل المحدود من المادية الذي يقع في افدح الاخطاء لحظة ان يغامر بالدخول الى الحقل التاريخي . وكان ينشر آراءه بطريقة وصفها روغه عن حق بانها «خام كطريقة طلاب المدارس»،كما كان يسعى الى الاستيلاء على مخيلة الفلسطينيين بجمل ساخرة، ومن اشهر هذه الجمل قوله «علاقة الافكار بالعقل هي ذاتها علاقة الصفراء بالكبد والبول بالكلية» . لكن هذه الجمل كانت اكبر من ان يبتلعها حتى أصلب انصار فوخت ، لودفيغ بوخنر ، فكف عن هذا النوع من «العمل التثقيفي» .

اتصل فريليغارث بماركس للحصول على تقييمه للبرنامج ، فتلقى الجواب اللاذع : «كلام فارغ» ، ولكن ماركس عالج البرنامج بقدر اكبر من التفصيل في رسالة بعث بها الى انغلز : «تتخلى المانيا عن ممتلكاتها غير الالمانية ، لا تدعم المانيا النمسا . الطغيان الفرنسي مؤقت ، اما الطغيان النمسوي فدائم . يسمح للطاغيتين ان يتقاتلا حتى يفنيا بعضهما (وبذلك تبدو نزعة الى جانب بونابرت الى حد ما) . الحياد المسلح لالمانيا. لا يمكن التفكير بحركة ثورية في المانيا طيلة حياتنا (كما علم فوخت من اوثق المصادر) . بالتالي يدمر بونابرت النمسا فورا ، ويبدأ تطور ليبرالي – قومي معتدل في الوطن تحت رعاية الوصي على العرش ، حتى ان فوخت يمكن ان يصبح مستشار البلاط» . اصبح الشك الذي تبديه هذه الرسالة بأن فوخت يتعاطف مع بونابرت حقيقة مؤكدة ، عندما كتب فوخت ، رغم انه لم يصدر مجلته الاسبوعية ، عددا من الدراسات حول الوضع الاوروبي تكشف بوضوح علاقته الفكرية بالشعارات البونابرتية . ارسل فوخت برنامجه كذلك الى كارل بلايند ، وهو لاجىء من بادن كان على علاقة ودية مع ماركس منذ السنوات الثورية ونشر مقالة في «نيو راينيخه رفيو» ، ولكنه لم يكن يوما من حلقة الاصدقاء والانصار السياسيين المقربين الى ماركس . وفي الواقع كان بلايند واحدا من اولئك الوطنيين المحليين المنتفخين زهواً والجمهوريين الذين يعتبرون بلدتهم الصغيرة بادن مركز الكون ، والذين كثيرا ما كان موضع هزء وسخرية انغلز ، الذي كان يجد ان آراء هؤلاء «السياسيين» تتمخض رغم كل عظمتها ورفعتها عن مجرد اعجاب بالغ بذواتهم . اتصل بلايند بماركس واخبره ان فوخت يتلقى الاموال من بونابرت وأنه يستطيع ان يقدم البراهين على هذه النشاطات الخؤون . واضاف ان فوخت حاول رشوة صاحب مطبعة الماني جنوبي كما قام بمحاولات رشوة في لندن . وأضاف ان مؤتمرا عقد في صيف عام ١٨٥٨ في جنيف بين فازي واصدقائه والامير جيروم بونابرت لبحث الحرب الايطالية ، وأن المؤتمر قرر انه يجب ان ينصَّب الدوق الاكبر الروسي قسطنطين ملكا على المجر .

ذكر ماركس هذه الاقوال لبسكامب عندما زاره هذا ليبحث امر «داس فولك» مضيفا ان احدى نقاط ضعف الالمان الجنوبيين هي انهم يميلون الى المبالغة . وبدون ان يحصل على اذن من ماركس ، استخدم بسكامب بعض هذه المعلومات في مقالة

ساخرة في «داس فولك» شجب فيها «الوصي على الرايخ» واصفا اياه بأنه «خائن للرايخ» وأرسل نسخة من الصحيفة التي ظهرت فيها المقالة الى فوخت . فما كان من هذا الاخير الا ان اجاب على الهجوم في صحيفة بايلر هاندلسكوريير «محذرا» العمال من «زمرة من اللاجئين» عرفوا فيما مضى في المنفى السويسري بأوصاف مقذعة منها «المتشردون» ، وقال ان هذه الزمرة تجمعت في لندن بقيادة رئيسها ماركس لتحيك المؤامرات بين العمال الالمان، تلك المؤامرات التي يعرفعنها البوليس الاوروبي منذ البداية والتي توقع العمال في المصيدة . لم يسمح ماركس لهذا «الهجوم القذر» بأن ينغص عليه كثيرا وقنع بأن يبدي احتقاره له في «داس فولك».

وفي بداية حزيران ذهب ماركس الى مانشستر ليجمع نقودا من اصدقائه المتعاطفين معه لدعم «داس فولك» . وخلال غيابه اكتشف ليبكنشت مسودة كتب يهاجم فوخت ويحتوي على المعلومات التي ادلى بها بلايند . وعلم ان بلايند نفسه هو الذي اودع مخطوطة الكتيب في المطبعة ، وانه صحح النسخة الطباعية الاولى بخط يده . وبعد ذلك ببضعة ايام تسلم ليبكنشت نسخة من الكتيب مطبوعة ، فأرسلها الى «الغماينه تزايتونغ» في اوغسبرغ ، التي كان مراسلها منذ عدة سنوات . وارسل مع الكتيب رسالة يخبر رئيس التحرير فيها ان الكتيب من وضع لاجيء الماني شهير وأن الاتهامات الواردة فيه يمكن البرهنة عليها .

نشرت «الغماينه تزايتونغ» المواد ، فما كان من فوخت الا ان قاضاها بتهمة القذف والتشهير ، وعند ذلك طلبت الصحيفة من ليبكنشت ان يزودها بالبراهين الموعودة . فاتصل ليبكنشت بدوره ببلاند ، ولكن هذا اعلن ان لا علاقة له بمتاعب «الغماينه تزايتونغ» ، حتى انه انكر ان يكون مؤلف الكتيب ، ولكنه اضطر الى الاعتراف بأنه ادلى لماركس بالمعلومات الواردة فيه ، وانه هو نفسه سبق أن نشر بعضها في صحيفة «ذي فري برس» . بالطبع لم يكن ماركس يتحمل اية مسؤولية تجاه الامر ، واعتقد ليبكنشت ان ماركس سيتنصل من كل علاقة بالموضوع ، لكن ماركس رأى ان من واجبه ان يفعل كل شيء ممكن لتعرية فوخت خاصة وأن فوخت ورطه في المسألة دون اي مبرر . ولكن جهوده للحصول على اعتراف من بلايند بأنه مؤلف الكتاب لم تنجح بسبب عناد بلايند ، فكان عليه ان يقنع ببيان مكتوب من صاحب المطبعة يفيد بأن المخطوطة الاصلية كانت بخط يد بلايند الذي يألفه تماما وان الكتيب قد طبع في مطابعه . لكن هذا بالطبع لم يكن ليبرهن شيئا ضد فوخت.

وقبل ان تعرض القضية على المحكمة في اوغسبرغ ، بدات الاستعدادات لاحتفالات شيلر ، التي كانت ستجري في ١٠ تشرين الثاني ١٨٥٩ بمناسبة العيد المئوي للشاعر الكبير ، فأدت الى نزاع جديد في صفوف المنفيين في لندن . كان الالمان جميعا ، على حد قول لاسال ، يحتفلون بهذا اليوم في الوطن والخارج كدليل على «الوحدة الثقافية» للشعب الالماني «وكوعد مأمول بالبعث القومي» . أعدت الاحتفالات في لندن ايضا وتقرر ان يعقد اجتماع كبير في كريستال بالاس تخصص عائداته لتأسيس المعهد التذكاري لشيلر بالاضافة الى مكتبة ودورة من المحاضرات تبدأ سنويا في عيد ميلاد الشاعر . غير ان جناح كنكل نجح لسوء الحظ في

السيطرة على الاستعدادات واستغلها بأبشع وأحقر طريقة لمصالحه الخاصة الضيقة. فقام بدعوة احد رسميي السفارة البروسية بلندن ليشرف الاحتفالات بحضوره ، على الرغم من ان الرجل كان قد احرز شهرة لا يحسد عليها ايام محاكمة الشيوعيين في كولون ، وفي الوقت ذاته فعل هذا الجناح ما وسعه من جهد كي يبعد العناصر البروليتارية عن الاجتماع . وقام رجل يدعى بدزيش ، كان يكتب باسم فيينا ، ويلعب دور الوجه الادبي لجماعة كنكل فاطنب لهذا الاخير قصائد المديح المثيرة للتقزز على صفحات «داي غارتنلوب» ، شاتما في الوقت ذاته اعضاء رابطة العمال التثقيفية الذين كانوا ينوون الاشتراك في الاحتفالات .

في ظل هذه الظروف فوجيء ماركس وانغلز عندما وافق فريليغارث على حضور الاحتفالات والقاء قصيدة بعد ان يلقي كنكل افتتاح الخطاب الرئيسي . حذر ماركس صديقه من ان يشارك بأي شكل فيما وصفه ب «تظاهرة كنكل» ، فاعترف فريليغارث ان له شكوكه حول الامر وأن الاحتفالات ربما كانت تستغل لدغدغة غرور كنكل الشخصي ، ولكنه مع ذلك يعتقد انه لا يستطيع كشاعر الماني ان يتغيب عن الاحتفالات ، وأنه حتى لو كانت جماعة كنكل تحاول اساءة استخدام المسألة لاغراضها الخاصة ، فان ذلك ليس هدف الاجتماع . غير ان عددا من « الحوادث الغريبة» حدث خلال التحضيرات الاولية ، مما جعل فريليغارث (رغم ميله الشديد لرؤية افضل ما في الناس والاشياء من افضل الزوايا الممكنة) يشعر ان ماركس يمكن ان يكون على حق ، ومع ذلك صمم على الاستمرار لانه اعتقد انه يستطيع بحضوره ان يقف ضد «بعض النوايا» اكثر مما يستطيع ذلك بغيابه .

لم يوافق ماركس على ذلك ، وذهب انغلز في معارضته له ابعد من ماركس ، فعبر عن مشاعره بكلمات غاضبة حول «غرور فريليغارث الشعري وطريقته في ابراز نفسه ، مقترنة بتملقه» ، على الرغم من ان هذا القول كان فيه الكثير من التجني . وعندما حدثت احتفال شيلر في النهاية ثبت ان فيه اكثر من الاحتفالات المصطنعة التي اعتاد الجهلة الادعياء الالمان اقامتها في ذكرى المفكرين والشعراء العظام ، ووجد الاحتفال صدى له حتى في صفوف الجناح اليساري الاكثر تطرفا .

وعندما شكا ماركس فريليغارث للاسال ، رد لاسال : «ربما كان من الافضل له لو لم يحضر الاجتماع ، ولكن على اية حال كانت القصيدة التي نظمها جيدة . بل انها كانت افضل ما ظهر في هذه الاحتفالات» . وفي زيورخ نظم هيرويغ قصيدة خاصة بالمناسبة ، اما في باريس فقد القى شيلي الكلمة الرئيسية . وفي لندن شاركت رابطة العمال التثقيفية في اجتماع كريستال بالاس بعد ان أراحت ضميرها باقامة احتفال تذكاري خاص لروبرت بلوم في اليوم السابق تحدث فيه ليبكنشت. وفي مانشستر نظم الاحتفالات شاعر شاب يدعى سيبل وهو يمت بصلة قرابة بعيدة الى انغلز ، ولم ير انغلز ما يثير معارضته في نشاطات هذا الرجل . كتب انغلز لماركس معلنا ان لا علاقة له بالمسألة وأن سيبل ينوي ان يلقي خطاب الافتتاح «النوع المعتاد من الخطابات بالطبع ولكنه مشرف تماما . كما انه ينظم عرضا لمسرحية معسكر فالنشتاين . وقد شاهدت اثنين من التمارين ، واعتقد انها ستنجح اذا

استطاعوا استجماع قدر كاف من الجهد» وفيما بعد اصبح انغلز رئيسا لمعهد شيلر التذكاري الذي انشيء في مانشستر خلال الاحتفالات هناك ، وخصه فلهلم وولف بمبلغ لا بأس به من المال في وصيته .

بينما كان ذلك كله يجري ويتنامى قدر معين من التوتر بين ماركس وفريليغارث، انعقدت محكمة اوغسبرغ لتنظر في دعوى فوخت ضد «الغماينـــه تزايتونغ» . فرفضت المحكمة الدعوى وحملت نفقاتها للمدعي ، لكن هزيمة المدعي القانونية كانت نصرا اخلاقيا له . اذ لم يستطع محررو وناشرو «الغماينه تزايتونغ» المدعى عليهم ان يقدموا اي دليل يدعم اتهاماتهم ضد فوخت ، فقنعوا بدفاع وصفه ماركس وصفا ملطفا بأنه «رياء بفيض سياسيا». وفي الواقع، كان موقفهم يستحق اقسى الشجب، لا سياسيا فحسب بل واخلاقيا كذلك ، اذ كانت حجته الاساسية هي ان الشرف الشخصي لمنفي امر غير ذي بال . فقد تساءل الدفاع : كيف يمكن لقضاة بافاريين ان يصدروا حكما لمصلحة رجل هاجم الحكومة البافارية بعنف واضطر الى العيش في الخارج بسبب نشاطاته السياسية ؟ واذا اصدرت المحكمة حكما ضد المدعـــى عليهم ، فان كل العناصر الاشتراكية الديمقراطية ستهتز فرحا ، تلك التي سعت في البداية الى تحقيق احلامها بالحرية قبل ذلك بأحد عشر عاما بقتل الجنرالات لاتور وغاغرن واورزوالد والأمير لشنوسفكي . واذا ربح فوخت قضية فليس هناك ما يمنع من ان يظهر كلابكا وكسوث وويلسكي وماتزيني امام المحكمة ليطالبوا باصدار حكم ضد خصومهم السياسيين .

تأثر القضاة بهذا الدفاع ، على الرغم من خبثه وحقارته ، او ربما بسبب هذا الخبث وتلك الحقارة . غير ان ضمائر القضاة لم تكن مطاطة بما فيه الكفاية لتسمح لهم ان يصدروا حكما لصالح متهمين فشلوا تماما في اثبات اتهاماتهم ، ولكن هذه الضمائر لم تكن كذلك قوية كفاية كي تجعلهم يعدلون تجاه رجل تكرهه الحكومـــة البافارية والشعب البافاري . فما كان من المدعي العام الا ان وجد حلا للمشكلة امسك به القضاة بشوق، وحولوا القضية الى محلفين منتحلين لذلك أعذارا شكلية. كان ذلك يعني الهزيمة المؤكدة الكاملة لفوخت لأن محاكمة كهذه لا تطلب اية أدلـة لاثبات حقيقة الاتهامات ضده، ولأن المحلفين لا يطلب منهم تقديم اي اسباب لقرارهم.

لم يتابع فوخت التحدي اليائس ، وهو لا يلام على ذلك . ولكن على اية حال لم يكن وضعه سيئا ، ذلك انه اصبح الان يستطيع ادعاء شهادة مزدوجة : اتهـم ظلما ولم يستطع متهموه اثبات اتهاماتهم ضده ، وليس ذلك فحسب بل ان المحاكم رفضت ان تمنحه العدل . كما ان حادثة او اثنتين رافقتا المحكمة جعلت انتصاره اعظم، فمثلا دهش الرأي العام عندما قرئت في المحكمة رسالة بسكامب الى «الغماينه تزايتونغ» . فقد كان بسكامب المتهم الرئيسي لفوخت ، ولكنه اعترف في رسالته بأنه لا يملك براهين على اتهاماته ، وعمد بدلا من ذلك الى تقديم عدة افتراضات غامضة ، ثم انتهى الى الطلب من «الغماينه تزايتونغ» ان تنظر في امر تعيينه مراسلا لها في لندن بالاضافة الى ليبكنشت ، بالنظر الى ان داس فولك ستتوقف عـــن الصدور . استمرت «الغماينه تزايتونغ» ، حتى بعد المحاكمة في تهجماتها الغامضة

على فوخت معلنة ان جماعته ذاتهم ، ماركس وفريليغارث ، قد شجبوه ، والكل يعلم ان ماركس مفكر اعمق والمع من فوخت كما ان فريليغارث يتفوق عليه فيما يتعلق بالاخلاقية السياسية .

كان الدفاع قد تقدم من المحكمة بشهادة مكتوبة ادلى بها المحرر الصحفي كولب واعلن فيها ان فريليغارث يساهم في «داس فولك» وانه واحد ممن يتهمون فوخت. وكانت هذه الشهادةمبنية في الواقع عن سوء تفاهم نجم عن احدى رسائل ليبكنشت التي لم يوضح نفسه فيها . وعندما وصل تقرير «الغماينه تزايتونغ» حول المحاكمة الى لندن ، ارسل فريليغارث فورا بيانا قصيرا يقول فيه انه لم يكن ممن ساهموا في «داس فولك» ابدا وان اسمه قد استخدم ضد فوخت دون علم او اذن منه . ولما كان فوخت وفازي صديقين حميمين وكان عمل فريليغارث في البنك السويسري يعتمد على فازي ، فسر هذا العمل من جانب فريليغارث تفسيرات مسيئة . لم تكن هذه التفسيرات بالطبع مبررة الا اذا كان من واجب فريليغارث ان يهاجم فوخت علنا ، ولكن الامر لم يكن كذلك . اذ لم يكن لفريليغارث اية علاقة بالمسألة ، وكان من حقه ان يحتج ضد استخدامكولب لاسمه ملجأ له عندما بدات الامور تسوء . غير ان الصيغة الحادة اللاذعة التي صاغ بها فريليغارث بيانه فتحت الباب أمام احتمال تفسيره بأنه تنكر لماركس ايضا ، ووجد ماركس ان من الغريب ان لا يحتوي البيان على ادنى اشارة يمكن ان تصحح الانطباع بانه قصد بالبيان ان يكون انشقاقا شخصيا عن ماركس وتنصلا علنيا من الحزب . ولربما كانت صياغة بيان فريليغارث تعود الى ضيق شعر به لأن ماركس اراد ان يمنعه باسم الحزب من نشر قصيدة لا ضرر فيها تمتدح شيلر ، بينما كان يتوقع منه هو ان يقف الى جانب ماركس عندما يبدأ هذا الاخير شجارا لا ضرورة له .

ساءت الامور اكثر عندما نشر بلايند تصريحا في «الغماينه تزايتونغ» يشجب فيه سياسة فوخت بلا تحفظ ، ويعلن في الوقت ذاته ان الادعاء بأنه هو الذي كتب الكتيب ضد فوخت كذبة متعمدة .

تفاقمت الخلافات بين ماركس وفريليغارث نتيجة حادث مشؤوم ، فقد نشر بيتا ، داعية كنكل الادبي ، مقالة في «داي غارتنلو» يمتدح فيها الشاعر فريليغارث ويرفعه الى السماء ينتهي بهجوم مقذع على ماركس ، اذ وصفه بأنه حقود ينشر الكراهية السامة ، وانه سلب فريليغارث قدرته الغنائية وحريته وشخصيته ، ومنذ ان وقع الشاعر في شبكة ماركس لم يغن الا قليلا .

غير ان الامور بدت وكأنها سويت بين ماركس وفريليغارث بعد رسالة او اثنتين حادتين متبادلتين . كما بدا انها دفنت مع عام ١٨٥٩ الى ان انسحبت على العام الجديد بسبب فوخت الذي فعل كل ما بوسعه ليثبت صحة المثل القائل : عندما يشعر الحمار بالاستقرار ، فانه يغامر بالمشي على جليد زلق .

٤ ـ فصول اضافية

في رأس سنة عام ١٨٦٠ نشر فوخت كتابا بعنوان «قضيتي ضد الغماينـــه تزايتونغ» . احتوى الكتاب تقريرا عن محاضر جلسات المحكمة ونسخا عن كـــل الشهادات المكتوبة والوثائق التي تتعلق بالقضية ، وقد اوردت هذه الوثائق كاملة وبدقة تامة .

عدا ذلك احتوى الكتاب على تكرار مفصل للهراء القديم عن «المتشردين» ، الذي كان فوخت قد نشره سابقا في «بايلرهاندلسكوريير» . فوصف ماركس بأنه قائد عصابة ممن يمارسون الابتزاز ، ويعيشون على «تهديد اناس في الوطن» مضطرين لشراء سكوت العصابة . وقال «لقد ارسلت مئات الرسائل الى اناس في الوطـن تهددهم بشجب اشتراكهم في هذا النشاط الثوري او ذاك ، الا اذا أرسل مبلغ معين من المال الى عنوان محدد بتاريخ محدد» . كانت هذه اسوأ فرية افتراها كتاب فوخت على ماركس ، ولكنها لم تكن الوحيدة ، وعلى الرغم من ان رواية فوخت كانت مزورة تماما ، الا انها كانت ممزوجة بأنواع مختلفة من انصاف الحقائق المتعلقة بالحياة في المنفى ، لدرجة ان ادراك كذبها فورا كان يتطلب معرفة دقيقة بالتفاصيل. وبالطبع كان الجهلة الادعياء الالمان آخر من يمكن ان يملك معرفة مفصلة كهذه .

لذلك اثار الكتاب اصداء واسعة في المانيا ورحبت به الصحافة الليبرالية بحماس، فقامت «ناشونال تزايتونغ» بنشر مقالتين رئيسيتين طويلتين على اساس اقوال فوخت . وعندما وصلت نسخة من الصحيفة الى لندن نحو نهاية كانون الثاني ، احدثت هياجا بالغا في بيت ماركس ، وتأثرت السيدة ماركس على وجه الخصوص تأثرا عميقا ، وحين لم يستطع ماركس الحصول على نسخة من الكتاب في لندن ، سارع الى سؤال فريليغارث عما اذا كان قد تلقى نسخة منه من «صديقه» فوخت. شعر فريليغارث بالاهانة البالغة لذلك وأجاب ان فوخت ليس صديقه وأنه لم يتسلم نسخة من الكتاب .

وعلى الرغم من ان ماركس كان على الدوام لا يعير كبير اهتمام للاجابة علـــى التهجمات البذيئة مهما بلغت بها الخسة ، الا انه ادرك هذه المرة ان الرد ضروري بصورة مطلقة ، فقرر حتى قبل ان يصل كتاب فوخت الى لندن ان يقاضي ناشونال تزايتونغ بتهمة القدح والتشهير . فقد اتهمته الصحيفة بعدد من الاعمال الاجرامية المشينة امام جمهور يجعله تحامله السياسي ميالا الى تصديق اي شيء ضده مهما بدا بشعا ، مع ان هذا الجمهور لا يملك اية حقائق يمكن ان يقيم بها سلوكـــه الشخصي ، وذلك بسبب غيابه عن المانيا طيلة احد عشر عاما . شعر ماركس ان عليه بغض النظر عن الاعتبارات السياسية ان يقاضي «ناشونال تزايتونغ» من اجل زوجته وأولاده ، ولكنه احتفظ لنفسه بمتعة اعداد رد ادبي على فوخت . مضى ماركس ، باديء ذي بدء الى تسوية الامر مع بلايند ، مفترضا انه يملك ادلة ضد فوخت ولكنه غير راغب في ابرازها ، بسبب الاعتبارات الشخصية التي يدين بها ديمقراطي مبتذل لآخر . يبدو ان ماركس كان على خطأ ، ولربما اقترب انغلز من

الحقيقة اكثر عندما قال ان بلايند اختلق تفاصيل محاولات الرشوة التي اتهم بها فوخت كي يجعل من نفسه شخصا مهما ، ولكنه عندما تعقدت المسألة قرر ان ينكر كل شيء على الاطلاق ، مما اوقعه في التناقض اكثر فأكثر . وفي ٤ شباط نشر ماركس بيانا بالانجليزية في «ذي فري برس» قال فيه ان كارل بلايند كاذب حين انكر نسبة الكتيب اليه ، مضيفا انه اذا كان يشعر ان في هذا البيان الحاق للضرر به ، فان عليه ان يتقدم بالامر الى المحاكم الانجليزية . ولكن بلايند لم يكن أحمق فيقبل هذا التحدي ، وبدلا من ذلك حاول ان يدافع عن نفسه بنشر بيان طويل في «الفماينه تزايتونغ» يشجب فيه فوخت بعنف ويعزو اليه الرشوة مرة ثانية ، وينكر في الوقت نفسه انه قد كتب الكتيب موضع البحث .

لم يقنع ماركس بهذا ، بل نجح في الحصول امام قاض ، على شهادة من احد عمال المطبعة بأنه قد أعد احرف الكتيب لاعادة طبعها في «داس فولك» وانه تعرف على خط يد بلايند في التصحيحات التي كانت واضحة على النسخة التجريبية . وكان هذا العامل قد تقدم بشهادة في محكمة اوغسبرغ يبرأ فيها بلايند من كتابة الكتيب ، ولكنه في شهادته هذه أقر بأن شهادته الاولى الى محكمة اوغسبرغ كانت ملفقة ، وان بلايند وصاحب المطبعة قد حرضاه عليها ، اذ وعده بلايند بأن يقدم له خدمات في المستقبل ووعده صاحب المطبعة ان يعطيه نقودا . بهذه الشهادة اصبح بلايند يقع تحت طائلة القانون الجنائي الانجليزي ، فعرض ارنست جونز ان يعمل على القاء القبض عليه على اساس هذه الشهادة ، ولكنه اوضح انه ما ان تقدم هذه المعلومات الى القضاء فان من المستحيل العودة عن القضية ، وانه اذا جرت بعد ذلك اية محاولة لتسوية المسألة فانه هو (جونز) كمحام سيرتكب بذلك جنحة يعاقبعليها.

لم يكن ماركس يريد ان تصل المسألة الى هذا الحد حرصا على عائلة بلايند ، فأرسل نسخة من الشهادة الى لوي بلانك الذي كان صديق بلايند ، وأرسل معها رسالة يشرح فيها انه سيأسف جدا من اجل عائلة بلايند لوضع هذه المعلومات امام القضاء ، مع ان بلايند يستحق ذلك . فعلت الرسالة فعلها ، ففي ١٥ شباط نشرت «الديلي تلغراف» ، التي كانت اثناء ذلك قد كررت افتراءات «ناشونال تزايتونغ» الخسيسة ، ملاحظة تقول ان شايبل ، وهو احد اصدقاء عائلة بلايند ، وليس بلايند نفسه هو الذي كتب الكتيب . كانت المناورة واضحة بما فيه الكفاية ، ولكن ماركس فضل ان يدعها تمر لانه وصل الى ما يريد وتخلص من كل مسؤولية تجاه الكتيب .

قبل ان يشن ماركس هجومه المعاكس ضد فوخت ، حاول ان يتصالح مع فريليغارث الذي كان قد ارسل له نسخة من بيانه ضد بلايند ونسخة من شهادة عامل المطبعة ، ولكنه لم يتلق منه ردا . ورغم هذا الصدود قام ماركس بمحاولة اخرى لاقناع فريليغارث بأهمية قضية فوخت من اجل تبرئة الحزب تاريخيا ومن اجل موقفه فيما بعد في المانيا . وحاول كل ما في وسعه لازالة كل جفاء يمكن ان يكون فريليغارث قد حمله له معلنا «اذا كنت قد اسأت اليك بأي شكل فانني سأكون مسرورا لاصلاحه ، فما من شيء انساني غريب عليّ» وقال انه يستطيع ان يفهم ان المسألة كلها لا بد انها كانت مزعجة جدا لفريليغارث في وضعه الراهن ، ولكنه

يأمل ان يدرك فريليغارث على الاقل انه لم يكن بالامكان الابقاء علـــى اسمه خارج المسألة تماما .«انما نحن الاثنين معا ندرك جيدا ان كلا منا بطريقته الخاصة وبدوافع غير انانية على الاطلاق اخضع كل مصالحه الخاصة ورفع راية طبقة العمال والبائسين عاليا فوق رؤوس الجهلة الادعياء . ولا شك اننا سنرتكب جريمة ضد التاريخ اذا ما افترقنا بسبب مسائل تافهة لم يكن سببها في اي حال غير سوء تفاهم» . واختتم ماركس الرسالة بالتعبير عن أحر مشاعر الود تجاه فريليغارث .

صافح فريليغارث يد الصداقة التي امتدت اليه ولكن ليس بالحرارة التي مدها بها ماركس «الذي لا قلب له» ، فقد اعلن انه سيظل في المستقبل كما في الماضي مخلصا لطبقة العمال والتعساء وانه سيحتفظ بسرور بعلاقاته القديمة مع ماركس كصديق ورفيق ، ولكنه اضاف «لم تكن لي علاقة بالحزب منذ سبع سنوات (منذ حل العصبة الشيوعية) . فلم احضر اجتماعاته ، واتخذت قراراته واجراءاته دون مشاركتي . ولذا فان ارتباطاتي بالحزب انقطعت منذ امد بعيد . لم يكن لدى اي منا شك في ذلك ابدا فقد كان بمثابة اتفاق صامت بيننا. وانا لا استطيع الا اناقول انني لا ازال اشعر انني على حق ، فطبيعتي كطبيعة اي شاعر تحتاج الى الحرية . والحزب قفص ايضا ، فمن الاسهل ان يغني المرء خارج الحزب ، حتى من اجل الحزب . لقد كنت شاعرا للبروليتاريا والثورة قبل ان اصبح عضوا في العصبة الشيوعية وفي هيئة تحرير «نيو راينيخه تزايتونغ» . وانا اريد في المستقبل ان اظل مستقلا وأن انتمي لنفسي وحدها وأن اقوم بأعمالي كما ارى مناسبا» . عبَّر فريليغارث في هذه الرسالة عن امتعاضه القديم من روتين التحريض السياسي مرة اخرى ، حتى ان هذا الامتعاض جعله يرى اشياء لم يكن لها وجود في الواقع . فالاجتماعات الحزبية التي لم يحضرها ابدا ، والقرارات والاجراءات الحزبية التي اتخذت دون مشاركته لم تحدث على الاطلاق .

اوضح ماركس ذلك في رده ، وبعد ذلك ، فعل كل ما في وسعه ثانية للقضاء على كل سوء تفاهم ، واشار الى قول شهير لفريليغارث : «ان يكون الجهلة الادعياء اعداء لنا افضل على الدوام من ان يكونوا في صفوفنا . لقد شرحت موقفي بكل صراحة ، وانني آمل ان تكون متفقا معه بشكل عام . كذلك حاولت ان ازيل سوء الفهم لاشارتي الى الحزب ، فأنا عندما اشير اليه لا اعني منظمة ماتت منذ ثماني سنوات ولا هيئة تحرير تبعثرت قبل اثني عشر عاما ، عندما اشير الى الحزب ، فانني افعل ذلك بمعنى تاريخي» . كانت كلمات ماركس مهدئة ودقيقة في وقت واحد ، ذلك ان الرجلين كانا بمعنى تاريخي ينتميان لبعضهما رغم كل خلافاتهما . ولقد كان موقف ماركس مشرفا له ، فقد كان من حقه ، بالنظـــر الى التهجمات القذرة التي شنها عليه فوخت ، ان يطلب من فريليغارث ان يقضي علانية على كل ما قد يبدو وكأنه تضامن مع المفتري . غير ان فريليغارث اكتفى بتجديد علاقاتهما الودية واتخذ موقفا متحفظا سهَّله له ماركس بتجنبه اي ذكر لفريليغارث فيالمسألة.

انتهى نقاش ماركس مع لاسال بصدد قضية فوخت نهاية مختلفة. كان ماركس قد كتب الى لاسال في تشرين الثاني من السنة المنصرمة حول خلافهما حول المسألة

الايطالية ، مستخدما في رسالته لهجة «فظة» ، على حد تعبيره هو . لم يجب لاسال على الرسالة ، وافترض ماركس انها جرحت مشاعره . ولكنه عندما هاجمته «ناشيونال تزايتونغ» شعر بالحاجة الى اقامة اتصالات مع برلين ، فطلب من انغلز ان يسوي الامر مع لاسال ، الذي كان على اية حال «رجلا من الدرجة الاولى» بالمقارنة مع الاخرين . وكانت هذه اشارة غير مباشرة الى محام بروسي يدعى فيشل قدم نفسه لماركس على انه من اتباع اوركوهارت ، وعرض خدماته فيما يتعلق بالصحافة الالمانية . فارسل ماركس معه تحياته الى لاسال ، لكن لاسال رفض ان يتعامل اطلاقا مع «الرجل التافه الجاهل» ، الذي ينتمي بغض النظر عن الطريقة التي تعرف بها في لندن الى الجوقة الادبية المحيطة بالدوق كوبرغ في المانيا ، ذلك الرجل الذي يستحق بالفعل سمعته السيئة .

وقبل ان يمتثل انغلز لرغبة ماركس، كتب لاسال نفسه شارحا ان صمته الطويل كان لضيق الوقت ، ومطالبا بشدة ان يفعل شيء ما بخصوص «مسألة فوخت المؤسفة» ، التي وصفها بأنها احدثت اصداء واسعة في المانيا . وقال ان اولئك الذين يعرفون ماركس لم تخدعهم رواية فوخت بالطبع ، لكن اولئك الذين لا يعرفونه يمكن ان يتأثروا بهذه الرواية لانها مدعمة بانصاف حقائق يمكن لمن لا علاقة حميمة له بالامر ان يظنها حقائق كاملة . واضاف انه ليس على استعداد لتبرئة ماركس من كل مسؤولية تجاه المسألة ، لانه قبل اتهامات خطيرة ضد فوخت دون اي برهان غير كلام كاذب تعيس مثل بلايند . واذا كان ماركس لا يملك براهين ثابتة على الاتهامات لفوخت بانه يتعاطى الرشوة ، فان عليه ان يبدأ دفاعه عن نفسه بسحب هذه الاتهامات . ولاسال يعرف بالطبع ان احقاق الحق تجاه رجل اقترف افتراءات بشعة لا اساس لها ، مثلما فعل فوخت ، أمر يحتاج الى الكثير من الانضباط الذاتي ، ولكن يتوجب على ماركس مع ذلك ان يعطي برهانا على صدق نواياه ، الا اذا اراد لدفاعه عن نفسه ان يكون ضعيفا منذ البداية . وبعد ذلك عبر لاسال عن استيائه بشدة من نشاطات ليبكنشت لحساب صحيفة رجعية مثل «الغماينه تزايتونغ» لانها تسبب الدهشة في صفوف الرأي العام والغضب تجاه الحزب .

عندما تسلم ماركس الرسالة ، لم يكن قد اطلع بعد على كتاب فوخت ، فلم يكن بالتالي قادرا على ادراك الوضع بكافة ابعاده . ولكن ليس من الصعب ان يدرك المرء ان اقتراح لاسال بان عليه ان يبدأ دفاعه عن نفسه بتبرئة فوخت لم يرضه ، خاصة وانه كان يملك براهين على دسائس فوخت البونابرتية اكثر ثقة من كلام بلايند . كذلك لم يستطع ماركس ان يوافق على استياء لاسال من علاقة ليبكنشت مع «الغماينه تزايتونغ» . ولم يكن ماركس بالطبع صديقا لهذه الصحيفة ، كما انه هاجمها بشدة ايام كان يحرر «راينيخه تزايتونغ» ، ولكنه كان يعتقد انها برغم كونها مضادة للثورة في كثير من المجالات ، الا انها على الاقل تفتح صفحاتها لوجهات نظر مختلفة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، وهي لذلك تتمتع في هذا المجال بمنزلة رفيعة متميزة في الصحافة الالمانية .

ولذا اجاب ماركس بسخرية نوعا ما ان «الغماينه تزايتونغ» في جودة «فولكس

تزايتونغ» . وانه سيقاضي «ناشيونال تزايتونغ» بتهمة القدح والتشهير وسيكتب ردا على فوخت ، ولكنه سيوضح في المقدمة انه لا يعير للرأي العام الالماني ، اي اهتمام . فما كان من لاسال الا ان حمل بدوره كلمات ماركس الغاضبة اكثر مما تحتمل ، واحتج على ذكر صحيفة ديمقراطية مثل «فولكس تزايتونغ» على قدم المساواة مع اكثر صحف المانيا سوء سمعة وقلة حياء» . وحذر ماركس من ان يبدأ برفع قضيته ضد «ناشيونال تزايتونغ» ، او على الاقل ان لا يبداها قبل ان ينشر رده على فوخت . وختم لاسال رسالته معبرا عن امله في ان لا يشعر ماركس بالضيق لرسالته ومؤكدا له «صداقته الخالصة» .

كان امل لاسال في غير محله . ففي رسالة الى انفلز ، استخدم ماركس اقسى التعابير ضد رسالة لاسال ، حتى انه استعاد «التهم الرسمية» التي حملها ليفي الى لندن ، مع انه لم يفعل ذلك الا ليبين انه لا يكن للاسال اي شك به ، وانه رغم هذه «الاتهامات الرسمية» لم يغير رأيه في لاسال . غير ان لاسال لم يستطع بالنظر الى ضخامة هذه الاتهامات ان يرى لماركس اي فضل في تجاهلها ، وانتقم لنفسه بكتابة وصف جميل ومقنع للتضحيات التي قدمها لعمال الراينلاند والخدمات التي اداها لهم في اسوأ ايام الرجعية .

لم يعامل ماركس لاسال كما عامل فريليغارث ، وكان رد لاسال مختلفا . فقد قدم لماركس افضل نصيحة يستطيع تقديمها ، ولم يسمح لرغبته في مساعدة ماركس بأن تتأثر بتجاهل ماركس لنصيحته .

٥ ــ أمور شخصية وعائلية

لم يمض زمن طويل حتى ثبتت صحة تحذير لاسال من اللجوء الى المحاكم البروسية . فقد اناط ماركس باحد المحامين مهمة رفع دعوى على فوخت بتهمة القدح والذم ، ولكنه صادف من النجاح اقل مما صادف فوخت الذي نجح على الاقل في حمل المحكمة على سماع دعواه . اذ رفضت المحكمة ، في حالة ماركس ، سماع الدعوى على اساس ان الاقوال الموصوفة بانها قدح وذم لم تصدر عن «ناشيونال تزايتونغ» التي لم تفعل شيئا سوى «نقل اقوال اشخاص آخرين» . لكن محكمة الاستئناف رفضت هذا الهراء لتتقدم بقدر اكبر من الهراء هو ان وصف ماركس بأنه «الرأس المفكر» لعصابة من مبتزي الاموال لا يشكل اهانة له .

كان كل ما بقي أمام ماركس بعد ذلك هو ان يكتب رده على فوخت واستغرق ذلك منه قرابة السنة . فقد كان عليه ، كي يستطيع دحض افتراءات فوخت ، ان يقوم باتصالات مضنية على امتداد بقاع الارض . وفي النهاية انتهى الرد في ١٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٠ ، ووضع ماركس له عنوانا بسيطا هو «السيد فوخت» . فكان هذا الرد هو الكتاب الوحيد من بين كتب ماركس الذي لم يعد طبعه ، فهو طويل يبلغ ١٩٢ صفحة مطبوعة بكثافة ، وهو ثانيا يحتاج الى تعليقات كثيرة كي يصبح مفهوما للقارىء المعاصر . هذا بالاضافة الى انه لا يستأهل اعادة طباعته ،

لان معظم المادة التي يعالجها ماركس فيه فرضت عليه فرضا وهي تتعلق بأمور اتى عليها النسيان مذ ذاك . ولا شك ان المرء يشعر اليوم بالامتعاض حين يقرأ الكتاب فيجد ماركس يدافع عن نفسه ضد اتهامات مشينة لم تمسه بسوء ولا حتى من بعيد . ولكن من جهة اخرى يشكل الكتاب مادة شهية لمتذوق الادب .

كانت السيدة ماركس متعلقة بزوجها قلبا وروحا ، وقد تأثرت «بالغيظ الرهيب الذي سببه هجوم فوخت المشين» اكثر مما تأثر ماركس . فأرقها ذلك ليالي طويلة، وعلى الرغم من انها احتفظت بشجاعتها وكتبت المخطوطة الضخمة بخط يدها لتصبح جاهزة للطبع ، الا انها لم تكد تنهي ذلك حتى انهارت . استدعي الطبيب وشخص المرض بأنه جدري وأمر ان ينقل الاطفال من البيت حالا .

تبعت ذلك ايام رهيبة . فاعتنى ليبكنشت بالاطفال ، بينما اعتنى ماركس وخادمة العائلة المخلصة لينشن ديموث بالسيدة ماركس ، التي كانت تعاني من الم ممض وأرق وقلق على زوجها ، الذي لم يفارقها لحظة ، كما عانت من افتقاد يكاد يكون كاملا لقواها الجسدية ، رغم انها ظلت محتفظة بوعيها طيلة الوقت . وبعد ذلك باسبوع شفيت من مرضها ، بفضل كونها قد تلقت طعما ضد الجدري مرتين من قبل .

لم تكد السيدة ماركس تشفى حتى وقع ماركس مريضا بفعل القلق المتراكم والهموم التي عانى منها طويلا . فقد اتخذت آلام الكبد المزمنة التي كان يشكو منها شكلا حادا ، وأعلن الطبيب ان السبب يعود الى التوتر المستمر المضني الذي عاناه . ولم يكن كتاب «السيد فوخت» قد عاد بقرش واحد ، وفي الوقت ذاته انقصت «نيويورك تريبيون» راتبه بمقدار النصف ، فعاد الدائنون ليحاصروا البيت . فقرر ان يعمد بعد شفائه الى «الذهاب الى هولندا ، ارض اجداده ، وارض التبغ والجبنة» ليرى ما اذا كان يستطيع اقناع عمه باعطائه بعض المال ، كما قالت السيدة ماركس في رسالة بعثت بها الى السيدة وايدماير .

كانت هذه الرسالة تحمل تاريخ ١١ اذار ١٨٦١ ، وتبرهن روح الفكاهة التي تتخللها برهانا ناصعا على «الحيوية الطبيعية» التي كانت تتمتع بها السيدة ماركس بطريقتها الخاصة وبقدر لا يقل عن زوجها . بعد سنوات طويلة من الصمت كتبت عائلة وايدماير ، التي كانت قد لاقت في المنفى الاميركي نصيبها من متاعب هذا العالم ، مرة ثانية . فردت السيدة ماركس فورا ، فاتحة قلبها «للرفيق الشجاع المخلص ، والمقاتل المقاسي» ، وقالت ان ما يمنحها شجاعة الصمود والاستمرار رغم كل التعاسة والبؤس هو حبها وزوجها لاطفالهما الذين يمثلون «النقطة المضيئة الوحيدة في وجودنا ونور حياتنا» . فالصغيرة ييني التي تبلغ من العمر سبع سنوات تشبه والدها «بشعرها الاسود الكث اللامع وعينيها اللامعتين الرقيقتين السوداوين وبشرتها الداكنة» . اما لورا البالغة من العمر خمسة عشر عاما فهي تشبه والدتها اكثر «بشعرها المجعد المتماوج العسلي اللون وعينيها الخضراوين المتأججتين . وهما تملكان بشرة جميلة حقا ، كما انهما في الوقت ذاته ليستا مغرورتين ، مما يبعث في الدهشة سرا ، خاصة وأن هذا لم يكن حال والدتهما

عندما كان لها من العمر ما لهما وكانت لا تزال تلبس السراويل والتنانير القصيرة» .

ومع ان الفتاتين الكبريين كانتا مبعث سرور عظيم لوالديهما ، الا ان الابنة الصغرى اليانور كانت «معبودة البيت كله» . «ولدت هذه الطفلة عندما توفي ولدنا الصغير المسكين ادغار ، فانتقل كل الحب والحنان الذي كنا نكنه له الى شقيقته الصغرى ، فصارت الاختان الكبيرتان ترعيانها باهتمام يكاد يكون أموميا . وعلى كل حال من الصعب ان يجد المرء طفلا احلى ، فهي جميلة جمال صورة ولها مزاج رائق رائع . انها على الاخص تهذر بشكل رائع . وقد تعلمت ذلك من الاخوة غريم ، الذين لا تفارقهم ليلا نهارا . اننا جميعا نقرأ لها قصص الساحرات حتى تخور قوانا ، والويل لنا ان قفزنا عن سطر واحد او اثنين . وبفضل هذه القصص تعلمت الالمانية، وهي تتكلمها بدقة وبشكل صحيح ، وبالطبع تعلمت الانجليزية كذلك . انها المفضلة لدى كارل ، وضحكها وحديثها المرح يذهبان بالكثير من همومه» . ثم تنتقل السيدة ماركس الى امتداح خادمة العائلة وصديقتها الوفية لينشن : «اسألي زوجك عنها ، فسيقول لك اي كنز هي . لقد عاشت معنا منذ ستة عشر عاما ، وتحملت بشجاعة كل عواصف حياتنا» . وتنتهي الرسالة الساحرة بوصف اصدقاء كارل ، وتلعن السيدة ماركس بطريقتها الانثوية اولئك الاصدقاء الذين ثبت ضعف اخلاصهم الى حد ما كان ليحتمله حتى ماركس نفسه . فهي تقول «انني اكره الاجراءات المجزوءة»، مفسرة بذلك لماذا قطعت كل علاقاتها بعائلة فريليغارث .

اثناء ذلك ، صادفت رحلة ماركس القصيرة الى هولندا نجاحا لا بأس به ، وبعد ان زار عمه فيليبس ذهب الى برلين ليرى ما اذا كان بالامكان انشاء صحيفة للحزب هناك ، وكان ذلك اقتراحا كرره لاسال باستمرار . كان الافتقار الى صحيفة كهذه قد جعل نفسه محسوسا خاصة خلال الازمة . وبفضل العفو الذي اعلنه الملك ويليام في كانون الثاني ١٨٦١ عند اعتلائه العرش ، اصبح من الممكن تعويض هذا النقص. لقد كان العفو تعيسا بالفعل ومليئا بالمصائد والتحفظات ، ولكنه على اية حال سمح لمن كانوا يوما محرري «نيو راينيخه تزايتونغ» بالعودة الى المانيا .

استقبل لاسال ماركس في برلين استقبالا وديا خالصا ، ولكن «المدينة» ظلت غير «متعاطفة معه» . اذ لم يكن فيها اي نشاط سياسي على الاطلاق ، بل مجرد مشادات مع الشرطة ونزاع بين العسكريين والمدنيين : «الجو في برلين متغطرس وتافه . ومجالس النواب تعامل باحتقار بالغ» . لقد وجد ماركس ان مجلس النواب البروسي ، حتى لو قورن بمجالس ١٨٤٨ التي لم يكن التسوويون فيها جبابرة على اية حال ، لا يعدو كونه «مزيجا من البيروقراطية وصفوف التلاميذ» . والاشخاص الوحيدون الذين يمكن اعتبارهم نصف شرفاء في جمع الاقزام هذا هم فالديك من جهة وفاغنر والدون كيشوت فون بلاكنبرغ من جهة اخرى . غير انه لمس ميلا نحو الاستنارة ، وضيقا واضحا تجاه الصحافة البورجوازية لدى قطاع واسع من الجمهور ، والناس من جميع الطبقات يعتبرون ان الكارثة امر لا بد منه . اما في الانتخابات القادمة التي ستجري في الخريف ، فمن المؤكد ان ينتخب التسوويون السابقون الذين يعتبرهم الملك جمهوريين حمرآ ، وحينئذ يمكن ان يثور الشقاق

حول الموازنة العسكرية . ولذا اعتبر ماركس رغبة لاسال في انشاء صحيفة امرا يستحق البحث ، على الاقل من حيث المبدأ .

غير انه لم يكن على اتفاق مع لاسال حول التفاصيل . فقد اقترح لاسال ان يتولى تحرير الصحيفة ثلاثي مكون من ماركس وانغلز ومنه ، بشرط ان يكون لماركس وانغلز صوت واحد حول المسائل السياسية ، والا فانه سيجد نفسه في الاقلية كل مرة . كان لا بد لهذا الاقتراح من ان يعني اثارة المتاعب منذ البداية ، ولربما كان لاسال قد اشار اليه عفواًخلال حديثه . ولكن ذلك لم يكن امرا هاما اذ لم يكن ماركس ميالا على اية حال الى اعطاء لاسال اي قول فيما يتعلق بالصحيفة على الاطلاق . فقد كتب الى انغلز يقول ان لاسال قد اصابه الغرور بسبب الشهرة التي احرزها في بعض الاوساط المتعلمة بفضل كتابه «هرقليط» ، وفي بعض الاوساط الطفيلية بفضل مائدته المضيافة ونبيذه الجيد ، ولذا فانه لا يدرك ان سمعته ليست جيدة في اوساط الرأي العام : «ثم هناك اصراره الدوغماتي على انه محق دائما ، وارتباطه الذي لا ينفك ، بالمفهوم التأملي ، (حتى انه يحلم بنظام هيغلي جديد مرفوع الى الدرجة الثانية وسيكتب عن ذلك بنفسه) ، والعدوى التي اصابته بالليبرالية الفرنسية القديمة ، واسلوبه المتفاخر في الكتابة ، وفرضه لذاته وافتقاره الى التصرف السليم الخ . انه يستطيع ان يكون مفيدا كواحد من المحررين ، ولكن فقط في ظل انضباط حازم ، اما فيما عدا ذلك فيسبب الكثير من الضرر» . كان هذا هو التقرير الذي ارسله ماركس الى انغلز عن مفاوضاته مع لاسال ، واضاف انه تجنب جرح مشاعر مضيفه ، فأجل اتخاذ قرار الى ان يبحث المسألة مع انغلز وفيلهلم وولف . كانت الشكوك ذاتها تساور انغلز ، فعارض هو ايضا مقترحات لاسال .

على اية حال ، انتهى المشروع قصرا في الهواء ، كما تنبأ لاسال . فقد كان من خبث العفو البروسي ، انه سمح للمنفيين منذ السنوات الثورية بالعودة الى بيوتهم في ظل ظروف نصف محتملة، ولكنه لم يعد اليهم حقوقهم المدنية وجنسيتهم، التي كانوا قد خسروها حسب القانون البروسي الذي يقضي بان كل من يقضي في الخارج مدة تزيد على عشر سنوات يفقد جنسيته . ومن هنا كان الذين عادوا في ظل ظروف كهذه معرضين لالقاء القبض عليهم في اية لحظة تسول فيها للبوليس نفسه ان يفعل . وكانت حالة ماركس اسوا من ذلك ، لانه كان قد تخلى قبل الثورة بسنوات عن جنسيته البروسية طواعية واختيارا . صحيح انه فعل ذلك تحت ضغط دسائس البوليس ، ولكن هذا لم يكن ليغير من الامر شيئا . لعب لاسال دور ممثل ماركس في هذه القضية ، وشق عنان السماء مطالبا باعادة الجنسية الى ماركس . فراجع باستمرار ونشاط رئيس شرطة برلين ووزير الداخلية الذي كان واحدا من ابرز دعاة «العهد الجديد» ، ولكن عبثا . فقد اعلن رئيس الشرطة ان الاعتراض الوحيد على اعادة الجنسية الى ماركس هو «معتقداته الجمهورية او على الاقل غير الملكية» . اما وزير الداخلية فقد حضَّه لاسال ان لا ينغمس في «التفتيش عن الضمائر واضطهاد الناس بسبب معتقداتهم» ، وهي أمور كان قد شجبها بشدة

في سلفيه مانتوفيل ووستفالين ، فما كان منه الا ان اجاب : «لا يبدو ، هـذه اللحظة على الاقل ، ان هناك من الاسباب ما يدعو الى اعادة الجنسية الى الشخص المعني» . لم تكن دولة كبروسيا تستطيع تحمل شخص كماركس ، وقد كان وزير الداخلية كسلفيه مانتوفل ووستفالين محقا في ذلك .

ذهب ماركس بعد مغادرته برلين الى كولون لزيارة اصدقائه ، وعلى الاخص ليرى والدته التي كانت في اخر ايامها . وفي بداية ايار ، كان قد عاد الى لندن آملا ان يستطيع التخلص من الحياة الشاقة التي كان يحياها ، وان يجد من الوقت والهدوء ما يسمح له بانهاء كتابه . وكان قد نجح عندما كان في برلين في عقـد اتفاق مع صحيفة «داي برس» في فيينا ، رغم فشله في ذلك سابقا . ووعدته الصحيفة ان تدفع له جنيها واحدا مقابل كل مقال وعشرة شلنات مقابل كل تقرير. وفي الوقت ذاته ، ابدت علاقاته مع «نيويورك تريبيون» دلائل تحسن ، فصارت تنشر له مقالاته باستمرار وتعبر عن اعجابها بها . وقد كتب ماركس يقول : « ان هؤلاء اليانكيين معتادون عادة غريبة هي اعطاء شهادات لصالح مراسليهم» . كذلك صارت «داي برس» تنشر الكثير من مقالاته ، ولكنه مع ذلك لم يستطع تسديد كافة ديونه القديمة لانه لم يكسب شيئا من المال خلال مرضه ، مضافا الى ذلك نفقات رحلته الى المانيا . وفي رسالته الى انغلز بمناسبة رأس السنة الجديدة ، قال ان بوسع هذه السنة ان تذهب الى الشيطان ان لم تكن افضل من سابقتها .

لم تكن سنة ١٨٦٢ في سوء السنة التي سبقتها ، بل كانت اسوأ بالفعل . فعلى الرغم من ان «داي برس» كانت تحتفي بمقالاته وتطبل لها وتزمر ، الا انها لم تعامله بأفضل مما كانت تعامله الصحيفة الاميركية . فكتب الى انغلز في اذار يقول: «ليس ما يهمني انهم لا ينشرون افضل مقالاتي (مع انني اكتبها بطريقة تسمح لهم بنشرها) ، فالامر في غاية السوء من الناحية المالية عندما لا ينشرون الا واحدة من كل اربع او خمس مقالات ارسلها ثم لا يدفعون الا لقاء هذه الواحدة» . وخـلال السنة انقطعت كل علاقة لماركس مع «نيويورك تريبيون» ، ولكن يبدو ان ذلك كان بسبب الحرب الاهلية الاميركية بصورة رئيسية .

ولكن على الرغم من ان هذه الحرب جلبت لماركس المصائب على الصعيـد الشخصي ، الا انه رحب بها بتعاطف كبير . فقد كتب بعد ذلك بعدة سنوات في مقدمة رائعته العلمية يقول : «لا يخطئن احد . فكما ان حرب الاستقلال الاميركية دقت ناقوس الخطر للطبقة الوسطى الاوروبية في القرن الثامن عشر ، كذلك دقت الحرب الاهلية الاميركية للطبقة العاملة في القرن التاسع عشر». وتدل رسائله لانغلز على انه تتبع الحرب باهتمام حاد بالغ . وكان ماركس يعتبر نفسه عاميا في المسائل العسكرية ، فكان يصغي بسرور الى ما يقوله انغلز في الموضوع ، ولا تزال ملاحظات انغلز بهذا الخصوص تحتفظ بقيمتها حتى يومنا هذا ، لا من الناحية العسكرية فحسب ، بل ومن الناحية السياسية ايضا . فمثلا اصاب كبد المسألة العسكرية ومسألة الميليشيا عندما قال : «ان مجتمعا يقوم على الشيوعية ويربى على اساسها، هو وحده الذي يستطيع ان يقترب اقترابا وثيقا من مسألة الميليشيا ، ولكن حتى

مجتمع كهذا لن يستطيع تحقيقها تماما» . ان كلمات الشاعر غوته «اليد الحازقة تبدي مهارتها اوضح ما تبديها في ظل الظروف المعيقة» ، تنطبق هنا وان يكن بمعنى غير ذاك الذي قصده الشاعر .

جعل تمكن انغلز من المسائل العسكرية أفقه العام محدودا ، فجعلته القيادة العسكرية التعيسة التي كانت على رأس القوات الشمالية يشك في ان تستطيع هذه القوات احراز النصر النهائي . فكتب في ايام ١٨٦٢ يقول : «ان ما يجعلني اشك بانتصار اليانكيين ليس الوضع العسكري بحد ذاته ، فهو فحسب نتيجة التراخي واللامبالاة اللذين يسمان الشمال ، ولكن اين هي الطاقة الثورية بين الشعب ؟ انهم يدعون انفسهم يتلقون الركلات ، وهم في الواقع فخورون بها . اين يمكن للمرء ان يجد في الشمال كله اشارة واحدة الى انهم يحملون الامر على محمل الجد ؟ لم ار قط شيئا كهذا ، ولا حتى في المانيا في اسوأ اوقاتها . يبدو ان اليانكيين يجدون لذة في قدرتهم على غش دائنيهم» . وفي تموز خشي انغلز ان يكون الشمال قد فقد كل امل ، وفي ايلول اعلن ان الجنوبيين ، الذين يعرفون على الاقل ما يريدون ، يبدون له ابطالا بالمقارنة مع تراخي الشماليين .

غير ان ماركس كان يثق ثقة مطلقة بانتصار الولايات الشمالية في النهاية ، فأجاب على انغلز في ايلول : «فيما يتعلق باليانكيين ، لا زلت مقتنعا تماما بانهم سيحرزون النصر في النهاية ... والطريقة التي يخوضون بها الحرب امر طبيعي بالنسبة لجمهورية بورجوازية حكمت مدة طويلة بالخداع . اما الولايات الجنوبية فتحكمها اوليغاركية ، والاوليغاركية مؤهلة بشكل افضل لشن الحرب ، خاصة اذا كانت اوليغاركية من النوع الذي يحكم الولايات الجنوبية ، حيث يقوم الزنوج بكل العمل الانتاجي ويقوم البيض الذين يبلغ عددهم اربعة ملايين بدور قطاع الطرق المحترفين ، ولكنني مع ذلك مستعد للمراهنة بحياتي على ان هؤلاء سيلاقون اسوأ مصير في النهاية ...» . لقد كان ماركس على حق ، وثبتت صحة ما ذهب اليه من ان الحرب تتقرر في نهاية الامر بالشروط الاقتصادية التي يعيش في ظلها المتحاربون .

لا شك في ان هذا الوضوح الرائع الذي يتحدث به ماركس مثير للاعجاب ، خاصة وأن الرسالة ذاتها تكشف الضائقة المالية الحادة التي كان يعانيها ماركس حينذاك . فقد بلغ به الضيق حدا جعله يقرر امرا ما كان قد فعله من قبل ولم يفعله من بعد . فقد أخبر انغلز انه يسعى جهده للحصول على وظيفة ، وأن هناك احتمالا في ان يعمل في مكاتب احدى شركات السكك الحديدية الانجليزية . ولكنه في النهاية فشل لان حظه لم يكن جيدا ، ولم يستطع وقتذاك ان يقرر ما اذا كان فشله سوء حظ او حسن حظ . ازداد فقر ماركس وعائلته اكثر فاكثر ، وساء الامر لانه كان يقع صريع المرض المرة تلو الاخرى . فقد بدأ بالاضافة الى متاعب الكبد يعاني من الانتفاخات والدمامل ، وقد لازمه هذا المرض بشكل متقطع سنوات عدة . كذلك اصبح سوء الحالة يتهدد ربة البيت بانهيار اخر في صحتها . ولم يكن الاطفال يملكون ملابس مناسبة ولا حتى احذية للذهاب الى المدرسة . فعانت الابنة

الكبرى التي كان لها من العمر ما يجعلها تدرك الوضع ، معاناة رهيبة ، فحاولت دون علم والديها ان تدرب نفسها على العمل المسرحي .

استمر الحال يزداد سوءاً ، وفي النهاية عزم ماركس على خطوة كان قد فكر فيها كثيرا ، ولكنه كان دائما يتخلى عنها من اجل ابنائه . قرر ان يترك اثاثه لمالك البيت ، الذي كان قد جلب المسترهنين بالفعل ، ويخبر كل دائنيه بأنه مفلس ، ويحصل لابنتيه الكبريين على عمل كمربيتين بواسطة اصدقاء العائلة من الانجليز ، ويجد للخادمة عملا اخر ، ثم ينتقل مع زوجته وابنته الصغرى الى تلك البنايات التي بنيت لمواجهة احتياجات الطبقات الاكثر فقرا .

في النهاية ، لم تنفذ بادرة اليأس هذه بفضل انغلز . كان والد انغلز قد توفي في ربيع عام ١٨٦٠ ، وعندئذ منح انغلز وظيفة افضل في شركة ايرمن وانغلز ، على امل ان يصبح شريكا فيما بعد ، مع ان هذا التحسن كان يعني ان على انغلز ان يعيش في مستوى ارفع منذي قبل . وبالاضافة الى ذلك كانت الازمة الاميركية قد اصابت عالم التجارة والاعمال بضرر بالغ ، وادى ذلك الى تناقص دخل انغلز الى حد كبير . وفي بداية عام ١٨٦٣ حلت بانغلز مصيبة شخصية كبيرة . فقد توفيت ماري بيرنز ، الفتاة الايرلندية التي عاش معها عشر سنوات دون مباركة المجتمع ، فكان ذلك ضربة موجعة رهيبة له . وكتب الى ماركس يقول : «انني ببساطة لا استطيع ان اصف مشاعري . لقد كانت الفتاة المسكينة تحبني بكل قلبها» . لكن ماركس اجاب بقدر من التعاطف اقل مما كان يتوقع انغلز ، وهذا يدل اكثر من اي شيء اخر على الحالة المزرية التي كان هو يعاني منها . فقد اشار ببضع كلمات باردة نوعا ما الى الخسارة الكبيرة التي لحقت بانغلز ، ثم انتقل الى وصف وضعه البائس قائلا انه اذا لم يتلق مبلغا كافيا من المال فانه لن يستطيع ان يتدبر امره اكثر من اسبوعين . صحيح انه يجد ان «من الانانية المثيرة للتقزز» ان يجعل صديقه يعاني من متاعب الاخرين في لحظة كهذه ، «ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ انني لا اجد في لندن كلها من استطيع ان اتحدث اليه بصراحة ، اما في البيت فيجب علي ان العب دور الحكيم الصامت كي اتجنب حدوث انفجار في الجانب الاخر» .

غير ان انغلز تألم «للاستقبال البارد» الذي تلقته مصيبته من ماركس ، ولم يحاول في رسالته التي اخرها بضعة ايام ان يخفي مشاعره . ولكنه في الوقت ذاته تقدم بعدد من الاقتراحات لمساعدة ماركس على الخروج من ورطته ، معلنا انه ليس اللحظة في موضع يستطيع معه توفير مبلغ كبير من المال . كذلك اخر ماركس رده ، ولكنه لم يفعل ذلك الا ليعطي انغلز فرصة تهدأ فيها ثائرته ، وليس اصرارا منه على الخطأ الذي وقع فيه بابداء عدم تعاطفه . انكر ماركس ان يكون «بلا قلب»، ولكنه اعترف بصراحة انه لم يعبر عن التعاطف الواجب . ووصف في هذه الرسالة وفي رسالة ثانية الوضع الذي جعل راسه يدور في دوامة . واللهجة التي يستخدمها حاذقة ولطيفة ، ولأن من المحتمل ان تكون مشاعر انغلز قد جرحت لان السيدة ماركس لم ترسل له حتى كلمة تعزية بوفاة محبوبته ، قال ماركس : «النساء

مخلوقات طريفة ، حتى اكثرهن ذكاء . ففي الصباح انتحبت زوجتي لوفاة ماري والخسارة التي عانيتها بفقدها حتى نسيت تماما مصيبتنا نحن ، التي وصلت أوجها في ذلك اليوم بالذات ، ولكنها في المساء شعرت ان احدا في العالم لا يستطيع ان يعرف معنى العذاب الا اذا كان الدائنون يقفون بباب بيته ، في حين لا يستطيع فيه ان يطعم اطفاله » .

هدأت كلمات الأسى الاولى ثائرة انغلز فورا ، فكتب يقول : «لا يستطيع المرء ان يعيش مع امراة سنوات عدة ولا يشعر بعذاب رهيب لموتها. لقد شعرت ان شبابي ووري التراب معها . عندما تسلمت رسالتك ، لم تكن قد دفنت بعد . وبصراحة ظلت رسالتك تطن في رأسي طيلة اسبوع كامل ولم استطع ان انساها . ولكن لا بأس ، لقد سوت رسالتك الامر ، وانا اشعر بالسرور البالغ لأنني لم اخسر مع ماري أقدم وأفضل صديق لديّ». كانت هذه اول وآخر اشارة توتر بدت بين الرجلين.

نجح انغلز «بفضل انقلاب جريء جدا» في تأمين مبلغ مئة جنيه ، وبهذا المبلغ استطاع ماركس ان يتدبر امره دون ان ينتقل الى مسكن ارخص ، وظل يتدبر الامر طيلة عام ١٨٦٣ ، وفي نهاية العام توفيت والدته . ومن المستبعد ان يكون قد ورث عنها الكثير ، وفي الواقع لم يستطع ماركس ان يتنفس الصعداء الا بعد ان تلقى ثمانمائة او تسعمائة جنيه بوصفه الوريث الرئيسي الذي اوصى له فيلهلم ولف بثروته.

توفي فيلهلم ولف في ١٨٦٤ ، فبكاه ماركس وانغلز بكاء مرا . ولم يكن له من العمر حين توفي غير خمسين عاما ، ولكنه لم يكن يأبه في حياته العاصفة المغامرة لنفسه ، حتى ان انغلز شكا من ان تكرسه العنيد لواجباته كمدرس عجل في وفاته. وكان ولف قد استطاع ، بفضل شعبيته في صفوف اللاجئين الالمان في مانشستر ، ان يؤمن لنفسه عيشا مريحا ، رغم ان سنواته الاولى في المنفى كانت شاقة بما فيه الكفاية . ويبدو ان والده ترك له قبل وفاته بقليل ميراثا صغيرا . وفيما بعد اهدى ماركس المجلد الاول من كتابه الخالد الى «صديقه الذي لا ينسى ، ذلك الرائد الشجاع المخلص النبيل من رواد البروليتاريا» ، ولا شك في ان بادرة الصداقة الاخيرة التي ابداها ولف فعلت الكثير لتأمين الهدوء والسكينة اللتين كان يحتاجهما ماركس للعمل في كتابه .

لم تنته هموم ومتاعب حياة ماركس الى الابد ، ولكنها لم تعد ابدا بالحدة التي كانت عليها في السنوات السابقة . ففي ايلول ١٨٦٤ وقع انغلز عقدا مع ايرمن اصبح بموجبه شريكا له في الشركة ، ومنذ ذلك الحين اصبح يستطيع الاستمرار في مساعدته الدائمة لماركس وبقدر اكبر من الكرم .

٦ ـ تحريض لاسال

في تموز ١٨٦٢ ، وفي وقت كانت عائلة ماركس تعاني فيه اقسى ضائقة عرفتها ، قام لاسال بزيارة لندن .

كتب ماركس لانغلز يقول : «لكي تحافظ زوجتي على بعض المظاهر الخارجية

تجاه لاسال ، قامت بالتصرف بكل ما لم يكن مسترهنا» . ولم يكن لاسال يعرف حقيقة الوضع ، فقبل المظاهر التي ابداها تجاهه ماركس وعائلته كما تبدو ، فكان ان لينشن ، خادمة البيت ، لم تنس ابدا شهيته الجامحة . وهكذا نشأ « وضع رهيب» ، وفي الواقع لا يمكن لوم ماركس على انه لم يستطع ان يتغلب على مشاعره تجاه لاسال ، خاصة وأن هذا لم يكن متواضعا يوما ، تلك المشاعر التي تشبه مشاعر شيلر تجاه غوته ، حينما قال : «كم يحصل هذا الرجل على الاشياء بسهولة، وكم يتعين علي ان أصارع حتى احصل على اي شيء !»

لم يدرك لاسال الوضع الا حين مغادرته بعد اقامة استمرت عدة اسابيع . وحينذاك عرض مساعدته ، معلنا انه يستطيع توفير ١٥ جنيها في نهاية السنة وان ماركس يستطيع ان يسحب عليه حوالات بأي مبلغ شرط ان يكفلها انغلز او شخص اخر . عندئذ حاول ماركس بمساعدة بورخايم الحصول على ٤٠٠ ثالر بهذه الطريقة، ولكن لاسال كتب رسالة جعل فيها موافقته معتمدة على تعهد خطي يقدمه انغلز بأن يوافيه بالمبلغ الضروري قبل ان يحين موعد الحوالة بثمانية ايام على الاقل «احتياطا لحدوث ظروف غير متوقعة» . وبالطبع جرحت مشاعر ماركس تجاه الافتقار الى الثقة الذي ابداه لاسال حياله ، لكن انغلز حث ماركس على ان لا يغضب بسبب «هذه الحماقة» واعطى التعهد المطلوب على الفور .

ليس التطور اللاحق لهذا الاتفاق المالي واضحا . ففي ٢٩ تشرين الاول ، كتب ماركس الى انغلز ان لاسال «غاضب جدا» عليه وانه طلب ان يرسل مبلغ التغطية الى عنوانه الخاص . وفي ٤ تشرين الثاني كتب ماركس ان فريليغارث مستعد لارسال مبلغ الـ ٤٠٠ ثالر الى لاسال ، وفي اليوم التالي اجاب انغلز انه سيرسل مبلغ ٦٠ جنيها الى لاسال «غدا» ، ولكن كلا منهما اشار في الوقت نفسه الى «تأجيل» الحوالة . ولا بد ان خطأ ما قد حصل ، ففي ٢٤ نيسان ١٨٦٤ قال لاسال لطرف ثالث انه لم يكتب لماركس طيلة سنتين، لان علاقاتهما متوترة «لاسباب مالية». وكان في الواقع قد كتب اخر مرة الى ماركس في نهاية ١٨٦٢ ، مرسلا له نسخة من كتيبه «ماذا الان ؟» . وليست هذه الرسالة موجودة الان ، ولكن ماركس يذكر في رسالة بعث بها الى انغلز في ٢ كانون الثاني ١٨٦٣ انها تطلب منه اعادة احد الكتب . وفي رسالة اخرى الى انغلز بتاريخ ١٢ حزيران ، ينتقد ماركس تحريض لاسال في المانيا ويقول : «ومنذ بداية السنة لم استطع ان اجبر نفسي على الكتابة اليه» . وإذاً، تدل هذه الرسالة ان ماركس قطع علاقاته مع لاسال لاسباب سياسية.

ولكن على اية حال ليس هناك اي تناقض بين الروايتين ، فلربما حصل الامران في وقت واحد . ويمكن ان تكون الظروف السيئة التي تقابل الرجلان فيها اخر مرة قد ادت الى تفاقم خلافاتهما السياسية التي لم تضق شقتها بأي شكل منذ زيارة ماركس لبرلين .

وفي خريف ١٨٦١ ، زار لاسال سويسرا وايطاليا . فتعرف الى روستوف في زوريخ وعلى غاريبالدي في جزيرة كابريرا ، بينما كان قد زار ماتزيني وهو في لندن . ويبدو انه ابدى بعض الاهتمام بخطة خيالية نوعا ما وضعها حزب العمل

الايطالي وتقضي بأن ينزل غاريبالدي ومتطوعيه في دالماتيا ، ومن هناك يتقدمون لرفع راية الثورة في المجر . لكن هذه الخطة لم تنفذ ، ولا يشير لاسال اليها اشارة مكتوبة في اي مكان . ولربما كانت تلك مجرد فكرة عابرة ، ذلك ان رأس لاسال كان مشغولا بقضايا اخرى ، فحتى قبل ان يزور لندن ، كان قد بدأ وضع خطط خاصة به موضع التنفيذ .

كان كسب ماركس الى صف لاسال ، يعني لهذا الاخير اكثر مما تعنيه المفاهيم الايطالية جميعا ، ولكن ماركس ابدى انه اقل ميلا اليه مما كان في السنة الماضية . كانت فكرة تأسيس صحيفة لا تزال تراود لاسال ، ولكن ماركس اعلن انه ، مع استعداده لان يكون مراسلها في انجلترا لقاء مبلغ محترم من المال ، لا يريد ان يشارك في تحمل اي قسط من المسؤولية السياسية او غير السياسية تجاهها ، لانه يختلف مع لاسال حول كل شيء عدا بعض اهداف نهائية بعيدة . وكذلك ابدى معارضته للخطط التي عرضها عليه لاسال للتحريض بين العمال ، وقال ان لاسال يتأثر اكثر مما يجب بالاوضاع الراهنة المباشرة ، ولذا فهو يريد ان يجعل معارضة قزم مثل شولز محور تحريض : مساعدة الدولة ضد المساعدة الذاتية ، وبهذا لا يفعل شيئا غير احياء الشعار الذي استخدمه الاشتراكي الكاثوليكي بوشيز ضد حركة الطبقة العاملة الحقيقية في فرنسا في الاربعينات . وعندما يتبنى المطلب الشارتي ، مطلب الاقتراع العام فانه يتغاضى بذلك عن الفوارق ما بين اوضاع الطبقة العاملة الالمانية واوضاع الطبقة العاملة الانجليزية ، وينسى الدرس الهام الذي قدمته الامبراطورية الثانية للعالم فيما يتعلق بمسألة الاقتراع . كما انه بتنكره لكل الروابط الطبيعية مع الحركة السابقة في المانيا ، انما يقع في خطأ العصبوية ، خطأ برودون ، وبدلا من ان يبحث عن الاساس الحقيقي للحركة في العناصر الحقيقية ضمن الحركة الطبقية ، يسعى الى وضع خطوط تطور هذه الحركة طبقا لوصفة دغماتية معينة .

غير ان همة لاسال لم تثبط بفعل هذه الانتقادات ، واستمر في تحريضه على اساس حركة محضة الطبقة العاملة منذ ربيع ١٨٦٣ . وكان لا يزال يأمل في اقناع ماركس بقيمة عمله ، وظل حتى بعد ان كف ماركس عن مراسلته يرسل له بانتظام المواد التحريضية التي كان يعدها ، مع انه كان يأمل في اكثر من مجرد ان يتسلم ماركس هذه المواد . لكن ماركس يشجب في رسائله الى انغلز نشاطات لاسال بقسوة تصل احيانا الى حد الظلم المرير . وليس من الضروري هنا ان نعود الى التفاصيل المؤسفة هنا وهناك ، اذ يمكن العثور عليها في مراسلات ماركس وانغلز . ولكن يكفي القول ان الكتابات التي اعادت الامل لمئات الالوف من العمال الالمان وبعثت فيهم حياة جديدة ، كانت تلقى الاحتقار على يد ماركس بوصفها سرقات ادبية يقوم بها تلميذ صغير ، او تهمل على اساس انها لا تستحق القراءة حتى لمجرد قتل الوقت .

ليس هناك غير المنافقين الضحلين من سيحاول اخفاء هذه الحقائق بالقول انه كان يحق لماركس ، بوصفه استاذ لاسال ، ان يعامله على هذا النحو . ذلك ان ماركس لم يكن فوق انساني ولم يحاول ابدا ان يتظاهر بأنه اكثر من انسان ، معلنا

انه ليس هناك من شيء انساني غريب عنه . كما ان ترديد آراء الاخرين دون تفكير كان احد الامور التي تبعث فيه ضيقا شديدا . ولا شك ان من العدل له ان يصحح الظلم الذي اوقعه بالاخرين كما يصحح الظلم الذي الحقه الاخرون به . وفي الواقع يكسب شخص ماركس اذا اخضعت علاقاته مع لاسال لنقد غير منحاز اكثر مما لو اقتفينا اثر اتباعه الاورثوذكسيين وسرنا على الطريق الذي شقه دون ان نلتفت لا يمنة ولا يسرى .

كان ماركس بالتأكيد استاذا للاسال بمعنى من المعاني ، ولكنه لم يكن كذلك بمعنى اخر . فقد كان يمكن لماركس ان يقول في لاسال ما قاله هيغل وهو على فراش الموت في تلامذته : لم يفهمني منهم غير واحد ، ولكنه هو ايضا اساء فهمي. لقد كان لاسال المع الاتباع الذين كسبهما ماركس وانغلز خلال حياتهما ، ولكنه لم يستطع ابدا ان يفهم نظرتهما الجديدة للعالم ، المادية التاريخية ، من الالف حتى الياء . ولا شك في ان ماركس كان على حق عندما قال ان لاسال لم يكن قادرا على التحرر من «المفهوم التأملي» للفلسفة الهيغلية ، فعلى الرغم من انه تفهم بشكل كامل الاهمية التاريخية للصراع الطبقي البروليتاري ، الا انه لم يفهم الا باشكال التفكير المثالية التي تخص فوق كل شيء الحقبة البورجوازية ، اشكال التفكير الفلسفية والقانونية .

ونتيجة لذلك لم يقترب لاسال كاقتصادي من حجم ماركس ، فكان لا يدرك الاهمية الكاملة لتعاليم ماركس الاقتصادية ، او انه اساء فهمها كلية . وفي بعض الاحيان كان ماركس يصدر عليه حكما رقيقا في هذا المجال ، مع ان تأنيبه له كان في احيان اكثر قاسيا بشدة . فقد لاحظ ماركس بلطف مشيرا الى تفسير لاسال لنظرية القيمة الماركسية انه وقع ضحية «سوء فهم كبير» ، بينما كان اقرب للحقيقة ان يقال انه فشل في فهمها فشلا كاملا . ذلك ان لاسال لم يتبن سوى جانب واحد من نظرية ماركس في القيمة ، ذلك الجانب الذي يناسب طريقته الفلسفية والقانونية في التفكير : البرهان على ان وقت العمل الاجتماعي العام ، الذي يحدد القيمة ، يجعل الانتاج الاجتماعي العام ضروريا كي يضمن للعامل النتاج الكامل لكدحه . غير ان نظرية القيمة كانت ، بالنسبة لماركس ، تمثل حلا لكل غوامض نمط الانتاج الرأسمالي ، فقد كانت مفتاح فهم تكون القيمة وفضل القيمة كعملية تاريخية لا بد ان تغير نظام المجتمع الرأسمالي الى نظام اشتراكي . كذلك غفل لاسال عن الفارق بين قوة العمل التي تنتج قيمة استعمالية وقوة العمل التي تنتج قيمة تبادلية ، اي غفل عن الطبيعة المزدوجة للعمل المتضمن في السلع ، وكانت تلك بالنسبة لماركس «نقطة حيوية» يعتمد عليها فهم الاقتصاد السياسي . ولا شك في ان الفارق الحقيقي بين لاسال وماركس يتكشف عند هذه النقطة الحاسمة ، انه الفارق بين النظرة الفلسفية ـ القانونية والنظرة الاقتصادية المادية .

كذلك اصدر ماركس حكما قاسيا على نقاط ضعف لاسال في المسائل الاقتصادية الاخرى ، وعلى الاخص العمودين الاقتصاديين الاساسيين للتحريض الذي كان يقوم به لاسال : «القانون الحديدي للاجور» ، كما اسماه لاسال ، والجمعيات الانتاجية

التي تعمل بقروض من الدولة . فقد اعلن ماركس ان لاسال سرق الاولى من الاقتصاديين الانجليزيين مالتوس وريكاردو ، وسرق الثانية من الاشتراكي الكاثوليكي الفرنسي بوشيه ، على الرغم من ان لاسال اخذهما في الواقع عن البيان الشيوعي .

تقول نظرية مالتوس ان عدد السكان يزداد باستمرار بأسرع مما يزداد انتاج المواد الغذائية ، وعلى اساس هذه النظرية طور ريكاردو قانونه الذي يقول ان معدل الاجر يجب ان يقصر نفسه على المقدار الضروري بشكل عام لمجرد العيش في البلد المعني مقترنا بامكانية التناسل . لكن لاسال لم يقبل ابدا هذا التبرير لقانون الاجور بجعله قانونا طبيعيا ، وعارض نظرية مالتوس السكانية بالشدة التي عارضها بها ماركس وانغلز . ولم يصر على الطابع «الحديدي» لقانون الاجور الا فيما يتعلق بالمجتمع الرأسمالي «في ظل الظروف القائمة ، وتحت حكم العرض والطلب» ، وبهذا لم يكن يفعل شيئا غير اقتفاء خطوات البيان الشيوعي .

توفي لاسال قبل ان يثبت ماركس الطابع المرن لقانون الاجور كما يعبر عن نفسه في قمة المجتمع الرأسمالي ، اذ يجد حده الاعلى في ضرورة استخدام راس المال وحدّه الادنى في اعماق الفقر الذي يستطيع العامل ان يتحمله دون التعرض لخطر الموت جوعا . وضمن هذين الحدين ، لا تتحدد حركة الاجور بالتقلبات الطبيعية في عدد السكان ، بل بدرجة المقاومة التي يبديها العمال تجاه الميل المستمر لرأس المال الى اعتصار اكبر قدر ممكن من العمل بلا مقابل من قوة عملهم . وبعد هذا ، اصبح لتنظيم الطبقة العاملة في نقابات اهمية اكبر بكثير من تلك التي كان لاسال على استعداد ليمنحها .

ولذا ، لم يكن يعيب لاسال في هذا المجال غير تخلفه عن ماركس في المسائل الاقتصادية . ولكنه وقع في خطأ جسيم بالنسبة لجمعياته الانتاجية . غير ان لاسال لم يسرق فكرة هذه الجمعيات عن بوشيه ، كما انه لم يعتبرها حلا لكل الشرور الاجتماعية ، بل اعتبرها مجرد خطوة نحو تشريك الانتاج . وفي هذا المجال ، يذكر البيان الشيوعي نفسه تركيز التسليف في يد الدولة وتأسيس مصانع تملكها الدولة، بالاضافة الى عدد من الاجراءات الاخرى ، ولكنه في الوقت ذاته يعلن ان هذه الاجراءات «تبدو غير كافية ومتعذرة اقتصاديا ، ولكنها تتخطى نفسها خلال الحركة، كما انها لا غنى عنها كوسيلة لتثوير نمط الانتاج تثويرا كاملا» . من جهة اخرى ، اعتبر لاسال ان الجمعيات الانتاجية «بذور عضوية تدفع حتما كل تطور أبعد» . ولا شك في انه ابدى دلائل «عدوى بالاشتراكية الفرنسية» عندما افترض ان قوانين الانتاج السلعي يمكن ان تصفى على اساس الانتاج السلعي ذاته .

كان لا بد لنقاط ضعف لاسال في المجال الاقتصادي، التي لا تمكن الاشارة لها هنا الا بخطوطها العامة ، ان تثير حنق ماركس الذي كان يراقبه وهو يشوش ثانية ما كان ماركس نفسه قد حله بعد طويل عناء . ولو قنع ماركس بالاحتجاج النشيط وحتى الغاضب على لاسال ، فان موقفه مفهوم تماما ، ولكنه فشل في حمية ضيقه المبرر ان يرى ان سياسة لاسال هي في الاساس سياسته هو رغم اخطاء لاسال

النظرية . لقد كان ماركس ذاته يقف دائما الى جانب الامساك بالطرف الاقصى لحركة قائمة واستخدامه كرافعة لاجبارها على المزيد من التقدم ، وهذا هو ما فعله في عام ١٨٤٨ . ومن هنا لم يكن لاسال «متأثرا بالظروف المباشرة» اكثر مما كان ماركس في السنوات الثورية . وكذلك يتهم ماركس لاسال بالعصبوية وبالتنكر لكل الروابط الطبيعية مع الحركة السابقة في المانيا ، غير ان هذا ليس صحيحا الا بمعنى ان لاسال لم يذكر لا العصبة الشيوعية ولا بيانها في تحريضه ، ولكن صحيح ايضا ان بضع مئات الاعداد من «نيو راينيخه تزايتونغ» لم تشر الى اي منهما .

وبعد موت ماركس ولاسال ، برر انغلز تاكتيكات لاسال ، بطريقة غير مباشرة وان يكن بوضوح كامل . ففي عامي ١٨٦٦-١٨٦٧ ، نمت في الولايات المتحدة حركة جماهيرية بروليتارية ببرنامج مشوش جدا ، فكتب انغلز الى صديقه سورج : «ان الخطوة العظيمة الاولى التي يجب ان تتخذ في اي بلد يدخل الحركة حديثا هي تنظيم العمال في حزب سياسي مستقل ، ولا يهم كيف ، المهم ان يكون حزبا عماليا بصورة قاطعة» . ومضى ليقول انه اذا كان البرنامج الذي يتبناه حزب كهذا مشوشا وناقصا جدا ، فان ذلك شر لا بد منه ولكنه شر مؤقت . وكتب باللهجة ذاتها الى اصدقاء اخرين في اميركا ، معلنا ان النظرية الماركسية لا تدعي الكمال كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية ، وانها ليست عقيدة جامدة ، بل عرض لعملية تطور وكشف عنها . ويجب على المرء ان لا يزيد في تشوش الفصائل العمالية الاولى باجبار العمال على ابتلاع افكار لا يستطيعون هضمها في هذه اللحظة ، ولكنهم سيكونون راغبين في قبولها فيما بعد .

واشار انغلز ، كي يدعم حجته ، الى الموقف الذي اتخذه وماركس في السنوات الثورية في المانيا : «عندما عدنا الى المانيا في ربيع ١٨٤٨ انضممنا الى الحزب الديمقراطي ، لان ذلك كان الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها جعل الطبقة العاملة تصغي لنا . لقد كنا اكثر اجنحة الحزب تقدما ، ولكننا كنا مع ذلك جزءا منه» . وكما ان «نيو راينيخه تزايتونغ» تجنبت كل ذكر للبيان الشيوعي ، كذلك حذر انغلز الاميركيين من جعله عقيدتهم الفورية المباشرة ، موضحا انه ككل كتابات ماركس الصغيرة الاخرى اصعب من ان يستوعبه العمال الاميركيون في اللحظة الراهنة . فهم قد دخلوا الحركة للمرة الاولى ولا يزالون متخلفين كثيرا في المسائل النظرية : «علينا ان نستخدم الحركة العملية اليومية كرافعة ، ونحن نحتاج الى ادبيات جديدة كل الجدة لهذا الغرض . وعندما يبدأ العمال الاميركيون بالسير على الطريق الصحيح بهذا القدر او ذاك ، فان البيان لن يفشل في احداث اثره ، ولكنه في المرحلة الراهنة لن يؤثر الا في عدد قليل من العمال» . وعندما اعترض سورج قائلا ان البيان احدث فيه اثرا عظيما عندما قرأه للمرة الاولى ، على الرغم من انه لم يكن غير صبي في تلك الايام ، رد انغلز : «لقد كنتم المانا قبل اربعين سنة وكانت لديكم المقدرة النظرية الالمانية ، ولذا احدث البيان اثره فيكم ، ولكنه لم يحدث اي اثر على الاطلاق في الشعوب الاخرى رغم انه ترجم الى الانجليزية والفرنسية والفلامية والدنماركية الخ» .

عندما حل عام ١٨٦٣ ، لم تكن سنوات القمع الحديدي الطويلة قد تركت من هذه

المقدرة النظرية لدى العمال الالمان غير القليل ، فكان من الضروري انقضاء سنوات من التثقيف قبل ان يعودوا ثانية الى فهم البيان . لقد كان تحريض لاسال ، اذن ، امرا لا يرقى اليه اللوم ، بالمقارنة مع ما وصفه انغلز بأنه «الخطوة العظيمة الاولى». ولا شك في ان لاسال كان متخلفا جدا عن ماركس كاقتصادي ، ولكنه كان ندّاً له كثوري ، الا اذا اراد المرء ان يلومه على اساس ان رغبته الحارة في العمل الثوري طغت على صبر الباحث العلمي. فقد كان يكتب كل كتاباته ، عدا «هرقليط» ، بقصد احداث اثر عملي مباشر وفوري .

اقام لاسال تحريضه على الاساس الصلب والعريض للصراع الطبقي وجعل استيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية هدفا لهذا التحريض لا يحيد عنه . اما اتهام ماركس له بأنه كان يسعى الى وضع خطوط تطور الصراع الطبقي طبقا لوصفة دغماتية معينة فاتهام ظالم ، ذلك ان لاسال انطلق في الواقع وبالضبط من تلك «العناصر الحقيقية» التي انتجت بالطبع حركة بين العمال الالمان: مطلب الاقتراع العام ومسألة الجمعيات الانتاجية . فقد كان تقديره للاقتراع العام كرافعة للصراع الطبقي البروليتاري اكثر صحة من تقدير ماركس وانغلز ، على الاقل فيما يتعلق بالظرف الذي كان يجابهه . ومهما قيل في جمعياته الانتاجية ، المعتمدة على تسليف من الدولة ، فانها مع ذلك كانت قائمة على الفكرة الاساسية الصحيحة ، التي عبر عنها ماركس نفسه بعد ذلك ببضعة اعوام بقوله : «اكي يتم انقاذ العاملين ، يجب ان ينمو العمل التعاوني الى حدود قومية ، ولذا فانه يجب منطقيا ان يدعم بوسائل الدولة» . ولربما كان لاسال قد بدا على السطح «عصبويا» ، ولكن ذلك لم يكن الا نتيجة الاعجاب العظيم الزائد الذي كان اتباعه يبدونه نحوه ايضا . والمسؤولية في ذلك لا تقع على عاتقه اطلاقا ، فقد تجشم الكثير من العناء ليتجنب «اتخاذ الحركة طابع عرض يقوم به رجل واحد بسبب الاغبياء» . ولـم يحاول لاسال ان يكسب ماركس وانغلز فحسب الى صفه ، بل حاول ذلك ايضا مع بوشيه ورودبيرتس ، ولكنه لم يجد ندّاً له يشاركه العمل . ولذا فقد كان من الطبيعي ان يأخذ عرفان العمال لجميله شكل عبادة شخصية له . من جهة اخرى ، صحيح ايضا انه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يخفي تألقه الشخصي ، ولم يكن يملك فضيلة نكران الذات التي جعلت ماركس يضع نفسه خلف القضية دائما .

تبقى نقطة هامة اخرى تستحق الالتفات ، هي بالتحديد صراع البورجوازية الليبرالية العنيف ظاهرا ضد الحكومة البروسية ، فقد نما التحريض الذي قام به لاسال من هذا الصراع . كان ماركس وانغلز منذ ١٨٥٩ قد عادا مـرة اخـرى الى تركيز اهتمامهما على الشؤون الالمانية ، ولكنهما لم يتمكنا حتى العام ١٨٦٦ مـن تكوين صورة صحيحة عن الوضع ، كما يتبين بوضوح من رسائلهما . فعـلى الرغم من تجربتهما خلال السنوات الثورية ، كانا لا يزالان يعتقدان بامكانية نشوب ثـورة بورجوازية وحتى ثورة عسكرية ، وكما انهما بالغا في تقدير البورجوازية الالمانيـة ، كذلك قللا من اهمية سياسة «بروسيا الكبرى» . ولم ينجحا ابدا في التغلب على انطباعاتهما ايام الشباب ، عندما كان وطنهما الراينلاند ، المدرك بفخار لحضارتـه

الحديثة ، ينظر باحتقار الى المقاطعات البروسية القديمة . وكلما كانا يركزان انتباههما على الخطط القيصرية للسيطرة على العالم ، كلما كانا يميلان أكثر الى اعتبار الدولة البروسية مجرد مقاطعة روسية . حتى انهما كانا يميلان الى اعتبار بسمارك مجرد أداة في يد أداة روسيا ، العوبة في يد « الرجل الغامض في قصر تويليري » الذي كانا قد أعلنا حتى في ١٨٥٩ انه لا يرقص الا على أنغام الدبلوماسية الروسية . ولم يخطر ببالهما أن السياسة البروسية ، مع كل سماتها البغيضة ، تؤدي الى نتائج غير سارة بالنسبة لباريس كما بالنسبة لبطرسبرغ بالتساوي . وظلا يعتبران ان من الممكن قيام ثورة بورجوازية في المانيا ، ولذا اعتبرا أن تحريض لاسال لا يتفق اطلاقا مع التطور .

غير أن لاسال كان يرى الامور عن كثب ، وكان تقييمه لها أسلم . فقد أقام سياسته على افتراض ان حركة البورجوازية التقدمية لن تؤدي الى شيء « حتى ولو انتظرنا قرونا بل وحقبا جيولوجية » ، وكان على حق . وحالما استثنى امكانية نشوب ثورة بورجوازية ، أدرك محقا ان توحيد المانيا ، اذا كان ممكنا على الاطلاق ، لا يمكن أن يتم الا عبر تغييرات في السلالات المالكة ، ورأى ان حزب العمال الجديد يجب ان يلعب دور القوة الدافعة لذلك . ولذا تفاوض مع بسمارك محاولا دفعه الى اقتحام المخاطر بسياسة بروسيا الكبرى التي كان يتبناها . ولكن لاسال غامر بنفسه بعيدا ، وعلى الرغم من انه لم يخرق مبادئه الا انه خرق بالتأكيد اعتبارات الفطنة السياسية ، مما جعل ماركس وانغلز يعترضان على ذلك بشدة وعن حق .

يمكن القول في التحليل الاخير ، أن ما جعل ماركس وانغلز يفترقان عن لاسال في عامي ١٨٦٣ ـ ١٨٦٤ لم يكن سوى « تقييمات متعارضة لاوضاع معطاة » ، وهكذا يجب ان يستثنى ما يبدو وكأنه ضغينة شخصية تتخلل الاحكام القاسية التي أصدرها ماركس على لاسال خلال تلك السنوات . غير أن ماركس لم يستطع أبدا أن يتغلب على تحيزه ضد الرجل الذي لن ينساه تاريخ الاشتراكية الديمقراطية الالمانية وسيظل يذكره معه ومع انغلز جنبا الى جنب ، حتى أن قوة الموت المهدئة لم يكن لها أثر دائم .

تلقى ماركس نبأ وفاة لاسال من فريليغارث ، فأبرق بالنبأ الى انغلز في ٣ أيلول ١٨٦٤ ، وفي اليوم التالي رد انغلز قائلا : « تستطيع أن تتخيل كم فاجأني النبأ . فمهما كان لاسال شخصيا ومن وجهة نظر علمية وأدبية ، الا انه كان سياسيا من أفضل العقول في المانيا بالتأكيد . لقد كان بالنسبة لنا صديقا غير موثوق أبدا ، وكان سيصبح عدوا أكيدا لنا في المستقبل ، ولكن المرء يتأثر مع ذلك اذ يرى كيف تدمر المانيا رجال الحزب المتطرف القديرين الى هذا الحد أو ذاك . كم سيغتبط الصناعيون والخنازير التقدميون ـ لقد كان لاسال الرجل الوحيد الذي يخشونه في المانيا » .

تأخر ماركس بضعة أيام ، وفي ٧ أيلول رد قائلا : « لقد اقلقتني مصيبة لاسال قلقا مضنيا خلال الايام القليلة الماضية . فقد كان على أية حال واحدا من الحرس القديم وعدوا لاعدائنا . . . ولكن مع ذلك كله ، اشعر بالاسف لان علاقاتنا كانت

متلبدة الى هذا الحد خلال السنوات الماضية ، رغم أن ذلك كان خطأه . ومن جهة أخرى ، أشعر بالسرور البالغ لانني قاومت تحريض دوائر مختلفة وامتنعت عن مهاجمته خلال سنة يوبيلة . يا للعنة ، المجموعة تصغر وتصغر وليس هناك من امدادات » . وقال في رسالة تعزية بعث بها الى الكونتيسة هاتزفيلدت : «لقد مات شابا ، في المعركة ، مثل أخيل » . وعندما حاول بلايند بعد ذلك بقليل أن يجعل نفسه مهما على حساب لاسال ، سحقه ماركس بكلمات ملؤها الاحتقار : « ليست لدي أية نية في أن أحاول شرح شخصية رجل كلاسال والاهمية الحقيقية للتحريض الذي قام به لمهرج غريب لا يخلف وراءه غير ظله . ولكنني على أية حال أشعر أن السيد كارل بلايند لا يفعل غير اطاعة ما تمليه عليه طبيعته ذاتها عندما ينخز الاسد الميت » . وبعد ذلك ببضعة اعوام ، امتدح ماركس في رسالة الى شفايتزر « خدمة لاسال الخالدة » التي أداها ، رغم « الاخطار الكبيرة التي وقع فيها في تحريضه » ، عندما بعث الحياة في حركة الطبقة العاملة بعد سبات دام خمسة عشر عاما .

ولكن لسوء الحظ ، جاءت أيام حكم فيها ماركس على لاسال الميت بقدر أكبر من المرارة والاجحاف يفوق ما كان قد ابداه نحوه خلال حياته . وهكذا تتبقى رواسب مؤسفة لا تجد حلا لها الا بالفكرة الملهمة ، فكرة أن حركة الطبقة العاملة الحديثة أكبر بكثير من أن يستوعبها بكليتها أي عقل فرد ، حتى أقوى العقول .

الفصل الحادي عشر

السنوات الاولى للأممية

١ ـ تاسيس الاممية

تأسست الرابطة الاممية للرجال العاملين في اجتماع كبير عقد في قاعة سان مارتن بلندن في ٢٨ أيلول ١٨٦٤ ، اي بعد وفاة لاسال ببضعة أسابيع .

لم تكن الاممية عملا من صنع رجل واحد ، ولا كانت « جسما صغيرا براس كبير » . وفوق كل شيء لم تكن ظلا لا اهمية له ولا كانت تهديدا رهيبا ، كما وصفها خيال الكتاب الراسماليين ، مجافاة منهم للواقع . لقد كانت الاممية الاولى مرحلة انتقالية في النضال البروليتاري من أجل الانعتاق ، وكانت مرحلية بقدر ما كانت ضرورية .

ان الانتاج الراسمالي ، وهو تناقض متضمن بحد ذاته ، ينتج الدول الحديثة ويدمرها معا . فهو يزيد حدة كل التناقضات العدائية القومية الى أبعد الحدود وفي الوقت ذاته يخلق كل الامم على صورته ومثاله. وما دام نمط الانتاج الراسمالي قائما، فلن تجد هذه التناقضات حلا لها ، ولذا فقد هزمت مرة تلو الاخرى أخوة الانسان ، تلك الاخوة التي غنت لها كل الثورات البورجوازية أحلى الاغاني وارقها . ففي الوقت الذي بشرت فيه الصناعة الكبيرة بحرية الامم وسيادة السلام بينها جميعا ، حولت العالم كله الى معسكر مسلح كما لم يحدث في التاريخ من قبل .

غير أن تناقضات نمط الانتاج الراسمالي سوف تختفي باختفائه . صحيح أن النضال البروليتاري من اجل الانعتاق يجب أن ينمو ويتطور على أساس قومي لان عملية الانتاج الراسمالي تنمو وتتطور ضمن الحدود القومية ، ولذا تجد البروليتاريا في كل بلد نفسها وجها لوجه مع بورجوازية هذا البلد . ولكن البروليتاريا رغم ذلك يجب أن لا تخضع للمنافسة القاسية التي حطمت كل أحلام البورجوازية بالسلام العالمي والحرية . وحالما يدرك العمال ذلك ، يتعين عليهم أن يتخلصوا من التنافس

بين صفوفهم اذا ارادوا أن يقاوموا قوة رأس المال المتفوقة مقاومة فعالة ـ وهـذا الادراك يتطابق مع أول يقظة لوعيهم الطبقي ـ وعندئذ يصبح ذلك مجرد خطوة نحو الادراك الاعمق بأن التنافس بين الطبقات العاملة في مختلف البلدان يجب أن يتوقف كذلك ، واكثر من ذلك يجب أن تتعاون الطبقات العاملة في مختلف البلدان تعاونا أمميا اذا كان لها أن تطيح بالسيطرة العالمية للبورجوازية .

لذا ، جعلت النزعة الاممية نفسها محسوسة في وقت مبكر من تاريخ حركة الطبقة العاملة الحديثة . ان ما تعتبره البورجوازية ، بفعل ضيق الافق الذي ينجم عن مصالحها ، غير وطني وجهلا وافتقارا الى الفهم ، ليس في الواقع غير شرط حيوي لوجود النضال البروليتاري من أجل الانعتاق بحد ذاته . وعلى الرغم من أن هذا النضال يستطيع حل التناقض العدائي بين القومية والاممية ، بينما يحكم على البورجوازية أن تظل تتلوى تحت وطأته ما دامت تعيش ، الا أن العمال لا يملكون حلا سحريا في هذا المجال كما في اي مجال آخر ، فهم لا يستطيعون أن يحولوا الطريق الصاعد الشاق الى طريق سهل سوي . اذ يتعين على الطبقة العاملة الحديثة أن تخوض معاركها في ظل شروط خلقها التطور التاريخي ، وهي لا تستطيع أن تتغلب على هذه الشروط بهجوم صاعق سريع ، بل فحسب بفهم هذه الشروط ، بالمعنى الهيغلي : الفهم هو الانتصار .

كان هذا الفهم صعبا جدا لان بدايات حركة الطبقة العاملة وبدايات الاممية فيها، جاءت في وقت واحد متداخلة ومتقاطعة مع بدايات عدد من الدول القومية الكبيرة، التي كانت تؤسس نتيجة لنمط الانتاج الراسمالي . أعلن البيان الشيوعي أن العمل الموحد من جانب البروليتاريا في كل البلدان شرط ضروري للانعتاق ، وجاءت ثورة ١٨٤٨ بعد هذا البيان ببضعة اسابيع . ووضعت هذه الثورة البروليتاريا والبورجوازية في انجلترا وفرنسا مقابل بعضهما ، ولكنها في المانيا وايطاليا اطلقت النضال في سبيل الاستقلال القومي . غير أن البروليتاريا أدركت ، بقدر ما ظهرت على المسرح كقوة مستقلة ، وعن حق أن هذه النضالات من أجل الاستقلال القومي لا تستطيع أن تحقق غايتها النهائية ، ولكنها مع ذلك مرحلة على الطريق نحو تحقيقها . فأمدت البروليتاريا الحركتين القوميتين في المانيا وايطاليا بأشجع مقاتليهما ، ولم تجد هاتان الحركتان نصيحة تقدم لهما أفضل من تلكالتي كانت تقدمها«نيو راينيخه تزايتونغ » التي كان يصدرها مؤلفا البيان الشيوعي . غير أن الصراعات القومية دفعت فكرة الاممية الى الخلف، خاصة عندما بدأت بورجوازية المانيا وايطاليا تحتمي بالحراب الرجعية . شكل العمال في ايطاليا انفسهم في جمعيات تحت راية ماتزيني الذي لم يكن اشتراكيا ولكنه كان على الاقل جمهوريا . أما في المانيا ، التي كانت اكثر تطورا من ايطاليا والتي أدرك عمالها المضامين الاممية لقضيتهم حتى في ايام ويتلينغ ، فقد نشبت حرب أهلية استمرت عشر سنين حول هذه المسألة القومية بالذات .

كان الوضع في انجلترا وفرنسا مختلفا تماما عندما بدأت الحركة البروليتارية الحديثة ، فقد تحققت الوحدة القومية في هذين البلدين قبل ذلك بوقت طويل ،

وكانت فكرة الاممية فيهما حية حتى قبل ايام ثورة آذار . وكانت باريس تعتبر عاصمة الثورة الاوروبية ولندن عاصمة السوق العالمي ، ولكن فكرة الاممية عانت انحسارا ، حتى في انجلترا وفرنسا ، بعد الهزائم التي لحقت بالبروليتاريا .

انهك نزيف الدم في ايام حزيران الطبقة العاملة الفرنسية ، واعاقت يد الاستبداد البونابرتي الحديدية التنظيم السياسي والتنظيم النقابي على حد سواء . ونتيجة لذلك عادت حركة الطبقة العاملة في فرنسا لتقع في فئوية فترة ما قبل الايام الثورية . ومن تشوش الحركة وتخبطها ، بدأت نزعتان رئيسيتان تتطوران لتفصلا ما بين العناصر الثورية والعناصر الاشتراكية. تبلورت احدى هاتين النزعتين حول بلانكي ، الذي لم يكن يملك برنامجا اشتراكيا حقيقيا والذي كان يهدف الى الاستيلاء على السلطة السياسية بانقلاب جريء تقوم به الاقلية المصممة الحازمة . اما النزعة الاخرى ، وكانت اقوى بما لا يقارن بالاولى ، فقد كانت تحت التأثير الفكري لبرودون الذي سعى الى ابعاد العمال عن النضال السياسي بمخططاته لانشاء بنوك التبادل من اجل ادخال التسليف الحر وغير ذلك من التجارب العقدية الشبيهة . وكان ماركس قد اوضح من قبل في « الثامن عشر من برومير » ان هذه الحركة تخلت عن كل محاولة لتحويل العالم القديم بالوسائل الكثيرة التي يقدمها هذا العالم ذاته لهذا الغرض، بينما تسعى الى الخلاص بطرق خلفية وبوسائل خاصة وضمن شروط وجودها المحدودة .

وبعد انهيار الحركة الشارتية ، بدأت عملية تطور شبيهة في كثير من الوجوه في انجلترا ايضا . كان الطوباوي الكبير روبرت أوين لا يزال حيا ، مع انه كان قد شاخ كثيرا ، وانحطت مدرسته الى نوع من الجمعية الدينية ذات التفكير المتحرر . والى جانب مدرسة أوين ، كانت هناك اشتراكية كينغسلي وموريس المسيحية ؛ وعلى الرغم من أن هذه الاشتراكية يجب أن لا تقارن بالاشتراكيات التي لم تكن غير كاريكاتور لها في القارة الاوروبية ، الا انها مثلها سعت الى اهداف تثقيفية وتعاونية ورفضت ان تكون لها اية علاقة بالنضال السياسي . حتى النقابات ، التي كانت انجلترا تتفوق بها على فرنسا ، ظلت لا مبالية سياسيا تقصر نشاطها على تحقيق المصالح المباشرة الفورية ، وتلك سياسة سهلتها النشاطات الصناعية المحمومة في الخمسينات في انجلترا ، كما سهلها موقع انجلترا المسيطر في السوق العالمي .

ورغم ذلك كله ، لم تخفت حركة الطبقة العاملة العالمية على الارض الانجليزية في السبات الا ببطء شديد ، ويمكن تتبع آثارها حتى نهاية الخمسينات . فقد استمر الديمقراطيون الاخويون يجرجرون انفسهم في ايام حرب القرم ، حتى انهم عندما اختفوا في النهاية شكلوا لجنة اممية وبعد ذلك رابطة اممية ، بفضل الجهود التي بذلها ارنست جونز . لم يكن لهاتين المنظمتين اهمية كبيرة ؛ ولكنهما على الاقل بينتا أن فكرة الاممية لم تمت تماما وان نيرانها لم تخب وانها يمكن أن تندلع ثانية بفعل ريح قوية .

هبت هذه الريح على شكل الازمة التجارية في ١٨٥٧ والحرب في ١٨٥٩ وعلى الاخص الحرب الاهلية التي اندلعت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية في

اميركا عام ١٨٦٠ . كانت الازمة التجارية عام ١٨٥٧ الضربة القوية الاولى التي توجه للحكم البونابرتي في فرنسا ، ولم تصادف محاولة التغلب على آثارها بالقيام بمغامرة سياسية اجنبية اي نجاح . فقد خرجت اللعبة التي بداها بونابرت المزيف من بين يديه . اذ نمت حركة الوحدة الايطالية وصارت اقوى من ان يستطيع ضبطها بينما لم تجد البورجوازية الفرنسية سوى القليل من الميل الى السماح بخداعها وارضائها باكاليل غار ماجنتا وسولفرينو القليلة نوعا ما . وفي ظل هذه الظروف ، اصبحت فكرة لجم البورجوازية الوقحة باعطاء الطبقة العاملة قدرا من حرية الحركة فكرة واضحة ، وفي الواقع اعتمد وجود الامبراطورية الثانية ذاته على نجاح بونابرت في حل المشكلة بجعل البورجوازية والبروليتاريا تتقارعان بينما يبقي هو على اعنة القياد في يديه .

وبالطبع ، كان بونابرت ينوي ان يمنح البروليتاريا تنازلات نقابية فحسب وليس تنازلات سياسية . وكان برودون ، الذي مارس تاثيرا كبيرا على حركة الطبقة العاملة ، يعارض الامبراطورية الثانية ، رغم ان بعض اقواله المتناقضة يمكن ان تعطي انطباعا معاكسا ، ولكنه كان كذلك يعارض الاضرابات . غير ان هذه كانت هي المسالة التي بدا العمال الفرنسيون ينفلتون فيها ، فرغم تحذيرات برودون ورغم القوانين التي تحظر الانتظام النقابي ، حكم على ما لا يقل عن ٣٩٠٩ عمال بين عامي ١٨٥٣ و١٨٦٦ لمخالفتهم هذه القوانين ، وكان عدد النقابات التي جرت محاولة تشكيلها لا يقل عن ٧٤٩ . وعندئذ بدا بونابرت المزيف يصدر العفو عن المحكومين ، كما انه دعم ارسال العمال الفرنسيين الى المعرض الكبير في لندن عام ١٨٦٢ ، وينبغي الاعتراف بانه فعل ذلك بشكل اكمل وافعل مما فعلت الجمعية الوطنية الالمانية ، التي طبقت الفكرة الساذجة ذاتها . انتخب المندوبون من جانب رفاقهم العمال في كل صناعة على حدة ، فاقيم مئة وخمسون صندوقا انتخابيا في باريس وانتخب مئتا مندوب ارسلوا الى لندن . وتأمنت مصاريف الرحلة عن طريق الاستكتاب الطوعي وعن طريق معونة دفعتها الخزينة الامبراطورية والخزينة البلدية ، اللتان قدمت كل منهما ٢٠ الف فرنك . وعندما عاد المندوبون سمح لهم أن ينشروا تقارير مفصلة ، وكانت هذه التقارير بشكل عام تعالج امورا تتخطى حدود الشؤون النقابية . كان هذا العمل في ظل الظروف السائدة في فرنسا حينذاك يمثل عملا من الطراز الاول من جانب الدولة ، وجعل ذلك رئيس شرطة باريس يتنهد ويقول انه كان على الامبراطور ان يلغي القوانين التي تحظر الانتظام النقابي جميعا قبل ان يبدأ باجراء تجارب من هذا القبيل .

والواقع ان العمال الفرنسيين جازوا الامبراطور الذي حاول ان ينصب نفسه وصيا عليهم بالطريقة التي كان يستحقها لا بالطريقة التي كان يتوقعها .. فخلال انتخابات ١٨٦٣ لم يحصل مرشحو الحكومة في باريس الا على ٨٢ الف صوت مقابل ١٥٣ الف صوت حصلت عليها المعارضة ، بينما كان مرشحو الحكومة قد حصلوا في انتخابات عام ١٨٥٧ على ١١١ الف صوت ، ولم يحصل مرشحو المعارضة الا على ٩٦ الف صوت . وقد افترض بشكل عام ان ذلك يعود بدرجة بسيطة الى تغير

موقف البورجوازية ، وبشكل رئيسي الى تغير موقف الطبقة العاملة ، التي اعلنت استقلالها في اللحظة ذاتها التي بدا فيها بونابرت المزيف يغازل العمال ، مع أنها كانت لا تزال تسير تحت راية الراديكاليين البورجوازية . تأكد هذا الافتراض بالانتخابات الفرعية في باريس عام ١٨٦٤ عندما رشح سنون من العمال نحاتا يدعى تولين واصدروا بيانا يعلنون فيه ولادة الاشتراكية. أعلن البيان ان الاشتراكيين تعلموا من التجربة الماضية ، ففي ١٨٤٨ لم يكن العمال يملكون برنامجا واضحا وتبنوا هذه النظرية الاجتماعية او تلك بدافع من غريزتهم وليس بدافع من تفكيرهم . اما اليوم فانهم يرفضون كل المبالغات الطوباوية ويسعون الى الخلاص عبر الاصلاحات الاجتماعية مثل حرية الصحافة وحق التنظيم ونقض القوانين التي تحظر الانتظام النقابي والتعليم العام المجاني والغاء الموازنة الدينية .

غير أن تولين لم يحوز في الانتخابات غير بضع مئات من الاصوات . وكان برودون متفقا مع محتويات البيان ولكنه عارض الاشتراك في الانتخابات معتبرا ان وضع اوراق بيضاء في صناديق الاقتراع يشكل احتجاجا اكثر فعالية ضد نظام الامبراطورية الثانية . اما البلانكيون فقد وجدوا ان البيان معتدل جدا بالنسبة لهم ، بينما هاجمت البورجوازية بكل ظلالها الليبراليةوالراديكالية . عدا استثناء واحد او اثنين ، تولين هجوما ساخرا لاذعا ، مع انه لم يكن في برنامج تولين ما يسبب لهم في الواقع قلقا . وكانت تلك ظاهرة تشبه ما كان يحدث في المانيا في الوقت ذاته .
شجع ذلك بونابرت على القيام بخطوة اخرى ، فاصدر في ايار ١٨٦٤ قانونا جديدا. وعلى الرغم من أن هذا القانون لم يلغ الخطر المفروض على النقابات (حدث ذلك بعد اربع سنوات) ، الا انه على الاقل نقض فقرات قانون العقوبات التي تنص على معاقبة العمال الذين يتثبت مشاركتهم في هيئات تهدف الى تحسين ظروف عملهم .

اما في انجلترا فقد الغيت القوانين التي تحظر الانتظام النقابي في ١٨٢٥ ، ولكن وجود النقابات كان ما يزال غير آمن سواء قانونيا او واقعيا ، بينما لم تكن جماهير اعضائها تملك حق الاقتراع الذي يمكن أن يسمح لها بالغاء العوائق القانونية التي تقف في وجه نضالها من أجل ظروف عمل افضل . وكان تطور الراسمالية القارية قد دمر عدة نقابات وخلق للعمال الانجليز منافسة خطرة ، ففي كل مرة حاول العمال فيها الحصول على اجور أعلى ، كان الراسماليون الانجليز يهددون باستيراد عمل اجنبي ارخص من فرنسا وبلجيكا والمانيا وبلدان اخرى . وفي ظل هذا الوضع ، اثارت الحرب الاهلية الاميركية العمال وسببت ازمة قطن نجم عنها انتشار تعاسة رهيبة بين عمال النسيج .

بهذه الطريقة ، استيقظت النقابات الانكليزية من سباتها المريح ونمت « النقابية الجديدة » التي تمثلت بعدد من القادة المجربين للنقابات القديمة : آلاف من المهندسين وابليارت من النجارين ولوكروفت من عمال اللحام وكريمر من البنائين واودغر من عمال الاحذية وغيرهم . أدرك هؤلاء الرجال ضرورة النضال السياسي من أجل النقابات وحولوا انتباههم الى مسألة اصلاح الاقتراع . وكان هؤلاء هم الذين حركوا اجتماعا ضخما حدث في قاعة سانت جيمس برئاسة القائد الراديكالي جون

رايت وسجل احتجاجا شديد اللهجة ضد نية بالمرستون التدخل في الحرب الاهلية الاميركية الى جانب الولايات الجنوبية، وعندما زار غاريبالدي لندن في ربيع ١٨٦٤، نظموا له استقبالا ضخما حافلا .

كذلك بعث الاستيقاظ السياسي للطبقتين العاملتين الفرنسية والانكليزية فكرة الاممية . فقد عقد « احتفال مؤاخاة » في عام ١٨٦٢ في المعرض الكبير في لندن بين العمال الانكليز والمندوبين الفرنسيين . وتقوت هذه الرابطة اكثر بفعل الانتفاضة البولندية عام ١٨٦٣ . كانت القضية البولندية تلاقي دائما شعبية بين العناصر الثورية في بلدان اوروبا الغربية . فقد جعل اضطهاد بولندا وتجزئتها من الدول الاوروبية الثلاث كتله رجعية واحده، وكان لا بد لعودة بولندا الى الاستقلال من أن يشكل ضربة قاصمة ضد الهيمنة الروسية في اوروبا . وكان الديمقراطيون الاخويون يحتفلون دائما بذكرى الثوره البولندية عام ١٨٣٠ ،ولم تكن هذه الاحتفالات غير تظاهرات حماسية تطالب ببولندا مستقله موحده ، وكان يعف خلفها دائما فكرة اساسية هي أن بولندا ديمقراطية حرة شرط ضروري للنضال البروليتاري من أجل الانعتاق . كان هذا هو الحال ايضا في عام ١٨٦٣ . فبرزت اللهجة الاشتراكية بوضوح تام في الاحتفالات التي جرت في لندن بحضور ممثلي العمال الفرنسيين . كذلك كانت المسألة الاجتماعية اساس خطاب ارسلته لجنة من العمال الانجليز برئاسة أودغر الى العمال الفرنسيين لتشكرهم لارسال مندوبين الى احتفالات لندن . وأوضحت الرسالة على وجه الخصوص أن رأس المال الانجليزي يكبح جماح العمال الانجليز باستيراد العمل الاجنبي الرخيص ، وان ذلك لم يكن ممكنا لولاان الطبقات العاملة في البلدان المختلفة لم تنشىء بعد علاقات وثيقة اخوية بين بعضها البعض .

ترجم هذا الخطاب الى الفرنسية البروفيسور بيسلي ، وهو استاذ للتاريخ بجامعة لندن كان قد أسدى للعمال خدمات كثيرة ، ولاقى الخطاب صدى قويا في مصانع باريس حيث قرر العمال ارسال ردهم الى لندن مع وفد خاص . وفي ٢٨ ايلول ١٨٦٤ عقد اجتماع في قاعة سانت مارتن برئاسة البروفيسور بيسلي للترحيب بهذا الوفد الفرنسي . ازدحمت القاعة حتى ابوابها وسمع العمال الانجليز تولين يقرأ رد العمال الفرنسيين ، الذي اشار الى الانتفاضة البولندية بالكلمات التالية : « مرة اخرى تغرق بولندا بدماء أبنائها ونحن نشهد ذلك بلا حول » ومضى ليطالب بأن يكون صوت الشعب مسموعا في كل المسائل السياسية والاجتماعية الهامة وقال ان سلطة رأس المال الاستبدادية يجب أن تحطم . فقد تحول العامل بسبب تقسيم العمل الى اداة ميكانيكية ولا بد أن تتحول التجارة الحرة في غياب التضامن البروليتاري الاممي الى شكل من القنانة الصناعية اقسى وارهب من القنانة التي حطمتها الثورة الفرنسية الكبرى . ان على عمال العالم أن يتحدوا كي يواجهوا نظاما رهيبا كهذا بمقاومة حازمة .

وبعد مناقشة نشيطة تحدث فيها ايكاريوس نيابة عن العمال الالمان تبنى الاجتماع اقتراحا تقدم به النقابي ويلر لانتخاب لجنة لها صلاحية اضافة اعضاء جدد لها ، وتكليفها بوضع نظام داخلي لرابطة أممية للعمال يستخدم حتى ينعقد مؤتمر اممي في

بلجيكا لاقراره نهائيا . انتخبت اللجنة من عدد من النقابيين وممثلي العمال الاجانب ومن بينهم ممثل عن العمال الالمان هو كارل ماركس ، الذي ذكرت تقارير الصحف اسمه في ذيل القائمة .

٢ ـ خطاب الافتتاح

لم يكن ماركس قد لعب دورا فعالا في الحركة حتى هذا الاجتماع ، ولكنه دعي اليه ليمثل العمال الالمان وليسمي خطيبا يتحدث باسمهم . فسمى ايكاريوس بينما ظل هو مراقبا صامتا . كان ماركس يقدر اهمية عمله العلمي حق قدرها فلم يكن ليفضل عليه أية مجهودات تنظيمية طائشة أو لا رجاء فيها ، ولكنه كان يضع هذا العمل جانبا عندما يبدر عمل مفيد حقا لقضية البروليتاريا ، وقد أدرك هذه المرة أن «امورا لها اهميتها» تجري ، فكتب باللهجة ذاتها الى وايد ماير وغيره من الاصدقاء يقول : « ليست اللجنة الامية للعمال غير هامه . فاعضاؤها الانجليز يتألفون بصورة رئيسية من رؤساء النقابات أي من حماة العمل الحقيقيين في لندن ، أولئك الرجال الذين نظموا الاستقبال الهائل لغاريبالدي وذلك الاجتماع الضخم في قاعة سانت جيمس (برئاسة برايت) الذي منع بالمرستون من اعلان الحرب على الولايات الشمالية كما كان ينوي . اما فيما يتعلق بالفرنسيين من أعضاء اللجنة فانهم ليسوا على قدر كبير من الاهمية ولكنهم المثلون المباشرون للعمال في باريس. كذلك أقيمت اتصالات مع الجمعية الايطالية التي عقدت مؤتمرها في نابولي مؤخرا وعلى الرغم من أنني رفضت باستمرار سنوات عدة الاشتراك في أية منظمة الا انني قبلت هذه المرة لان هناك امكانية عمل جيد حقا » . وكتب الى انغلز يقول : « من الواضح أن هناك انبعاثا للطبقات العاملة » واعتبر أن واجبه الاساسي قيادة هذا الانبعاث على خطوط صحيحة .

لحسن الحظ اعطته الظروف القيادة الفكرية اوتوماتيكيا . اضافت اللجنة الى نفسها اعضاء جددا حتى بلغ عدد الاعضاء قرابة الخمسين ، نصفهم من الانجليز بينما كانت اكبر مجموعة بعد الانجليز هي المجموعة الالمانية وضمت ماركس وايكاريوس ولسنر ولوخنر وفاندر وكلهم قد كان عضوا في العصبة الشيوعية . اما فرنسا فقد كان لها تسعة ممثلين وايطاليا ستة وكل من بولندا وسويسرا اثنان . وبعد أن شكلت اللجنة نفسها ، عينت لجنة فرعية لوضع البرنامج والنظام الداخلي.

انتخب ماركس ايضا لهذه اللجنة الفرعية ولكنه لم يستطع أن يحضر الكثير من اجتماعاتها بسبب مرضه ولان الدعوات كانت تصل متأخرة احيانا . وفي تلك الاثناء حاول الميجور وولف ، السكرتير الشخصي لماتزيني ، والانكليزي وستون والفرنسي لوبيه عبثا اداء المهمة التي شكلت من اجلها اللجنة الفرعية . فعلى الرغم من أن ماتزيني كان يتمتع بشعبية كبيرة بين العمال الانجليز في ذلك الوقت الا ان معرفته بحركة الطبقة العاملة الحديثة كانت أقل بكثير من أن تجعل قادة اللجنة الفرعية من

النقابيين المجربين يقتنعون بالمسودة التي وضعها . انه ببساطة لم يفهم النضال الطبقي البروليتاري ولذا فقد كرهه . وكان برنامجه يحتوي على بضعة جمل اشتراكية ولكن من النوع الذي كانت البروليتاريا في الستينات قد تخلت عنه . وكذلك كان النظام الداخلي الذي تقدم به موضوعا بروح حقبة قد مضت وانقضت اذ كان ينص على درجة عالية من المركزية كتلك التي تفرضها متطلبات المؤامرات السياسية . ونتيجة لذلك لم تكن محاولة مانزيني غريبه تماما عن الظروف النقابية بشكل عام فحسب ، بل وغريبة ايضا عن اهداف الرابطة الاممية للعمال بشكل خاص . اذ لم يكن هدف الرابطة خلق حركة جديده ، بل فحسب ربط حركات الطبقات العامله التي كانت موجودة في البلدان المختلفة . كذلك لم تكن المسودات التي تقدم بها لوبيه ووستون تمثل اكثر من حشد لجمل عامة .

لذا ظل الوضع ميئوسا منه حتى تقدم ماركس وأخذ الامر بيده. كان ماركس مصمما على الغاء كل الجهود السابقه جانبا ان امكن ، ولكي يحرر نفسه منها تماما وضع خطابا موجها الى الطبقة العاملة ـ وتلك فكرة لم تكن قد خطرت لاجتماع سانت مارتن ـ يشكل نوعا من المراجعة لتاريخ حركة الطبقة العاملة منذ عام ١٨٤٨ ليكون مقدمة للنظام الداخلي للمنظمة الجديده ، الذي يمكن حينئذ أن يكون أكثر اختصارا ووضوحا. وافقت اللجنة الفرعيةعلى اقتراحات ماركس وكان كل ما طلبته اضافة بضع جمل عن «الحق والواجب والحقيقة والاخلاق والعدالة» ، ولكن ماركس نجح ، كما قال في رسالة الى انغلز ، في وضعها بطريقة لا تجعلها مضرة . وبعد ذلك تبنت اللجنة بالاجماع وبحماسة « الخطاب الافتتاحي والقواعد المؤقتة ».

قال البروفسور بيسلي فيما بعد مشيرا الى هذه الوثيقة أنها ربما كانت أشمل وأقوى عرض لقضية الطبقة العاملة ضد الطبقة الوسطى وضع في حجم لا يزيد كثيرا عن عشر صفحات . تبدأ الوثيقة بتسجيل حقيقة مؤثرة هي أن تعاسة الطبقة العاملة لم تنقص في السنوات ما بين ١٨٤٨ و ١٨٦٤ ، رغم أن هذه الفترة كانت فترة تطور صناعي وتجاري لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، وتثبت الوثيقة ذلك بمقارنة الاحصائيات المرعبة المنشورة فيالمصادر الرسمية عن تعاسة البروليتاريا الانجليزية، وبارقام رسمية أخرى استخدمها وزير الخزانة ، جلادستون ، في خطاب موازنة اراد ان يبين فيه « الازدياد المذهل للثروة والقوة » الذي حصل في الفترة ذاتها والذي « اقتصر كليا على الطبقات المالكة » . وقد عرى الخطاب هذا التناقض الصارخ على أساس الاحوال في انجلترا ، لان انجلترا كانت أقوى بلد في اوروبا صناعيا وتجاريا، ولكنهاوضح انظروفا شبيهة تقوم علىنطاق أصغر نوعا ما، بسبب الاختلافات المحلية، في كلالاقطار الاوروبية حيثبدات الصناعةالكبيرة تنمو وتتطور.

كان هذا « الازدياد المذهل في الثروة والقوة » مقتصرا في العالم كله « على الطبقات المالكة » باستثناء واحد وحيد هو أن قطاعا صغيرا من العمال ، كما في انجلترا ، يمكن أن يتلقى اجورا أعلى نوعا ما ، مع أن هذا التحسن يلغيه الارتفاع العام في الاسعار . « وفي كل مكان ، غاصت جماهير الطبقات العاملة الى أعماق البؤس على الاقل بالقدر الذي ارتفعت به الطبقات العليا على السلم الاجتماعي . ان

هناك في اقطار اوروبا جميعا حقيقة دامغة لا يستطيع انكارها أي باحث متجرد ولا ينكرها الا اولئك الذين يجدون أن من مصلحتهم ايقاظ آمال خداعة في الآخرين ، هذه الحقيقة هي انه لا وصول الصناعة الى حد الكمال ولا تطبيق العلم على الصناعة والزراعة ، لا وسائل المواصلات والاتصالات ولا المستعمرات الجديده والهجرة ، لا غزو اسواق جديدة ولا التجارة ، ولا هذه الامور مجتمعة نجحت في محو بؤس الجماهير العاملة . بل على العكس من ذلك ، يؤدي كل تطور جديد في قوة العمل الخلاقة على الاسس الزائفة للأوضاع الراهنة الى زيادة حدة التناقضات العدائية الاجتماعية ومفاقمة الصدام الاجتماعي . فخلال فترة التقدم الاقتصادي المذهل ، ارتفعت المجاعة حتى كادت تصبح مؤسسة اجتماعيه في عاصمة الامبراطورية البريطانية . ان هذه الفترة تتسم في سجلات التاريخ بالعودة المتسارعه والمدى المتسع والآثار القاتلة للوباء الاجتماعي المسمى الازمة الصناعية والتجارية » .

ثم القى الخطاب نظرة على هزيمه حركة الطبقة العاملة في الخمسينات، وتوصل الى نتيجة هي أن هذه الفتره كان لها سماتها الحسنة . وأكد على وجه الخصوص حقيقتين : أولهما الاقرار القانوني ليوم العمل من عشر ساعات بنتائجه الطيبة على البروليتاريا الانجليزية . فقد كان النضال من أجل التحديد القانوني ليوم العمل تدخلا مباشرا في الصدام الكبير بين القوى العمياء لقانون العرض والطلب ، الذي يتلخص به الاقتصاد السياسي للبورجوازية ، وبين الانتاج المحكوم بالرفاه الاجتماعي كما تمثله الطبقة العاملة . « ولذا فقد كان قانون الساعات العشر نصرا سياسيا عظيما ، وليس ذلك فحسب بل أيضا انتصارا لمبدأ ، فللمرة الاولى ينتصر الاقتصاد السياسي للطبقة العاملة على الاقتصاد السياسي للبورجوازية » .

كذلك أحرز الاقتصاد السياسي للبروليتاريا انتصارا أعظم عبر الحركة التعاونية وانشاء مصانع تقوم على مبدأ التعاون عبر العمل الجاد الذي قام به بضعة اشخاص دون مساعدة خارجية . غير أنه لا يمكن عزو أهمية أكثر مما يجب لهذه التجارب الاجتماعية العظيمة . يمكن القول انها « أثبتت بالممارسة بدلا من المنطق أن الانتاج على نطاق واسع وطبقا لقوانين العلم الحديث ممكن دون وجود طبقة من الموظفين توظف طبقة من العمال ، كما أثبتت أنه يمكن انتاج الثروة دون احتكار ادوات العمل كوسائل للسيطرة الاستغلالية على العمال ، وكذلك أثبتت أن العمل المأجور ، كالعبودية والقنانة ، ليس الا مشكلا مؤقتا لا بد ان يختفي امام العمل التعاوني ، الذي يقوم بالمهمة الصعبة برضى وروح مرحة وقلب مفعم بالسعادة » . غير أن العمل التعاوني لن يستطيع كسر احتكار راس المال اذا ما اقتصر على محاولات متفرقة « وربما كان هذا بالذات هو السبب في أن الارستقراطيين ، الذين يبدون رفيعي التفكير ، وخطباء البورجوازية المحسنين وحتى الاقتصاديين العنيدين بدأوا فجأة يطرون نظام العمل التعاوني اطراء مثيرا للتقزز، ذلك النظام الذي حاولوا خنقه في المهد وسخروا منه بوصفه احلاما طوباوية وشجبوه بوصفه جنونا اشتراكيا » . ولا يمكن أن ينقذ الطبقة العاملة غير نمو العمل التعاوني الى حدود قومية ، ولكن ملاك الارض وراس المال سيعبئون دائما امتيازاتهم السياسية لتكريس احتكارهم

الاقتصادي الى ما لا نهاية ، ولذا فان الواجب العظيم الملقى على عاتق الطبقة العاملة هو الاستيلاء على السلطة السياسية .

ويبدو أن العمال ادركوا ضرورة هذا ، كما ثبت بعودة حركة الطبقة العاملة الى الحياة في انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا في وقت واحد ، وكذلك بالجهود التي تمت في وقت واحد لاعادة تنظيم العمال سياسيا . « وهم يملكون عنصرا واحدا من عناصر النجاح هو العدد ، ولكن العدد لا يصبح ثقلا في الميزان الا اذا توحدوا في منظمه وساروا نحو هدف واع » . لقد انبتت التجربه السابقه أن تجاهل الاخوه التي يجب ان توجد بين عمال كل البلدان وتحثهم على الوقوف جنبا الى جنب في كل نضالاتهم من اجل الانعتاق ، يؤدي دائما الى فشل الجهود المتناثرة فشلا عاما . وهذا هو الاعتبار الذي دفع اجتماع قاعة سان مارتن الى تاسيس الرابطة الاممية للرجال العاملين .

كما ان هناك قناعة أخرى دفعت الاجتماع هي أن انعتاق العمال يتطلب علاقات اخوية بين عمال كل البلدان ، ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الهدف الرفيع في وجه السياسة الخارجية التي تتبعها مختلف الحكومات ، سياسة السعي وراء غايات اجرامية واستغلال التحيزات القومية وسفك دم الشعوب في حروب ضارية ؟ ان الشجاعة البطولية التي قاومت بها البروليتاريا الحماقات الاجرامية ، وليس حكمة الطبقات الحاكمة ، هي التي انقذت بلدان اوروبا الغربية من شن حملة عنيفة مشينة لتكريس العبودية على الجانب الآخر من الاطلنطي . كما أن التصفيف المخزي والتعاطف النفاقي أو اللامبالاة الغبية التي واجهت بها الطبقات الحاكمة غزو روسيا القيصرية لجبال القفقاس الشاسعة وذبح الشعب البولندي البطل جعلت الطبقة العاملة تدرك أن واجبها يحتم عليها أن تستكشف اسرار السياسة الدولية وتراقب الحيل الدبلوماسية التي تقوم بها الحكومات مراقبة وثيقة ، كي تعارضها بكل وسيلة ممكنة ، حتى اذا ثبت أن من المستحيل الوقوف في وجهها نظمت الطبقة العاملة تظاهرات ضخمة لتطالب بأن تسود العلاقات بين الامم قوانين الاخلاق والعدالة البسيطة التي تحكم علاقات الافراد . لقد كان النضال من أجل سياسة خارجية كهذه جزءا لا يتجزأ من نضال الطبقة العاملة العام من أجل الانعتاق . ثم اختتم الخطاب كما اختتم البيان الشيوعي من قبل بكلمات : « يا عمال العالم اتحدوا ! » .

اما القواعد المؤقتة فقد بدأت بخواطر يمكن تلخيصها كما يلي : ينبغي ان يكون انعتاق الطبقة العاملة مهمة العمال انفسهم . ان نضال الطبقة العاملة من اجل الانعتاق ليس نضالا لاقامة امتيازات طبقية جديدة ، بل لالغاء الحكم الطبقي كله . ان خضوع العمال اقتصاديا لمن استولوا على ادوات العمل ، اي على منبع الحياة ، يؤدي الى العبودية بكل اشكالها : البؤس الاجتماعي والضمور الثقافي والفكري وانعدام الاستقلال السياسي . ولذا فان الانعتاق الاقتصادي للطبقة العاملة هو الهدف العظيم الذي يجب ان تستخدم كل الحركات السياسية وسيلة له . لم تنجح كل المحاولات لتحقيق هذا الهدف حتى الان بسبب الافتقار الى الوحدة بين جماعات الطبقة العاملة المختلفة في كل بلد وبين الطبقات العاملة في مختلف البلدان . ان

تحرير العمال ليس مهمة محلية ولا مهمة قومية ، انه مهمة اجتماعية . انه مهمة تشمل كل البلدان التي يوجد فيها مجتمع حديث ، ولا يمكن تحقيقها الا بالتعاون المستمر المنهجي بين كل هذه البلدان . وبعد ذلك ، انتقل ماركس الى الملاحظات الاخلاقية المبتذلة عن العدالة والحقيقة والحقوق والواجبات ، فضمنها للنص دون رغبة في ذلك وألصقها بالفقرات الواضحة العميقة السابقة .

نصت القواعد المؤقتة على أن يرئس الرابطه الجديده مجلس عام يتكون من عمال من البلدان المختلفة الممثلة فيها ، وتقوم اللجنة التي انتجها اجتماع قاعة سان مارتن بمهام المجلس العام الى حين انعقاد المؤتمر الاول . والمهمات الملقاة على عاتق المجلس اخبار عمال كل بلد بانتظام بنشاطات العمال في البلدان الاخرى ، جمع احصائيات
اخبار عمال كل بلد بانتظام بنشاطات العمال في البلدان الاخرى ، جمع احصائيات
عن وضع الطبقات العاملة في البلدان المختلفة ، بحث المسائل التي تهم كل منظمات الطبقة العاملة ، ضمان قيام كل المنظمات المرتبطة بالاممية بعمل متناسق في حالة نشوب خلافات دولية ، نشر تقارير منتظمة عن عمل الرابطه . وغير ذلك من المهام المشابهة .

وينتخب المجلس العام من جانب المؤتمر الذي يعقد مرة كل سنة ويحدد مقر المجلس وموعد ومكان المؤتمر القادم . ويحق للمجلس العام ان يضيف اعضاء جدداً له ، وأن يبدل مكان المؤتمر اذا كان ذلك ضروريا ، ولكن لا يحق له تأجيله . وتحتفظ المنظمات العمالية المرتبطة بالاممية باستقلالها التنظيمي التام ويمكن لاي منظمة محلية مستقلة ان تقيم علاقات مباشرة مع المجلس العام ، برغم ان من المرغوب فيه ان تتوحد المنظمات المختلفة في البلد الواحد الى اقصى حد ممكن على اساس قومي وبقيادة هيئات مركزية ، وذلك حرصا على الفعالية .

على الرغم من ان من الخطأ وصف الاممية بأنها من صنع «عقل واحد عظيم» ، الا انه يصح القول انها وجدت تحت تصرفها عندما نشأت عقلا عظيما وفر عليها احتمال التيه في مسالك وعرة خاطئة اذ اشار الى الطريق الصحيح منذ البداية . ان ماركس لم يفعل اكثر من هذا ، ولم يكن ينوي ابدا ان يفعل . اما الروعة التي لا مثيل لها التي يبديها الخطاب الافتتاحي فسببها انه يقوم على اساس الوضع المعطى ، وانه كما اوضح ليبكنشت عن حق ، يحتوي على المضامين النهائية للشيوعية بقدر لا يقل عما احتواه البيان الشيوعي .

غير ان الخطاب الافتتاحي والقواعد المؤقتة لم تختلف عن البيان الشيوعي في الشكل فحسب كتب ماركس لانغلز يقول : «من الضروري ان يمر وقت قبل ان تسمح الحركة المنبعثة من جديد لنفسها باستخدام اللغة القديمة الجريئة . ان الحاجة الراهنة تدعو الى : جرأة في المضمون واعتدال في الشكل» ــ بل كان لها هدف مختلف جدا كذلك . لقد كان هدف الاممية توحيد كل بروليتاريا اوروبا والولايات المتحدة في جيش واحد عظيم ، واعطاءها برنامجا يترك الباب مفتوحا ــ على حد تعبير انغلز ــ لدخول النقابات الانجليزية والبرودونيين الفرنسيين والبلجيكيين والايطاليين والاسبان واللاساليين الالمان . ولقد اعتمد ماركس اعتمادا

كليا على تطور الطبقة العاملة فكريا نتيجة عملها الموحد لضمان النصر النهائي للاشتراكية العلمية كما اوردها البيان الشيوعي .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى واجهت آماله امتحانا قاسيا ، فما كادت الاممية تبدأ عملها الدعاوي حتى وجدت نفسها في صدام حاد مع ذلك القطاع من الطبقة العاملة الاوروبية الذي يفهم مبادىء الاممية افضل من كل من عداه .

٣ ـ الخلاف مع شفايتزر

انها لأسطورة تلك التي تقول ان اللاساليين الالمان رفضوا الارتباط بالاممية واتخذوا منها موقفا عدائيا منذ البداية . ولكن هذه الاسطورة ليست صحيحة ولا مستساغة .

في المقام الاول ، من المستحيل ان يجد المرء اي سبب ربما كان قد دعاهم الى اتخاذ هذا الموقف . صحيح أنهم كانوا يعلقون اهمية كبرى على الانضباط الصارم في صفوفهم ، ولكن القواعد المؤقتة للاممية لم تكن تعني اي تدخل في شؤونهم ، وفوق ذلك كانوا يستطيعون تبني خطاب الافتتاح من بدايته حتى نهايته ، وعلى الاخص ذلك القسم الذي يعلن انه ليس هناك ما ينقذ الطبقة العاملة غير نمو التعاونيات الى حدود قومية ومساعدتها بوسائل الدولة .

الحقيقة ان اللاساليين في المانيا اتخذوا من الاممية موقفا ودودا منذ البداية ، رغم انهم كانوا وقت تأسيسها منغمسين في متاعبهم الذاتية . فبعد موت لاسال، انتخب برنهارد بيكر ، طبقا لما أوصى به لاسال على فراش الموت ، رئيسا لـ«الفماينه دويتشر اربايترفيرن» ، ولكنه سرعان ما اثبت ضعفه مما ادى الى فوضى رهيبة ، فلم يعد يربط المنظمة ببعضها شيئا غير صحيفتها «سوسيال ديمقراط» ، التي كانت قد بدأت تظهر في نهاية ١٨٦٤ بقيادة فون شفايتزر ، وهو رجل قدير ونشيط فعل كل ما في وسعه لتأمين تعاون ماركس وانغلز . فجعل ليبكنشت عضوا في هيئة التحرير ونشر خطاب الافتتاح في العددين الثاني والثالث من الصحيفة ، دون ان يتعرض الى اي ضغط يجبره على ذلك .

شكك موسى هس ، مراسل الصحيفة في باريس ، بتولين قائلا انه صديق للقصر الملكي حيث كان جيروم بونابرت يلعب دور الديماغوجي الاحمر ، ولكن شفايتزر لم ينشر رسالة هس الا بعد ان حصل على موافقة ليبكنشت . وعندما اشتكى ماركس من ذلك ، فعل كل ما وسعه من جهد لتسوية المسألة وديا وأمر ان ينظر ليبكنشت اولا في كل ما تنشره الصحيفة من أمور تتعلق بالاممية . وفي ١٥ شباط كتب شفايتزر رسالة الى ماركس يخبره فيها انه ينوي التقدم باقتراح يقضي بأن تعلن منظمته موافقتها الكاملة على مبادىء الاممية وترسل مندوبين الى مؤتمراتها . غير ان المنظمة لن ترتبط رسميا بالاممية بسبب وحيد هو ان القوانين الفيدرالية الالمانية تحظر اقامة اية صلات بين منظمات الطبقة العاملة . لكن شفايتزر لم يتلق

اي رد على رسالته هذه ، وبدلا من ذلك عمد ماركس وانغلز الى نشر بيان يعلن فصم كل علاقاتهما مع «سوسيال ديمقراط» .

تبين هذه الحقائق ان الشقاق المؤسف لم تكن له علاقة على الاطلاق بأي خلافات لها علاقة بالامية ، ويوضح البيان الذي اصدره ماركس وانغلز الاسباب الحقيقية بصراحة تامة . فقد اعلنا انهما لم يفشلا يوما في اخذ الوضع الصعب الذي تواجهه «سوسيال ديمقراط» بعين الاعتبار ، وانهما لم يتقدما ابدا منها بمطالب لا تتفق مع الاوضاع في برلين ، ولكنهما طالباها باستمرار ان تتخذ موقفا تجاه الحكومة والحزب الاقطاعي لا يقل جرأة عن موقفها تجاه «التقدميين» . ولذا فان التاكتيكات التي تتبعها الصحيفة جعلت من المستحيل عليهما الاستمرار في المساهمة فيها . فهما لا يزالان يتمسكان حرفيا بما كتباه مرة في «دويتشه بروسلر تزايتونغ» حول الاشتراكية الحكومية البروسية الامبراطورية والموقف الذي يجب ان يتخذه حزب الطبقه العاملة تجاه خداع حقير كهذا ، وذلك عندما ردا على «راينيخه بيوباختر» التي اقترحت «تحالف البروليتاريا مع الحكومة ضد البورجوازية الليبرالية» .

في الواقع ، لم يكن للتاكتيكات التي اتبعتها «سوسيال ديمقراط» اي علاقة بتحالف كهذا او بأي «اشتراكية حكومية بروسية امبراطورية» . فعندما خاب امل لاسال الاول في ان يستطيع استثارة الطبقة العاملة الالمانية لتشكل حركة واحدة قوية ، وجدت «الغماينه دويتشر اربايترفيرن» ، بقرائها الذين يبلغ عددهم بضعة آلاف ، نفسها محشورة بين خصمين ، كل منهما يملك من القوة ما يكفي لسحقها . فلم يكن حز بالعمال الشاب يتوقع من البورجوازية غير الكراهية الغبية ، ومن الدبلوماسي الخبيث بسمارك غير ان لا يستطيع تنفيذ سياسته في اقامة بروسيا الكبرى دون القيام بتنازلات معينة لجماهير الشعب . ولم يكن لدى شفايتزر اية اوهام حول قيمة او هدف تنازلات كهذه ، ولكن في وقت كانت الطبقة العاملة الالمانية محرومة من حق التنظيم ولا تتمتع بحق الاقتراع العام ، وقت كانت فيه حرية الصحافة والانتظام والاجتماع تحت رحمة التدابير البيروقراطية الاعتباطية ، في وقت كهذا لم تكن الاشتراكية الديمقراطية تستطيع احراز تقدم بمهاجمة خصميها معا في وقت واحد وبالقوة ذاتها ، ولكن فقط بلعب احد الخصمين ضد الاخر . على الرغم من ان هناك شرطا ضروريا ضرورة مطلقة لنجاح سياسة كهذه هو بالطبع استقلال حزب العمال الشاب تجاه الجانبين ووعي صارم لهـذا الاستقلال بين الجماهير العاملة .

اتبع شفايتزر هذه السياسة بنشاط ونجاح ومن المستحيل ان يجد المرء اي شيء على صفحات «سوسيال ديموقراط» يشتم منه وجود «تحالف» مع الحكومة ضد التقدميين . ولا شك في ان دراسة لنشاطاته على الخلفية السياسية العامة لتلك الايام تكشف عن بعض الاخطار ــ التي اعترف بها هو نفسه ــ ولكن سياسته كانت بشكل عام سياسة منطقية متماسكة لا يهديها غير مصالح الطبقة العاملة ، ولم تكن بالتأكيد سياسة أملاها بسمارك او اي رجعي اخر .

وعلى الرغم من ان شفايتزر لم يكن نِداً لماركس وانغلز في كثير من المجالات ،

الا انه كان يملك ميزة واحدة عليهما الا وهي المعرفة الشاملة للاوضاع في بروسيا . اذ لم يكونا على معرفة مباشرة بالوضع بينما لم يقم ليبكنشت ، الذي وقعت على عاتقه بالطبع مهمة سد هذا النقص . بهذه المهمة على شكل مرض . عاد ليبكنشت الى المانيا عام ١٨٦٨ ليؤسس مع الجمهوري الالماني براس صحيفة «نورد دويتشه الغماينه تزايتونغ» ، ولكنه ما كاد يبدأ العمل على تحريرها حتى اكتشف ان براس باع الصحيفة من بسمارك . فانفصل عن الصحيفة في الحال ، ولكن تجربته الاولى هذه على الارض الالمانية لم تكن مؤسفة بمعنى انها تركته مرة اخرى في وضع مالي حرج يذكّر بأيامه في المنفى فحسب ، مع ان هذا لم يكن ليثير فيه قدرا زائدا من القلق لانه اعتاد على وضع القضية فوق مصالحه الشخصية ، ولكن ايضا لانها منعته من التوصل الى فكرة غير متحيزة عن الظروف الجديدة التي وجدها في المانيا .

عندما عاد ليبكنشت كان لا يزال مشبعا بروح عام ١٨٤٨ القديمة ، روح «نيو راينيخه تزايتونغ» ، التي كانت تعلق على النظرية الاشتراكية وحتى على الصراع الطبقي اهمية أقل مما علقت على النضال الثوري للأمة ضد حكم الطبقات الرجعية . وعلى الرغم من انه كان متمكنا من الافكار الاساسية للنظرية الاشتراكية الا انه لم يكن ابدا منظرا اشتراكيا عميقا . وكان الامر الرئيسي الذي تعلمه من ماركس خلال سنوات المنفى هو ميل هذا الاخير الى تمحيص الحقول الواسعة للسياسة الدولية بحثا عن اي اشارات لوجود تطورات ثورية . كان ماركس وانغلز ، كاثنين من ابناء الراينلاند يميلان الى احتقار كل ما يمت بصلة الى شرقي الألب ولذا فقد قللا من اهمية الدولة البروسية . اما ليبكنشت فقد كان اسوأ ، ذلك انه ولد في المانيا الجنوبية ، وقضى السنوات الاولى للحركة اما في بادن او في سويسرا وكل منهما قلعة من قلاع الاقليمية . فاعتبر ان بروسيا لا تزال ذلك التابع لروسيا كما في ايام ما قبل اذار ، اعتبرها دولة رجعية تكافح التقدم التاريخي بسلاح الفساد الحقير ، دولة يجب ان تهزم قبل ان يصبح ممكنا التفكير بأي صراع طبقي حديث في المانيا . وفشل في ان يدرك ان التطورات الاقتصادية في الخمسينات غيّرت الدولة البروسية الى حد كبير وخلقت ظروفا جعلت انفصال الطبقة العاملة عن الديمقراطية البورجوازية ضرورة تاريخية .

وبالتالي كان اي تفاهم دائم بين ليبكنشت وشفايتزر مستحيلا . وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير في نظر ليبكنشت عندما نشر شفايتزر سلسلة من خمس مقالات حول وزارة بسمارك ، مقارنا بصورة رائعة بين سياسة بروسيا الكبرى وبين السياسة البروليتارية الثورية بصدد مسألة الوحدة الالمانية ، ولكنه اقترف «خطأ» هو وصف الطاقة الخطرة لسياسة بسمارك بفصاحة بالغة كادت تبدو تعظيما له . من جهة اخرى اقترف ماركس في رسالة بعث بها الى شفايتزر في ١٣ شباط «خطأ»هو قولهان الحكومة البروسية علىالرغم منانها تتبنى مختلف اشكال التجارب الطائشة لفكرة التعاونيات الانتاجية ، الا انها لن تنقض القوانين التي تحظر الانتظام النقابي ولن تحد من البيروقراطية والاعتباط البوليسي . غير ان ماركس كان بذلك ميالا الى الغفلة عما هاجم هو برودون لاجله ، وذلك بالتحديد ان الحكومات لا

تستطيع السيطرة على الظروف الاقتصادية بل الظروف الاقتصادية هي التي تسيطر على الحكومات ، وبعد ذلك ببضعة سنوات اضطرت وزارة بسمارك الى الغاء القوانين التي تحظر الانتظام النقابي . كتب شفايتزر رده في ١٥ شباط ، ووعد في هذا الرد ان يعمل في صحيفة «الفماينه دويتشر أربايترفيرن» من اجل الاممية واخبر ماركس ثانية ان ليبكنشت كلّف بتحرير كل المسائل المتعلقة بالاممية . وأعلن شفايتزر انه سيصغي بسرور الى اي نصيحة نظرية يمكن ان يقدمها له ماركس ، اما بالنسبة لتقرير المسائل العملية فان على المرء ان يكون في مركز الحركة نفسها وان يملك معرفة كاملة بالظروف القائمة . عندئذ اختلف ماركس وانغلز معه .

لا يمكن فهم سوء التفاهم هذا والتعقيدات التي رافقته الا بالعلاقة مع النشاطات المؤسفة التي قامت بها الكونتسه هاتزفيلد ، التي ارتكبت خطيئة بحق الرجل الذي انقذ اسمها مرة من العار، فقد سعت الى تحويلما فعله لاسال الى شيعة ارثوذوكسية تعتبر كلمة المعلم قانونا اعلى لها ، بل ان القانون الاعلى لم يكن كلمة المعلم قدر ما كان التفسير الذي اعطته الكونتسه لها . ويمكن رؤية الاساءة التي ارتكبتها من رسالة بعثها انغلز الى وايدماير في ١٠ اذار ، وفيها يقول بعد بضعة كلمات عن تأسيس «سوسيال ديمقراط» : «لقد نمت في الصحيفة عبادة لاسال الشخصية الى حد لا يمكن التغاضي عنه ، وفي هذه الاثناء علمنا بشكل قاطع (اخبرت الكونتسه العجوز هاتزفيلد ليبكنشت بذلك وطلبت اليه ان يتصرف بالروح ذاتها) ان لاسال كان على علاقة ببسمارك أوثق مما ظننا فقد كان هناك تحالف رسمي بين الرجلين ووصل الحد الى امر الاتفاق بينهما الى ان يذهب لاسال الى سليزويغ ــ هولشتاين ليدعم اقتطاع الدوقيتين بينما اعطى بسمارك بالمقابل وعدا غامضا بتحقيق نوع من الاقتراع العام كما اعطى وعدا اكثر تحديدا بقليل بمنح حق التنظيم والقيام بتنازلات اجتماعية ومنح دعم الدولة لمنظمات العمال ... الخ . ولم يكن لدى لاسال الاحمق اية ضمانات بأن بسمارك سيلتزم بجانبه من الاتفاقية . ولا بد ان بسمارك كان سيتخلص منه حالما يشعر بأي ازعاج من جانبه . ان محرري «سوسيال ديمقراط» يعرفون ذلك جيدا ، ومع ذلك فهم يحافظون على نزعة عبادة لاسال بقوة اكثر من اي وقت مضى وبالاضافة الى ذلك يدعون فاغنر (صاحب صحيفة كروز تزايتونغ) يرهبهم فيقدمون فروض الولاء لبسمارك ويغازلون افكاره . لقد اصدرنا بيانا قطعنا فيه كل علاقاتنا معهم وفعل ليبكنشت الامر ذاته» . كان من الطبيعي بعد ذلك ان يقطع ماركس وانغلز كل علاقتهما مع الحركة التي انشأها لاسال . غير ان عملهما لم تكن له آثار عملية على الحركة حتى ان اعضاء قدامى في العصبة الشيوعية مثل روزر ، الذي كان قد دافع عن مبادىء البيان الشيوعي دفاعا رائعا امام محكمة كولون ، اعلنوا انهم يقفون الى جانب تكتيكات شفايتزر .

٤ ــ المؤتمر الاول في لندن

هكذا أُقصي اللاساليون الالمان عن الاممية منذ البداية ، وكانت الدعايـة بين النقابيين الانجليز والبرودونيين الفرنسيين تحرز في البداية تقدما بطيئا جدا .

على اية حال لم يكن قد ادرك ضرورة النضال السياسي غير دائرة صغيرة من القادة النقابيين ، وحتى هؤلاء انفسهم كانوا يعتبرون الاممية وسيلة لتحقيق غايات نقابية اكثر منها اي شيء اخر . لكنهم كانوا على الاقل يملكون قدرا كبيرا من التجربة العملية في المسائل التنظيمية بينما لم يكن البرودونيون الفرنسيون يملكون لا هذا ولا اية معرفة بالطابع التاريخي للحركة العاملة . لقد وضعت المنظمة الجديدة لنفسها في الواقع مهمة عظيمة ، فكانت تحتاج طاقة عظيمة وجلدا عظيما للقيام بها .

وعلى الرغم من ان ماركس كان يقع المرة تلو الاخرى صريع المرض المؤلم ، وايضا على الرغم من انه كان يتوق الى انهاء عمله العلمي ، فانه لم يوفر طاقة ولا جلدا في سبيل قضية الاممية . وقد تنهد ذات مرة قائلا : «اسوأ ما في تحريض كهذا هو انه يزعج عمل المرء» . وفي مرة اخرى اعلن ان الاممية وكل ما يتصل بها يثقل عليه «ككابوس» وانه سيكون مسرورا لو انزاح عن صدره . غير انه ادرك انه ما ان وضع يده على المحراث حتى لم يعد يستطيع سحبها ، وفي الواقع لم يكن ماركس ليشعر لو تخلى عن العبء بالسعادة التي اشعره بها حمله له .

سرعان ما اصبح واضحا ان ماركس هو «الراس» الفعلي للحركة . لا لانه دفع بنفسه الى المقدمة بأي شكل ، فقد كان يكن احتقارا بالغا للشعبية الرخيصة . وكان على عكس اولئك الديمقراطيين ، الذين جعلوا انفسهم يظهرون بمظهر هام علنا بينما هم في الواقع لا يفعلون شيئا ، يقوم بقدر هائل من العمل خلف الاستار بينما هو يبقي نفسه بعيدا عن نظر الجماهير غير انه لم يكن في المنظمة رجل اخر يملك الصفات غير العادية الضرورية لمهماتها العظيمة : البصيرة الواضحة النفاذة في قوانين التطور التاريخي ، القدرة على متابعة ما يلزم بلا تردد ، الصبر الذي يحمل القناعة ضمن حدود ما يمكن ، تحمل الاخطاء غير المقصودة والقسوة تجاه الجهل العنيد . لقد اصبح ماركس الان في موقع يستطيع معه ان يمارس موهبته التي لا تجارى فـي السيطرة على الرجال بقيادتهم وتعليمهم .

لقد كلفته النزاعات والشجارات الشخصية التي لا بد ان تشكل جزءا لا يتجزأ من بدايات حركة كهذه «الكثير من الوقت» ، كما سبب له الاعضاء الايطاليون وعلى الاخص الفرنسيون مصاعب لا ضرورة لها . فقد كان يوجد في باريس منذ السنوات الثورية كراهية عميقة بين «العمال اليدويين والعمال العقليين» . فقد كـــان البروليتاريون يجدون من الصعب عليهم ان ينسوا خيانة المثقفين المتكررة ، وكان المثقفون يشجبون كل حركات الطبقة العاملة التي لا تريد اقامة علاقات معهم . هذا في وقت اصبحت الخديعة البونابرتية منتشرة فيه حتى في صفوف الطبقة العاملة في ظل ظروف الاستبداد العسكري البونابرتي . وقد كان من نتائج هذه المسألـة الفرنسية ان قضى المجلس العام للاممية الكثير من الامسيات القيمة وتبنى الكثير

من القرارات الطويلة المعقدة .

كانت نشاطات ماركس بالعلاقة مع الفرع الانجليزي للاممية اكثر مواتاة واكثر فائدة . وكان العمال الانجليز قد عارضوا بصلابة نية حكومتهم التدخل في الحرب الاهلية الاميركية الى جانب الولايات الجنوبية المتمردة ، وعندما اعيد انتخاب ابراهام لينكولن رئيسا ارسلوا له رسالة تحية وتهنئة . وضع ماركس هذه الرسالة الى «ابن الطبقة العاملة» الذي وقعت على عاتقه مهمة قيادة بلده في النضال من اجل تحرير العرق المستعبد . وطالما فشل عمال اميركا البيض في ادراك ان وجود العبودية الانسانية خزي للجمهورية وعار عليها ، وما داموا يتفاخرون امام الزنجي، الذي يباع دون موافقته المسبقة ، بامتيازهم الذي لا يقارن بقدرتهم على بيع انفسهم واختيار سيدهم ، فانهم لا يستطيعون ان يحرزوا الحرية الحقيقية ولا ان يدعموا نضال اشقائهم الاوروبيين من اجل الحرية . غير ان بحر الدم خلال الحرب الاهلية اطاح بهذا الحاجز .

كان ماركس ، مثل ليسنغ ، معتادا على التحدث عن اعماله سلبا ، ولكن من الواضح انه وضع في هذه الرسالة جماع قلبه ، على الرغم من انه كتب لانغلز يقول انه اعطي مهمة منح الرسالة شكلها ، وتلك مهمة اصعب بكثير مما لو كان مسؤولا عن المضمون كذلك ، وقال انه ما فعل ذلك الا لكي يجعل الجمل المعهودة في وثائق كهذه تختلف على الاقل عن الكلام الديمقراطي المبتذل . لم يفشل لينكولن في ان يلاحظ الفارق ، وادهش صحف لندن عندما اجاب على الرسالة بلهجة ودية دافئة، فقد كان من عادة «الرجل العجوز» الرد على كل التهاني التي يتلقاها من الاوساط البورجوازية الديمقراطية ببضعة جمل رسمية .

كان لخطاب القاه ماركس في المجلس العام للاممية في ٢٦ حزيران ١٨٦٥ اهمية اكبر بكثير من حيث المحتوى . وكان بعنوان «القيمة والسعر والربح» ، وهدف الى دحض ما قاله عدد من اعضاء المجلس من ان الارتفاع العام في الاجور لا يعود بفائدة حقيقية على العمال ولذا فان النقابات مضرة. وكان هذا القول يقوم على افتراض خاطىء هو ان الاجور تحدد قيمة السلع وأنه اذا دفع الرأسمالي خمسة شلنات من الاجور بدلا من اربعة فانه سيبيع سلعته غدا بخمسة شلنات بدلا من اربعة نتيجة ازدياد الطلب . اعلن ماركس انه على الرغم من ان هذا تفكير ضحل جدا لا يأخذ بالاعتبار غير المظاهر السطحية للامور ، الا ان من الصعب تفسير كل المسائل الاقتصادية المتعلقة بالموضوع للجهلة . اذ ان من المستحيل تكثيف الاقتصاد السياسي كله في ساعة واحدة . لكنه في الواقع نجح في ذلك بشكل يثير الاعجاب فشكرته النقابات على الخدمة القيمة التي اداها لها .

كانت الحركة المتنامية من اجل اصلاح الاقتراع العام هي التي حققت للاممية اول نجاحاتها ، وفي الاول من ايار عام ١٨٦٥ كتب ماركس الى انغلز قائلا : « ان عصبة الاصلاح من صنعنا . ففي اللجنة الداخلية المكونة من اثني عشر شخصا (ستة يمثلون الطبقة الوسطى وستة يمثلون الطبقة العاملة) ينتمي كل ممثلي العمال الى المجلس العام ومن بينهم ايكاريوس . لقد احبطنا كل محاولات الطبقة الوسطى

لخداع العمال ... واذا نجحت هذه المحاولة لبعث الحركة السياسية للطبقة العاملة في انجلترا ، فان رابطتنا تكون قد صنعت للطبقة العاملة الاوروبية اكثر مما يمكن ان تصنع بأي طريقة اخرى ، ودون ان تحدث ضجيجا حول الامر . وهناك احتمالات كبيرة للنجاح» . وفي ٣ ايار رد انغلز : «لقد كسبت الرابطة الاممية الكثير حقا في وقت قصير جدا وبامكانيات ضئيلة فعلا . انه لأمر حسن ان تكون الرابطة مشغولة الان في انجلترا بدلا من ان تتعب رأسها بالعصبوية الفرنسية . انك على الاقل تلقى ما يعوض عن وقتك المفقود» . غير ان وقتا طويلا لم يمض حتى تبين ان لهذا النجاح جانبه السيء ايضا .

كان ماركس يعتبر ان الوضع السياسي ليس ناضجا بشكل عام لعقد المؤتمر العام الاول الذي كان مقررا عقده في بروكسل عام ١٨٦٥ ، فقد خشي لاسباب مبررة ان ينحط المؤتمر الى مجرد معركة كلامية ، فاستطاع بصعوبة كبيرة ، اثارتها على وجه الخصوص معارضة فرنسية ناشطة ، ان يحصل على اتفاق يقضي بعقد اجتماع داخلي في لندن ، بدلا من المؤتمر العام العلني في بروكسل ، يحضره فقط ممثلو اللجان القيادية ويكون مجرد تمهيد للمؤتمر القادم . وبيّن ماركس الاسباب التي تدعم موقفه : ضرورة الاتفاق والنقاش المسبق ، حركة الاصلاح في انجلترا ، موجة الاضرابات في فرنسا ، وفي النهاية التشريع الذي اقر في بلجيكا ضد الاجانب والذي يجعل عقد المؤتمر مستحيلا .

انعقد الاجتماع في لندن من ٢٥ الى ٢٩ ايلول ١٨٦٥ . ومثل المجلس العام فيه رئيسه أودغر وسكرتيره العام كريمر ، وعدد من الاعضاء الانجليز وماركس ومساعداه الرئيسيان في شؤون الاممية ايكاريوس ويونغ ، وهو ساعاتي سويسري كان يعيش في لندن ويتكلم الانجليزية والفرنسية والالمانية جيدا . ومثل فرنسا تولين وفرايبورغ وليموزين وكلهم تركوا الاممية فيما بعد ، وشيلي صديق ماركس القديم منذ ١٨٤٨ ، وفارلان الذي اصبح فيما بعد واحدا من ابطال وشهداء كومونة باريس. وارسلت سويسرا مندوبين هما دوبليكس عن العمال السويسريين الفرنسيين ـ الايطاليين ، ويوهان فيليب بيكر ، وهو صانع فراش سابق ومحرض ثوري دؤوب، عن العمال السويسريين الالمان . اما بلجيكا فقد مثلها سيزار دو بيب الذي بدأ دراسة الطب وهو منضد حروف في مطبعة ونجح في ان يصبح طبيبا .

بحث الاجتماع اولا في مسائل تمويل الرابطة ، فتبين ان الدخل الكلي للسنة الاولى كان قرابة ٣٣ جنيها . ولم يتم التوصل الى اتفاق حول اقرار اشتراكات منتظمة للعضوية ، ولكن اتفق على جمع مبلغ ١٥٠ جنيها لاغراض الدعاية وتغطية نفقات المؤتمر القادم : ثمانين جنيها تجمع في انجلترا ، واربعين جنيها في فرنسا وعشرة جنيهات في كل من بلجيكا وسويسرا . لم تكن ميزانية الاممية يوما واحدا من ملامحها البارزة ولا مثلت النقود ابدا مصدر قوتها . وبعد ذلك بسنوات قال ماركس بفكاهة مريرة ان اموال الاممية كانت تنمو سلبا باطراد ، وبعد حين قال انغلز ان «ملايين الاممية» الشهيرة كانت بصورة رئيسية ديونا ، وانه ربما لم يحدث من قبل أن تحقق شيء كبير كهذا بهذا القدر القليل من النقود .

ثم القى السكرتير العام كريمر تقريرا عن الوضع في انجلترا ، فأعلن انه على الرغم من ان الناس في القارة الاوروبية يعتقدون عموما ان النقابات الانجليزية غنية جدا وتستطيع ان تدعم قضية تشعر انها قضيتها ، الا انها في الواقع خاضعة لانظمة داخلية حقيرة تبقي انفاقها ضمن حدود ضيقة جدا. واضاف ان النقابات الانجليزية، باستثناءات قليلة ، لا تعرف شيئا عن السياسة ومن الصعب تنويرها . ومع ذلك، فقد تم بعض التقدم . فقبل بضعة سنوات ما كان بمقدور ممثلي الاممية ان يجدوا من يصغي اليهم ، بينما يقابلون اليوم بالترحاب وتلقى مبادئهم الموافقة . وهذه هي المرة الاولى التي تنجح فيها منظمة لها علاقة بالسياسة في اقامة علاقات كهذه مع النقابات .

وابلغ فرايبورغ وتولين المؤتمر ان الاممية تلاقي استقبالا حسنا في فرنسا . فقد تم كسب اعضاء في روين ونانت والبيوف وكاين وغيرها ، هذا عدا باريس ، وبيع عدد ضخم من بطاقات العضوية بسعر ١٫٢٥ فرنك للاشتراك السنوي . لكن العائدات استهلكت لسوء الحظ لاقامة مكتب في باريس وتأمين نفقات المندوبين الى الاجتماع . غير ان المندوبين الفرنسيين عزوا الاجتماع عن ذلك ووعدوا ببيع البطاقات الاربعمائة المتبقية . ثم انتقلوا الى القول ان تأجيل المؤتمر كان عائقا ضخما في وجه تطور الحركة . فالعمال الفرنسيون يرهبون النظام البوليسي البونابرتي ويقولون باستمرار : دعونا نرى ما تستطيعون اولا ، ثم ننضم اليكم .

اما التقارير التي تقدم بها دوبليكس وبيكر من سويسرا فكانت مؤاتية جدا ، رغم ان التحريض هناك لم يبدأ الا قبل ذلك بستة اشهر . فقد كان في جنيف اربعمائة عضو ومئة وخمسون عضوا في كل من لوزان وفيفي . كما حدد الاشتراك الشهري بمبلغ خمسين بنسا ، ولكن الاعضاء سيدفعون بسرور ضعف هذا المبلغ لانهم مقتنعون بضرورة دعم المجلس العام ماليا ايضا . ومع ذلك لم يأت المندوبون السويسريون هم ايضا بأية نقود ، ولكنهم قدموا بعض العزاء للاجتماع بالقول ان مبلغا محترما من المال كان سيتوفر لو لم يكن على المندوبين ان يدفعا نفقات رحلتهما من سويسرا الى لندن .

اما التحريض في بلجيكا فقد بدأ قبل شهر واحد فقط ، ولكن دوبيب ابلغ الاجتماع انه تم كسب ستين عضوا وانه تم الاتفاق على اشتراك سنوي قدره ثلاثة فرنكات ، يذهب ثلثها الى المجلس العام .

اقترح ماركس باسم المجلس العام ان يعقد المؤتمر في جنيف في ايلول او تشرين الاول ١٨٦٦ . فووفق على مكان المؤتمر بالاجماع ، ولكن موعده قدم بناء على الحاح المندوبين الفرنسيين الى الاسبوع الاخير من ايار . كذلك طالب المندوبون الفرنسيون بأن يعطى كل من يحمل بطاقة عضوية في الاممية مقعدا وصوتا في المؤتمر قائلين ان تلك مسألة مبدأ وهي المعنى الحقيقي للاقتراع العام . ولم يتم التوصل الى قرار يقضي بأن يقتصر المؤتمر على المندوبين ، كما اقترح كريمر وايكاريوس ، الا بعد مناقشة حامية .

أعد المجلس العام جدول اعمال ضخم للمؤتمر : العمل التعاوني ، تقليص يوم

العمل ، عمل النساء والاطفال ، ماضي ومستقبل النقابات ، تأثير الجيش على مصالح الطبقات العاملة الخ ، ولكن لم يكن هناك سوى مسألتين حولهما خلاف على الآراء ، وواحدة منهما لم يطرحها المجلس العام بل طرحها المندوبون الفرنسيون . فقد طالبوا بأن تجعل «الافكار الدينية وتأثيرها على الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية» نقطة خاصة في جدول الاعمال . اما كيف اتفق ان تقدم المندوبون الفرنسيون بهذا الاقتراح وما هو الموقف الذي اتخذه ماركس حياله فيمكن فهمه من بضعة جمل وردت في مقالة رثاء كتبها ماركس لبرودون بعد ذلك ببضعة اشهر ونشرت في صحيفة شفايتزر «سوسيال ديمقراط» ، فكانت بالمناسبة مساهمته الوحيدة في هذه الصحيفة . قال ماركس : «ادى هجوم برودون على الدين والكنائس الخ خدمة جليلة محلية في وقت وجد فيه الاشتراكيون الفرنسيون ان من الضروري ان يثبتوا تفوقهم على الفولتيرية البورجوازية التي تعود الى القرن الثامن عشر والالحاد الالماني في القرن التاسع عشر بتدينهم . لقد هزم بطرس الاكبر البربرية الروسية ببربرية ، وفعل برودون كل ما في وسعه كي يهزم الكلام الفرنسي بالكلمة» . حذر المندوبون الانجليز هم ايضا من اثارة هذه المسألة التي تبعث على الشقاق ، لكن المندوبين الفرنسيين أصروا ، فتم تبني اقتراحهم باغلبية ١٨ صوتا مقابل ١٣ .

اما النقطة الاخرى على جدول الاعمال التي اثارت خلافا فقد تقدم بها المجلس العام . عالجت هذه النقطة مسألة من مسائل السياسة الاوروبية كان ماركس يعتبرها ذات اهمية خاصة ، وهي بالتحديد «ضرورة مجابهة تأثير روسيا المتنامي في الشؤون الاوروبية وذلك باعادة الاستقلال لبولندا على اسس اشتراكية وديمقراطية طبقا لمبدأ حق تقرير المصير لكل القوميات» . كان المندوبون الفرنسيون خاصة معارضين لذلك : لماذا نخلط المسائل السياسية بالمسائل الاجتماعية ؟ لماذا نذهب بعيدا اذا كان هناك الكثير من القهر الذي يتوجب علينا ان نصارعه في الداخل؟ لماذا نهتم بهذا القدر بتأثير الحكومة الروسيةبينما تأثير الحكوماتالبروسية والنمسويةوالانجليزية والفرنسيةلا يقل شرا؟ وكان المندوب البلجيكي دوبيب على وجه الخصوص نشيطا في معارضته قائلا ان اعادة الاستقلال الى بولندا سيفيد طبقات ثلاث فقط : الارستقراطية العليا والارستقراطية الدنيا ورجال الدين .

هنا جعل تأثير برودون نفسه محسوسا بوضوح . فقد عارض برودون باستمرار اعادة الاستقلال لبولندا ، وكانت اخر مرة فعل فيها ذلك في وقت الانتفاضة البولندية عام ١٨٦٣ ، عندما انغمس ، كما اوضح ماركس في مقالته التي رثاه فيها ، في شكئية غبية لم يستفد منها سوى القيصر وفي الوقت ذاته ايقظت الانتفاضة العواطف القديمة التي ظل ماركس وانغلز يكنانها للقضية البولندية منذ السنوات الثورية ، فعزما على اصدار بيان مشترك حول الانتفاضة ، ولكن هذا البيان لم يصدر في النهاية .

لم يكن تعاطف ماركس وانغلز مع بولندا تعاطفا غير نقدي . ففي ٢١ نيسان١٨٦٣ كتب انغلز الى ماركس : «اجد لزاما علي ان اقول ان استجماع حماسة كافية لبولاق

عام ۱۷۷۲ يقتضي ان يتصرف المرء كالنعامة . فقد هوت الارستقراطية حينذاك في الجزء الاكبر من اوروبا بشرف وحتى بذكاء ، على الرغم من ان حكمتها العامة كانت ان المادية تمثل ما يأكله المرء وما يرقد عليه وما يحصل عليه على موائد الميسر ، ولكن لم تكن هناك ارستقراطية في غباء الارستقراطية البولندية حين باعت نفسها للقيصر» . ولكن ما دام احتمال قيام ثورة في روسيا نفسها غير قائم ، فان اعادة الاستقلال لبولندا تمثل الامكانية الوحيده للوقوف في وجه النفوذ الروسي في اوروبا ، ولذا اعتبر ماركس ان القمع الوحشي للانتفاضة البولندية وغزو روسيا للقفقاس يشكلان اهم حدثين في اوروبا منذ ١٨١٥ . فوضع اكبر قدر من التأكيد في الجزء الذي يبحث السياسة الخارجية للبروليتاريا على المسألة البولندية ، وجعلته المقاومة التي ابداها تولين وفرايبورغ وغيرهم لهذه النقطة بالذات يشير الى هذه المعارضة بمرارة طوال فترة طويلة من الزمن بعد ذلك . غير انه نجح بمساعدة المندوبين الانجليز في التغلب على هذه المعارضة وظلت المسألة مدرجة في جدول الاعمال .

كان الاجتماع يعقد جلسات مغلقة في الصباح برئاسة يونغ ، وجلسات شبه علنية في المساء بقيادة اودغر . فتطرح في الجلسات المسائية أمام جمهور اكبر يتألف بصورة رئيسية من العمال تلك المسائل التي بحثت وتم الاتفاق حولها في جلسات الصباح . وعندما عاد المندوبون الفرنسيون الى باريس ، نشروا تقريرا عن الاجتماع وعن جدول الاعمال الذي اعد للمؤتمر ، فلاقى ذلك أصداء واسعة في الصحافة الفرنسية . ولاحظ ماركس برضى واضح «ان باريسيينا دهشوا بعض الشيء اذ وجدوا ان الفقرات المتعلقة بروسيا وبولندا التي ارادوا شطبها هي التي احدثت اكبر الإثر» . وظل بعد ذلك بسنوات عديدة يذكر برضى بالغ «الملاحظات الحماسية» التي ابداها المؤرخ الفرنسي هنري مارتن على تلك الفقرات بشكل خاص وعلى جدول اعمال المؤتمر بشكل عام .

٥ ـ الحرب النمسوية ـ البروسية

ادى الوقت والطاقة اللذين كرسهما ماركس لقضية الاممية الى نتيجة مزعجة هي توقف جهوده لكسب العيش ، فعادت متاعبه المالية الى الظهور مرة اخرى .

ففي ٣١ تموز اضطر ثانية الى الكتابة الى انفلز ليخبره ان العائلة تعيش طيلة الشهرين الاخيرين على رهن اشيائها : «أؤكد لك انني افضل ان اقطع اصبعي على ان اكتب هذه الرسالة . فمن المؤسف حقا ان يعيش المرء نصف حياته معتمدا على الاخرين . لكن عزائي الوحيد هو انني واياك شريكين وأن مهمتي هي ان اعطي وقتي للمسائل النظرية والحزبية . أخشى ان يكون هذا البيت الذي نعيش فيه افضل مما تسمح به مواردنا ، وأن نكون قد عشنا هذه السنة افضل من العادة ، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة لاعطاء الاولاد فرصة اقامة علاقات قد تمنحهم بعض الامان في المستقبل ، هذا اذا لم نقل انه كان في ذلك بعض التعويض عن كل ما عانوه .

اعتقد انك توافق معي انه حتى من وجهة النظر العملية المحضة ليس العيش في بيت بروليتاري تماما امرا مناسبا ، رغم ان ذلك لا يضيرنا انا وزوجتي ومن الممكن ان يكون مناسبا لو كانت الفتيات صبيانا» . مد انغلز يد العون الى صديقه فورا ، لكن متاعب وهموم تحصيل مجرد العيش بدأت تقلق ماركس وعائلته وظلت تقلقهم طوال عدد من السنوات .

بعد ذلك ببضعة اشهر . وفي ٥ تشرين الاول ١٨٦٥ ، اتاحت رسالة من لوثار بوشيه لماركس فرصة غير متوقعه لكسب المال وبطريقة غريبة جدا . كان بوشيه يعيش مهاجرا في لندن ، ولكن لم تقم بينه وبين ماركس علاقات ودية او حتى مجرد علاقات . وحتى عندما بدا بوشيه يتخذ موقفا مستقلا من نزاعات المهاجرين وانضم الى اوركوهارت نصيرا متحمسا ، ظل موقف ماركس منه موقفا انتقاديا ، ولكن بوشيه امتدح امام بوركهايم رد ماركس على فوخت واراد ان يقوم بعرضه في «الغماينه تزايتونغ» . غير ان عرضا كهذا لم يظهر ، ولا يستطيع المرء ان يقرر ما اذا كان ذلك لان بوشيه لم يكتبه او لان «الغماينه تزايتونغ» رفضت ان تنشره . عاد بوشيه الى برلين بعد صدور العفو البروسي وهناك صادق لاسال ، وحضر معه الى لندن ليزور المعرض الكبير ، فتعرف من خلاله على ماركس الذي وصفه بانه «شاب جيد ولكنه مشوش الى حد ما» وقال انه لا يظن انه متفق مع لاسال في «سياسته الخارجية» . وبعد موت لاسال ، انخرط بوشيه في خدمة الحكومة البروسية ، فانهال ماركس عليه وعلى رودبرتس بالسباب في احدى رسائله لانغلز: «مجموعة تعيسة ، كل اولئك الرعاع من برلين وبراندنبرغ وبوميرانيا» .

والآن كتب بوشيه يقول : «الى العمل اولا : تريد صحيفة ستاتسنزيغر» تقريرا شهريا عن حركة السوق النقدي (وكذلك بالطبع سوق السلع بقدر ما لا يمكن فصل السوقين) ، وقد سئلت ما اذا كان باستطاعتي ان ازكي احدا . فاجبت انني لا اعرف من هو افضل منك لهذه المهمة . ولهذا فقد طلب الي الاتصال بك . لن تكون مقيدا بأية حدود فيما يتعلق بطول مقالاتك، وكلما كانت اشمل كلما كان ذلك افضل. اما بالنسبة الى المحتوى فان لك بالطبع الحق في اتباع ما تمليه عليك معتقداتك العلمية . غير ان اخذ القراء وليس هيئة التحرير بعين الاعتبار يجعل من الافضل ترك الجوهر الداخلي للمسألة باديا للخبراء فقط وتجنب الدخول في مساجلات» . ثم اتبع بوشيه ذلك ببضعة ملاحظات عن العمل واشارة الى نزهة مشتركة قام بها مع ماركس ولاسال ، الذي ستظل نهايته «لغزا سيكولوجيا» لكاتب الرسالة ، ثم ابدى ملاحظة هي ان ماركس يعرف بلا شك ان الكاتب قد عاد الى حبه الاول ، الملفات . «لم اشارك لاسال ابدا في آرائه ، وقد كنت اعتقد دائما انه يرى الامور تتطور باسرع مما هي في الواقع . ان التقدم سينزع جلده عدة مرات قبل ان يموت، ولذا فان على كل من يريد العمل داخل الدولة خلال حياته ان يدعم الحكومة» . وبعد بضعة تمنيات للسيدة ماركس وتحيات للسيدات الصغيرات وعلى الاخص الصغرى منهن ، تختتم الرسالة بالجملة التقليدية «خادمكم المطيع» .

رفض ماركس العرض ، ولكن ليست هناك معلومات مفصلة عما كتبه في رده

وعما انتهى اليه تفكيره بشأن رسالة بوشيه . ذهب ماركس الى مانشستر فور ان تسلم الرسالة ولا شك في انه بحث المسألة مع انغلز ، ولكن ليس هناك اي ذكر للامر في رسائلهما المتبادلة . وبعد ذلك باربعة عشر عاما ، وعندما تسببت محاولات هودل ونوبيلينغ الارهابية في انطلاق حملة عنيفة ضد الاشتراكيين ، نشر ماركس رسالة بوشيه فأحدثت دويا بالغا في معسكر اعداء الاشتراكية . فقد كان بوشيه وقت نشر رسالته سكرتيرا لمؤتمر برلين ، ويقول واضع سيرته شبه الرسمية انه هو الذي وضع القانون الاول المعادي للاشتراكية الذي تم التقدم به بعد اعمال هودل ونوبيلينغ الى الرايشتاغ ، الذي قابله بالرفض .

منذ ذلك الحين دار الكثير من النقاش حول رسالة بوشيه وما اذا كانت محاولة من بسمارك لشراء ماركس . ان من المؤكد على الاقل ان بسمارك اصبح في خريف ١٨٦٥ ، وبعد ان وقعت معاهدة غاستين فسوت من دون فعالية الشقاق المحتمل مع النمسا ، ميالا الى «اطلاق كل كلب يريد ان ينبح» ، على حد تعبيره الساخر . لقد كان بسمارك نفسه يونكراً متأصلا لدرجة لا يستطيع معها ان يغازل الطبقة العاملة بالطريقة التي فعل بها دزرائيلي وحتى اوي بونابرت ذلك ، والافكار المضحكة التي كونها عن لاسال بعد ان التقاه شخصيا عددا من المرات معروفة تماما . ولكنه كان على الاقل يملك في حاشيته المباشرة رجلين مؤهلين لمعالجة هذه المسألة الحساسة وهما اوثار بوشيه وهيرمان فاغنر . والواقع ان فاغنر كان في ذلك الحين يبذل كل ما في وسعه من جهد للايقاع بحركة الطبقة العاملة الالمانية ، وقد نجح في ذلك بقدر ما كان للكونتيسة هاتزافيلدت من علاقة بالمسألة . ولا شك في ان هيرمان بوصفه القائد الفكري لليونكر وصديقا قديما لبسمارك منذ ايام ما قبل اذار كان يتمتع بموقع اقوى من موقع بوشيه بكثير . فقد كان بوشيه يعتمد الى حد بعيد على نوايا بسمارك الطيبة تجاهه ، ذلك ان البيروقراطية كانت تنظر اليه بعين الشك وتعتبره دخيلا ، بينما كان الملك يرفض ان يقيم معه اية علاقة بسبب احداث ١٨٤٨ . وعلى اية حال، كان بوشيه ضعيفا، «سمكة بلا عظام»، كما وصفه صديقه رودبرتس.

اذا كانت رسالة بوشيه حقا محاولة لشراء ماركس ، فانها ما كانت لترسل دون معرفة بسمارك ، ولكن من المشكوك فيه ان تكون كذلك فعلا . ان الطريقة التي استخدم بها ماركس الرسالة في ١٨٧٨ خلال الحملة المعادية الاشتراكية لا يطالها النقد ، فقد كانت بالفعل خطوة ذكية ، ولكنها لا تثبت ان ماركس نفسه اعتقد ان الرسالة محاولة لشرائه ، كما لا تثبت انها كانت كذلك بالفعل . لقد كان بوشيه يعي ان اللاساليين الالمان لا ينظرون الى ماركس بعين الاحترام بعد ان قطع علاقاته مع شفايتزر . اكثر من ذلك لا يمكن ان يكون تقرير شهري عن حركة سوق النقد في اكثر الصحف الالمانية اثارة للملل وسيلة فعالة لتهدئة الاستياء العام الذي تواجهه سياسة بسمارك ، فكيف بكسب دعم العمال لهذه السياسة . وفي ظل ظروف كهذه ، لا يجد المرء شيئا ليضيفه الى ما قاله بوشيه من انه اوصى بصديقه القديم في المنفى الى القيم على صحيفة «ستاتسنزيغر» دون اي دافع سياسي بعيد ، الا ربما حقيقة واحدة هي ان هذا القيم كان قد رفض قبول احد ممثلي مدرسة

مانشستر . وبعد ان تلقى بوشيه ردا سلبيا من ماركس ، اتصل بدوهرنغ ، الذي وافق على العمل ولكنه سرعان ما تخلى عنه عندما اتضح ان القيم على «ستاتسنزيفر» لا يكن اي احترام «للمعتقدات العلمية» .

وكان هناك ما هو اسوأ من المصاعب المالية المتزايدة التي كان على ماركس ان يجابهها نتيجة عمله الفعال في الاممية ونتيجة بحثه العلمي ، فقد بدأت صحته تتدهور اكثر فاكثر . ففي ١٠ شباط ١٨٦٦ كتب له انغلز يقول : «يجب عليك فعلا ان تقوم بشيء للتخلص من الدمامل ... توقف عن العمل في الليل ونظم حياتك اكثر» . وفي ١٣ شباط اجاب ماركس : «أمس استلقيت على ظهري ثانية بسبب دمل خبيث ظهر في فخذي الايمن . او كنت املك من النقود ما يكفي عائلتي وكان كتابي قد انتهى لما اهتممت أدنى اهتمام بما اذا كنت اذهب الى القبر اليوم ام غدا، ولكن ما دامت الاحوال على ما هي عليه ، فانني اشعر بالاهتمام» . وبعد ذلك باسبوع تلقى انغلز الاخبار المفزعة : «لقد كانت المسالة قاسية هذه المرة . لم تعرف العائلة كم كان الامر خطرا . اذا اصابني المرض مرتين او ثلاث مرات اخرى بهذا الشكل فسأموت . انني اشعر بالضعف البالغ ، لا في رأسي بل في رجلاي واليتي . والاطباء محقون بالطبع عندما يقولون ان العمل الطويل في الليل هو السبب في انتكاستي ، ولكنني لا استطيع ان اخبرهم بما يجبرني على الاسراف في العمل ، ولو استطعت لما كان في ذلك اي نفع» . غير ان انغلز أصر هذه المرة ان يرتاح صديقه بضعة اسابيع ، فذهب ماركس الى مارغيت .

سرعان ما استعاد ماركس نشاطه ومعنوياته في مارغيت ، فكتب رسالة مرحة الى ابنته لورا ، يقول فيها : «انني سعيد حقا لانني حللت في بيت خاص وليس في فندق ، حيث كان لا بد ان تزعجني السياسة المحلية والفضائح العائليـــة والتقولات ، ولكنني مع ذلك لا استطيع القول انني لا اهتم بأحد ولا احد يهتم بي . فهناك صاحبة البيت ، وهي صماء كالحجر ، وابنتها التي تعاني من بحة مزمنة في الصوت . غير انهم أناس طيبون ، يعتنون بي ولا يتدخلون في شؤوني ... انني اقضي الجزء الاكبر من النهار في الهواء الطلق ، وآوي الى الفراش في العاشرة مساء . كما انني لا اقرأ شيئا ولا اكتب الا القليل ، وادخل بالتدريج حالة النيرفانا التي يعتبرها البوذيون غاية البركة الانسانية» . وفي نهاية الرسالة ترد ملاحظة قصد بها ماركس اغاظة ابنته ، ولا شك انها كانت تنبىء باحداث قادمة : «ان ذلك الشيطان الصغير لافارغ لا يزال يغيظني ببرودونيته . واعتقد انني لن اصيب راحة الا اذا ادخلت بعض التفكير السليم الى جمجمته» .

وبينما كان ماركس لا يزال في مارغيت ، شقت البروق الاولى سحب الحرب التي كانت قد تلبدت في سماء المانيا . ففي ٨ نيسان عقد بسمارك حلفا هجوميا مع ايطاليا ضد النمسا ، وفي اليوم التالي طلب من المجلس الالماني عقد برلمان الماني على اساس الاقتراع العام لبحث اصلاح الجامعة الالمانية وتقديم نتائج البحث الى الحكومات الالمانية . ولا شك ان الموقف الذي اتخذه ماركس وانغلز حيال هـــذه الاحداث يبين مقدار عزلتهما عن الوضع الالماني ، اذ كان تقييمهما للامور متذبذبا .

فقد كتب انغلز في ١٠ نيسان مشيرا الى اقتراح بسمارك بعقد برلمان الماني يقول : «كم هو حمار ذلك الرجل ! انه يظن ان ذلك سيساعده . اذا بلغت الامور مداها حقا ، فان تطورات المستقبل ستعتمد لاول مرة في التاريخ على الموقف في برلين . واذا استطاع البرلينيون توجيه ضربتهم في اللحظة المناسبة فان الامور قد تسير سيرا حسنا ـ ولكن من ذا الذي يستطيع الاعتماد عليهم ؟»

وبعد ذلك بثلاثة ايام ، كتب ثانية ولكن هذه المرة ببصيرة نفاذة واضحة : «يبدو أن البورجوازية الالمانية ستوافق على الاقتراح (الاقتراع العام) بعد قليل من المقاومة ، ذلك ان البونابرتية هي بعد كل شيء دين البورجوازية الحقيقي . لقد بدأت ادرك اكثر فاكثر ان البورجوازية ليس من طبيعتها ان تحكم مباشرة . ولذا فان شبه ـ ديكتاتورية بونابرتيه هي الشكل الطبيعي من الحكم البورجوازي في البلدان التي لا توجد فيها اوليغاركية (كما في انجلترا) مستعدة للحكم طبقا لمصالح البورجوازيه مقابل مكافآت طائلة . فهذا الشكل البونابرتي من الحكم يحقق المصالح المادية الكبرى للبورجوازية حتى ضد البورجوازيه ذاتها ، ولكنه يرفض ان يعطي للبورجوازية اي نصيب في الحكومة . من جهة اخرى تجد هذه الديكتاتورية نفسها مجبرة ضد رغباتها على تعزيز المصالح المادية للبورجوازية ، ولذا فاننا نرى السيد بسمارك يتبنى برنامج الجمعية الوطنية . غير ان تنفيذ هذا البرنامج مسألة اخرى بالطبع ، ولكن ليس من المحتمل ان يتجشم بسمارك العناء بسبب البورجوازية الالمانية» . وظن انغلز ان بسمارك سيفشل بسبب الجيش النمسوي . فبينديك على اية حال جنرال افضل من الامير فريدريك كارل . والنمسا قوية بما فيه الكفاية كي تجبر بروسيا على التماس السلام ، ولكن بروسيا ليست قوية بما يكفي لاجبار النمسا على ذلك ، ولذا فان كل نجاح بروسي سيكون دعوة تغري بونابرت بالتدخل .

ووصف ماركس الوضع بالكلمات ذاتها تقريبا في رسالة بعث بها الى صديقه الجديد الطبيب كوغلمان في هانوفر . كان كوغلمان هذا من انصار ماركس وانغلز منذ ان كان صبيا في عام ١٨٤٨ ، ولكنه لم يتعرف الى ماركس الا في عام ١٨٦٢ وبفضل توسط فريليغارث ، ولكنه بعد ان تعرف عليه سرعان ما اصبح واحدا من المقربين اليه . لقد كان ماركس يخضع نفسه تماما لكل أحكام انغلز بصدد المسائل العسكرية دون ان يتخذ من الامر موقفه النقدي المعتاد .

لكن الفكرة التي كان يحملها انغلز عن الجيش البروسي تبعث على الدهشة اكثر من مبالغته في تقدير قوة الجيش النمسوي . ذلك انه كان قد عالج مسألة اصلاح الجيش ، التي كانت السبب في نشوب النزاع الدستوري البروسي ، وأبدى في هذه المعالجة بصيرة اكبر وأكثر نفاذا بكثير مما ابداه المهرجون الديمقراطيون البورجوازيون . ففي ٢٥ ايار كتب انغلز : «اذا ابدى النمسويون ذكاء كافيا ولم يهاجموا ، فان المتاعب ستبدأ في الجيش البروسي دون اي شك . اذ لم يبد الرجال من قبل اي تمرد شبيه بما ابدوه خلال التعبئة الحالية . ان ما نسمعه عن الوضع قليل لسوء الحظ ، ولكن حتى هذا القليل يكفي ليبين لنا ان شن حرب هجومية بجيش كهذا امر مستحيل» . وفي ١١ حزيران كتب يقول : «ستشكل

قوات الاحتياط (اللاندفهر) خطرا على بروسيا في هذه الحرب كما كان البولنديون في حرب ١٨٠٦ عندما كانوا يشكلون ثلث الجيش واوقعوا الفوضى في كل شيء . ولكن هناك فارقا واحدا هو ان قوات الاحتياط لن تنحل بعد الهزيمة بل ستثور». لقد كتب هذا قبل اسابيع ثلاثة من وقوع معركة كونيغراتز الفاصلة .

قضت معركة كونيغراتز على كل الاوهام في الحال ، وبعد المعركة بيوم واحد كتب انغلز : «ماذا تقول في البروسيين ؟ لقد احرزوا النصر بقوة عظيمة . معركة كهذه تنتهي في ثماني ساعات امر لم يسبق له مثيل . لقد كان يمكن لها في ظروف اخرى ان تستمر يومين ، لكن بندقية الكبسولة سلاح رهيب ، وكذلك حارب الجنود بشجاعة نادرا ما نراها فيهم ايام السلام» . كان يمكن لماركس وانغلز ان يخطئا ، ولقد اخطآ مرارا بالفعل ولكنهما لم يفشلا ابدا في ادراك الحقيقة عندما تفرضها الاحداث . لقد كان النصر البروسي شرابا مرا بالنسبة لهما ، ولكنهما لم يحاولا تجنبه . وفي ٢٥ تموز كتب انغلز ، الذي كان لا يزال يلعب الدور القيادي في هذه المسألة ، ملخصا الوضع بقوله : «يبدو لي الوضع في المانيا الان بسيطا جدا . فمنذ اللحظة التي نفذ فيها بسمارك خطته بشأن الجيش البروسي وصادف فيها نجاحا عظيما ، اتخذ التطور في المانيا وجهة محددة هي وجهة بسمارك ، وعلينا كما على غيرنا الاعتراف بالحقائق الثابتة سواء احببناها ام كرهناها ... ان هناك على الاقل جانب واحد جيد في المسألة هو انها ستبسط الوضع وتجعل الثورة اسهل بقضائها على منازعات رأس المال الصغير ، وهي على اية حال ستسارع التطور . فالبرلمان الالماني يختلف في نهاية الامر عن المجلس البروسي ، وستجر كل اقليمية الدويلات الصغرى الى الحركة ، ويدمر النفوذ المحلي وتصبح الاحزاب حقا احزابا قومية بدلا من ان تظل محلية» . وبعد يومين اجاب ماركس برباطة جأش : «اوافقك تماما على اننا يجب ان نقبل الوضع المشوش كما هو . ومع ذلك فان البقاء بعيدا خلال الفترة الاولى لهذا الحب الجديد امر سار» .

وفي الوقت ذاته كتب انغلز يقول : «ان الاخ ليبكنشت يجهد نفسه منتصرا للنمسا بتعصب» ولم يكن يعني بذلك امتداح ليبكنشت . وكان من الواضح ان ليبكنشت مسؤول عن «فورة غضب» ظهرت في «فرانكفورتر تزايتونغ» . فقد نشرت هذه الصحيفة اشرعتها الى حد تأنيب بروسيا على معاملتها المشينة «لاميرهس النبيل» وكان قلبها ينبض شفقة على غويلف الاعمى المسكين . وفي الوقت ذاته كان شفايتزر يتخذ في برلين الموقف ذاته الذي اتخذه ماركس وانغلز ، وبالكلمات ذاتها تقريبا . ولهذا بالذات لا يزال الرجل السيء الحظ موضع الغضب الاخلاقي بسبب هذه «السياسة الانتهازية» من جانب اولئك «السياسيين» الثقيلي الظل الذين يقسمون بماركس وانغلز ولا يفهمون منهما شيئا .

٦ ــ مؤتمر جنيف

لم يعقد المؤتمر الاول للأممية حسب الخطة الاصلية ، عندما قررت معركة

كونيغراتز مصير المانيا . فقد اصبح من الضروري تأجيل المؤتمر الى ايلول ، رغم ان الاممية احرزت في سنتها الثانية تقدما اسرع بكثير مما احرزته في سنتها الاولى .

بدأت جنيف تصبح اهم مركز الحركة في القارة الاوروبية ، وانشأ كل من فرعي الاممية السويسري ــ الالماني والسويسري الفرنسي ــ الايطالي صحيفة ناطقة باسمه . فاصدر الفرع السويسري ــ الالماني صحيفة «در فوربوت» ، وهي صحيفة شهرية اصدرها وكان يحررها الثوري القديم بيكر ، ولا تزال صفحاتها حتى يومنا هذا من اهم مصادر المعلومات فيما يتعلق بالاممية الاولى . وقد ظهرت هذه الصحيفة اولا في كانون الثاني ١٨٦٦ ووصفت نفسها بانها «الصحيفة المركزية للمجموعة الناطقة بالالمانية» ، ذلك ان الاعضاء الالمان في الاممية كانوا هم ايضا يعتبرون جنيف مركزا لهم ، لان القوانين في المانيا كانت تحول دون تأسيس فرع الماني للاممية ، وللسبب ذاته كذلك امتد تأثير الفرع السويسري الفرنسي ــ الايطالي الى فرنسا ايضا .

كذلك اصدرت الحركة في بلجيكا صحيفة خاصة بها بعنوان «لو تريبيون دو بيبول» ، وقد اعترف ماركس بها صحيفة رسمية للاممية على قدم المساواة مع صحيفتي جنيف ، ولكن كانت هناك في باريس صحيفة او اثنتان تمثلان قضية العمال بطريقتهما الخاصة ، ولكنه لم يكن يعترف بهما ناطقتين رسميتين باسم الاممية . كذلك احرزت قضية الاممية تقدما جيدا في فرنسا ، ولكنها كانت كنار تجتاح هشيما اكثر منها شعلة ثابتة . وقد كان من الصعب تأسيس اية مراكز حقيقية الحركة بسبب الافتقار الكامل لحرية الصحافة او حق الاجتماع ، كما ان التسامح الغامض الذي كان يبديه البوليس البونابرتي ادى الى خبو طاقة العمال بدلا من تشجيعها . اكثر من ذلك ، كان النفوذ الحاسم الذي تتمتع به البرودونية غير مؤات لاي تطوير في القوة التنظيمية للطبقة العاملة .

وكان اعضاء «فرنسا الفتاة» ، كما كان اللاجئون الفرنسيون في بروكسل ولندن يسمون انفسهم ، يثيرون الكثير من المتاعب والضجيج . ففي شباط ١٨٦٦ عارض فرع فرنسي للاممية ، كان قد انشيء في لندن ، المجلس العام بعنف لانه وضع مسألة بولندا على جدول اعمال المؤتمر . فقد تساءل ممثلو هذا الفرع ، بتأثير من البرودونية ، كيف يمكن للمرء ان يفكر بمعارضة نفوذ روسيا باعادة توحيد بولندا في وقت تحرر فيه روسيا الاقنان وترفض الارستقراطية البولندية ورجال الدين البولنديون بعناد ان يفعلوا ذلك . وعند اندلاع الحرب البروسية ــ النمسوية، سبب الاعضاء الفرنسيون في الاممية متاعب جمة للمجلس العام بما اسماه ماركس «شتيرنزيتهم المشوبة بالبرودونية» . فقد اعلنوا ان الامة قد عفى عليها الزمن كفكرة . ولذا فان الامم جميعا يجب ان تنحل الى «جماعات» صغيرة تشكل بعد ذلك «رابطة» بدل الدولة. «وسيتقدم هذا التفتيت للانسانيةوما يلازمه من تبادلية، بينما يتوقف التاريخ في كل البلدان توقفا تاما وينتظر العالم كله حتى ينضج الافراد ويقوموا بالثورة الاجتماعية . وعندئذ يقومون بالتجربة ، فيشده العالم بقوة المثال الذي ضربوه ويتقدم ليفعل الشيء ذاته» . كانت سخرية ماركس اللاذعة هذه موجهة

الى «صديقين عزيزين» عليه هما لافارغ ولونغيت ، اللذين تزوجا ابنتيه فيما بعد ، ولكنهما كانا حتى ذلـــك الحين لا يزالان يثيران المتاعب بوصفهما من «حواريي برودون» .

كانت قوة الاممية الرئيسية تتركز في النقابات الانجليزية ، مما بعث الرضى في نفس ماركس ، فكتب رسالة الى كوغلمان في ١٥ كانون الثاني ١٨٦٦ يعبر فيها عن سروره لنجاح الاممية في اجتذاب هذه النقابات التي تمثل المنظمات العمالية الوحيدة الكبيرة حقا . وقد سر على وجه الخصوص لاجتماع ضخم عقد بقيادة الاممية قبل ذلك ببضعة اسابيع في قاعة سان مارتن لمساندة اصلاح الاقتراع . ففي اذار ١٨٦٦ تقدمت وزارة غلادستون بقانون للاصلاح الانتخابي ، ولكن هذا القانون كان جذريا الى درجة لم يقبلها قطاع من حزب غلادستون نفسه ، فانحاز الـــى المحافظين مما ادى الى سقوط الحكومة واستبدالها بحكومة من المحافظين وعلـــى رأسها دزرائيلي . وعندما حاول دزرائيلي تأجيل مسألة الاصلاح الانتخابي الى أجل غير مسمى تنامت الحركة المساندة للاصلاح اكثر فاكثر . وقد كتب ماركس الى انغلز في ٧ تموز معلنا : «ان تظاهرات العمال في لندن ، الرائعة بالمقارنة مع اي شيء رايناه في انجلترا منذ عام ١٨٤٩ ، هي من صنع الاممية . فمثلا ، لوكرافت ، الذي قاد مظاهرة ساحة الطرف الأغر ، عضو في مجلسنا» . وكان اوكرافت قد خطب في اجتماع ضم عشرين الفا في ساحة الطرف الأغر ، فاقترح القيام بتظاهرة في حدائق وايتهول (مقر الحكومة) «حيث اطحنا مرة برأس ملك» ، وبعد ذلك بقليل كادت تظاهرة من ستين الف شخص تصبح انتفاضة حقيقية .

ادركت النقابات الخدمات التي اسدتها الاممية لدفع الحركة التي كانت تجتاح البلاد ، وتبنى مؤتمر شفيلد حضره مندوبون عن النقابات الكبيرة جميعا القرار التالي : «ان هذا المؤتمر يعترف اعترافا كاملا بالخدمات التي ادتها الرابطة الاممية للرجال العاملين في تعزيز التضامن الاخوي بين العمال في كل البلدان ، وهـــو يوصي بالحاح كل الهيئات التي تمثلت في مناقشاته بالانضمام الى هذه الرابطة ، قناعة من المؤتمر ان هذا الارتباط له اهمية كبرى لتقدم ورفاه الطبقة العاملة كلها» . ونتيجة لهذا القرار ارتبط الكثير من النقابات بالاممية ، ولكن رغم ان ذلك كان نصرا سياسيا وادبيا عظيما الا انه لم يؤد الى نتائج مادية متناسبة معه . فقد ترك للنقابات ان تقرر الاشتراك الذي تراه مناسبا او لا تدفع اشتراكا على الاطلاق . وعندما قررت أن تدفع ، كانت مساهماتها متواضعة للغاية . فمثلا تعهدت نقابة عمال الاحذية التي يبلغ عدد اعضائها خمسة آلاف بدفع خمسة جنيهات سنويا ، وتعهدت نقابة النجارين التي يبلغ عدد اعضائها تسعة آلاف بدفع جنيهين سنويا ، امـــا البناؤون وعددهم يتراوح بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف فقد تعهدوا بدفع جنيه واحد.

غير ان ماركس سرعان ما اضطر الى الاعتراف بان «الطابع التقليدي الملعون للحركات الانجليزية» كان يجعل نفسه محسوسا في حركة الاصلاح ايضا . فقد اتصلت النقابات قبل تأسيس الاممية بالراديكاليين البورجوازيين بصدد حركـــة الاصلاح ، وكلما وعد هؤلاء بتقديم مساعدات ملموسة كلما توثق التقارب. واصبحت

«الدفعات على الحساب» التي كانت من قبل ترفض وتقابل بالسخط تعتبر انجازات مقبولة . فافتقد ماركس الروح المتقدة التي كان يتسم بها الشارتيون القدامى وشعر بالاسف العميق لان الانجليز لا يستطيعون ان يفعلوا امرين في وقت واحد ، مشيرا الى انه كلما كانت حركة الاصلاح تتقدم كلما اصبح قادة النقابات اكثر برودا تجاه «حركتنا الخاصة بنا» وأن «حركة الاصلاح في انجلترا التي خلقناها نحن كادت تقتلنا» . ولا شك في ان القلعة الصامدة التي كانت تقف في وجه نزعة كهذه ازيحت من الطريق عندما مرض ماركس وقضى طور نقاهته في مارغيت فلم يستطع التدخل في سير الامور شخصيا .

وسببت صحيفة «ذي وركمانز ادفوكيت» قدرا كبيرا من المتاعب والقلق لماركس. وكانت هذه الصحيفة الاسبوعية قد اعتبرت صحيفة رسمية للاممية في الاجتماع الذي عقد عام ١٨٦٥ ، ثم غيرت اسمها الى «ذي كومونويلث» في شباط ١٨٦٦ . كان ماركس عضوا في ادارة الصحيفة التي كان عليها ان تناضل باستمرار ضد الصعوبات المالية مما جعلها تعتمد على مساعدة دعاة الاصلاح الانتخابي من البورجوازيين . فكان على ماركس ان يفعل كل ما في وسعه للوقوف في وجه هذا النفوذ البورجوازي ، وفي الوقت ذاته تسوية الخلافات الحسود التي نشبت بصدد مسائل التحرير . وقد كان ايكاريوس رئيسا لتحريرها بعض الوقت ونشر فيها سجاله الشهير ضد جون ستيوارت ميلز (عامل يدحض جون ستيوارت ميلز) الذي ساعده ماركس كثيرا في كتابته . غير ان ماركس لم يستطع في النهاية الحيلولة دون انحطاط الصحيفة الى «صحيفة تنطق باسم الاصلاح ... وذلك جزئيا لاسباب اقتصادية وجزئيا لاسباب سياسية» كما كتب لكوغلمان .

يفسر هذا الوضع العام لماذا ساورت ماركس الشكوك بصدد المؤتمر القادم للاممية ولماذا خشي ان «يعرضنا لسخرية اوروبا» . لكن الاعضاء الفرنسيين اصروا على التمسك بقرار المجلس العام عقد المؤتمر في ايار ، واراد ماركس ان يسافر الى باريس لاقناعهم باستحالة عقده في ذلك الموعد ، لكن انغلز أصر على ان المسألة كلها لا تستأهل المخاطرة ، لأن ماركس بذهابه الى باريس يعرض نفسه لالقاء القبض عليه من جانب البوليس البونابرتي . وليس من المهم ان يتوصل المؤتمر الى قرارات قيمة ، فالمهم ان يتم تجنب حدوث فضيحة علنية ، وهذا امر ممكن بشكل او بآخر. وبالطبع ستنتهي اية تظاهرة كهذه الى الفشل ، ولكنها لن تكون بالضرورة تظاهرة تجر عليهم سخرية اوروبا .

وفي النهاية ، حسمت منظمة جنيف المسألة، اذ انها لم تكن قد اتمت استعداداتها لحضور المؤتمر ، فقررت تأجيله حتى ايلول ، ووافق الجميع على ذلك باستثناء منظمات باريس . ولم يكن ماركس ينوي حضور المؤتمر ، لان عمله العلمي لم يعد يسمح بأي انقطاع ، وكان يشعر ان ما يفعله للطبقة العاملة بهذا العمل أهم مما يمكن ان يعمله في المؤتمر ، ومع ذلك فقد كرس الكثير من وقته ليضمن للمؤتمر افضل نجاح ممكن . فوضع لمندوبي لندن مذكرة جعلها تقتصر عمدا على النقاط التي يمكن ان «تسمح بتعاون مباشر وتفاهم بين العمال وتخدم الحاجات الملحة للصراع الطبقي

وتنظيم العمال كطبقة» . ولا شك في انه يمكن للمرء ان يمتدح هذه المذكرة بما امتدح به البروفسور بيسلي خطاب الافتتاح : انها تلخص في بضع صفحات المطالب المباشرة للبروليتاريا العالمية بشكل أشمل وأوضح من كل ما سبقها .

ذهب رئيس المجلس العام ، اودغر ، وسكرتيره العام كريمر الى جنيف كممثلين للمجلس ومعهما ايكاريوس ويونغ اللذين كان ماركس يعتمد عليهما بصورة رئيسية.

انعقد المؤتمر من ٣ـ٨ ايلول برئاسة يونغ وبحضور ستين مندوبا . ووجد ماركس ان المؤتمر كان «افضل مما توقعت» ولكنه عبر عن مرارته تجاه «السادة القادمين من باريس» . فرؤوسهم «مليئة بالجمل البرودونية الفارغة . انهم يثرثرون عن العلم ، لكنهم جاهلون تماما . وهم يحتقرون كل عمل ثوري ، اي كل عمل ينبثق من الصراع الطبقي ، كما يحتقرون كل الانجازات الاجتماعية المركزة ، تلك الانجازات التي يمكن تحقيقها بوسائل سياسية (مثلا ، التحديد القانوني ليوم العمل) . ان هؤلاء السادة الذين تحملوا طيلة ستة عشر عاما ، ولا يزالون يتحملون بخنوع ، دكتاتورية عمياء يعمدون تحت ستار الحرية الحكومية والتسلط الفردي الى التبشير بنظام اقتصادي بورجوازي مبتذل تشوبه مسحة من البرودونية المثالية» . وهكذا يمضي ماركس في الحديث عن هؤلاء حتى بكلمات أقسى .

لقد كان حكم ماركس قاسيا ، ولكن بعد ذلك بعدة سنوات تحدث جوهان فيليب بيكر ، الذي كان احد المندوبين الى المؤتمر ، عن الفوضى التي كانت تطبع جلساته : «كم من التأدب كان علينا ان ننفق على هؤلاء السادة الطيبين كي نتجنب بشرف خطر ان يدمروا المؤتمر بحماستهم البالغة» . اما التقارير التي نشرتها في ذلك الحين صحيفة «در فوربوت» عن مباحثات المؤتمر فهي مكتوبة بلهجة مختلفة تماما ، ولذا فان على المرء ان يقرأها محتفظا بكل ملكاته النقدية .

كان الفرنسيون اقوياء نسبيا في المؤتمر ، اذ كانوا يسيطرون على قرابة ثلث الاصوات ولكنهم، في نهاية المطاف لم يحرزوا الكثير ، رغم انهم لم يتركوا فنا من فنون الفصاحة الا وجربوه . فقد سقط اقتراح تقدموا به بأن تقتصر عضوية الاممية على العمال اليدويين ، كما سقط اقتراح اخر بان يعالج الاممية مسألة الدين . ومن جهة اخرى فاز اقتراح تقدموا به يقضي بدراسة مالية الاممية ، وكان هدفهم من هذا ضمان تأسيس بنك مركزي للاممية على اسس برودونية فيما بعد . كذلك تم تبني مشروع قرار مسيء تقدم به تولين وفرايبورغ ويقضي باعتبار عمل النساء «مبدأ منحطا» وأن مكان المراة الطبيعي هو المنزل . غير ان مشروع القرار هذا واجه معارضة شديدة حتى من المندوبين الفرنسيين الاخرين مثل فارلان ، وفي النهاية تم تبنيه مع مشروع قرار اخر ينقضه عمليا تقدم به المجلس العام حول عمل النساء والاطفال . وفيما عدا ذلك نجح المندوبون الفرنسيون في تمرير القليل من البرودونية في القرارات هنا وهناك ، ولكن على الرغم من ان ماركس شعر بالضيق لهذه الشوائب التي شوهت نتاج عمله الطويل الدؤوب ، الا انه لم يفشل في ان يدرك ان نتائج المؤتمر كانت مرضية بشكل عام .

غير انه تلقى بصدد مسألة واحدة ضربة يمكن اعتبارها موجعة ، ولعلها كانت كذلك بالفعل ، تلك هي المسألة البولندية . وكان ماركس قد عمد بعد تجربته في اجتماع لندن الى صياغة هذه النقطة بحرص بالغ في مذكرته التي وضعها لمندوبي لندن . فأعلن انه يتعين على الطبقة العاملة ان تثير المسألة لان الطبقات الحاكمة تعمد الى اخمادها (رغم حماستها لكل نوع اخر من القومية) وذلك لان الارستقراطية والبورجوازية تعتبر القوة الاسيوية التي تلوح بالخطر (روسيا) القلعة النهائية التي تقف في وجه زحف الطبقة العاملة . ولا يمكن كبح هذه القوة الا باعادة الوحدة البولندية على أسس ديمقراطية . كذلك فان بقاء المانيا مركزا أماميا للتحالف المقدس او تحولها الى حليف لفرنسا الجمهورية يعتمد على حل هذه المسألة . وما دامت هذه المسألة الاوروبية الكبرى دون حل ، فان حركة الطبقة العاملة ستظل مقيدة باستمرار كما سيظل تطورها متقطعا .

دعم المندوبون الانجليز الاقتراح بقوة ، ولكنه جوبه بمعارضة لا تقل قوة من المندوبين الفرنسيين وعدد من المندوبين السويسريين الفرنسيين — الايطاليين . وفي النهاية عمد بيكر ، الذي دعم مشروع القرار ولكنه كان حريصا على عدم انشقاق المؤتمر ، الى تقديم مشروع قرار يشكل حلا وسطا ويعلن ان الاممية تعارض كل اشكال الحكم بالقوة ، وانها لذلك ستناضل من اجل الغاء النفوذ الروسي الامبريالي في اوروبا ومن اجل اعادة استقلال بولندا على أسس ديمقراطية ، فتم تبني هذا الاقتراح المراوغ . وفيما عدا ذلك ، نجحت المذكرة الانجليزية على طول الخط . وتم تبني القواعد المؤقتة بعد ان ادخل عليها تعديلان طفيفان ، اما خطاب الافتتاح فلم تجر مناقشة حوله وصارت قرارات وبيانات الاممية منذ ذاك تشير اليه بوصفه وثيقة رسمية اساسية .

ثم اعيد انتخاب المجلس واقرت لندن مقرا له . وعهد اليه بجمع احصائيات عن وضع الطبقات العاملة في العالم كله واصدار تقارير بصدد كل المسائل التي تهم الاممية بقدر ما تسمح له وسائله بذلك . ولكي يتم تزويد المجلس العام بالاموال اللازمة له ، قرر المؤتمر ان يدفع كل عضو في الاممية ثلاثين سنتيما للسنة القادمة، وأوصى بان يدفع جميع الاعضاء اشتراكا سنويا منتظما قدره بنس واحد او نصف بنس بالاضافة الى رسوم بطاقة العضوية .

وكانت أهم بيانات المؤتمر البرنامجية تلك المتعلقة بتشريع حماية العمل والنقابات. فقد قبل المؤتمر مبدأ النضال من اجل تشريع حماية العمل واوضح ان « الطبقة العاملة بفرضها تبني قوانين كهذه لن تعزز وتقوي السلطات الحاكمة ، بل انها على العكس من ذلك ستحول هذه السلطات التي تستخدم ضدها الان الى أداة في يدها». اذ انها ستتمكن بالتشريع العام من الحصول على ما لا يمكن الحصول عليه بالجهود الفردية المفتتة . وأوصى المؤتمر بتقصير يوم العمل على اساس ان ذلك شرط ضروري لا بد ان تفشل بدونه كل الجهود التي تبذلها البروليتاريا من اجل الانعتاق. فهو ضروري لكي يستعيد العمال صحتهم وطاقتهم الجسدية وكي تصبح لديهم فرصة النمو العقلي والتفاعل الاجتماعي والقيام بنشاطات سياسية واجتماعية .

واقترح المؤتمر ان يكون اقصى حد شرعي ليوم العمل هو ثماني ساعات على أن يتم ترتيب وقت العمل بحيث يتكون من ساعات العمل الفعلية فقط بالاضافة الى فترات استراحة معقولة للاكل . ويجب ان يطبق يوم العمل الاقصى المكون من ثماني ساعات على كل العمال البالغين من العمر ثمانية عشر عاما او اكثر ، رجالا ونساء . وشجب المؤتمر العمل الليلي بصورة مبدئية لانه يشكل خطرا على صحة العمال ؛ على ان يحدد القانون الاستثناءات التي لا يمكن الاستغناء عنها . ويجب ان تستثنى النساء العاملات من العمل الليلي ومن كل اشكال العمل الاخرى التي تضر بالتركيب الانثوي او التي لا تناسب الاناث اخلاقيا .

واعتبر المؤتمر ميل الصناعة الحديثة الى اجتذاب الاطفال وصغار السن من الجنسين الى عملية الانتاج الاجتماعي تقدما مشروعا يستحق التحية ، على الرغم من انه شجب الطريقة التي يحدث بها ذلك في المجتمع الراسمالي واعتبرها مثيرة للتقزز . وقال المؤتمر في قراراته ان كل طفل في اي نظام اجتماعي معقول يصبح عاملا منتجا منذ بلوغه التاسعة من العمر ، وفي الوقت ذاته لا يستثنى اي شخص بالغ من القانون الطبيعي الذي يقضي ان على كل انسان ان يعمل كي يأكل ، وعدا ذلك يجب على الجميع ان يعملوا لا بعقولهم فحسب ، بل وبأيديهم ايضا . اما في النظام الاجتماعي السائد ، فمن المرغوب فيه ان يقسم الاطفال الى ثلاث فئات ويعاملوا طبقا لذلك . وهذه الفئات الثلاث هي الاطفال من ٩ الى ١٣ عاما ، والاطفال من ١٣ الى١٥ عاما ، والاطفال من ١٥ الى ١٧ عاما . ويجب ان لا تزيد ساعات العمل للفئة الاولى عن ساعتين في اليوم ، سواء أكان ذلك في البيت او في المشغل ، اما في الفئة الثانية فيجب ان لا تزيد ساعات عملها عن اربع ساعات في اليوم ، وكذلك يجب ان لا تزيد ساعات عمل الفئة الثالثة عن ست ساعات في اليوم ، كما يجب ان تكون هناك للجميع فترة استراحة مدتها ساعة واحدة لتناول الطعام . غير ان العمل الانتاجي من جانب الاطفال يجب ان لا يسمح به الا اذا كان مقترنا بالتدريب التربوي، بما فيه التدريب العقلي والجسدي والتقني الذي يجعلهم يتلقون المبادىء العلمية العامة لكل عمليات الانتاج وفي الوقت ذاته يعرفهم على الاستخدام العملي للادوات البسيطة .

اما بالنسبة للنقابات ، فقد قرر المؤتمر ان نشاطاتها ليست مشروعة فحسب ، بل وضرورية ايضا . فالنقابات وسيلة لاستخدام القوة الاجتماعية الوحيدة التي تمتلكها البروليتاريا ، وهي بالتحديد أعدادها الكبيرة ، ضد سلطة الراسمالية المتمركزة ، وطالما ظل نمط الانتاج الراسمالي قائما فان من المستحيل الاستغناء عن النقابات . على العكس من ذلك ، يجب على النقابات ان تعمم نشاطاتها باقامة صلات اممية فيما بينها . ولا شك في ان النقابات ستصبح عبر معارضتها الواعية للفظاعات المستمرة التي ترتكبها الراسماليةالمركز التنظيمي للطبقة العاملةكما اصبحت العاميات في القرون الوسطى مركزا تنظيميا للبورجوازية الصاعدة . وعندما تشن النقابات حرب عصابات دؤوب في الصراع اليومي بين العمل ورأس المال ، فانها تصبح اكثر اهمية اذ تصير رافعة تعمل في سبيل القضاء على العمل المأجور . ولقد ركزت

النقابات في الماضي كل نشاطاتها على النضال المباشر ضد رأس المال ، اما في المستقبل فان عليها ان لا تترفع عن الحركة السياسية والاجتماعية العامة لطبقتها. وعندئذ سينمو نفوذها ويشتد فتدرك جماهير العمال الغفيرة ان هدفها ليس ضيقا ولا انانيا ، بل هو ضمان انعتاق الملايين البائسة .

وبعد المؤتمر بفترة قصيرة ، وعلى ضوء روح القرار السابق ، اتخذ ماركس خطوة كان يأمل ان تؤدي الى نتائج عظيمة . فكتب الى كوغلمان في ١٣ تشرين الاول ١٨٦٦ يقول : «ان مجلس نقابات لندن (سكرتيره هو رئيسنا اودغر) يبحث الان اقتراحا بان يعلن نفسه الفرع الانجليزي للاممية . فاذا تم تبني هذا الاقتراح ، اصبح قياد الطبقة العاملة في ايدينا بمعنى ما ، وعندئذ يصبح بامكاننا ان ندفع الحركة بفعالية اكبر» . غير ان المجلس لم يتبن الاقتراح ، وقرر الاحتفاظ باستقلاله التنظيمي رغم موقفه الودي من الاممية . واذا كان ما يقوله مؤرخو الحركة النقابية صحيحا ، فان المجلس رفض حتى ان يسمح لممثل من الاممية بحضور جلساته كي يطلع المجلس باسرع ما يمكن على كل الاضرابات في القارة الاوروبية وعلى كل المشاكل العمالية .

كان قادة الاممية قادرين ، حتى في السنوات الاولى لوجودها ، على رؤية الانتصارات العظيمة تلوح في الافق ، ولكنهم ادركوا ايضا ان لهذه الانتصارات حدودها . غير انه كان يحق للحركة في ذلك الوقت ان تهنىء نفسها على الانتصارات التي احرزتها ، ويلاحظ ماركس برضى بالغ في كتابه الذي كان قد اوشك على الانتهاء منه ان مؤتمرا عقده العمال الاميركيون في بالتيمور ، في الوقت ذاته الذي انعقد فيه مؤتمر جنيف ، اعلن ايضا ان يوم العمل من ثماني ساعات هو المطلب الاول الذي يجب تحقيقه على طريق انعتاق العمل من كل قيود الرأسمالية انعتاقا تاما .

وقال ماركس ان العمل الابيض لن يستطيع تحرير نفسه ابدا ما دام العمل الاسود موصوما بالعار ، لكن الثمرة الاولى للحرب الاهلية الاميركية التي اندلعت من اجل القضاء على العبودية كانت التحريض في سبيل يوم العمل من ثماني ساعات ، تلك الحركة التي شبت من الاطلنطي الى الهادي ومن نيو انجلند الى كاليفورنيا .

الفصل الثاني عشر

رأس المال

١ ـ المخاض

عندما رفض ماركس حضور مؤتمر جنيف على اعتبار ان اتمام عمله الرئيسي ـ الذي كان يظن انه لم يقم منه الا باجزاء صغيرة حتى ذلك الحين ـ يبدو اهم لقضية العمال من اي شيء يمكن ان يفعله في المؤتمر ، كان مشغولا بوضع اللمسات الاخيرة على المجلد الاول . في البداية ، انطلق هذا العمل ، الذي بدأه في ١ كانون الثاني ١٨٦٦ ، بسرعة كبيرة ، ذلك «ان الانتهاء منه بعد كل هذا المخاض امر اشعرني بالطبع بسعادة بالغة» .

استغرق هذا المخاض من السنوات ما يبلغ قرابة ضعف الاشهر التي تحتاجها الطبيعة لانتاج كائن انساني . ولربما كان ماركس على حق عندما قال انه لم يسبق ان كتب عمل من هذا النوع في ظل ظروف بهذه الصعوبة. فقد كان المرة تلو الاخرى يضع لنفسه مهلة زمنية لاتمامه . ففي ١٨٥١ ، كانت هذه المدة «خمسة اسابيع» وفي ١٨٥٩ كانت «ستة اسابيع» ولكنه كان في كل مرة يتجاهل المهلة الزمنية بسبب النقد الذاتي القاسي الذي كان يضع نفسه تحت رحمته وبسبب الدقة التي كانت تدفعه باستمرار الى بدء ابحاث جديدة ، ولم تكن الاحتجاجات النافدة الصبر التي كان افضل اصدقائه ، انغلز ، يواجهه بها باستمرار لتزحزحه عن هذا النقد الذاتي وتلك الدقة .

وفي نهاية ١٨٨٥ انتهى العمل ، ولكن على شكل مخطوطة ضخمة لا يمكن لأحد غيره ، حتى انغلز ، ان يعدها للنشر . ومن كانون الثاني ١٨٦٦ الى اذار ١٨٦٧ وضع ماركس المجلد الاول من «رأس المال» في الشكل الكلاسيكي الذي نجده به اليوم ، مستخلصا من الكمية الضخمة من المواد التي كتبها «عملا فنيا متكاملا» . ولقد كان ذلك انجازا يشهد بقدرته الضخمة على العمل ، ذلك ان السنة وربع السنة اللتين اتم بهما ذلك تخللهما سوء الصحة بل والمرض الخطير ، كذلك الذي اصابه في

شباط ١٨٦٦ ، كما تخللهما تراكم الديون التي كادت تفرقه ، وهذا كله بالاضافة الى الاستعدادات المنهكة لمؤتمر الاممية في جنيف .

وفي تشرين الثاني ١٨٦٦ ، ارسلت الحزمة الاولى من المخطوطة الى اوتوميسنر في هامبورغ ، وكان هذا ناشرا للادبيات الديمقراطية سبق ان نشر كتابا صغيرا لانغلز حول المسألة البروسية العسكرية . وفي نيسان ١٨٦٧ اخذ ماركس ما تبقى من المخطوطة الى هامبورغ بنفسه ليجد ان ميسنر «رجل شريف» . فقد سويت كل الترتيبات بعد مفاوضات قصيرة . وكان ماركس مهتما جدا بالبقاء في هامبورغ الى ان تصل طبعات التصحيح الاولى من ليبزيغ ، حيث كان الكتاب يطبع . وفي هذه الاثناء زار صديقه كوغلمان في هانوفر حيث قوبل بترحاب حار ، وقضى عددا من الاسابيع مع كوغلمان وعائلته ، وأشار فيما بعد الى هذه الفترة على انها «واحدة من اسعد الواحات في صحراء الحياة» .

ولا شك في ان معنوياته ارتفعت نتيجة الاحترام والتعاطف اللذين لقيهما في الاوساط المثقفة في هانوفر ، خاصة وانه لم يعتد على مثل تلك المعاملة من مثل هذه الاوساط . فكتب في ٢٤ نيسان الى انغلز قائلا : «هل تعلم اننا نتمتع بسمعة في اوساط البورجوازية المثقفة افضل بكثير مما ظننت» . وفي ٢٧ نيسان اجاب انغلز يقول : «لقد شعرت دائما ان الكتاب الملعون الذي عملت عليه هذه المدة الطويلة هو سبب كل مصائبك ، وانك لن تستطيع ابدا التغلب عليها ما لم تلقه عن كاهلك. لقد جرّك عدم اتمامه الى الحضيض جسديا ونفسيا وماليا ، وانني استطيع القول انه لا بد انك تشعر الان بانك شخص آخر تماما بعد ان تخلصت منه ، خاصة وانك ستكتشف بعد ان تعود الى العالم انه ليس بالسوء الذي كان به» . اما بالنسبة له شخصيا ، فقد عبر انغلز عن امله في ان يستطيع التحرر من «هذه التجارة الملعونة» قريبا ، ذلك انه طالما ظل غارقا فيها حتى اذنيه فانه لن يستطيع ان يفعل اي شيء ذي قيمة ، خاصة وان الحالة قد ازدادت سوءاً بعد ان اصبح شريكا في العمل بسبب ازدياد مسؤولياته .

وفي ٧ ايار كتب ماركس يقول : «انني لعلى امل وثقة جازمة من انني سأكون في نهاية العام رجلا صنع نفسه بنفسه ، على الاقل بمعنى انني ساستطيع اصلاح وضعي المالي واقف على قدمي في النهاية . لا شك في انني لم اكن لاستطيع انهاء كتابي ابدا لولاك ، وانني لأؤكد لك ان ضميري كان مثقلا على الدوام لانه كان يتعين عليك ان تضيع قدراتك الرائعة على المسائل التجارية وتتركها لتصدأ بسببي . وفوق ذلك كله ، كان عليك ان تعاني معي من همومي التعيسة» . وفي الواقع ، لم يصبح ماركس «رجلا يصنع نفسه بنفسه» لا في نهاية العام ولا في اي وقت اخر ، وكان على انغلز ان يبقى منغمسا في الاعمال التجارية بضع سنوات أخرى ، ولكن الافق بدأ مع ذلك ينجلي قليلا .

وبينما كان ماركس في هانوفر ، وفى بدين اجله طويلا ، فأرسل رسالة الى احد انصاره ، وهو مهندس تعدين اسمه سيغفريد ماير كان يعيش في برلين ولكنه كان على وشك ان يهاجر الى اميركا . ولا شك ان الطريقة التي وفى بها ماركس دينه

تضرب مثلا رائعا اخر على «كونه بلا قلب» : «لا بد انك تظن بي سوءاً ، خاصة عندما اخبرك ان رسائلك لم تبعث السرور في قلبي فحسب ، بل كانت عزاء كبيرا لي في الايام القاسية التي تلقيتها فيها . فلقد عوضتني معرفتي بأن حزبنا قد كسب فيك رجلا قادرا ذا مباديء رفيعة عن الكثير . وبالاضافة الى ذلك كانت رسائلك على الدوام موضوعة بلهجة ملؤها الود والدفء تجاهي شخصيا ، ولا شك في انك تدرك ان رجلا مثلي يخوض صراعا مريرا مستمرا مع العالم (العالم الرسمي) لا يقلل من اهمية شيء كهذا . حسن ، اذا ، انك تسأل لماذا لم أجبك ما دام الامر كذلك ؟ لانني كنت اشعر انني على حافة القبر وأن عليّ ان استخدم كل دقيقة من الوقت الذي أصلح فيه للعمل لانهاء كتابي ، الذي ضحيت لاجله بصحتي وسعادتي وعائلتي. وانني آمل ان لا يكون هذا التفسير بحاجة الى زيادة . ان عليّ ان اضحك على أولئك الذين يسمون «عمليين» وعلى حكمتهم . فلو كان للمرء مكان يختبيء فيه كالثور ، لاستطاع ان يدير ظهره لآلام الانسانية ويهتم بأموره الشخصية ، ولكن ما دامت الامور على ما هي عليه ، فانني كنت سأشعر انني لست عمليا البتة لو مت دون ان أتم كتابي على الاقل في شكل مخطوطة » .

وفي خضم هذه المعنويات المرتفعة التي لازمت ماركس طيلة اقامته في هانوفر ، جاء محام اسمه وارنبولد ، لم يكن ماركس يعرفه من قبل ، ليزعم ان بسمارك يرغب في كسب ماركس ومواهبه العظيمة لخدمة الشعب الالماني ، فأخذ ماركس الامر بجدية بالغة . ولم يكن ذلك لان الاقتراح أغراه بأي شكل ، اذ كان متفقا تماما مع انغلز الذي كتب يقول : «انه لأمر طبيعي بالنسبة لرجل له مثل هذا الافق الفكري وهذه الطريقة في التفكير ان يحكم على الاخرين من خلال حكمه على نفسه» . لكن ماركس لم يكن ليصدق رسالة وارنبولد لو كان يتمتع بمزاجه اليقظ المعتاد ، ذلك ان الجامعة الالمانية الشمالية كانت قد تحققت لتوها ، كما كانت الحرب مع فرنسا بسبب مسألة اللوكسمبورغ قد تم تجنبها بصعوبة بالغة ، ولذا لم يكن ممكنا ان يخاطر بسمارك ويستعدي البورجوازية باستخدام مؤلف «البيان الشيوعي» ، خاصة وأن البورجوازية كانت قد انحازت لتوها الى جانبه وكانت تنظر بضيق الى معاوني بسمارك من امثال بوشيه وفاغنر .

وفي طريقه الى لندن ، خاض ماركس مغامرة ، ليس مع بسمارك ، ولكن مع قريب له ، وقص الامر على كوغلمان ببعض الرضى . ففي القارب ، كانت فتاة المانية سبق ان لاحظها ماركس بسبب مشيتها المستقيمة شبه العسكرية ، وقد سألته الفتاة عن مواعيد القطار في لندن ، فتبين ان عليها ان تنتظر بضع ساعات في لندن قبل ان تستطيع ركوب القطار . فساعدها ماركس بشهامة على تمضية الوقت واخذها للنزهة في هايدبارك : «بدا ان اسمها اليزابيث فون بوتكامر وانها ابنة اخ بسمارك وانها قضت معه بضعة اسابيع في برلين . وكانت تعرف الجيش كله ، لان عائلتها تزود جيشنا بسخاء برجال كلهم شرف ويتمتعون باجسام لائقة . كانت فتاة مرحة حسنة الثقافة ، ولكنها ارستقراطية وبروسية حتى العظم . وكانت دهشتها بالغة عندما علمت انها وقعت في اياد حمراء» . غير ان الفتاة لم تفقد روحها

الفكهة لهذا السبب ، وكتبت الى ماركس رسالة صغيرة انيقة تعبر فيها عن «احترامها الانثوي» و«شكرها القلبي» لفارسها بسبب كل العناء الذي تجشمه مع «مخلوق لا تجربة لديه» مثلها . وكذلك ارسل له والداها رسالة يخبرونه فيها كم شعروا بالسعادة عندما علموا ان المرء لا يزال يستطيع ان يقابل اناسا طيبين في رحلاته .

وعندما وصل ماركس الى لندن صحح المسودات الطباعية لكتابه ، ولكن ليس دون ان يصب جام غضبه احيانا على اهمال الطابعين ، وفي الساعة الثانية من صباح ١٦ آب ١٨٦٧ كتب رسالة الى انغلز يخبره فيها انه فرغ لتوه من تصحيح الصفحة الاخيرة : «وهكذا انتهى هذا المجلد . وينبغي علي ان اشكرك انت وحدك لانك جعلته ممكنا . فبدون تضحياتك لاجلي لم اكن استطيع القيام بالكمية الضخمة من العمل التي احتاجتها المجلدات الثلاثة . انني احتضنك بشكر من كل قلبي . وتحياتي لك يا صديقي العزيز الحبيب» .

٢ ـ المجلد الاول

لخص ماركس في المجلد الاول من كتابه ما كان قد كتبه عام ١٨٥٩ في كتابه «نقد الاقتصاد السياسي» بصدد طبيعة السلع والنقود . ولم يفعل ماركس ذلك من اجل الدقة والكمال فحسب ، ولكن ايضا لان القراء الاذكياء كانوا يفشلون في فهم افكاره بشكل كامل ، حتى ظن انه لا بد ان يكون هناك خطأ في عرضه لها وعلى الاخص في تحليله لطبيعة السلعة .

ولا شك في ان الاساتذة الجامعيين اللامعين لا يمكن ان يحسبوا من بين قرائه الاذكياء . فقد عبروا عن متعتهم للفصل الاول على وجه الخصوص بسبب «صوفيته المتضمنة» . «تبدو السلعة اول وهلة شيئا تافها يمكن فهمه بسهولة . غير ان تحليلها يبين انها شيء غريب ، مليء بالخبايا الميتافيزيقية والحيل الثيولوجية . فطالما ظلت السلعة قيمة استعمالية ، لا يبدو ان فيها ما هو غامض ... فشكل الخشب يتغير عندما نصنع منه مائدة . ومع ذلك تظل المائدة خشبا ، تظل شيئا عاديا منظورا . ولكنها حالما تصبح سلعة ، فانها تتحول الى شيء علوي ومنظور كذلك . فهي لا تقف على الارض بثبات على أرجلها الاربعة فحسب ، ولكنها ايضا تقف مقلوبة تجاه السلع الاخرى ويتمخض رأسها الخشبي عن نزوات اغرب بكثير مما لو صارت ترقص دون ان يتدخل في ذلك بشر» . اخطأ فهم هذه الحجة اولئك الاغبياء الذين يستطيعون ان ينتجوا خبايا ميتافيزيقية واحاجي ثيولوجية بسهولة بالغة ، ولكنهم لا يستطيعون ان ينتجوا اي شيء مادي وعادي كمائدة خشبية .

ان الفصل الاول من رأس المال يبدو اذا ما نظر اليه من زاوية ادبية محضة واحدا من افضل ما كتب ماركس . فبعد ان يعالج ماركس السلع ، ينتقل ليبين كيف تتحول النقود الى رأسمال. فاذا كان يجري تبادل قيم متساوية بقيم متساوية في تداول السلع، فكيف يمكن للمتمول ان يشتري السلع بقيمتها ويبيعها بقيمتها ويستطيع

مع ذلك الحصول على قيمة اكبر من تلك التي دفعها ؟ انه يستطيع ذلك لانه في ظل العلاقات الإجتماعية السائدة يجد في سوق السلع سلعة غريبة استهلاكها يؤدي الى انتاج قيمة جديدة . وهذه السلعة هي قوة العمل .

انها توجد على شكل عامل حي يحتاج الى كمية معينة من الطعام للابقاء على حياته وحياة عائلته ، وحياة عائلته هي التي تضمن تخليد قوة العمل الحية بعد وفاته . ووقت العمل الضروري لانتاج هذه الكمية من الطعام الخ يمثل قيمة قوة العمل . غير ان هذه القيمة التي تدفع على شكل أجور أقل بكثير من القيمة التي يستطيع مشتري قوة العمل استخراجها منها (اي من قوة العمل) . والعمل الفائض الذي يقوم به العامل فوق وقت العمل الضروري للحلول مكان القيمة التي تمثلها أجوره هو مصدر فضل القيمة ، مصدر التراكم المستمر في راس المال . وهـــذا العمل الذي يقوم به العامل ولا يتلقى لقاءه اجرا يوزع على كل الاعضاء غير العاملين في المجتمع ، وعليه يقوم كل النظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله .

ولا شك في ان العمل الذي لا يقابله اجر ليس خاصية مميزة تقتصر على المجتمع البورجوازي الحديث . فطيلة الوقت الذي كانت فيه طبقات مالكة وأخرى لا تملك، كان على الطبقات التي لا تملك ان تقوم دائما بعمل لا تتلقى عليه اجرا . وطالما كان هناك قطاع من المجتمع يحتكر وسائل الانتاج ، فانه يتعين على العامل سواء كان حرا ام مستعبدا ان يعمل وقتا اطول من الوقت الضروري للحفاظ على وجوده وذلك كي ينتج الاطعمة وما عداها لمالكي وسائل الانتاج . من هنا فان العمل المأجور ليس الا شكلا تاريخيا محددا من اشكال نظام العمل الذي لا يتلقى اجــرا ، ويجب ان يدرس بوصفه كذلك اذا كان سيفهم فهما صحيحا .

ولكي يستطيع المتمول تحويل النقود الى رأسمال ، يتعين عليه ان يجد عمالا احرارا في سوق العمل ، احرارا بمعنى مزدوج : اولا احرار في التصرف بقوة عملهم كسلعة ولا يملكون اية سلعة اخرى يتصرفون بها ، واحرار بمعنى انهم لا يملكون اية وسيلة من الوسائل الضرورية لاستخدام قوة عملهم بشكل مستقل . وهذه علاقة لا تجد اساسا لها في قوانين الطبيعة ، فالطبيعة لا تنتج من جهة أناسا يملكون السلع والنقود ، ومن جهة اخرى أناسا لا يملكون سوى قوة عملهم . كما أن هذه العلاقة ليست علاقة اجتماعية تشترك فيها كل حقب التاريخ ، بل هي نتيجة فترة طويلة من التطور التاريخي ، ونتاج كثير من التحولات الاقتصادية وأفول واختفاء سلسلة كاملة من اشكال الانتاج الاجتماعي السابقة .

ان انتاج السلع هو نقطة بداية رأس المال . فانتاج السلع وتداول السلع وتداول السلع المتطور ، اي التجارة ، تشكل الظروف التاريخية التي نما بموجبها رأس‌المال. وتاريخ رأس المال الحديث يعود الى خلق التجارة العالمية الحديثة والسوق العالمي الحديث في القرن السادس عشر . اما الوهم الذي ينشره الاقتصاديون المبتذلون اذ يقولون انه كان هناك في وقت من الاوقات نخبة من الناس الكدودين جمعوا الثروات، ومجموعة من الناس الكسالى الذين لا يصلحون لشيء وجدوا في النهاية انهم لا يملكون شيئا يبيعونه سوى جلودهم ليس الا هراء . ولا تقل عن ذلك سخافـــة

الطريقة نصف المستنيرة التي يصف بها المؤرخون البورجوازيون تحلل نمط الانتاج الاقطاعي على انه انعتاق للعمال ، وليس على انه في الوقت ذاته تطور نمط الانتاج الاقطاعي الى نمط انتاج راسمالي . فقد كف العامل عن ان ينتمي الى فئة وسائل الانتاج كما كان العبد او القن ، ولكنه ايضا كف عن ان يملك وسائل الانتاج مثل الفلاح او الحرفي الذي يعمل لحسابه الخاص .

لقد حرمت جمهره الشعب من الارض والطعام ووسائل الانتاج بواسطة سلسلة من الاجراءات العنيفة الوحشية التي يصفها ماركس بالتفصيل على اساس التاريخ الانجليزي ، وذلك في الفصل المتعلق بالتراكم الاولي . وبهذه الطريقة خلق العامل الحر الذي يحتاجه نمط الانتاج الرأسمالي . وجاء رأس المال الى العالم ينقط دما وقذارة من كل مسام من مساماته ، وحالما استطاع الوقوف على قدميه ، لم يكتف بالحفاظ على انفصال العامل عن الوسائل الضروريه لاستخدام قوة عمله ، بل عمد ايضا الى خلق هذا الانفصال على نطاق يتسع باستمرار .

ويختلف العمل المأجور عن الاشكال السابقة للعمل الذي لا تدفع لقاءه أجور بسبب حقيقة واحدة هي ان حركة رأس المال لا حدود لها وشهيته العارمة الى فضل القيمة لا يمكن اشباعها. اما في المجتمعات التي ترتدي فيها القيمة الاستعمالية للسلعة اهمية اكبر من تلك التي ترتديها قيمتها التبادلية ، فيقتصر فضل القيمة على دائرة واسعة الى هذا القدر او ذاك من الاحتياجات ، ولكن طبيعة هذا الشكل من اشكال الانتاج لا ينجم عنها طلب غير محدود على فضل القيمة . ولكن الحال يختلف حيث تكون للقيمةالتبادلية للسلعة اهمية اكبر مناهمية قيمتها الاستعمالية. فرأس المال كمنتج يمتلك قوة عمل مستلبة ، كمصاص للعمل الفائض ومستغل لقوة العمل ، يتفوق في القدرة والمخاطرة والفعالية على كل انماط الانتاج السابقة التي تقوم على العمل المجبر المباشر . والامر المهم بالنسبة لراس المال ليس عملية الانتاج، ليس انتاج القيم الاستعمالية ، بل ان المهم له هو عملية الاستثمار ، اي انتاج القيم التبادلية التي يستطيع ان ينتزع منها قيمة اكبر من تلك التي يضعها فيها . والطلب على فضل القيمة لا يعرف شبعا . وانتاج القيم التبادلية لا يعرف حدودا كتلك التي يضعها على انتاج القيم الاستعمالية اشباع الحاجات المباشرة .

وكما ان السلعة تركيب للقيم الاستعمالية والقيم التبادلية ، كذلك فان عملية انتاج السلع تركيب لعملية العمل وعملية خلق القيمة . وتتوقف عملية انتاج القيمة عند النقطة التي تستبدل فيها قيمة قوة العمل المدفوعة على شكل اجور بقدر مساو من القيمة ، وبعد هذه النقطة تتحول هذه العملية الى عملية انتاج لفضل القيمة ، الى عماية استثمار . وعندئذ تصبح بوصفها تركيبا لعمليتي العمل والاستثمار عملية انتاج رأسمالي ، اي انها تصبح الشكل الراسمالي للانتاج السلعي . وفي عملية العمل تعمل قوة العمل ووسائل الانتاج معا . اما في عملية الاستثمار فان مكونات رأس المال ذاتها تبدو راسمالا ثابتا ومتغيرا . فيتحول رأس المال الثابت عبر عملية الانتاج الى وسائل انتاج ومواد خام ومواد مساعدة وادوات انتاج ، ولا يغير قيمته. اما رأس المال المتغير فيتحول عبر عملية الانتاج الى قوة عمل وتتغير قيمته : انه

ينتج قيمته وينتج فائضا يزيد عن قيمته ، ينتج فضل قيمة يتغير حجما ويصغر او يكبر طبقا للظروف. وهكذا يمهد ماركس الطريق لتفحص فضل القيمة الذي يبدو في شكلين ، احدهما هو فضل القيمة النسبي والثاني فضل القيمة المطلق ، وكلاهما لعب دورا مختلفا ولكنه حاسم في تاريخ نمط الانتاج الراسمالي .

ينتج فضل القيمة المطلق عندما يجعل الراسمالي العامل يعمل اكثر من الوقت الضروري لاعادة انتاج قوة عمله . ولو كان الامر في يد الراسمالي تماما لجعل العامل يعمل اربعا وعشرين ساعة في اليوم الواحد ، فكلما كان يوم العمل أطول كلما كان فضل القيمة الناتج اكبر . ومن جهة اخرى يشعر العامل عن حق ان كل ساعة من وقت العمل يضطر الى العمل فيها فوق ما هو ضروري لانتاج اجوره انما تنتزع منه انتزاعا ويتعين عليه ان يدفع ثمنها بصحته . ولقد بدأ الصراع بين الراسمالي والعامل بشأن طول يوم العمل مع اول ظهور العمال الاحرار في السوق ، واستمر هذا الصراع حتى يومنا هذا . فالراسمالي يصارع من اجل الربح ، وسواء كان هو شخصيا رجلا طيبا او شريرا فان منافسة غيره من الراسماليين له تجعله يعمل كل ما في وسعه لتطويل يوم العمل فوق ما تحتمله طاقة البشر . اما العامل فهو يصارع من الجهة الاخرى من اجل الحفاظ على صحته والحصول على بضعة ساعات من الفراغ يستطيع ان يمارس فيها اشكالا من النشاط الانساني غير العمل والاكل والنوم . ويصف ماركس بقوة الحرب الاهلية التي استمرت خمسين سنة بين الطبقة العاملة والطبقة الراسمالية في انجلترا منذ ولادة الصناعة الكبيرة التي دفعت الراسماليين الى كسر كل الحواجز التي تفرضها على استغلال العمال الطبيعة والعادة والعمر والجنس والليل والنهار ، حتى اقر يوم العمل من عشر ساعات ، الذي احرزته الطبقة العاملة بنضالها ضد راس المال ، فكسبت به عائقا اجتماعيا قويا يحول دون العمال ودون بيع انفسهم وابناء جلدتهم الى الموت والعبودية بواسطة تعاقد حر مع رأس المال .

اما فضل القيمة النسبي فينتج عندما يتم تقصير وقت العمل الضروري لاعادة انتاج قوة العمل لصالح فضل القيمة . ويتم تخفيض قيمة قوة العمل بزيادة انتاجية قوة العمل في تلك الصناعات التي تحدد منتجاتها قيمة قوة العمل ، ولكي يتم ذلك يصبح من الضروري تثوير نمط الانتاج والشروط التقنية والاجتماعية لعملية العمل باستمرار . وبعد ذلك ، يدلي ماركس بملاحظات تاريخية واقتصادية وتقنية وسيكولوجية ـ اجتماعية في سلسلة من الفصول تعالج التعاون وتقسيم العمل والمانيفاكتورة والآلات والصناعة الكبيرة ، وقد اعترف الجميع ، وحتى ممثلو البورجوازية ، بأن هذه الملاحظات تشكل ثروة من الحقائق العلمية .

ولم يبين ماركس ان الآلات والصناعة الواسعة النطاق خلقت تعاسة اكبر من اي تعاسة خلقها اي نمط انتاجي اخر عرفه التاريخ فحسب ، بل اوضح كذلك انهما بتثويرهما المستمر للمجتمع الراسمالي تمهد السبيل امام شكل اجتماعي أرقى . وقال ان التشريع الصناعي هو اول رد فعل واع ومنهجي يقوم به المجتمع تجاه الشكل غير الطبيعي لعملية الانتاج ذاتها في هذا المجتمع . وعندما ينظم المجتمع العمل في

المصانع والورش فان ذلك يبدو مؤقتا فحسب تدخلا في حقوق الاستغلال التي يمتلكها رأس المال .

غير ان الظروف ذاتها سرعان ما تجبر المجتمع على تنظيم العمل المنزلي والتدخل حيال السلطة الابوية ، وبهذا يدرك المجتمع ان الصناعة الكبيرة انما تصفي العلاقات العائلية القديمة جنبا الى جنب مع الاساس الاقتصادي لنظام العائلة القديم والعمل العائلي الذي يتفق ويتطابق معه. «مهما بدا تحلل النظام العائلي القديم داخل المجتمع الرأسمالي رهيبا ومثيرا للتقزز ، الا ان الصناعة الكبيرة مع ذلك تمنح النساء والشباب والابناء دورا حاسما في عملية الانتاج الاجتماعي ، فتخلق بذلك اساسا اقتصاديا جديدا لشكل عائلي ارقى ولعلاقات ارفع بين الجنسين . انه لأمر سخيف بالطبع ان يفترض المرء ان الشكل المسيحي الجرماني للعائلة شكل مطلق سخف الافتراض بأن الشكل الروماني الكلاسيكي او الاغريقي الكلاسيكي او الشرقي للعائلة مطلق هو الاخر ، فهي جميعا اشكال تمثل سلسلة من التطور التاريخي . ومن الواضح ان تكوين القوة العاملة من افراد الجنسين ومن الاعمار المختلفة لا بد ان يتغير ليصبح مصدرا للتقدم الانساني في ظل ظروف مناسبة ، على الرغم من انه في شكله الرأسمالي الفظ (الذي يوجد فيه العمال من اجل العملية الانتاجية وليس العملية الانتاجية من اجل العمال) مصدر للفساد والعبودية» . فالآلة التي تحط العامل ليصبح مجرد ملحق بها تخلق في الوقت ذاته امكانية زيادة قوى المجتمع الانتاجية الى حد يستطيع معه كل افراد المجتمع ان يتمتعوا بلا استثناء بفرص متساوية للتقدم اللائق بالبشر ، وهذا يعني بلا شك بلوغ حد من الكمال كانت كل المجتمعات السابقة أفقر من أن تبلغه .

ويمضي ماركس بعد أن يتفحص انتاج فضل القيمة المطلق والنسبي الى تطوير اول نظرية عقلانية للاجور عرفها تاريخ الاقتصاد السياسي . فيبين أن سعر السلعة هو قيمتها معبرا عنها بالنقود ، وأن الاجور تمثل سعر قوة العمل . والعمل لا يظهر بحد ذاته في سوق السلع ، فالذي يظهر في هذا السوق هو العامل الحي الذي يعرض قوة عمله للبيع ، وبالتالي فان العمل لا يظهر الا في استهلاك السلعة التي هي قوة العمل . ان العمل هو جوهر كل القيم ومقياسها الاصيل ، ولكنه لا قيمة له بحد ذاته . غير أنه يبدو أن العمل يدفع لقاءه بالاجور ، لان العامل لا يتلقى اجوره الا بعد أن يقوم بعمله . والشكل الذي تدفع به الاجور ينجح في اخفاء أي أثر لتقسيم يوم العمل الى وقت عمل يدفع مقابله ووقت عمل لا يدفع مقابله شيء . وقد كانت الحالة على النقيض تماما بالنسبة للعبيد ، فالعبد يبدو وكأنه يعمل لسيده كل الوقت حتى عندما يعمل لانتاج قيمة مواده الغذائية ذاتها ، ويبدو عمله كله عملا لا لقاء له . اما بالنسبة للعمل المأجور ، فان العمل كله ، حتى ذلك الجزء منه الذي لا يدفع مقابله شيء ، يبدو مدفوع الاجر . ففي الحالة الاولى تخفي علاقات الملكية حقيقة أن العبد يعمل جزءا من الوقت لنفسه ، اما في الحالة الثانية فان العلاقات النقدية تخفي حقيقة ان العامل يعمل جزءا من الوقت لقاء لا شيء . ويضيف ماركس اننا بالتالي يمكن أن ندرك الاهمية الحاسمة لتحويل قيمة وثمن قوة العمل الى

أجور ، أي الى شكل تبدو فيه وكأنها قيمة وثمن العمل ذاته . فكل المفاهيم القانونية للرأسماليين والعمال معا ، وكل تعميات نمط الانتاج الرأسمالي ، كل أوهام الحرية التي يقدمها ، كل مخاتلة الاقتصاد السياسي المبتذل ، كل هذه تقوم على هذا المظهر الذي يخفي واقع الامور ويبدي عكسها تماما .

ثم يبين ماركس أن الشكلين الرئيسيين للاجور هما الاجور بالوقت والاجور بالقطعة ويبين على أساس القوانين التي تحكم الاجور بالوقت فراغ الادعاءات القائلة ان تقصير يوم العمل لا بد أن يؤدي الى انخفاض في الاجور ، ويبين أن العكس هو الصحيح : ان تقصيرا مؤقتا ليوم العمل يخفض الاجور ، اما تقصيره الدائم فيرفع الاجور . وكلما كان يوم العمل اطول كلما كانت الاجور أخفض .

اما الاجور بالقطعه فهي ليست غير شكل آخر للاجور بالوقت ، وهي الى ذلك الشكل الذي يناسب نمط الانتاج الراسمالي أكثر . فقد انتشر هذا الشكل من الاجور انتشارا واسعا خلال فترة المانيفاكتورة ، وأدى خلال الفترة الصعبة لنهوض الصناعة الكبيرة في انجلترا الى تطويل يوم العمل وتخفيض الاجور . والاجور بالقطعة مفيده جدا للرأسمالي لانها تجعل الرقابة على العمال تكاد تكون غير ضرورية وفي الوقت ذاته تقدم للرأسمالي فرصا كثيرة للقيام بحسومات مختلفة على الاجور وممارسة اشكال أخرى متنوعة من الخداع . ومن جهة اخرى ، يملك هذا الشكل من الاجور مساوىء كثيرة بالغة بالنسبة للعامل : الانهاك الجسدي نتيجة الجهود المفرطة لرفع مستوى الاجور، تلك الجهود التي تميل في الحقيقة الى خفض مستوى الاجور ، ازدياد التنافس بين العمال وما ينجم عن ذلك من ضعف تضامنهم ، ظهور عناصر طفيلية من الوسطاء بين العامل والرأسمالي تقتطع لنفسها جزءا كبيرا من اجور العمال ، وما شابه ذلك من الظواهر الضارة .

بالاضافة الى ذلك ، تجعل علاقة فضل القيمة بالاجور نمط الانتاج الرأسمالي يعيد انتاج لا رأس مال الرأسمالي فحسب ، بل وفقر العامل أيضا . فهناك من جهة الطبقة الراسمالية التيتملك كل المواد الغذائية وكل المواد الخام وكل وسائل الانتاج، وهناك من جهة أخرى الطبقة العاملة ، ذلك الجحفل العظيم من البشر المجبرين على بيع قوة عملهم من الرأسماليين مقابل تلك الكمية من المواد الغذائية التي لاتكفي في احسن الاحوال الا للابقاء عليهم قادرين على العمل وتسمح لهم بانجاب جيل جديد من البروليتاريين العاملين . ولكن رأس المال لا يعيد انتاج نفسه فحسب ، بل يزيد من حجمه باستمرار ، ويخصص ماركس الجزء الاخير من المجلد الاول لبحث « عملية التراكم » هذه .

لا ينجم فضل القيمة عن رأس المال فحسب، بل كذلك ينجم رأس المال عن فضل القيمة . ذلك أن جزءا من فضل القيمة الذي ينتج سنويا ويوزع على افراد الطبقة المالكة يستهلكه هؤلاء كدخل ، ولكن جزءا آخر يتراكم كراسمال . وهكذا يستخدم العمل الذي لم يدفع لقاءه أجر ، والذي انتزع من العمال ، لانتزاع قدر اكبر من العمل دون أجر منهم . وفي خلال عملية الانتاج يصبح رأس المال الذي ابتدىء به ضئيلا الى أبعد الحدود بالمقارنة مع رأس المال المتراكم مباشرة ، أي بالمقارنة مع فضل

القيمة أو فضل الناتج الذي تحول الى راسمال ، سواء كان لا يزال في يدي ذلك الذي راكمه أساسا أم أصبح في ايدي آخرين . واذن ، يقوم قانون الملكية الخاصة على الانتاج السلعي ، وتبادل السلع يحول نفسه الى نقيضه المباشر بفضل جدله (ديالكتيكه) الداخلي المحتم . وقوانين الانتاج السلعي تبدو وكأنها تبرر حق ملكية العمل الفردي ، فمالكي السلع يواجهون بعضهم بعضا بحقوق متساوية ، والوسيلة الوحيدة للحصول على سلعة الآخر هي بيع الفرد لسلعته هو ، وهذه السلعه الاخيرة لا يمكن أن تنتج الا بالعمل . لكن الواقع ان الملكيه تظهر ، في جانب الرأسمالي ، على انها الحق في امتلاك عمل الآخرين دون دفع لقاء ذلك ، أو امتلاك نتاج هذا العمل ، بينما تظهر في جانب العامل على انها استحالة امتلاكه لما ينتجه هو .

وعندما بدات البروليتاريا تدرك معنى هذا ، عندما قرعت بروليتاريا ليون ناقوس الخطر ، واشعلت البروليتاريا الريفية الانجليزية النار في بيوت مضطهديها، سارع علماء الاقتصاد السياسي المبتذلون الى اختراع « نظريه التقشف » التي تقول ان رأس المال انما يتراكم نتيجه « التقشف الطوعي » من جانب الرأسماليين . وهنا يدحض ماركس هذه النظرية بقسوة ، قائلا ان « التقشف » الذي يساهم فعلا في تراكم رأس المال هو « التقشف » الاجباري المفروض على العمال ، هو التخفيض القاسي للاجور تحت مستوى قيمة قوة العمل كي تتحول الاموال الضرورية لاستهلاك العمال ، الى اموال يراكمها الرأسماليون ، على الاقل جزئيا . هذا هو الاساس الحقيقي لكل النحيب حول الحياة « المرفهة » التي يعيشها العمال ، وللفيض الدافق الذي لا ينتهي من الاكاذيب حول الآلات الموسيقية الفخمة التي يزعم أن بعض العمال قد اشتروها في وقت او آخر ، ولكل الوصفات الرخيصة التي يروجها المصلحون الاجتماعيون المسيحيون ، وكذلك لكل الحيل والالاعيب الاخرى الشبيهة التي يستخدمها حاملو لواء الرأسمالية .

ان القانون العام للتراكم الرأسمالي هو التالي : نمو راس المال يتضمن نمو الجزء المتغير منه ، اي ذلك الجزء الذي يتحول الى قوة عمل . واذا ظل تركيب رأس المال دون أن يتغير ، اذا كانت كمية معينة من وسائل الانتاج تتطلب دائما القدر ذاته من قوة العمل لتشغيلها،فان من الواضح أن الطلب على قوة العمل سوف ينمو بالتناسب مع نمو رأس المال ، كما ستنمو الاموال اللازمة لاعالة العمال ، وكلما نمى رأس المال أسرع ، كلما نمت هذه الاموال أسرع . وكما أن التكاثر البسيط يعيد باستمرار خلق العلاقة الرأسمالية ذاتها ، كذلك يعيد التراكم خلق العلاقة الرأسمالية على نطاق اوسع : عدد اكبر من الرأسماليين أو رأسماليون أكبر من جهة ، وعدد أكبر من العمال المأجورين من جهة أخرى . ولذا فان تراكم رأس المال هو كذلك زيادة البروليتاريا ، وفي الحالة التي نحن بصددها تحدث هذه الزيادة في أكثر الظروف مواتاة للعمال . اذ أن جزءا أكبر من فضل القيمة المتزايد الذي ينتجونه ، والذي يتحول بازدياد الى رأس مال ، يعود اليهم على شكل اجور ، مما يمكنهم من زيادة استهلاكهم وتزويد انفسهم بالثياب والاثاثالخ بسخاء اكبر . غير ان علاقة تبعيتهم للراسمالي لا تتغير بأي شكل من الاشكال ، كما أن العبد لا يكف عن كونه عبدا لمجرد

أنه يطعم جيدا ويلبس جيدا . ذلك أنه يترتب عليهم دائما أن يـــزودوا الرأسمالي بقدر من العمل لا يدفع لقاءه ، وعلى الرغم من أن هذا القدر قد يتناقص الا أنــــه لا يمكن أن يتناقص الى الحد الذي يتهدد معه بالخطر الطابع الراسمالي لعملية الانتاج. ذلك أنه اذا ارتفعت الاجور فوق هذا الحد ، فان حافز الربح يتناقص ، فيتراخى من ثم تراكم رأس المال حتى تهبط الاجور ثانية الى مستوى يتفق مع الحاجـة الى استخدام العمل المأجور .

بيد ان القيود الذهبية التي يصيغها العامل نفسه لا تخف وطأتها الا عندما يحدث تراكم راس المال دون أن يصاحب ذلك أي تغير في العلاقة بين اجزائــــه الثابتــــة والمتغيرة . لكن عملية التراكم تكون مصحوبة في الواقع بثوره عظيمة في ما أسمـــاه ماركس التركيب العضوي لراس المال . اذ ينمو راس المال الثابت على حساب رأس المال المتغير ، فانتاجية العمل المتنامية تجعل وسائل الانتاج تزيد بسرعة اكبر مـــن سرعة زيادة قوة العمل المتضمنة فيها . وهكذا فان الطلب على قوة العمل لا يرتفع بالتناسب مع تراكم راس المال ، بل يهبط نسبيا . ويحدث الاثر ذاته بشكل آخـر بفعل تمركز راس المال الذي يحصل ، دون علاقة بتراكم رأس المال ، لان قوانـــين التنافس الرأسمالي تؤدي الى ابتلاع الراسماليين الكبار للراسماليين الصغـــار . وهكذا بينما يتطلب راس المال المكمل ، الذي تكون خلال عملية التراكم ، عددا أقـل فأقل من العمل بالنسبة الى حجمه ، يتخلص راس المال القديم ، الذي يعاد انتاجـه بتركيب جديد ، من عدد أكبر فاكبر من العمال الذين كان يوظفهم سابقا . وبهـــذه الطريقة يتشكل فائض نسبي من العمال ، نسبي بالعلاقة مع احتياجات استثمـــار رأس المال ، يتشكل جيش احتياطي صناعي يتلقى أجرا أقل من قيمة قوة عمله في الفترات المالية السيئة أو المتوسطة ، جيش يوظف بصورة غير منتظمة ويعتمد في احيان اخرى على المعونة العامة ، ولكنه في كل الاحيان يؤدي الى انخفاض مقاومة العمال العاملين كما يؤدي الى انحطاط مستويات اجورهم .

ان الجيش الاحتياطي الصناعي هذا نتاج لا مفر منه لعملية التراكم ، او لتطور الثروة على أساس رأسمالي ، ولكنه في الوقت ذاته يشكل عتلة تدفع بنمط الانتاج الرأسمالي الى الامام . ذلك أن تراكم رأس المال ، وما يصاحبه من تطور في انتاجية العمل ، يؤديان الى ازدياد مفاجيء في قدرة راس المال على التوسع ، ويتطلب ذلـك اعدادا ضخمة من العمال الذين يمكن أن يكونوا رهن الاشارة لاستخدامهم في أسواق جديدة او في فروع انتاج جديدة دون أن يؤدي ذلك الى اعاقة العمل الانتاجي في حقول أخرى . بالاضافة الى ذلك فان المسار المميز للصناعة الحديثة ، الذي يتخذ شكل دورة عشرية (لا تخرقها سوى تغيرات بسيطة) مكونة من فترات من النشاط الوسطي تعقبها فترات من الانتاج المرتفع ثم الازمة والركود ، يقوم عـــلى التشكل المستمر والاستيعاب الى هذا الحد او ذاك لجيش الاحتياط الصناعي. فكلما ازدادت الثروة الاجتماعية وتنامى حجم رأس المال العامل واتسع مدى نموه ، وبالتالي ازداد الحجم المطلق للسكان العاملين وانتاجية عملهم ، كلما ازداد حجم الفائـض النسبي للسكان او جيش الاحتياط الصناعي . هكذا فان الحجم النسبي لهذا الجيش يزيد

بزيادة الثروة . وكلما كان حجمه أكبر بالعلاقة مع الجيش الصناعي العامل ، كلما ازداد حجم تلك القطاعات من العمال التي يتناسب فقرها عسكيا مع قسوة العمل الذي تقوم به . وفي النهاية ، كلما تعاظم حجم القطاعات المفقرة من الطبقة العاملة وتعاظم جيش الاحتياط الصناعي ، كلما أصبح عدد اولئك المعتبرين رسميا عالة اكبر . هذا هو القانون العام المطلق للتراكم الرأسمالي .

ان الميل التاريخي للتراكم الرأسمالي ينجم عن هذا القانون . والى جانب تراكم وتمركز راس المال يتطور الشكل التعاوني للعمل على نطاق يتسع باطراد ، كما يتطور التطبيق التقني الواعي للعلم على الانتاج والزراعة المشتركة المنظمة للارض والاقتصاد في وسائل الانتاج باستخدامها كوسائل مشتركة لانتاج العمل الاجتماعي . ومع التناقص المطرد في عدد اولئك الرأسماليين الكبار الذين يغتصبون ويحتكرون كل منافع عملية التحول هذه ، يزداد حجم التعاسة والاضطهاد والعبودية والاستغلال ، ولكن في الوقت ذاته يزداد سخط الطبقة العاملة التي تنمو باستمرار في الحجم وتزداد دربتها ووحدتها وتنظيمها بفعل ميكانيكية عملية الانتاج الرأسمالي ذاتها . ثم يصبح احتكار راس المال قيدا على نمط الانتاج الذي نما معه وفي ظله . ويصل تمركز وسائل الانتاج وتشريك العمل حدا لا يمكن معه التوفيق بينهما في ظل القشرة الراسمالية . وعندئذ يحين أجل الملكية الخاصة ، وتنتزع املاك من انتزعوا الملكية .

عندئذ تعاد الملكية الفردية القائمة على العمل الفردي ، ولكن على أساس انجازات الحقبة الرأسمالية ، وعلى شكل تعاون العمال الاحرار وكملكية مشتركة للارض ولوسائل الانتاج التي ينتجها العمل . وبالطبع ، ليس تحويل الملكية الراسمالية ، التي تقوم عمليا على أساس نمط اجتماعي من الانتاج، الى ملكية اجتماعية عملا صعبا بقدر ما كانت صعوبة تحويل الملكية المبعثرة القائمة على العمل الفردي الى ملكية راسمالية . ففي الحالة الثانية ، كان الامر انتزاع الملكية من يدي جماهير الشعب واحتكارها من جانب حفنة من المغتصبين ، اما في الحالة الاولى فسيكون الامر نزع جماهير الشعب لملكية حفنة من المغتصبين .

٣ ـ المجلدان الثاني والثالث

كان مصير المجلدين الثاني والثالث من رأس المال شبيها بمصير المجلد الاول . فقد كان ماركس يأمل أن يستطيع نشرهما بعيد صدور المجلد الاول . ولكن في الواقع مرت سنوات عديدة ، وفي النهاية لم ينجح في اعدادهما للطبع .

فقد حالت دونه ودون أتمام العمل كله دراسات تتجدد وتتعمق باستمرار ومرض لازمه وفي النهاية كانت الوفاة ، فقام انغلز باعداد المجلدين الثاني والثالث من الاوراق غير المنتهية التي خلفها صديقه . وكانت ثروة المواد التي خلفها ماركس تتألف من مسودات وملاحظات وهوامش مختصرة قام بكتابتها طالب علم ليقرأها هو وحده لا غيره ، بالاضافة الى مقاطع طويلة متكاملة متناثرة هنا وهناك . وكانت هذه بمجموعها تمثل نتاج جهد فكري دؤوب استمر من عام ١٨٦١ الى عام ١٨٧٨ وتخللته

فترات انقطاع طويلة احيانا .

وفي ظل هذه الظروف ، يتعين علينا أن لا ننتظر من المجلدين الاخيرين من راس المال أن يزودانا بالجواب النهائي الكامل لكل المسائل الاقتصادية . ففي بعض الحالات لا يتعدى ما نجده في المجلدين صياغة بعض المسائل ، بالاضافـــة الى اشارات الى الطريق التي ينبغي على المرء سلوكها ليصل الحل . وان راس المال يتفق تماما مـــع الموقف العام لماركس ، فهو ليس كتابا منزلا يضم بين دفتيه حقائق نهائية لا تقبـل النقض ولا التغيير ، بل هو مصدر لا ينضب للحوافز الباعثة على دراسات أبعـــد واستقصاء علمي اكثر كمالا ونضالات من أجل الحقيقة أكثر نضجا .

وهذه الظروف ذاتها هي التي تفسر السبب في أن المجلدين الثاني والثالث ليسا مكتملين شكلا كما المجلد الاول ، كما تفسر السبب في انهما لا يشعان الذكاء اللماع ذاته . غير انهما يعطيان بعض القراء قدرا أكبر من المتعة لكونهما يعرضان مسائــل فكرية بحتة دون كبير اكتراث بالشكل . وتمثل محتويات المجلدين تكملة وتطويــرا للمجلد الاول ، ومن هنا فلا غنى عنهما لفهم الماركسية ككل . ولكنهما لسوء الطالع لم يتلقيا حتى اللحظة اهتماما بتفسيرهما وتبسيطهما في طبعات شعبية ، وهمــا لذلك لا يزالان مجهولين للجماهير العريضة ، بل وحتى للعمال المتنورين .

يعالج ماركس في المجلد الاول المسألة الاساسية في الاقتصاد السياسي : ما هو اصل الثروة ؟ ما هو مصدر الربح ؟ كان الجواب على ذلك يتخذ قبل ماركس شكلين اثنين .

فقد فسر المدافعون « العلميون » عن العالم الذي نعيش فيه الثروة الرأسمالية بسلسلة من التحايلات والتبرئات التي تفتقر الى الصدق الى هذا الحد أو ذلـــك : الثروة الرأسمالية نتيجة للزيادة في أسعار السلع « لتعويض » صاحب رأس المال عن كرمه اذ « يعطي » رأسماله لاغراض انتاجية ، انها تعويض عن « المخاطرة » التي يجابهها كل من يوظف رأسماله ، انها المكافأة التي يتلقاها الرأسمالي لقاء « ادارته » للعمل ، وغير ذلك من التفسيرات الشبيهة ، التي تشترك في هدف واحـد هـــو تصوير الغنى من جهة والفقر من جهة أخرى على انهما أمر « عادل » وبالتالي لا يمكن تغييره .

ومن جهة اخرى ، كان نقاد المجتمع البورجوازي ، اي اصحاب جميع المـدارس الاشتراكية قبل ماركس ، يعلنون أن الثروة الراسمالية هي ببساطة نتيجة الاحتيال وسرقة العمال بتوسط راس المال وعيوب تنظيم العملية الانتاجية . وانطلاقا من هذا الموقف، وضع هؤلاء الاشتراكيون خططا طوباوية مختلفة للقضاء على الاستغلال بالغاء النقود ، و « تنظيم العمل » ، وغير ذلك من الخطط الشبيهة .

كان المجلد الاول من راس المال هو الذي كشف عن المصدر الحقيقي للثروة للمرة الاولى ، اذ لم يضع وقتا في البحث عن تبريرات للرأسماليين ولا في ادانتهم بسبب حيفهم وظلمهم ، بل بين كيف ينشأ الربح وكيف يتدفق الى جيب الراسمالي . وقد فعل ذلك على أساس حقيقتين اقتصاديتين حاسمتين : أولاهما ان جمهرة العمـال تتألف من بروليتاريين مجبرين على بيع قوة عملهم كسلعة كي يستطيعوا البقـاء ،

وثانيتهما أن هذه السلعة تملك قدرة انتاجية مرتفعة تجعلها قادرة على أن تنتج في وقت معين ما هو أكثر بكثير من القدر اللازم للابقاء عليها خلال ذلك الوقت . وهاتان الحقيقتان الاقتصاديتان الناجمتان عن التطور التاريخي الموضوعي تجعلان نتاج قوة عمل البروليتاري يقع اوتوماتيكيا في يد الرأسمالي ويتراكم مع استمرار نظام الاجور ليصبح كميات تتنامى باستمرار من رأس المال .

هكذا تفسر الثروة الرأسمالية لا على انها تعويض عن تضحيات وهمية يقوم بها الراسمالي أو منافع خيالية يمنحها ، ولا على انها نتيجة الغش أو السرقة بمعناهما المتعارف عليه ، بل على انها تبادل بين الراسمالي والعامل ، صفقة يتساوى فيها الجانبان طبقا للقوانين التي تحكم بيع وشراء جميع السلع الاخرى . ولكي يستطيع ماركس تفسير هذه الصفقة التي تمنح الراسمالي ثمار العمل الذهبية ، كان عليه أن يطور قانون القيمة الذي اكتشفه الاقتصاديان الكلاسيكيان الانجليزيان العظيمان آدم سميث ودافيد ريكاردو في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، أي كان عليه أن يطور تفسير القوانين الداخلية للتبادل السلعي الى حدوده المنطقية ويطبقه على سلعة قوة العمل . ويعالج المجلد الاول بصورة رئيسية قانون القيمة وما ينجم عنه من اجور وفضل قيمة ، أي يعالج تفسير كيفية انقسام نتاج العمل المأجور بصورة طبيعية ودون عنف او غش الى فقر للعامل وثروة سهلة للراسمالي . وهنا تكمن الاهمية التاريخية العظمى للمجلد الاول من رأس المال . فقد بين ان الاستغلال لا يمكن القضاء عليه الا بالغاء بيع قوة العمل ، اي بالغاء نظام الاجور .

اننا نتوقف في المجلد الاول عند الانتاج ، في مصنع ، في منجم ، او في مشروع زراعي حديث ، وما يقال عن واحد من هذه يقال عن أي مشروع رأسمالي . ويقدم لنا المجلد الاول امثلة فردية على نمط الانتاج الراسمالي كله . وعندما نغلق دفتيه نكون قد تعرفنا تماما على الانتاج اليومي للربح وعلى آلية الاستغلال الراسمالي بجميع دقائقها . فتتكوم أمام ناظرينا أهرام من السلع من كل نوع وصنف خرجت من المصانع وهي لا تزال مبتلة بعرق العمال ، وفيها جميعا نستطيع ان نستشف ذلك الجزء من القيمة الذي ينجم عن عمل لم يدفع لقاءه أجر . عندئذ تتبدى لنا جذور الاستغلال الراسمالي عارية تماما .

غير أن الراسمالي ، عند هذه النقطة ، لا يكون قد جنى حصاده بعد تماما . فثمرات الاستغلال موجودة ، ولكنها لا تزال على شكل غير مناسب للامتلاك . فما دامت ثمار الاستغلال على شكل سلع متراكمة ، فان الرأسمالي لا يستفيد منها الكثير . فهو ليس مالكا للعبيد في العالم الاغريقي ـ الروماني الكلاسيكي القديم ، وهو ليس اقطاعي القرون الوسطى ، انه ليس من اولئك الذين كانوا يمتصون دم الشعب العامل ليشبعوا نهمهم الى الترف ويعيلوا حاشية ضخمة من الاتباع . ان عليه كي يعيل نفسه وعائلته « في مستوى يليق بموقعه الاجتماعي » ، ان يحول ثروته الى نقد سائل ، وهذا أمر ضروري كذلك اذا كان له أن يزيد رأس ماله باستمرار . ولذا يتعين عليه أن يبيع السلع التي انتجها العمال المأجوزون مع فضل القيمة المتضمن فيها . يجب ان تغادر السلع المصنع والمخزن وتطرح في السوق .

وهكذا يتبع الراسمالي سلعته من مخزنه ومكتبه الى سوق الاوراق المالية (البورصة) والى المتاجر ، ونحن نتتبعه في المجلد الثاني من « رأس المال » .

يقضي الراسمالي المرحلة الثانية من حياته في مجال تبادل السلع ، وهنا يواجه عددا من المصاعب . ففي المصنع ، يلعب الراسمالي دور السيد بلا منازع ويسود النظام والانضباط ، اما في سوق السلع فتسود فوضى كاملة باسم التنافس الحر. فلا احد يهتم بجاره ولا أحد يهتم بالجميع ، ومع ذلك فهنا بالضبط يشعر الراسمالي باعتماده على الآخرين وعلى المجتمع ككل .

يجب على الراسمالي أن يسبق منافسيه على الدوام . ذلك أنه اذا استغرق من الوقت في بيع سلعه أكثر مما هو ضروري بالضبط ، اذا فشل في الحصول على ما يكفي من النقود لشراء المواد الخام والاشياء الاخرى التي يحتاجها في اللحظة المناسبة ليحول دون مصنعه والتوقف بسبب نقص التجهيزات، اذا فشل في استثمار النقود التي يحصل عليها لقاء بيع سلعه ، فانه لا بد أن يتخلف بشكل او بآخر . ومن هنا فان الراسمالي الذي يفشل في ادارة تجارته بين المصنع وسوق السلع بالفعالية ذاتها التي يدير بها المصنع ، يفشل في الحصول على وتيرة الربح المعتادة مهما بلغت حماسته في استغلال عماله . اذ أن جزءا من ربحه « الذي بذل في سبيله الكثير » سيضيع في هذه المرحلة او تلك ولن يجد طريقه الى جيبه ابدا .

غير أن هذا وحده ليس بكاف . اذ ان الراسمالي لا يستطيع أن يراكم ثروة الا اذا انتج سلعا ، اكثر من ذلك ، يتعين عليه أن ينتج بالضبط تلك الانواع والاصناف من السلع التي يحتاجها المجتمع ، ويجب عليه ان ينتجها بالكميات المطلوبة بالضبط ، والا ظلت سلعه دون أن تباع فيخسر فضل القيمة المتضمن فيها . فكيف يمكن للراسمالي الفرد أن يتحكم بكل هذه العوامل ؟ ليس هناك من يستطيع أن يقول له ما هي السلع التي يحتاجها المجتمع وكم يحتاج منها ، لسبب بسيط هو أن احدا لا يعرف ذلك . فنحن نعيش في مجتمع فوضوي غير مخطط ، والراسمالي الفرد يعيش في هذا المجتمع ذاته . ومع ذلك ، لا بد أن ينبثق عن هذه الفوضى كلها ، عن هذا التخبط كله ، ما يسمح لتجارة الراسمالي الفرد بالازدهار وفي الوقت ذاته ما يشبع حاجات المجتمع ويسمح باستمرار وجوده ككائن اجتماعي .

وبكلمات ادق ، يجب أن تنجم عن التخبط الفوضوي لسوق السلع امكانية الحركة الدورية المستمرة لراس المال ، امكانية الانتاج والبيع وشراء مواد خام الخ والانتاج ثانية ، بحيث يتحول راس المال باستمرار من شكله النقدي الى شكله السلعي ليعود فيتحول الى شكله النقدي وهكذا . ويجب أن تتعاقب هذه المراحل بدقة : يجب أن يكون هناك احتياط من النقد لاستثمار أفضل الفرص التي يقدمها السوق لشراء المواد الخام الخ. وللوفاء بنفقات الانتاج ، ويجب أن تعطى للنقود التي تتدفق عائدة نتيجة بيع السلع فرصة الاستثمار الفوري ثانية . وهكذا يؤلف الراسماليون الذين يبدو كل منهم وكأنه مستقل عن الآخر ، رابطة وثيقة ، وبفضل نظام التسليف والبنوك يقدمون لبعضهم البعض الاموال التي يحتاجونها ويأخذون الاموال المتوفرة ، وهكذا يضمن التطور المستمر لعملية الانتاج ويضمن البيع المستمر

للسلع لمصلحة الرأسمالي الفرد ووفاء باحتياجات المجتمع ككل .

لم يستطع الاقتصاديون البورجوازيون أن يجدوا لنظام التسليف تفسيرا أفضل من تسميته مؤسسة عبقرية «لتسهيل تبادل السلع»، اما ماركس فيبين في المجلد الثاني من «رأس المال» عرضا أن نظام التسليف جزء ضروري من الحياة الرأسمالية، فهو حلقة الوصل بين مرحلتين من مراحل رأس المال ، بين مرحلة الانتاج ومرحلة سوق السلع ، وبين تحركات راس المال الفردي التي تبدو اعتباطية .

ثم ان التبادل المستمر للانتاج والاستهلاك في المجتمع يجب أن يظل في حركة دائمة في خضم تخبط رؤوس الاموال الفردية ، ويجب ان يتم ذلك بطريقه تتحقق معها الشروط الضرورية للانتاج الراسمالي : انتاج وسائل الانتاج ، اعاله الطبقة العاملة والاثراء المتزايد للطبقة الرأسمالية ، أي التراكم والنشاط المتزايد لكل راس المال في المجتمع . ويستقصي المجلد الثاني من «رأس المال» كيف ينجم كل منظم عن التحركات المتخبطه لراس المال الفردي ، وكيف تتارجح حركة هذا الكل بين فائض سنوات الازدهار وانهيار سنوات الازمة ، لتعود المره تلو الاخرى الى وضع متناسب لتفادر هذا الوضع في الحال ، وكيف تنجم عن هذا كله بحجوم تتضخم باستمرار وسيلة المجتمع القائم،أي بقاؤه وازدهاره الاقتصادي، وغاية هذا المجتمع، أي التراكم المتنامي لراس المال . ولا يقدم ماركس لنا حلا نهائيا ، ولكنه للمرة الاولى منذ مئة سنة ، منذ آدم سميث ، يقدم لنا الكل الاجتماعي على أساس قوانين ثابتة.

ولكن حتى مع ذلك ، لم يقطع الرأسمالي الطريق الشائك المفتوح أمامه ، فعلى الرغم من أن الربح قد تحول ويتحول باستمرار وتزايد الى نقود ، الا أن المشكلة الكبرى التي تبرز الآن هي كيفية توزيع الفنيمة. فالجماعات المختلفة من الرأسماليين تتقدم بمطالبها ، فعدا عن المستخدِم، هناك التاجر وهناك الراسمالي المقرض وهناك مالك الارض ، وكل من هؤلاء أدى قسطا مما هو ضروري لاستغلال العامل المأجور وبيع السلع التي ينتجها ، وكل منهم يطالب الآن بحصته من الربح . ان توزيع الربح هذا مسأله أعقد بكثير مما يبدو على السطح ، ذلك انه توجد فروقات في الارباح حتى بين الرأسماليين المستخدمين أنفسهم ، طبقا لنوع المشروع .

ففي بعض فروع الانتاج ، تنتج السلع وتباع بسرعة ، فيعود رأس المال بالاضافة الى العوائد الى المشروع في وقت قصير . أما في فروع انتاجية أخرى فيظل رأس المال مقيدا ضمن العملية الانتاجية مدة طويلة ولا ينتج ربحا الا بعد سنوات . وفي بعض الفروع يتحتم على الراسمالي أن يستثمر الجزء الاكبر من راس ماله في وسائل انتاج لا حياة فيها ، في الابنية والآلات المكلفة وغيرها ، أي في أشياء لا تنتج ربحا بحد ذاتها مهما كانت ضرورية لصنع الربح . اما في فروع أخرى من الانتاج فلا يحتاج المستخدم الا الى استثمار جزء ضئيل من راس ماله في امور كهذه ويستطيع استخدام الجزء الاكبر من رأس المال في استخدام العمال ، الذي يمثل كل منهم الدجاجة الصناعية التي تبيض للرأسمالي ذهبا .

هكذا تنمو عبر عملية صنع الربح فروقات ضخمة بين الرأسماليين الافراد ، وتمثل هذه الفروقات في نظر المجتمع البورجوازي « ظلما » اكثر الحاحا بكثير من

« التبادل » الغريب الذي يحصل بين الرأسمالي والعامل . والمشكلة هي الوصول الى تدبير معين يضمن توزيعا « عادلا » للغنائم ، بحيث يحصل كل راسمالي على « نصيبه » ، أكثر من ذلك يجب أن تحل هذه المشكلة دون اية خطة جدية منهجية ، ذلك أن التوزيع في المجتمع القائم فوضوي مثلما هو الانتاج . وليس هناك في الواقع « توزيع » بمعنى أن يكون التوزيع ثمرة اجراء اجتماعي ، فكل ما يحدث هو تبادل ، حركة دورانية للسلع ، شراء وبيع . فكيف اذا يسمح تبادل السلع غير المنظم لكل مستغل فرد ولكل فئة من المستغلين بالحصول على نصيب من الثروة التي تنتجها قوة عمل البروليتاريا ، والتي يعتبرها كل راسمالي فرد وكل فئة من الرأسماليين « حقا » له أو لها ؟ .

يعطي ماركس جوابا على هذا السؤال في المجلد الثالث من « راس المال » . فهو في المجلد الاول يعالج انتاج رأس المال ويكشف عن سر الربح . وهو في المجلد الثاني يصف حركة راس المال بين المصنع والسوق ، وبين الانتاج واستهلاك المجتمع . اما في المجلد الثالث فهو يعالج توزيع الربح بين الطبقة الرأسمالية ككل . وهو يقيم بحثه باستمرار على أساس المبادىء الاساسية الثلاث للمجتمع الرأسمالي : أولا ، أن كل ما يحصل في المجتمع الرأسمالي ليس نتيجة قوى اعتباطية ، بل هو ناجم عن قوانين محددة تعمل بانتظام ، على الرغم من أن هذه القوانين لا يعرفها الراسماليون انفسهم . ثانيا ، أن العلاقات الاقتصادية في المجتمع الراسمالي لا تقوم على العنف والسطو والغش . وثالثا ، انه ليس هناك من عقل اجتماعي يعمل على تنظيم تحركات المجتمع ككل . ويحلل ماركس ويعري كل ظواهر النظام الاقتصادي الرأسمالي وكل علاقاته الواحدة تلو الاخرى على أساس آلية التبادل في المجتمع الرأسمالي ، أي على أساس قانون القيمة وقانون فضل القيمة الناجم عنه .

ويمكننا القول ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار « رأس المال » ككل ، أن المجلد الاول الذي يشرح قانون القيمة والاجور وفضل القيمة يكشف عن أسس المجتمع القائم ، بينما يصور لنا المجلدان الثاني والثالث البيت الذي يقوم على هذه الاسس . أو يمكننا القول ، اذا استخدمنا تشبيها آخر ، أن المجلد الاول يبين لنا قلب الكائن الاجتماعي ، الذي ينتج نسغ الحياة ، بينما يبين لنا المجلدان الثاني والثالث دورة الدم والغذاء من القلب الى مختلف الخلايا .

يأخذنا المجلدان الثاني والثالث الى مستوى مختلف . فنحن ، في المجلد الاول ، في المصنع ، في اعماق العمل حيث نتمكن من متابعة أساس الثروة الرأسمالية ، اما في المجلدين الثاني والثالث فنحن على السطح ، في المرحلة الرسمية للمجتمع، حيث تبرز في الواجهة المتاجر الكبرى والبنوك واسواق العملة والاسهم والتمويل ومتاعب الزراعي « المحتاج » . وليس للعامل دور في هذه المرحلة ، وهو في الواقع لا يبدي سوى القليل من الاهتمام بما يجري وراء ظهره بعد أن سلخ جلده . فنحن لا نرى العمال في وسط جمهرة اصحاب العمل الا عندما يستيقظون في الصباح الباكر ليذهبوا الى المصانع ، او عندما يعودون في المساء المتأخر الى بيوتهم بعد أن تقذف بهم المصانع خارجها .

ولذا قد لا يكون واضحا اول وهلة لماذا يتعين على العمال أن يشغلـــوا أنفسهم بمتاعب الرأسماليين أو بالمنازعات بين هؤلاء حول تقسيم الغنائم . غير أن المجلدين الثاني والثالث ضروريان لفهم الآلية الاقتصادية للمجتمع ضرورة المجلـــد الاول . صحيح أنهما لا يلعبان دورا تاريخيا أساسيا بالنسبة لحركة الطبقة العاملة الحديثة مثلما يلعب المجلد الاول ، ولكنهما مع ذلك يقدمان لنا ثروة من المعلومات تبصرنـــا بدقائق الطريقة التي تعمل بها الرأسمالية ، وذلك أمر لا غنى عنـــه في تزويـــد البروليتاريا بسلاحها الفكري في الصراع العملي من اجل انعتاقها . ويكفي لاثبات ذلك مثلان .

عندما يبحث ماركس ، في المجلد الثاني ، العملية التي تنجم عبرها اعالة المجتمع عن الحركة الفوضوية لراس المال الفردي ، فانه بالطبـــع يتطرق لمسألـــة الازمات . ويجب ان لا يتوقع المرء اطروحة كاملة حول هذه الظاهرة . فليس هناك في الواقع سوى بضعة ملاحظات عابره ، ولكن استخدام هذه الملاحظات له أكبر الاثر في تنوير وتثقيف العمال : فمثلا ، يستخدم الاشتراكيون الديمقراطيون ، وعلى الاخص القادة النقابيون ، حجة رئيسية هي أن الازمات تحدث بصورة رئيسية نتيجة قصر نظـــر الرأسماليين ، الذين لا يستطيعون أن يفهموا أن جماهير العمال هي أفضل زبائنهم ، وان كل ما يتوجب عليهم فعله ، هو زيادة اجور هؤلاء العمال لضمان وجود قـــوة شرائية لبضائعهم ، وبذلك يتجنبون اخطار الازمات .

ان هذه الحجة رائجة جدا ، ولكنها خاطئة تماما . ويدحضها ماركس بالكلمات التالية : « انه لمحض حشو فارغ أن يقال أن الازمات تنجم عـــن قلـــة المشتريـــن والمستهلكين . ان المجتمع الرأسمالي لا يتعرف الا على المستهلكين الذين يدفعون لقاء ما يستهلكون ، عدا اولئك الذين يتلقون مساعدة من المجتمع أو ما يسمون « عالة » . ولذا اذا كانت السلع لا تباع ، فان ذلك يجب أن لا يعني أكثر من أنه ليس هنـــاك مستهلكين او مشترين لهذه السلع . واذا كان بعض الناس يميل الى اعطاء هـــذا الحشو الفارغ مظهر ما له عميق المعنى بالقول أن الطبقة العاملة لا تحصل على مـــا يكفي مما تنتجه ، وأن الشر سيزول حالما تحصل على نصيب أكبر ، أي حالما ترتفع الاجور ، فان كل ما يستطيع المرء قوله هو أن الازمات تسبقها باستمرار فتـــرات ترتفع فيها الاجور بصورة عامة وتحصل فيها الطبقة العاملة على نصيب أكبر مـــن الناتج السنوي المخصص للاستهلاك . ولذا فان فترات كهذه يجب ، طبقا لوجهـــة نظر هؤلاء المدافعين عن « الحس السليم » ، أن تحول دون نشوب الازمات . ومـــن هنا ، يبدو أن الانتاج الرأسمالي يتضمن ظروفا تتمتع باستقلال كامل عن النوايـــا الحسنة او النوايا السيئة ، ولا تسمح لفترات ازدهار الطبقة العاملة بالاستمرار الا مؤقتا وكنذير للازمات القادمة » .

ان الابحاث التي يقوم بها ماركس في المجلدين الثاني والثالث من « رأس المال » تقدمان لنا فهما كاملا لطبيعة الازمات ، فهو يبين انها النتيجة الحتمية لحركة رأس المال ، الذي يندفع بسرعة ، بفعل نهمه وتوقه الى التراكم والنمو ، مخترقا حدود الاستهلاك ، مهما اتسعت هذه الحدود نتيجة زيادة القوة الشرائية لقطاع من قطاعات

المجتمع او نتيجة فتح اسواق جديدة . هكذا يدحض ماركس فكرة توافق المصالح بين راس المال والعمل ، تلك الفكرة التي تقف خلف التحريض الذي تقوم به النقابات ، والذي يزعم ان ما يحول دون هذا التوافق هو فحسب قصر نظر الراسماليين . وهكذا ايضا نتبين انه يجب التخلي عن الامل في الوصول الى اجراءات من شأنها ترقيع الفوضى الراسمالية . ان النضال من اجل تحسين الشروط المادية لحياة البروليتاريا يجد الف حجة ناصعة من بين الاسلحة الفكرية التي تتسلح بها الطبقة العاملة الحديثة ، وهو لذلك لا يحتاج اطلاقا الى حجة خاطئة نظريا وغامضة عمليا كهذه التي عالجناها فيما سبق .

اما المثال الثاني فهو ان ماركس يقدم في المجلد الثالث ، وللمرة الاولى ، تفسيرا علميا لظاهرة حار في فهمها علم الاقتصاد البورجوازي منذ نشأته . وهي بالتحديد : كيف يتسنى لراس المال في كل فروع الانتاج ، ورغم انه يستثمر في ظروف مختلفة ، ان ينتج كقاعدة عامة ما يسمى « الوتيرة المعتادة للربح » ؟ قد يبدو للوهلة الاولى أن هذه الظاهرة تناقض ما يقوله ماركس نفسه من أن الثروة الراسمالية تنتج عن عمل العمال الذي لا يدفع لقاءه أجر . كيف يمكن للراسمالي المجبر على استثمار نسب كبيرة من راس ماله في وسائل انتاج لا حياة فيها أن يحصل على الربح ذاته الذي يحصل عليه زميل له لا يحتاج الا الى استثمار القليل من راس ماله في اشياء كهذه ، ويستطيع لذلك ان يستخدم نسبة كبيرة منه في تشغيل كميات أكبر من قوة العمل الحية ؟

يحل ماركس هذه الاحجية ببساطة ، وذلك بأن يبين أن بيع نوع من السلع بسعر يفوق قيمته وبيع انواع أخرى من السلع بسعر يقل عن قيمتها يؤدي الى تسوية الفروقات في الربح ، وينتج عن ذلك « معدل للربح » في كل فروع الانتاج . ان الراسماليين ، بلا وعي منهم وبلا اتفاق بينهم ، يتبادلون السلع بشكل يساهم فيه كل راسمالي فرد بفضل القيمة الذي انتزعه من العمال الذين يستخدمهم في رصيد عام ، ومن ثم يقتسم نتاج استغلال الراسماليين المشترك للعمال فيما بينهم بصورة اخوية ، فيتلقى كل منهم نصيبا يتناسب مع حجم راس ماله . وهكذا فان الراسمالي الفرد لا يحصل مباشرة على الربح الذي ينتزعه من عماله ، بل يحصل فقط على نصيبه من الربح الكلي الذي انتزعه هو وزملاؤه معا من العمال . « بقدر ما يتعلق الامر بالربح ، يلعب الراسماليون الافراد دور حملة الاسهم في شركة مساهمة توزع ارباحها بنسب مئوية متساوية بحيث يتفاوت نصيب كل راسمالي فرد بحسب حجم راس المال الذي يستثمره في المشروع المشترك ، اي طبقا لنسبة مشاركة كل منهم في المشروع برمته » .

كم هو عظيم الفهم الذي يقدم لنا هذا القانون الذي يبدو جافا «قانون معدل الربح» ! انه يقدم لنا فهما كاملا للأسس الحقيقية المادية التي يقوم عليها التضامن الطبقي بين الراسماليين . اننا هنا نلحظ انه على الرغم من ان الراسماليين اخوة متعادون في نشاطاتهم اليومية ، الا انهم بقدر ما يتعلق الامر بالطبقة العاملة يمثلون نوعا من الرابطة الماسونية المهتمة بحدة وبصورة شخصية بالناتج الكلي للاستغلال

الذي يمارسه جميع اعضائها . وعلى الرغم من ان الرأسماليين لا يعرفون شيئا بالطبع عن هذه القوانين الموضوعية ، الا ان غريزتهم كأفراد طبقة حاكمة تبدي نفسها في تفهمهم لمصالحهم الطبقية وعدائهم للبروليتاريا . ولسوء الطالع ، استمر التضامن الطبقي بين الرأسماليين عبر عواصف التاريخ بثبات اكثر من الوعي الطبقي للعمال ، ذلك الوعي الذي يكشف ماركس وانغلز في كتاباتهما عن اساسه العلمي .

لا شك في ان هذين المثالين القصيرين اللذين اختيرا اعتباطا يكفيان لاعطاء القارىء فكرة عن الكنوز التي لم تستخرج ولم تعرض في صورة شعبية بعد من المجلدين الثاني والثالث من «رأس المال» ، وعن الثروة الفكرية العميقة التي يقدمانها للعمال المتنورين . وهما برغم كونهما غير كاملين ، أو ربما بسبب ذلك ، يقدمان ما لا تستطيع اية حقيقة نهائية ان تقدم : حافزا على التفكير ، وعلى النقد والنقد الذاتي ، وهذا هو جوهر الدرس الذي علّمه ماركس للطبقة العاملة .

٤ ــ استقبال « رأس المال »

كان انغلز قد عبر عن الامل في ان يشعر ماركس انه «انسان آخر» حالما ينتهي من المجلد الاول ويتخلص من «الكابوس» ، ولكن هذا الامل لم يتحقق الا جزئيا .

ذلك ان التحسن في صحة ماركس لم يكن دائما لسوء الحظ ، بينما ظلت حالته المالية غير مستقرة . حتى انه فكر في الانتقال الى جنيف ، حيث يستطيع العيش بنفقات اقل ، ولكن الظروف ربطته بلندن وبكنوز المتحف البريطاني . كذلك كان يأمل في ان يجد ناشرا لترجمة انجليزية لكتابه ، كما انه لم يكن راغبا في تسليم قياد الاممية لغيره قبل ان تبدأ بالخطو على الطريق الصحيح .

كان زواج ابنته الثانية لورا من بول لافارغ حدثا بيتيا سعيدا . فقد ارتبط الشابان برباط الخطبة في آب ١٨٦٦ ، ولكن اتفق على ان يكمل لافارغ دراسة الطب قبل ان يقترنا . وكان اسمه قد شطب من سجلات جامعة باريس مدة سنتين بسبب اشتراكه في مؤتمر طلابي في لييج ، فذهب بعد ذلك الى لندن لأمر يتعلق بالاممية. كان لافارغ في البداية من اتباع برودون ، ولم تكن له علاقة بماركس ابعد من زيارة قام بها له تأدبا وليسلمه رسالة من تولين . ولكن القدر لعب دوره المعتاد ، ولم يلبث ماركس ان كتب الى انغلز بعد ذلك بقليل يقول : «في البداية ارتبط الشاب بي ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد ان الابنة اكثر جاذبية من الاب . انه الابن الوحيد لعائلة كانت سابقا من المزارعين ، ووضعه المالي لا بأس به» . وقد كان لافارغ ، طبقا لوصف ماركس له ، حسن الطلعة ، ذكيا نشيطا وذا جسم نام وقلب طيب ، ولكنه مدلل قليلا ، ومع ذلك غير مصقول تماما .

كان هم ماركس الاساسي خلال هذه الفترة هو قلقه على مصير كتابه . فقد كتب في ٢ تشرين الثاني ١٨٦٧ الى انغلز قائلا : «ان مصير كتابي يجعلني قلقا . فأنا لا اسمع ولا ارى شيئا . ان الرفاق الالمان ممتازون ! فانجازاتهم في هذا

المجال ، كاتباع للانجليز والفرنسيين وحتى للايطاليين يعطيهم الحق في تجاهل كتابي . وفي اثناء ذلك ، يجب على المرء ان يتبع السياسة الروسية وينتظر . فالصبر هو سر الدبلوماسية الروسية ونجاحها ، ولكننا نحن المخلوقات التعسة نعيش مرة واحدة» . ان نفاد الصبر الذي تبديه هذه السطور مفهوم ، ولكنه غير مبرر تماما .

لم يكن قد مر على صدور الكتاب اكثر من شهرين ، وكان من المستحيل كتابة مراجعة جدية له في هذه الفترة القصيرة ، ولكن انغلز وكوغلمان فعلا كل ما في وسعهما «لاحداث ضجيج حول الكتاب» ، وحتى ماركس نفسه كان يظن ان هذا امر ضروري املا في ان يحدث ذلك بعض الاثر في انجلترا ايضا . ولا يمكن القول ان انغلز وكوغلمان كانا مفرطي الحرص في جهودهما ، ولكنهما على اية حال احرزا بعض النجاح . فقد نجحا في نشر ملحوظات مسبقة عن الكتاب في عدد من الصحف، بينها بعض المطبوعات البورجوازية ، حتى انهما نجحا في نشر المقدمة . كما انهما بالاضافة الى ذلك اعدا اعلانا عن الكتاب ، كان ملفتا للنظر في تلك الايام ، هو مقالة عن حياة الكاتب ، ماركس ، وذلك لنشره في «داي غارتنلوب» ، ولكن ماركس طلب منهما ان يكفا عن هذا «الهراء» : «انني اعتقد ان امرا كهذا فيه من الضرر اكثر مما فيه من النفع ، وهو على اية حال لا يليق بكرامة رجل علم . فمثلا طلبت «انسيكلوبيديا» ماير مني ملحوظات عن سيرتي لنشرها منذ امد طويل ، ولكنني لم اعطهم المعلومات التي ارادوا ، بل لم اجب على رسالتهم . ان لكل امرىء ذوقا».

في النهاية نشرت المقالة التي اعدها انغلز ل «داي غارتنلوب» في«داي زوكونفت» صحيفة جوهان جاكوبي التي كان غيدو فايس ينشرها في برلين منذ ١٨٦٧ . ثم اعاد ليبكنشت نشر المقالة في «ديمقراتيشه فوشنبلات» ، ولكنه اختصر منها الكثير، مما ادى بانغلز ان يلاحظ ممتعضا «لقد وصل فيلهلم مرحلة لم يعد معها يجرؤ حتى على القول ان لاسال قد نقل عنك وفعل ذلك بصورة سيئة . لقد خصى المقالة تماما، ولا اعتقد ان احدا سواه يعلم لماذا ظن بعد ذلك انها صالحة للنشر» . كان ليبكنشت في الواقع يتفق تمام الاتفاق مع المقاطع التي حذفها ، ولكنه فعل ذلك كي يتجنب اغضاب عدد من اللاساليين كانوا قد انفصلوا لتوهم عن شفايتزر وبدأوا يساعدون في تأسيس جناح ايزناخ .

فيما بعد ، لاقى كتاب ماركس بعض النقد الممتاز ، فمثلا كتب انغلز مراجعة له في «ديمقراتيشه فوشنبلات» ، وكتب شفايتزر مراجعة اخرى في «سوسيال ديمقراط» وكتب جوزيف دايتزغين مراجعة ثالثة في الصحيفة الاولى . وعدا عن مراجعة انغلز ، التي ابدت بالطبع فهما كاملا للنقاط المطروحة ، اضطر ماركس الى الاعتراف بان شفايتزر رغم عدد من اخطائه درس الكتاب بالتأكيد وتفهم اهميته . وكانت تلك هي المرة الاولى التي سمع فيها ماركس بدايتزغين ، فرحب به كعقل فلسفي قادر ، ولكنه لم يكوّن عنه فكرة جيدة كثيرا .

كذلك نزل اول «خبير» الى الحلبة في عام ١٨٦٧ . وكان هذا هو يوجين دوهرنغ الذي راجع الكتاب في احد ملاحق «انسيكلوبيديا» ماير . وعلى الرغم من ان ماركس

شعر ان دوهرنغ لم يستوعب النقاط الجديدة اساسا في كتابه ، الا انه لم يستأ للمراجعة واعلن انها «جيدة» رغم انه كان يشك فيان الموقف الذي اتخذه دوهرنغكان ناجما عن كراهيته لروشر وغيره من الاساتذة الجامعيين اكثر منه عن اهتمام وفهم كاملين للنقاط المطروحة . غير ان انغلز كوّن رايا عن المراجعة اقل تحبيذا ، وكان حكمه في الواقع هو الاصوب ، ذلك انه لم يمض وقت طويل حتى استدار دوهرنغ على عقبيه وحاول ان يمزق الكتاب نتفا .

ولم يلق ماركس حظا افضل على ايدي «الخبراء» الاخرين ، فبعد ذلك بثماني سنوات اخبر احد هؤلاء المحترمين ، الذي اخفى اسمه بحرص ، العالم بفصاحة ان ماركس غفل عن جيل كامل من التقدم العلمي . وكانت المرارة التي ابداها ماركس تجاه «الخبراء» ، بعد ذلك وبعد غيره من الانجازات الشبيهة ، امرا مبررا تماما . على الرغم من انه عزى لحقدهم عليه كثيرا مما كان يجب ان يعزى الى جهلهم ، ذلك انهم كانوا غير قادرين اطلاقا على فهم طريقته الجدلية . وكان هذا هو الحال ايضا بالنسبة لأناس لم يكونوا يفتقرون لا الى النية الحسنة ولا الى المعرفة الاقتصادية ، ولكنهم مع ذلك وجدوا ان من الصعب عليهم فهم الكتاب ، بينما كان هناك من الجهة الاخرى أناس امتدحوا الكتاب بحماسة ، رغم انه لا تتوفر لهم المعرفة بالامور الاقتصادية ويعادون الشيوعية الى هذا الحد او ذاك ، ولكنهم عبروا مدرسة الفكر الهيغلي .

كان ماركس ، على سبيل المثال ، قاسيا جدا في حكمه على الطبعة الثانية من كتاب لانغ حول المسألة العمالية ، وفيها يعالج لانغ بالتفصيل المجلد الاول من «راس المال» فقد اعلن ماركس «ان السيد لانغ يرفع عقيرته ممتدحا الكتاب ، ولكنه يفعل ذلك كي يجعل نفسه مهما فحسب» . لم يكن هذا صحيحا ابدا ، ذلك ان اهتمام لانغ بالمسألة العمالية لا يرقي اليه الشك ، على الرغم من ان ماركس كان على حق عندما لاحظ انلانغ لا يعرف شيئا عن الطريقة الهيغليةولا يعرف شيئا البتةعن المنهج النقدي الذي اتبعه ماركس في استخدامها . ففي الواقع ، قلب لانغ الحقيقة راسا على عقب عندما اعلن ان لاسال اكثر تحررا من هيغل واستقلالا عنه من ماركس الذي يتمسك بنموذجه الفلسفي والذي وجد في بعض اجزاء الكتاب صعوبة في التمكن منالمسائل التييعالجها، كما بالنسبةلنظرية القيمة التيلا يعزو لها لانغاية اهمية ثابتة.

وكان حكم فريليغارث على المجلد الاول ، الذي اهداه ماركس نسخة منه ، اكثر غرابة . استمرت علاقات الود بين فريليغارث وماركس منذ سنة ١٨٥٩ ، على الرغم من انها كانت تتعكر احيانا بفعل اخطاء يرتكبها آخرون . وكان فريليغارث على وشك العودة الى المانيا ، حيث جمع له بعضهم قدرا من المال يضمن له شيخوخة لا تشوبها الهموم ، بعد ان اغلق المصرف الذي كان يعمل فيه فرعه في لندن ، واصبح محروما من مصدر رزقه وهو على ابواب الستين من العمر . وكانت الرسالة الاخيرة التي ارسلها فريليغارث الى ماركس تتضمن تهاني حارة لزواج ابنة ماركس لورا من لافارغ الشاب ، وشكراً صادقا على نسخة المجلد الاول من «رأس المال» التي ارسلها ماركس له . وتمضي الرسالة الى القول ان دراسة الكتاب كانت مبعث متعة

لفريليفارث وانها يسرت له فهم كثير من الامور . واضاف ان الكتاب ربما لن ينجح نجاحا سريعا وصاخبا ، ولكن اثره سيكون عميقا واكثر استمرارا . الى هذا الحد وكل شيء على ما يرام ، الا انه يضيف : «انني اعرف ان بعض التجار والصناعيين الشباب في الراينلاند متحمسون للكتاب ابلغ حماسة ، ولا شك ان الكتاب سيبلغ مراميه الحقيقية في اوساط كهذه ، وبالاضافة الى ذلك سيكون الكتاب مرجعا لا غنى عنه للدارسين» . صحيح ان فريليفارث لم يدّع انه اكثر من «اقتصادي بالفطرة» ، ولكنه مع ذلك عاش قرابة عقدين من الزمن في خضم الحياة النابضة في العاصمة الانجليزية ، ولذا كان غريبا ان يعتبر المجلد الاول من «رأس المال» دليلا للتجار والصناعيين الشباب ، وبالاضافة الى ذلك مرجعا للدارسين .

اما حكم روغه ، فقد كان من جهة اخرى مختلفا . فعلى الرغم من انه كان يكره الشيوعية كراهية سامة ، ولم يثقل كاهله بأية معرفة بالاقتصاد ، الا انه ناضل مرة بشجاعة كهيغلي شاب . ولقد قال : «انه لكتاب يصنع حقبة . وهو يلقي ضوءاً ساطعا ، بل ضوءا يغشي الابصار في بعض الاحيان ، على ولادة وتطور وانحلال الحقب الاجتماعية . ان المقاطع المتعلقة بانتاج فضل القيمة من العمل الذي لا يدفع لقاءه اجر ، وانتزاع ملكية العمال الذين يعملون لانفسهم ، واقتراب مرحلة انتزاع ملكية من انتزعوا الملكية ، ان هذه مقاطع كلاسيكية . ان معرفة ماركس واسعة ، وهو يملك موهبة جدلية رائعة . والكتاب بلا شك ، فوق المستوى الفكري للكثير من الناس والكثير من كتّاب الصحف ، ولكنه بالتأكيد سيشق طريقه رغم اتساع افقه، او انه ربما احدث اثرا بالغا لهذا السبب بالذات» . واصدر لودفيغ فويرباخ حكما مشابها ، بفارق واحد ، يتفق مع تطوره ، هو انه لم يكن مهتما بجدل الكاتب قدر اهتمامه بكون الكتاب «غني بالحقائق التي لا سبيل الى انكارها ، الحقائق الممتعة ولكن الرهيبة في الوقت ذاته» . تلك الحقائق ، التي ظن انها تثبت صحة فلسفته الاخلاقية من ان الالتزام الخلقي يغيب حيثما تغيب ضرورات الحياة .

ظهرت الترجمة الاولى للمجلد الاول من «رأس المال» في روسيا . ففي ١٢ تشرين الاول ١٨٦٨ اخبر ماركس كوغلمان ان ناشرا في سان بطرسبرغ فاجأه بان اخبره ان ترجمة لراس المال هي قيد الطبع وطلب منه صورة توضع على غلاف الكتاب . ولم يكن ماركس راغبا في حرمان «اصدقائه الطيبين» الروس هذه المكرمة الصغيرة ، وكان يجد أن من سخريات القدر ان يكون الروس ، الذين حاربهم طيلة خمس وعشرين سنة بالالمانية والانجليزية والفرنسية ، هم من «يتبناه» . فرده على برودون وكتابه «نقد الاقتصاد السياسي» لم يبيعا في مكان قدر ما باعا في روسيا . ومع ذلك ، لم يكن مستعدا لان يمنح شرفا كبيرا بسبب ذلك ، بل قال ان السبب هو ابيقورية محضة ،رغبة نهمة في ازدراد اكثر منتجات العالم الغربيتطرفا.

غير ان ذلك لم يكن صحيحا . فلم تظهر الترجمة الا عام ١٨٧٢ ، ولكنها اثبتت انها عمل علمي جاد ونجحت نجاحا باهرا ، واعلن ماركس نفسه انها «رائعة» . كان المترجم هو دانيلسون ، المعروف باسم نيكولايون الذي كان يكتب به ، وساعده في ترجمة عدد من الفصول الاكثر اهمية لابوتين ، وهو ثوري شاب جريء ، وصفه

ماركس عام ۱۸۷۰ بعد ان تعرف عليه بأنه «عقل نقاد ومتحفز ، وشخص مرح رزين رزانة فلاح روسي ، يقبل كل شيء كما هو» .

اعطت الرقابة الروسية موافقتها على نشر الترجمة قائلة : «على الرغم من ان معتقدات الكاتب اشتراكية تماما ، وعلى الرغم من ان الكتاب كان ذو طابع اشتراكي واضح تماما ، الا ان طريقة العرض التي يتبعها لا تجعله متاحا للجميع ، بالاضافة الى انه مكتوب بطريقة علمية ، تجعل اللجنة ترى انه يجب ان لا يحظر» . نشرت الترجمة في ۲۷ اذار ، وعندما حل ۲٥ آب ، كانت الفا نسخة ، اي ما يعادل ثلث الطبعة ، قد بيعت .

وفي الوقت ذاته بدات بالظهور ترجمة فرنسية ، وكذلك طبعة المانية ثانية ، وكل منهما في جزئين . وقد قام بالترجمة الفرنسية ج. روي بمساعدة ماركس نفسه ، الذي لاقى في ذلك عناء بالغ ، واشتكى احيانا من ان الامر يأخذ من وقته اكثر بكثير مما لو قام هو بالترجمة كلها . وقد لاقى المجلد الاول من «رأس المال» في انجلترا نجاحا اقل بكثير من النجاح الذي لاقاه في روسيا وفرنسا والمانيا . ويبدو ان مراجعة وحيدة له ظهرت (في «ساتردي ريفيو») ، ولكن هذه المراجعة اعلنت ان لماركس موهبة اضفاء نوع من الجاذبية حتى على اكثر المسائل الاقتصادية جفافا . كذلك كتب انغلز مراجعة اطول لنشرها في «فورتنايتلي ريفيو» ولكنها رفضت بحجة انها جافة اكثر مما يجب ، على الرغم من ان البروفسور بيسلي الذي كان على علاقة بالصحيفة فعل كل ما في وسعه لنشرها . وكان ماركس بالغ الامل في ان تظهر ترجمة انجليزية لكتابه ، ولكن ترجمة كهذه لم تظهر خلال حياته .

الفصل الثالث عشر

الأممية في أوجها

١ ـ انجلترا وفرنسا وبلجيكا

انعقد المؤتمر الثاني للأممية في لوزان من الثاني من ايلول ١٨٦٧ الى الثامن منه ، وذلك بعيد ظهور المجلد الاول من «رأس المال» . ولم يكن مستواه مرتفعا كمستوى المؤتمر الاول في جنيف .

حتى ان النداء الذي اصدره المجلس العام في تموز داعيا الى ارسال وفود قوية الى المؤتمر كان اقل اثارة للاهتمام في مسحه للسنة الثالثة من حياة الاممية ونشاطها . فلم يستطع احد غير سويسرا وبلجيكا ، حيث ادت مجزرة للعمال المضربين في مارشين الى اثارة مشاعر البروليتاريا ، ان يحرز تقدما مطردا ، اما في ما تبقى فتتذمر الوثيقة من العقبات التي تواجهها الدعاية في الاقطار المختلفة بفعل عوامل مختلفة . فقبل عام١٨٤٨ ابدت المانيا اهتماما عميقا بالمسائل الاجتماعية، ولكنها اصبحت الان مشغولة تماما بمسألة الوحدة القومية . وعلى الرغم من الدعم النشيط الذي قدمته الاممية لاضرابات العمال الفرنسيين ، الا انها لم تحرز التقدم المتوقع في فرنسا بسبب الافتقار السائد الى الحرية . وتشير الوثيقة بذلك الى الاضراب الكبير الذي قام به عمال البرونز في باريس في ربيع عام ١٨٦٧ ، والذي تحول الى نضال من اجل حق الانتظام ، وانتهى بانتصار العمال .

كذلك تلقت انجلترا توبيخا لطيفا ، فقد اشار النداء الى ان الحركة من اجل اصلاح الاقتراع العام قد استغرقت كل اهتمامها ، فلم تعد ترى ايا من المسائل الاقتصادية . غير ان دزرائيلي اضطر تحت ضغط الجماهير الى منح حق اوسع للاقتراع مما كان غلادستون ينوي في البداية ، فاصبح من حق كل مستأجر في اي بيت من بيوت المدن ان يصوت بغض النظر عن الاجرة التي يدفعها سنويا، ثم اعرب المجلس العام عن امله في ان تكون اللحظة قد حانت كي يدرك العمال الانجليز اهمية الاممية . وفي الختام ، اشار النداء الى الولايات المتحدة حيث استطاع العمال

الحصول على يوم عمل من ثماني ساعات في بعض الولايات .

كان كل فرع من فروع الاممية مخولا بغض النظر عن حجمه بارسال ممثل الى المؤتمر . اما الفروع الاكبر فقد كان من حقها ان ترسل مندوبا عن الاعضاء الخمسمائة الاوائل ، ومندوبا عن كل خمسمائة عضو تال . اما المهام الموضوعة امام المؤتمر فقد حددت بما يلي :

١ ـ ما هي الخطوات العملية التي يجب ان تتخذها الاممية لخلق مركز مشترك للطبقة العاملة في نضالها من اجل الانعتاق ؟

٢ ـ كيف يمكن استخدام الثقة التي تمنحها الطبقة العاملة للبورجوازية والحكومة لمصلحة النضال البروليتاري من اجل الانعتاق ؟

كان هذا البرنامج عاما اكثر مما يجب ، ومما زاد الامر سوءا انه لم يكن مصحوبا بمذكرة تبين اسسه التفصيلية . ذهب ايكاريوس ودوبون الى لوزان كممثلين للمجلس العام . وكان دوبون سكرتير المراسلة مع فرنسا ورجلا قادرا جدا . وقد احتل في غياب يونغ مقعد الرئاسة في المؤتمر الذي كان يتألف من ٧١ عضوا . وكان من بين المندوبين الالمان كوغلمان ولانغ ولودفيغ بوشنز ولادندورف ، وهذا الاخير ديمقراطي بورجوازي ولكنه خصم عنيف للشيوعية . وقد فاقت المجموعة الفرنسية الايطالية المجموعات الاخرى عددا وكانت تتألف ، عدا عن بضعة ايطاليين وبلجيكيين ، من الفرنسيين والسويسريين ـ الفرنسيين بصورة رئيسية .

اعد البرودونيون انفسهم هذه المرة اكمل واسرع مما اعد المجلس العام نفسه ، فقبل ان يصدر المجلس العام نداءه بثلاثة اشهر ، كان البرودونيون قد وضعوا جدول اعمال للمؤتمر يتضمن نقاطا مثل : التعويض المتساوي للخدمات الاجتماعية المقدمة، التسليف وبنوك الشعب ، جمعيات التأمين المتبادل ، وضع الرجل والمراة في المجتمع ، المصالح الجماعية والفردية ، الدولة كحام للعدالة ، حق العقاب ، وعددا من المواضيع الشبيهة . كانت النتيجة فوضى عارمة ، ولكن ليس من الضروري هنا الخوض في التفاصيل ، لان ماركس لم تكن له علاقة بالامر ، ولأن القرارات ، التي تبناها المؤتمر ، كان الكثير منها يتعارض مع بعضه البعض ، كما انها كانت جميعا حبرا على ورق .

كانت النتائج العملية التي تمخضت عن المؤتمر اهم بكثير من مناقشاته النظرية. فقد ثبت المؤتمر المجلس العام واقر لندن مقرا له ، وقرر ان تدفع فروع الاممية اشتراكا سنويا يبلغ عشرة سنتيمات عن كل عضو من اعضائها ، مشترطا ان يكون دفع هذا الاشتراك اساسا لارسال المندوبين الى المؤتمرات السنوية . وكذلك قرر المؤتمر ان التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة لا ينفصم عن العمل السياسي ، وان النضال من اجل الحرية السياسية ضرورة اولية ومطلقة . وعلق على هذه المسألة اهمية بالغة لدرجة انه قرر اعادة تلاوة هذا القرار في كل مؤتمر قادم . وايضا تبنى المؤتمر قرارا صائبا تجاه رابطة السلام والحرية البورجوازية ، التي كانت قد تحدرت حديثا من صلب البورجوازية الراديكالية وعقدت مؤتمرها بعد ذلك بقليل في جنيف . فقد اجيبت كل محاولات الرابطة للحصول على دعم العمال بالكلمات

البسيطة التالية : سندعمكم بسرور كلما كان ذلك في مصلحتنا .

من الغريب ان هذا المؤتمر القليل الاهمية اجتذب اهتمام العالم البورجوازي اكثر من سابقه بكثير ، على الرغم من انه يجب بالطبع ان لا ننسى ان المؤتمر الاول انعقد في وقت كانت لا تزال فيه اصداء الحرب البروسية ـ النمسوية تزعج اوروبا . فقد ابدت الصحافة الانجليزية ، على وجه الخصوص و«التايمز» قبل من عداها ، اهتماما بالغا بمؤتمر لوزان ، على الرغم من انها كانت قد تجاهلت سابقه تماما . وبالطبع ، لم تكن تعليقات الصحف تخلو من السخرية ، ولكن البورجوازية مع ذلك بدات تنظر الى الاممية بجدية . وقد كتبت السيدة ماركس في رسالة الى «دير فوربوت» تقول : «عندما كان مؤتمرنا يقارن بأخيه غير الشقيق مؤتمر السلام، كانت المقارنة لمصلحة الاخ الاكبر باستمرار ، ذلك ان هذا كان ينظر اليه كتهديد جدي بينما كان ينظر الى مؤتمر السلام على انه مهزلة ومسخرة» . وكذلك عزى ماركس نفسه بطريقة شبيهة ، فقد كان من المستحيل عليه ان يرضى بمناقشات لوزان : «بدات الامور تتحرك ، وبدون اية اموال في صناديقنا ! يحق لنا ان نكون راضين تماما ، فهناك مكائد البرودونيين في باريس وماتزيني في ايطاليا ، واودغر الغيور وكريمر وبوتر في لندن وشولز-ذلتريش واللاساليون في المانيا» . واعلن انغلز انه لا يهم ما الذي قرره المؤتمر في لوزان ، ما دام المجلس العام قد بقي في لندن . كان هذا صحيحا جدا ، ذلك ان الاممية في سنتها الثالثة انهت فترة التطور غير المعاق ودخلت فترة صراعات شرسة .

وبعد انتهاء مؤتمر لوزان حدث حادث كان له آثار بعيدة المدى . ففي الثامن عشر من ايلول ١٨٦٧ اعترض الفينيانيون المسلحون عربة سجن تقل اثنين من رفاقهما . وقد قاموا بهذا الهجوم المسلح في وضح النهار ، فكسروا ابواب العربة واطلقوا سراح رفيقيهما بعد ان اطلقوا النار على احد الحراس فأردياه قتيلا . ولم يلق القبض على الذين اشتركوا فعليا في الهجوم ، ولكن عددا من الرجال اختير من بين الجماهير التي القي القبض عليها فيما بعد ، وقدموا للمحاكمة بتهمة القتل . كانت المحاكمة متحيزة منذ البداية ، ولم يؤت بأية ادلة حقيقية ضد المتهمين ، ومع ذلك فقد حكم عليهم بالموت وشنقوا . أحدث الامر اصداء واسعة في انجلترا ، وفي كانون الاول انفجر «هلع فينياني» عندما نسف الفينيانيون اسوار سجن في كلاركينويل، وهي منطقة يسكنها العمال وافراد الطبقات الوسطى الدنيا ، مما ادى الى مقتل اثني عشر شخصا وجرح ما ينوف على المائة .

لم يكن للأممية بالطبع اية علاقة بأعمال الفينانيين ، وقد شجب ماركس وانغلز نسف سجن كلاركينويل بوصفه عملا احمقا سيضر بالفينانيين اكثر مما يضر بغيرهم، لانه سيحد من تعاطف العمال الانجليز مع القضية الايرلندية ، بل ربما دمر هذا التعاطف ، ولكن المعاملة التي عاملت بها الحكومة الانجليزية المتمردين الفينانيين وكأنهم قتلة عاديون ، رغم انهم متمردون سياسيون ضد اضطهاد شرس يعود الى اكثر من قرن ، اثارت السخط في نفوس كل الثوريين . فكتب ماركس الى انغلز في حزيران ١٨٦٧ : «هؤلاء الخنازير المثيرون للتقزز يفاخرون بانسانيتهم الانجليزية

لانهم يعاملون مساجينهم السياسيين على قدم المساواة مع القتلة والمزورين والمنحرفين» . وكان تأثر انغلز ابلغ لسبب اضافي هو ان اليزابيث بيرنز ، التي نقل اليها عواطفه بعد وفاة شقيقتها ماري ، كانت وطنية ايرلندية متقدة الحماسة .

غير ان التعاطف الذي ابداه ماركس تجاه القضية الايرلندية كان له من الاسباب ما هو اعمق من مجرد التعاطف مع شعب مقهور . فقد ادت به دراساته الى نتيجة هي ان حرية الشعب الايرلندي شرط ضروري يعتمد عليه انعتاق البروليتاريا الانجليزية ، التي يعتمد عليها بدورها انعتاق الطبقة العاملة الاوروبية . وكان يشعر ان الاطاحة بالاوليغاركية الانجليزية المالكة للارض مستحيلة ما دامت هذه تتمتع بموقع قوي في ايرلندا . ولكن حالما يتسلم الشعب الايرلندي زمام مصيره بيديه ، ما ان ينتخب هذا الشعب مشرعيه ويعين حكومته ويحصل على استقلاله السياسي، فان تدمير الارستقراطية المالكة للارض ، التي تتألف في معظمها من ملاك انجليز ، سيكون اسهل في ايرلندا منه في انجلترا ، لانه سيكون في ايرلندا مسألة وطنية وليس مسألة اقتصادية فحسب . لقد كان ملاك الارض في انجلترا هم الوجهاء التقليديون ، اما في ايرلندا فهم مكروهون كراهية شديدة بوصفهم ممثلين للاضطهاد القومي . ومع اختفاء البوليس الانجليزي والجيش الانجليزي من ايرلندا ، ستقع ثورة زراعية .

اما فيما يتعلق الامر بالبورجوازية الانجليزية ، فان لها مصلحة مشتركة مع الارستقراطية الانجليزية في تحويل ايرلندا الى مجرد مرعى يزود السوق الانجليزي باللحوم والصوف بابخس الاسعار الممكنة . ولكن لها عدا عن ذلك اسباب اكثر اهمية للرغبة في استمرار النظام الايرلندي القائم . فايرلندا تزود سوق العمل الانجليزي بفائض من سكانها باستمرار ، مما يخفض اجور الطبقة العاملة الانجليزية ويضعف موقعها المادي والمعنوي . ونتيجة لذلك تنقسم الطبقة العاملة في كل المراكز التجارية والصناعية في انجلترا الى معسكرين متعاديين : العمال الايرلنديون من جهة ورفاقهم العمال الانجليز من جهة اخرى . والعامل الانجليزي العادي يكره العامل الايرلندي بوصفه منافسه ويشعر بالتفوق عليه بوصفه فردا من عرق مسيطر ، وبذلك يصبح اداة في يد الارستقراطيين والراسماليين ضد ايرلندا ، وفي الوقت نفسه يقوي سيطرة هاتين الطبقتين عليه . والعامل الانجليزي متحيز ضد العامل الايرلندي دينيا واجتماعيا وقوميا وهو يعامله بطريقة تشبه الطريقة التي يعامل بها «البيض» الزنوج . ومن جهة اخرى يرد العامل الايرلندي على الانجليزي ، فيعتبره حالا متواطئا في السيطرة على ايرلندا واداة غبية في يد هذه السيطرة . وضعف الطبقة العاملة في انجلترا برغم تنظيمها الجيد يعود الى هذا التعادي ، الذي تبقيه حيا بصورة مصطنعة الصحف وكل ما عداها من الادوات التي تستخدمها الطبقة المسيطرة.

اكثر من ذلك ، امتد الشر الى الجانب الاخر من الاطلنطي ، اذ حال التعادي بين الانجليز والايرلنديين دون اي تعاون فعال صادق بين الطبقة العاملة في انجلترا والطبقة العاملة في اميركا . كانت المهمة الرئيسية الملقاة على عاتق الاممية هي تسريع الثورة الاجتماعية في انجلترا ، عاصمة راس المال ، والسبيل الوحيد

للوصول الى هذه الغاية هو استقلال ايرلندا . ولذا فان على الاممية ان تقف علنا الى جانب ايرلندا في كل مناسبة ممكنة ، ويجب ان يضع المجلس العام نصب عينيه اقناع العمال الانجليز بان استقلال ايرلندا ليس فحسب مسألة عدالةمجردة وتعاطف انساني ، بل هو الشرط الاولي لانعتاقهم هم انفسهم .

كرس ماركس في السنوات اللاحقة كل قواه لهذه المهمة . فكما كان قد اعتبر المسألة البولندية (التي اختفت من على جدول اعمال الاممية منذ مؤتمر جنيف) رافعة للاطاحة بالسيطرة الروسية ، كذلك اعتبر المسألة الايرلندية رافعة للاطاحة بسيطرة انجلترا على العالم ، ولم يتأثر موقفه بأن ذلك منح «المتآمرين» في حركة الطبقـــة العاملة ، اولئك الذين كانوا حريصين على ان يصبحوا اعضاء في البرلمان القادم (ولقد حسب ماركس اودغر ، رئيس المجلس العام للاممية ، بينهم) ، عذرا للالتحـــاق بالبورجوازية الليبرالية . ذلك ان غلادستون كان يستغل المسألة الايرلندية كشعار انتخابي فاصبحت المسألة احدى المسائل الملحة . فنظم المجلس العام عريضة الى الحكومة الانكليزية ضد تنفيذ حكم الاعدام بثلاثة من فينانيي مانشستر ، دون ان تصادف العريضة نجاحا بالطبع ، ثم شجب المجلس تنفيذ الحكم ووصفه بأنه جريمة قتل «شرعية» ، كما ان المجلس نظم اجتماعا عاما في لندن لنصرة القضية الايرلندية.

اثار هذا النشاط الحكومة الانجليزية ، واغتنمت الحكومة الفرنسية الفرصة لشن هجوم على الاممية . فقد كان بونابرت يراقب تطور الاممية طوال ثلاث سنوات دون ان يتدخل في ذلك ، آملا بذلك ان يفزع البورجوازية المترددة . وعندما فتح الاعضاء الفرنسيون في الاممية مكتبا في باريس ، اخبروا رئيس الشرطة ووزير الداخلية بذلك ، ولكن ايا من هذين المحترمين لم يصدر اشعارا بتسلـــم هاتين الرسالتين . غير انه كانت هناك بعض التحايلات من جانب السلطات . فبعد مؤتمر جنيف ، ارسلت الاممية محاضر جلسات المؤتمر الى المجلس العام في لندن بواسطة شخص سويسري المولد انجليزي الجنسية . ولكن الشرطة سرقت هذه المحاضر على الحدود الفرنسية . غير ان وزارة الخارجية في لندن اخذت المسألة علـــى عاتقها ، وفي النهاية اضطر اللصوص الى اعادة ما سرقوا .

وعاملت الاممية بازدراء روهر ، المؤتمن على اسرار الامبراطور ، عندما اعلن انه مستعد للسماح بنشر بيان تقدم به المندوبون الفرنسيون الى مؤتمر الاممية في جنيف بشرط ان تضاف اليه «بضعة كلمات للامبراطور ، الذي فعل الكثير من اجل الطبقة العاملة» ، فرفضت الاممية هذا الطلب ، على الرغم من ان السياسة العامة لاعضاء الاممية الفرنسيين كانت تجنب اغضاب الوحش الكاسر ما امكن ذلك ، لمعرفتهم الكاملة بانه ينتظر الفرصة المناسبة ، وقد ادى ذلـــك بالبورجوازيين الراديكاليين الى الشك بأن اعضاء الاممية الفرنسيين ليسوا غير بونابرتيين متخفين.

ويؤكد بعض الكتّاب الفرنسيين ان البورجوازيين الراديكاليين انما عبروا عن هذا الشك كي يدفعوا باعضاء الاممية الى دعم بيان او اثنين اصدرهما البورجوازيون الراديكاليون ضد الامبراطور . ولكن هذا امر غير هام ، ذلك ان الاسباب التي ادت ببونابرت الى الخصام المعلن مع الطبقة العاملة اعمق بكثير، فقد نمت حركة الاضرابات

التي اعقبت ازمة ١٨٦٦ الطاحنة الى حدود ازعجته . وبعد ذلك ، وفي ربيع عام ١٨٦٧ عندما اصبح خطر الحرب مع الجامعة الالمانية الشمالية ماثلا بسبب النزاع حول لوكسمبورغ ، تبادل عمال باريس بتأثير الاممية ، خطابات السلام مع عمال برلين . وفي النهاية كانت البورجوازية الفرنسية تحدث ضجيجا يصم الآذان مطالبة بالانتقام لسادوفا (سادوفا قرية في بوهيميا ، وهي الاسم الذي يطلقه النمسويون على معركة كونيفراتز في ٣ تموز ١٨٦٦ والتي هزمهم البروسيون فيها هزيمة ساحقة) لدرجة ان رجال القصر توهموا انهم يستطيعون ايقاف هذا الضجيج بالقيام بتنازلات «ليبرالية» لمصلحة البورجوازية .

في ظل هذه الظروف ، تخيل بونابرت انه يضرب عصفورين بحجر واحد اذ يعد ضربة ضد مكتب الاممية في باريس متذرعا بأنه مركز للمؤامرة الفينيانية . فأغير على بيوت اعضاء المكتب دون سابق انذار وفي هدأة الليل ، ولكن بالطبع لم يتم العثور على اي اثر للمؤامرة . ولكي لا يصبح بونابرت اضحوكة في نظر الراي العام ، لم يكن أمامه الا تقديم الرجال الذين القي القبض عليهم للمحاكمة بتهمة انهم اعضاء في جمعية غير قانونية يزيد عدد اعضاؤها عن العشرين . وفي ٦ و٢٠ اذار حوكم خمسة عشر عضوا من اعضاء الاممية ووجدوا مذنبين ، فحكم على كل منهم بغرامة قدرها مئة فرنك واعلن حل المكتب . ولم يفلح الاستئناف ضد الحكم .

ولكن قبل ان ينظر في الاستئناف ، بدأت محاكمات جديدة . وكان المدعي العام والمحكمة قد عاملوا المتهمين بلطف غير معتاد ، في حين ان تولين دافع عن المتهمين وعن نفسه باعتدال . ولكن بعد يومين اثنين فقط ، من بدء المحاكمة تشكل مكتب جديد ، فانهى هذا التحدي الساخر اية اوهام كانت تراود بونابرت . وفي ٢٢ ايار اوقف تسعة من اعضاء المكتب الجديد امام المحاكم ، وبعد دفاع لامع حاد ولاذع تقدم به فارلان ، حكمت المحكمة على المتهمين بالسجن ثلاثة اشهر لكل منهم. وبذلك تبدت العلاقات بين الامبراطورية والاممية على حقيقتها ، وكسب فرع الاممية الفرنسي قوة وعزما جديدين نتيجة هذا الشقاق النهائي والمعلن مع جزار كانون الاول.

كذلك اشتبكت الاممية مع الحكومة البلجيكية . فقد دفع اصحاب المناجم في حوض كارليروي العمال المفقرين الى الثورة بفعل المغالطة والاحتيال المستمرين ، ومن ثم اطلقوا عليهم قوات الدولة المسلحة . وفي خضم الهلع الذي احدثه حكم الارهاب الذي تبع ذلك ، انتصرت الاممية لقضية العمال الذين عوملوا بوحشية ، فنشرت قضيتهم على الملأ في الصحافة وفي الاجتماعات العامة ، ورعت من يعيلهم العمال المقتولون والمصابون وزودت العمال المسجونين بمساعدة قانونية ادت في النهاية الى تبرئتهم .

وعند ذلك ، اطلق وزير العدل البلجيكي سيلا من الشتائم المقذعة ضد الاممية في مجلس النواب البلجيكي ، وهدد باتخاذ اجراءات قمعية ، بما في ذلك منع المؤتمر القادم للاممية من الانعقاد في بروكسل حيث كان مقررا ان يعقد . غير ان هذه التهديدات لم ترهب اعضاء الاممية البلجيكيين ، فردوا على الوزير برسالة مفتوحة تفيض تحديا انتهت بالتأكيد ان مؤتمر الاممية القادم سيعقد في بروكسل سواء

أرضى ذلك وزير العدل ام اغضبه .

٢ ـ سويسرا والمانيا

كانت القوة الدافعة العظيمة التي دفعت بالاممية الى الامام خلال هذه السنوات هي موجة الاضرابات التي اجتاحت الى هذا الحد او ذاك كل الاقطار الرأسمالية المتقدمة نتيجة الانهيار الاقتصادي عام ١٨٦٦ .

لم يكن المجلس العام للاممية مسؤولا بأي شكل عن اندلاع هذه الاضرابات ، ولكنه دعمها بالنصح والمساعدة ، وعبأ التضامن الاممي للبروليتاريا لمصلحتها . وبهـذه الطريقة حرمت الاممية الطبقة الرأسمالية سلاحا فعالا جدا ، فلم يعد المستخدمون قادرين على الحد من صلابة عمالهم باستيراد العمل الاجنبي الرخيص . اكثر من ذلك ، استطاعت الاممية تجنيد حلفاء مخلصين من بين من كانوا يساعدون العدو المشترك عن غير وعي . وكانت الاممية تسعى حيثما كان لها نفوذ او اثر الى اقناع العمال ان مصلحتهم ذاتها تفرض عليهم ان يدعموا نضالات رفاقهم الاجانب من اجل تحسين الاجور .

اثبت هذا النشاط ان له قيمة دائمة ، وكسب للاممية سمعة اوروبية تفوق بكثير الزيادة الحقيقية في قوتها . اذ لم يكن العالم البورجوازي قادرا على ادراك ان سبب موجة الاضرابات يكمن في الاوضاع المزرية التي يعيش العمال في ظلها ، ولذا سعى الى تفسير هذه الاضرابات بأنها نتيجة مكائد سرية تحيكها الاممية . ونتيجة لذلك اصبحت الاممية في نظر البورجوازية وحشا شيطانيا يجب تحطيمه في كل اضراب . ومن هنا اصبح كل اضراب كبير يتحول بسرعة الى صراع حول الاممية ، ومن كل اضراب من هذه الاضرابات كانت الاممية تخرج وقد ازدادت قوة علـى قوة .

كان اضراب عمال البناء في ربيع عام ١٨٦٨ في جنيف مثلا نموذجيا على هذا النوع من الاضرابات ، وكذلك كان اضراب عمال النسيج وصباغة الحرير الـذي اندلع في خريف السنة ذاتها في بازل واستمر حتى الربيع التالي . بدأ اضراب عمال البناء في جنيف بالمطالبة بأجور اعلى ويوم عمل أقصر ، ولكن سرعان ما بدل اصحاب العمل طبيعة الاضراب بأن طالبوا ان يقطع العمال المضربون كل صلة لهم بالاممية كشرط اولي لعقد اية اتفاقية . وفي الحال رفض العمال المضربون هـذه الوقاحة ، واستطاعوا بفعل المساعدة التي أمنها لهم المجلس العام للاممية في انجلترا وفرنسا وغيرهما من الاقطار ان يستمروا في النضال من اجل مطالبهم الاصلية . اما في بازل فقد لعبت غطرسة الرأسماليين لعبة اخطر من ذلك . فقد أُخبر عمال النسيج في احد مصانع البلدة انهم سيحرمون تلك السنة من العطلة التقليدية التي كانوا يحصلون عليها كل سنة في نهاية موسم الخريف والتي كانت تستمر بضـع ساعات ، وان اي عامل يتوقف عن العمل رغم هذا التحذير سيفصل في الحال . أصر قطاع من العمال على حقوقهم التقليدية ، وفي اليوم التالي ردتهم الشرطة عن

ابواب المصنع ، رغم انه كان يحق لهم في الواقع الحصول على انذار قبل الفصل باسبوعين . استثارت وحشية الرأسماليين وحماقتهم هذه عمال بازل ، فخاضوا نضالا استمر بضعة اشهر وتتوج بمحاولة من جانب الحكومة المحلية لارهاب العمال بتهديدهم باتخاذ اجراءات عسكرية ضدهم ، بما في ذلك فرض قوانين تعني عمليا اعلان الحكم العسكري .

سرعان ما تبين ان هدف هذا الهجوم الشرس كان محاولة تحطيم الاممية . فحاول الرأسماليون كل ما امكنهم لسحق العمال من الفظاعات الوحشيةكطرد عائلات العمال من منازلهم ومنع المتاجر من بيعهم دينا ، الى الاجراءات السخيفة كارسال رسول الى لندن لتقصي المصادر المالية للأممية . وقد قال ماركس تعقيبا على ذلك، وعلى غرار مقارنة عقدتها صحيفة «التايمز» بين الاممية والجماعات المسيحية الاولى: «لو عاش هؤلاء السادة المسيحيون الاتقياء في ايام المسيحية الاولى لبدأوا بالتحري عن حساب الحواري بول في بنوك روما» . ولكن على الرغم من كل محاولات الرأسماليين ظل عمال بازل مخلصين للاممية ، وعندما احرزوا النصر في نهاية الامر احتفلوا به في مسيرة كبيرة اجتازت المدينة واجتماع جماهيري في ساحة السوق . وكان عمال بازل قد تلقوا دعما سخيا من عمال البلدان الاخرى ، واحدث نضالهم اثره حتى في الولايات المتحدة ، حيث كان سورج ، وهو احد المهاجرين من عام ١٨٤٨ اصبح معلما للموسيقى في نيويورك ، قد بدأ ينشط لصالح الاممية .

وفوق كل شيء ، فتحت موجة الاضرابات المانيا امام الاممية التي لم يكن لها حتى ذلك الحين سوى مجموعات معزولة فيها . فبعد صراعات عنيفة وبعد الكثير من التخبط اصبحت منظمة «الغماينه دويتشه ارباتيرفيرن» منظمة صلبة ، واستمرت في التقدم خاصة بعد ان اصبح شفايتزر رئيسا لها . وكان شفايتزر وخصمه القديم ليبكنشت عضوين في الرايشتاغ الالماني الشمالي . وسرعان ما اشتبك الخصمان في الرايشتاغ نتيجة خلافاتهما حول المسألة القومية . فبينما كان شفايتزر قد قبل النتائج التي تمخضت عنها معركة كونيغراتز ، ظل ليبكنشت يرفض هذه النتائج بعناد ويعتبر جامعة شمال المانيا نتاجا لعنف غير مشروع يجب ان يحطم بلا رحمة حتى ولو كان من الضروري التخلي مؤقتا عن الاهداف الاجتماعية للطبقة العاملة . وفي خريف ١٨٥٦ ساهم ليبكنشت في تأسيس حزب الشعب الساكسوني الذي تبنى برنامجا ديمقراطيا راديكاليا ولكنه غير اشتراكي ، وفي عام ١٨٦٨ اصدر في ليبزيغ صحيفة «ديمقراطيشه فوشنبلات» كلسان للحزب ، الذي كان يجند اعضاءه بصورة رئيسية من بين العمال .

اشار ليبكنشت في العدد الاول من الصحيفة الى شفايتزر واصفا اياه بانه رجل شجبه كل رواد القضية الاشتراكية الديمقراطية ، لكن هذا الهجوم لم يكن فعالا بصورة عامة ، ذلك ان شفايتزر لم يتأثر للصفعة التي كان قد تلقاها من ماركس وانغلز قبل ذلك بثلاث سنوات ، بل مضى في نشاطه ، وفعل كل ما في وسعه ليعرف العمال الالمان الى المجلد الاول من «رأس المال» . وفي نيسان ١٨٦٨ اتصل بماركس سائلا اياه النصح بصدد مسألة تخفيض عائدات استيراد الحديد

الذي كانت الحكومة البروسية تخطط له .

كان ماركس ملزما باسداء النصح لشفايتزر ، فهو بوصفه سكرتير المجلس العام للاممية للمراسلة مع المانيا ملزم باجابة اية اسئلة يضعها امامه الممثل البرلماني للعمال في بلد صناعي كبير . وذلك على الرغم من خلافاته ، هو وانغلز ، مع شفايتزر . اذ لم يكن اي منهما قد تخلىعن شكه الشخصي بشفايتزر ، وان كانا ربما قد كفا عن الشك بانه كان يتآمر مع بسمارك (اثبت التاريخ صحة شكوك ماركس وانغلز بلاسال وشفايتزر ففي عام ١٩٢٨ اكتشفت مراسلات تثبت التواطؤ بين لاسال وبسمارك — المترجم) ، وبالاضافة الى ذلك كان ماركس وانغلز يعتقدان اعتقادا جازما ان منظمة «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» مجرد شيعة ، وان شفايتزر يريد « حركة طبقة عاملة خاصة به» .

وعلى الرغم من صداقة ماركس الشخصية لليبكنشت وشكه الشخصي بشفايتزر، الا انه اجاب هذا الاخير على سؤاله حول عائدات استيراد الحديد ، وعلى الرغم من ان الجواب كان يتسم بالتحفظ الحذر الا انه كان شاملا وموضوعيا في محتواه . وعند ذلك فعل شفايتزر امرا كان قد اقترحه قبل ذلك بعدد من السنين . ففـي اجتماع عام عقدته «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» في هامبـــورغ في نهاية آب ١٨٦٨ ، اقترح الارتباط بالاممية . وبالنظر الى القوانين التـــي تحظر الانتظام ، اقترح ان يتخذ هذا الارتباط شكل اعلان التعاطف مع اهداف الاممية وليس شكل ارتباط تنظيمي رسمي . ودعي ماركس الى حضور الاجتماع العام ليتلقى شكـــر العمال الالمان على خدماته العلمية لقضية الطبقة العاملة . لكن ماركس اجاب على تساؤلات شفايتزر بهذا الخصوص بلهجة ودية ، ولم يحضر الاجتماع في النهاية رغم الحاح شفايتزر .

وفي رسالة شكر على «الشرف» الذي اسبغ عليه ، اعتذر ماركس عن حضور الاجتماع ، على اساس ان الاستعدادات التي يقوم بها المجلس العام لعقد المؤتمر القادم للاممية تحول دونه ومغادرة لندن . وفي الوقت ذاته ، لاحـــظ ماركس «بسرور» ان جدول اعمال الاجتماع العام يتضمن البنود الضرورية الحيوية لبداية اية حركة جدية للطبقة العاملة : التحريض من اجل الحقوق السياسية الكاملة ، التنظيم القانوني ليوم العمل ، التعاون الاممي الدائم للطبقة العاملة . وبعد ذلك، اعلن ماركس فيرسالة الى انغلز انهانما هنأ اللاساليين على تخليهم عن برنامجلاسال.

كان شفايتزر نفسه هو الذي قام بالتخلي الحقيقي عن تقاليد لاسال في الاجتماع العام ، وذلك عندما نجح ، رغم معارضة شديدة وبعد ان هدد بالاستقالة ، فـــي الحصول على تفويض بالدعوة الى مؤتمر عام للطبقة العاملة في برلين في نهايـــة ايلول بهدف انشاء منظمة عمالية عامة تقود الاضرابات . لقد تعلم شفايتزر من حركة الاضرابات الاوروبية ، فلم يكن يقدرها بأكثر مما تستحق ، ولكنه في الوقت ذاته ايقن ان حزب طبقة عاملة ، يريد ان يظل اهلا للمهام الملقاة على عاتقه ، لا يمكن ان يدع الاضرابات التي كانت تندلع في كل مكان وبعنف شديد تتحلل وتتحول الـى فوضى غير منتظمة . ولذا لم يتردد في انشاء نقابات مختلفة ، مع انه فشل في

ادراك الطبيعة الخاصة للنقابات ، فاراد ان ينظمها على اسس حازمة شبيهة بتلك التي تأسست عليها «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» وكمجرد ادوات مساعدة لهذه الاخيرة .

حذر ماركس شفايتزر من اقتراف هذا الخطأ الخطير . وعلى الرغم من ان كل رسائل شفايتزر الى ماركس بهذا الخصوص لا تزال باقية ، الا ان رسالة واحدة فقط من ماركس الى شفايتزر لا تزال موجودة . تلك هي رسالة الثالث عشر من تشرين الاول ١٨٦٨ . تبدي هذه الرسالة اهتماما وديا بوجهة نظر شفايتزر ، وهي تورد اهم الاعتراضات على الخط الذي يتبعه شفايتزر في العمل النقابي ، ولكنها تشير الى ان المنظمة التي انشأها لاسال ويقودها شفايتزر «شيعة» يجب ان تندمج في الحركة العامة للطبقة العاملة . فأجاب شفايتزر بانه فعل كل ما في وسعه على الدوام لينسق الخطى مع الحركة العامة للطبقة العاملة الاوروبية .

وبعد انعقاد الاجتماع العام لمنظمة «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» في هامبورغ، عقدت «رابطة المنظمات العمالية الالمانية» مؤتمرها في نورمبرغ . ولقد اثبت هذا المؤتمر كذلك انه استطاع رؤية الامور على حقيقتها ، فقررت اغلبية المؤتمر ان تتبنى «موضوعات الاممية» برنامجا للصحيفة الناطقة باسمها «ديمقراطيشه فوشنبلات» ، وعند ذلك انسحبت الاقلية واختفت الى الابد . وكان مؤتمر هامبورغ قد برر الارتباط بالاممية على اساس ان احزاب الطبقة العاملة جميعا لها مصالح مشتركة، اما مؤتمر نورمبرغ فقد كان اقل وضوحا في موقفه . وبعد ارفضاض مؤتمر نورمبرغ ببضعة اسابيع ، اعلنت «ديمقراطيشه فوشنبلات» ان مؤتمر حزب الشعب الالماني في شتوتغارت قرر تبني برنامج نورمبرغ .

غير ان «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» و«رابطة المنظمات العمالية الالمانية» اقتربتا من بعضهما البعض ، وبذل ماركس جهده كوسيط محايد بين ليبكنشت وشفايتزر لتحقيق وحدة الطبقة العاملة الالمانية ، ولكنه في النهاية لم ينجح . فقد رفضت رابطة نورمبرغ حضور المؤتمر النقابي الذي دعا اليه شفايتزر في برلين ، لكن المؤتمر كان ناجحا وادى الى تأسيس العديد من «النوادي العمالية» التي كان التنسيق بينها يتم عبر «اتحاد عمالي» يقوده شفايتزر .

وعندئذ بدات رابطة نورمبرغ تشكل «تعاونيات نقابية» على اساس انظمة اساسية وضعها بيبل وكانت تتفق مع حاجات الحياة النقابية اكثر بكثير من مقترحات شفايتزر ، وبعد ذلك عرضت رابطة نورمبرغ التفاوض مع «اتحاد» شفايتزر ، لكن العرض رفض .

لم يستطع ماركس ان يحول دون انشقاق حركة الطبقة العاملة الالمانية ، ولكن الدعم الذي قدمه الطرفان للاممية ، كان مع ذلك يمثل مكسبا . وبذلك بدات الاممية تحدث اثرا ملحوظا في كل مكان ، رغم ان حدود هذا التأثير كانت لا تزال غير محددة تماما هنا وهناك . وفي تلك المرحلة ، بدأ ماركس يفكر بنقل مقر المجلس العام للاممية من لندن الى جنيف . وكان للمضايقات التي يحدثها الفرع الفرنسي في لندن اثر في دفع ماركس الى ذلك . وعلى الرغم من ان هذا الفرع لم يكن كبيرا

عدديا ، الا انه كان كثير الضجيج ، وكان يسبب للاممية حرجا بالغا بدعمه الصاخب للمهرج بيات الذي كان يروج لاغتيال لوي بونابرت . وبالطبع ، فعل المجلس العام كل ما في وسعه لايقاف هذه الحماقة ، فما كان من الفرع الفرنسي الا ان احدث قدرا هائلا من الضجيج الدرامي حول «دكتاتورية» المجلس العام ، وبدأ يعد هجوما على المجلس في مؤتمر الاممية القادم في بروكسل .

لحسن الحظ ، نصح انغلز ماركس بشدة ان لا يقوم بهذه الخطوة الخطرة ، قائلا انه لا يمكن تسليم قيادة الحركة لأناس لا يستطيعون رغم طيب نواياهم وصدق حدسهم ان يلعبوا هذا الدور ، وكل ذلك لمجرد ان مجموعة من الحمقى تثير قدرا من المتاعب . وكلما اصبحت الحركة اكبر ، وخاصة الان وبعد ان بدأت الحركة تشق طريقها في المانيا ، كلما اصبح اكثر اهمية ان يحتفظ ماركس بمقاليد الامور في يديه . ولم يمض وقت طويل ، حتى تبين وفي جنيف بالذات ، ان طيب النوايا وصدق الحدس لا يكفيان بحد ذاتهما .

٣ ـ تحريض باكونين

انعقد المؤتمر الثالث للاممية في بروكسل ما بين ٦ و١٣ ايلول ١٨٦٨ . وكان عدد حضور هذا المؤتمر اكثر من عدد الحضور في اي مؤتمر سابق او لاحق ، ولكنه كان محليا في طابعه ، فقد كان اكثر من ثلث الحضور بلجيكيين . وكان ما يقرب من خمس الحضور ممثلين لفرنسا ، اما انجلترا فقد مثلها احد عشر مندوبا، ستة منهم اعضاء في المجلس العام وبينهم ايكاريوس ويونغ ولسنر والنقابي لوكرافت. وحضر المؤتمر ثمانية مندوبين عن سويسرا ، اما المانيا فلم يمثلها غير ثلاثة مندوبين بينهم موسى هس مندوبا عن فرع كولون . وكان شفايتزر قد تلقى دعوة رسمية ، الا انه لم يتمكن من الحضور بسبب اعمال قضائية كانت تستدعي وجوده في المانيا. وبدلا من ذلك ارسل رسالة يعلن فيها تعاطف «الغماينه دويتشه اربايترفيرن» مع اهداف الاممية ، ويشرح ان انضمام هذه المنظمة الرسمي الى الاممية تحول دونه القوانين التي تحظر الانتظام والتي تسود المانيا . اما ايطاليا واسبانيا فقد ارسلتا مندوبا واحدا عن كل منهما .

جعلت الحياة الناشطة للاممية في سنتها الرابعة نفسها محسوسة في جلسات المؤتمر . فقد تحولت المعارضة التي كان البرودونيون قد ابدوها ضد النقابيـة والاضرابات في مؤتمري لوزان وجنيف الى العكس تماما . ولكنهم ظلوا متمسكين بافكارهم القديمة عن «التسليف الحر» و«بنك التبادل» ونجحوا في حمل المؤتمر على تبني قرار اكاديمي لمصلحة هذه الافكار ، رغم ان ايكاريوس بين استحالـة العلاجات البرودونية عمليا على اساس التجربة الانجليزية ، بينما بين موسى هس خطأها نظريا على اساس رد ماركس على برودون قبل ذلك بعشرين عاما .

اما في «مسألة الملكية» فقد عانى المندوبون الفرنسيون هزيمة ماحقة فقد تبنى المؤتمر بناء على اقتراح من دي بيب البلجيكي قرارا طويلا حول الموضوع ، يطالب

بان يستولي نظام اجتماعي منظم جيدا على المناجم وسكك الحديد ويديرها لمصلحة المجتمع ككل ، اي ان تقوم دولة جديدة مؤسسة على مبادىء العدالة ، وحتى يحين ذلك يجب ان تدير هذه المناجم والسكك شركات من العمال تقدم الضمانات الضرورية للمجتمع ككل . اما الارض والغابات فيجب ان تستولي عليها الدولة هي الاخرى وتنيط بشركات شبيهة من العمال مهمة ادارتها وتقديم الضمانات الكافية للمجتمع. وفي النهاية يجب ان تصبح كل القنوات والطرق والتلغراف وباختصار كل وسائط النقل والمواصلات ملكية عامة للمجتمع ككل . فاحتج المندوبون الفرنسيون بعنف على هذه «الشيوعية البدائية» ، ولكنهم لم يستطيعوا سوى الوصول الى اتفاق يقضي بان يبحث المؤتمر القادم ، الذي تقرر عقده في بازل ، هذه المسألة من جديد.

يقول ماركس انه لم يلعب اي دور في وضع قرارات مؤتمر بروكسل ، ولكنه لم يكن مستاءاً من نتائجه . ذلك ان المؤتمر اولا اقتفى اثر مؤتمري هامبورغ ونورمبرغ وشكر ماركس باسم الطبقة العاملة العالمية على العمل العلمي الذي قام به من اجلها، وكان في ذلك ما يرضي ماركس شخصيا وسياسيا . وثانيا رد المؤتمر هجوما قام به الفرع الفرنسي في لندن على المجلس العام . غير ان ماركس امتعض لقرار اتخذه المؤتمر ويقضي بان تحول الطبقة العاملة دون اية حروب في المستقبل باعلان اضرابات عامة ، بل باضراب عام تقوم به جميع الشعوب ، ووصف هذا القرار بأنه مجرد «هراء» . ولكنه من جهة اخرى سر لقرار اخر اتخذه المؤتمر بقطع كل العلاقات مع «رابطة السلام والحرية» التي عقدت مؤتمرها الثاني بعد ذلك بقليل في بيرن - وكانت الرابطة قد اقترحت عقد تحالف مع الاممية ، ولكن مؤتمر بروكسل اجاب بحدة قائلا انه ليس هناك من سبب واضح لاستمرار وجود الرابطة ، وان افضل ما يمكنها ان تفعل هو ان تحل نفسها وتوصي اعضاءها بالانضمام الى الفروع المختلفة للاممية .

كانت فكرة هذا التحالف تحظى بصورة رئيسية بدعم ميخائيل باكونين ، الذي كان قد حضر مؤتمر رابطة السلام والحرية الاول في جنيف ، وانضم الى الاممية قبل انعقاد مؤتمر بروكسل ببضعة اشهر . وعندما رفضت الاممية اقتراحه لعقد تحالف بين المنظمتين ، بذل كل جهده لاقناع مؤتمر رابطة السلام والحرية في بيرن بتبني تدمير كل الدول واقامة فيدرالية لروابط انتاجية في كل البلدان . غير انه كان ضمن الاقلية ايضا في مؤتمر الرابطة ، جنبا الى جنب مع جوهان فيليب بيكر وغيره ، وعندئذ انشق مع هذه الاقلية واسس «التحالف الاممي للاشتراكية الديمقراطية» ، على ان تنضم هذه المنظمة الى الاممية دون تحفظ لتعمل من داخلها على دراسة كل المسائل السياسية والفلسفية على اساس مبدأ المساواة التامة بين البشر على امتداد العالم .

اعلن بيكر انشاء التحالف في عدد ايلول من «ديرفوربوت» ، واعلن ان هدفها هو انشاء فروع للأممية في فرنسا وايطاليا واسبانيا وحيثما كان لها نفوذ . ولكن بيكر لم يطلب رسميا من المجلس العام للاممية قبول التحالف عضوا فيها الا بعد ذلك بثلاثة اشهر ، وفي ١٥ كانون الاول ١٨٦٨ . وكان هذا الاقتراح قد قدم في هذه

الاثناء الى المجلسين الفيدراليين للاممية في فرنسا وبلجيكا ولكنهما رفضاه . وبعد ذلك باسبوع واحد ، اي في ٢٢ كانون الاول ، كتب باكونين الى ماركس من جنيف يقول : «صديقي العزيز ، افهم الان بوضوح اكثر من اي وقت مضى ، كم كنت محقا في السير على طريق الثورة الاقتصادية العظيم ، داعيا ايانا جميعا للسير معك ، شاجبا منا من اهدروا طاقاتهم في مسالك فرعية تمثل جزئيا مغامرات قوميــة واحيانا مغامرات سياسية . انني الان افعل ما تفعله انت منذ عشرين سنة . فمنذ انشقاقي الجدي والمعلن عن البورجوازية في مؤتمر بيرن ، وانا لا اعرف عالما غير عالم العمال . وطني الان هو الاممية ، التي تنتمي انت الى مؤسسيها البارزين . ولذا يا صديقي العزيز فأنا اعتبر نفسي تلميذا لك ، وانا فخور بذلك . هذا هو موقفي وهذه هي آرائي الشخصية » .

في اليوم الذي كتب فيه باكونين هذه الرسالة ، كان المجلس العام قد قــرر رفض الطلب الذي تقدم به «تحالف الاشتراكية الديمقراطية» عبر بيكر ، للانضمام الى الاممية . وكان ماركس وراء هذا الرفض . فقد كان يعلم بوجود التحالف ، الذي اعلن عنه في «ديرفوربوت» ، ولكنه كان يعتبره جهيضا لا اهمية له . كما كان يعرف بيكر ، ويعتقد انه رفيق موثوق ولكنـــــه ميال الى الدخول في مؤامرات تنظيمية . وكان بيكر قد تقدم ببرنامج التحالف ونظامه الاساسي الى المجلس العام، مرفقا ذلك برسالة يعلن فيها ان التحالف يتوق الى الانضمام الى الاممية ليعوض نقص «المثالية» فيها .

اثارت هذه الملاحظة السيئة الطالع «سخطا هائلا» بين اعضاء المجلس العام ، وعلى الاخص بين «المندوبين الفرنسيين» كما كتب ماركس لانغلز ، فتقرر رفض الطلب على الفور . وكلف المجلس ماركس بكتابة رسالة تتضمن قراره حول المسألة. وتدل الرسالة التي كتبها ماركس الى انغلز للحصول على نصيحته حول المسألة ان ماركس نفسه كان حانقا . فقد اثار برنامج التحالف غيظه قدر ما أثاره نظامـــه الاساسي . فقد اعلن البرنامج قبل كل شيء ان التحالف ملحد ، وطالب بالغاء كل الاديان واحلال العلم محل الايمان والعدالة الانسانية مكان العدالة الالهية . ثم طالب بالمساواة السياسية والاقتصادية لكل الطبقات ولكل الافراد من الجنسين ، وأعلن انه يجب البدء بالغاء حق الارث . وبعد ذلك انتقل البرنامج الى المطالبة باعطاء فرصة متساوية للنمو لافراد الجنسين منذ الولادة ، اي اعطائهم الرعاية المادية والثقافة في كل حقول العلم والصناعة والفن . وانتهى البرنامج الى شجب كل اشكال النشاط السياسي التي لا تهدف مباشرة الى تحقيق انتصار العمل على راس المال .

لم يكن حكم ماركس على هذا البرنامج محبذا . فقد اشار اليه بعد ذلك بقليل على انه : «خليط عجيب من التفاهات البالية ، هراء فارغ ، ومجموعة من الافكار المدعية تجعل الفرائص ترتعد قرفا ، وارتجال مبتذل لا يهدف الا الى احداث اثر مؤقت» . غير ان الاممية كانت على استعداد للتغاضي عن الكثير في المجال النظري، ذلك ان هدفها التاريخي كان تطوير برنامج مشترك للبروليتاريا العالمية من خلال نشاطها العملي ، ولهذا السبب بالذات كان تنظيم الاممية مسألة ترتدي قدرا بالغا

من الاهمية ، لكن النظام الاساسي للتحالف كان يشكل تعديا خطيرا في هذا المجال بالضبـط .

لقد اعلن التحالف نفسه فرعا من الاممية يقبل كل نظمها الاساسية العامة ، ولكنه اراد ان يظل تنظيما مستقلا ، وقد شكل مؤسسوه من انفسهم لجنة مركزية مؤقتة في جنيف ، على ان تفتتح مكاتب في كل الاقطار وتشكل جماعات في كل مكان تنضم بعد ذلك فقط الى الاممية . واقترح التحالف ان يعقد مندوبوه الـى مؤتمرات الاممية السنوية اجتماعات عامة خاصة بهم في غرفة مستقلة .

قرر انغلز في الحال ان قبولهم مستحيل ، اذ ستكون النتيجة مجلسين عامين ومؤتمرين . وفي اول فرصة سيجد المجلس العام العملي في لندن نفسه مشتبكا في نزاع حاد مع المجلس العام «المثالي» في جنيف . وفيما عدا ذلك ، نصح انغلز بأن يعالج الامر بهدوء ، فأي رفض عنيف سيثير المدعين بين العمال (وعلى الاخص في سويسرا) ويسبب الضرر للاممية . ولذا يجب رفض طلب التحالف بحزم وهدوء، ويجب ان يوضح ان التحالف قد اختار لنشاطه حقلا خاصا ، وأن الاممية ستنتظر لترى النتائج التي يتمخض عنها هذا النشاط . وفي اثناء ذلك ، ليس هناك ما يمنع ان يكون اعضاء احدى المنظمتين اعضاء في الاخرى اذا هم ارادوا ذلك .

في هذه الاثناء ، كان غضب ماركس قد هدأ ، فكتب رسالة ضمنها رفـض الاممية لطلب التحالف بصيغة هادئة لا يمكن الاعتراض عليها . وأشار ماركس في الرسالة الى بيكر قائلا ان عددا من مؤسسي التحالف كانوا قد حسموا المسألة من قبل بتعاونهم كاعضاء في الاممية في صياغة قرار مؤتمر بروكسل برفض انضمام «رابطة السلام والحرية» الى الاممية . واضاف ان السبب الرئيسي وراء القـرار السلبي للمجلس العام هو ان قبول منظمة اممية ثانية توجد داخل الاممية وخارجها في وقت واحد هو افضل سبيل لتدمير الاممية .

ردت اللجنة المركزية للتحالف في جنيف على رسالة المجلس العام برفض قبول التحالف عضوا في الاممية بأن عرضت ان تتحول فروع التحالف الى فروع للاممية اذا اعترف المجلس العام للاممية بالبرنامج النظري للتحالف .

اثناء ذلك تلقى ماركس رسالة باكونين الودية ، ولكن شكه كان قد تعاظم ، فلم يعر هذه «المناورة العاطفية» اي التفات . كذلك ساورته الشكوك بصدد الاقتراح الجديد للتحالف ، لكنه لم يسمح لمشاعره بأن تؤدي به الى اجابة هذا الاقتراح اجابة غير موضوعية . فقرر المجلس العام في ٩ اذار ١٨٦٩ ، بناء على اقتراح منه ، انه ليس من صلاحية المجلس ان يدقق البرامج النظرية للمنظمات العمالية المرتبطة به. فالطبقة العاملة في الاقطار المختلفة تمر في مراحل مختلفة من التطور ، ولذا يجد نشاطها العملي تعبيرا عنه في اشكال نظرية مختلفة . غير ان العمل المشترك ، الذي هو هدف الاممية ، والنقاشات المباشرة في مؤتمرات الاممية السنوية كفيلة بـأن تؤدي تدريجيا الى برنامج نظري مشترك لحركة الطبقة العاملة كلها . اما الان فان مهمة المجلس العام تقتصر على تقرير ما اذا كان الاتجاه العام للبرامج المختلفة يتفق مع الاتجاه العام للاممية ، اي مع النضال من اجل الانعتاق الكامل للطبقة العاملة .

وفي هذا الصدد ، اشار قرار المجلس العام الى ان برنامج التحالف يحتوي جملة قد تكون عرضة لسوء فهم خطير : فالمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات لا يمكن ان تعني اذا اخذت حرفيا غير المصالحة بين رأس المال والعمل على غرار ما كان يبشر به الاشتراكيون البورجوازيون . وسر الحركة البروليتارية والهدف العظيم للاممية هما في الواقع تدمير كل الطبقات . غير ان البند موضع البحث يمكن ان يكون عائدا الى مجرد السهو ، والمجلس العام لا يشك في ان التحالف على استعداد للتخلي عن هذا البند الخطر ، وعندئذ لن تكون هناك عقبة في سبيل تحول فروع التحالف الى فروع للاممية . وعندما يحصل ذلك ، يجب ان يبلغ المجلس العام ، طبقا للنظام الاساسي للاممية ، بمكان وجود وعدد اعضاء جميع هذه الفروع .

عندئذ ، عدل التحالف البند الذي اعترض عليه المجلس العام ، واعلن في ٢٢ حزيران انه حل نفسه ودعا فروعه الى التحول الى فروع للاممية . وقبل فرع التحالف في جنيف ، الذي كان يقوده باكونين ، في الاممية باجماع الاصوات في المجلس العام . وزعم حينذاك ان جمعية باكونين السرية قد حلت نفسها هي الاخرى ، ولكنها ظلت في الواقع موجودة بشكل عام والى هذا الحد او ذاك ، اما باكونين نفسه فقد استمر يعمل للبرنامج الذي وضعه التحالف لنفسه .

خلال ذلك ، ساد الهدوء الفروع الفرنسية ـ الايطالية ـ السويسرية للاممية فترة من الوقت وفي كانون الثاني ١٨٦٩ ، شكلت هذه الفروع بمبادرة من باكونين مجلسا فيدراليا مشتركا واصدرت مجلة اسبوعية نافذة نوعا ما اسمها «ايغاليتيه» ساهم في الكتابة لها باكونين وبيكر وايكاريوس وفارلان وغيرهم من اعضاء الاممية اللامعين . بعد ذلك ، اقنع باكونين المجلس الفيدرالي ان يطرح مسألة الارث للنقاش في المؤتمر القادم للاممية في بازل . وكان من حقه ان يفعل ، ذلك ان احدى المهام الرئيسية التي حددت للمؤتمر كانت بحث مسائل كهذه ، وعلى الفور وافق المجلس العام على ذلك .

غير ان ماركس اعتبر ذلك تحديا من باكونين له ، فرحب به على انه كذلك .

٤ ـ مؤتمر بازل

انعقد المؤتمر الرابع للاممية في بازل في ٥ و٦ ايلول ، وفيه راجعت الاممية نشاطاتها في السنة الخامسة لوجودها .

لقد اثبتت هذه السنة انها اكثر سنوات الاممية حيوية بفضل «قتال الفوار بين العمل وراس المال» ، اي تلك الاضرابات التي بدات الطبقات الحاكمة في اوروبا تفسرها اكثر فأكثر لا على انها نتيجة تعاسة البروليتاريا او استبداد راس المال ، بل على انها نتيجة المكائد السرية التي تحيكها الاممية .

ونتيجة لذلك تعاظمت الشهوة الوحشية لسحق الاممية بقوة السلاح . فحتى في انجلترا حدثت صدامات دموية بين عمال المناجم المضربين وبين الجيش . وفي

مقاطعة لوير ارتكب الجنود السكارى مجزرة ذهب ضحيتها عشرون شخصا بينهم امرأتان وطفل . وميزت بلجيكا نفسها مرة اخرى بوحشية ـ «مثال الدستورية الاوروبية ، جنة ملاك الارض والرأسماليين والقساوسة المحروسة جيدا» على حد تعبير نداء وضعه ماركس واصدره المجلس العام الى عمال اوروبا والولايات المتحدة للتضامن مع الضحايا الذين سقطوا صرعى الغضب الوحشي للباحثين عن الربح في سيرانج وبوريناج . واعلن ماركس : «كما ان الارض تتم دورتها مرة كل سنة ، كذلك تقوم الحكومة البلجيكية بمذبحتها ضد العمال سنويا» .

جعلت البذرة الدموية نفسها محسوسة في حصاد الاممية . ففي خريف ١٨٦٨ ، تمت الانتخابات في انجلترا على اساس الاصلاح الانتخابي ، لكن النتائج اكدت صحة التحذيرات التي كان ماركس قد اطلقها ضد السياسة الوحيدة الجانب لـ«عصبة الاصلاح» ، اذ لم ينتخب اي من ممثلي العمال ، بل نجح «المتمولون» وجاء غلادستون الى سدة الحكم ثانية ، ولكنه لم يكن ينوي احداث تسوية نهائية للمسألة الايرلندية ولا انهاء الظلامات التي كانت تشكو منها النقابات . وحمل ذلك كله رياحا جديدة الى اشرعة النقابية الجديدة .

وفي المؤتمر السنوي العام للنقابات الذي انعقد في بيرمنغهام عام ١٨٦٩ ، صدر نداء ملحاح الى كل المنظمات العمالية في المملكة المتحدة للارتباط بالاممية ، لا لان مصالح الطبقة العاملة العالمية هي ذاتها في كل مكان فحسب ، بل ايضا لان مبادىء الاممية كانت موضوعة بحيث تؤدي الى سلام دائم بين شعوب العالم . وفي صيف عام ١٨٦٩ ، كانت نذر الحرب بين انجلترا والولايات المتحدة تتجمع في الافق ، فبعث ماركس خطابا الى المؤتمر العمالي الوطني في الولايات المتحدة يقول : «دوركم الان ان تمنعوا نشوب حرب ستكون نتيجتها الحتمية اذا وقعت القاء حركات الطبقة العاملة المتقدمة على جانبي الاطلنطي الى الخلف» . وقد كان لهذا الخطاب اصداء واسعة في الولايات المتحدة .

وفي فرنسا ايضا ، كانت قضية الطبقة العاملة تحرز تقدما جيدا ، ولم يكن للاضطهاد البوليسي غير النتيجة المعتادة ، وهي اجتذاب انصار جدد للاممية . وقد ادت مساعدة المجلس العام للاممية في العديد من الاضرابات الى تشكيل نقابات قوية لا يمكن قمعها مهما كانت روح الاممية بادية فيها . ولم يشترك العمال في انتخابات عام ١٨٦٩ بترشيح ممثلين لهم، ولكنهم دعموا مرشحي اليسار البورجوازي المتطرف الذين تقدموا ببرنامج انتخابي راديكالي جدا . وبهذه الطريقة ساهم العمال، بصورة غير مباشرة على الاقل ، في الهزيمة الساحقة التي لحقت ببونابرت ، على الاخص في المدن الكبيرة ، رغم ان ثمار جهدهم قد سقطت في حضن الديمقراطية البورجوازية . لقد بدأت الامبراطورية الثانية تتزعزع من الداخل ، ومن الخارج تلقت ضربة قاصمة نتيجة للثورة التي اندلعت في اسبانيا في خريف ١٨٦٨ وطردت الملكة ايزابيلا خارج البلاد .

كان مسار التطور في المانيا مختلفا نوعا ما ، ذلك ان البونابرتية كانت لا تزال في صعود هناك ، ولما يبدأ نجمها بالافول بعد . كذلك كانت المسألة القومية سببا

في انشقاق الطبقة العاملة الالمانية ، فكان هذا الانشقاق عقبة كؤودا في وجه تطور الحركة النقابية . ووقع شفايتزر بسبب سياسته الخاطئة في التحريض النقابي اسير وضع لم يعد يستطيع السيطرة عليه ، وفي الوقت ذاته اد تالهجمات المتكررة على نزاهته الشخصية الى احاطته بالشك حتى من جانب بعض اتباعه ، وزاد الامر سوءاً انه عرض سمعته للخطر الجدي بقيامه بانقلاب صغير .

لذا ادارت اقلية في «الغماينه دويتشه اربايتر فيرن» ظهرها له واندمجت برابطة نورمبرغ لتشكيل حزب اشتراكي ديمقراطي جديد ، اصبح اعضاؤه يعرفـــون بالايزناخيين ، لان مؤتمرهم الافتتاحي انعقد في ايزناخ. وفي البداية قاتل الجناحان بعضهما قتالا مريرا ، ولكنهما اتخذا موقفا متقاربا تجاه الاممية . وكان هـــذان الجناحان متفقان من حيث المبدأ ، ولكنهما كانا مختلفين شكلا طالما ظلت قوانين حظر الانتظام الحزبي والنقابي مفروضة في المانيا . وعلى الرغم من ان ماركس وانغلز رحبا بـ«انحلال الكنيسة اللاسالية» الا انهما رفضا التعامل مع المجموعة الاخرى الى ان تفصل نفسها تماما عن حزب الشعب الالماني او على الاقل تحتفظ بمجرد علاقة فضفاضة معه .

اما تقدم حركة الطبقة العاملة الهنغارية ــ النمسوية ، والذي لم يكن قد بدأ الا بعد هزائم عام ١٨٦٦ ، فقد كان اكثر اتساقا . ولم يكن للمبادىء اللاسالية هناك اي موطىء لقدم ، وبدأت جماهير العمال تنضوي تحت لواء الاممية ، كما اشار المجلس العام في تقريره الى مؤتمر بازل .

هكذا اجتمع المؤتمر في ظل ظروف مؤاتية . ولم يحضر المؤتمر غير ٧٨ مندوبا، ولكنه كان «أمميا» اكثر بكثير من المؤتمرات السابقة ، فقد تمثلت فيه تسعة اقطار. تمثل المجلس العام كالعادة بايكاريوس ويونغ بالاضافة الى نقابيين لامعين همـــا لوكرافت وابليفارث . اما فرنسا فقد ارسلت ستة وعشرين مندوبا ، وبلجيكـــا خمسة مندوبين ، والمانيا اثني عشر ، والنمسا اثنان ، وسويسرا ثلاثة وعشرين ، وايطاليا ثلاثة ، واسبانيا اربعة ، والولايات المتحدة مندوبا واحدا . وقد مثـــل ليبكنشت جناح ايزناخ بينما مثل موسى هس فرع برلين . كذلك كان باكونين مندوبا مفوضا لكل من ايطاليا وفرنسا . وتراس المؤتمر يونغ .

عالج المؤتمر في البداية المسائل التنظيمية ، فقرر بناء على اقتراح من المجلس العام توصية جميع فروع الاممية والهيئات المرتبطة بها الغاء منصب الرئيس ، وكان ذلك عملا قد اخذه المجلس العام على عاتقه قبل ذلك بسنوات عدة على اعتبار ان الابقاء على مبدأ سلطوي وملكي كهذا ضمن صفوف منظمة عمالية امر لا يليق بكرامة منظمة كهذه ، ذلك ان وجود منصب الرئيس حتى ولو كان فخريا يخرق المبـــدأ الديمقراطي . ومن جهة اخرى ، اقترح المجلس العام توسيع سلطاته التنفيذية ، بحيث يحق له تعليق عضوية اي فرع من فروع الاممية حتى انعقاد المؤتمر القادم والبت في ذلك ، اذا ما خالف اي فرع من الفروع روح الاممية فتم تبني الاقتراح بعد ادخال تعديل عليه يقضي بان يستشير المجلس العام المجلس الفيدرالي ، اذا وجد مثل هذا المجلس الاخير ، قبل اتخاذ قراره . وقد دعـــم كل من باكونين

وليبكنشت هذا الاقتراح بحماسة ، واذا كان ذلك امرا طبيعيا من جانب ليبكنشت فانه لم يكن كذلك من جانب باكونين ، اذ انه يتعارض مع مبدئه الفوضوي مهما كانت دوافعه الانتهازية الى ذلك .

كانت اهم المسائل النظرية المدرجة على جدول الاعمال هي مسألة الملكية العامة للارض ومسألة حق الارث . وكانت المسألة الاولى قد حسمت بالفعل في مؤتمر بروكسل ، وفي هذا المؤتمر تم الانتهاء من بحثها باختصار . وقرر المؤتمر باغلبية اربعة وخمسين صوتا ان من حق المجتمع اقامة ملكية عامة للارض ، كما قرر باغلبية ثلاثة وخمسين صوتا ان هذا الاجراء من صالح المجتمع ككل . اما الاقلية فقد امتنعت في الغالب عن التصويت ، وصوت ثمانية مندوبين ضد القرار الثاني ، بينما صوّت اربعة ضد القرار الاول . ولكن عددا كبيرا من الآراء المختلفة ظهر حول الاجراءات العملية لوضع القرارين موضع التنفيذ ، وفي النهاية ترك للمؤتمر القادم في باريس امر بحث المسألة بحثا شاملا .

اما في مسألة حق الارث ، فكان المجلس العام قد وضع تقريرا حول المسألة يلخص اهم النقاط ببضع كلمات بالطريقة المعهودة الرائعة التي يتسم بها اسلوب ماركس . فقوانين الارث ، مثلها في ذلك مثل كل التشريعات البورجوازية ، ليست السبب بل هي النتيجة ، انها النتيجة القانونية للتنظيم الاقتصادي للمجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . لم يكن حق وراثة العبيد سببا للعبودية، بل على العكس من ذلك ، كانت العبودية السبب في وجود حق وراثة العبيد . واذا ما اصبحت وسائل الانتاج ملكية عامة ، فان حق الارث سيختفي عندئذ كعامل له اهمية اجتماعية ، ذلك ان المرء حينئذ لا يستطيع ان يترك لورثته غير ما امتلكه في حياته . ولذا فان الهدف العظيم للطبقة العاملة هو الغاء تلك المؤسسات التي تسمح لبضعة افراد بامتلاك ثمار عمل الكثيرين . ومن هنا فان المطالبة بالغاء قوانين الارث على اعتبار ان ذلك هو نقطة البداية في الثورة الاجتماعية سخيف سخف المطالبة بالغاء قوانين التعاقد بين الباعة والمشترين ما دام نظام تبادل السلع الراهن قائما. ان حق الارث لا يمكن ان يحول الا في فترة انتقالية ، عندما لا تكون الاسس الاقتصادية الراهنة للمجتمع قد تحولت بعد ، بينما تكون الطبقة العاملة من جهة اخرى قد امتلكت من القوة ما يكفي لاتخاذ اجراءات تمهيدية تهيىء لتحويل كامل للمجتمع . وأوصى المجلس العام بأن يكون من بين الاجراءات الانتقالية هذه رفع ضرائب الوفاة والحد من حقوق الوراثة بالوصية ، تلك الحقوق التي تتميز عن الارث العائلي بأنها تضخم مبادىء الملكية الخاصة بطريقة خرافية واعتباطية .

غير ان اللجنة التي احيل عليها بحث المسألة اقترحت المطالبة بالغاء حق الارث على اساس ان ذلك واحد من المطالب الاساسية للطبقة العاملة ، على الرغم من ان اللجنة لم تستطع ان تدعم اقتراحها بغير بضعة جمل ايديولوجية عن «الامتيازات» و«العدالة السياسية والاقتصادية» و«النظام الاجتماعي» . وفي المناقشة الموجزة التي تبعت ذلك ، تكلم ايكاريوس والمندوب البلجيكي دي بيب والمندوب الفرنسي فارلان الى جانب تقرير المجلس العام ، بينما تحدث باكونين الى جانب اقتراح اللجنة الذي كان

في الواقع اباه الروحي . اوصى باكونين بتبني اقتراح اللجنة لاسباب زعم انهـا عملية ، بينما كانت في الحقيقة اسبابا وهمية . وقال ان من المستحيل اقامة الملكية العادلة دون ان يسبق ذلك الغاء حق الارث . ذلك انه اذا ما حاول المرء انتزاع الارض من الفلاحين فانهم سيقاومون ، ولكنهم لن يشعروا ان الغاء حق الارث موجه ضدهم ، وهكذا تندثر الملكية الخاصة بالتدريج . وعندما اخذت الاصوات تبين ان هناك ٣٢ صوتا الى جانب اقتراح اللجنة و٣٢ صوتا ضده و١٣ ممتنعين عـن التصويت و٧ مندوبين غائبين . اما تقرير المجلس العام فقد حصل على ١٩ صوتا، وصوت ضده ٣٧ ، وامتنع عن التصويت ٦ وتغيب ١٣ . وهكذا لم يحرز اي من التقرير او الاقتراح اغلبية واضحة ، ولم تتمخض المناقشة عن نتيجة حاسمة .

كان لمؤتمر بازل اصداء واسعة في العالمين البورجوازي والبروليتاري معا ، اكثر من اي مؤتمر سبقه . فقد لاحظ اكثر ممثلي البورجوازية ثقافة ، بنفس يشوبها الهلع من جهة والرضى الحقود من جهة اخرى ، ان الطابع الشيوعي للاممية قـد انكشف في نهاية الامر ، اما في العالم البروليتاري فقد استقبل القرار المحبـذ للملكية العامة للارض بفرح غامر . ففي جنيف اصدر فرع الاممية الناطق بالالمانية بيانا الى السكان المزارعين ترجم الى الفرنسية والايطالية والاسبانية والبولنديـة والروسية ووزع على نطاق واسع . وفي برشلونة ونابولي تأسست اول فـروع للعمال الزراعيين تابعة للاممية . وفي لندن ، تشكلت «رابطة الارض والعمل» في اجتماع جماهيري حاشد تحت شعار «الارض للشعب !» ، وكان عشرة من اعضاء المجلس العام اعضاء كذلك في لجنة الرابطة .

اما في المانيا ، فقد استشاط السادة المحترمون في حزب الشعب الالماني غضبا لقرارات مؤتمر بازل ، وفي البداية سمح ليبكنشت لنفسه ان ينصاع لتهديداتهم، حتى انه اصدر بيانا بما معناه ان جناح ايزناخ غير ملزم بقرارات المؤتمر . ولكن لحسن الحظ ، لم يقنع قادة حزب الشعب الغاضبون بذلك ، بل طالبوا بشجب قرارات المؤتمر علنا ، وعندئذ وفي النهاية قطع ليبكنشت كل علاقاته معهم ، مقدما على خطوة كان ماركس وانغلز قد حضاه على القيام بها منذ امد طويل .

٥ ـ العفو الايرلندي والاستفتاء العام الفرنسي

كان شتاء ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ فترة تخللتها آلام جسدية عصفت بجسد ماركس ، ولكنه على الاقل تخلص من متاعبه المالية الدائمة . ففي ٣٠ حزيران ١٨٦٩ تخلص انغلز في النهاية من «عمله الملعون» . وكان قبل ذلك بستة اشهر قد سأل ماركس عما اذا كان يستطيع العيش بثلاثمائة وخمسين جنيها في السنة . فقد كان انغلز يريد ان يصفي اعماله مع شريكه بحيث يؤمن هذا المبلغ لماركس مدة خمس او ست سنوات . ولا تدل المراسلات بين الصديقين على الكيفية التي سوي بها الامر في النهاية ، لكن انغلز على اية حال استطاع انهاء متاعب ماركس المالية لا لمدة خمس او ست سنوات وحسب بل حتى وفاته .

شغل كل من ماركس وانغلز نفسه خلال هذه الفترة بالمسألة الايرلندية . فقام انغلز بدراسات تاريخية مستفيضة لتطور الحركة ، ولكن ثمار هذه الدراسة لم تنشر قط لسوء الحظ . بينما حث ماركس المجلس العام على دعم الحركة الايرلندية التي طالبت بعفو عام عن الفينيانيين الذين كانوا يعاملون معاملة وحشية في السجون . فعبر المجلس العام عن اعجابه بالطريقة الصلبة الشجاعة التي قاتل بها الشعب الايرلندي من اجل حقوقه ، وشجب غلادستون الذي رفض رغم كل وعوده الانتخابية منح عفو عام ، او اشترط لمنح هذا العفو شروطا تشكل اهانة لضحايا سوء الحكم الانجليزي وللشعب الايرلندي .

وأنب المجلس رئيس الوزراء تأنيبا قاسيا لتبشيره بعقيدة الخضوع للشعب الانجليزي ، بعد ان كان هو بالذات قد عبر رغم منصبه الرسمي عن موافقته الحماسية على الثورة ضد ملاك العبيد الاميركيين ، واعلن المجلس ان موقف رئيس الوزراء بصدد العفو الايرلندي انما هو نتيجة اكيدة «لسياسة الغزو» التي كان شجب غلادستون الصارخ لها سببا في اقصاء منافسيه المحافظين عن الحكم . وفي رسالة بعث بها ماركس الى كوغلمان ، اعلن انه يهاجم الان غلادستون ، كما كان قد هاجم من قبل بالمرستون ، واضاف «ان اللاجئين الديمقراطيين هنا يحبون الهجوم على الطغاة في القارة الاوروبية من مسافة آمنة . اما انا فأحب ان اهاجم عندما استطيع رؤية عدوي وجها لوجه» .

وسر ماركس على وجه الخصوص لان ابنته الكبرى احرزت نجاحا مرموقا في الحملة الايرلندية . فقد ظلت الصحافة الانجليزية صامتة بعناد حول الفظاعات البربرية التي كانت ترتكب ضد المساجين الفينيانيين ، ولذا قامت ييني ماركس بارسال العديد من المقالات الى صحيفة «مارسيلييز» الفرنسية تحت اسم مستعار هو ويليامز ، وكان والدها قد استخدم هذا الاسم من قبل في الخمسينات . وفي هذه المقالات وصفت ييني ماركس بحرارة كيف كانت انجلترا الديمقراطية تعامل سجناءها السياسيين . فكان نشر مثل هذه المقالات في صحيفة ربما كانت اوسع الصحف في القارة الاوروبية انتشارا اكثر مما يستطيع غلادستون تحمله ، وبعد ذلك ببضعة اسابيع كان معظم السجناء الفينيانيين احرارا وفي طريقهم الى اميركا.

كانت «مارسيلييز» قد اكتسبت شهرة اوروبية نتيجة لهجومها المقذع على بونابرت المزيف ، الذي كان حكمه في ذلك الوقت على شفير الانهيار . وفي بداية عام ١٨٧٠ قام بونابرت بمحاولة يائسة اخيرة لانقاذ نظامه الدموي الرث بالقيام بتنازلات للبورجوازية ، فعين الليبرالي اوليفييه رئيسا للوزراء . فعل اوليفييه كل ما في وسعه بواسطة ما يسمى بالاصلاحات ، ولكن بونابرت طلب ان تحصل هذه «الاصلاحات» على البركة البونابرتية النموذجية عن طريق الاستفتاء . وكان اوليفييه اضعف من ان يرفض ، فاصدر اوامره للحكام الاداريين بأن يفعلوا كل ما من شأنه ان ينجح الاستفتاء . ولكن الشرطة البونابرتية كانت تعرف اكثر من الليبرالي المهذار كيف يضمن نجاح الاستفتاءات ، فاكتشفت عشية الاستفتاء مؤامرة مزعومة حاكها اعضاء الاممية لقتل بونابرت . فكان من جبن اوليفييه ان خضع للشرطة ، خاصة

وان الاجراء كان موجها ضد العمال ، فقامت الشرطة ليلا بمفاجأة «قادة» الاممية في كل انحاء فرنسا والقت القبض عليهم .

لم يضع المجلس العام اي وقت لتفادي الضربة ، فنشر في ٣ ايار احتجاجا يقول : «ان انظمتنا الاساسية تجعل من واجب كل فروع منظمتنا العمل علانية ، وحتى لو لم تكن الانظمة الاساسية واضحة حول هذه النقطة ، فان طابع منظمة تتمثل بالطبقة العاملة يستثني اية امكانية لان تتخذ منظمة كهذه شكل جمعية سرية. واذا كانت الطبقة العاملة ، التي تشكل اغلبية اية امة من الامم والتي تنتج كل الثروات والتي يحكم باسمها كل المغتصبين ، اذا كانت هذه الطبقة تتآمر فانها تفعل ذلك علانية كما تتآمر الشمس على الظلام ، وبوعي كامل لحقيقة انه ما من قوة مشروعة توجد خارج مدارها .. ان الاجراءات العنيفة الصاخبة التي اتخذت بحق فروعنا في فرنسا انما قصد بها غرض واحد وحيد هو التأثير على الاستفتاء» . كانت هذه هي الحقيقة الناصعة البسيطة ، لكن الوسائل الحقيرة خدمت مرة اخرى الاغراض الحقيرة ، وتم التبشير «بالامبراطورية الليبرالية» بسبعة ملايين صوت ضد مليون ونصف .

غير ان السلطات اضطرت بعد ذلك الى التخلي عن كذبة المؤامرة . فاعلنت الشرطة انها وجدت في حوزة احد اعضاء الاممية قاموسا بمثابة الشيفرة ، ولكن كل ما استطاعت ان تفسره من هذه الشيفرة كان اسما او اثنين مثل نابليون ونيتروغليسيرين ، وكان هذا اكثر مما يمكن ان يطلب حتى من محكمة بونابرتية ابتلاعه . ولذا تقلصت التهمة الى الجنحة ذاتها التي اتهم بها اعضاء الاممية الفرنسية مرتين من قبل : عضوية جمعية سرية غير مشروعة .

وبعد دفاع رائع قام به هذه المرة الحداد شاتين ، الذي اصبح فيما بعد عضوا في عامية باريس ، صدر الحكم في ٩ تموز وكانت العقوبة القصوى السجن سنة واحدة وفقدان كل الحقوق المدنية مدة سنة ، ولكن في الوقت ذاته عصفت العاصفة التي اطاحت بالامبراطورية الثانية .

الفصل الرابع عشر

أفول الاممية

١ ـ سيدان

كتب الكثير عن موقف ماركس وانغلز من الحرب الفرنسية ـ البروسية ، على الرغم من قلة ما يمكن ان يكتب فعلا بهذا الخصوص . فهما بعكس مولتكه لم يعتبرا الحرب تدبيرا الهيا ، بل اعتبراها تدبيرا شيطانيا يلازم المجتمع الطبقي ولا ينفصل عنه خصوصا اذا كان مجتمعا راسماليا .

وهما كمؤرخين لم يتبنيا ، بالطبع ، موقفا لاتاريخيا يقول بان الحرب هي الحرب وان الحروب جميعها بالقدر ذاته من السوء . بل كانا يعتقدان ان لكل حرب اسبابها ونتائجها المحددة الخاصة بها ، التي يجب على الطبقة العاملة ان تستند اليها في الموقف الذي تتخذه تجاهها . وكان ذلك ايضا هو موقف لاسال ، الذي اختلفا معه عام ١٨٥٩ حول الشروط الفعلية التي تقرر الحرب ، في حين اتخذ الثلاثة موقفا واحدا تجاهها ، فقد كانوا جميعا يهدفون الى استغلال الحرب على اكمل وجه بما يخدم النضال البروليتاري من اجل الانعتاق .

كانت هذه الاعتبارات هي ذاتها التي حددت موقف ماركس وانغلز من حرب ١٨٦٦ . فبعد فشل الثورة الالمانية عام ١٨٤٨ في تحقيق وحدة قومية ، سعت حكومة بروسيا الى استغلال حركة الوحدة الالمانية (التي كان التطور الاقتصادي يعمل على بعثها المرة تلو الاخرى) لمصالحها الخاصة باقامة بروسيا موسعة ، على حد تعبير القيصر العجوز فيلهلم ، بدلا من المانيا موحدة . وكان ماركس وانغلز ولاسال وشفايتزر وليبكنشت وببل متفقين تماما على ان الوحدة الالمانية ، التي تحتاجها البروليتاريا الالمانية كمرحلة اولية في نضالها من اجل الانعتاق ، لا يمكن ان تتحقق الا عبر ثورة قومية ، ولذا وقفوا بشدة في وجه جميع النزعات العائلية الضيقة التي اتسمت بها سياسة اقامة بروسيا الكبرى . غير انهم جميعا اضطروا

بعد ان تقرر الامر في كونيغراتز الى ادراك الحقيقة المرة في اوقات مختلفة ، كل بقدر ما كان يتوفر له من رؤية للشروط الفعلية . فقد اصبح واضحا ان الثورة القومية لم تعد ممكنة بسبب جبن البرجوازية وضعف البروليتاريا ، كما اصبح واضحا كذلك أن بروسيا الكبرى القائمة على «الدم والحديد» اضحت توفر لنضال البروليتاريا الطبقي ظروفا افضل مما توفره عودة المجلس الجرماني الهزيل . تلك العودة التي اصبحت مستحيلة على اي حال .

كان هذا ما توصل اليه ماركس وانغلز على الفور ، وكذلك شفايتزر كخليفة للاسال ، فقبلوا جميعا رابطة شمال المانيا الكسيحة الجوفاء لكونها توفر لنضال الطبقة العاملة قاعدة امتن من سوء ادارة المجلس الجرماني ، رغم ان قبولهم هذا كان يفتقر الى الحماسة ، بل حتى الى الرضى . اما ليبكنشت وبيبل فقد حافظا على نظرتهما الثورية الالمانية ـ الكبرى ، وظلا حتى بعد عام ١٨٦٦ يعملان على تحطيم رابطة شمال المانيا .

اصبح موقف ماركس وانغلز ، بعد القرار الذي توصلا اليه عام ١٨٦٦ ، تجاه حرب ١٨٧٠ مستقرا الى حد ما . فهما لم يطرحا اية آراء حول الاحداث المباشرة التي ادت الى الحرب ، سواء فيما يتعلق بترشيح بسمارك لامير من آل هوهنزلرن لعرش اسبانيا ضد مطامح بونابرت ، او بالنسبة لسياسة بونابرت في عقد تحالف فرنسي ـ نمسوي ـ ايطالي ضد بسمارك . وعلى اية حال ، كان من الصعب جدا في ذلك الوقت اصدار حكم معقول على اي من الطرفين . ولكـــن بقدر ما كانت سياسة بونابرت العسكرية موجهة ضد الوحدة القومية الالمانية ، سلم ماركس وانغلز بأن المانيا كانت في موقف دفاعي .

وفي بيان صدر عن المجلس العام للاممية في ٢٣ تموز ، اعطى ماركس الذي أعد البيان أسبابا تفصيلية لهذا الموقف . فاعلن ان مؤامرة حرب ١٨٧٠ لم تكن اكثر من نسخة منقحة عن انقلاب ١٨٥١ ، ولكنها دقت ناقوس موت الامبراطورية الثانية، التي كان لا بد ان تنتهي كما بدات : كمهزلة . ومهما يكن من امر فان على المرء ان لا ينسى ان الطبقات الحاكمة والحكومات الاوروبية هي التي مكنت بونابرت من تمثيل مهزلة الامبراطورية المستعادة اثماني عشرة سنة . لقد كانت الحرب حربا دفاعية بقدر ما يتعلق الامر بالمانيا . ولكن من الذي دفع المانيا الى هذا الوضع ، ومن الذي مكن لوي بونابرت من شن الحرب عليها ؟ بروسيا ، فقبل كونيغراتز اســـم ينشىء بسمارك المانيا موحدة مقابل فرنسا مستعبدة ، ولكنه توج كل غدر النظام القديم بكل حيل الامبراطورية الثانية ، مما مكن النظام البونابرتي من ان يزدهر على ضفتي الراين . اي نتيجة ، اذن ، كان يمكن ان ينتج عن هذا غير الحرب ؟ «واذا ما سمحت الطبقة العاملة الالمانية للحربالحالية ان تفقد طابعها الدفاعي وتتحول الى حرب ضد الشعب الفرنسي ، فان نتيجتها ستكون قاتلة ، يستوي في ذلك النصر مع الهزيمة . اذ سيعود من جديد كل البؤس الذي عانت منه المانيا بسبب ما يسمى بحروب الاستقلال ، ولكن بشكل افظع هذه المرة» . ثم اشار البيان الى انالتظاهرات التي قام بها العمال الالمان والفرنسيون جعلت الخشية من الوصول الى نتيجة محزنة

كهذه امرا لا ضرورة له ، واعادت الى ذاكرة العمال ان شبح روسيا الشرير يقف في خلفية الاقتتال الانتحاري متربصا ، وأن كل صنوف العطف التي يمكن للالمان ان يطلبوها كحق لهم في نضالهم الدفاعي ضد الهجوم البونابرتي سوف تتبخر في الهواء ، اذا هم سمحوا لحكومة بروسيا ان تطلب او حتى تقبل مساعدة القوزاق .

في ٢١ تموز ، اي قبل صدور البيان بيومين ، صوت رايشتاغ شمال المانيا على اعتماد للحرب قدره ١٢٠ مليون ثالر . وصوت ممثلو اللاساليين لصالح الاعتماد ، تمشيا مع سياستهم التي درجوا عليها منذ عام ١٨٦٦ . بينما امتنع ممثلو الايزناخيين ، ليبكنشت وبيبل ، عن التصويت ، لان التصويت لصالح الاعتماد كان بمثابة منح الثقة للحكومة البروسية التي غرست بذور الحرب الحاضرة بموقفها الذي اتخذته عام ١٨٦٦ ، في حين ان التصويت ضد الاعتماد يمكن ان يفسر بانه تعبير عن الموافقة على سياسة بونابرت الاجرامية الشريرة . لقد نظر ليبكنشت وبيبل الى الحرب نظرة اخلاقية بالدرجة الاولى ، وقد أوضح ليبكنشت ذلك لاحقا في كتابه عن حملة ايمز ، كما اوضحه بيبل في مذكراته .

قوبل موقف ليبكنشت وبيبل بمعارضة حادة من جانب جناحهما ، وعلى الاخص من لجنة برونزويك التي كانت بمثابة قيادته . فامتناعهما عن التصويت لم يكن ، في حقيقة الامر ، سياسة عملية قدر ما كان احتجاجا اخلاقيا لا يتمشى مع المتطلبات السياسية للوضع ، بغض النظر عن اي تبرير للموقف بحد ذاته . واذا كان بمقدور المرء في الحياة الخاصة ان يخاطب خصمين بقوله : انا ارفض ان ادخل في نزاعكما ، لان كلا منكما على خطأ ، فان ذلك مستحيل في حياة الدول حيث يؤدي نزاع الملوك الى ويلات الشعوب . وقد تكشفت النتائج العملية لمثل هذا الحياد المستحيل بالموقف الغامض واللامنطقي الذي اتخذته صحيفة «فولكسشتات»الناطقة بلسان جناح ايزناخ في ليبزيغ في الاسابيع الاولى للحرب ، اذ احتدم النزاع نتيجة لذلك بين هيئة التحرير ، اي ليبكنشت ، وبين لجنة برونزويك التي وجهت نداء الى ماركس تطلب منه النصح والتأييد .

في ٢٠ تموز ، فور نشوب الحرب وقبل امتناع ليبكنشت وبيبل عن التصويت، كتب ماركس الى انغلز منتقدا «الشوفينية الجمهورية» في فرنسا بحدة قائلا : «حقا يحتاج الفرنسيون الى هزيمة . ذلك انه اذا انتصر البروسيون ، فسيكون تمركز سلطة الدولة في صالح تمركز الطبقة العاملة . لان الثقل الالماني اذ ذاك سوف يحول مركز حركة الطبقة العاملة من فرنسا الى المانيا . ويكفي ان يقارن المرء حركة عام ١٨٦٦ في كلا البلدين ليدرك ان الطبقة العاملة الالمانية متقدمة نظريا وعمليا على الطبقة العاملة الفرنسية . وفي الوقت ذاته ، فان تفوق الالمان على الفرنسيين في الميدان العالمي سيعني ايضا تفوق نظريتنا على نظرية برودون ، الخ» . وعندما تسلم ماركس نداء لجنة برونزويك اتصل بانغلز ، يسأله النصح ، كما كان يفعل دائما في المسائل الهامة . وكما حدث عام ١٨٦٦ ، كان انغلز هو الذي قرر تفاصيل التكتيك الذي تم تبنيه .

كتب انغلز ، في رسالته الجوابية بتاريخ ١٥ آب يقول : «يبدو الوضع لي كما

يلي : لقد ارغم بونابرت المانيا على دخول الحرب دفاعا عن وجودها القومي . واذا انهزمت المانيا ، فان البونابرتية ستظل قوية سنين عدة ، وستظل المانيا ضعيفة مفككة سنوات طويلة وربما اجيالا . وفي مثل هذه الظروف ، لا يمكن ان تكون هناك حركة عمالية المانية مستقلة . فحينئذ سيمتص النضال لتحقيق وحدة قومية كل الطاقات ، وفي احسن الاحوال سيكون العمال الالمان تحت رحمة الفرنسيين. اما اذا انتصرت المانيا فستتحطم البونابرتية وتنتهي في الوقت ذاته المشاحنات الازلية حول اقامة الوحدة الالمانية ، وعندئذ سيكون بمقدور العمال الالمان ان ينظموا انفسهم على قاعدة اوسع مما سبق ، وفي الوقت ذاته سيتمتع العمال الفرنسيون بقدر من حرية الحركة اعظم بكثير مما كان لهم في عهد البونابرتية مهما كانت هوية الحكومة التي ستخلفها . لقد ادركت الجماهير الالمانية الواسعة بكل طبقاتها ان وجود المانيا القومي اصبح مهددا بالخطر ، ولذلك هبت جميعها على الفور لتأدية واجبها . واعتقد ان من المستحيل في هذه الظروف ان يدعو حزب سياسي الماني الى عرقلة التشريعات البرلمانية عرقلة تامة على طريقة فيلهلم (ليبكنشت) ، واضعا كل صنوف الاعتبارات الثانوية فوق المسألة الاساسية » .

وادان انغلز بعنف ، مثل ماركس ، الشوفينية الفرنسية التي اصبح اثرها ملموسا بعمق حتى في صفوف مختلف الفئات الجمهورية : «لم يكن باستطاعة بونابرت على الاطلاق ان يبدأ هذه الحرب لولا شوفينية الجماهير الفرنسية ، شوفينية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة والفلاحين وبروليتاريا البناء التي خلقها بونابرت في المدن الكبيرة ، والتي يتحدر افرادها اساسا من اصول فلاحية . ان السلام بين فرنسا والمانيا سيظل مستحيلا ما لم تسحق هذه الشوفينية سحقا كاملا . ربما كان المرء يتوقع في الماضي ان تتكفل ثورة بروليتارية بمثل هذا العمل، اما الان وقد بدات الحرب ، فلم يعد أمام الالمان بديل غير ان يقوموا هم انفسهم بهذه المهمة وفي الحال » .

كانت «الاعتبارات الثانوية» ، اي القول بان الحرب قد أعدها بسمارك وشركاه وأن الانتصار الالماني من شأنه ان يضفي عظمة على نظام بسمارك ، ناجمة عن هزال البورجوازية الالمانية . لقد كان الامر كريها كله ، ولكن لم يكن بالامكان فعل شيء حياله : «أما ان ترتفع مناهضة البسماركية بسبب ذلك لتصبح مبدءا هاديا فأمر غير معقول . اولا لان بسمارك يؤدي قسطا من عملنا ، تماما كما حدث عام ١٨٦٦ . انه يقوم بذلك على طريقته الخاصة ودون رغبة منه ، ولكنه مع ذلك يفعله . انه يؤمن لنا مجالا أرحب مما كان لدينا من قبل . ثم اننا لم نعد نعيش في عام ١٨١٥ ، اذ يتحتم الان على الالمان الجنوبيين ان يدخلوا الرايشتاغ ، فبدخولهم تصبح هناك قوة مضادة لبروسيا ... وعلى اية حال ، فان رغبة ليبكنشت في ان يعيد مجرى التاريخ الى عام ١٨٦٦ ، لان ما حدث بعد ذلك لا يعجبه ، مجرد هراء . ولكننا بذلك نتعرف الى نموذج المانيا الجنوبيين» .

ويعود انغلز في الرسالة مرة اخرى لسياسة ليبكنشت : «ان حجة فيلهلم مضحكة ، فهو يقول انه ما دام بسمارك قد تواطأ مرة مع بونابرت ، فالموقف السليم

اذن هو الحياد . ولو ساد هذاالراي المانيا لتوجب علينا ان نبعث رابطة الراين من جديد ، وعندئذ سينهمك فيلهلم النبيل في البحث عن دور يلعبه فيها ، هذا بغض النظر عن حركة الطبقة العاملة . ان الخرقة المناسبة لتفصيل ثورة اجتماعية في مثل دويلات فيلهلم المحببة هذه هي شعب لم يعتد الا على تلقي الضربات والركلات ! ومن البديهي ان فيلهلم يعتمد على انتصار بونابرت ليصفي حسابه مع بسمارك . الا تذكر كيف كان يهدده دوما بالفرنسيين . وبالطبع فانت تقف الى جانب فيلهلم» . اضاف انغلز عبارته الاخيرة هذه متهكما ، اذ كان ليبكنشت قد صرح بان ماركس يتفق معه ومع بيبل في امتناعهما عن التصويت على اعتماد الحرب .

اعترف ماركس بانه عبر عن موافقته على «بيان» ليبكنشت . فقد حدث ذلك في «لحظة» تعتبر فيها اثارة الاعتراضات من اجل المبادىء «عمل شجاعة» ، ولكن يجب ان لا يستنتج من ذلك ان هذه اللحظة ستستمر ، او ان موقف البروليتاريا في حرب اصبحت حربا وطنية يمكن ان يتلخص بكراهية ليبكنشت لبروسيا . لقد كان لدى ماركس سببا وجيها للاشارة الى «البيان» وليس الى الامتناع عن التصويت ذاته . ففي حين وقف اللاساليون مع جوقة الاكثرية البورجوازية يصوتون الى جانب اعتمادات الحرب دون ان يؤكدوا موقفهم الاشتراكي بشكل ما ، اصدر ليبكنشت وبيبل بيانا اوضحا فيه اسباب امتناعهما عن التصويت . ولم يكتفيا بايراد اسباب موقفهما فحسب ، ولكنهما «كجمهوريين اشتراكيين وكعضوين في الاممية التي ناضلت ضد جميع المضطهدين ايا كانت جنسيتهم وسعت لتوحيد المضطهَدين في تحالف اخوي» اضافا احتجاجا مبدئيا ضد الحرب وضد كل حروب الاسر المالكة ، وعبرا عن الامل في ان تتعظ شعوب اوروبا من تجاربها الحالية المدمرة ، لتفعل كل ما باستطاعتها لانتزاع حقها في تقرير المصير والتخلص من العسكرية القائمة ومن الحكم الطبقي الذي يقف وراء جميع شرور الدول وجميع المآسي الاجتماعية . وبالطبع ، كان ماركس راضيا تماما عن هذا «البيان» الذي رفع علم الاممية بكل تحد ووضوح لاول مرة في التاريخ وفي برلمان اوروبي وفي قضية ذات اهمية تاريخية على المستوى العالمي .

ان اختيار ماركس للكلمات هو الذي يبين ان موافقته كانت تنحصر في البيان فقط . فالامتناع عن التصويت لم يكن بحد ذاته «اعتراضا في سبيل المبادىء» بقدر ما كان مساومة . ففي الواقع كان ليبكنشت يعتزم التصويت ضد الاعتماد ، غير ان بيبل أقنعه بتغيير موقفه والامتناع عن التصويت . اكثر من ذلك، لم يكن الامتناع عن التصويت ، كما بينت صحيفة «فولكسشتات» في مختلف اعدادها ، عملا يحدد سياستهما فيما يتعلق بتلك «اللحظة» فقط . واخيرا فان ذلك لم يكن «عمل شجاعة» بمعنى انه كان يتضمن بحد ذاته تبريره الخاص به . ولو ان ماركس استخدم تعبير «عمل شجاعة» بهذا المعنى ، لتوجب عليه ان يوجه قدرا اكبر من المديح الى تيير الذي وقف في البرلمان الفرنسي يهاجم الحرب بعنف ، على الرغم من أن مماليك الامبراطورية الثانية ثاروا عليه واغرقوه بأقذع الشتائم ، او كان عليه أن يمتدح الديمقراطيين البورجوازيين اتباع فافر ــ جريفي الذين لم يمتنعوا عن التصويت

فحسب بل رفضوا صراحة منح الاعتمادات ، هذا مع العلم أن عاصفة الحماسة الوطنية لم تكن في باريس أقل عنفا مما كان عليه في برلين .

يمكن تلخيص الاستنتاج الذي توصل اليه انفلز ، عبر تقديره للوضع ، بصدد سياسة الطبقة العاملة الالمانية كما يلي : ان تنضم للحركة الوطنية طالما اقتصرت هذه على الدفاع عن المانيا (وذلك لا يستثني في ظروف معينة شن حملة هجومية حتى يتم توقيع السلام) ، وان تؤكد على الفرق بين المصالح الوطنية الالمانية وبين مصالح الاسرة البروسية المالكة ، وأن تعارض أي اقتطاع للالزاس واللورين ، وأن تتعاون فورا مع اية حكومة جمهورية تخلف الحكومة الشوفينية في باريس من اجل تحقيق سلام مشرف ، وان تؤكد دوما على وحدة مصالح العمال الفرنسيين والالمان ، الذين لم يؤيدوا الحرب والذين لم يكونوا يقاتلون بعضهم بعضا .

أعلن ماركس انه يتفق تماما مع هذا التحديد ، وضمن ذلك رده الذي بعث به الى لجنة برونزويك .

٢ ـ بعد سيدان

كان الوضع قد تغير تماما قبل ان يكون بمقدور لجنة برونزويك الاستفادة عمليا من النصيحة التي بعث بها ماركس من لندن . فقد وقعت معركة سيدان ، وأخذ بونابرت اسير حرب ، وتحطمت الامبراطورية الثانية ، واعلنت في باريس جمهورية بورجوازية ونصب نواب العاصمة الفرنسية السابقون انفسهم على رأس الجمهورية معلنين من انفسهم « حكومة دفاع وطني » .

ومن هنا كفت الحرب عن ان تكون حرب دفاع وطني فيما يتعلق بالالمان . فلقد كان ملك بروسيا ، بوصفه زعيم الجامعة الالمانية الشمالية يكرر بوقار انه لا يخوض الحرب ضد الشعب الفرنسي بل ضد حكومة الامبراطور الفرنسي ، كما ان الحكام الجدد في باريس اعلنوا عن استعدادهم لدفع اي مبلغ من المال تعويضا عن الخسائر الالمانية. ومع ذلك طالب بسمارك فرنسا بتقديم تنازلات اقليمية واستمر في الحرب مستهدفا الاستيلاء على الالزاس واللورين ، متجاهلا انه بذلك يحول ادعاء المانيا بأنها تخوض حربا دفاعية الى مهزلة .

اصبح بسمارك يسير على خطى نابليون بعمله هذا وبترتيبه استفتاء كان الهدف منه تحرير ملك بروسيا من تعهداته الوقور . فحتى عشية سيدان ، اصدر « ذوو الشأن » من مختلف الاصناف بيانات عامة موجهة الى الملك تطالب « بحدود آمنة ». فأحدثت « الارادة الاجماعية للشعب الالماني » هذه في نفس السيد العجوز اثرا بالغا جعله يكتب الى اسرته في السادس من ايلول قائلا: «ان البيوتات الحاكمة ستجازف بعروشها اذا هي قاومت مثل هذه المشاعر » ، وفي ١٤ أيلول اعلنت صحيفة « بروفنشال كروسبوندنز » شبه الرسمية بأنه « مطلب ساذج وغير معقول » ذلك الذي يقول ان على زعيم الجامعة الشمالية الالمانية الالتزام بتعهدات أطلقها علنا وبملء ارادته ! ولكي تدعم السلطات « الارادة الاجماعية للشعب الالماني » لجأت الى

سحق كل معارضة وبدون رحمة. ففي الخامس من ايلول ، اصدرت لجنة برونزويك نداء يدعو الطبقة العاملة للتظاهر من أجل سلام مشرف مع الجمهورية الفرنسية وضد ضم الالزاس واللورين ، وتضمن النداء فقرات من الرسالة التي كان ماركس قد ارسلها الى اللجنة . فما كان من السلطات العسكرية الا أن قامت في التاسع من ايلول باعتقال الذين وقعوا على النداء واقتادتهم مقيدين بالاغلال الى قلعة لوتزن . كذلك اودع جوهان جاكوبي المكان ذاته سجينا لانه احتج اثناء اجتماع عقد في كونيفسبرغ على ضم اراض فرنسية ، وطرح رأيا مهرطقا اذ قال : « منذ ايام كنا نخوض حربا دفاعية ، حربا مقدسة من اجل وطننا الحبيب ، اما اليوم فقد اضحت حربا من اجل الغزو ، حربا لتحقيق هيمنة الجنس الجرماني على اوروبا » . وفي الوقت ذاته تعاظمت موجة من القمع والمصادرة والتفتيش والاعتقال لتكمل حكم الارهاب العسكري الذي كان يهدف الى جعل « الارادة الاجماعية للشعب الالماني » فوق كل الشكوك .

وفي اليوم الذي تم فيه اعتقال اعضاء لجنة برونزويك ، أصدر المجلس العام للاممية ثانية بيانا أعده ماركس وساهم فيه انغلز حول الوضع الجديد . واشار المجلس في بيانه الى السرعة التي تحققت بها نبوءته بأن الحرب سوف تدق ناقوس موت الامبراطورية الثانية ، والى السرعة التي تأكدت بها شكوكه حول المدى الذي ستظل فيه هذه الحرب حربا دفاعية بالنسبة لالمانيا . لقد قررت الزمرة العسكرية البروسية أن تخوض حربا غازية . ولكن كيف تسنى لها أن تحل ملك بروسيا من تعهداته الوقور فيما يتعلق بالحرب الدفاعية ؟ « كان على الايدي القابضة على زمام الامور أن تظهره وكأنه انما ينصاع لمطلب عام تقف وراءه الامة الالمانية باسرها ، وعلى الفور اعطت الاشارة للطبقة الوسطى الليبرالية الالمانية باساتذتها ورأسمالييها وسياسييها ورجال صحافتها . الطبقة الوسطى ذاتها التي اظهرت ما لا مثيل له من التردد والعجز والجبن اثناء النضال من أجل الحرية المدنية في الفترة ما بين ١٨٤٦ و ١٨٧٠ ، هذه الطبقة ابتهجت ايما ابتهاج بالفرصة التي تمكنها من الظهور على المسرح الاوروبي في دور أسد الوطنية الالمانية المزمجر . لقد قبلت أن تظهر بمظهر المستقل كي تدعي أنها تضغط على الحكومة البروسية لقبول شيء ما ــ لقبول ماذا ؟ لقبول الخطط السرية للحكومة البروسية لا اكثر ولا اقل . لقد كفرت عن ايمانها الطويل ، الذي كاد يكون ايمانا دينيا ، ببونابرت بأن رفعت عقيرتها مطالبة بتجزئة الجمهورية الفرنسية » .

وبعد ذلك فند البيان « الاعذار المقبولة ظاهريا » التي قدمها « هؤلاء الوطنيون الاشداء » لضم الالزاس واللورين . فهم لم يجرأوا على الادعاء بأن اهالي هاتين المقاطعتين يتحرقون شوقا الى احضان المانيا ، ولكنهم اشاروا الى ان المنطقة التي تقوم عليها هاتان المقاطعتان كانت في الزمن الغابر جزءا من الامبراطورية الالمانية المندثرة . « فاذا كانت خريطة اوروبا سيعاد تخطيطها طبقا للحقوق التاريخية القديمة لتوجب علينا ان لا ننسى ان حاكم مقاطعة براندنبرغ الان كان في احدى الفترات تابعا للجمهورية البولندية بقدر ما كان الامر يتعلق بممتلكاته البروسية » .

وأضاف البيان أن « الكثيرين من ذوي العقول الضيقة » ضللوا بالقول أن « الوطنيين الدهاة » طالبوا بالالزاس واللورين « كضمانة مادية » ضد أي هجوم فرنسي في المستقبل . ثم أوضح البيان بموضوعة علمية عسكرية ، كانت مساهمة انغلز فيه ، ان المانيا لم تكن بحاجة الى هذه التقوية في حدودها ضد فرنسا كما بينت ذلك بوضوح تجربة الحرب الحالية : « اذا كانت الحملة الحالية قد برهنت شيئا ، فانها برهنت سهولة مهاجمة فرنسا من جهة المانيا » . ولكن الم يكن جعل الاعتبارات العسكرية أساسا لتحديد الحدود الوطنية سخافة ومفارقة ؟ « ففي حال اقرار مثل هذا المبدأ سيكون للنمسا الحق في امتلاك مقاطعة البندقية وخط مينشيو ، كما سيكون من حق فرنسا المطالبة بالراين حماية لباريس التي هي بالتأكيد أكثر عرضة للهجوم عليها من الشمال الغربي أكثر مما هي برلين عرضة له من الجنوب الغربي. واذا ما اصبحت الحدود الوطنية محكومة للاعتبارات العسكرية، فلن تكون هناك نهاية للمطالب العديدة التي ستنشأ تباعا ، لان أي وضع عسكري سيجد نفسه بالضرورة يعاني من ضعف في مكان ما تمكن تقويته بالاستيلاء على المزيد من الاراضي . واخيرا فان حدودا توضع بهذه الطريقة لن تكون نهائية ابدا لسبب بسيط هو انها ستكون دوما حدودا يفرضها المنتصرون على المقهورين ، ولذا فانها ستحمل في احشائها بذور حروب جديدة » .

واعاد البيان الى الاذهان « الضمانات المادية » التي كان نابليون قد حصل عليها في صلح تلست . ومع ذلك لم تمض سوى سنوات قلائل حتى انهارت قوته الجبارة كخشبة نخرة امام هجمة الشعب الالماني . « وما هي الضمانات التي يمكن لبروسيا أن تفرضها او تتجرأ على فرضها على فرنسا حتى في أكثر احلامها تطرفا قياسا بتلك الضمانات التي كان نابليون قد فرضها على بروسيا ؟ ان النتيجة لن تكون أقل شؤما هذه المرة » .

اعلن المتحدثون باسم الوطنية الالمانية أن على المرء أن لا يخلط بين الالمان والفرنسيين . فالالمان ارادوا الامن ولم يسعوا وراء مجد عسكري لانهم شعب محب للسلام بطبيعته . فأجاب البيان ساخرا : « لم تكن المانيا ، بالطبع ، هي التي غزت فرنسا عام ١٧٩٢ لهدف نبيل هو تحطيم ثورة القرن الثامن عشر بالحراب . ألم تكن المانيا هي التي اطخت يديها باخضاع ايطاليا وقهر هنغاريا وتجزئة بولندا ؟ ان نظام بروسيا العسكري الحالي الذي يقسم كل ذكور الامة البالغين اللائقين جسديا قسمين ــ جيش يحمل السلاح وآخر يقضي اجازته ــ يتميز كل منهما بالطاعة العمياء لاوامر الحاكم بأمر الله ، ان نظاما عسكريا كهذا يشكل بالطبع «ضمانة مادية» للسلام العالمي ، بل ولاسمى اهداف المدنية ايضا ! وفي المانيا ، كما في كل الدول الاخرى ، يعمل عملاء السلطة على تسميم الرأي العام باثارته واطرائه بالمدائح الكاذبة . انهم يستشيطون غضبا عند رؤيتهم للتحصينات الفرنسية حول ميتزوستراسبورغ ــ هؤلاء الوطنيون الالمان ــ ولكنهم لا يرون ضررا في التحصينات الروسية الهائلة حول وارسو ومودلين وايفانغو رود . انهم يرتعدون لمجرد التفكير بهجوم بونابرتي ، بينما يغمضون أعينهم عن فضيحة الحماية القيصرية » .

ثم أعلن البيان مكملا هذه السلسلة من الافكار أن ضم الالزاس واللورين سيدفع الجمهورية الفرنسية الى الارتماء في احضان القيصرية. فهل كان دعاة الجرمانية يعتقدون فعلا أن هذا سيؤمن اية ضمانة لسلام المانيا وحريتها ؟« واذا ما انخدعت المانيا بغنائم الحرب وتيه النصر ومكائد الاسرة المالكة واستولت على اراض فرنسية فلن يبقى امامها سوى طريقين : اما أن تستسلم لكونها الاداة الطيعة للتغلغل الروسي مهما تكن النتيجة ، او انه سيتوجب عليها أن تعد نفسها ، بعد ان تلتقط انفاسها ، لحرب « دفاعية » جديدة ، حرب ليست من طراز الحروب « المحلية » بل حرب عنصرية ضد القوى الموحدة للشعوب السلافية واللاتينية ــ الحديثة » .

ان الطبقه العاملة الالمانية ، التي لم تكن تستطيع ان تحول دون الحرب ، أيدت هذه الحرب بكل قوة على انها حرب في سبيل الاستقلال الالماني ومن اجل خلاص المانيا واوروبا من نير الامبراطورية الثانية الثقيل . « لقد كان العمال الصناعيون والزراعيون الالمان هم الذين شكلوا العمود الفقري للجيوش البطولية ، مخلفين وراءهم عائلاتهم تتضور جوعا » . وبعد الهلاك الذي لحق بهم في ميدان القتال كان عليهم أن يواجهوا الهلاك من جديد ، يلحق بهم البؤس والشقاء في بيوتهم . ولقد طالبوا ، بعد هذا كله ، بضمانات تكفل لهم أن لا تذهب التضحيات الجسام التي قدموها سدى ، طالبوا بالحصول على حريتهم ، وبأن لا تتحول الانتصارات التي احرزوها على جيوش بونابرت الى هزيمة للشعب كما حدث عام ١٨١٥ . وعلى راس الضمانات التي ارادوا كان مطلب « السلام المشرف مع فرنسا » و « الاعتراف بالجمهورية الفرنسية » . وأشار البيان الى النداء الذي أصدرته لجنة برونزويك قائلا انه لا يمكن لسوء الحظ التحدث عن أي نجاح مباشر احرزه هذا النداء ، الا أن التاريخ مع ذلك لا بد ان يذكر أن الطبقة العاملة الالمانية لم تكن من الطينة المطواعة ذاتها التي جبلت عليها الطبقة الوسطى الالمانية . لقد قامت الطبقة العاملة بواجبها .

وبعد ذلك ، وجه البيان اهتمامه الى الجانب الفرنسي ، فبين أن الجمهورية لم تقم بقلب العرش ، ولكنها احتلت المقعد الشاغر فحسب ، وانها لم تعلن على انها انجاز اجتماعي بل على انها اجراء للدفاع الوطني . كانت الجمهورية بيد حكومة مؤقتة تتألف من عناصر سيئة الصيت من آل اورليان ومن عناصر جمهورية بورجوازية بينها عدد أصيب بوصمة عار لا تمحى بسبب موقفه من انتفاضة تموز عام ١٨٤٨ .ولم يكن توزيع الحقائب الوزارية يبشر بالخير . فقد حصل الاورليانيون على المراكز الاقوى ــ الجيش والبوليس ــ بينما تسلم الجمهوريون المزعومون المراكز التي لا تتطلب سوى الكلام . كما أن الاعمال الاولى التي قامت بها الحكومة الجديدة برهنت:انها لم ترث عن الامبراطورية الثانية أكوام حطام فحسب ، بل ورثت عنها أيضا خشيتها من الطبقة العاملة .

« وهكذا تجد الطبقة العاملة الفرنسية نفسها في وضع صعب للغاية . فأي محاولة للاطاحة بالحكومة الجديدة والعدو يتربص على الابواب لن تكون سوى حماقة يائسة . ان على العمال الفرنسيين أن يقوموا بواجبهم كمواطنين صالحين ، ولكنهم يجب أن لا يجعلوا من انفسهم فريسة لذكريات عام ١٧٩٢ الوطنية مثلما خدع

الفلاحون الفرنسيون بالذكريات الوطنية للامبراطورية الاولى . ان عليهم أن لا يكرروا الماضي بل أن يبنوا المستقبل . فليستخدموا بهدوء وتصميم الوسائل التي توفرها لهم الحرية في ظل الجمهورية كي ينظموا صفوف طبقتهم على أكمل وجه . ولسوف يؤمن لهم ذلك قوة جبارة لاحياء فرنسا ، ولمهمتنا المشتركة الا وهي تحرير البروليتاريا . ان مصير الجمهورية يتوقف على قوتهم وعلى حكمتهم » .

كان لهذا البيان صدى عميق في اوساط العمال الفرنسيين ، فتخلوا عن مقارعة الحكومة المؤقتة وقاموا بواجبهم كمواطنين صالحين ، خاصة بروليتاريا باريس التي انتظمت في الحرس الوطني ولعبت دورا بارزا في الدفاع البطولي عن العاصمة الفرنسية ، ولكنها لم تجعل ذكريات عام ١٧٩٢ الوطنيه تعمي بصيرتها ، بل عملت بحماسة شديدة على تنظيم نفسها كطبقة . وكذلك اثبت العمال الالمان انهم ليسوا أقل قدرة على القيام بمهمتهم . فبرغم التهديد والاضطهاد ، وقف اللاساليون والايزناخيون يطالبون بعقد سلام مشرف مع الجمهورية الفرنسية . ولما اجتمع رايشتاغ شمال المانيا في كانون الاول ليصوت على اعتمادات جديدة للحرب ، وقف الممثلون البرلمانيون للجماعتين بحزم وصوتوا ضد اية اعتمادات جديدة ، وقد قاد ليبكنشت وبيبل بوجه خاص هذا النضال بحماسة متفجرة وشجاعة متحدية ، ولهذا السبب وحده يعزى الفضل في ذلك اليهما بصورة رئيسية ، وليس بسبب امتناعهما عن التصويت في تموز كما تردد الاسطورة الشائعة . وعند انتهاء دورة الرايشتاغ وجهت الى كل منهما تهمة الخيانة العظمى .

خلال الشتاء ، أصبح ماركس مثقلا باعباء العمل من جديد . ففي آب ارسله الاطباء الى الساحل ، ولكن بردا قارسا « أوقعه طريح الفراش » ، وفي نهاية الشهر عاد الى لندن دون ان يطرأ على صحته أي تحسن . ومع ذلك ، كان عليه أن يقوم بجميع المراسلات الدولية للمجلس العام للاممية ، اذ كان العدد الاكبر ممن يقومون بهذه المراسلات قد ذهب الى باريس . وفي رسالة بعث بها الى صديقه كوغلمان في ١٤ ايلول ، شكى ماركس من أنه لا يستطيع أن يأوي الى فراشه قبل الثالثة صباحا، ولكنه عبر عن أمله في الحصول على بعض الراحة في المستقبل لان انغلز اصبح يقيم الآن في لندن بصورة دائمة .

كان ماركس يأمل بلا شك أن تتمكن الجمهورية الفرنسية من خوض مقاومة ناجحة ضد حرب الغزو البروسية . فقد كانت الاحوال في المانيا تملؤه مرارة ، وقد كتب الى كوغلمان في ١٣ كانون الاول يقول : « يبدو ان المانيا لم تلتهم بونابرت وجنرالاته وجيشه فحسب ، بل التهمت كذلك النظام الامبريالي كله ، الذي يتحرك الآن بملء حريته في بلاد البلوط والزيزفون » . ويشير ماركس في هذه الرسالة بارتياح واضح الى أن الراي العام في انجلترا ، الذي كان في البداية مغاليا في تأييده لبروسيا ، قد تحول الآن الى نقيض ذلك تماما . فعدا عن التعاطف الحاسم لجماهير الشعب مع الجمهورية « ادت الطريقة التي خاض بها الالمان الحرب ـ نظام السخرة واحراق القرى واعدام المتطوعين المدنيين الفرنسيين واحتجاز الرهائن ، وما شابه ذلك من اعمال تعيد الى الذهن حرب الثلاثين عاما ـ قد سببت سخطا

عاما . لقد فعل الانجليز ولا شك الشيء ذاته في الهند وجامايكا وغيرهما ، ولكن الفرنسيين ليسوا هندوسا ولا صينيين ولا زنوجا ، كما ان البروسيين ليسوا انجليزا مرسلين من السماء . انها لفكرة هوهنزلرنية نموذجية تلك التي تقول ان شعبا يستمر في الدفاع عن نفسه بعد أن يتحطم جيشه انما يقوم بارتكاب جريمة ». ولقد عانى فريدريك ويليام الثالث من هذه الفكرة ذاتها اثناء الحرب البروسية ضد نابليون الاول .

اعتبر ماركس تهديد بسمارك بقصف باريس « مجرد خدعة » . « ان عملا كهذا ، واستنادا الى جميع قوانين الاحتمالات ، لن يؤدي الى تأثير فعلي على باريس . فعلى فرض ان عددا من التحصينات قد دمر وان عددا من الثغرات قد فتح ـ فما نفع ذلك اذا كان المحاصرين يفوقون من يحاصرونهم عددا ؟ ان الوسيلة الوحيدة لاخضاع باريس هي تجويعها » . انها لصورة طريفة بالفعل : فهذا « الرجل الذي لا وطن له » والذي لم يدع اية معرفة علمية بالمسائل العسكرية يصف تهديد بسمارك بقصف باريس بأنه « مجرد خدعة » للسبب ذاته الذي جعل جميع الجنرالات الالمان البارزين ، باستثناء الجنرال رون ، يدينون هذه الخطة على انها « مغامرة طائشة لا يأتيها غير تلامذة كلية عسكرية » وذلك في مناقشات سرية حامية استغرقت اسابيع عدة في القيادة الالمانية العليا ، بينما جعل افراد معسكر الاساتذة ورجال الصحافة الوطنيين جميعا انفسهم العوبة بيد عملاء بسمارك الذين دفعوهم الى نوبة غضب اخلاقي ضد ملكة بروسيا وزوجة ولي العهد على اساس انهما منعتا زوجيهما البطلين المسكينين من قصف باريس ، اما لاسباب عاطفية او ربما بسبب الخيانة الوطنية .

وعندما أعلن بسمارك متحذلقا ان الحكومة الفرنسية تحول دون حرية الرأي في الصحافة والبرلمان ، اجاب ماركس في « الدايلي نيوز » يوم ١٦ كانون الثاني ١٨٧١ على « فكاهة برلين هذه » واصفا بسخرية لاذعة النظام البوليسي الذي يكمم فم المانيا . وانهى مقالته بالكلمات التالية : « ان فرنسا ، ومما يفرح أن قضيتها لم تعد معرضة للضياع ، لا تقاتل هذه اللحظة من اجل استقلالها الوطني فحسب ، بل ايضا من اجل حرية المانيا وحرية اوروبا » . ان هذه الجملة تلخص موقف ماركس وانغلز من الحرب الفرنسية ـ البروسية بعد سيدان .

٣ ـ « الحرب الاهلية في فرنسا »

استسلمت باريس في ٢٨ كانون الثاني . ونصت الاتفاقية التي عقدت بين بسمارك وجول فافر لتحديد شروط الاستسلام صراحة على احتفاظ حرس باريس الوطني بأسلحته .

اسفرت انتخابات الجمعية الوطنية عن فوز أكثرية ملكية ـ رجعية قامت بعد ذلك بانتخاب المخادع العجوز تيير رئيسا للجمهورية . وبعد تبني الجمعية الوطنية لخطوات السلام التمهيدية ـ التخلي عن الالزاس واللورين ودفع خمسة مليارات

فرنك كتعويض حربي ـ اصبح هم تيير الاول ان يجرد باريس من السلاح ، ذلك ان باريس وهي تحمل السلاح كانت بمثابة الثورة في نظر البورجوازي العريق ، تيير ، ونظر ملاك الاراضي الرجعيين .

وفي ١٨ آذار ، حاول تيير أن يستولي على بنادق الحرس الوطني باسم ادعاء كاذب هو انها ملك للدولة ، على الرغم من ان هذه البنادق كانت قد صنعت اثناء الحصار على نفقة الحرس الوطني ، وعلى الرغم من أن اتفاقية ٢٨ كانون الثاني كانت قد اعترفت بأن هذا السلاح ملك للحرس الوطني . قوبلت المحاولة بالمقاومة ، وقامت الفرق العسكرية التي اختيرت للقيام بالانقلاب بالانحياز الى الشعب . وبذلك بدأت الحرب الاهلية . ففي ٢٦ آذار انتخبت باريس العامية (الكومونة) ذات التاريخ الغني بالبطولة والتضحيات التي سطرها عمال باريس ، وكذلك بالجبن والوحشية والخسة التي اقترفتها جميعا احزاب القانون والنظام في فرساي .

وليس هناك ما يدعو الى التأكيد على الاهتمام المتحرق والتعاطف الذي كان ماركس يتتبع به تطور تلك الاحداث . ففي ١٢ نيسان كتب الى كوغلمان : « اية عزيمة صلبة وأية بادرة تاريخية وأية تضحية بالذات ، تلك التي يبديها هؤلاء الباريسيون ! فبعد ستة اشهر من الجوع والتدمير احدثتها الخيانة الداخلية اكثر مما تسبب فيها العدو الخارجي ، يثور هؤلاء وكأنه لم تكن هناك حرب بين فرنسا والمانيا، وكأن الحراب البروسية ليست موجودة، وكأن العدو لا يرابط على الابواب. ان التاريخ لا يمكن أن يقدم لهذه العظمة مثيلا ! » اما اذا هزم الباريسيون ، فسوف يكون ذلك بسبب « طبيعتهم الطيبة » . لقد كان عليهم أن يزحفوا فورا الى فرساي بعد أن رأوا الجنود والفئة الرجعية من الحرس الوطني يتركون ميدان القتال ، ولكن ضميرهم الحي جعلهم يحجمون عن اشعال الحرب الاهلية . وكأن الجهيض تيير لم يكن قد بدأها فعلا بمحاولته تجريد باريس من السلاح ! ولكن حتى لو هزم الباريسيون فان انتفاضتهم ستكون أعظم انجاز حققه حزبنا منذ ثورة حزيران . « فلتقارن هؤلاء الجبابرة مع عبيد الامبراطورية الرومانية المقدسة البروسية الالمانية، بحفلاتها التنكرية التي ما زالت قائمة حتى الآن تعج بالهواء الفاسد ينبعث من العنابر والكنائس والظلامية الريفية ، وفوق ذلك كله من الفلستية » .

عندما اشار ماركس الى عامية باريس على انها انجاز « لحزبنا » فانه كان محقا في ذلك بمعنى عام هو أن الطبقة العاملة الباريسية كانت تشكل العمود الفقري للعامية ، وبمعنى خاص هو أن الاعضاء الباريسيين في الاممية كانوا من أشجع واقدر المقاتلين من أجل العامية على الرغم من انهم كانوا ممثلين بعدد قليل في مجلسها . كانت الاممية قد أصبحت شهيرة على انها السبب في جميع متاعب البورجوازية ، فصارت الطبقات الحاكمة في كل البلدان تحملها مسؤولية جميع الاعمال التي لا ترضيها . ولذا كان طبيعيا أن تعتبر البورجوازية مكائد الاممية مسؤولة عن عامية باريس ايضا . والغريب في الامر أن احدى الصحف التابعة لشرطة باريس حاولت أن تبريء « المسؤول الاول » في الاممية من أية مسؤولية . فنشرت في ١٩ آذار رسالة زعمت أنها موجهة منه الى فصائل باريس يوبخهم فيها

لانهم يركزون اهتمامهم على المسائل السياسية ولا يعيرون المسائل الاجتماعية سوى القليل من الاهتمام . وعلى الفور بعث ماركس رسالة الى « التايمز » اللندنية واصفا هذه الوثيقة بأنها « تزييف وقح » .

كان ماركس يعرف أكثر من اي انسان آخر أن الاممية لم تكن هي التي اقامت العامية ، ولكنه منذ اللحظة الاولى أعتبرها صنو الاممية بلحمها ودمها . غير انـــه اعتبرها كذلك بالطبع على أساس أن روح برنامج ومبادىء الاممية تعتبـر جميـــع الحركات العمالية العاملة على تحرير البروليتاريا منتمية الى الاممية . فلا الاكثريـة البلانكية في مجلس العامية ، ولا الاقلية التي كانت رغم انتسابها للاممية خاضعـة كليا لافكار برودون ، يمكن اعتبارها من مؤيدي ماركس المباشرين . ولقد ظل ماركس خلال فترة العامية على اتصال بهذه الاقلية قدر ما كان الوضع يسمح بذلك ، ولكن الدلائل المتبقية على ذلك محدودة جدا لسوء الحظ .

كتب ليو فرانكل ، احد مندوبي دائرة الاشغال العامة في مجلس العاميـة ، في ٢٥ نيسان ردا على رسالة من ماركس لم يحتفظ بها ، قائلا : « سأكـون في غايـة السرور اذا ساعدتني بنصيحتك بقدر ما يمكن ، لانني في هـذه اللحظـــة مسؤول مسؤولية كاملة في الواقع عن كل الاصلاحات التي ينوى احداثها في دائرة الاشغال العامة . ان السطر او السطرين الاخيرين في رسالتك السابقة يشيران الى انـــك ستفعل كل ما يمكنك لجعل جميع الشعوب وجميع العمال ، والالمان منـهم عـــلى الاخص ، يفهمون انه ليس هناك من شيء مشترك بين عامية باريس وبين البلديات الالمانية التي أكل الدهر عليها وشرب . ولسوف تؤدي بعملك هذا خدمـة جليلـــة لقضيتنا في هذا المجال » . الا أننا لا نملك اي دليل حول ما اذا كان ماركس قـد اجاب على رسالة فرانكل او قدم له أية نصيحة .

كذلك فقدت رسالة بعث بها فرانكل وفارلان الى ماركس ، ولكن ماركس اجاب عليها في ١٣ أيار قائلا : « لقد تحدثت الى ناقل الرسالة . ولكن أليس من الافضل ان توضع مثل هذه الاوراق المعرضة للخطر من جانب انذال فرساي في مكان امين ؟ ليس هناك اي ضرر في هذه الاجراءات الاحترازية . لقد تسلمت رسالة من بوردو تقول ان اربعة من اعضاء الاممية فازوا في الانتخابات البلدية الاخيرة فيهـا . وفي المقاطعات ايضا ، بدات الامور تتحرك ، الا أن عملهم لسوء الحظ محدود وذو طبيعة مسالمة . اما بخصوص قضيتكم ، فقد كتبت مئات الرسائل الى كل مكان في العالم لنا اتصال به . وعلى أية حال فالطبقة العاملة قد ايدت العامية منذ البداية حتى أن الصحافة الانجليزية البورجوازية تخلت الآن عن عداواتها السابقة . وقـــد نجحت احيانا في تسريب مقالات مؤيدة الى صفحاتها . يبدو لي أن العامية تضيع كثيرا من الوقت في تفاصيل غير مهمة وفي نزاعات شخصية . ومن الواضح ان هناك تأثيرات اخرى غير تأثيرات البروليتاريا . الا أن ذلك كله لن يكون له اي اثر اذا استطعتم أن تعوضوا عن الوقت الضائع ». وفي النهاية اشار ماركس الى ضرورة التحرك السريع بالنظر الى ان معاهدة السلام النهائية بين المانيا وفرنسا وقعت في فرانكفورت قبل ثلاثة ايام ، مما يجعل لبسمارك الآن مصلحة تيير ذاتها في قمع العامية ، خاصة وأن

دفع التعويضات الحربية يجب أن يبدأ مع توقيع المعاهدة .

يشعر المرء ان ماركس كان متحفظا في كل نصيحة قدمها في هذه الرسالة ، ولا شك في ان كل ما كتبه الى اعضاء العامية قد صيغ باللهجة ذاتها . ولم يكن ذلك ناجما عن عدم رغبته في تحمل مسؤولية كاملة تجاه كل ما فعلته العامية وكل ما لم تفعله ، اذ انه قام بذلك فور سقوطها واعلنه على الملأ وبكل التفاصيل ، ولكن تحفظه كان يعود الى عدم ميله الى لعب دور الدكتاتور وعدم رغبته في أن يملي من بعيد ما يتوجب ان يقوم به من هم في ساحة المعركة ، فهم أقدر على رؤية ما يجب وما لا يجب أن يقوموا به .

وفي ٢٨ أيار سقط آخر المدافعين عن الاممية ، وبعد ذلك بيومين تقدم ماركس الى المجلس العام للاممية ببيان حول « الحرب الاهلية في فرنسا » كان من أروع الوثائق التي خطها قلمه ، ولا زال حتى يومنا هذا يمثل ذروة سامقة بين الكتابات الضخمة التي نشرت حول العامية . فقد كشف ماركس مرة أخرى في هذه المشكلة الصعبة المعقدة عن قدرته الخارقة على ادراك الجوهر التاريخي لموقف ما وراء القشرة الخادعة لتشوش يبدو غير قابل للحل وفي خضم مئات الاشاعات المتضاربة . وبقدر ما تعرض البيان للوقائع ــ وهو يصف في أقسامه الاول والثاني والرابع والاخير المجرى الفعلي للاحداث ــ جاء على الحقيقة في كل حادثة ، ولم يحدث أن تعرض للنقض في أية نقطة تفصيلية جاء على ذكرها .

صحيح أن البيان لا يقدم تاريخا نقديا للعامية ، الا ان ذلك لم يكن هدفه . فقد كتب للدفاع عن شرف العامية بهدف تبرئته من التشهويات التي الحقها به اعداؤها ، ولقد أدى ذلك بشكل باهر . انه لم يكتب كحكم تاريخي بل كتقييم سجالي . ومنذ ذلك الحين تعرضت نقاط ضعف واخطاء العامية لنقد عنيف من جانب الاشتراكيين كان قاسيا جدا في بعض الاحيان . اما ماركس فقد اكتفى حينذاك بالتنويه التالي :

« في كل ثورة من الثورات ، يبرز في الصفوف الاولى الى جانب الممثلين الحقيقيين للثورة جماعة تختلف بطبيعتها كليا عن هؤلاء . بعض هؤلاء من بقايا ثورات سابقة ما زالوا مشدودين اليها كليا ، فلا يستطيعون فهم الثورة الحالية ، ولكنهم بفضل ما اشتهروا به من شجاعة فائقة وشخصية رفيعة ، أو ربما بسبب التقليد فحسب يظلون يتمتعون بتأثير كبير على جماهير الشعب . والبعض الآخر مجرد ابواق ظلت سنوات عدة تردد الخطب ذاتها ضد الحكومة القائمة ، فاكتسبوا بالمظاهر الكاذبة سمعة كثوريين من الدرجة الاولى . ان مثل هؤلاء الناس ظهروا ايضا على مسرح الاحداث بعد ١٨ آذار ، بل ولعبوا دورا بارزا في بعض الحالات. ولقد عرقلوا قدر ما يستطيعون العمل الحقيقي للطبقة العاملة تماما كما اعاقوا من قبل التطور الكامل للثورات السابقة » . ثم أشار البيان الى أن هذه العناصر تمثل شرا لا يمكن تجنبه ، وكان من الممكن اسقاطها خلال فترة من الزمن الا أن هذه الفترة الضرورية لم تتوفر للعامية .

اما القسم الثالث من البيان ، الذي يتناول الطابع التاريخي للعامية ، فهو ذو أهمية خاصة . ففيه يكشف ماركس ببصيرة نافذة عن الفارق بين العامية وبين

الاشكال التاريخية السابقة التي يمكن أن تبدو شبيهة بها ـ من عاميات العصور الوسطى حتى نظام البلديات البروسي في المدن : « أن عقلية كعقلية بسمارك (ذلك الرجل الذي لو لم يكن اسير مكائده الخاصة ، لعاد بسرور الى عمله القديم كمساهم في تحرير « كلادرا اداتش » فهو أنسب لقدرته العقلية) ان عقلية كهذه فقط يمكن أن تعزو لعامية باريس أي حنين الى نظام البلديات المديني البروسي الذي يمنح الاداره المدينية ليحولها الى مجرد عجلة صغيرة في آلة الدولة البروسية ، والذي لا يمثل في الواقع غير كاريكاتور لدستور البلديات الفرنسي القديم لعام ١٧٩١ » .
وفي خضم التفسيرات المختلفة للعامية والمصالح المتعددة التي عبرت هذه التفسيرات عنها ، ادرك البيان ان العامية كانت شكلا سياسيا قابلا للاتساع بسهولة ، بينما كانت جميع الاشكال التي اتخذتها الحكومات في السابق ذات طبيعة استبدادية : « ان سرها الحقيقي يكمن في انها كانت اساسا حكومة الطبقة العاملة ، وانها كانت نتيجة للصراع بين الطبقات المنتجة والطبقات المستغلة ، والشكل السياسي النهائي الذي يمكن ان يتحرر العمل اقتصاديا في ظله » .

ولم يستطع البيان أن يدعم هذا القول ببرنامج حكومي تفصيلي للعامية ، ذلك ان العامية ذاتها لم تتطور الى هذا الحد ، فقد وجدت نفسها منذ يومها الاول وحتى يومها الاخير مرغمة على خوض نضال حياة أو موت ضد اعدائها . ولكن البيان أثبت وجهة نظره اعتمادا على السياسة العملية التي مارستها العامية ، تلك السياسة التي كانت تقوم في جوهرها على تحطيم الدولة التي لم تمثل في أكثر أشكالها عهرا (الامبراطورية الثانية) اكثر من « ورم طفيلي » في الجسم الاجتماعي يمتص قوته ويحول دونه والتطور الحر . فقد الغت العامية ، في اول مرسوم اصدرته ، الجيش النظامي واستبدلته بالشعب المسلح . كذلك جردت العامية قوات الشرطة ، التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد أداة بيد الحكومة ، من جميع وظائفها السياسية وحولتها الى أداة مسؤولة تجاه العامية . وبعد أن الغت العامية الاسلحة المادية للحكومة القديمة ، أي الجيش النظامي وقوات الشرطة ، انتقلت الى تحطيم سلاحها الروحي في القمع ، أي قوة الاكليروس (رجال الدين) . فاصدرت قرارا بحل جميع الكنائس ومصادرة املاكها بقدر ما كانت هذه هيئات لها ملكيات خاصة ، وفتحت المؤسسات العلمية امام الجميع ، وجعلت التعليم فيها مجانيا وحررتها من اي تدخل من جانب الدولة او الكنيسة . واخيرا اقتلعت العامية بيروقراطية الدولة القديمة من الجذور اذ أخضعت جميع رسميي الدولة ، بما في ذلك القضاة ، للانتخاب والعزل في اية لحظة ، وجعلت الحد الاقصى لرواتب موظفي الدولة ستة الآف فرنك .

عالج البيان هذه التفاصيل بطريقة بارعة . ولكن كان هناك بعض التناقض بين ما جاء في البيان وبين الآراء التي اعتنقها ماركس وانغلز منذ ربع قرن وطرحاها في البيان الشيوعي . فقد قالا حينذاك أن النتائج النهائية للثورة البروليتارية القادمة ستكون انحلال تلك المؤسسة السياسية المعروفة « بالدولة » ، الا أن هذا الانحلال سيتم بصورة تدريجية . واضافا أن الهدف الرئيسي لهذه المؤسسة كان على الدوام

استخدام قوة السلاح لحماية الاضطهاد الاقتصادي لاكثرية الشعب العاملة من جانب اقلية تحصر في يديها ثروة المجتمع . وبزوال هذه الاقلية الثرية ، فان الحاجة الى جهاز قمعي مسلح كالدولة ستزول أيضا . وفي الوقت ذاته اشار ماركس وانغلز الى انه كي يتحقق هذا الهدف والاهداف الاخرى الاكثر أهمية لمستقبل الثورة الاشتراكية يتوجب على الطبقة العاملة أن تقبض على القوة السياسية المنظمة للدولة وتستخدمها لسحق مقاومة الراسماليين واعادة تنظيم المجتمع . لم تكن هذه الافكار الواردة في البيان الشيوعي تتفق مع المديح الغزير الذي كاله بيان المجلس العام للطريقة العنيفة التي بدأت بها العامية ابادة الدولة الطفيلية .

كان ماركس وانغلز يدركان بالطبع هذا التناقض ، ففي مقدمة طبعة جديدة من البيان الشيوعي ، صدرت في حزيران ١٨٧٢ تحت تأثير العامية المباشر ، عدلا في افكارهما مستعينين صراحة ببيان المجلس العام معلنين انه لا يمكن للعمال أن يستولوا على آلة الدولة الجاهزة ويطوعوها لاهدافهم الخاصة . وبعد وفاة ماركس، وجد انغلز نفسه مضطرا الى خوض نضال ضد الاتجاهات الفوضوية في الحركة العمالية ، فتخلى عن هذا الموقف وعاد الى موقف يقوم على البيان الشيوعي . ليس من الصعب أن يدرك المرء أن اتباع باكونين كان لا بد أن يفسروا بيان المجلس العام بطريقتهم الخاصة . وبالفعل ، اعلن باكونين ساخرا انه على الرغم من أن العامية قد اطاحت بكل افكار ماركس فان هذا انحنى لها احتراما منتهكا بذلك كل منطق، ووجد نفسه مرغما على قبول برنامجها واهدافها على أنها برنامجه واهدافه هو . واذا كان تمرد لم يهيأ له ، بل فرض على العمال بسبب تعرضهم لهجوم شرس ، قد استطاع أن يلغي كل آلة الدولة القمعية بعدد محدود من القرارات ، أفلا يكون في ذلك تأكيد لصحه موقف باكونين الثابت ؟ لم يكن صعبا على من أرادوا تصديق ذلك أن يجدوا ما يؤيد موقفهم في البيان الذي عرض ما كان مجرد امكانية يحتمل أن تتطور العامية اليها وكأنه شيء موجود بالفعل . وعلى أية حال ، كان الاستحسان الذي بدأ تحريض باكونين يلاقيه في عام ١٨٧١ أكثر من أي وقت مضى يعود الى الانطباع القوي العميق الذي تركته عامية باريس على الطبقة العاملة الاوروبية .

انتهى البيان بالكلمات التالية : « ستظل ذكرى باريس العمال وعاميتها ماثلة الى الابد على انها الرائد العظيم لمجتمع جديد . وسيظل شهداؤها محفورين في قلب الطبقة العاملة الكبير ، اما محطموها فقد وصمهم التاريخ ، ولن تستطيع كل صلوات قساوستهم أن ترفع عنهم هذه الوصمة » . أثار البيان على الفور ضجة كبرى ، وفي رسالة الى كوغلمان أعلن ماركس : « لقد اثار البيان ضجة بالغة ، وانه ليشرفني ان أكون اللحظة أكثر انسان في لندن تعرضا للتشهير والتهديد . ان لفي ذلك ما يفيدني بعد عشرين سنة طويلة مملة قضيتها منعزلا كضفدع في مستنقع . . . حتى صحيفة الحكومة ـ الاوبزرفر ـ تهددني باقامة دعوى علي . فليجربوا ذلك ! انني ازدري هؤلاء الانذال » . وحالما هدأت سورة الغضب في ماركس ، أعلن انه صاحب البيان .

تعرض ماركس في السنوات اللاحقة للتعنيف من جهات اشتراكية ديمقراطية

على أساس انه عرض الاممية للخطر بتحميلها مسؤولية العامية ، على الرغم من انه لم يكن من واجبها تحمل اي قسط من هذه المسؤولية . وقالت هذه الجهات انه كان امرا حسنا أن يدافع عن العامية في وجه التهجمات الظالمة التي تعرضت لها ، ولكن كان يتوجب على ماركس ان يعترض على عيوبها واخطائها . وعلى اية حال ، لم تنشر هذه الآراء على نطاق واسع ، وكان ممكنا ان يكون التاكتيك المقترح مناسبا « لسياسي » ليبرالي ، ولكن ليس لماركس ، لا لشيء الا لانه كان ماركس . اذ لم يكن يخطر بباله قط ان يعرض مستقبل قضيته للخطر اعتمادا على امل خادع قد يمكنه من تقليل الاخطار التي تتهدد هذه القضية في الوقت الراهن .

٤ ـ الاممية وعامية باريس

واجهت الاممية عالما من الاعداء بتبنيها تركة العامية دون ان تقوم قبل ذلك بتنقيب مخلفاتها .

كان أقل هذه العداوات اهمية تلك التهجمات الافترائية التي غمرتها بها الصحافة البورجوازية في مختلف البلدان . بل على العكس ، اكتسبت الاممية نتيجة هذه التهجمات ، بشكل ما ولدرجة معينة ، سلاحا دعاويا ، اذ كان بامكان مجلسها العام أن يرد علانية وبذلك ضمنت الاممية لنفسها فرصة طرح وجهة نظرها في الصحافة الانجليزية .

اما المشكلة الكبيرة التي واجهتها الاممية فقد نجمت عن ضرورة تقديم المساعدة للعدد الكبير من اعضاء العامية الذي فر الى بلجيكا وسويسرا وخاصة الى الذين فروا الى لندن . فقد وجدت الاممية ، بسبب اوضاعها المالية المتردية ، صعوبة كبيرة في جمع الاموال اللازمة لمساعدة هؤلاء ، وتطلب ذلك بذل جهود مضاعفة ، فكان عليها عدة اشهر أن تكرس معظم وقتها وطاقتها لهذه المشكلة على حساب اعمالها الاعتيادية التي كانت الحاجة اليها تزداد الحاحا ، خاصة وان جميع الحكومات تقريبا بدأت الآن تعبىء قواها ضدها .

ومع ذلك لم تكن حرب الحكومات هذه ضد الاممية هي المشكلة الرئيسية التي واجهتها، فعلى الرغم من أن الحملة ضد الاممية تعاظمت في مختلف الاقطار بدرجات متفاوتة ، الا أن محاولات توحيد الحكومات للقيام بحملة قمعية مشتركة ضد البروليتارية الواعية فشلت في الحال . جاءت اولى هذه المحاولات من الحكومة الفرنسية في ٦ حزيران ١٨٧١ في تعميم اصدره جول فافر ، ولكن هذه الوثيقة كانت غبية وكاذبة لدرجة لم تترك معها سوى القليل من الاثر على الحكومات الاخرى، حتى على بسمارك ، الذي كان يتلهف على سماع اي اقتراح رجعي خاصة اذا كان موجها ضد الطبقة العاملة ، بعد أن اهتز جنون عظمته بسبب التأييد الذي منحته الاشتراكية الديمقراطية الالمانية ، بجناحيها اللاسالي والايزناخي ، للعامية .

وبعد فترة وجيزة ، قامت الحكومة الاسبانية بمحاولة ثانية لتوحيد الحكومات الاوروبية ضد الاممية ، فأصدر وزير خارجيتها تعميما الى الحكومات جميعا أعلن

فيه انه لا يكفي ان تقوم كل حكومة على حدة باتخاذ الاجراءات القاسية الضرورية ضد الاممية وفصائلها في بلدانها ، بل يجب على الحكومات جميعا ان تتوحد لاستئصال الشر . وكان يمكن لهذه الحجة أن تلاقي نجاحا كبيرا لولا أن الحكومة البريطانية دحضتها على الفور . فقد اجاب اللورد غرانفيل بأن الاممية « في هذه البلاد » قصرت نشاطها على تقديم النصح والمشورة في الاضرابات ، وهي لا تملك سوى اموال محدودة جدا لدعم اضرابات كهذه ، اما الخطط الثورية التي تشكل جزءا من برنامجها فهي تمثل اعضاءها الاجانب أكثر مما تمثل العمال البريطانيين ، الذين يوجهون نشاطهم بصورة اساسية الى مسائل الاجور . ومن ناحية أخرى فان الاجانب في انجلترا يتمتعون بحماية القوانين في البلاد تماما مثلما يتمتع بها المواطنون البريطانيون. ولسوف يتعرض هؤلاء للعقاب حال انتهاكهم للقوانين وقيامهم بنشاطات حربية ضد اية دولة تقيم معها بريطانيا العظمى علاقات صداقة ، اما في الوقت الحاضر فلا داعي لاتخاذ اجراءات خاصة ضد الاجانب في الاراضي البريطانية . جعل هذا الرفض المعقول لطلب غير معقول الصحيفة شبه الناطقة باسم بسمارك تعلن مزمجرة أن اية اجراءات تتخذ ضد الاممية ستبقى دون اثر طالما بقيت الاراضي البريطانية تشكل ملجأ يمكن أن يكون مصدر ازعاج لباقي الدول الاوروبية في ظل الحصانة التي يضمنها القانون البريطاني .

ومع ان اعداء الاممية لم ينجحوا في تنظيم حملة صليبية من مختلف الحكومات ضدها ، الا أن الاممية نفسها لم تنجح في تنظيم مقاومة صلبة ضد الاضطهادات التي كانت تلحق بفصائلها في مختلف انحاء القارة الاوروبية . وكان هذا هو مصدر قلقها الرئيسي ، واصبح الامر أكثر خطورة عندما بدات الاممية تشعر ان الارض تهتز من تحت قدميها في البلدان التي كانت الطبقة العاملة فيها تعتبر حصن الاممية المتين : انجلترا وفرنسا والمانيا ، حيث التطور الصناعي الواسع متقدم الى درجة كبيرة وحيث يتمتع العمال بحقوق دستورية الى هذا الحد او ذاك . وكانت أهمية هذه البلدان بالنسبة للاممية تنعكس على تركيب مجلسها العام الذي كان يضم عشرين بريطانيا وخمسة عشر فرنسيا وسبعة المان مقابل ممثلين اثنين عن كل من سويسرا وهنغاريا وممثل واحد عن كل من بلجيكا وبولندا وايرلندا والدنمارك وايطاليا .

ادت الحرب ضد فرنسا الى ركود مؤقت في حركة الطبقة العاملة الالمانية . وكان لكل من الجناحين اللاسالي والايزناخي من القضايا الخاصة ما يشغله عن الالتفات الى الاممية . ومع ان كلا الجناحين أعلن انه يعارض ضم الالزاس واللورين ويؤيد عامية باريس ، الا أن جناح ايزناخ ، الذي اعترف المجلس العام به وحده كفصيل من فصائل الاممية ، برز في الطليعة فتعرض لمضايقات السلطة واتهاماتها له بالخيانة العظمى وما شابه ذلك اكثر بكثير مما تعرض له جناح لاسال . وكان بيبل ، على حد قول بسمارك ، هو الذي اثار شكوك هذا الاخير بالخطاب الناري الذي القاه في الرايشتاغ معلنا تضامن الاشتراكية الديمقراطية الالمانية مع عاميي باريس . وقد دفع ذلك بسمارك الى توجيه المزيد من الضربات العنيفة الى حركة الطبقة العاملة

الالمانية . وعلى اية حال ، كان العنصر الحاسم في موقف، جناح ايزناخ من الاممية هو ان هذا الجناح أصبح ، منذ أن شكل من نفسه حزبا مستقلا على أساس وطني ، اكثر غربة وابتعادا عن الاممية .

اما في فرنسا ، فقد جعل تيير وفافر الجمعية الوطنية الملكية الرجعية تتبنى قانونا استثنائيا وحشيا ضد الاممية ادى الى شل الطبقة العاملة الفرنسية ، التي كانت قواها قد انهكت بالمجازر الدموية المخيفة التي ارتكبها قصر فرساي . أكثر من ذلك ، ذهب حماة القانون والنظام هؤلاء ، تحت وطأة شهوتهم المجنونة للثأر ، الى حد الطلب من سويسرا وحتى من انجلترا تسليم من فروا من العاميين كمجرمين عاديين ، وكادت محاولتهم تنجح بالفعل مع سويسرا . وفي ظل هذه الظروف ، انقطعت صلات المجلس العام للاممية بفرنسا بشكل كامل ، ولكي تؤمن الاممية تمثيل العمال الفرنسيين في مجلسها العام اختارت عددا من العاميين الفارين (كان عدد من هؤلاء عضوا في الاممية وعدد آخر امتاز بنشاطه الثوري أبان العامية) وذلك بهدف تكريم العامية . كانت هذه فكرة حسنة بحد ذاتها ، ولكنها أدت الى اضعاف المجلس العام بدلا من ان تعضده ، فقد قاسى العاميون الفارون المصير المحتم لكل المهاجرين واستنفدوا قواهم بالمنازعات الداخلية . وكان على ماركس الآن ان يواجه مع المهاجرين الفرنسيين المصاعب والمتاعب ذاتها التي كان قد خبرها مع المهاجرين الالمان قبل ذلك بعشرين عاما . كان ماركس بالتأكيد آخر رجل يطلب اي ثناء على ما يعتبره هو في كل الاحوال واجبا يترتب عليه أن يؤديه ، ولكن مشاحنات الفرنسيين الفارين المستمرة جعلته في تشرين الثاني عام ١٨٧١ يتنهد بأسف : « وهذا جزائي لانني صرفت من اجلهم خمسة اشهر من وقتي وذدت عن شرفهم في البيان ! » .

واخيرا فقدت الاممية التأييد الذي كانت تحظى به من العمال الانجليز . وكان اول ما كشف النقاب عن هذا الشقاق استقالة قائدين بارزين في الحركة النقابية من المجلس العام بسبب البيان حول الحرب الاهلية في فرنسا . كان هذان القائدان هما لوكرافت واودغر اللذين ظلا محتفظين بعضوية المجلس منذ انشائه ، بل ان اودغر كان رئيسا للمجلس طيلة وجوده فيه . وادى ذلك الى ظهور الخرافة القائلة بان النقابات الانجليزية افترقت عن الاممية بسبب موقفها المعارض ادبيا لدفاع الاممية عن عامية باريس . الا ان بذرة الحقيقة في هذه الخرافة لا تمثل على الاطلاق كل الحقيقة او جلها ، فقد كان للشقاق اسباب أعمق واكثر اهمية .

كان تحالف الاممية مع نقابات العمال منذ البداية «زواج مصلحة» ، فقد كان كل من الطرفين بحاجة الى الاخر ، الا ان ايا منهما لم يربط نفسه بالاخر في السراء والضراء وحتى الموت . لقد كان ماركس حاذقا لدرجة استطاع معها ان يصيغ برنامجا مشتركا في البيان الافتتاحي والنظام الداخلي للاممية ، ومع ان النقابات قبلت بهذا البرنامج الا انها لم تطبق منه الا ما كان ملائما لغرضها . ولا شك في ان اللورد غرانفيل كان مصيبا في وصفه للعلاقات بين النقابات الانجليزية والاممية في رسالته الجوابية الى الحكومة الاسبانية . فقد كانت هذه النقابات تهدف الى تحسين شروط العمل على اساس المجتمع الراسمالي ، وهي لم تحتقر في سعيها

لهذا الهدف النضال السياسي ، ولكنها لم تسترشد في اختيارها لحلفائها واسلحتها بأية اعتبارات اساسية ما لم تخدم هذه الاعتبارات هدفها الحقيقي مباشرة .

سرعان ما وجد ماركس نفسه مرغما على الاعتراف بان هذه الفردية الانانية المميزة للنقابات والتي تمتد جذورها عميقا في تاريخ وطبيعة البروليتاريا الانجليزية لا يمكن كسرها بسهولة . لقد كانت النقابات بحاجة الى الاممية لكي تحصل على اقرار «مشروع قانون الاصلاح» ، وعندما تحقق لها ذلك بدأت في مغازلة الاحرار لانها لا تستطيع دون مساعدتهم الفوز بمقاعد في البرلمان . وحتى في عام ١٨٦٨ ، اشتكى ماركس من هؤلاء «المتآمرين» ، وذكر اودغر ، الذي رشح نفسه لانتخابات البرلمان ، في عدادهم . وفي مناسبة اخرى برر ماركس وجود عدد من مؤيدي العصبوي الايرلندي برونتير اوبريان في المجلس العام بالكلمات المعبرة التالية : «ان هؤلاء الاوبريانيين ، على الرغم من حماقاتهم ، يمثلون قوة مضادة (ضرورية في الغالب) للنقابيين في المجلس العام . انهم اكثر ثورية واكثر تحديدا في موقفهم تجاه مسألة الارض واقل قومية وليسوا عرضة للفساد باي شكل من الاشكال ، ولولا ذلك لطردوا منذ فترة طويلة» . وعارض ماركس الاقتراح الذي طرح مرة اخرى لاقامة مجلس فيدرالي لانجلترا ، منطلقا في ذلك على الارجح من الاعتبارات ذاتها التي اعطيت في التعميم الصادر عن المجلس العام في ٢١ كانون الثاني عام ١٨٧٠ ، وهي ان الانجليز تنقصهم الحماسة الثورية والقدرة على التعميم ، بحيث ان مجلسا فيدراليا كهذا سيصبح اداة بيد الاعضاء الراديكاليين في البرلمان .

وبعد انفصال قادة الطبقة العاملة الانجليزية عن الاممية ، اتهمهم ماركس بانهم باعوا انفسهم لوزارة الاحرار . وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لبعضهم ، الا انه لا ينطبق عليهم جميعا حتى لو افترض المرء ان «للفساد» اشكالا اخرى غير تلقي الاموال نقدا . فقد كان ابليغارث يتمتع كزعيم نقابي بسمعة جيدة لا تقل عن سمعة اودغر واوكرافت ، وكان مجلسا البرلمان يعتبرانه الممثل الرسمي للنقابية . وعلى اثر مؤتمر الاممية في بازل ، خضع ابليغارث لاستجواب رعاته البرلمانيين له حول موقفه من قرارات المؤتمر الخاصة بالملكية العامة للارض .. الخ ، ولكنه رفض ان يخضع لتهديدهم المبطن . وفي عام ١٨٧٠ عين عضوا في اللجنة الملكية التي شكلت بموجب «مرسوم الامراض المعدية» ، فكان اول عامل يطلق عليه صاحب الجلالة لقب «موضع ثقتنا وحبنا» ، ومع ذلك وقع بيان المجلس العام حول الحرب الاهلية في فرنسا ، وظل عضوا في المجلس حتى النهاية .

يبين موقف ابليغارث ، الذي كان شخصه فوق اي شبهة ، الاسباب الحقيقية لانفصال قادة النقابات . فقد كان الهدف المباشر للنقابات ينحصر في ضمان حماية قانونية لها ولاحوالها . وبدا في ربيع عام ١٨٧١ ان هذا الهدف قد تحقق عندما تقدمت الحكومة بمشروع قانون يعطي اية نقابة حق تسجيل نفسها كجمعية مصادق عليها ، ومن ثم تحصل على حماية قانونية لاموالها شريطة ان لا تتعارض انظمتها الاساسية مع القانون . ولكن الحكومة سرعان ما استردت بيد ما اعطته باليد الاخرى ، فقد تضمن القانون فقرة مطولة الغت بصورة خاصة حق الانتظام ، وذلك

بتأكيدها على العبارات القديمة المطاطة التي تهدف الى حظر الاضراب عبر تحريم «العنف» و«التهديد» و«التخويف» و«المضايقة» و«عرقلة العمل» الخ . ولم يكن ذلك في الواقع سوى قانون استثنائي ضد النقابات ، فبموجبه اصبح اي عمل تقوم به هي او يقوم به اي كان تعزيزا لقضيتها خاضعا للعقاب ، في حين يعتبر هذا العمل ذاته مشروعا اذا قامت به هيئات اخرى . وقد اعلن مؤرخو النقابية البريطانية بكل تهذيب وتحفظ : «لم يكن هناك من فائدة ترجى في الاعلان عن شرعية الجمعيات المهنية ما دام قانون العقوبات قد وسع ليشمل الوسائل السلمية المعتادة التي تلجأ اليها هذه الجمعيات لتحقيق اغراضها» .

هكذا اعترف بشرعية النقابات لاول مرة وحصلت على الحماية القانونية ، ولكن في الوقت ذاته جرى تثبيت جميع التدابير القانونية ضد العمل النقابي بوضوح بل وبشكل اقوى من ذي قبل .

وبالطبع رفضت النقابات ورفض قادتها هذه الهبة المسمومة ، الا ان احتجاجاتهم لم تفلح الا في اقناع الحكومة بتقسيم القانون الى قسمين منفصلين : قانون يعترف بالوجود الشرعي لنقابات العمال ، وقانون معدل لقانون العقوبات يتضمن كل البنود المضادة لنشاط النقابات . لم يكن ذلك نجاحا حقيقيا بالطبع ، بل كان مجرد فخ نصب لقادة النقابات الذين سقطوا فيه بالفعل لان اهتمامهم بأموال النقابات كان اكبر من ولائهم للمبادىء النقابية . فقاموا جميعا ، وعلى رأسهم ابليغارث ، بتسجيل منظماتهم بموجب القانون الجديد . وفي ايلول عام ١٨٧١ ، قام مؤتمر المهن الموحدة، وهو الهيئة الممثلة «للنقابية الجديدة» والذي شكل فيما مضى حلقة الوصل بين الاممية والنقابات ، بحل نفسه بصورة رسمية «لانه انجز الواجبـــات التي اقيم مـــن اجلها » .

وبسبب شعور قادة النقابات بانهم يقتربون تدريجيا من مكانة الطبقة الوسطى، اصبحوا ينظرون الى الاضرابات على انها اكثر الوسائل التي تلجأ اليها النقابـــات بدائية ، ومن ثم لم يكن من الصعب عليهم ان يرضوا ضمائرهم . ففي اوائل عـــام ١٨٦٧ ، اعلن احدهم في شهادة ادلى بها امام لجنة ملكية ان الاضرابات اهدار محض لاموال وقدرات العمال واصحاب العمل على حد سواء . ولذا عندما قامت فـــي عام ١٨٧١ حركة قوية من اجل تحديد يوم العمل بتسع ساعات وانتشرت في انحاء البلاد ، بذل قادة النقابات اقصى جهدهم لكبح جماح العمال الذين كانوا يغلـــون غضبا على قانون العقوبات الجديد المعدل الموجه ضد نشاطات النقابات . بدأت هذه الحركة في اول نيسان باضراب عمال الهندسة في صندرلاند وانتشرت بسرعة حتى بلغت أوجها باضراب نيوكاسل الذي استمر خمسة اشهر وانتهى بانتصار كامل للعمال.

كان اتحاد الهندسة والجمعية الموحدة للمهندسين معارضين بشدة لهذه الحركة الجماهيرية التي قام بها العمال ، ولذلك لم يحصل المضربون من اعضائهما على اي دعم الا بعد مضي اربعة عشر اسبوعا على اضرابهم ، وكان هذا الدعم يقتصر علـــى خمسة شلنات في الاسبوع . اما قيادة الحركة التي امتدت سريعا الى عدد مـــن المهن والصناعات الاخرى ، فكانت تنحصر في «رابطة الساعات التسع» التي كانت

قد تشكلت لهذا الغرض بقيادة قائد كفؤ جدا هو جون بيرنت .

ومن جهة اخرى ، حصلت رابطة الساعات التسع على دعم نشيط من المجلس العام للاممية الذي ارسل اثنين من اعضائه هما كوهن وايكاريوس الى بلجيكا والدنمارك ليمنعا وكلاء اصحاب العمل من استخدام عمال من هناك للعمل مكان المضربين ، وقد اديا هذه المهمة على اكمل وجه . غير ان ماركس لم يستطع ، اثناء محادثاته مع بيرنت ، ان يكتم ملاحظة ساخرة هي ان من سوء الحظ ان تظل المنظمات العمالية مترفعة عن الاممية الى ان تواجه المتاعب ، في حين ان من الاسهل بكثير اتخاذ اجراءات احترازية لو ان هذه المنظمات تتصل بالاممية في الوقت المناسب . على اية حال ، بدا في تلك الآونة وعبر تطور الاحداث وكان الجماهير ستعوض الاممية ما فقدته هذه بقادتها ، اذ انشئت فروع جديدة للاممية وتقوت الفروع القائمة . الا ان مطلب اقامة مجلس فيدرالي لانجلترا اثير من جديد وبصورة اكثر الحاحا .

وعندئذ وافق ماركس في النهاية علىما كان قد رفضه فترة طويلة. فمع سقوط عامية باريس تراجعت امكانية قيام ثورة جديدة الى الخلف ، ويبدو ان ماركس لم يعد يعلق اهمية كبرى على بقاء المجلس العام ممسكا مباشرة بعتلة الثورة . ولكن سرعان ما تأكد صدق ظنونه القديمة ، فمع اقامة المجلس الفيدرالي بدات آثار الاممية تختفي في انجلترا اسرع منها في اي بلد اخر .

٥ ـ المعارضة الباكونينية

بعد سقوط عامية باريس ، كان على الاممية ان تواجه ما يكفي من الصعوبات في المانيا وفرنسا وانجلترا ، الا ان هذه لم تكن شيئا اذا قيست بالمتاعب التي واجهتها في البلدان التي كان وجودها فيها ضعيفا . فمركز المتاعب الصغير الذي قام في سويسرا حتى قبل الحرب الفرنسية ـ البروسية انتشر الان الى ايطاليا واسبانيا وبلجيكا ودول اخرى ، وبدا ان افكار باكونين ستنتصر على افكار المجلس العام .

ولم يكن هذا التطور ناجما عن مؤامرات حاكها باكونين كما افترض المجلس العام . صحيح ان باكونين توقف في بداية عام ١٨٧١ عن متابعة ترجمة الجزء الاول من رأس المال ليتفرغ كليا للنشاطات السياسية ، الا ان هذه النشاطات لم يكن لها شأن بالاممية ، وفي النهاية ادت هذه النشاطات الى تدمير سمعته السياسية ، نتيجة لمسألة نيتشاييف الشهيرة التي لا يمكن طرحها جانبا بسهولة كما يفعل المعجبون المتحمسون لباكونين عندما يعزون اخطاءه الى «الثقة الزائدة عن الحد التي كان يمنحها نتيجة طيبته الزائدة عن الحد» .

كان نيتشاييف اذ ذاك شابا في العشرينات . وكان قد ولد قنا ، ولكنه تمكن بفضل رعاية اشخاص ليبراليين من الدخول الى معهد عال ليتدرب كمدرس . ثم انخرط في الحركة الطلابية الروسية آنذاك ، واكتسب مكانة خاصة فيها ، لا بسبب ثقافته التي كانت هزيلة ولا بسبب ذكائه الذي كان عاديا ، بل بسبب طاقته

الفياضة وكراهيته اللامتناهية للاضطهاد القيصري . وكانت اهم خصاله هي تحرزه الكامل من اية اعتبارات خلقية عندما يعتقد انه يخدم قضيته . فلم يكن يطلب شيئا لشخصه ، وكان يستغني عن كل شيء عندما يكون ذلك ضروريا ، ولكنه كان على استعداد لتجاوز كل شيء مهما كان ذلك كريها، حينما يعتقد انه يتصرف بطريقة ثورية.

ظهر نيتشايف في البداية في ربيع عام ١٨٦٩ ، وهو يطلب اعجابا مضاعفا به كسجين سياسي هرب من قلعة سان بيتر – بول ، وكمندوب للجنة ثورية ادعى انها تعد سرا للثورة في روسيا . وكان كلا الادعاءين مختلقا . فنتشايف لم يكن ابدا سجينا في قلعة سان بيتر–بول ، كما لم يكن للجنة التي ادعاها اي وجود . فقد غادر روسيا بعد اعتقال عدد من رفاقه الاقربين ليحاول ، على حد زعمه ، اقناع المهاجرين القدامى باستخدام اسمائهم وكتاباتهم لاثارة حماسة الشباب الروسي . ولقد نجح في ذلك بقدر ما يتعلق الامر بباكونين بصورة لا تصدق . فقد اعجب باكونين اعجابا عميقا بهذا «المتوحش الشاب» وهذا «النمر الشاب» (كما اعتاد ان يدعوه) ، كممثل لجيل جديد ستطيح قدرته الثورية بروسيا القيصرية . وآمن باكونين جازما «باللجنة» الى حد انه وضع نفسه دون قيد او شرط تحت اوامرها التي كانت تأتيه من نيتشايف ، واعلن فورا عن استعداده لنشر عدد من الكتابات الثورية المتطرفة بالاشتراك مع نيتشايف وارسالها عبر الحدود .

ليس هناك من شك في مسؤولية باكونين عن هذه الكتابات ، وليس مهما ايهما المسؤول ، هو او نيتشايف ، عن اكثر امثلتها سوءاً . اكثر من ذلك لم يحدث ان انكرت علاقة باكونين بالنداء الذي وجه الى ضباط الجيش القيصري يدعوهم لوضع انفسهم تحت تصرف «اللجنة» دون قيد او شرط ، كما فعل باكونين نفسه من قبل ، او علاقته بالمنشور الذي جعل من اللصوصية في روسيا مثلا اعلى ، او علاقته بذلك المنشور الذي اطلق عليه اسم «الدليل الثوري» والذي اطلق فيه باكونين العنان لشغفه بالافكار المروعة والكلمات العنيفة . ولكن لم تثبت من ناحية اخرى اية مشاركة من جانب باكونين في اعمال نيتشايف الطائشة ، فقد كان هو نفسه احدى ضحايا هذه الاعمال ، وكان ادراكه لذلك في وقت متأخر جدا هو الذي جعله يطرد «النمر الصغير» .

اتهم مجلس الاممية العام كلا من نيتشايف وباكونين بتعريض اناس ابرياء للهلاك بارسال رسائل او برقيات لهم، بطريقة تجتذب انتباه الشرطة الروسية نحوهم. وبعد هذا التعريض اعترف نيتشايف بحقيقة الامر ، فقد اعلن بكل صفاقة انه اعتاد تعمد الحاق الاذى بجميع من لا يتفقون معه كلية ، وذلك كي يدمرهم او يجبرهم على الانغماس في الحركة ، وانه كان طبقا لهذه المبادىء الكريهة يقنع البعض وهم في حالة انفعال بتوقيع بيانات تلحق الضرر بهم ، او يختلس رسائل من شأنها ان تضير اصحابها كي تمكنه في المستقبل من ممارسة ضغط ابتزازي عليهم .

وعندما عاد نيتشايف الى روسيا في خريف عام ١٨٦٩ ، لم يكن باكونين قد عرف بعد بأمر هذه الاساليب فاعطاه تفويضا ينص على انه «الممثل المعتمد» ، ليس للاممية بالطبع ، ولا حتى لتحالف الاشتراكية الديمقراطية ، وانما للتحالف الاوروبي

الثوري الذي كان باكونين «بعبقريته الخلاقة» قد اسسه كفرع للتحالف «للشؤون الروسية» . لم توجد هذه المنظمة على الارجح الا على الورق ، ولكن اسم باكونين كان كافيا كي يؤمن لتحريض نيتشاييف بعض التأييد في الوسط الطلابي . وكانت «اللجنة» الخرافية ما زالت هي وسيلة نيتشاييف الرئيسية في كسب النفوذ ، ولما بدأ احد مؤيديه الجدد ، الطالب ايفانوف ، يشك في وجود هذه السلطة السرية ، تخلص من هذا الشكاك المزعج باغتياله . وادى العثور على جثة ايفانوف الى اعتقالات واسعة ، الا ان نيتشاييف تمكن من التسلل عبر الحدود .

وفي بداية كانون الثاني عام ١٨٧٠ ، ظهر نيتشاييف مرة اخرى في جنيف وبدأت اللعبة القديمة من جديد . تقدم باكونين مدافعا بحماسة عن نيتشاييف ، معلنا ان مقتل ايفانوف جريمة سياسية وليس جريمة عادية ، وبالتالي يجب ان لا تستجيب الحكومة السويسرية لطلب الحكومة القيصرية بتسليمه . ظل نيتشاييف مختفيا في تلك الآونة ، ولم تستطع الشرطة السويسرية الاهتداء اليه . وفي هذه الاثناء احتال على حاميه باكونين حيلة قذرة ، فقد اقنعه بالتخلي عن ترجمة الجزء الاول من راس المال ، كي يكرس نفسه للدعاية الثورية ، ووعده ان يتوصل الى اتفاق مع الناشر بشأن المبلغ الذي كان هذا قد اسلفه لباكونين . اعتقد باكونين ، الذي كان يعاني ضائقة مالية حادة ، ان نيتشاييف او «اللجنة» الغامضة ستقوم بسداد مبلغ الثلاثمائة روبل . لكن نيتشاييف عمد بدلا من ذلك الى ارسال رسالة «رسمية» على ورقة تحمل اسم «اللجنة» وخاتما على شكل بلطة وخنجر ومسدس، وارسلها لا الى الناشر بل الى لوبافن ، الذي كان قد لعب دور الوسيط بين باكونين والناشر ، وفي هذه الرسالة حذر لوبافن ، تحت طائلة التهديد بالموت ، من مطالبة باكونين باعادة المبلغ . كان اول ما اتصل بعلم باكونين عن المسألة رسالة مهينة وصلته من لوبافن . وعلى الفور ارسل باكونين الى لوبافن رسالة يعترف فيها بالدين ويكرر وعده باعادة المبلغ حالما يتمكن من ذلك . واخيرا قطع علاقاته بنتشاييف ، بعد ان كان قد اكتشف عنه في هذه الاثناء اسوأ الامور ، مثل تخطيطه لمهاجمة وسرقة بريد سيمبلون .

كان لهذه السذاجة التي ابداها باكونين ، والتي لا تغتفر لزعيم سياسي ، اسوأ النتائج بالنسبة له . علم ماركس بالمسألة في تموز عام ١٨٧٠ ، ومن مصدر لا يرقى اليه الشك هو لوباتين الموثوق تماما والذي حاول عبثا خلال اقامته في جنيف ان يقنع باكونين بعدم وجود لجنة في روسيا ، وبأن نيتشاييف لم يكن ابدا سجينا في سان بيتربول وبأن خنق ايفانوف كان جريمة غبية تماما . فما كان من هذه المعلومات الا ان جعلت ماركس يعزز رأيه غير المحبذ الذي كان قد كونه عن باكونين. وبعد ان اكتشفت الحكومة الروسية حقيقة نشاطات نيتشاييف نتيجة الاعتقالات الواسعة التي قامت بها على اثر مقتل ايفانوف ، قامت باستغلال الفرصة الثمينة حتى النهاية ، فكي تسخر من الثوريين وتشهر بهم امام العالم اجمع ، عقدت لاول مرة محكمة سياسية علنية وأمام محلفين . وبدأت اجراءات الحكم في ما سمي قضية نيتشاييف في سان بطرسبرغ في تموز ١٨٧١ . وكان هناك اكثر من ثمانين

متهما معظمهم من الطلاب، حكم على معظمهم بالاشغال الشاقة مددا طويلة في سيبيريا.

اما نتشايف نفسه فقد كان لا يزال طليقا متنقلا بين سويسرا ولندن وباريس، حيث ذهب اثناء الحصار والعامية . ولم يقع في ايدي الشرطة الا في خريف عام ١٨٧٢ بعد ان وشى به احد الجواسيس . وعندئذ اصدر باكونين واصدقاؤه منشورا يدافع عن نيتشايف ويعارض تسليمه كمجرم عادي، وليس في ذلك بالطبع ما يشين باكونين . وفي النهاية سلم نيتشايف الى الحكومة القيصرية ، فقضى في السجن عشر سنوات الى ان توفي .

اندلعت الحرب الفرنسية ـ البروسية في الوقت الذي افترق فيه باكونين عن نيتشايف . وفي الحال سارت افكار باكونين في اتجاه اخر ، فاعتبر ان غزو المانيا لفرنسا سيعطي اشارة البدء للثورة الاشتراكية في فرنسا ، فالعمال الفرنسيون لا يمكن ان يظلوا مكتوفي الايدي في وجه غزو ارستقراطي وملكي وعسكري ، الا اذا كانوا يريدون لا خيانة قضيتهم الخاصة فحسب ، بل وخيانة القضية الاشتراكية ايضا ، ذلك ان انتصار المانيا سيكون انتصارا للرجعية الاوروبية . كان باكونين محقا في اعلانه ان ثورة داخلية في فرنسا لا تعني شل مقاومة الشعب الفرنسي ، وقد استعان بالتاريخ الفرنسي بشكل خاص ليثبت وجهة نظره ، ولكن اقتراحاته لحمل البونابرتيين والفلاحين الرجعيين على عمل ثوري مشترك مع عمال المدن كان خياليا الى ابعد حد : يجب على المرء ان لا يتقدم من الفلاحين بايــة بيانات او اقتراحات او اشكال تنظيمية شيوعية ، لان ذلك سيجعلهم يثورون ضد المدن ، بل يتوجب على المرء بدلا من ذلك ان يستخرج الروح الثورية من أعماق نفوسهم ـ وما الى ذلك من افكار محض خيالية .

وبعد سقوط الامبراطورية الثانية ، نشر غيلوم نداء في «سوليدارتيه» يدعــو الى تشكيل فرق مسلحة من المتطوعين تسارع الى نجدة الجمهورية الفرنسية . وكان ذلك عملا أحمق تماما ، خاصة وانه اتى من جانب رجل عارض بتعصب اي مساهمة للامية في السياسة ، ولم تؤد الدعوة الى شيء سوى السخرية . الا ان محاولة باكونين اعلان عامية ثورية في ليون في ٢٨ ايلول يجب ان لا توضع على المستوى ذاته . فعندما دعي الى ليون من قبل العناصر الثورية هناك ، كانت دار الحكومة المحلية قد احتلت ، و«آلة الدولة الادارية والحكومية قد الغيت» ، واعلن بدلا عنها «اتحاد العامية الثوري» ، وحدث ذلك كله عندما اعطت خيانة الجنرال كلسريت وجبن عدد اخر من الاشخاص ، نصرا سهلا للحرس الوطني . حث باكونين لدى وصوله على وجوب اتخاذ اجراءات حازمة وعلى وجوب اعتقال ممثلي الحكومة، ولكن عبثا . ففشلت الحركة ، وبقي باكونين عدة اسابيع في مرسيليا على امل ان تنتعش الحركة من جديد ، ولكن لما تبين ان الامل في ذلك لا يقوم على اساس ، افل عائدا في نهاية تشرين الاول الى لوكارنو .

قد يكون من المنطقي ان يترك امر الهزء بهذه المحاولة الفاشلة للرجعية ، وفي ذلك كتب احد معارضي باكونين ، الذين لم تفقدهم معارضتهم للباكونينية القدرة على تكوين حكم موضوعي ، يقول : «ارتفعت الاصوات الساخرة للأسف حتى في

الصحافة الاشتراكية الديمقراطية ، على الرغم من ان محاولة باكونين لا تستحق ذلك بالتأكيد . ان من واجب الذين لا يشاركون باكونين واتباعه افكارهم الفوضوية ان يتبنوا موقفا نقديا من آمال هؤلاء التي لا تقوم على اساس . ولكن باستثناء ذلك، فان العمل الذي قام به باكونين في ليون كان محاولة شجاعة لايقاظ قدرات البروليتاريا الفرنسية وتوجيهها ضد العدو الخارجي والنظام الراسمالي في آن معا . لقد قامت عامية باريس في وقت لاحق بمحاولة شبيهة ونالت مديحا حارا من ماركس» . ان هذا بالتأكيد موقف اكثر موضوعية ومنطقية من موقف «فولكسشتات» في ليبزيغ ، فقد اعلنت هذه ، متبنية موقفا تكتيكيا باليا ، انه لو حاول المكتب الصحفي لبسمارك ان يعد بيانا لما استطاع ان يأتي ببيان اكثر ملائمة لبسمارك من البيان الذي اصدره باكونين في ليون .

اصيب باكونين بكآبة عميقة بسبب فشل الحركة في ليون . فقد كان مؤمنا بان الثورة على الابواب ، وها هو يراها تختفي طي المستقبل البعيد ، خاصة بعد ان اطيح بعامية باريس التي كانت قد نفحت الامل في نفسه من جديد . وازدادت كراهيته للدعاية الثورية التي كان ماركس يقوم بها ، فقد خيل اليه ان هذه الدعاية هي التي ادت الى موقف البروليتاريا الحائر . وبالاضافة الى ذلك كان يعاني من وضع شخصي بائس ، اذ لم تعد تصله اية مساعدة من اشقائه ، فكان يقضي اياما عدة لا يملك فيها خمسة سنتيمات ثمنا لفنجان من الشاي اعتاد تناوله . وكانت زوجته تخشى ان تخور قواه وينتهي . ومع ذلك قرر ان يدون آراءه حول تطور الانسانية والفلسفة والدين والدولة والفوضوية في كتاب يعد تدريجيا في لحظات فراغه ، ليكون وصيته السياسية .

غير ان باكونين لم يتمكن من انجاز هذا العمل . ففي جنيف ، نجح روسي يدعى اوتين ، كان قد بدأ التحريض ضد باكونين منذ فترة من الزمن ، في طرده وعدد من اصدقائه من الفرع المركزي للاممية في جنيف في آب ١٨٧٠ ، بحجة انهم كانوا اعضاء في التحالف . وبعد ذلك اطلق اوتين كذبة تقول ان المجلس العام لم يوافق ابدا على قبول التحالف عضوا في الاممية في يوم من الايام ، وان الوثائق الموجودة في حوزة التحالف بتوقيع يونغ وايكاريوس وثائق مزورة . وفي تلك الاثناء هاجر روبين الى لندن واصبح عضوا في المجلس العام ، على الرغم من انه كان قد شن على المجلس هجوما عنيفا في «ايغاليتيه» ، وبرهن المجلس بهذا العمل عن موضوعيته ، لأن روبين لم يكف يوما عن ان يدين بالولاء للتحالف . وفي ١٤ اذار ١٨٧١ ، قدم روبين اقتراحا بان تعقد الاممية مؤتمرا خاصا لتسوية النزاع في جنيف . لكن المجلس رأى عشية عامية باريس ان من الافضل رفض هذا الاقتراح، ولكنه قرر في ٢٥ تموز ان يدعو لمؤتمر يعقد في ايلول التالي لبحث نزاع جنيف . وفي الجلسة ذاتها اكد المجلس ، بناء على طلب روبين ، صحة الوثائق الموقعة من يونغ وايكاريوس والتي تبلغ التحالف قبوله في الاممية .

لم تكد هذه الرسالة تصل جنيف ، حتى حل فرع التحالف نفسه طواعية في ٦ آب ، وقام على الفور بابلاغ هذه الخطوة الى المجلس العام . وكانت الفكرة وراء

هذه الخطوة ايجاد انطباع جيد ، فبعد ان برا المجلس العام الفرع من كذب أوتين ، ارتأى الفرع ان يضحي بنفسه من اجل الوفاق . الا انه ، كما اعترف غيلوم فيما بعد ، كانت هناك دوافع اخرى حاسمة لهذه الخطوة . اذ كان فرع التحالف قد اصبح بلا اهمية على الاطلاق ، وبدا لاعضاء العامية الذين فروا الى جنيف انه لا يمثل سوى مخلفات ميتة لنزاعات شخصية . فرأى غيلوم في هؤلاء عناصر مناسبة لمقارعة المجلس الفيدرالي في جنيف على اسس اوسع . وهكذا حل فرع التحالف لتعود بقاياه بعد اسابيع قليلة فتتوحد مع العاميين في فرع جديد هو «فرع العمل والدعاية الثورية الاشتراكية» الذي اعلن انه يتفق مع المبادىء العامة للامية ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق استخدام الحرية التي تمنحها مؤتمرات الامية وانظمتها الاساسية .

لم يكن لباكونين اول الامر علاقة بهذا كله . فقد اعتبر ان حل فرع التحالف في جنيف خدعة مدبرة ، مما دفعه الى الاحتجاج بشدة قائلا : «فلنكن غير جبناء بحجة انقاذ وحدة الامية» . وفي الوقت ذاته بدأ يعد شرحا تفصيليا للفوضى الناشبة في جنيف ، كي يعرض المبادىء التي كان النزاع ، في رأيه ، يعرضها للخطر ، وكي يكون كذلك دليلا لمؤيديه في المؤتمر القادم في لندن .

لا زالت اجزاء كبيرة مما كتبه باكونين في هذا الصدد باقية حتى الآن ، وهي تختلف تماما عن الكراسات الروسية التي كان قد اعدها بالاشتراك مع نيتشايف قبل ذلك بسنة واحدة . اذ تميزت ، باستثناء تعبير او اثنين شديدي اللهجة ، بالهدوء والموضوعية . لم ينكر باكونين لحظة واحدة الفروقات الاساسية بينه وبين ماركس حول مسألة «شيوعية الدولة» التي نادى بها ماركس ، فلم يكن باكونين سهلا ابدا في التعامل مع خصومه . ولكنه لم يصور ماركس امرأً لا خير فيه ولا يكترث لشيء الا لاغراضه الخاصة غير النزيهة ، بل عمد بدلا من ذلك الى شرح كيف تطورت الامية من بين جماهير الشعب بمساعدة رجال اكفاء كرسوا انفسهم لخدمة قضية الشعب ، واضاف : «اننا ننتهز هذه الفرصة لنقدم احترامنا لقادة الحزب الشيوعي الالماني العظام ، والمواطنين ماركس وانغلز بشكل خاص والمواطن ف. بيكر (صديقنا السابق وعدونا اللدود في الوقت الحاضر) خالقو الاممية الحقيقيون ، بقدر ما يمكن ان يعزى للبشر قدرة على الخلق . اننا نعترف بخدماتهم ، سيما واننا سنكون مضطرين لمحاربتهم عما قريب . اننا نحترمهم بصدق ومن كل قلوبنا ، ولكن ذلك لا يصل بنا الى حد تأليههم ، ولن نقبل ابدا ان نكون لهم عبيدا. ومع اننا نقر بفضل الخدمات الجليلة التي قدموها والتي لا زالوا يقدمونها لقضية الاممية ، الا اننا سنقاتل حتى النهاية ضد نظرياتهم الخاطئة المستبدة ، ضد غطرستهم الدكتاتورية ، ضد اساليبهم في الخداع الخفي والمكائد المختالة ، ضد ادخالهم شخصيات وضيعة الى الاممية ، ضد اهاناتهم وافتراءاتهم المشينة ، تلك الاساليب التي تميز الصراعات السياسية للالمان جميعا ، والتي ادخلت للأسف الى صفوف الاممية» . كان ذلك في منتهى الصراحة ، لكن باكونين لم يسمح لاي انفعال ان يجره الى انكار الخدمات الخالدة التي قدمها ماركس لحركة الطبقة العاملة

كمؤسسن وقائد للاممية .

غير ان باكونين لم يتم هذا العمل ايضا . فقد كان منهمكا به عندما نشر ماتزيني هجوما عنيفا على الاممية في نشرة اسبوعية كان يصدرها في لوغانو . وعلى الفور اشتبك باكونين معه في مقالة بعنوان «رد أممي على ماتزيني» ، ولما التقط ماتزيني ومؤيدوه القفاز ، اتبع باكونين ذلك بكراسات اخرى من الطراز ذاته . وبعد كل الاخفاقات التي مني بها باكونين حديثا ، اصبح الان يتمتع بنجاح كامل : فالاممية التي لم يكن لها في ايطاليا حتى ذلك الوقت سوى آثار وجود ، بدأت الان تنتشر بسرعة . ولم يحقق باكونين هذا النجاح بتدبير الدسائس ، بل بفعل الكلمات البليغة التيتمكن بها منازالة التوتر الذي ولدته عامية باريس فياوساط الشباب الايطالي.

لم تكن الصناعة الثقيلة في ايطاليا قد تطورت بعد ، وكان تفتح البروليتاريا على الوعي الطبقي لا يزال يسير ببطء شديد ، كما ان هذه البروليتاريا لم تكن تمتلك اي سلاح قانوني تستطيع استخدامه سواء في الهجوم او الدفاع . وبالمقابل كان نضال نصف قرن من اجل الوحدة القومية قد ساهم في تنمية تقليد ثوري في اوساط الطبقات البورجوازية وفي الحفاظ على هذا التقليد . فقد قام عدد لا يحصى من التمردات والمؤامرات من اجل تحقيق الوحدة القومية الى ان تمت اخيرا بصورة كانت خيبة امل كبيرة للعناصر الثورية . فتحت حماية السلاح الفرنسي ثم السلاح الالماني تمكنت الدولة الاكثر رجعية في البلاد من تأسيس مملكة ايطالية . ثم جاء نضال عامية باريس البطولي ليوقظ شباب ايطاليا من حالة الركود المعنوي التي كان قد انحدر اليها . لقد اعرض ماتزيني وهو على حافة القبر عن النور الجديد الذي اثار فيه كراهيته القديمة للاشتراكية ، اما غاريبالدي الذي كان بطلا قوميا الى حد اكبر بكثير ، فقد رحب «بشمس المستقبل المشرقة» المتمثلة في الاممية .

كان باكونين يعرف جيدا الى اي قطاعات السكان ينتمي مؤيدوه ، فكتب في نيسان ١٨٧٢ : «لم يكن ما افتقدته ايطاليا حتى الان هو الغريزة السليمة بل التنظيم والفكرة . اما الان فكلاهما يتطور بشكل سريع لدرجة ان ايطاليا مع اسبانيا ربما كانتا في هذه الآونة اكثر البلاد ثورية. هناك في ايطاليا امر لا يتوفر في البلدان الاخرى : شباب يتفجر حماسة وقوة ، دون اي امل في مهنة او عمل او حل ، شباب على الرغم من اصوله البورجوازية لم يستنفد اخلاقيا وذهنيا كالشباب البورجوازي في البلدان الاخرى . وهو اليوم يقحم رأسه في الاشتراكية الثورية ببرنامجنا كاملا ، برنامج التحالف» . كتب باكونين هذه السطور الى مؤيد اسباني ، وقصد بها ان تكون باعثا على الشجاعة للتقدم نحو اعمال اعظم . ولقد قدر باكونين ان نجاحه في اسبانيا ، حيث كان لا يزال يمارس نفوذه من خلال اصدقاء له ، لا من خلال وجوده الشخصي ، لا يقل ان لم يفق ما حققه من نجاح في ايطاليا . ولم يكن ذلك مجرد وهم جميل ،بل حقيقة لا سبيل الى انكارها .

كان التطور الصناعي في اسبانيا ايضا لا زال على درجة كبيرة من التخلف . وكانت البروليتاريا ، في حال وجود بروليتاريا بالمعنى الحديث ، مكبلة اليدين والقدمين وبدون اية حقوق قانونية ، فلم يعد أمامها وهي في حالة اليأس هذه غير

سلاح واحد هو الانتفاضة المسلحة . فلم تشهد اي مدينة في العالم من نضـــال المتاريس ما شهده تاريخ برشلونة المدينة الصناعية الاسبانية العظيمة . وبالاضافة الى ذلك ، كانت الحرب الاهلية التي استمرت سنوات طويلة قد عكرت صفو البلاد. وبعد ان تمكنت العناصر الثورية من طرد آل البوربون في خريـــف عام ١٨٦٨ ، اصيبت بخيبة امل كبيرة اذ وجدت نفسها تحت سيطرة متداعية لملك اجنبي . وفي اسبانيا ايضا سقطت الشرارات المتطايرة من الحريق الثوري في باريس على كومة من المواد القابلة للاشتعال .

اما في بلجيكا ، فكان الوضع مختلفا الى حد ما عما هو عليه في ايطاليـــا واسبانيا ، فقد كان في بلجيكا حركة جماهيرية بروليتارية ، وان كانت هـــذه الحركة محصورة كليا في مقاطعات الوالون . وكان عمال المناجم الثوريون المتطرفون في بوريفاج يشكلون العمود الفقري لهذه الحركة . وكلما راودتهم فكرة تحسين وضعهم الطبقي بالوسائل القانونية ، غرقت هذه الفكرة وهي في مهدها في حمامات الدم التي كانت تخضب بها اضراباتهم سنة بعد اخرى . وكان قادتهم برودونيون ، ولذلك كانوا يميلون الى افكار باكونين .

هكذا ، اذا تتبع المرء تطور المعارضة الباكونينية في الاممية بعد سقوط عامية باريس ، لوجد انها حملت اسم باكونين لانها كانت تأمل ان تتمكن بافكاره من حل التناقضات والتوترات الاجتماعية التي نبتت الباكونينية ذاتها في الحقيقة منها .

٦ ـ المؤتمر الثاني في لندن

كان المجلس العام يريد للمؤتمر الذي قرر عقده في ايلول في لندن ان يكون بديلا عن المؤتمر السنوي الذي كان موعد انعقاده قد اصبح وشيكا .

وكان مؤتمر بازل عام ١٨٦٩ قد قرر عقد المؤتمر الثاني في باريس ، الا ان حملة التحريض التي نظمها اوليفييه ضد فرع الاممية الفرنسي احتفالا بالاستفتاء العام ، جعلت المجلس العام يمارس حقه في تغيير مكان انعقاد المؤتمر ، فقرر في تموز عام ١٨٧٠ ان يكون انعقاد المؤتمر في مينز . وفي الوقت ذاته اقترح المجلس العام على الفيدراليات الوطنية ان ينقل مقره من لندن الى اي مكان اخر ، ولكن هـــذا الاقتراح رفض بالاجماع . ثم جاء نشوب الحرب الفرنسية ـ البروسية ليجعل عقد المؤتمر في مينز مستحيلا ، وعندها خولت الفيدراليات المجلس العام حرية ترتيب موعد انعقاد المؤتمر وفق ما تقتضيه الظروف الراهنة .

بدا من تطور الاحداث ان من غير المرغوب فيه دعوة المؤتمر للانعقاد في خريف عام ١٨٧١ . فقد بان واضحا ان الضغط الذي كان يتعرض له اعضاء الاممية في مختلف الاقطار لن يمكنهم من ارسال مندوبيهم الى المؤتمر بحرية ، كما ان الاعضاء الذين سيتمكنون من حضور المؤتمر سيتعرضون فور عودتهم الى بطش من حكوماتهم لم يسبق له مثيل . ولم تكن الاممية راغبة في القيام بما من شأنه زيادة عـــدد الضحايا ، لانها لا تكاد تستطيع تأمين المساعدة الى المضطهدين الحاليين مــــن

اعضائها ، ولأن هذه المهمة كانت تستحوذ على طاقاتها ومصادرها .

لذلك قرر المجلس العام ان من الافضل في الظروف الراهنة الدعوة الى مؤتمر خاص مغلق في لندن ، على غرار المؤتمر الذي عقد في عام ١٨٦٥ بدلا من عقد مؤتمر عام علني . وجاء عدد الحضور القليل في المؤتمر ليؤكد ظنون المجلس العام. استمر المؤتمر من السابع عشر من ايلول الى الثالث والعشرين منه بحضور ثلاثة وعشرين مندوبا فقط ، كان من بينهم ست مندوبين من بلجيكا واثنان من سويسرا ومندوب واحد من اسبانيا . كذلك حضر المؤتمر ثلاثة عشر عضوا من المجلس العام، ولكن كان لستة منهم اصوات استشارية فقط. ومن بين القرارات الواسعةوالمتعددة التي اتخذها المؤتمر ، كان هناك عدد من القرارات ، يتعلق باحصاءات الطبقة العاملة والعلاقات الدولية لنقابات العمال والزراعة، لم يكن له فيظل الظروف القائمة حينذاك غير اهمية اكاديمية . اما المهام الرئيسية للمؤتمر فكانت ان يرد عن الاممية الهجمات الحاقدة التي تشن عليها من الخارج وان يجعلها تتماسك ضد العناصر التي تهدد بنسفها من الداخل ، وهي مهمات تتطابق على وجه الاجمال .

اما اهم القرارات التي اتخذها المؤتمر فكانت تتعلق بالنشاط السياسي للاممية. فقد استعادت هذه القرارات البيان الافتتاحي والقوانين الاساسية والقرار الصادر عن مؤتمر لوزان والبيانات الرسمية الاخرى الصادرة عن الاممية ، والتي تعلن جميعا ان الانعتاق السياسي للطبقة العاملة لا يمكن ان ينفصل عن انعتاقها الاجتماعي . ثم اشارت القرارات الى ان الاممية واجهت حملة رجعية شرسة قمعت بوحشية كل جهد قامت به الطبقة العاملة لتحرير ذاتها . وسعت بالقوة الى تكريس التمييز الطبقي المطلق وحكم الطبقات المالكة المستند اليه . واعلنت الاممية ان الطبقة العاملة لن تستطيع مقاومة هذا العنف الذي فرضته عليها الطبقات الحاكمة ، الا اذا تصرفت كطبقة ، وذلك بان تشكل نفسها في حزب سياسي خاص بها ضد كل التنظيمات الحزبية للطبقات المالكة ، وهذا امر لا غنى عنه من اجل انتصار الثورة الاشتراكية وهدفها النهائي ، الغاء كل الطبقات ، واخيرا فان توحيد القوى المعزولة عن بعضها التي انشأتها الطبقة العاملة الى درجة معينة بقواها الاقتصادية يجب ان يستخدم كسلاح في النضال ضد القوة السياسية للمستغلين . ولهذه الاسباب مجتمعة ، اعاد المؤتمر الى ذاكرة جميع اعضاء الاممية ان الحركة الاقتصادية والحركة السياسية في نضال الطبقة العاملة مرتبطتان ارتباطا وثيقا لا تنفصم عراه .

وفيما يتعلق بالامور التنظيمية ، طلب المؤتمر من المجلس العام ان يجعل عدد الاعضاء الذين يختارهم لينضموا اليه محدودا وأن لا يفضل جنسية على اخرى . وتقرر ان يقتصر اسم «المجلس العام» على المجلس العام ، اما المجالس الفيدرالية فعليها ان تتخذ لنفسها اسماء حسب البلدان التي تمثلها ، وتعرف الفروع المحلية كل باسم منطقته الاقليمية الخاصة به . وحظر المؤتمر استعمال اية اسماء عصبوية مثل الوضعيين ، التبادليين ، الجماعيين ، الشيوعيين . كما قرر ان يستمر كل عضو في الاممية في دفع بنس واحد في السنة دعما للمجلس العام .

وأوصى المؤتمر بالنسبة لفرنسا بالقيام بتحريض عنيف في المصانع وتوزيع

المنشورات على نطاق واسع . وبالنسبة لانجلترا ، اوصى بتشكيل مجلس فيدرالي خاص على ان يتم تثبيته من قبل المجلس العام فور ان تعترف به فروع المقاطعات والنقابات . واعلن المؤتمر ان العمال الالمان قد ادوا واجبهم البروليتاري خلال الحرب الفرنسية ـ البروسية ، ورفض ان يتحمل اي مسؤولية فيما يعرف بمؤامرة نيتشايف .

واعلن المؤتمر ان قضية التحالف قد سويت ، بعد ما قام فرع جنيف بحل نفسه طواعية ، وبعد ما حظر اختيار الفروع لاسماء عصبوية تشير الى مهمات منفصلة عن الاهداف العامة للاممية . اما فيما يختص بفروع الجورا، التي كانت تؤيد باكونين وترفض الخضوع للمجلس الفيدرالي في جنيف ، فقد اكد المؤتمر قرار المجلس العام في ٢٩ حزيران ١٨٧٠ معترفا بالمجلس الفيدرالي في جنيف ممثلا وحيدا للفروع السويسرية الاعضاء ، ولكنه في الوقت ذاته ناشد روح الوحدة والتضامن التي يجب ان تحرك العمال اكثر من اي وقت مضى بعد ان اصبحت الاممية مضطهَدة في مختلف الانحاء . ولذلك نصح المؤتمر عمال فروع الجورا ان يرتبطوا بالمجلس الفيدرالي في جنيف من جديد ، واقترح في حالة استحالة ذلك ان يطلقوا على انفسهم اسم فيدرالية الجورا . وخول المؤتمر ايضا المجلس العام سلطة كاملة للتنصل من الصحف المنسوبة الى الاممية مثل «بروغريه» و«سوليدارتيه» التي كانت قد طرحت المسائل الداخلية للاممية امام الجمهور البورجوازي . واخيرا ترك المؤتمر للمجلس العام حرية تقرير زمان ومكان المؤتمر العام العلني التالي او استبداله بمؤتمر خاص مغلق .

لا يمكن بوجه عام انكار ان قرارات المؤتمر صدرت عن روح من الاعتدال الموضوعي، فالاقتراح الذي تقدمت به من فروع الجورا اي العمل تحت اسم فيدرالية الجورا ، كان قد بحث من جانب هذه الفروع نفسها .. ومما لا شك فيه ان قرارات المؤتمر أوجدت اساسا للاتفاق ، سيما وان الوفاق الداخلي كان ضرورة ملحة خاصة وأن الاعداء يحيطون بحركة الطبقة العاملة من كل صوب . وفي ٢٠ تشرين الاول تقدم الفرع الجديد للعمل والدعاية الثورية الاشتراكية الى المجلس العام يطلب الالتحاق بالاممية ، وكان هذا الفرع قد تشكل في جنيف من بقايا التحالف وعدد ممن فروا بعد سقوط العامية . غير ان الطلب رفض بعد ان قام المجلس العام باستشارة المجلس الفيدرالي في جنيف ، وعندئذ بدأت صحيفة «لا ريفولسيون سوسيال» ، التي اخذت تصدر بدلا من «سوليدارتيه» ، تشن هجوما عنيفا على «اللجنة الالمانية التي تسير الامور بعقلية بسماركية» ، على حد تعبير محرري الصحيفة الذين كانوا يعتقدون انه يمثل الوصف الحقيقي للمجلس العام للاممية . ووجد هذا الشعار صدى سريعا ، مما جعل ماركس يكتب الى صديق امريكي : «ان ذلك يعود الى مسألة لا تغتفر وهي انني الماني المولد ، ولأن لي في الواقع تأثيرا فكريا حاسما على المجلس العام . ملاحظة : ان الالمان في المجلس هم من الناحية العددية اضعف بمقدار الثلثين من الانجليز والفرنسيين . الجريمة اذاً هي ان العناصر الانجليزية والفرنسية خاضعة (!) في المسائل النظرية للالمان ، وتجد ان

هذه السيطرة ، اي العلم الالماني ، مفيدة ولا غنى عنها» .

شنت فروع الجورا هجومها العام في مؤتمر عقدته في ١٢ تشرين الثاني في سونفييه ، على الرغم من ان عدد الحضور لم يزد عن ستة عشر مندوبا يمثلون تسعة فروع فقط من اصل اثنين وعشرين . ولكي يعوض هؤلاء السادة عن هذا، قاموا باحداث ضجة اكثر صخبا من اي وقت مضى ، فقد شعروا باهانة بالغة لان مؤتمر لندن فرض عليهم اسما كانوا هم انفسهم قد فكروا به ، ومع ذلك قرروا الاذعان واطلاق اسم فيدرالية الجورا على انفسهم في المستقبل ، بينما ثأروا لانفسهم بالاعلان عن حل فيدرالية جنيف ، وهو قرار لم يكن له بالطبع اي اهمية عملية . غير ان الانجاز الرئيسي للمؤتمر تمثل في صياغة وارسال تعميم الى جميع فيدراليات الاممية يحثها على عدم الاعتراف بشرعية مؤتمر لندن ، ويطلب منها ان تقرر الدعوة الى مؤتمر عام في اسرع وقت ممكن .

انطلق هذا التعميم ، الذي اعده غيلوم ، من فرضية ان الاممية تسلك سبيلا مميتا . فلقد تشكلت في الاساس «كاحتجاج عظيم ضد كل انواع السلطة» ، ومنحت القوانين الاساسية لها كل فرع او مجموعة من الفروع استقلالا تاما ، في حين لم تترك في يد السلطة التنفيذية ممثلة بالمجلس العام سوى سلطات محدودة . ومع مرور الزمن ، بدأ الاعضاء يثقون بالمجلس العام ثقة عمياء مما ادى الى تخلي المؤتمر نفسه عن سلطته حين منح المجلس العام سلطة قبول ورفض او حل الفروع بانتظار قرار المؤتمر التالي . ولم يشر كاتب البيان ابدا الى ان هذا القرار اتخذ بعد ان تحدث باكونين بحرارة لصالحه وبموافقة غيلوم نفسه .

ان المجلس العام ، يتابع التعميم ، المؤلف من الاشخاص ذاتهم والذي قبع في المكان ذاته خمسة اعوام متتالية يأتي اليوم ليعتبر نفسه «الراس الشرعي» للاممية . ان هذا المجلس يعتبر نفسه اشبه ما يكون بحكومة ، وهو بالطبع يعتبر افكاره الخاصة نظرية رسمية للاممية فهي الافكار الوحيدة المسموح بها . اما الافكار المغايرة التي تبنتها المجموعات الاخرى فقد اعتبرها المجلس العام هرطقة لا غير . وهكذا نمت في الاممية وبصورة تدريجية اورثوذكسية مقرها لندن وممثلوها اعضاء المجلس العام . وليس من الضروري التذمر من مقاصدهم ، لانهم انما كانوا يتصرفون حسب افكار مدرستهم الخاصة ، ولكن على المرء ان يقاتل ضدهم بقوة لان سلطتهم المطلقة ولدت بالضرورة فسادا ، فمن المستحيل على رجل يتمتع بمثل هذه السطوة على اقرانه ان يحتفظ بشخصية اخلاقية .

واضاف التعميم يقول ان مؤتمر لندن اكمل عمل مؤتمر بازل ، واتخذ قرارات كان القصد منها ان تحول الاممية من رابطة حرة لفروع مستقلة الى منظمة سلطوية ذات بناء هرمي يسيطر عليها المجلس العام . وتتويجا لهذا كله ، اعطى المؤتمر للمجلس العام سلطة تحديد زمان ومكان المؤتمر العام التالي ، او الاستعاضة عنه بمؤتمر خاص مغلق . وهكذا تركت للمجلس العام حرية مطلقة اعتباطية في الاستعاضة عن المؤتمر العام ، تلك الجلسات العظيمة المفتوحة للاممية ، بمؤتمرات او مداولات سرية . ولذلك كله يتوجب تقليص سلطات المجلس العام بما يتناسب

ومهمته الاصلية ، كي يعود مكتبا بسيطا يقوم بالمراسلات وجمع الاحصاءات ، وذلك للتوصل بالمشاركة الحرة لجماعات مستقلة الى تلك الوحدة التي اراد المجلس العام ان يحققها عبر الدكتاتورية والمركزية . وفي هذا المجال ينبغي على الاممية ان تكون رسول المجتمع المقبل .

وعلى الرغم من الصورة الداكنة التي حاول تعميم فروع الجورا رسم الوضع بها، او ربما بسبب هذه الصورة ، فانه لم يتمكن من انجاز هدفه الحقيقي . وحتى في بلجيكا وايطاليا واسبانيا لم يلق طلب الدعوة السريعة الى مؤتمر عام اي تأييد . ففي اسبانيا اثارت الهجومات الحادة على المجلس العام الشك بأن تكون الغيرة بين ماركس وباكونين هي السبب الذي يكمن وراء ذلك كله . اما في ايطاليا فلم تكن فروع الاممية تميل الى انتزاع مقاليد الامور من يد لندن لتوضع في يد الجورا . وفي بلجيكا فقط اتخذ قرار بتغيير القوانين الاساسية للاممية كي تعلن الاممية انها رابطة تتشكل من فيدراليات مستقلة تماما وان مجلسها العام لا يعدو كونه «مركزا للمراسلة والاعلام» .

عوضت الصحافة البورجوازية تعميم سونفيبه عن الاهمال الذي لحق به ، فقد تلقفته بحماسة بالغة ، ذلك انه جاء ليؤكد ومن داخل الاممية بالذات كل الاكاذيب التي راجت ، خاصة بعد سقوط عامية باريس ، حول القوة الشريرة للمجلس العام. ووجدت «بولتين جوراسيان» التي اخذت تصدر بدلا عن «ريفولسيون سوسيال ، التي لم تعمر طويلا ، متعة في اعادة نشر مقالات الاستحسان الحماسية من الصحافة البورجوازية .

دفعت الضجة التي اثارها تعميم سونفيبه المجلس العام الى اصدار رد عليه بصورة تعميم ايضا بعنوان : التفكك المزعوم في الاممية .

٧ ــ انحلال الاممية

احرز تعميم المجلس العام انتصارا سجاليا في دحضه للاتهامات التي صدرت عن سونفيبه واماكن اخرى حول الانتهاكات المزعومة او حتى تزييف القوانين الاساسية والتعصب وما شابه ذلك . ولكن المرء لا يملك الا ان يأسف لان التعميم قد ضاع في معظمه على مسائل تافهة .

يجد المرء ، في هذه الايام ، ان عليه ان يتخلص من قدر كبير من الاحجام ، كي يتعب راسه في دراسة مثل هذه المسائل غير الهامة . فمثلا ، عند تأسيس الاممية قام الاعضاء الباريسيون بحذف مقطع من القانون الاساسي كي يتجنبوا مضايقات الشرطة البونابرتية . فقد كان القانون الاساسي يتضمن فقرة تقول ان على كل الحركات السياسية للطبقة العاملة ان تجعل نفسها وسيلة لتأمين الانعتاق الاقتصادي للطبقة العاملة . الا ان تعبير «وسيلة» اسقط من النص الفرنسي . وعلى الرغم من ان الوضع كان في غاية الوضوح ، الا ان الكذبة انتشرت مرة بعد

اخرى حتى التخمة بان المجلس العام انما ادرج تعبير «وسيلة» فيما بعد . وعندما اعترف مؤتمر لندن بان العمال الالمان قاموا بواجبهم البروليتاري اثناء الحرب الفرنسية ـ البروسية، اتخذ ذلك ذريعة لاتهام المجلس العام بـ«القومية الجرمانية».

مزق التعميم هذه التهم المضحكة اشلاء . وعندما يأخذ المرء بعين الاعتبار ان هذه التهم حيكت لتنسف مركزية الاممية ، على الرغم من ان الحفاظ على هذه المركزية وتماسكها كان السبيل الوحيد لتجنيب المنظمة المترنحة الركوع امام الهجمات الرجعية ، عندما يأخذ المرء ذلك بعين الاعتبار ، فان بامكانه ان يتفهم المرارة المتضمنة في الفقرات النهائية من التعميم والتي تتهم التحالف بانه يتصرف لمصلحة الشرطة الدولية : «انه ينادي بالفوضى في صفوف البروليتاريا كوسيلة محققة لتحطيم المركزية القوية التي تتمتع بها القوى السياسية والاجتماعية للمستغلين . انه يتذرع بهذه الحجة ، في وقت يسعى فيه العالم القديم الى تحطيم الاممية ، ليطالب الاممية ان تستعيض عن التنظيم بالفوضى» . وبقدر ما كانت الاممية تتعرض لهجمات الاعداء الخارجيين ، كانت الهجمات التي تشن عليها من الداخل تبدو اكثر تفاهة خاصة اذا كانت لا تقوم على اساس .

غير ان رؤية المجلس الواضحة لهذا الجانب من المسألة رافقها فشل ذريع في رؤية الجانب الاخر . اذ لم يكن التعميم مستعدا ، كما يبدو من عنوانه ، للاعتراف باكثر من «تفكك مزعوم» في الاممية . كما انه عزى النزاع بأكمله ، كما كان ماركس قد فعل في رسائله الشخصية ، الى مكائد «بعض الدساسين» وخصوصا باكونين. وبالاضافة الى ذلك ، كانت نقطة الضعف الكبرى في التعميم دفاعه عن المجلس العام ضد تهمة «الارثوذكسية» ، فقد استشهد بأن مؤتمر لندن حظر على الفروع اختيار اسماء عصبوية . كان هذا القرار مبررا تماما على اعتبار ان الاممية كانت تكتلا غير متجانس من التنظيمات النقابية والتعاونيات والجمعيات الثقافية والدعاوية ، لكن التفسير الذي قدمه تعميم المجلس العام لهذا القرار خاضع للنقاش الى حد بعيد .

يقول التعميم : «تتميز المرحلة الاولى من نضال البروليتاريا ضد البورجوازية بنمو الشيع . ووجود هذه الشيع امر مبرر في الوقت الذي لا تكون فيه البروليتاريا قد تطورت الى حد تتصرف معه كطبقة . يبدأ المفكرون الافراد بانتقاد التناقضات الاجتماعية ويسعون الى التغلب عليها بحلول طوباوية يتوقعون من جماهير العمال ان تقبل بها وتعمل على نشرها وتنفذها . ان من طبيعة هذه الشيع التي تلتف حول هؤلاء الرواد ان تظل منعزلة وبعيدة عن اية نشاطات عملية ، بعيدة عن السياسة والاضرابات والنقابات ، وبكلمة بعيدة عن اي شكل من اشكال الحركة الجماهيرية. اما جماهير العمال فتظل غير مكترثة بهم او حتى معادية لدعايتهم . فعمال باريس وليون كانوا بعيدين عن السانسيمونيين والفوريين والايكاريين ، شأنهم في ذلك شأن الميثاقيين والنقابيين الانجليز مع الاوينيين . ان هؤلاء يشكلون في البداية قوة دافعة لحركة الطبقة العاملة ، ولكنهم يصبحون عقبة رجعية عندما تتخطاهم هذه الحركة . ومن امثلة ذلك ، شيع فرنسا وانجلترا واللاساليون الذين ظهروا بعد ذلك في المانيا واستمروا يعرقلون تنظيم البروليتاريا عدة سنوات الى ان تحولوا في

النهاية الى مجرد ادوات بيد الشرطة» . غير ان السبب الحقيقي لانحلال الاممية، كان في الواقع هو التناقضات التي يصعب حلها والتي نمت في المؤسسة الكبيرة بعد سقوط عامية باريس . فبعد سقوط العامية ، عبأ العالم الرجعي قواه ضد الاممية ، وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن للاممية ان تدافع بها عن نفسها هي مركزة قواها بشكل اقوى . غير ان سقوط العامية ذاته اكد من جهة اخرى ضرورة النضال السياسي وهو نضال مستحيل دون اضعاف الروابط الاممية ، لان القيام به غير ممكن الا ضمن الحدود القومية .

وفي التحليل الاخير ، يمكن القول ان مطلب الامتناع السياسي ، بغض النظر عن المبالغات التي احاطت به ، كان نتيجة عدم الثقة بمكائد البرلمانية البورجوازية ، وعدم الثقة هذه قد طرحت بوضوح وبأقصى حدة في الخطاب الشهير الذي القاه ليبكنشت عام ١٨٦٩ . وبالمثل كان الاعتراض على دكتاتورية المجلس العام الذي زاد حدة في معظم الاقطار بعد سقوط عامية باريس ، وبصرف النظر عن كل المبالغات، ناجما عن الادراك بان الحزب الوطني للطبقة العاملة يجب ان يسترشد بالدرجة الاولى بشروط وجوده في الامة التي يشكل جزءاً منها ، اي انه لا يستطيع ان يقفز فوق هذه الشروط تماما كما لا يستطيع المرء ان يقفز فوق ظله . وبكلام اخر ، لم يكن ممكنا قيادة الحركة من الخارج . وعلى الرغم من ان ماركس كان قد اشار في القانون الاساسي للاممية الى الارتباط الوثيق بين النضال السياسي والنضال الاجتماعي للطبقة العاملة ، الا انه عمليا كان ينطلق دوما من المطالب الاجتماعية للعمال ، تلك المطالب المتشابهة في كل الاقطار الخاضعة لنمط الانتاج الراسمالي ، ولم يكن يتوقف عند المسائل السياسية الا حين تنجم عن هذه المطالب الاجتماعية – المطالبة بتقليص قانوني ليوم العمل ، على سبيل المثال . اما المسائل السياسية بالمعنى الحقيقي والمباشر للكلمة – مثل المسائل المتعلقة بدستور الدولة ، والتي تختلف من بلد لآخر – فقد كان يفضل اغفالها الى حين تكون فيه البروليتاريا قد اكتسبت ثقافة ووضوحا بفضل جهود الاممية .

ولقد قيل ان ماركس كان سيستمر في تحفظه هذا لولا ان سقوط عامية باريس وتحريض باكونين فرضا المسألة السياسية عليه . وهذا امر محتمل ، لكن ماركس كان بطبيعته يقبل التحدي فور ان يشعر به ، على الرغم من انه في الحالة التي نحن بصددها لم يستطع ادراك ان المسألة لا يمكن حلها ضمن اطار القوانين الاساسية للاممية ، وأن الاممية ستعاني من الانحلال الداخلي قدر ما تحاول مركزة قواها للنضال ضد الاعداء الخارجيين . ذلك انه ما ان تشكلت احزاب عمالية وطنية حتى اخذت الاممية بالتفسخ . كم كان عنيفا التأنيب الذي وجهه ليبكنشت الى شفايتزر بسبب فتور هذا تجاه الاممية ! الا ان ليبكنشت عندما وجد نفسه على راس جناح ايزناخ كان عليه ان يسمع التأنيب ذاته من انفلز ، ولم يكن من ليبكنشت الا ان اعاد الجواب ذاته الذي كان قد سمعه من شفايتزر ، اي التذرع بالقوانين الالمانية التي تحظر الانتظام : «انا لا احلم ان اعرض وجود منظمتنا للخطر من اجل هذه المسألة وفي هذا الوقت بالذات» .

كان تشكيل جناح ايزناخ بمثابة الضربة الاولى التي وجهت الى فرع الاممية الناطق بالالمانية في جنيف ، اما الضربة القاضية التي وجهت لهذا الفرع الذي كان اقدم واقوى منظمات الاممية في القارة الاوروبية فقد جاءت بتشكيل حزب عمالي سويسري عام ١٨٧١ ، ففي نهاية هذا العام اضطر بيكر الى التوقف عن اصدار صحيفة «دير فوربوت» .

لم يكن ماركس وانغلز في عام ١٨٧٢ قد ادركا بعد الاسباب الحقيقية للوضع ، وقد قللا من قدر خدماتهما ذاتها عندما اعتقدا ان الاممية انهارت نتيجة مكائد ديماغوجي واحد (باكونين) ، مع انه كان يمكن في الحقيقة القول انها انسحبت من الميدان بكل شرف بعد ان ادت قسطها من مهمة تاريخية عظيمة تخطتها الان . فليس هناك امر اكثر لاماركسية من القول ان فردا خبيثا «ماكرا خطيرا» استطاع ان يدمر منظمة بروليتارية مثل الاممية ، ولا شك ان فكرة كهذه ستغضب اولئك الاورثوذكسيين الذين تقشعر ابدانهم هولا اذا قيل ان ماركس وانغلز ربما سهوا عن كتابة حرف ما بشكل كامل . ولكن لو كان ماركس وانغلز اليوم على قيد الحياة ، لما ابديا غير الازدراء الشديد للقول ان النقد الذي لا يرحم ، والذي كان سلاحهما الحاد ، لا يجوز ان يستخدم ضدهما ابدا .

لم تكن عظمة ماركس وانغلز الحقيقية تكمن في انهما لم يعرفا الخطأ على الاطلاق ، وانما كانت في تراجعهما الفوري عن الخطأ عندما يثبت لهما انه فعلا كذلك . ولقد اعترف انغلز عام ١٨٧٤ ان الاممية عاشت اكثر مما يجب . «ولسوف يكون من الضروري ان تلحق بحركة الطبقة العاملة هزيمة عامة كالتي قاستها بين عامي ١٨٤٩ و١٨٦٤ قبل ان تنبثق اممية جديدة ، قبل ان ينبثق حلف من كل الاحزاب البروليتارية في مختلف الاقطار ، على الاسس ذاتها التي قامت عليها الاممية الاولى . اما الان فالعالم البروليتاري اكبر مما يجب واكثر انتشارا مما يجب» . وعزى انغلز نفسه بان الاممية سيطرت على مسرح التاريخ الاوروبي عشر سنوات لمصلحة المستقبل وانه يمكن لها ان تنظر الى الوراء بفخر بسبب ما فعلت .

وفي عام ١٨٧٨ كتب ماركس في نشرة انجليزية ، مهاجما الادعاء بأن الاممية فشلت واصبحت ميتة ، يقول : «ان الاحزاب العمالية الاشتراكية ـ الديمقراطية المنظمة بشكل او بآخر ضمن حدود قومية في المانيا وسويسرا والدنمارك والبرتغال وايطاليا وبلجيكا ، تمثل في الواقع جماعات أممية . لم تعد الاممية فروعا مبعثرة ومنعزلة في مختلف الاقطار يجمعها مجلس عام من الخارج ، بل اصبحت احزابا تجمعها الطبقة العاملة نفسها برباط ثابت ونشيط ومباشر ، يجمعها تبادل الافكار والمساعدة المتبادلة والاهداف المشتركة ... وهكذا فان الاممية لم تمت ولكنها تطورت من مرحلة الى مرحلة اعلى تحقق فيها بالفعل كثير من الاتجاهات الاصلية للاممية . ولسوف يتعرض هذا التطور الثابت الى كثير من التغيرات قبل ان يصبح بالامكان كتابة الفصل الاخير في تاريخه» .

اظهر ماركس في هذه السطور رؤياه النبوية من جديد . ففي وقت كانت فيه احزاب الطبقة العاملة لا تزال في مرحلة النمو وقبل ان تتشكل اممية جديدة بما

يزيد على عقد من الزمن ، تنبأ ماركس بطابعها التاريخي ، ولكنه لم يقل ان هذا الشكل الجديد سيكون نهائيا . لقد كان متأكدا من شيء واحد : ستظل الحيـــاة الجديدة تنبثق من بين رماد الحياة القديمة، الى ان تتمكن روح العصر من تحقيق ذاتها.

٨ ـ مؤتمر لاهاي

كان التعميم الذي اصدره المجلس العام في ٥ اذار قد اعلن عن موعد انعقاد المؤتمر السنوي في بداية ايلول ، وفي اثناء ذلك قرر ماركس وانغلز ان يقترحا نقل مقر المجلس الى نيويورك .

ثار الكثير من الجدال حول ضرورة وحكمة هذا الاقتراح والسبب في تقديمه. فاعتبر البعض انه كان جنازة من الدرجة الاولى تقام للاممية ، وقال آخرون ان ماركس كان يحاول اخفاء حقيقة انه لم يعد في الاممية امل ولا رجاء . غير ان هذه الفكرة تتعارض مع استمرار ماركس وانغلز في دعم الاممية بكل قوة وبذلهما اقصى الجهود لجعلها تستمر في الحياة حتى بعد ان انتقل المجلس العام الى نيويورك . وقيل ايضا ان ماركس كان قد اصبح تعبا بسبب نشاطاته نيابة عن الاممية ، وكان يرغب في تكريس نفسه لعمله العلمي ، ووجدت هذه الفكرة سندا لها في رسالة كان انغلز قد بعث بها الى ليبكنشت في ٢٧ أيار ١٨٧٢ ، وفي هذه الرسالة يشير انغلز الى اقتراح بلجيكي بالغاء المجلس العام برمته فيقول : «اما بالنسبة لنا فليس لدينا اي اعتراض . ذلك اننا لن نكون لا ماركس ولا انا اعضاء فيه على اية حال . فكما هي الامور الان ، ليس لدينا ما يكفي من الوقت لعملنا ، وذلك امر يجب ان يتوقف». ولكن هذا لم يكن اكثر من تعليق عابر في لحظة انزعاج . وحتى لو كان ماركس وانغلز سيرفضان ترشيح نفسيهما من جديد لعضوية المجلس العام ، فان ذلك لم يكن سببا كافيا لنقله الى نيويورك . وبالاضافة الى ذلك ، كان ماركس يرفض دوما ان يهمل الاممية من اجل عمله العلمي ما لم يأت وقت يضمن فيه ان الاممية تسير على خط سليم . ولهذا فان من المستبعد كثيرا ان يكون هذا هو السبب الذي جعـــل ماركس يفكر في ترك الاممية وشأنها خلال اخطر ازمة واجهتها منذ وجودها .

ولعلنا نجد في رسالة كتبها ماركس الى كوغلمان في ٢٩ تموز ما يقربنا مـــن الحقيقة . يقول ماركس في هذه الرسالة «ان مؤتمر الاممية الذي سيفتتح في لاهاي في الثاني من ايلول سيكون مسألة حياة او موت بالنسبة للاممية ، وقبل ان انسحب اريد على الاقل ان احميها من قوى الانحلال» . لقد كان نقل المجلس العام من لندن حيث ازداد انغماسا في الخلافات الى نيويورك جزءاً من خطة ماركس لحماية الاممية من «قوى الانحلال» . فمع ان الاتجاهات الباكونينية لم تكن ممثلة في المجلس العام او كان وجودها فيه ضعيفا الى حد لم تكن معه تشكل خطرا ، الا ان التشوش الذي كان ناشبا بين الاعضاء الالمان والفرنسيين والانجليز اضطر المجلس الى تشكيـــل لجنة فرعية لتبحث في النزاعات المستمرة .

وبالاضافة الى ذلك ، حدث جفاء بين ماركس وعضوين في المجلس العام كانا

سنين طويلة اخلص مساعديه واكفأهم ، وهما ايكاريوس ويونغ . ففي ايار عام ١٨٧٢ وقع شقاق واضح بين ماركس وايكاريوس . فقد كان ايكاريوس يعاني ضائقة مالية حادة ، وكان يظن انه لا يمكن الاستغناء عنه . فقدم اشعارا بتخليه عن منصبه كأمين عام للاممية ما لم يضاعف راتبه المتواضع الذي كان يبلغ خمسة عشر شلنا في الاسبوع . ولكن جرى انتخاب الانجليزي جون هيلز بدلا عنه ، فلام ماركس عن غير حق على ذلك ، مع ان ماركس كان في الواقع يؤيده دوما ضد الانجليز ، رغم انه كان كثيرا ما يعنفه لانه يسرب الى الصحافة البورجوازية معلومات حول الامور الداخلية للاممية ، وبشكل خاص حول المؤتمر المغلق الذي عقدته الاممية في لندن . اما يونغ فقد القى باللوم على انغلز واسلوبه الاوتوقراطي على الجفاء الذي حدث بينه وبين ماركس . ولربما كان ذلك صحيحا الى حد ما ، اذ ربما كان ماركس ، بعد ان صار على اتصال يومي بانغلز ، قد اصبح دون نية سيئة يعير ايكاريوس ويونغ اهتماما اقل من ذي قبل . في حين ان «الجنرال» ، كما كان انغلز يدعى في اوساط المجلس العام ، كان يتكلم بلهجة عسكرية حادة ، وكان الاعضاء يستعدون تلقائيا للصراخ كلما جاء دوره في الحديث في اجتماعات المجلس العام .

وبعد انتخاب هيلز امينا عاما نشأت بينه وبين ايكاريوس عداوة لدود حاز فيها ايكاريوس على تأييد قسم من الاعضاء الانجليز . اما ماركس فلم يحظ بغير القليل من التأييد من الامين العام الجديد . بل على العكس من ذلك ، عندما تأسست فيدرالية انجليزية استنادا الى قرارات مؤتمر لندن ، وعقدت اول مؤتمر لها في نونتنغهام في ٢١ و٢٢ تموز ، اقترح هيلز على المندوبين الحاضرين ان تقيم الفيدرالية علاقات مع الفيدراليات الاخرى مباشرة وليس عن طريق المجلس العام ، كما اقترح ان تقف الفيدرالية في المؤتمر العام القادم الى جانب المطالبة بتعديل القوانين الاساسية بهدف تقليص سلطة المجلس العام . وكان هذا كله يتفق وشعار باكونين «استقلال الفيدراليات في خطر» ، غير ان هيلز سحب الاقتراح الثاني ، اما الاقتراح الاول فقد تم تبنيه ، ولم يظهر المؤتمر اي ميل الى برنامج باكونين ، ولكنه كان بالتأكيد ميالا الى الراديكالية الانجليزية . فعلى سبيل المثال ، وقف المؤتمر الى جانب الملكية العامة للارض ولكنه رفض الملكية العامة لجميع وسائل الانتاج ، وايده هيلز في ذلك ايضا . لقد كان هيلز يتآمر علنا على المجلس العام ، وفي آب اضطر المجلس الى اقصائه عن منصبه .

كان الاتجاه البلانكي سائدا بين الاعضاء الفرنسيين في المجلس العام . وكان البلانكيون موضع ثقة تامة فيما يتعلق بالمسألتين الرئيسيتين المطروحتين ، مسألة النشاط السياسي ومسألة المركزية الشديدة . لكن هؤلاء كانوا يشكلون خطرا اكبر في دعوتهم الاساسية لانقلابات ثورية في وقت كانت الرجعية الاوروبية فيه تنتظر اية ذريعة لتنقض بكل قوتها على الاممية . وفي الواقع كان قلق ماركس من ان يتمكن البلانكيون مرة اخرى من السيطرة على المجلس العام هو على الارجح الذي دفعه الى اقتراح نقل المجلس من لندن الى نيويورك ، حيث يمكن ان يضمن له تركيب اممي وتتأمن سلامة وثائقه ، الامر الذي اصبح مستحيلا في اي مكان في

القارة الاوروبية .

كان لدى ماركس في مؤتمر لاهاي (الذي انعقد من ٢ الى ٧ ايلول عام ١٨٧٢) اغلبية اكيدة ، بفضل قوة تمثيل المندوبين الفرنسيين والالمان . ومع ان خصوم ماركس اتهموه بانه فبرك هذه الاكثرية بشكل مصطنع ، الا ان هذا الاتهام لا اساس له . فعلى الرغم من ان المؤتمر صرف حوالي نصف وقته يبحث الاعتمادات ، الا انه وافق عليها جميعا باستثناء اعتماد واحد . كان ماركس قد كتب فعلا في حزيران الى امريكا اعتمادات لانتداب اعضاء فرنسيين والمان ، كما ان بعض المندوبين كانوا يمثلون فروعا في غير بلادهم ، واستعمل آخرون اسماء مستعارة في المؤتمر حتى لا يقعوا في يد الشرطة عندما يعودون بعد ارفضاض المؤتمر ، او قاموا باخفاء اسماء الفروع التي يمثلونها للسبب ذاته . وهذا ما يفسر الاختلافات الكبيرة في الاعداد التي اوردتها التقارير المختلفة التي كتبت حول المؤتمر فيما يتعلق بتمثيل الاقطار المختلفة فيه .

كان هناك بالتحديد ثمانية مندوبين يمثلون المنظمات الالمانية : برنارد بيكر (برونزويك) ، كانو (شتوتغارت) ، ديتزغن (درسدن) ، كوغلمان (كييل) ، ميلك (برلين) ، ويتنفهوزن (ميونيخ) ، شو (دارتمبرغ) ، شوماخر (سولنغن) . اما ماركس الذي كان ممثلا للمجلس العام فقد حصل ايضا على اعتماد من كل من نيويورك وليبزيغ ومينز ، وحصل انغلز على اعتماد من نيويورك ومن برسلو (بولندا) . وحصل هنبر مندوب ليبزيغ على اعتماد من نيويورك ، كما حصل فريدلاندر مندوب برلين على اعتماد من زيوريخ . وكان هناك مندوبان آخران باسماء المانية هما والتر وسوان ، اللذان كانا في الحقيقة فرنسيين هما هيديفيم ونتراجيه ، وكان كلاهما ذا شخصية مريبة . وعند انعقاد مؤتمر لاهاي ، كان هيديفم قد اصبح بالفعل جاسوسا بونابرتيا . ولما كان المندوبون الفرنسيون ممن فروا بعد سقوط العامية ، فقد ظهروا في المؤتمر باسمائهم الحقيقية . وكان فرانكل ولونغيه من بينهم يؤيدان ماركس ، بينما كان رانفييد وفيلان وغيرهما بلانكيين ، ولكن الاماكن التي حصلوا على اعتماداتهم منها ظلت سرية . ومثل المجلس العام بعضوين انجليزيين هما روش وسكستون وعضو بولندي هو فروبسكي وثلاثة اعضاء فرنسيين هم سيراليه وكورنييه ودوبون ، بالاضافة الى ماركس نفسه . ومثل لسنر جمعية العمال الشيوعيين في لندن . وارسل المجلس الفيدرالي البريطاني اربعة مندوبين كان من بينهم ايكاريوس وهيلز الذي بدأ على الفور مغازلة الباكونيين .

ولم يرسل الباكونيون الايطاليون اي مندوب الى المؤتمر ، اذ كانوا قد عقدوا مداولة في مدينة ريمني قرروا فيها قطع كل العلاقات مع المجلس العام . اما المندوبون الاسبان الخمسة فكانوا باكونيين عدا لافارغ ، وكذلك كان الممثلون البلجيكيون الثمانية والهولنديون الاربعة . وارسلت فيدرالية جورا غيلوم وشفايتز غيبل ، بينما ظلت جنيف مخلصة لبيكر . ومن امريكا جاء اربعة مندوبين هم سورج الذي كان مثل بيكر من اكثر انصار ماركس اخلاصا ، ودريد العضو السابق في العامية والذي كان بلانكيا ، اما المندوب الثالث فكان باكونينيا ، واما الاعتماد الرابع

فقد كان الوحيد الذي لم يعترف به المؤتمر . ومثلت كل من الدنمارك والنمسا وهنغاريا واستراليا بمندوب واحد .
حدثت في المؤتمر مشاهد عاصفة ، حتى اثناء البحث في الاعتمادات الذي استمر ثلاثة ايام . فقد اعترض بشدة على الاعتماد الاسباني للافارغ ، واخيرا اعترف به ضد اقلية امتنعت عن التصويت . وعند مناقشة اعتماد ارسله احد فروع شيكاغو الى عضو يقيم في لندن ، اعترض احد ممثلي المجلس الفيدرالي البريطاني قائلا ان هذا العضو لم يكن معروفا كقائد عمالي ، وعندها اجاب ماركس انه يشرف هذا العضو ان لا يكون قائدا عماليا انجليزيا لان اغلبية هؤلاء باعت نفسها لليبراليين . وعندئذ ووفق على الاعتماد ، الا ان هذه الملاحظة الساخرة اثارت البعض ، واستغلها هيلز واصدقاؤه ضد ماركس بعد المؤتمر . اما ماركس فقد ثبت على تصرفه ، ولم يبد اسفه على الملاحظة التي ابداها ولم يسحبها . وبعد ان انتهى التدقيق في الاعتمادات ، شكلت لجنة خماسية لتقوم بالتمحيص الاولي لعدد من الوثائق الخاصة بالنزاع مع باكونين ، وروعي قدر الامكان عند انتخاب اعضاء هذه اللجنة ان يكونوا بعيدين عن النزاع حول التحالف . فتشكلت من الالماني كانو رئيسا وعضوية كل من الفرنسيين لوكين وفيتشارد ووالتر (هيديغم) والبلجيكي سبلنغارد .
لم يبدأ المؤتمر عمله الفعلي الا في اليوم الرابع ، وذلك بتلاوة تقرير المجلس العام . كان ماركس هو الذي اعد هذا التقرير وتلاه أمام المؤتمر بالالمانية ، ثم تلاه سكستون بالانجليزية ولونغيه بالفرنسية وابيل بالفلامية . حمل التقرير بشدة على كل اعمال العنف التي ارتكبت ضد الاممية من الاستفتاء البونابرتي الى القمع الدموي لعامية باريس وجرائم تيير وفافر والاعمال الشائنة للوزارة الفرنسية ومحاكمات الخيانة العظمى في المانيا ، حتى ان الحكومة الانجليزية لم تنج من التوبيخ بسبب الارهاب الذي مارسته ضد الفروع الايرلندية وبسبب التحقيقات التي كانت تقوم بها سفاراتها في الخارج حول فروع الاممية . ومضى التقرير الى القول ان الحملة الشرسة التي قامت بها الحكومات ترافقت مع حملة مكثفة من الكذب جندت لها كل قوى العالم المتمدن . لقد قذفت الاممية بالافتراءات والبرقيات المثيرة والتزييف الوقح للوثائق العامة ، مثل الافتراء النموذجي الجهنمي الذي ينسب للاممية حريق شيكاغو الكبير . انه لأمر عجيب ، يقول البيان ، ان الاعصار الذي دمر جزر الهند الغربية لم ينسب هو ايضا الى الاممية .
وردا على هذه الحملة الوحشية ، اوجز تقرير المجلس العام التقدم المطرد الذي حققته الاممية : تغلغلها في هولندا والدنمارك والبرتغال وايرلندا وسكوتلندا ، ونموها في الولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا وبيونس ايريس . ووفق على التقرير وسط التصفيق والهتاف ، وبناء على اقتراح تقدم به مندوب بلجيكي سجل المؤتمر اعجابه بجميع ضحايا النضال البروليتاري من اجل الانعتاق وتعاطفه معهم .
ثم بدأ النقاش حول المجلس العام . فقام لافارغ وسورج بالدفاع عن بقائه على اساس الصراع الطبقي : ان النضال اليومي للطبقة العاملة ضد الرأسمالية لا يمكن ان يشن بفعالية دون هيئة مركزية ، ولو ان المجلس العام لم يكن موجودا لكان من

الضروري ان نوجده . وكان المتحدث الرئيسي باسم المعارضة هو غيلوم ، فنفى ان تكون هناك حاجة الى مجلس عام الا اذا كان مكتبا مركزيا للمراسلة والاحصاء ودون ان تكون لديه اية سلطات . فالاممية لم تكن اختراع رجل ذكي يمتلك نظرية سياسية واجتماعية معصومة عن الخطأ ، ولكنها كما يعتقد ممثلو الجورا نجمت عن ظروف وجود الطبقة العاملة ، وهذه الظروف ذاتها توفر ضمانة كافية لوحـدة جهود الطبقة العاملة .

انتهى النقاش في اليوم الخامس للمؤتمر خلف ابواب مغلقة ، كما كانت مناقشة الاعتمادات قد جرت خلف ابواب مغلقة كذلك . وفي خطاب طويل القاه ماركس ، لم يطالب فقط بالحفاظ على سلطات المجلس العام السابقة ، بل طالب ايضا بزيادتها: يجب ان يكون للمجلس العام الحق ، في ظروف معينة ، ليس في تعليق فروع معينة فحسب بل في تعليق فيدراليات كاملة الى ان يبت في الامر مؤتمر قادم . والمجلس العام الذي لا يملك تحت امرته لا شرطة ولا عسكرا لا يستطيع ان يسمح لقوته الادبية بالاضمحلال . انه لمن الافضل ان يلغى المجلس العام تماما على ان يتحول الى مجرد صندوق بريد . فازت وجهة نظر ماركس باغلبية ٣٦ صوتا مقابل ٦ اصوات وامتناع ١٥ عن التصويت .

بعد ذلك اقترح انغلز ان ينقل المجلس العام من لندن الى نيويورك ، واشار الى انه جرى التفكير في عدد من المناسبات بنقل المجلس من لندن الى بروكسل رفضت ذلك باستمرار ، في حين ان الظروف السائدة تحتم نقل المجلس الى نيويورك . واضاف ان ذلك يجب ان يتم لسنة واحدة على الاقل . اثار الاقتراح دهشة عامة كانت في معظمها دهشة استنكار. فقد هاجمه المندوبون الفرنسيون بعنف، ونجحوا في حمل المجلس على التصويت اولا حول ما اذا كان يتوجب نقل المجلس من حيث المبدأ ثم يجري التصويت حول ما اذا كان يتوجب نقله الى نيويورك او الى مكان اخر . ففاز الاقتراح بنقل المجلس باغلبية بسيطة هي ستة وعشرون صوتا مقابل ثلاثة وعشرين وامتناع تسعة عن التصويت ، بينما ايد ثلاثون نقله الى نيويورك . وبعد ذلك جرى انتخاب اثني عشر عضواً في المجلس العام الجديد ومنحوا حق اختيار سبعة اعضاء اخرين .

افتتح النقاش حول العمل السياسي في الجلسة ذاتها ، فطرح فيلان مشروع قرار بروح قرار مؤتمر لندن ، معلنا ان الطبقة العاملة يجب ان تشكل حزبهـا السياسي الخاص المستقل والمعادي لجميع الاحزاب السياسيـة البورجوازية . واستشهد فيلان ومن بعده لونغين بدروس عامية باريس التـي انهارت بسبب افتقارها الى برنامج سياسي . ومن جهة اخرى ، اشار غيلوم الى احداث سويسرا حيث قام العمال اثناء الانتخابات باقامة تحالفات انتخابية مع الراديكاليين احيانا واحيانا اخرى مع الرجعيين ، وقال ان فروع جورا لا تريد ان يكون لها شأن بهذا الخداع ، فاعضاؤها هم ايضا سياسيون ولكنهم سياسيون سلبيون . انهم يريدون تدمير السلطة السياسية لا السيطرة عليها .

استمر النقاش حتى اليوم التالي ، اليوم السادس والاخير في المؤتمر الذي بدأ

بمفاجأة . فقد غادر رانفييه وفيلان والبلانكيون الاخرون المؤتمر بسبب القرار الذي اتخذ بنقل المجلس العام الى نيويورك ، تاركين وراءهم رسالة يعلنون فيها « ان الاممية انهارت عندما دعيت الى القيام بواجبها . لقد هربت من الثورة الى ما وراء الاطلنطي» . تسلم سورج رئاسة المؤتمر عوضا عن رانفييه ، ثم ووفق على اقتراح فيلان باغلبية خمسة وثلاثين صوتا ضد ستة وامتناع ثمانية عن التصويت . وكان عدد من المندوبين قد عاد الى بلاده ، ولكنهم تركوا رسائل مكتوبة تحدد موقفهم المؤيد من مشروع القرار .

خصصت الساعات الاخيرة من اليوم الاخير للمؤتمر للاستماع الى تقرير اللجنة الخماسية حول باكونين والتحالف . اعلنت اللجنة باغلبية اربعة اصوات مقابل واحد (هو العضو البلجيكي) انهـــا ترى من الثابت ان تحالفا سريا قـــد وجد بقوانين اساسية تتناقض مباشرة مع القوانين الاساسية للاممية ، ولكن ليس هناك دليل كاف على ان التحالف ما زال موجودا . وقالت اللجنة انه ثبت ثانيا من خلال مسودة القوانين الاساسية للتحالف ومن رسائل باكونين انه حاول ان يشكل ، وربما نجح في تشكيل ، جمعية سرية داخل الاممية بقوانين اساسية تختلف جذريا عن قوانين الاممية سياسيا واجتماعيا . واستنادا الى ذلك ، طالبت اللجنـــة بطرد باكونين وغيلوم وعدد من انصارهما من الاممية . ولم يقدم كانو الذي تلى تقرير اللجنة اي دليل مادي ، ولكنه اعلن ان اغلبية اللجنة قد وصلت الى يقين ادبي بصحـــــة استنتاجاتها ، وطلب الثقة من المؤتمر على هذا الاساس .

طلب الرئيس من غيلوم ان يدافع عن نفسه ، وكان غيلوم قد رفض المثول امام اللجنة . فوقف هذا واعلن انه لن يحاول الدفاع عن نفسه لانه لا يرغب في الاشتراك في مهزلة . وقال ان الهجوم لم يكن موجها ضد عدد من الافراد ، بل ضد الاتجاهات الفيدرالية بوجه عام . اما ممثلو هذه الاتجاهات ، بقدر ما كانوا لا يزالون حاضرين في المؤتمر ، فقد استعدوا لمثل هذا واعلنوا اتفاقية تضامن . ثـــم قام مندوب هولندي وقرأ هذه الاتفاقية ، التي كانت موقعة من خمسة بلجيكيين واربعة اسبان ومندوبين اثنين من اليورا وامريكي واحد وهولندي واحد . واعلنت الاتفاقية ان الموقعين يرغبون الحفاظ على علاقات ادارية مع المجلس العام تجنبا لاي انقسام في صفوف الاممية ، ولكنهم يرفضون اي تدخل من جانب المجلس في الشؤون الداخلية للفيدراليات اذا تم هذا التدخل على اساس ان الفيدراليات خرقت القوانين الاساسية للاممية . وناشد الموقعون جميع الفيدراليات والفروع ان تهيء للمؤتمر التالي كي تنتصر فيه مبادىء المشاركة الحرة . لكن المؤتمر لم يكن على استعداد للتفاوض ، فطرد باكونين في الحال باغلبية سبعة وعشرين صوتا ضد سبعة وامتناع ثمانية عن التصويت . اما باقي اقتراحات اللجنة الخاصة بالطرد فقد رفضت ، ولكن طلب منها ان تنشر ما ورد في تقريرها حول التحالف .

٩ ــ آلام الوداع

انتهى تاريخ الاممية الاولى بمؤتمر لاهاي ، رغم كل جهود ماركس وانغلز للابقاء

عليها حية . لقد حاولا اقصى ما يستطيعان تسهيل عمل المجلس العام الجديد في نيويورك ، ولكن هذا لم ينجح في تثبيت أقدامه على الارض الامريكية . فقد كان هناك ايضا الكثير من النزاعات بين الفروع في امريكا ، بالاضافة الى ان الحركة هناك كانت تفتقر الى الخبرة والاتصالات والى القوى الفكرية والوسائل المادية . كان سورج هو حياة وروح المجلس الجديد ، وكان على معرفة تامة بالظروف الامريكية وعارض نقل المجلس الى نيويورك . وقد اعتذر في البداية عن قبول انتخابه امينا عاما ، ثم عاد ووافق على ذلك لان اخلاصه لم يسمح له بخذلان الاممية في وقت كانت احوج ما تكون فيه الى خدماته .

ان استخدام وسائل دبلوماسية في الشؤون البروليتارية امر سيء على الدوام. فقد كان لدى ماركس وانغلز من الاسباب ما يجعلهما يخشيان ان يواجه اقتراحهما بنقل المجلس العام من لندن الى نيويورك بمعارضة عنيفة من العمال الالمان والفرنسيين والانجليز ، وحاولا اخفاء مقاصدهما اطول مدة ممكنة كي لا يضيفا نزاعا جديدا الى النزاعات العديدة القائمة . ومع انهما نجحا في مفاجأة مؤتمر لاهاي الا ان النتائج كانت سيئة . فالمقاومة التي كانا يخشيانها لم تخف حدتها ، بل على العكس من ذلك ازدادت قوة ومرارة .

كانت مقاومة الالمان هي الاقل عنفا نسبيا . ومع ان ليبكنشت كان ضد نقل المجلس العام واعلن باستمرار ان ذلك خطأ ، الا انه كان في ذلك الحين سجينا مع بيبل في هوبرتوسبورغ . وكان اهتمامه بالاممية قد تضاءل الى حد كبير . كما كان هذا هو حال الاكثرية في جناح ايزناخ ايضا . اما الانطباع الذي عاد به مندوبو الجناح الى مؤتمر لاهاي فلم يكن له من اثر غير زيادة عدم الاكتراث . كتب انغلز في ٨ ايار عام ١٨٧٣ رسالة الى سورج قال فيها : «على الرغم من ان لدى الالمان هم ايضا نزاعاتهم مع اللاساليين ، الا انهم اصيبوا بخيبة أمل كبيرة في لاهاي ، فقد كانوا يتوقعون ان يجدوا انسجاما واخوة قياسا بنزاعاتهم الخاصة . لقد اصبحوا غير مبالين» . لربما كان هذا هو السبب الذي حدا بالاعضاء الالمان في الاممية الى عدم ابداء معارضة شديد لنقل المجلس العام .

كان الامر الاكثر خطورة يتمثل بانسحاب البلانكيين ، الذين كان ماركس وانغلز يريان انهم يأتون بعد الالمان ومعهم في المسائل الحاسمة المطروحة والذين اعتمدا بشكل خاص على تأييدهم ضد البرودونيين، الفرع الفرنسي الاخر الذي جعله موقفه يميل الى الباكونيين بوجه عام . فقد تضاعفت مرارة البلانكيين عندما عرفوا ان قرار نقل المجلس العام الى نيويورك اتخذ للحيلولة دونهم والسيطرة عليه واستخدامه في دعم تاكتيكاتهم التآمرية . على اية حال ، كانت فرنسا مغلقة في وجه تحريض البلانكيين ، فما ان افترقوا عن الاممية حتى راحوا ضحية المصير المعتاد للمهاجرين. فاعلن انغلز في رسالة بعث بها الى سورج في ١٢ ايلول عام ١٨٧٤ : «لقد تحول المهاجرون الفرنسيون الى جماعات صغيرة فتشاجروا مع بعضهم البعض ومع الاخرين لاسباب شخصية صرفة ، وغالبا بسبب امور مالية ، ولسوف نتخلص منهم تماما في وقت قريب ... لقد افسدت الحرب والعامية والمنفى اخلاقهم الى حد

مخيف ، ولا يستطيع غير ظرف صعب تخليص فرنسي انحطت اخلاقه» . غير ان هذا كان عزاء باردا جدا .

كذلك كان لنقل المجلس العام الى نيويورك اسوأ النتائج على الحركة في انجلترا. ففي ١٨ ايلول تقدم هيلز باقتراح الى المجلس الفيدرالي البريطاني يطلب فيه التصويت على لوم ماركس بسبب ما قاله حول فساد قادة الطبقة العاملة الانجليزية، ووفق على الاقتراح ورفض بتعادل الاصوات تعديل له يقول ان ماركس نفسه لم يكن يؤمن بالتهمة التي القاها ، ولكنه فعل ليخدم اغراضه الخاصة فحسب . وذكر هيلز انه يعتزم تقديم مشروع قرار يدعو الى طرد ماركس من الاممية ، بينما اعلن عضو اخر عن مشروع قرار برفض قرارات مؤتمر لاهاي .

ثم استمر هيلز في علاقاته العلنية مع فيدرالية جورا التي كان قد اقامها سرا في لاهاي . ففي ٦ تشرين الثاني كتب الى هذه الفيدرالية باسم المجلس الفيدرالي البريطاني قائلا ان نفاق المجلس العام القديم قد افتضح الان . فقد حاول ان يقيم جماعة سرية داخل الاممية بحجة القضاء على جماعة سرية اخرى كانت مجرد اختلاق من بنات افكاره ، وذلك كي يحقق اغراضه الخاصة . وفي الوقت ذاته اشار هيلز الى ان الانجليز لم يكونوا متفقين سياسيا مع فيدرالية جورا ، فهم مقتنعون بجدوى العمل السياسي ، ولكنهم بالطبع على استعداد لاعطاء الفيدراليات الاخرى استقلالا كاملا حسب ما تتطلبه الاوضاع المختلفة في الاقطار المختلفة .

وبعد ذلك وجد هيلز لنفسه حليفين غيورين في ايكاريوس ويونغ ، وخاصة يونغ الذي اصبح بعد تردد قصير من اعنف خصوم ماركس وانغلز . لقد ارتكب ايكاريوس ويونغ خطيئة شنيعة، اذ اخضعا تقييماتهما السياسيةلاعتبارات شخصية بالدرجة الاولى ، مثل الغيرة والحساسية اللتين ثارتا في نفسيهما لان ماركس اظهر اهتماما اكبر تجاه انغلز ، او هكذا بدا ، ومثل تخليهما عن المركز المشرف والمؤثر الذي كانا به كعضوين في المجلس العام . ولسوء الحظ ، تعاظم الضرر الذي الحقاه بسبب موقعهما السابق هذا بالذات ، فقد عرفا من قبل في عدد من المؤتمرات بأنهما اكثر مؤيدي افكار ماركس غيرة وثقة ، فلما ناشدا تسامح فيدرالية جورا ضد تعصب قرارات لاهاي ، بدا ذلك وكأنه برهان قاطع واكيد على دكتاتورية ماركس وانغلز .

وفي هذه الحالة ايضا ، كان القول انهما ما دمرا الا نفسيهما مجرد عزاء بارد لا حياة فيه . لقد واجها مقاومة عنيفة في الفروع الانجليزية وخاصة في الفروع الايرلندية وحتى في المجلس الفيدرالي نفسه . ولكنهما بعد ذلك قاما بشبه انقلاب في الفرع الانجليزي ، فاصدرا نداء الى جميع الفروع وجميع الاعضاء يعلنان فيه ان المجلس الفيدرالي البريطاني منقسم على نفسه الى حد اصبح معه استمرار التعاون مستحيلا . وطالبا بالدعوة الى مؤتمر عام للفروع البريطانية للبحث في صلاحية قرارات لاهاي التي زعم نداؤهما انهما لم تقران العمل السياسي ملزم لكل فروع الاممية فحسب ـــ لان ذلك ، يقول النداء ، كان راي الاكثرية ايضا ـــ بل انها ايضا تعني ان على المجلس العامان يقرر السياسات التي يجب انتختطها الفيدراليات

في بلدانها . ردت الاقلية على هذه المكائد في الحال ببيان مضاد يبدو انه كان من اعداد انغلز ، وقد أدان هذا البيان المؤتمر المقترح واعتبره غير قانوني ، الا ان هذا المؤتمر عقد بالفعل في ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٧٣ لان اكثرية الفروع ايدت عقده ، وكانت هي وحدها الممثلة فيه عند انعقاده .

افتتح هيلز هذا المؤتمر بهجوم عنيف على المجلس العام القديم وعلى مؤتمر لاهاي ، وأيده في ذلك يونغ وايكاريوس بكل قوة . ثم ادان المؤتمر بالاجماع قرارات لاهاي ورفض الاعتراف بالمجلس العام الجديد في نيويورك . واعلن المؤتمر ايضا انه يؤيد عقد مؤتمر أممي جديد حالما تعرب اغلبية الفيدراليات عن رغبتها في عقد مؤتمر كهذا . وهكذا اكتمل الانقسام في الفيدرالية البريطانية ، واثبت كلا الطرفين انه اضعف من ان يقوم بدور فعال فيالانتخابات العامة التي جرت عام١٨٧٤ واطاحت بحكومة غلادستون . وزاد عجزهما في هذه الانتخابات نتيجة تدخل النقابات التي خاضت المعركة الانتخابية بعدد من المرشحين واستطاعت لاول مرة ايصال اثنين منهم الى البرلمان .

انعقد المؤتمر السادس للاممية في ٨ ايلول في جنيف بناء على دعوة من المجلس العام في نيويورك . ويمكن القول ان هذا المؤتمر وضع صك وفاة الاممية . وكان مؤتمر باكونيني مضاد قد عقد في اول ايلول ، وحضره مندوبان انجليزيان هما ايكاريوس وهيلز وخمسة مندوبين من كل من بلجيكا وفرنسا واسبانيا واربعة مندوبين من ايطاليا ومندوب واحد من هولندا وستة مندوبين من يورا ، بينما كان معظم الذين حضروا المؤتمر الماركسي من السويسريين ومعظمهم من جنيف ، حتى ان المجلس العام لم يتمكن من ارسال مندوب عنه ، ولم يكن في المؤتمر اي انجليزي او فرنسي او اسباني او برتغالي او ايطالي وحضره الماني واحد ونمسوي واحد . وقد تباهى بيكر بأنه أحضر بطريقة ما ثلاثة عشر مندوبا من المندوبين الذين لم يصل عددهم الثلاثين ، وذلك كي يزيد من مكانة المؤتمر ويتأكد من ضمان الاغلبية . ولكن ماركس لم يكن ليسمح لنفسه بالوقوع ضحية خداع الذات فاعترف صراحة بأن المؤتمر اخفق «اخفاقا تاما» ، ونصح المجلس العام ان لا يشدد على الناحية التنظيمية الرسمية ، بل يعمد للاحتفاظ بسيطرته على الحلقة المركزية في نيويورك اذا كان بامكانه ذلك حتى لا تقع في ايدي حمقى ومغامرين يمكن ان يلحقوا الضرر بالقضية . وقال ان الاحداث ذاتها والتطور الحتمي والمعقد للاشياء سوف يضمن بكل تأكيد انبعاث الاممية في شكل افضل .

الفصل الخامس عشر

العقد الاخير

١ ـ ماركس في البيت

في نهاية عام ١٨٥٣ ، وبعد ان لفظت عصبة الشيوعيين آخر انفاسها ، اعتزل ماركس في غرفة مكتبه ، وفعل الشيء ذاته مع اقتراب نهاية عام ١٨٧٨ بعد ان هدأت اخر خلجات موت الاممية ، لكن العزلة كانت هذه المرة الى الابد .

كثيرا ما وصف العقد الاخير من حياة ماركس بانه «موت بطيء» ولكن في هذا الكثير من المبالغة . صحيح ان الصراعات التي نشبت بعد سقوط عامية باريس كانت لصحته ضربات قاصمة : فعانى في خريف ١٨٧٣ كثيرا من راسه واصبح مهددا بالصرع ، بينما جعلته حالة الهبوط العقلي المزمن غير قادر على العمل وحرمته من كل رغبة في الكتابة . غير انه شفي من ذلك بعد عدة اسابيع من العلاج في مانشستر على يدي الدكتور غمبرت ، الذي كان صديقا لانغلز والذي كان ماركس يثق به ثقة مطلقة .

ذهب ماركس بناء على نصيحة من غمبرت الى كارلسباد في عام ١٨٧٤ وفي السنتين اللاحقتين . وفي عام ١٨٧٧ ذهب الى بادنونار ، ولكن في عام ١٨٧٨ ، حدثت محاولتان لاغتيال القيصر الالماني ، فاغلقت الحملة الشرسة المعادية للاشتراكية القارة الاوروبية في وجهه . غير ان الزيارات الثلاث الى كارلسباد كانت قد ناسبته، فتغلب على الم الكبد تماما تقريبا ، فبقيت اضطرابات المعدة المزمنة والارهاق العصبي الذي كان يسبب له صداعا حادا وأرقا عنيدا . لكن هذه الآلام كانت تختفي الى هذا الحد او ذاك بعد زيارة لشاطىء البحر في الصيف لتعود ثانية في السنة اللاحقة .

لعله كان من الممكن ان يستعيد ماركس صحته لو انه منح لنفسه الراحة والسكينة اللتين كان يحق له ان ينالهما ، وهو على اعتاب الستين ، بعد القدر الضخم من العمل الذي

قام به في شبابه والمعاناة التي قاساها اذ ذاك . ولكنه لم يكن ليحلم بذلك ، بل كان بدلا من ذلك يندفع بكل حماسته القديمة في الدراسات الضرورية لاتمام عمله العلمي، تلك الدراسات التي اتسع مداها الى حد بعيد في تلك الاثناء .

كتب انغلز يقول : «بالنسبة لرجل كان يدرس كل شيء ليكتشف منشأه التاريخي وشروط تطوره ، كانت كل مسألة تؤدي بالطبع الى مسائل جديدة . وعلى الاخص درس ماركس التاريخ القديم وعلم الزراعة والروسية وعلاقات ملكية الارض في اميركا والجيولوجيا الخ وذلك لكي يجعل القسم المتعلق باجارة الارض من الكتاب الثالث اكمل وأشمل من اي معالجة سابقة للموضوع . لقد كان ماركس يقرأ كل اللغات الجرمانية واللاتينية الحديثة بسهولة ، ثم تعلم بعد ذلك السلافية القديمة والروسية والصربية» . ولم يكن ذلك كله يستغرق منه سوى نصف وقته ، ذلك ان ماركس ، على الرغم من اعتزاله الحياة العامة ، كان لا يزال نشيطا في حركات الطبقة العاملة الاوروبية والاميركية . فقد كان يراسل تقريبا جميع قادة الطبقة العاملة في البلدان المختلفة ، وكان هؤلاء يأتونه كلما سنحت الفرصة ليستوضحوا رأيه في المسائل الهامة . لقد اصبح اكثر فاكثر مستشار البروليتاريا المناضلة .

وصف لافارغ ماركس في السبعينات وصفا ساحرا كذلك الذي وصف به ليبكنشت ماركس في الخمسينات . فقال ان حماه لا بد ان يكون ذا بنية متينة ليستطيع الصمود في وجه نمط غير معتاد من الحياة ويقوم بنشاطات فكرية مرهقة. « لقد كان في الواقع قويا جدا . وكان طوله اكثر من المعدل ، وكتفاه عريضان وصدره ممتلىء واطرافه متناسقة ، رغم أن عموده الفقري كان اطول بقليل بالمقارنة مع رجليه ، وهذه خاصة كثيرا ما توجد في اليهود » . وليس في اليهود فحسب ، فقد كانت بنية غوته كذلك هو الآخر ، حتى انه سمي بالعملاق الجالس ، لانه واحد من اولئك الذين يبدون وهم جالسين اضخم بكثير مما هم فعلا .

ويرى لافارغ ان ماركس كان يمكن أن يكون ذا قوة غير معتادة لو انه مارس الرياضة في الشباب، ولكن الشكل الوحيد من النشاط الجسدي الذي كان يمارسه بانتظام هو المشي . فقد كان يمشي لساعات ، وهو يتحدث طوال الوقت ، أو يصعد المرتفعات دون ان تبدو عليه اية علامة من علامات الانهاك ، ولكن حتى هذا الشكل من النشاط الجسدي ، كان يمارسه أكثر مما يمارسه في غرفة مكتبه ، ولسبب وحيد هو انه يعينه على ترتيب افكاره . لقد كانت السجادة في تلك الغرفة تبدي بوضوح شريطا يمتد من النافذة الى الشباك وكأنه طريق شقته وطأة الاقدام في أرض خضراء .

وعلى الرغم من أن ماركس لم يكن يأوي الى الفراش الا في ساعة متأخرة جدا ، الا أنه كان دائما يستيقظ صباح اليوم التالي بين الثامنة والتاسعة ، فيشرب القهوة السوداء ويقرأ الصحف ، لينسحب بعدها الى غرفة مكتبه ويظل هناك حتى منتصف الليل وابعد، فلا يخرج الا لتناول وجبات طعامه ، او ليتمشى في الامسيات الجميلة عبر هامبستيدهيث . وكان يستلقي في العصر على كنبة مدة ساعة او ساعتين . كان العمل قد أصبح شهوة جامحة استبدت به الى حد أصبح معه كثيرا ما ينسى

وجبات طعامه ، فكان على معدته أن تعاني من جراء ذلك ، ومن جراء نشاطه الفكري الفائق . وكان ماركس غير اكول ، ويعاني من فقدان الشهية ، فيلجأ الى معالجة ذلك بأكل الاغذية المبهرة والسمك المدخن والكافيار والمخللات . كذلك لم يكن يشرب كثيرا ، وان لم يكن ممتنعا عن الشراب ، بل كان ككل ابناء الراين يتذوق النبيذ الجيد . اما من ناحية أخرى فقد كان كثير التدخين ويستهلك الكثير من أعواد الثقاب . ولقد اعتاد أن يقول ضاحكا ان كتابه « راس المال » لن يدر عليه من المال ما يكفي لتعويض ما انفقه على السيجارات التي دخنها خلال كتابته له . ولا شك انه كان عليه خلال سنوات الفقر الطويلة أن يدخن اصنافا سيئة ، ونتيجة لذلك أصاب التدخين صحته بالضرر ، وفي الواقع حظر الطبيب عليه التدخين عددا من المرات .

كان ماركس يقصد الراحة العقلية في الادب ، فظل الادب عزاء كبيرا له طيلة حياته . وكان يملك معرفة واسعة في هذا المجال دون ان يفخر بذلك أبدا . فأعماله عدا عن سجاله ضد فوخت ، لا تدل الا على القليل من سعة اطلاعه ، عدا بالطبع ما هو ضروري للغرض المباشر لما يكتبه . اما في كتابه ردا على فوخت ، فقد استخدم مقتطفات عدة من الآداب الاوروبية جميعا .

وكما أن العمل العلمي الذي قام به ماركس كان مرآة لحقبة كاملة ، كذلك كان من يفضلهم من الادباء هم اولئك الذين كانت اعمالهم مرآة للحقب التي عاشوا فيها : من أخيل الى هومر الى دانته وشكسبير وسيرفانته وغوته . ويقول لافارغ أن ماركس كان يقرأ اخيل في النص الاغريقي الاصلي مرة واحدة في السنة على الاقل . فقد كان على الدوام صديقا حميما للاغريق القدماء ، وكان يستشيط حنقا على اولئك الذين يريدون ان يحرموا العمال من تذوق ثقافة العالم الكلاسيكي .

وكانت لماركس معرفة كاملة بالادب الالماني تعود الى القرون الوسطى . وكان غوته وهاينه هما المفضلان لديه من بين الكتاب الالمان المحدثين . ويبدو أن اطنان المديح التي كان يغدقها الجهلة المدعون الالمان على « مثالية » ستيللر التي اسيء فهمها الى هذا الحد أو ذاك ، جعلت ماركس ينفر من هذا الشاعر منذ ايام شبابه ، فبدت له هذه « المثالية » مجرد محاولة لتغطية تعاسة ادبية مبتذلة بكلمات رنانة . ويبدو أن ماركس لم يعد بعد خروجه من المانيا يهتم بالادب الالماني الحديث ، فهو لا يذكر كتابا مثل هيبل وشوبنهاور اللذين كانا يستحقان الالتفات اليهما ، أما تصهير ريتشارد فاغنر للميثولوجيا الالمانية فيتلقى من ماركس نقدا لاذعا .

اما من الكتاب الفرنسيين فقد كان يقدر ديدرو ويعتبر «ابن اخ رامو» رائعة من بدايتها حتى نهايتها . كذلك كان أدب الاستنارة الفرنسي ، الذي وصفه انغلز بأنه يمثل أرفع انجازات العقل الفرنسي شكلا وموضوعا ، يحوز على اعجاب ماركس ، اما الرومانسيون الفرنسيون فقد كان يرفضهم بصورة قاطعة وعلى الاخص شاتوبريان الذي كان ماركس يكره فيه عمقه المزيف ومبالغاته البيزنطية وعاطفيته المفرطة التي لا تساوي شيئا . اما من ناحية اخرى فقد ملأته رائعة بلزاك «الكوميديا الانسانية » حماسة واعتبرها تصور في مرآة الادب حقبة كاملة . وكان في الواقع ينوي أن يكتب دراسة عن بلزاك ، بعد أن يتم هو عمله العظيم « رأس المال » ، ولكن

هذه الخطة لم تسفر عن شيء ككثير غيرها من خططه .

وبعد أن أصبح ماركس يقيم في لندن ، احتل الادب الانجليزي المكانة الاولى لديه ، وصار شكسبير يستحوذ على جل اهتمامه ، وفي الواقع كانت العائلة كلها تمارس نوعا من العبادة لشكسبير . غير أن ماركس لم يعالج يوما موقف شكسبير من قضايا عصره ، اما بالنسبة لبايرون وشيللي فقد أعلن ان من يحب ويفهم هذين الشاعرين ، لا بد ان يعتبر ان حسن الطالع هو الذي جعل بايرون يتوفى عن ستة وثلاثين عاما ، فلو عاش أكثر من ذلك لانتهى بالتأكيد رجعيا بورجوازيا ، أما وفاة شيللي عن تسعة وعشرين عاما فأمر مؤسف ، فقد كان ثوريا تماما ، ولو عاش لظل في ركب الاشتراكية طيلة حياته . كذلك كان ماركس يقدر روايات القرن الثامن عشر الانجليزية ، وعلى الاخص رائعة فيلدينغ « توم جونز » ، التي كانت بطريقتها الخاصة مرآة للعصر الذي عاش فيه المؤلف . كما اعتبر ماركس أن عددا من روايات والتر سكوت يحتل مكانة اولى بين الروايات من نوعه .

كان ماركس في احكامه الادبية متحررا من كل تحيز سياسي او اجتماعي ، كما يثبت من اعجابه بشكسبير ووالتر سكوت . ولكنه لم يعتنق يوما فكرة « الجمالية المحصنة » ولا فكرة « الفن من أجل الفن » التي كثيرا ما تقترن بعدم الاكتراث السياسي بل وحتى بالخنوع السياسي . لقد كان في هذا المضمار ايضا فحلا ذا عقلية مستقلة لا تقاس بالمعايير المعهودة . وفي الوقت ذاته لم يكن بالغ التشدد في اختيار ما يقرأ . وقد كان كداروين وبسمارك يلتهم الروايات التهاما ، وقد شغف منها بالاقاصيص المرحة وحكايا المغامرات . فانحدر في سعيه اليها من سيرفانتس وبلزاك وفيلدنغ الى بول دي كوك واسكندر دوماس الاكبر .

كذلك كان ماركس يجدد نشاطه العقلي على مستوى آخر مختلف تماما ، هو الرياضيات . فقد كان يلجأ خاصة في اوقات القلق العقلي والمعاناة الى العزاء في الرياضيات ، التي كان لها تأثير مهدىء عليه . وقد ادعى انغلز ولافارغ أنه اكتشف اكتشافات مستقلة في هذا المضمار ، لكن علماء الرياضيات الذين راجعوا مخطوطاته بعد وفاته لم يقروا هذا الراي .

لم يكن ماركس ، رغم كل اهتماماته الفكرية ، فاغنر آخر يعيش في متحف ولا يرى العالم الا عن بعد ، كما لم يكن فاوستا تتصارع في صدره روهان . لقد كان يقول دائما « العمل من أجل العالم » ، وكان يشعر أن من ييسر له حسن حظه أن يكرس نفسه للبحث العلمي يجب أن يضع نفسه في خدمة الانسانية . لقد كان هذا الموقف الفكري هو الذي جعل الدم ينبض قويا في عروقه والنخاع حيا في عظامه . وفي محيط عائلته ، وبين اصدقائه ، كان الرفيق الودود الذي تنطلق ضحكاته بسهولة . أما أولئك الذين كانوا يسعون الى لقاء « الدكتور الارهابي الاحمر » ، كما أصبح يسمى بعد عامية باريس ، فلم يكونوا يجدون فيه المتعصب الحانق ولا الفيلسوف المسترخي ، بل كانوا يجدون فيه رجل دنيا يجيد الحديث في كل موضوعات الحديث .

يدهش قراء ماركس للسهولة التي تنزلق فيها روحه المتقدة من توتر الغضب الى التأمل الفلسفي الهادىء العميق ، ويبدو أن ذلك أصاب بالدهشة ايضا من كانوا يستمعون اليه ، فقد قال هايدمان مشيرا الى حديث بينه وبين ماركس :

« بينما كان يتحدث بحنق شرس عن سياسة حزب الاحرار ، خاصة تجاه ايرلندا ، كانت عينا المحارب القديم الصغيرتان الفائرتان تتقدان باللهب ، وحاجباه الكثيفان مجعدين، ووجهه وأنفه العريض القوي يتحركان حماسة. كل ذلك بينما كان يطلق سيلا من الشجب العنيف ، دلّ فيه على مزاجه الحار مثلما دل فيه على تمكنه الرائع من لغتنا (الانجليزية) . وكانت المفارقة واضحة جدا بين طريقته في الحديث عندما كان يتحدث بغضب ، وبين سلوكه عندما تحدث عن آرائه في الاحداث الاقتصادية . فقد تحول من لعب دور النبي الى دور الفيلسوف الهادىء دون ان يبذل في ذلك أي جهد ، وشعرت منذ البداية أن سنوات طويلة ستمر قبل ان أكف عن تلقي العلم على يديه في هذا المجال » .

استمر ماركس مترفعا عن النشاط الاجتماعي ، رغم انه أصبح في ذلك الحين أكثر شهرة مما كان قبل ذلك بعشرين عاما ، وفي الواقع تعرف هايدمان اليه من خلال عضو محافظ في البرلمان . غير أن بيته أصبح في السبعينات يشهد الكثير من الرواح والغدو ، فقد أصبح ملجأ للهاربين من اعضاء العامية يجدون فيه العون والنصح . ولا شك في أن هؤلاء جلبوا في أثرهم الكثير من الضجيج والمضايقة ، مما جعل السيدة ماركس ، رغم حسن ضيافتها ، تقول بعد أن هدأ ضجيج الموجة الاولى منهم : « لقد كان لدينا ما يكفي من العمل » .

ولكن كانت هناك استثناءات . ففي عام ١٨٧٢ ، تزوج شارل لونغيه ، الذي كان أحد اعضاء مجلس العامية ومحرر صحيفتها الرسمية ، ابنة ماركس ييني . لكنه لم يصبح ابدا قريبا من العائلة ، سواء شخصيا او سياسيا ، كما صار لافارغ . غير انه كان رجلا قادرا . كتبت السيدة ماركس تقول : « انه يطبخ ويصيح ويناقش كما دائما . ولكنني يجب أن اقول كلمة لصالحه : انه يلقي محاضراته بانتظام في كلية كينغ ويحوز على رضى رؤسائه » . مرت في سماء هذا الزواج السعيد غمامة بموت اول مولود للزوجين ، ولكن بعد ذلك ولد « صغير قوي وحيوي » فأدخل السعادة على قلوب اعضاء العائلة ، وعلى الاخص قلب جده .

كذلك كان لافارغ وزوجته من بين هاربي العامية ، وعاشا في الجوار ذاته الذي كان يعيش فيه ماركس . وكان الزوجان قد فقدا في السنوات الاولى للزواج اثنين من اطفالهما ، وتحت وطأة الكارثة ، قرر لافارغ أن يتوقف عن ممارسة الطب ، معلنا انه لا يستطيع الاستمرار فيها الا اذا مارس الفشل ، وهو غير مستعد لذلك . وبعد ذلك فتح لافارغ دكانا للتصوير ، ولكن على الرغم من تفاؤله الدائم وسجيته الطيبة والدعم الشجاع الذي كان يحظى به من زوجته ، ورغم انه كان يعمل كشقي ، الا انه لم يحرز نجاحا في عمله ، فقد كان عليه ان يصارع ضد مؤسسات للتصوير تملك من المال والتجهيزات أكثر مما كان يملك .

وفي ذلك الوقت ، كان شاب فرنسي يخطب ود الابنة الثالثة . ذلك هو

ميساغري ، الذي كتب في ما بعد تاريخ العامية ، التي كان قد قاتل في صفوفها . ويبدو أن اليانور ماركس كانت تميل اليه ، ولكن والدها كان يشك في موثوقيته ، وفي النهاية وبعد بعض التردد لم يسفر الامر عن شيء .

وفي ربيع عام ١٨٧٥ ، انتقلت العائلة ثانية ، الى منزل آخر في المنطقة ذاتها يقع في شارع « متيلاند بارك رود » . وفيه أمضى ماركس سنواته الاخيرة ، وفيه قضى .

٢ ـ الاشتراكية الديمقراطية الالمانية

استطاعت حركة الطبقة العاملة الالمانية ، لكونها قامت على اسس وطنية محلية منذ البداية ، تجنب الازمة التي وقعت فيها حركة الطبقة العاملة في البلدان الاخرى عندما بدأت فروع الاممية تتحول الى احزاب وطنية محلية . وفي العاشر من كانون الثاني عام ١٨٧٤ ، وقبل مهزلة مؤتمر جنيف ببضعة اشهر ، احتفلت الطبقة العاملة الالمانية بأول نجاح انتخابي عظيم لها ، فقد احرزت في انتخابات الرايشتاغ ٣٥٠ الف صوت وحصلت على تسعة مقاعد ، ستة منها لجناح ايزناخ وثلاثة منها للاساليين .

كان اثنان من اعضاء جناح ايزناخ الستة ، وهما بيبل وليبكنشت ، لا يزالان في السجن ، فلم يستطيعا احتلال مقعديهما ، بينما سبب موقف الاربعة الباقين وهم غيب وموست وموتلر وفالتيش خيبة أمل كبيرة في صفوف مؤيديهم . ويقول بيبل في مذكراته أن الكثيرين اشتكوا له من أن ممثلي ايزناخ الاربعة سمحوا للاساليين الثلاثة ، هازينكليفر وهاسلمان ورايمر ، بالتفوق عليهم . اما انفلز ، فقد كان له راي مختلف تماما ، اذ كتب الى سورج يقول : « لقد جلب ممثلو اللاساليين العار عليهم حتى أن الحكومة اضطرت الى اتخاذ اجراءات ضدهم لخلق انطباع بأن حركتهم جدية . اما في ما عدا ذلك ، فقد وجد اللاساليون منذ بداية الانتخابات لزاما عليهم أن يقتفوا أثر جماعتنا . انه لا من حسن الحظ ، ان ينتخب هازينكلفر وهاسلمان الى الرايشتاغ . ان عليهما أن ينضما الى جماعتنا او يرتكبا حماقات عدة ، وكلا الامرين يجلب الدمار عليهما » .

كان خلاف اللاساليين وجناح ايزناخ أعظم ما يكون في المسائل التنظيمية . لكن حماسة المدعي العام نجحت في انتزاع قرارات من المحاكم كانت نتيجتها تدمير الشكل التنظيمي المرن الذي اختاره جناح ايزناخ لنفسه ، والشكل الاكثر مركزية الذي اختاره اللاساليون .

وهكذا كانت وحدة الجناحين تقترب ، ففي تشرين الاول ١٨٧٤ عرض تولكه مقترحات وفاق تقدم بها اللاساليون على ليبكنشت ، الذي كان قد خرج من السجن في تلك الاثناء . فقبل ليبكنشت هذه المقترحات بحماسة ، اما في لندن فقد قوبل الامر بالاعراض . كان ماركس وانفلز لا زالا يعتبران اللاساليين شيعة في طريقها الى التسليم دون قيد او شرط عاجلا ام آجلا ، ولذا بدت لهما فكرة التفاوض معهم على قدم المساواة جريمة ضد مصالح الطبقة العاملة الالمانية . وعندما نشرت

مسودة البرنامج المشترك الذي اتفق عليه الطرفان في شباط ١٨٧٥ ، على مرجل الغضب في ماركس وانغلز .

وفي الخامس من ايار ، وبعد أن ارسل انغلز رسالة احتجاج تفصيلية الى بيبل، بعث ماركس الى قائد جناح ايزناخ ، ليبكنشت ، برسالة عرفت فيما بعد باسم الرسالة البرنامجية . وفيها يهاجم ماركس لاسال بقسوة لم يسبق ان هاجمه بمثلها . فهذا قد حفظ « البيان الشيوعي » عن ظهر قلب ، ولكنه زيفه ليخفي به تحالفه مع العدو الاقطاعي ضد البورجوازية ، معلنا ان كل الطبقات الاخرى تسلك سلوكا رجعيا في وجه الطبقة العاملة . وبعد ذلك انتقل ماركس الى بحث المبادىء الاساسية للاشتراكية العلمية بحثا مستفيضا، فلم يترك في البرنامج المشترك حجرا على حجر . ولكن لم يكن لهذه الرسالة من أثر ، غير قيام اصحاب البرنامج بادخال تعديلات طفيفة على برنامجهم . وبعد ذلك بعقود ، أعلن ليبكنشت أن معظم المعنيين بالامر كانوا يتفقون مع ماركس ، وانه كان يمكن الخصول على اغلبية توافق على هذه الآراء في مؤتمر الوحدة ، ولكن كانت الاقلية ستظل غير راضية ، ولما كان هدف المؤتمر توحيد الجناحين وليس صياغة مبادىء الاشتراكية العلمية ، فقد ارتؤي أن من الضروري تجنب اللجوء الى هذا السبيل .

غير أنه يمكن العثور على تفسير للطريقة التي تم بها تجاهل الرسالة البرنامجية بصمت في انها كانت تفوق المستوى الفكري لاعضاء جناح ايزناخ ، مثلهم في ذلك مثل اللاساليين . وكان ماركس قبل ذلك ببضعة أشهر قد اشتكى من أن صحيفة الايزناخيين تنشر من حين لآخر اوهاما شبه اكاديمية ، يكتبها مدراء مدارس ودكاترة وطلاب ، ويجب أن يحاسب ليبكنشت على ذلك . وفي الوقت ذاته كان ماركس يخشى أن تطغى العصبوية اللاسالية بايديولوجيتها المقترضة من الديمقراطيين والاشتراكيين الفرنسيين على الافكار الواقعية التي حقن بها جناح ايزناخ بصعوبة والتي كانت قد بدات تضرب جذورها في أرضه .

كان ماركس مخطئا في ذلك . فقد كان الجناحان يقفان على قدم المساواة في المسائل النظرية . اذ لم يقابل برنامج الوحدة بأي اعتراض من جانب اعضاء جناح ايزناخ ، بينما تعرض لنقد عنيف ، يشبه في كثير من مناحيه نقد ماركس وانغلز له ، في مؤتمر عمالي عقد في غربي المانيا .

وكان مؤلفا في معظمه من اللاساليين . على أن ذلك لا يعني الكثير ، فقد كان الجناحان لا يزالان بعيدين عن الاشتراكية العلمية كما اسسها ماركس وانغلز ، فلم يكونا يعرفان عن المنهج المادي غير لمحات ، بينما ظل سر نمط الانتاج الراسمالي سرا مغلقا عليهما . ولعل الطريقة المضحكة التي تعثر بها شرام (ابرز منظري جناح ايزناخ في ذلك الحين) بنظرية ماركس في القيمة أبلغ دليل على ذلك .

غير أن توحيد الجناحين أدى عمليا الى نتائج حسنة ، فلم يكن لدى ماركس وانغلز ما يقولانه في ذلك ، رغم انهما كانا لا يزالان يعتقدان ان جناح ايزناخ ربما كان قد سمح للاساليين بفرض انفسهم عليه . لكن ماركس نفسه كان قد قال في رسالته البرنامجية : ان كل خطوة عملية في الحركة افضل من عشرة برامج . على أية حال ،

زاد التخبط النظري في الحزب الموحد بدل أن يقل ، وعزى ماركس وانغلز ذلك الى الوحدة غير الطبيعية . وبدآ يعلنان عن استيائهما اكثر من أي وقت مضى .

لا بد أن يكون ماركس وانغلز قد لاحظا أن مصدر ضيقهما يوجد بين اعضاء جناح ايزناخ اكثر منه بين اللاساليين السابقين. فقد قال انغلز احيانا أن اللاساليين سيصبحون عما قريب انقى المفكرين في الحركة، ذلك أن صحيفتهم ــ التي استمرت تصدر بعد الوحدة نسبة ــ تنشر قدرا أقل من الهراء . وقد تضايق انغلز اكثر مما تضايق من موست ، الذي لخص رأس المال كله دون أن يفهم منه شيئا » ودعم « اشتراكية » دوهرنغ . وكتب انغلز ألى ماركس في ٢٤ أيار ١٨٧٦ : «من الواضح، ان دوهرنغ قد أحدث اثرا عميقا على عقول هؤلاء الناس بهجماته المبتذلة عليك ، واذا ما حاولنا الآن أن نسخف هراءه النظري ، فان ذلك سيبدو من جانبنا رغبة في الانتقام الشخصي » . وكذلك لم ينج ليبكنشت من الانتقاد اللاذع : « ان فيلهلم يتوق الى تعويض النقص في نظرياتنا . يتوق الى ايجاد جواب جاهز على كل اعتراض سخيف ، ورسم صورة جاهزة للمجتمع المقبل في ذهنه ، لان الجهلة الادعياء قد يسألونه عن ذلك ، ويريد في الوقت ذاته أن يظل مستقلا في المسائل النظرية قدر الامكان . ولا شك في انه نجح في تحقيق هذا الاستقلال أكثر مما يدرك وذلك بسبب افتقاره الكامل الى أي نظرية » .

كان النمو السريع للنجاحات العملية التي احرزها الحزب هو ما أدى به الى عدم الاهتمام بالنظرية ، او ما اعتقد أنه حذلقة نظرية . فتدفق على الحزب المخترعون الذين لم يلاقوا تقديرا والمصلحون الذين اسيء فهمهم ، ومن يعارضون التذبذب وما اشبه ذلك ممن كانوا يأملون أن يلاقوا في صفوف الطبقة العاملة التقدير الذي لم تمنحهم البورجوازية اياه . وكان كل من أبدى طيب النية يجد الترحيب في صفوف الحزب ، خاصة اولئك الذين كانوا يأتون من الدوائر الاكاديمية والذين كان دخولهم اليه يعد بتحقيق تحالف البروليتاريا والعلم . فلم يكن اي استاذ جامعي يقابل الاشتراكية في أي شكل من اشكالها المتعددة بالود ، يخشى ان يواجه بالنقد في صفوف الحزب .

كان دوهرنغ على وجه الخصوص حصينا تجاه اي نقد ، فقد كان يتمتع بخصال عديدة ، شخصية وغير شخصية ، كانت لا بد أن تجتذب اليه أكثر العناصر في حركة الطبقة العاملة الالمانية ثقافة . ولا شك أن مواهبه وقدراته وشخصيته وسلوكه كانت جميعا تجد صدى بين العمال . فقد اصيب بالعمى وهو صغير السن، ولم تكن لديه موارد مالية ، ومع ذلك فقد شق طريقه في الحياة ليصبح محاضرا في الجامعة . ولم يحدث أن قام بأي تنازل للطبقات الحاكمة ، وحافظ باستمرار على راديكاليته في قاعة المحاضرات ، فلم يكن يتردد في امتداح مارا وبابوف وابطال العامية . أما الجانب السيء من شخصيته : الغطرسة التي كان يدعي بها أنه متمكن تماما من عدد من مواضيع الاستقصاء العلمي بينما لم يكن ذلك ممكنا على الاقل بسبب عجزه الجسدي ، وجنون العظمة المتزايد الذي أدى به الى محو من سبقوه من الوجود : فيخته وهيغل في الفلسفة وماركس في الاقتصاد ، اما هذا الجانب

من شخصيته فقد بقي في الظل ، أو كان يفتخر ويفسر بأنه نتيجة لعزلته الفكرية وللصراعات القاسية التي كان عليه أن يخوضها .

لم يعر ماركس التفاتا الى هجمات دوهرنغ « المبتذلة » عليه ، وفي الواقع لم يكن لهذه الهجمات من القيمة ما يجعلها تشعر ماركس بالتحدي . ولم تحدث حماسة اشتراكيي برلين المتزايدة لدوهرنغ أي اثر على ماركس ، على الرغم من أن دوهرنغ بادعائه عصمة « حقائقه النهائية » كان عصبويا نموذجيا . وحتى عندما ارسل ليبكنشت ، الذي كان قد أصبح متيقظا في ذلك الحين ، رسائل من بعض العمال الى ماركس وانغلز يحذرون فيها من خطر تدهور دعاية الحزب ، رفض ماركس وانغلز الرد على دوهرنغ على أساس ان ذلك « امر ثانوي جدا » ، ولكن يبدو أن رسالة وقحة كتبها موست الى انغلز في ايار ١٨٧٦ كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير .

عندئذ بدأ انغلز يدرس « حقائق دوهرنغ المنهجية » ، وسجل نقده لها في عدد من المقالات بدأ يظهر في بداية عام ١٨٧٧ ، في « فورووارتز » التي كانت قد أصبحت الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الموحد . تمخضت هذه المقالات عن واحد من أهم الآثار الادبية التي تعرض الاشتراكية العلمية متخذة مكانها جنبا الى جنب مع « رأس المال » ، ولكن الاستقبال الذي لاقته حينذاك في الحزب بين بوضوح أن الخطر فيه ماثل . فقد أوشك المؤتمر السنوي للحزب الذي عقد في أيار ١٨٧٧ في غوتا على « محاكمة » انغلز بتهمة الهرطقة على غرار « المحاكمة » التي كان يتعرض لها دوهرنغ من جانب طغمة الاساتذة المحافظين في الجامعة . ذلك أن اغلبية المؤتمر تقدمت بمشروع قرار يقضي بأن تكف الصحيفة المركزية للحزب عن نشر مقالات انغلز على أساس انها « لا تهم ، بل تعارض رأي ، اغلبية قراء فورووارتز » ، بينما وضع فاليتش ، الذي كان فيما عدا ذلك خصما لموست ، يده في يد هذا الاخير معلنا ان اللهجة التي يكتب بها انغلز عارية عن الذوق وانها يمكن أن تجعل الافكار التي تعرضها « فورووارتز » غير قابلة للهضم . ولكن لحسن الحظ ، تم تبني اقتراح بحل وسط ، يقضي بأن يستمر نشر السجال لاغراض عملية وتحريضية لا في الصحيفة الرئيسية بل في ملحق علمي يصدر عنها .

وفي الوقت ذاته قرر المؤتمر أن يصدر الحزب صحيفة علمية نصف شهرية ابتداء من تشرين الاول. وقد تم تبني هذا القرار بناء على اقتراح من كارل هوشبرغ، الذي وعد ايضا بتقديم الدعم المالي للمشروع. كان هوشبرغ هذا واحدا من«الخبراء» البورجوازيين في الاشتراكية ، الذين كانت المانيا تعج بهم في تلك الايام . وعلى الرغم من المديح الشخصي الذي يغدقه عليه كل من عرفه ، الا ان قدراته السياسية والفكرية كانت ضحلة تماما . اذ لم يكن يعرف عن نظرية وتاريخ الاشتراكية شيئا ، كما كان جاهلا بالآراء العلمية التي طورها ماركس وانغلز ، ولم يكن يعتبر الصراع الطبقي البروليتاري السلاح الذي تنتزع به الطبقة العاملة تحررها ، بل كان يعتقد انه السبيل لكسب الطبقات الحاكمة وعلى الاخص افرادها المثقفين الى قضية العمال على أسس من التطور القانوني السلمي .

غير ان ماركس وانغلز لم يكونا يعرفان عنه شيئا عندما رفضا التعاون مع « داي زوكونفت » كما دعيت الصحيفة الجديدة . وكانا قد تلقيا دعوة للمساهمة عن طريق تعميم مطبوع أرسل الى الكثيرين غيرهما . فقد أعلن انغلز انه بينما يمكن ان تكون قرارات المؤتمر العملية مفيدة جدا ، الا انها لا قيمة لها فيما يتعلق بالانجاز العلمي ، وهي بالتأكيد غير كافيةلضمان انتكون المجلة علمية. فمن المستحيل انتكون مجلة اشتراكية علمية دون أن يكون لها سياسة محددة وموقف محدد ، ولما كانت الاتجاهات الرائجة في المانيا متنوعة وغامضة ، فليس هناك ما يضمن أن تكون السياسة التي ستتبناها الصحيفة مناسبة .

أثبت العدد الاول من الصحيفة صحة الموقف المتحفظ الذي اتخذه ماركس وانغلز . فقد كانت مقالة هوشبرغ الافتتاحية خليطا من كل المواقف والاتجاهات التي كانا قد حارباها في اشتراكية الاربعينات، وهكذا وفرا على نفسيهما اي نزاعات محرجة. وعندما سألهما أحد اعضاء الحزب الالماني ، عما اذا كانا قد شعرا بالضغينة بسبب مناقشات مؤتمر غوتا ، اجاب ماركس : « لا يحمل قلبي اي ضغينة ، ولا قلب انغلز كذلك . والبرهان على ذلك هو معارضتي الدائمة لكل انواع عبادة الشخصية . فخلال فترة الاممية لم اسمح أبدا بجعل بادرات العرفان التي كانت تأتيني من مختلف البلدان علنية ، ولم أجب عليها اطلاقا الا ربما بالتوبيخ . ولكن ما حدث في مؤتمر الحزب الاخير ــ وهو أمر يستغله استغلالا كاملا اعداء الحزب في الخارج ــ علمنا ان نكون حذرين في علاقاتنا باعضاء الحزب في المانيا» . ومع ذلك، لم تكن الامور قد وصلت الى هذا الحد من السوء ، فقد استمر انغلز في نشر مقالاته ضد دوهرنغ في الملحق العلمي لصحيفة «فوروارتز» .

غير أن ماركس بدأ يتضايق وينزعج « للروح الفاسدة » التي بدات تظهر لا بين الجماهير بل بين قادتها . فكتب الى سورج في ١٩ تشرين الاول يقول : « لقد ادت المساومة مع اللاساليين الى المساومة مع كل الاشتراكيين المزيفين ، مع دوهرنغ والمعجبين به في برلين ، ومع العشرات من الطلبة غير الناجحين والاكاديميين المتعالين ، الذين يريدون الاشتراكية « اتجاها مثاليا أرفع » ، أو يريدون بكلمات اخرى ان يستبدلوا الاساس المادي للاشتراكية بميثولوجيا حديثة آلهتها الحرية والمساواة والاخاء . ان السيد هوشبرغ ، الذي يحرر « داي زوكونفت » ممثل لهذا الاتجاه ، وأنا مستعد لافتراض أطيب النوايا من جانبه ، ولكنني لا اعير النوايا أي اهتمام . فليس هناك في الواقع برنامج احط من برنامجه في « داي زوكونفت » قدم للعالم بقدر اكبر من الادعاء » .

في الحقيقة كان على ماركس وانغلز أن يرتدا على ماضيهما كله كي يستطيعا التوافق مع هذا « الاتجاه » .

٣ ــ الفوضوية والحرب في الشرق الادنى

قرر مؤتمر غوتا عام ١٨٧٧ ايضا ان يتمثل الحزب في مؤتمر اشتراكي عالمي

دعي الى الانعقاد في غنت في ايلول من السنة ذاتها ، وانتخب ليبكنشت ممثلا للحزب فيه .

كانت بادرة الدعوة الى هذا المؤتمر قد اتت من البلجيكيين ، الذين كانوا في هذه الاثناء قد وجدوا شعرة في الحساء الفوضوي فصاروا يتوقون الى اعادة توحيد الجماعتين اللتين افترقتا في مؤتمر لاهاي . وكانت الجماعة الفوضوية قد عقدت مؤتمراتها في جنيف عام ١٨٧٣ ، وفي بروكسل عام ١٨٧٤ وفي بيرن عام ١٨٧٦ ، ولكن بعدد متناقص باطراد . لقد تفتت هذه الجماعة في وجه الضرورات العملية للنضال البروليتاري من اجل الانعتاق تماما كما كانت قد نشأت عن هذه الضرورات .

لن نتعرض هنا لأفول الفوضوية السريع بتتبع مؤتمراتها المختلفة ، اذ يكفي القول ان هذا الافول كان مطردا وكاملا . فقد الغي المجلس العام والغيت الاشتراكات السنوية ، وحظر على المؤتمرات اتخاذ اية قرارات بصدد المسائل المبدئية ، ولم يتم التغلب على محاولة لاغلاق الامية في وجه العمال العقليين الا بصعوبة بالغة . غير ان الجانب المهم في الامر هو الصعوبة التي واجهتها الفوضوية في وضع برنامج جديد وتاكتيكات جديدة . فقد نشب خلاف في مؤتمر جنيف حول الاضراب العام بوصفه الوسيلة المعصومة الوحيدة للثورة الاجتماعية ، ولكن لم يتم التوصل الى اتفاق ، بينما لم يكن المؤتمر الثاني في بروكسل أقدر على التوصل الى اتفاق حول مسألة الخدمات العامة ، التي كانت المسألة الرئيسية في المؤتمر والتي تكلم دي‌بيب حولها بشكل جعل اعضاء المؤتمر يؤنبونه لانه تخلى عن الفوضوية ككل ، وكان في الواقع قد فعل . فبعد نقاشات عنيفة أجلت المسألة الى المؤتمر القادم لتسويتها ، ولكن المؤتمر القادم فشل كذلك في حلها . وعندئذ اعلن الايطاليون ان «حقبة المؤتمرات قد انتهت» وطالبوا بالدعاية عن طريق العمل . فقاموا باستغلال المجاعة في ايطاليا ، ليدبروا ستين مؤامرة فشلت جميعا .

لم تنحط الفوضوية الى شيعة معزولة لا رجاء فيها بسبب تشوشها النظري فحسب ، بل وبصورة رئيسية الى الموقف السلبي الذي تبنته تجاه كل المسائل العملية المتعلقة بالمصالح المباشرة للبروليتاريا الحديثة . فعندما نمت حركة قوية للمطالبة بتحديد يوم العمل قانونيا بعشر ساعات في سويسرا ، رفضت الفوضوية ان تكون لها اي علاقة بالحركة ، كما اتخذت الموقف ذاته تجاه الحملة التي قام بها العمال الفلاميون لمنع عمل الاطفال في المصانع قانونيا . وبالطبع رفضوا كذلك المشاركة في النضال من اجل الحصول على حق الاقتراع العام ، او من اجل اعطاء العمال حق ممارسته حيث كان يوجد . وبالمقارنة مع هذه السياسة البائسة ، كان نجاح حركة الطبقة العاملة الاشتراكية الالمانية باهرا ، مما حدا بالجماهير في كل مكان الى رفض الدعاية الفوضوية .

كانت الدعوة الى المؤتمر الاشتراكي العالمي في غنت في السنة القادمة ، والتي اقرها المؤتمر الفوضوي في برن عام ١٨٧٦ ، اعترافا بفشل الفوضوية الكامل في كسب الجماهير . انعقد مؤتمر غنت من ٩ الى ١٥ ايلول ، وحضره ٤٢ عضوا ،

كان من بينهم نواة من ١١ فوضويا بقيادة غيلوم وكروبتكين . وقد انضم الكثيرون من انصار الفوضوية السابقين ، بما في ذلك معظم المندوبين البلجيكيين والانجليزي هيلز الى جانب المجموعة الاشتراكية بقيادة ليبكنشت وغريليش وفرانكل . وحدث في المؤتمر صدام حاد بين ليبكنشت وغيلوم عندما اتهم غيلوم العمال الالمان بانهم طووا برنامجهم في جيبهم عندما اقبلوا على الانتخابات ، ولكن فيما عدا ذلك كانت اعمال المؤتمر تتميز بما يكفي من الهدوء . اذ فقد الفوضويون غرامهم بالكلمات الطنانة ، وصاغوا خطبهم بلهجة هادئة رزينة جعلت خصومهم يتخذون موقفا اكثر ودا . غير ان «التضامن» المقترح لم يسفر عن شيء ، فقد كانت الآراء المتصادمة متباينة الى حد بعيد .

لم يكن ماركس يتوقع اي نتيجة غير هذه ، وكان انتباهه قد تحول الى مركز عاصف آخر توقع ان تحدث فيه احداث ثورية ، ذلك هو الحرب التركية-الروسية. فبدأ اول رسالتي النصح اللتين بعث بهما الى ليبكنشت ، وهي المؤرخة في ٤ شباط ١٨٧٨ ، بالكلمات التالية : «اننا بالتأكيد نقف الى جانب الاتراك ، وذلك لسببين : اولهما اننا درسنا الفلاح التركي ، اي جماهير الشعب التركي ، فوجدنا انه بلا شك احد اقدر ممثلي الفلاحين الاوروبيين واكثرهم استقامة خلقية ، وثانيهما ان هزيمة روسيا ستسارع الى حد كبير التحول الاجتماعي ، الذي تبدو عناصره في كل مكان في روسيا ، وبالتالي يسارع ذلك في التحويل الاجتماعي في اوروبا كلها» . وكان ماركس قد كتب الى سورج قبل ذلك بثلاثة اشهر يقول : «ان الازمة نقطة تحول جديدة في الشارع الاوروبي . لقد درست الاوضاع الروسية مصادر اصلية ، بعضها غير رسمي وبعضها رسمي (هذه المصادر الاخيرة متوفرة لدى القلائل ، وقد حصلت عليها بواسطة اصدقاء في بطرسبرغ) ، فوجدت ان روسيا تقف منذ امد على عتبة الثورة ، وان كل العناصر الضرورية متوافرة . لقد سارع الاتراك الطيبون تفجر الموقف سنوات بفضل الهزيمة التي الحقوها لا بالجيش الروسي والخزينة الروسية وحدهما ، بل وكذلك بالعائلة المالكة شخصيا . ان تهريجات الطلبة الروس الغبية ليست الا عرضا ، وهي لا قيمة لها بحد ذاتها ، ولكنها مع ذلك عرض له دلالته : ان كل قطاعات المجتمع الروسي تعيش حالة تحلل اقتصادي واخلاقي وفكري» . لقد ثبت ان ملاحظات ماركس هذه صحيحة تماما ، ولكن وكما كان يحدث كثيرا ، قلل ماركس في عجلته الثورية من اهمية عامل الزمن ، وذلك انما يعود الى الوضوح الذي كان يرى به الاتجاه الذي تسير به الامور .

افسحت هزائم الروس الاولية الطريق لانتصارات لاحقة ، نتيجة الدعم السري الذي تقدم به بسمارك ، ونتيجة للخداع الذي مارسته انجلترا والنمسا ، وفوق كل شيء نتيجة فشل الاتراك انفسهم في الاطاحة بالنظام العتيق في القسطنطينية ، رغم ان هذا النظام كان من افضل اصدقاء القيصر . فاعلن ماركس ان شعبا يفشل في التصرف بعزيمة ثورية لحظة الازمة الطاحنة لا بد ان يتعرض للضياع .

هكذا لم تنته الحرب التركية - الروسية بثورة اوروبية ، بل بمؤتمر دبلوماسي،

في المكان ذاته واللحظة ذاتها اللذين بدا فيهما ان الحركة الاشتراكية الالمانية تلقت ضربة قاصمة .

٤ ـ فجر يوم جديد

برغم الانتكاسات ، بدأ فجر يوم جديد يلوح في افق العالم . فقد ادى القانون المعادي للاشتراكية الذي كان بسمارك يأمل ان يحطم به الحركة الاشتراكية الالمانية الى افتتاح عصر بطولي جديد لهذه الحركة ، والى تبديد كل التخبط والشقاق الذي كان يسود علاقاتها بمحاربي الاشتراكية القديمين في لندن ، على الرغم من ان نزاعا واحدا نشب بين الطرفين .

اجتاز الحزب الالماني بشجاعة امتحان الحملة الصليبية المعادية للاشتراكية والانتخابات التي حصلت في صيف عام ١٨٧٨ بعد محاولتي اغتيال القيصر الالماني ، ولكنه لم يقدر في اعداده لمجابهة الضربة المقبلة شراسة الهجمة وحقدها وضراوتها. فما كاد القانون يصبح نافذا ، حتى نسي ممثلو الحكومة كل التطمينات التي قدموها للرايشتاغ بان القانون سيطبق «دون تحيز» ، فحظروا كل مؤسسات الحزب حارمين الآلاف من سبل عيشهم . وبعد ذلك ببضعة اسابيع ، اعلن ما دعي بالحكم العسكري المخفف على برلين وضواحيها ، رغم ان ذلك كان يتعارض مع نص القرار ، وتم ابعاد ما يقرب من ستين اشتراكيا ، لم يحرموا من وظائفهم فحسب بل ومن مساكنهم ايضا.
سبب هذا وحده فوضى مبررة لم يكن من الممكن تجنبها في صفوف الاشتراكيين. فبعد سقوط عامية باريس ، اشتكى المجلس العام للاممية من انه لم يستطع شهورا عدة القيام بمهامه المعتادة بسبب ضرورات تقديم المساعدة للاجئين ، لكن قيادة الحزب الالماني كانت تواجه وضعا اكثر صعوبة ، فقد كان الاضطهاد البوليسي يعيق كل خطوة من خطواتها في وقت شلت فيه البلاد ازمة اقتصادية طاحنة . لا يمكن للمرء ان ينكر ان الازمة فصلت القمح عن الزوان : فغالبا ما اثبتت العناصر البورجوازية التي اجتذبها الحزب في السنوات السابقة انها غير موثوقة ، كذلك فشل بعض القادة في اجتياز الامتحان ، بينما فقد آخرون وبينهم الكثيرون من الرجال القادرين شجاعتهم تحت وطأة الضربات التي كالتها الرجعية للحزب واصبحوا يخشون ان يجلبوا لانفسهم وللحزب ضربات اشد ضراوة اذا ما واجهوا الحملة بمقاومة عنيفة .

وبالطبع لم يرض هذا كله ماركس وانغلز . ولا شك في انهما قللا من قدر الصعاب التي كانت تكتنف الموقف ، ولكن موقف الجماعة الاشتراكية الديمقراطية في الرايشتاغ ، التي استطاعت الصمود في وجه العاصفة وعادت الى الرايشتاغ بتسعة اعضاء ، كان سببا كافيا للشكوى . فقد اعتقد احد الاعضاء ، وهو ماكس كيزر ، ان من الضروري الوقوف الى جانب زيادة ضرائب استيراد الحديد اثناء مناقشة مشروع فرض ضرائب جديدة على الاستيراد . وقد اثار ذلك استياء واسعا ، فقد كان الكل يعلم ان الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء الضرائب الجديدة

هو استدرار بضعة ملايين سنويا لخزينة الرايخ وحماية ملاك الارض ضد المنافسة الاميركية ومساعدة الصناعة الثقيلة على اصلاح الضرر الذي الحقته بنفسها نتيجة توسعها المحموم خلال سنوات الازدهار المزيف . كما كان الجميع يعلمون ان هدف القوانين المعادية للاشتراكية كان في التحليل الاخير محاولة كسر مقاومة الطبقة العاملة قبل القيام بهجوم واسع النطاق على مستوى معيشتها .

وعندما حاول بيبل ان يدافع عن موقف كيزر ، قائلا ان هذا الاخير قام بدراسة خاصة للمسألة ، اجاب انفلز بحدة : «لو كانت دراساته تساوي نقرة من اصبع ، لعرف ان هناك مصنعين لصب الحديد في المانيا ، يكفي احدهما لسد حاجات المانيا كلها من الحديد ، بالاضافة الى عدد من المصانع الاصغر . ولذا فان فرض ضرائب على استيراد الحديد امر غبي ، فالحل الوحيد هو غزو اسواق اجنبية ، اي ان الاختيار المطروح هو اما التجارة الحرة بصورة مطلقة واما الافلاس . كان عليه ان يعرف ان راسماليي صناعة الحديد انفسهم لا يمكن ان يقبلوا بزيادة الضرائب على استيراده ، الا اذا كانوا قد شكلوا حلقة ، بل عصابة ، لفرض اسعار احتكارية على السوق الداخلي ، ليتخلصوا من فائض انتاجهم باسعار بخسة في الاسواق الاجنبية ، وهذا في الواقع ما يفعلونه الان الى حد كبير . لقد تكلم كيزر لمصلحة هذه الحلقة ، لمصلحة هذه المؤامرة الاحتكارية ، وعندما صوّت في الرايشتاغ فلمصلحتها صوّت» . وعندما هاجم كارل هيرش تاكتيكات كيزر في صحيفة «داي لاتيرن» ، اتخذت الجماعة الاشتراكية الديمقراطية في الرايشتاغ ، لسوء الحظ ، موقف من جرحت كرامته لأن كيزر تكلم باذن من الجماعة . فكان هذا الموقف اخر قشة قصمت ظهر البعير بالنسبة لماركس وانفلز ، فقال ماركس : «لقد نخرت القماءة البرلمانية عظامهم ، الى درجة اصبحوا معها يتخيلون انفسهم فوق النقد ، ويشجبونه كما لو انه طعن في الذات الملكية» .

كان كارل هيرش صحافيا شابا اكتسب شهرته كممثل لليبكنشت في «فولكشتات» خلال السنوات التي كان فيها ليبكنشت سجينا . وبعد ذلك عاش في باريس ، الا انه ابعد عنها ، فقام بما كان يجب ان يقوم به قادة الحزب الالماني منذ البداية ، اذ بدأ في كانون الاول ١٨٧٨ اصدار صحيفة اسبوعية «داي لا تيرن» من بريدا في بلجيكا ، على شكل صحيفة جيب يمكن ان تطوى وتوضع في مغلفات عادية ترسل الى المانيا لتشكل اداة تحريض للحركة الاشتراكية . كانت الفكرة جيدة ، كما كان هيرش نفسه واضحا تماما بصدد المسائل المبدئية ، ولكن اسلوبه في الكتابة بجمل مختصرة حادة لامعة لم يكن يتناسب مع حاجات القراء من الطبقة العاملة . ولذا كانت صحيفة «داي فرايهايت» التي بدأ موست يصدرها بعد ذلك ببضعة اسابيع في لندن وبمساعدة رابطة الثقافة العمالية الشيوعية اكثر ملائمة ، ولكنها لسوء الحظ انغمرت بعد بداية جيدة في الهواية الثوروية .

وبعد صدور هاتين الصحيفتين «المستقلتين» ، ان صح التعبير، طرحت مسألة اصدار صحيفة رسمية للحزب في الخارج نفسها بالحاح على قيادة الحزب . فدعم كل من ليبكنشت وبيبل الفكرة باصرار ، وفي النهاية نجحا في التغلب على معارضة

عنيدة ابدتها دوائر نافذة في الحزب كانت تريد اتباع سياسة التحفظ الحذر . وعند هذه النقطة ، لم يكن ممكنا الوصول الى اتفاق مع موست ، لكن هيرش تخلى عن «داي لاتيرن» واعلن استعداده لتولي تحرير صحيفة جديدة للحزب . كذلك كان ماركس وانغلز ، اللذان كانا يثقان بهيرش ثقة كاملة ، على استعداد للمساهمة فيها . تقرر ان تصدر الصحيفة الجديدة اسبوعيا في زوريخ ، واعطيت التعليمات لثلاثة من اعضاء الحزب المقيمين هناك باعداد الترتيبات الضرورية لذلك ، وكان هؤلاء الثلاثة هم شرام الذي كان قد طرد من برلين ، وكارل هوشبرغ وادوارد برنشتاين الذي كان هوشبرغ قد كسبه اليه وجعل منه مستشاره الادبي .

لم يكن الثلاثة على عجلة من امرهم ، وبدا سبب التأخر واضحا عندما قاموا في تموز ١٨٧٩ باصدار «سنوية العلم الاجتماعي والعلم السياسي» لحسابهم . وكان من المقرر ان تظهر هذه الصحيفة كل نصف سنة ، وبدت الروح التي ستحرر بها جلية في مقالة بعنوان «مراجعة للحركة الاشتراكية» وقعت بثلاث نجمات ، وكان مؤلفاها الحقيقيان هما هوشبرغ وشرام ، اما برنشتاين فلم يساهم فيها الا ببضعة اسطر .

كانت المقالة هجوما يفتقر الى الحصافة على «خطايا» الحزب ، وكانت لهجتها وتحقيرها لخصومها ومغازلتها للجماهير وحضها لها على اهمال الطبقات المثقفة ، تعبر في الواقع عن كل ما يكرهه الجهلة البورجوازيون الصغار في الحزب البروليتاري . وقد تمخضت حكمتها البالغة عن نصيحة للحزب بأن يستخدم الفراغ الذي تفرضه عليه القوانين المعادية للاشتراكية كي يتوب ويستغفر . استشاط ماركس وانغلز غضبا ، وطالبا في رسالة خاصة بعثا بها الى كل قادة الحزب بمنع هؤلاء الاشخاص من التحدث باسم الحزب على الاقل ، اذا كان الحزب يرى من الضروري ان يتسامح تجاه وجود اشخاص يحملون مثل هذه الآراء فيه . وفي الواقع لم يكن هوشبرغ قد خول سلطة واسعة من جانب الحزب ، ولكنه اخذ الامور على عاتقه ، تماما كما فعل عندما طالب بأن تخضع المقالات الافتتاحية التي يكتبها هيرش لرقابة الثلاثي في زوريخ وأن يكف هيرش عن الاسلوب الذي كان يحرر به «داي لاتيرن» . وعندئذ رفض هيرش ومعه المحاربان القديمان في لندن ان تكون لهم اي علاقة بالصحيفة الجديدة للحزب .

لم يبق اليوم من المراسلات الضخمة حول هذا الموضوع سوى القليل . وهذا القليل يبين ان ليبكنشت وبيبل كانا ابعد ما يكونان عن الموافقة على موقف ثلاثي زوريخ ، ولكن من الصعب ان يرى المرء السبب في عدم تدخلهما بحزم . ذهب هوشبرغ نفسه الى لندن حيث قابل انغلز ، ولكنه لم يقابل ماركس ، وقد ترك تخبطه الفكري اسوأ الانطباعات لدى انغلز ، على الرغم من ان ماركس وانغلز لم يكونا يشكان في نواياه اطلاقا . لكن المرارة التي اورثتها القضية في الطرفين جعلت الاتفاق مستحيلا ، وفي ١٩ ايلول ١٨٧٩ ، كتب انغلز الى سورج قائلا انه اذا حررت صحيفة الحزب الاسبوعية الجديدة بروح هوشبرغ ، فانه وماركس سيجدان لزاما عليهما الاحتجاج على هذا «التعهير» للحزب ومبادئه . «لقد حذرنا هؤلاء السادة ، وهم يعرفوننا بما

فيه الكفاية ليدركوا ان المسألة يجب ان تسوى الان بطريقة او بأخرى وبصـورة حازمة . فاذا اصروا على الحاق الضير بانفسهم ، فهذا شأنهم ، ولكننا لن نسمح لهم اطلاقا بالحاق الضير بنا» .

ولكن لحسن الطالع لم تدفع الامور الى حدها الاقصى . فقد تولى فولمار تحرير الصحيفة ، وفعل ذلك بشكل «تعيس» في نظر ماركس وانغلز ، ولكن ليس الـى الحد الذي يقتضي احتجاجا علنيا . وكانت هناك «نزاعات مستمرة مع ليبزيغ ، وكثيرا ما كان الجو يضطرب» ، لكن تبين ان الثلاثي في زوريخ غير مؤذ ، فقـد تراجع شرام الى الخلف ، وكان هوشبرغ يقضي معظم وقته مسافرا ، اما برنشتاين فقد حرر نفسه من الكآبة التي احدثتها الهجمات الاولى للرجعية ، كما فعل ذلك ايضا العديدون من اعضاء الحزب الذين كانوا يميلون في البداية الى ترك الامور تسير على هواها . وفي النهاية ربما كان تقدير ماركس وانغلز للصعوبات التي كان على قيادة الحزب ان تواجهها اثره في تهدئة الجو . فكتب ماركس الى سورج في ٥ تشرين الثاني ١٨٨٠ قائلا : «ان اولئك الذين يتمتعون بهدوء وسلام نسبيين في الاراضي الاجنبية ، لا يحق لهم ان يجعلوا الامور اكثر صعوبة بالنسبة لاولئك الذين يعملون في اشق الظروف واقساها في المانيا» . وبعد ذلك ببضعة اسابيع تم احلال السلام رسميا بين الاطراف المتنازعة .

استقال فولمار في ٣١ كانون الاول ١٨٨٠ ، وعندما* قرر قادة الحـزب تعيين هيرش خلفا له ، فانما كانوا يريدون ان يسووا الامور تماما مع ماركس وانغلز . ولما كان هيرش يعيش في لندن ، فقد سافر ببيل اليها ليتفاوض معه شخصيا ، وفي الوقت نفسه ليبحث الوضع بحثا كاملا مع ماركس وانغلز . وأخذ برنشتاين معه ، كي يقضي على التحيز الذي كان سائدا ضد هذا الاخير في لندن ، ذلك انه كان اثناء ذلك قد صحح موقفه تماما . حققت الرحلة اهدافها المختلفة ، عدا عن ان هيرش عدل خطته الاساسية في قبول رئاسة تحرير الصحيفة قائلا انه يود ان يقوم بالعمل في لندن . لكن هذا اعتبر امرا غير مرغوب فيه ، فعين برنشتايـن محررا مؤقتا . وفي النهاية اصبح تعيينه دائما ، وقام بعمله بشكل ارضى الجميع بما في ذلك ماركس وانغلز . وعندما تمت الانتخابات في ظل القوانين المعاديـة للاشتراكية ، كان فرح انغلز غامرا وأعلن انه ما من بروليتاريا حاربت من قبـل بهذه الشجاعة .

كذلك تطورت الحركة في فرنسا بطالع حسن . فبعد المجازر الدموية في ايار ١٨٧١ ، اعلن تيير للبورجوازية المرتعدة في فرساي أن الاشتراكية في فرنسا قد دفنت الى الابد ، متجاهلا انه كان قد هدأ من روع البورجوازية بالتأكيد نفسه فيما مضى ، اي بعد مذبحة حزيران ١٨٤٨ واثبت انه نبي كاذب . ولربما كان قد اعتقد ان الدماء الفياضة التي سفكت عام ١٨٧١ ستكون اكثر فعالية هذه المرة ، ذلك ان خسائر البروليتاريا الباريسية نتيجة لقتال الشوارع والاعدامات الجماعية وعمليات الترحيل والابعاد والاحكام الجائرة والهجرة الاضطرارية قدرت بنحو مئة الف . لقد احتاجت الاشتراكية بعد عام ١٨٤٨ عقدا من الزمن كي يصبح بمقدورها ان تسمع

العالم صوتها ثانية ، ولكنها بعد عام ١٨٧١ لم تحتج اكثر من نصف عقد . ففي عام ١٨٧٦ ، وعندما كانت المحاكم العسكرية لا تزال تقوم بعملها الدموي ، وبينما حماة العامية لا يزالون يسقطون صرعى رصاص فرق الاعدام ، انعقد اول مؤتمر عمالي في باريس . صحيح ان المؤتمر لم يكن اذ ذاك سوى اشارة ، اذ انعقد تحت رعاية البورجوازيين الجمهوريين الذين سعوا الى دعم العمال ضد ملاك الاراضي الاقطاعيين، ولم يشر الا الى شؤون تعاونية لا ضير فيها . غير انه كان من الواضح ان الامور لن تتوقف عند هذا الحد . فقد تطورت الصناعة الميكانيكية الثقيلة ، التي كانت قد بدأت في النمو بعد توقيع الاتفاقية التجارية مع انجلترا عام ١٨٠٣ ، بعد عام ١٨٧١ بسرعة اكبر بكثير . وكان عليها ان تواجه مهاما ضخمة : ان تصلح الاضرار التي الحقتها الحرب البروسية ــ الفرنسية بمناطق واسعة ، وأن تراكم من رأس المال ما يسمح باعادة بناء العسكرية مرة اخرى وعلى نطاق اوسع بكثير ، وأن تعوض في النهاية النقص الذي احدثته خسارة الالزاس ، اكثر مقاطعات فرنسا تصنيعا ، عام ١٨٧٠ . اثبتت الصناعة الثقيلة انها قادرة على القيام بالمهام الملقاة على عاتقها ، فقد انبثقت المصانع في طول البلاد وعرضها ، ومعها نشأت بروليتاريا حديثة ، في حين ان البروليتاريا الصناعية لم تكن موجودة في ايام الاممية الاولى الا في بعض مدن شمال ــ شرقي فرنسا .

مكنت هذه الظروف جوّل غيد من النجاح ، فاندفع بفصاحة نارية يؤجج حركة الطبقة العاملة التي ابتدأت ثانية بعد مؤتمر باريس عام ١٨٧٦ . كان غيد قد تحول عن الفوضوية حديثا ، ولم يكن يتميز باي وضوح نظري كما يبدو واضحا من مقالاته في «ايغاليتيه» التي اسسها عام ١٨٧٧ . وعلى الرغم من ان «راس المال» كان قد ترجم الى الفرنسية ، الا انه لم يكن يعرف عن ماركس شيئا ، ولم يلتفت الى نظريات ماركس الا بعد ان نبهه كارل هيرش اليها . لكنه كان قد التقط بشكل كامل فكرة الملكية المشتركة للارض ولوسائل الانتاج ، واستطاع بفضل فصاحته البارعة استثارة الطبقة العاملة الفرنسية الى جانب هذين المطلبين بوصفهما الكلمة الاخيرة في النضال الطبقي البروليتاري ، على الرغم من انهما كانا يقابلان بمعارضة شديدة من جانب المندوبين الفرنسيين في كل مؤتمرات الاممية القديمة .

وفي مؤتمر ثان عقد في ليون في شباط ١٨٧٨ ، ولم يكن يقصد به منظموه غير ان يكون تكرارا لمؤتمر باريس ، نجح غيد في جمع اقلية من عشرين مندوبا تحت رايته . وهنا بدأت الامور تصبح خطيرة في نظر البورجوازية والحكومة ، فبدأت اضطهادات حركة الطبقة العاملة ثانية ، واجبرت صحيفة «ايغاليتيه» على التوقف عن الصدور بفرض الغرامات الضخمة عليها وسجن محرريها . لكن غيد وانصاره لم ييأسوا ، بل استمروا في العمل بعزيمة صلبة حتى استطاعوا في المؤتمر العمالي الثالث ، الذي انعقد في مرسيليا في تشرين الاول عام ١٨٧٩ ، الحصول على اغلبية اصوات المندوبين ، فقاموا على الفور بانشاء فيدرالية اشتراكية للاعداد لتنظيم النضال السياسي . وعادت «ايغاليتيه» الى الحياة ثانية لتجد في لافارغ مساهما قيما يكتب جميع مقالاتها النظرية . وبعد ذلك بقليل ، بدأ مالون وهو ايضا باكونيني

سابق اصدار صحيفة «ريفيو سوسياليست» التي دعمها ماركس وانغلز بالمقالات من حين لآخر .

وفي ربيع عام ١٨٨٠ ، ذهب غيد الى لندن ليصيغ برنامجا انتخابيا للحزب الاشتراكي الشاب بمساعدة ماركس وانغلز ولافارغ . فتم التوصل الى اتفاق على ما دعي ببرنامج الحد الادنى ، الذي تضمن مقدمة قصيرة تشرح الهدف الشيوعي النهائي للحركة لينتقل بعد ذلك في قسمه الاقتصادي الى ايراد مطالب كانت تنجم مباشرة عن اوضاع حركة الطبقة العاملة بشكلها الراهن . ولا شك في انه لم يكن هناك اتفاق كامل بشأن كل نقطة من النقاط ، فعندما أصر غيد على ان يحتوي البرنامج على مطلب بتحديد الحد الادنى للاجور قانونيا ، قال ماركس بصرامة انه اذا كانت الطبقة العاملة الفرنسية لا تزال من الطفولة بما يجعلها بحاجة الى طعم كهذا ، فان الامر كله لا يكاد يستحق صياغة برنامج .

غير ان الامور لم تكن على هذا النحو من السوء ، فقد اعتبر ماركس بشكل عام ان البرنامج خطوة عظيمة على طريق تحرير العمال الفرنسيين من الكلامية المتخبطة ووضعهم على اساس واقعي ، وتوصل عبر المعارضة التي لقيها البرنامج والموافقة التي حصل عليها الى الاستنتاج ان اول حركة حقيقية للطبقة العاملة في فرنسا قد بدأت تنمو . ففي رأيه انه لم يكن في فرنسا حتى ذلك الحين غير شيع يصيغ شعاراتها عصبويون ، بينما ظلت جماهير البروليتاريا مترفعة تلحق بالبورجوازية الراديكالية او شبه الراديكالية ، فتقاتل ببطولة من اجل هذه البورجوازية لتجد نفسها في اليوم التالي وقد ذبحها اولئك الذين دفعت بهم الى سدة الحكم . ولذا كان ماركس موافقا تماما على عودة صهريه الى فرنسا حالما سمح لهم بذلك العفو العام عن اعضاء العامية والذي انتزع من الحكومة انتزاعا . فعاد لافارغ ليعمل مع غيد ، بينما احتل لونغيه موقعا نافذا في صحيفة «لا جوستيس» الناطقة بلسان كليمنصو الذي كان على رأس اليسار المتطرف .

كانت الحالة في روسيا مختلفة ، ولكنها كانت اكثر مواتاة من وجهة نظر ماركس . فقد كان «رأس المال» يقرأ ويلقى التقدير في روسيا اكثر من اي بلد اخر ، وخاصة في عالم العلم والادب الشاب الذي كسب فيه ماركس لنفسه كثيرا من الانصار بل ومن الاصدقاء الشخصيين . غير ان الاتجاهين الرئيسيين في الحركة الجماهيرية الروسية ، وهما حزب ارادة الشعب وحزب التوزيع الاسود ، كانا لا يزالان يجدان آراءه غريبة عنهما تماما . ولقد صاغ ماركس وانغلز المسألة الرئيسية التي كانت مطروحة على هذين الجناحين على النحو التالي : هل يستطيع المجتمع الفلاحي الروسي ، الذي يمثل شكلا منحطا من الملكية المشتركة للارض ، الانتقال مباشرة الى شكل ارقى من الملكية الشيوعية ، ام يتعين عليه ان يجتاز عملية التحلل ذاتها التي شهدها التطور التاريخي في الاقطار الاوروبية الغربية ؟

اعطى ماركس وانغلز «الجواب الوحيد الممكن اليوم» في مقدمتهما لترجمة روسية جديدة للبيان الشيوعي قامت بها فيرا زاسوليتش : «اذا اعطت الثورة الروسية اشارة البدء لثورة عمالية في الغرب ، كي تكمل الثورتان بعضهما ، فان

الملكية الجماعية القائمة في روسيا يمكن ان تكون نقطة البدء في تطور شيوعي» .
وتفسر وجهة النظر هذه الدعم الحار الذي كان ماركس يمنحه لحزب ارادة الشعب، الذي كانت سياسته الارهابية قد جعلت القيصر عمليا سجينا للثورة في قصره ، بينما كان يشجب بشدة حزب التوزيع الاسود لانه يرفض كل اشكال العمل السياسي والثوري ويقتصر على الدعاية ، على الرغم من ان رجالا مثل اكسلرود وبليخانوف عملوا كل ما في وسعهم لحقن حركة الطبقة العاملة الروسية بروح الماركسية كانوا اعضاء في الحزب الثاني .

وفي النهاية ، بدأ الفجر يبزغ في انجلترا ايضا . ففي عام ١٨٨١ ظهر كتاب صغير بعنوان «انجلترا للجميع»، كتبه هايندمان ومثل برنامج الفيدرالية الديمقراطية، التي كانت قد تأسست لتوها من جماعات انجليزية وسكوتلندية مختلفة نصف بورجوازية نصف بروليتارية . وكانت الفصول المتعلقة بالعمل ورأس المال مقتطفات حرفية من «رأس المال» او تلخيصا لافكاره ، لكن هايندمان لم يذكر لا الكتاب نفسه ولا مؤلفه ، مكتفيا بايراد ملاحظة في نهاية المقدمة تقول انه مدين لمفكر عظيم وكاتب اصيل بالآراء والكثير من المادة الواردة في الكتاب . سببت هذه الطريقة في معاملة كتاب ماركس بعض الانزعاج له ، ومما زاد في هذا الانزعاج الطريقة التي حاول هايندمان ان يبرر الامر بها : اسم ماركس «مكروه جدا» ، الانجليز لا يحبون ان يعلمهم اجانب ، وما الى ذلك من الاعذار الشبيهة . وعندئذ قطع ماركس كل علاقة له بهايندمان .

غير ان ماركس سر سرورا عظيما لمقالة عنه كتبها بلفورت باكس في السنة ذاتها في احدى المجلات الشهرية . صحيح انه وجد معظم المعلومات عن سيرته خاطئة ، ووصف مبادئه الاقتصادية مشوشا وخاطئا في كثير من المناحي ، ولكنه قدر للمقالة كونها اول مقالة انجليزية من نوعها تملؤها الحماسة للافكار الجديدة . وقد احدث ظهور المقالة ، التي اعلن عنها وبحروف كبيرة على جدران وست إند ، صدى عميقا .

قد يبدو ان الرجل الحديدي الذي لم يكن ليهتم في كثير او قليل للمديح او اللوم ، قد اصيب بنوبة خفيفة من الرضى عن النفس ، في رسالة بعث بها الى سورج . وفي الحقيقة كان هذا امرا يمكن للمرء ان يجد له الكثير من العذر . ولكن الرسالة كتبت في لحظة عاطفة جياشة ، كما تدل على ذلك خاتمتها : «اهم ما في الامر انني تسلمت نسختي في ٣٠ تشرين الثاني ، مما جعل الايام الاخيرة لزوجتي اكثر مرحا بقليل . انت تعرف الاهتمام العاطفي الذي كانت تبديه نحو امور كهذه».
لقد ماتت السيدة ماركس في ٢ كانون الاول عام ١٨٨١ .

٥ ـ الشفق

بينما كانت السحب تنقشع بالتدريج في السماء السياسية والاجتماعية في كل مكان ـ وهذا ما كان الامر الرئيسي بالنسبة لماركس على الدوام ـ تلبدت سماء

ماركس وسماء بيته بسحب الغسق اكثر فاكثر . فعندما اغلقت القارة الاوروبية في وجهه ، فلم يعد يستطيع زيارة المنتجعات التي كانت تسبب لصحته بعض التحسن ، ازدادت آلامه الجسدية سوءاً فجعلته غير قادر على العمل . فمنذ عام ١٨٧٨ لم يستطع ان يفعل شيئا ليكمل كتابه ، وفي الوقت ذاته بدأ قلقه المضني على صحة زوجته .

كانت السيدة ماركس قد تمتعت بالفترة الاخيرة من حياتها بالصفاء السعيد الذي كان يسم طبيعتها الطيبة . وكتبت الى آل سورج ، الذين كانوا قد فقدوا ابنين شابين معزية تقول : «اعلم جيدا كم هو الامر رهيب ، وكم من الوقت يمضي قبل ان يجد المرء العزاء بعد خسارة كبيرة كهذه . لكن الحياة اليومية بمباهجها الصغيرة ومتاعبها الكبار ، بقلقها وعذاباتها ، تهب لنجدتنا ، وبالتدريج تقضي متاعب اللحظة على العذاب الكبير حتى ليكاد القلق العنيف يمضي دون ان يلاحظ . لان لان جراحا كهذه تشفى تماما ، وهي بالتأكيد لا تشفى خاصة في قلب الأم ، ولكن المرء يستعيد بالتدريج تفتحه بل وحتى حساسيته لعذابات جديدة ومباهج جديدة ، ويمضي المرء في العيش بقلب مكسور ، ولكنه آمل ، الى ان يتوقف القلب الى الابد ويأتي السلام الابدي» . من يستحق موتا سهلا هنيئا كتلك المرأة الشهمة الصبور ؟ لكن حظها لم يكن كذلك ، بل كان عليها ان تعاني مرة ثانية عذابا محضا قبل ان تأزف نهايتها .

في خريف عام ١٨٧٨ اخبر ماركس سورج ان زوجته «مريضة جدا» ، وكتب بعد ذلك بسنة : «لا تزال زوجتي مريضة بشكل خطر ، وانا نفسي لا اكاد اقوى على الوقوف» . ويبدو انه اتضح بعد طول شك ان السيدة ماركس تعاني من سرطان لا شفاء له سيأتي بنهايتها بالتدريج يصحبه الكثير من الالم والعذاب . ولا يستطيع المرء تصور المعاناة التي قاساها ماركس اثناء ذلك ، الا اذا وعى عظم الدور الذي لعبته زوجته في حياته. اما هي فقد تحملت الآلام بشجاعة اكثر من زوجها وعائلتها. فقد كانت تكظم ببطولة كل امارات الالم لتبدي على الدوام وجها صافيا . وفي صيف عام ١٨٨١ ، وفي وقت كان المرض فيه قد اصبح متقدما ، استجمعت من الشجاعة ما يكفي لزيارة ابنتيها المتزوجتين في باريس . ولما كانت حالتها ميئوسا منها فقد سمح لها الاطباء بتجشم مخاطر الرحلة . فكتب ماركس الى ابنته السيدة لونغيه في حزيران ١٨٨١ يخبرها بمقدمهما : «اجيبي في الحال ، لان ماما لن تغادر لندن الا بعد ان تعلم ماذا تريدينها ان تجلب لك . انت تعلمين انها تحب ان تفعل هذه الاشياء» . مرت الرحلة بسلام بقدر ما كان ذلك ممكنا للسيدة ماركس ، اما ماركس فقد عانى عند عودتهما من نوبة مرضية عقدها التهاب شعبي وبداية التهاب رئوي . كان ذلك مرضا خطيرا ، ولكن ماركس استطاع التغلب عليه بفضل العناية الفائقة والاهتمام البالغ الذي تلقاه على يدي ابنته اليانور ويدي لينشن ديموث . كانت تلك اياما حزينة ، فكتبت اليانور : «امي تستلقي في الغرفة الامامية الكبيرة ، اما المغربي (ماركس) فيستلقي في الغرفة الصغيرة المجاورة . الاثنان اللذان اعتادا على بعضهما واصبحت حياتهما مرتبطة ارتباطا لا ينفصم ، لم يعودا يستطيعان ان

يكونا في الغرفة ذاتها ... تغلب المغربي على مرضه مرة اخرى . لن انسى ابدا ذلك الصباح الذي شعر فيه بقوة كافية فنهض وذهب الى غرفة والدتي . كانا كما لو انهما عادا شابين من جديد ــ هي فتاة عاشقة وهو شاب متقد يبدآن حياتهما معا ، وليسا رجلا عجوزا هدّه المرض وسيدة محتضرة يودعان بعضهما الوداع الاخير» .

وعندما توفيت السيدة ماركس في ٢ كانون الاول ١٨٨١ ، كان ماركس لا يزال مريضا ، فمنعه الطبيب من مرافقة زوجته في رحلتها الاخيرة . فكتب الى ابنته السيدة لونغيه : «خضعت لاوامره ، لان والدتك العزيزة عبرت قبل موتها بأيام عن رغبتها في ان لا تكون هناك جنازة ، وقالت : «نحن لا نعلق اية اهمية على المظاهر. كان عزاء كبيرا لي ان تقضي بسرعة . فكما تنبأ الطبيب ، اتخذ المرض شكل انهيار عام ، كما لو ان سببه الشيخوخة . وحتى في الساعات الاخيرة ، لم يكن هناك صراع مع الموت ، بل انزلاق بطيء الى النوم ، وكانت عيناها اكبر ، وأجمل وأكثر لمعانا من اي وقت مضى» .

تكلم انغلز على قبر ييني ماركس ، فتحدث عنها باحترام واعجاب عميقين كرفيق مخلص لزوجها ، واختتم كلمته قائلا : ليست بي حاجة الى التحدث عن فضائلها الشخصية . فاصدقاؤها يعرفونها ولن ينسوها ابدا . اذا كان هناك من امــرأة سعادتها الكبرى هي جعل الاخرين سعداء ، فقد كانت هي تلك المرأة» .

٦ ــ السنة الاخيرة

عاش ماركس بعد زوجته باكثر من سنة بقليل ، ولكن هذه الفترة لم تكن في الحقيقة اكثر من «موت بطيء» فقد كان انغلز على حق عندما قال بأسى يوم توفيت السيدة ماركس : «لقد مات المغربي ايضا» .

كان الصديقان مفترقين طوال الجزء الاكبر من هذه الفترة القصيرة ، وتصور مراسلاتهما كيف مرت السنة الاخيرة بعظمة حزينة ، ولا شك في ان هذه المراسلات مؤثرة جدا لما تحتويه على تفاصيل تغلب المصير المحتم لكل البشر على روح ماركس.

كان كل ما يزال يربطه بالحياة هو تلك الرغبة الحارقة في تكريس ما تبقى من قوته للقضية العظيمة التي كرس لها كل حياته . فكتب الى سورج في ١٥ كانون الاول يقول : «لقد خرجت من مرضي الاخير مقعدا بصورة مزدوجة : معنويا بسبب وفاة زوجتي ، وجسديا بسبب احتقان الغشاء الرئوي وازدياد حساسية الشعيبات الهوائية . ولسوف اخسر قدرا من الوقت قبل ان استطيع استعادة صحتي» . استمر هذا القدر من الوقت حتى نهاية حياته، فقد فشلت كل المحاولات لانقاذ صحته.

ارسله الاطباء اولا الى فنتنور على جزيرة وايت ثم الى الجزائر ، فوصل الى الجزائر في ٢٠ فبراير عام ١٨٨٢ ، ولكن اصابته نوبة من ذات الجنب بفعل برد اصابه خلال الرحلة . وزاد الامر سوءاً ان الشتاء والربيع كانا ابرد وأكثر رطوبة من العادة . ولم يكن حظه في مونت كارلو افضل من ذلك ، فقد وصل اليها في ٢ ايار، مصابا مرة اخرى بنوبة من ذات الجنب بسبب برودة الرحلة وصادف هناك طقسا

سيئا باستمرار .

ولم تبدأ صحته بالتحسن قليلا الا بعد ان ذهب في اوائل تموز للاقامة مع ابنته السيدة لونغيه في ارجنتييه . ولا شك في ان دفء الحياة العائلية ساعده كثيرا ، كذلك اقبل على شرب المياه الكبريتية من منتجع اينفين القريب لشفاء التهاب الشعيبات المزمن . وبعد ذلك قضى ستة اسابيع مع ابنته لورا على شواطىء بحيرة جنيف ، وساعد ذلك ايضا على تحسن صحته ، فبدا عندما عاد الى لندن ثانية في ايلول انه استعاد قواه ، فكان احيانا يتسلق هامبستيد هيث التي ترتفع عن بيته ۳۰۰ قدم دون ان تبدو عليه علامات ارهاق .

عندئذ قرر ان يستأنف عمله ، ومع أن الاطباء منعوه من البقاء في لندن ، الا انهم سمحوا له بالاقامة على الشاطىء الجنوبي . وعندما جاء ضباب تشرين الثاني ذهب الى فنتنور ثانية ، ولكنه وجد هناك ضبابا وطقسا رطبا كالذي وجده في الجزائر ومونت كارلو في الشتاء السابق . فأصابه البرد ثانية ، وبدلا من ان يتمتع بالمشي في الهواء الطلق ، اضطر الى ملازمة غرفته وبدأت قواه تضمحل . فكان مستحيلا عليه القيام بأي عمل علمي ، على الرغم من ان اهتمامه بالعلوم كان لا يزال حيا ، حتى تلك العلوم التي لم تكن لها علاقة مباشرة بحقله مثل تجارب ديبريه الكهربائية في معرض ميونيخ الكهربائي . وتبدي رسائله في هذه الفترة قنوطا واكتئابا . وعندما بدأت الآلام المحتمة تظهر على حزب العمال الشاب في فرنسا ، استاء ماركس للطريقة التي يعرض بها صهراه آراءه : «لونغيه كآخر البرودونيين ، ولافارغ كآخر الباكونينيين ، فليأخذهما الشيطان معا» . وفي هذه الفترة قال عبارته التي يسر لها كل المنافقين: بقدر ما يتعلق الامر بي، فأنا بالتأكيد لستماركسيا.

وفي ١١ كانون الثاني ١٨٨٣ تلقى الضربة القاضية الاخيرة بوفاة ابنته ييني ، فعاد في اليوم التالي لندن يعاني من نوبة حادة من الالتهاب الشعيبي ، سرعان ما عقدها التهاب اصاب حنجرته ، وجعل من الصعوبة عليه ابتلاع الطعام ، فصار يشرب الحليب الذي كان يكرهه طيلة حياته . وفي شباط اصابه خراج في الرئة . وبدأ يضمحل من يوم لآخر ، ولكن الاطباء لم يفقدوا الامل ، اذ قارب الالتهاب الشعيبي على الاختفاء واصبح التهاب الحنجرة أخف . لكن النهاية جاءت فجأة ، ففي عصر ١٤ اذار ١٨٨٣ ، وبينما كان يجلس على كرسي مريح ، لفظ كارل ماركس اخر انفاسه بهدوء ودون الم .

ورغم الحزن الذي اصاب انغلز للخسارة التي لا تعوض ، الا انه وجد في الامر بعض عزاء . «ربما كان يمكن للمهارة الطبية ان تجعله يجرجر حيا بضعة سنوات اخرى ، فيعيش حياة معقد محتضر ، ليموت لا فجأة ولكن إنشا اثر آخر ، لتهنأ بذلك مهنة الطب . ان يعيش ماركس وقدر كبير من العمل لم ينته بعد ، ورغبة حارقة في اتمامه تعذبه دقيقة فدقيقة وهو يعرف انه لن يستطيع اتمامه ، ان هذا امر أشق عليه بكثير من الموت الذي اخذه» .

وفي ١٧ اذار دفن كارل ماركس الى جانب زوجته . ولم يجر اي احتفال جنائزي ، بل وقف على القبر بضعة اصدقاء فقط : انغلز ولسنر ولوخنر ، رفاقه

القدامى في العصبة الشيوعية ، لافارغ ولونغيه من فرنسا وليبكنشت من المانيا . وكان العلم ممثلا باثنين من ابرز وجوهه الكيميائي شورلمر وعالم البيولوجيا راي لانكستر.

ان كلمات الوداع التي خاطب بها انغلز رفيقه تلخص بكلمات بسيطة ما كانه ماركس وما سيظله بالنسبة للجنس الانساني ، ولذا فان من المناسب ان نختتم بها هذا الكتاب :

«كما اكتشف داروين قانون التطور في الطبيعة العضوية ، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور في التاريخ الانساني ، تلك الحقيقة البسيطة التي كانت مخفاة تحت اكوام من الايديولوجيات : ان الانسان يجب أن يأكل ويشرب ويجد مأوى ويلبس قبل ان يلتفت الى السياسة والعلم والادب والدين ، ولذا فان انتاج وسائل الحياة المادية المباشرة وبالتالي التطور الاقتصادي لشعب او لفترة يشكل الاساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة والمبادىء القانونية والفن وحتى الافكار الدينية ، وعلى هذا الاساس يجب ان تفسر هذه جميعا ، وليس العكس كما كان يجري من قبل .

«ولكن ليس هذا فحسب ، لقد اكتشف ماركس القانون الخاص لتطور نمط الانتاج الراسمالي الراهن ونظام المجتمع البورجوازي الذي يقوم عليه . فقد سلط الضوء فجأة باكتشاف فضل القيمة على الظلام الذي كان يتخبط فيه كل الاقتصاديين الاخرين ، بورجوازيين واشتراكيين .

«ان اكتشافين كهذين يكفيان اية حياة ، بل محظوظ هو من يتيسر له ان يقوم باكتشاف واحد ، ولكن ماركس قام باكتشافات مستقلة في كل حقل قام بالبحث فيه ، حتى في حقل الرياضيات . «لقد كان هذا الرجل رجل علم ، ولكن ليس ذلك فحسب . كان العلم بالنسبة لماركس قوة تاريخية وثورية خلاقة . وبقدر ما كان سروره عظيما عندما يتم اكتشاف جديد في هذا الحقل او ذاك من حقول العلم النظري ، وان لم تكن نتائج هذا الاكتشاف العملية منظورة بعد ، كان سروره اعظم عندما يتم اكتشاف يؤثر مباشرة على التطور الصناعي او التطور التاريخي ككل بطريقة ثورية . فهو مثلا تتبع عن كثب تطور الاكتشافات في حقل العلم الكهربائي .

«ذلك ان ماركس كان ثوريا قبل كل شيء ، وكان هدفه الكبير في الحياة هو المساعدة بهذا الشكل او ذاك على الاطاحة بالمجتمع الراسمالي ومؤسسات الدولة التي خلقها ، ان يساعد على انعتاق البروليتاريا ، التي كان اول من منحها وعيا لوضعها الطبقي واحتياجاتها الطبقية ، ومعرفة للشروط الضرورية لانعتاقها . ولقد كان في هذا النضال يقاتل بحماسة وتماسك ونجاح لم يحصل عليه غير القلائل . اولا «راينيخه تزايتونغ» في ١٨٤٢ ، ثم «فوروارتز» في باريس عام ١٨٤٤ ، و«دويتشه بروسلر تزايتونغ» عام ١٨٤٧ ، و«نيو راينيخه تزايتونغ» من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٤٩ ، و«نيويورك تريبيون» من عام ١٨٥٢ الى عام ١٨٦١ ــ وبعد ذلك ثروة من الكتابات السجالية ، والعمل التنظيمي في باريس وبروكسل ولندن ، وفي النهاية الرابطة الاممية للرجال العاملين لتتوج هذا كله . وفي الواقع كان هذا وحده يستغرق حياة كاملة يحق لصاحبها ان يفتخر بها ولو لم يفعل شيئا غير ذلك .

«ولذا كان ماركس اكثر رجل كره وطعن فيه في عصره . فقد طردته الحكومات، مطلقة وجمهورية من اراضيها ، بينما تنافست البورجوازية ، محافظة وديمقراطية، في حملة التشهير به . ولكنه تجاهل هذا كله ولم يكن يجيب عليه الا عندما يضطر الى ذلك . ومات ميتة مشرفة ، يحبه ملايين العمال الثوريين من مناجم سيبيريا الى سواحل كاليفورنيا وعبر أوروبا واميركا ، وانني لاجرؤ على القول انه وان كان خصومه كثر الا انه لم يكن له عدو شخصي واحد . سيعيش اسمه عبر القرون ، وكذلك سيعيش عمله» .

لائحة زمنية

١٨١٨ كارل ماركس يولد في ترير .
١٨٣٥ الامتحانات النهائية في ترير .
١٨٣٥-١٨٣٦ تلميذ للحقوق في جامعة بون .
ماركس يخطب ييني فون فستفالن .
١٨٣٦-١٨٤١ تلميذ للحقوق والفلسفة والتاريخ في جامعة برلين . بداية دراسات ماركس الهيغلية . ماركس ينضم الى حلقة الهيغليين الشباب : برونو باور ، روتنبرغ ، ادوارد ماين ، كوبن . المحاولات الادبية الاولى (قصائد) .
١٨٣٨ وفاة والد ماركس .
١٨٤١ التخرج من جامعة يينا .
١٨٤٢-١٨٤٣ ماركس يساهم في تحرير صحيفة «راينيخه تزايتونغ» في كولون ويصبح فيما بعد رئيسا للتحرير . التعاون مع ارنولد روغه .
١٨٤٣ الزواج من ييني فون فستفالن .
١٨٤٣-١٨٤٥ الاقامة في باريس .
١٨٤٤ ماركس يصدر «دويتشه فرانزوسيشه ياربشر» بالتعاون مع روغه ، ويساهم في صحيفة «فورفارتز» في باريس . يدرس الاشتراكية الفرنسية والشيوعية . اللقاء مع هينريخ هاينه وبرودون . الاجتماع الاول مع فريدريك انغلز . دراسات اقتصادية وفلسفية .
١٨٤٥ ماركس يطرد من باريس بتحريض من الحكومة البروسية .
١٨٤٥-١٨٤٨ الاقامة في بروكسل . التعاون مع فريدريك انغلز : «العائلة المقدسة والايديولوجية الالمانية». ماركس يساهم في «غيلشافتسشبيغل» و«وستفاليشل دامبفبوت» و«دويتشه بروسلر تزايتونغ» .
١٨٤٧ ماركس يلتقي بويتلينغ ويجري نقاشات معه . السجال ضد برودون: «بؤس الفلسفة». ماركس ينضم الى العصبة الشيوعية. يلقي محاضرات في الحماية والتجارة الحرة والعمل والاجور وراس المال . يزور لندن لحضور مؤتمر العصبة الشيوعية . ماركس وانغلز يكلفان بكتابة «البيان الشيوعي» .

١٨٤٨ نشر «البيان الشيوعي» . ماركس يطرد من بروكسل . اعادة تنظيم العصبة الشيوعية .

١٨٤٩- ماركس يقيم في كولون ويرئس تحرير «نيو راينيخه تزايتونغ» . الاجتماع مع لاسال وفريليفارث . ماركس يزور فيينا ويحاضر في رابطة عمال فيينا .

١٨٤٩ المحلفون يبرئون ماركس في كولون من تهمة التحريض على الانتفاضة المسلحة . طرد ماركس من كولون وحظر «نيو راينيخه تزايتونغ» . ماركس يزور باريس ممثلا للديمقراطية الالمانية. ماركس يطرد من باريس.

١٨٤٩-١٨٨٣ المنفى في لندن .

١٨٥٠ انغلز يذهب الى لندن ثم مانشستر . اصدار «نيو راينيخه رفيو» . ماركس يلقي محاضرات لرابطة العمال الثقافية في لندن . موت الابن الاصغر لماركس .

١٨٥٢ وفاة الابنة الصغرى لماركس . ماركس يعمل مراسلا ل «نيويورك تريبيون» (حتى عام ١٨٦١) . ماركس يساهم في الصحف الميثاقية (الشارتية) . حل العصبة الشيوعية . النزاعات مع المهاجرين الالمان . محاكمة الشيوعيين في كولون. «الثامن عشر من بروميير لوي بونابرت».

١٨٥٥ وفاة ابن ماركس .

١٨٥٧-١٨٥٨ المراسلات مع لاسال .

١٨٥٩ نشر «نقد الاقتصاد السياسي». المساهمة في «داس فولك» في لندن.

١٨٦٠ السجال مع كارل فوخت .

١٨٦١-١٨٦٢ المساهمة في «داي برس» في فيينا .

١٨٦١ ماركس يزور برلين ويجتمع بلاسال .

١٨٦٤ تأسيس الرابطة الاممية للرجال العاملين (الاممية الاولى) . ماركس يضع الخطاب الافتتاحي للاممية .

١٨٦٥ الشقاق مع منظمة «الغماينه دويتشه ارباتير فيرن» بعد فترة قصيرة من التعاون مع صحيفة «سوسيال ديمقراط» التي كان يصدرها شفايتزر . محاضرات في «القيمة والاسعار والارباح» . مؤتمر الاممية في لندن .

١٨٦٦ المجلس الاول للاممية في جنيف .

١٨٦٧ نشر المجلد الاول من «رأس المال» . المجلس الثاني للاممية في لوزان.

١٨٦٨ المجلس الثالث للاممية في بروكسل . باكونين يؤسس التحالف الاممي للاشتراكية الديمقراطية .

١٨٦٨-١٨٦٩ تنامي حركة الاضراب في اوروبا الوسطى والغربية .

١٨٦٩ مؤتمر حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الالماني في ايزناخ . المجلس الرابع للاممية في بازل .

١٨٧٠ بيان المجلس العام للاممية حول الحرب الفرنسية-البروسية . انغلز يقيم في لندن .

١٨٧١ عامية باريس . بيان المجلس العام للاممية : «الحرب الاهلية في فرنسا» . المؤتمر الثاني للاممية في لندن. التعاون مع «ديرفولكشتات» في ليبزيغ .

١٨٧٢ مجلس الاممية ينعقد في لاهاي . طرد باكونين من الاممية . المجلس العام للاممية ينقل الى نيويورك . خطاب ماركس في امستردام .

١٨٧٣ ماركس يمرض مرضا خطيرا .

١٨٧٥ اندماج حزبي العمال الالمانيين في غوتا . «نقد برنامج غوتا» .

١٨٧٧ ماركس يساعد انغلز في اعداد «ضد ووهرنغ» .

١٨٧٨ اعلان القوانين المعادية للاشتراكية في المانيا .

١٨٧٩-١٨٨٣ ماركس يقع مريضا .

١٨٨١ وفاة السيدة ماركس .

١٨٨٢ ماركس يستشفي في الجزائر وفرنسا . وفاة ييني ابنة ماركس .

١٤ آذار ١٨٨٣ وفاة كارل ماركس .

١٨٨٥ نشر المجلد الثاني من «راس المال» .

١٨٩٤ نشر المجلد الثالث من «راس المال» .

١٨٩٥ وفاة فريدريك انغلز .

فهرست

هذا الكتاب

... وجاء ماركس فملأ الدنيا وشغل الناس . ولهذا سمي هذا العصر ، عصر الانتقال مما قبل التاريخ إلى التاريخ الانساني حيث حقاً لا شيء يمكن ان يوجد باستقلال عن ارادة الانسان ، عصر ماركس .

نادرة جداً هي الكتب الجيدة المتوفرة بالعربية التي تحلل عصر ماركس تحليلاً نقدياً ، باستثناء كتاب لينين « ماركس ، انجلز والماركسية » ثم كتاب كورنو الذي صدر الجزء الأول منه مؤخراً .

هذا الكتاب يأتي ليملأ فراغاً لم يملأه الكتابان السابقان . فهو تحليل يجمع بين البساطة والدقة والشمول للصراع الطبقي في القرن التاسع عشر ، وللايديولوجيات الثورية للفلاسفة الثوريين (هيجل، برودون، فورييه، سان سيمون) الذين نطاهم مارك بظله . كما يحلل المنطلقات الجوهرية لنظرية ماركس الما التاريخية الجدلية والثورية .

« كارل ماركس تاريخ حياته ونضاله » كتاب اساسي ثوري عربي يريد تغيير نفسه وتغيير العالم المتعفن يعيش فيه .

«ماركس كان قبل كل شيء ثورياً» انجلز .

٩٠٠ ق. ل
١٢٠٠ ق.س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت